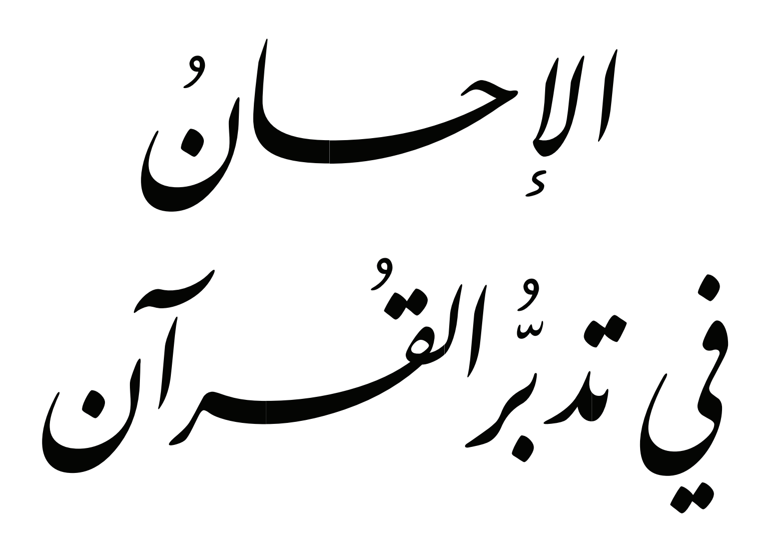
الإحسان في تدبر القرآن

حقوق الطبع والطبعة
ومعلومات الدار الناشرة



سليمان سامي الجوخدار







«**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**» [صحيح البخاري: ٣١١٩].



مقدمة المؤلف
الإحسان في تدبر القرآن

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٤/ ٨٢]

هذا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى ـ نقلة نوعية بالتعامل مع القرآن الكريم و فهم الإسلام.

وهو نظرة مستقبلية و للمدى البعيد.

موضوعه مثل عنوانه: حسن تدبّر القرآن الكريم.

كلمة الإحسان تشير إلى الحديث الشريف الذي يعتبر الإحسان مقاماً و درجة عالية في العبادة.

الإحسان هو : «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فـ«كأنك تراه» تعني الشهود، و إذا وصل الشخص إلى مرتبة الشهود، فإنه يشهد بحقيقة الأمر، كذلك إذا تدبر القرآن وصل تماماً إلى هذه الدرجة.

كلمة الإحسان إشارة إلى كلّ الكلمات المبنية على جذر «حَسَنَ» في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٦] والحسنى هي الجنة،

وكذلك هو إشارة إلى أسمائه الحسنى جَلَّجَلَالُهُ كما في قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٠].

القرآن الكريم مجال مقدّس وعلى درجة عالية ، إذ إنه كلام ربّ العالمين في كتابه الذي أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

بذلك فإنه يستحيل الشروع في التعرّف على القرآن الكريم و تدبّره، قبل تخليص النفوس و العقول مما تسرّب إليها من شوائب و أخطاء، تمنع أو تعرقل الاقتراب منه و تحجب نوره.

مما يقتضي أن يطهّر المرء نفسه و ثيابه و ما معه بما يليق، قبل الدخول في مجال مقدس.

و السؤال كيف لنا أن نفسر القرآن الكريم، و عقول الكثيرين ملأى بمفاهيم مغلوطة تحجبهم عنه؟! كيف؟

كيف لنا أن يقال شيء و يفهم شيء آخر؟

كيف لنا أن نتفاهم؟

بناءَ عليه؛ كان لا بدّ قبل البدء في التفسير من تخليص النفوس من كل ما يعيقها؛ للدخول بخطوات في رحاب القرآن الكريم و بالشكل الأمثل وتبيان نقطة لا يفهمها كثيرٌ من الناس ،أنه من التجربة يتضح أن لا مكان للحلول الآنية مع القرآن الكريم؛ أي لا مجال فيه للترميم أو الحلول المؤقتة الآنية إطلاقاً.

لا يمكن ترميم الأشياء التي هي أصلاً مربكة فلابد لفهمه من حلول جذرية.

الحلول الجذرية تحتاج إلى بُعد نظر؛ لأن من يخطط لأربعين أو ستين سنة تفكيره مختلف عن تفكير الناس.

هذا الكتاب عبارة عن نظرة مستقبلية و للمدى البعيد.

وهو مشروعٌ ضخمٌ جداً فيه **بُعدُ المرمى.**

قبل فترة كان لي نقاش مع شخص يعيش في أوربة، كان يتكلم عن أمور كثيرة، وقتها قال لي: «لم يكن الشيطان في حياته بهذه القوة أبداً مثلما هو الآن عليه». فأجبته: «لا، و إنما في حياته لم يكن بهذا **الاستفزاز والإغواء**».

لا، الشيطان ليس قوياً، كيده ضعيف.

هناك فرق كبير،

فرق كبير و جذري بين كيده وبين استفزازه و دأبه لضلال الناس

كيده ضعيف، هكذا قال عنه ربّ العالمين: ﴿...إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ٧٦]، لكنه على أشد ما يكون من دأب **لإغواء و إضلال** ذرية آدم.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٢-٨٣].

سبحان اللّه، **نجاحه بضعف الناس وبعدهم عن الله سبحانه و تعالى.**

المهم، قال لي ذاك الشخص: «لديّ إحساس أني لم أعد أستطيع أن أكلم الناس. كلهم ضائعون و لا يرون و لا يسمعون...

(فتذكرت إحدى لوحاتي: «نظرة من العالم الآخر»)، قال لي: إنه يشاهد فظائع و لا يستطيع أن يتكلم، يرى الزواج المثلي، و الانحلال الخلقي و غيره... يشاهد و لا يستطيع أن يتكلم.

لا أحد يسمع له، و لا أحد يفهم عليه.

هذا الكتاب، من نمط الحلول الجذرية للإشكالات السابقة وغيرها، ولكن يحتاج من القارئ أن يفهم تماماً ما هو المقصد؛ **فالمرمى بعيد جداً وهو عملية إصلاح جذرية.**

الكتاب ليس من النوع الذي يهمل مسألة فلا يعيرها اهتماماً، لكن بعد ثلاثين سنة تصبح مصيبة كبيرة، فلا نتركها. مثل تسرب لقطرة ماء في مبنى لا أحد يكترث لها. أما من لديه نظرة و خبرة فيرى أن هذه القطرة إن تركت فمع الزمن قد تتسبب بخراب المبنى بأكمله.

النص مصمم بهذه الطريقة، بحاجة لمن يفهمه.

الناس معتادون على حلول يريدون منها نتائج آنية سريعة. لكن النتائج الآنية السريعة تبقى آنية؛ يعني مفعولها آني، سوف يعود الوضع لاحقاً لما كان عليه.

أما من لديه رؤية فيقول: لماذا نأخذ هذا الطريق؟ و إلى أين يوصلنا.؟ لنأخذ طريقًا آخر وسترون إلى أين يوصل.

قد يعتقد الناس أنه طويل ولكنه بالواقع قصير؛ لأنهم لا يرون نهاية ذاك الطريق و إلى أين يوصلهم، فنظرهم موجّه إلى غير مكانه، أو نظرهم قريب فلا ينظرون إلى الأفق البعيد.

ما أكثر التصورات التقريبية، إن لم تكن مغلوطة، عن الإسلام و التي يتداولها العالم كله بما فيهم المسلمون أنفسهم.

الفكرة إن أراد شخص قراءة القرآن، فالقرآن يبقى نفسه، و لكن الشيء الذي يفهمه الشخص هو فهمه الذي وصل إليه.

أي إن **فهم الشخص ليس مرتبطاً بالقرآن و إنما مرتبط بعقلية وثقافة الشخص.**

و بالتالي فإن فهم القرآن الكريم من شخص إلى آخر مختلف جذرياً.

كيف نسوّي بين الناس حتى يصعدون جميعاً في فهم القرآن فهماً سليماً، و ليس كلّ واحد على طريقته.

هل من السليم أن يفهم كلّ واحد منهم على طريقته، و يبقى في ذهنه تصورات تؤثر فيه من حيث لا يدري.

فرق كبير بين أن يكون أحدهم متأجّجاً و متوهّجاً بإيمانه بالشيء الذي يقرؤه من القرآن، و بين كونه مجرد مسلِّماً به، و لسان حاله يقول: آمنا و سلمنا، كلام الله لا نناقش.

فأين هذه النفس الكامدة من تلك النفس المتوهجة للشخص الذي يعي و يتدبر الذي يقرؤه؟! هناك فرق جذري.

هذا الكتاب مسلكي ـ والحمد لله ـ ما أردته فيه أن لا يبقى أي تشنج في قلب أي قارئ للقرآن، حول أي مسألة يقرؤها و يمرّ عليها و لكن في خفايا نفسه و أعماقه ليس مهتماً لها.

ما أريده هو أن تسجد نفسه أمام كلّ آية تعظيماً لها. تتمنى نفسه تقبيل أنوار هذه الآية. تتمنى نفسه أن تتحول إلى كلمة حمد لتحمد الله تعالى على هذا الفضل، و ألا يقول: لا بأس سلّمت و في أعماقه ليس مسروراً.

الكتاب لحل الإشكالات واحدة واحدة هذه و تلك و تلك، إلخ.. و أشياء لا يقدّر الشخص قيمتها إلا إن كان ضمن مجتمع ذي ثقافة عالية و طُرح موضوعٌ عن الإسلام، فعندها إن كان مستوعباً لكلامي تماماً، وقتها يفهم لماذا قيل ذلك.

في الكتاب أقوم بتجهيز جمل و أفكار بحيث إذا وُضع الشخص بموقف و طُرح عليه سؤال عن الإسلام أن يعرف كيف يجيب؛ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى؛ الأفكار المطروحة في الكتاب إن طرحت أمام شخص غير مسلم أو شخص اعتنق الإسلام حديثاً؛ فالأمور تصبح أكثر وضوحاً أمامه، أو إن طرحت أمام مسلم أباً عن جد؛ فهي تصحيح للمفاهيم.

أخيراً: من الجدير بالذكر أن هذا الكتاب يحسب حساب قارئ غربي أو غير مسلم يقرؤه، لذا فهو يبيّن أن الإسلام الحالي بعيد كل البعد عن الإسلام الأصيل، و السبب في ذلك هو طريقة طرح الإسلام التي لا تمثل روح و حقيقة الإسلام.

و يبين بسرعة أنه كلما كان المسلم متلقياً دينه عن جهات غير مؤهلة، كلما كان بالواقع بعيداً عن روح الإسلام و حقيقته.

لذا توجد أفكار مبتكرة هي في الحقيقة مقدمة لشخص غربي أو غير مسلم.

عموماً **بُعدُ المرمى** هو النهج الذي اتبعته في هذا الكتاب؛ لذا أعود مؤكداً:

أن الكتاب نظرة مستقبلية و للمدى البعيد. وفيه نقلة نوعية بالتعامل مع القرآن الكريم و فهم الإسلام، إن شاء الله تعالى.

الحمد لله

الحمد لله وسبحانه وتعالى الذي مَنّ علينا بهذا الفضل.

نبذة عن بنية الكتاب

بنية الكتاب، ليست بالصعبة وليست معقدة، و أنصح القارئ عند قراءة الكتاب أن يحدد موقعه من البنية العامة للكتاب، وذلك بالعودة إلى بنية الكتاب لأنها تيسر له مراجعة العناوين كلها، وفيها تذكرة سريعة بمحتوى كل عنوان بشكل ييسر على القارئ معرفة موقعه من الكتاب و تسلسل أفكاره، و تضعه بالصورة العامة للأفكار المطروحة، وهذه طريقة لقراءة الكتاب.

أو يمكن قراءة الكتاب بأن يختار القارئ ما يشاء من مواضيع الكتاب، كل منها على حدة ليقرأها دون أن يلتزم بتسلسلها ولا يهم بأيٍّ منها بدأ، ويمكنه من خلال بنية الكتاب معرفة موقعه ليربط فيما بعد بين مواضيعه، لأن مواضيع الكتاب في كلا الحالين توصل إلى حقيقة واحدة؛ هي إعادة هيبة و عظمة كتاب الله في النفوس و العقول ليجد القارئ نفسه أخيراً في رحاب القرآن الكريم، إن شاء الله تعالى.

عموماً العناوين فيها أمثلة هامة تنفتح على مواضيع أكثر أهمية، ولكن هذه العناوين لا تعبّر كثيراً عن فحواها و محتواها، كمثال على ذلك النص المرعب عن جهنم متواجد تحت عنوان:

القرآن الكريم مجالٌ مقدس كليّ يمتنع أمام أيَّةِ هفوة، لا يحمل هذا العنوان هذا الموضوع ، ولا يجعلك تتوقع هذا الأمر علماً أن هناك كلام خطير عن جهنم..

قد يجد القارئ بعض التفاوت في أسلوب طرح الأفكار، وقد يتغير الأسلوب و النبرة و الإيقاع بين مقطع و آخر أو بين فكرة و أخرى، و ذلك تبعاً للمواضيع المطروحة، و الهدف هو إيصال الأفكار بشكل وديّ و بلغة عصرية ونبرة واضحة. والمهم كما أسلفت أن نصل ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى حقيقة واحدة هي إعادة هيبة و عظمة كتاب الله في النفوس و العقول.

بنية الكتاب

الكتاب مؤلف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول

خطوات باتجاه القرآن الكريم

هي عبارة عن نصوص و بحوث متطوّرة تقدم معلومات دقيقة و موضوعية و موَثَّقة تفيد في معرفة حقيقة القرآن لفهم الإسلام. الغاية منها إنشاء أرضية تفاهم مشتركة مع القارئ.

وهذا القسم فيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: رحمة للعالمين

والذي هو تصحيح للمفاهيم.

هذا الباب و ما فيه من فصول، جولة ثقافية و فكرية عالية، يتم فيها تصحيح مفهوم الإسلام كله.

أقدّم فيها نظرة شاملة و عالمية للقرآن و الإسلام، و تصحيح مفاهيم عامة أساسية لا مهرب منها؛ لأن الإسلام ليس شيئاً محدوداً و إنما موجّه للبشرية كلها.

القرآن و الإسلام بالواقع رحمة، و طبعاً سيدنا النبي رحمة للعالمين.

هذا الباب غني جداً و نصوصه في الواقع هامة و تعليقاته غنية. وهو عبارة عن إعادة جدولة لا غنى عنها للمفاهيم و التصورات عن القرآن و الإسلام و تخليصها من أيّ شائبة أو تشويه؛ أي:

إعادة نظر بنقاط عامة.

الهدف هو **الوصول إلى وضوح تام في الرؤية يفتح المجال لتناول سليم للقرآن.**



من الممتع و المفيد متابعة المنطق المحكم في تسلسل أفكار هذا الباب عبر فصوله و فقراته، والذي يحوي تسع فقرات:

- منظاران للنظر إلى الأمور.
- البشرية و مسألة الدين.
- حقيقة أبدية و واحدة.
- استمرار و تطهير و إكمال للتراث الكوني.
- كافة للناس.
- كمال التوازن .
- سبق الزمن (نص متميز جداً).
- لبشرية بلغت سن النضج و العقل .
- منهج القرآن و الإسلام و فيه السمو بالنفس و السمو بالعقل.

هناك تسلسل منطقي و محكم بين الأفكار، ولكن بالتدريج.

«رحمة للعالمين» عنوان بالواقع ميتافيزيقي metaphysical و فلسفي و عميق جداً.

إذا تم استيعاب هذا الباب جيداً من قِبَل القارئ، فسوف يقول: فعلاً إنه رحمة للعالمين.

هذه الفقرات التسع تحتوي على أفكار هامة جداً و رؤية مستقبلية ضمن عناوين مختلفة، فيها أمور كبيرة وحدها كافية لإعطاء صورة مختلفة جذرياً عن القرآن و عن الإسلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عملية تطهير لكلّ الأفكار المقنعة التي لا بأس بها و لكنها غير صحيحة.

هنا أحاول إيجاد طريقة لتحرير فكر و عقل و نظرة القارئ من كلّ الإعاقات الممكنة، و تحرير نفسه من حجبها.

هناك أمور يستهين الناس بها و لكنها تُؤثر بشكل سلبي جداً في تناول القرآن الكريم؛ منها نقاط حساسة وعجيبة للغاية.

ومثالها تعريف كلمة الإسلام أنها تعني الاستسلام. مسألة فعلاً لا أساس لها هدامة تهدّم كلّ شيء. وبالوقت نفسه الحجة موجودة في القرآن الكريم عند فهمها يُصاب الإنسان بالدوار؛ لأن

الشاهد الوحيد الذي ورد عن الاستسلام هو موضع ذم فلماذا نتشبث به، و بهذا الشكل؟

مثال آخر: التصور عن العرب له تأثير كبير على تناول القرآن الكريم. مقولة أن القرآن نزل لكي يتمكن هؤلاء البداوة من فهمه خطأ فاحش؛ لأن الفهم الخاطئ لهذه الأمور تحجيم للقرآن الكريم، وبالواقع ليس تحجيماً للقرآن بل لأنفسهم و تحجيماً لفهمهم للقرآن الكريم.

أيضاً التصور الشائع عن اللغة العربية كذلك يحجّم النص القرآني كثيراً؛ إذ النص القرآني نص إلهي، اللّه سبحانه و تعالى (حاشاه) صاغه باللغة العربية؛ كي يفهم هؤلاء الناس عليه! هذا غير صحيح إطلاقاً.

إذاً، كيف لامرئ أن يفتح القرآن الكريم و في ذهنه تصورات خاطئة إلى هذه الدرجة.

فالعمل إذاً، هو تداول لكلّ شيء يمكن أن يعيق تناول القرآن و معالجته كي يحصِّل قارئ القرآن أنوار القرآن، و إلا... فإنه لن يرى سوى ظاهر المصحف و لن يحصِّل النور الذي في كتابه الكريم.

الباب الثاني: ما ينبغي معرفته و ما لا يمكن تجاهله:

العنوان معبّر جداً فيه شيء من الدعابة ، و هو تصحيح مفاهيم و لكن لنقاط محددة بالذات قد تُشكل على قارئ القرآن، فتبقى نقاطاً سوداء أو موضع شك أو تردد، وهذا لا يجوز أبداً؛ لأن القرآن هو الكمال المطلق، ولأن الإسلام دين اللّه.

من يريد أن يمسك بالقرآن الكريم فهناك أمور من المفروض أن يعرفها و أمور لا يمكن أن يتجاهلها. في هذه الخطوة:

إعادة نظر بنقاط محددة.

أي وضع النقاط على الحروف و توضيح مفاهيم بحدّ ذاتها، ليست مفاهيم عامة، و إنما مفاهيم محددة بحدّ ذاتها.





ما الذي ينبغي معرفته؟

آ- حقائق:

و فيها:

الحدّ الأدنى مما ينبغي معرفته حول تدوين النص القرآني

تبين لي أن الأمور متداخل بعضها مع بعض لدى معظم المسلمين حول هذه النقطة، و أعداء الإسلام يلعبون كثيراً على هذا الحبل، إلى حد قولهم: إن القرآن هو مصحف عثمان ويسمونه:

Coran according to Othman

قضية مصحف عثمان ... و أن الحفاظ كانوا يموتون و صار الناس يخطئون، فقرر سيدنا عثمان أن تُكتب نسخة، و هذه النسخة نسخت من جلود و عظام وإلخ...

تصور بدائي جداً. لم يكن الأمر هكذا إطلاقاً.

المعلومات الموجودة هنا هي إعادة صياغة للموضوع كله، أيضاً هناك معلومات مهملة لا أحد يذكر سيرتها، أُبرزت! و كلّ شيء أخذ معنى، و بنتيجة البحث صار الموضوع شيئاً آخر مفخرة لنا، لا أحد في العالم يصل إلى دقة و حذاقة هذا العمل الذي تم به جمع القرآن.

الحدّ الأدنى مما ينبغي معرفته عن العرب

لماذا؟ لأنهم يقولون إن الإسلام دين عرب، و هذا غير صحيح.

طلبت من أحد أصدقائي الغربيين أن يناقش في أوربة مع أناس غربيين فكرة أن العرب غير مذكورين في القرآن الكريم وأنَّ الإسلام دين عالمي و كوني، فكانت لهم بمثابة دهشة. سيرة العرب ليست واردة في القرآن الكريم كان لذلك وقع إيجابي في نفوسهم.

هنا إثبات أن الإسلام دين عالمي كوني و ليس الصفة التي يقولونها: إنه دين العرب.

العرب و الأعراب

هناك التباس بين العرب و الأعراب.

العرب ليسوا الأعراب، و شتّان بينهما.

الأميين

لا بد من فهم **حقيقة** أمّية **خاتم النبيين** عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و الأميّين.

من هم هؤلاء الأميين، و ما حقيقة المسألة؟ إلخ...

هناك مصطلح بقدر ما هو شائع بقدر ما هو تافه عند التعرض لشعوب و لغات ما يسمى بالشرق الأدنى، هنا تبيان وشرح هام لها.

لا بد من معرفة أن اللغة العربية ليست كباقي اللغات عبارة عن مصطلحات متفق عليها بين مجموعة بشرية أوجدتها و طورتها، **معرفة حقيقة اللغة العربية أساس لفهم القرآن و فتح آفاق أبوابه اللانهائية.**

هناك ظاهرة نشأت في العالم الإسلامي وهي ما يُسمّى بـ «الإعجاز العددي» في القرآن الكريم. هنا تبيان لهذه الفكرة ولغيرها من أمثال: الإعجاز العلمي، و الإعجاز اللغوي و الإعجاز البياني و آخرها الإعجاز العددي، وكيف أنها ردة فعل على الغزو العسكري و الثقافي الغربي للبلاد الإسلامية.

أما الذي لا يمكن تجاهله فهو:

ب - مصادر:

من يريد أن يفهم القرآن الكريم لا يمكنه أن يتجاهل **المصادر** ، وهي:

- الأحاديث الشريفة المرتبطة بالآيات أو السور.
- أسباب النزول.
- معرفة الناسخ و المنسوخ.
- الكتب التي جمعت معاني الكلمات كما شاع فهمها بين العرب.
- النحو و علومه.
- التفاسير.

هنا أبين ـ و بطريقة مبتكرة جداً ـ أن هذه المصادر مفيدة و لكن هناك مفارقة كبيرة بين العناوين، قد يعتقد القارئ أنها مملّة أو أنها عناوين كلاسيكية و لكن عندما يدخل و يفتح يجد نصاً ممتعاً يرى فيه العجائب، مثالها «النحو و علومه»!!

وهناك مثلاً نص هام و جريء جداً أثيرت فيه أمور كبيرة عن العراق لم تطرق من قبل هو: «الكتب التي جمعت معاني الكلمات كما كان يفهمها العرب» و كذلك بقية النصوص.

إذاً لا يمكن تجاهل **المصادر** في سيرنا باتجاه القرآن الكريم، نحن أمام كمٍّ هائل من المصادر و المراجع، لا يستطيع أحد تجاهلها أو الاستغناء عنها.

الباب الثالث: منهجية تدبّر القرآن الكريم

وهذه الخطوة ضخمة و هامة جداً، كذلك نصوصها دراماتيكية وهي ثلاثة أقسام:

التعرّف على القرآن الكريم

كيفية التعامل مع الكلمة القرآنية

كيفية التعامل مع المواضيع القرآنية

أريد أن أفتح المصحف الشريف، فماذا يجب أن أفعل؟

أ - التعرّف على القرآن الكريم

و ذلك قبل أن يدخل أحد في رحابه يجب أن يأخذ فكرة عن القرآن الكريم و عظمته، للتعرف عليه وذلك من خلال النصوص الموجودة فيه، وهي:

- التدرّج في التعرّف على القرآن الكريم.
- قاعدة ذهبية.
- القرآن الكريم مجالٌ مقدس كليّ يمتنع أمام أيَّةِ هفوة.
- الاستعاذة.
- بنية القرآن الكريم.
- التدرّج في حسن تدبر القرآن الكريم.
- الاهتمام.
- طرح السؤال الصحيح.
- الأهلية.

- الاقتناع.
- مستويات فهم القرآن الكريم.
- الخطوط العريضة للموضوع.
- آية.
- عملياً.
- أدنى مستوى لفهم القرآن الكريم من المستوى الأدنى.
- طبقات فهم القرآن الكريم من المستوى الأدنى.
- طبقات فهم القرآن الكريم من المستوى الأوسط.
- طبقات فهم القرآن الكريم من المستوى الأعلى.
- نافذة نحو اللانهاية.
- لا غنى عن خبرة مرشد.

أول فكرة في التعرّف على القرآن الكريم هي التدرّج في التعرّف على القرآن الكريم، ووعي حقيقة أن المرء لا يمكنه أن يفهم دفعة واحدة و لا حتى كلمة واحدة من القرآن الكريم، كلمة واحدة، لا يمكنه فهمها دفعة واحدة و هو نص بحاجة إلى تركيز شديد.

إذاً، فكرة أساسية هي التدرج في التعرف على القرآن الكريم.

كذلك «بنية القرآن الكريم» نص مليء بالأفكار و قوي جداً.

و هناك نص آخر مجزأ هو «مستويات فهم القرآن الكريم»، و غيره.... كلها أفكار هامة، مثالها فكرة الاقتناع فكرة قوية جداً في محادثة أو مناظرة و فكرة الاهتمام و طرح السؤال الصحيح، إلخ... و كل النصوص الموجودة للتعرف على القرآن الكريم و لتبيان عظمته.

ب ـ كيفية التعامل مع الكلمة القرآنية

هناك الكلمة القرآنية، و هناك الاستخدام الحديث للكلمة. علماً بأن الاستخدام القرآني لا يتناقض مع الاستخدام الحديث على الإطلاق.

من وجهة نظري؛ الأفضل من فهم معاني الكلمات كما فهمها العرب أن **نفهمها كما استخدمها**

قائلها سبحانه وتعالى. وهيهات أن يصل كلام العرب لأدنى معنى للقرآن الكريم، أدنى فهم للقرآن الكريم هو أحسن فهم للغة العربية. كلام العرب و القرآن الكريم بالكاد يلتقيان..

المدرسة الكلاسيكية، وحتى عند من يُعدّون أساتذة باللغة العربية، يعتبرون فهم العرب للكلمة هو تماماً المقصد القرآني، أي إن فهم العرب للكلمة يستوعب الكلمة القرآنية. وهذا غير صحيح هناك خلط كبير بين المفاهيم لأن مفهوم الكلمات قد دخل عليها استخدام بشري.

أبسط مثال على ذلك: نور ـ ضوء الفرق بينهما جوهري، في حين أنه قلائل الذين يعرفون هذا الفارق.

فهم الكلمات القرآنية و حسن التعامل معها يكون بفهمها كما استخدمها قائلها جلّ جلاله، وذلك بمراجعة جميع ما ورد عنها في القرآن الكريم.

الكلمة القرآنية تستدعي تداعيات، هذه التداعيات من القرآن الكريم.

بذلك، فإن حسن التعامل مع الكلمة القرآنية يقتضي:

- التخلص من حجب الإسقاطات البشرية.
- اعتماد منهجية فعَّالة للارتقاء بالحد الأقصى إلى حقيقة الكلمة القرآنية.
- معرفة، و لو الحد الأدنى، عن آفاق الكلمة القرآنية.

وهي مفصلة في هذه العناوين:

- التخلص من حجب الإسقاطات البشرية.
- الإسقاطات الباطنة.
- الشحنات أو وقع الكلمة.
- الانطباعات.
- التداعيات.
- المؤثرات.
- الإسقاطات الظاهرة.
- مفاهيم الكلمات.

- الآراء المصاحبة للكلمة.
- موقف القارئ من الكلمة.
- كيفية التعامل مع الكلمة.
- التصور المصاحب للكلمة.
- منهجية العمل بحثاً عن معنى أيّة كلمة في القرآن الكريم.
- توَخّي الدقة.
- مراجعة أية مسألة من جذورها.
- كيفية التعرف على مفهوم الكلمة القرآنية.
- مسألة اختيار الكلمات في القرآن الكريم.
- معرفة و لو الحد الأدنى عن آفاق الكلمة القرآنية.

توضيح معاني الكلمات يعطي وضوحاً بالتفكير و يساعد على فهم النص الشريف، والبحث عن معاني كلمة فرصة لربط الآيات و لتناول موضوع ما.

العمل على الكلمة القرآنية بحدّ ذاته يعتبر تربية إسلامية، نتيجتها نفسية إسلامية صحيحة.

قارئ القرآن يجب أن يتذكر هذه و تلك، و هذا الأمر أصبح ميسراً في هذا الزمان، والحمد لله.

ج - كيفية التعامل مع المواضيع القرآنية

لعلّ أكثر ما يستوقف قارئ القرآن هو الانتقال من موضوع إلى آخر دون علاقة ظاهرية تربط بينها. هذا المقطع يُظهر العلاقات بين مقطع و آخر في القرآن الكريم، من خلال التعامل مع النص القرآني الشريف على أنه نصٌّ إلهي في مواضيعه و في كيفية طرحها و صياغتها و حتى في لغتها؛ لأن بنية القرآن الكريم العضوية شديدة التعقيد و هنا توضيح لهذه البنية من خلال:

- ضرورة التخلص من الإسقاطات البشرية.
- ضرورة مراعاة الرسالة الكليّة للنص القرآني الشريف.
- القرآن الكريم و القناعات و التطبيق.
- ما يبدو تكراراً.



- ما يبدو مفروغاً منه.
- ما يبدو مفروغاً منه بالنسبة للمسلمين.
- ما يبدو لحظيّاً.
- أمور مادية في مجال روحي.
- الانتباه إلى المعطيات القرآنية المُعدّة لتدارك قارئه.
- الصمت و الرمز و الإشارة.
- مراعاة المستوى العالمي و الكوني للنص القرآني.
- الخروج من مجالس الورق للسعي في واقعية و حقيقة عوالم القرآن.
- النظر إلى الموضوع بكامل واقعيّته في الزمان و المكان.
- الانتباه إلى تبدلات النبرة في النص القرآني الشريف.
- البحث عن بيت القصيد.
- أسوار القرآن الكريم.
- سباق مع الزمن و حالة طوارئ.

بعد هذه الخطوة الثالثة نكون قد أصبحنا على مشارف القرآن الكريم، ومن ثم:

القسم الثاني

في رحاب القرآن الكريم

نكون قد دخلنا عملياً في التفسير.

ثم إذا دخلنا في رحاب القرآن الكريم بدأنا بكلمة «اسم» لأن القرآن الكريم يبتدئ بـ(بسم).

وطبعاً بعد ذلك لفظ الجلالة: إله، ربّ، واسم اللّه، وأخيراً:

القسم الثالث أسماء الله عندها نكون قد دخلنا عملياً في التفسير ولكن بطريقة عجيبة جداً للدخول فيه، ثم نص اسمه تعالى الرحمن جَلَّجَلَالُهُ، و فيه أمور شفافة جداً. وهناك ملاحظات دقيقة على الاسم الشريف، ثم بقية أسمائه سبحانه.

ويجب الانتباه إلى أن التفاوت في طول شرح بعض الأسماء عن غيرها عائد إلى بُعدِ أو قُربِ المفهوم العام للاسم الشريف المتداول و المعروف. و قد يكون التركيز أحياناً على الاسم بحد ذاته أو شرح التطبيق العملي للاسم الشريف و كله حسب وضوح المعنى في الأذهان، لأن أسمائه سبحانه لها الأهمية ذاتها لا تفاوت فيما بينها؛ وأن كل ما قيل في بحث الأسماء الحسنى هو ذكر للحد الأدنى؛ لأن أسماءه تعالى بُحور من العلم الحيّ مختزلة بكلمات.

القسم الثالث

أسماء الله الحسنى

أسماؤه الحسنى ـ سبحانه ـ تختزل الرسالات الأساسية لمعظم الآيات القرآنية؛ فما أكثر المقاطع أو المواضيع القرآنية التي تنتهي بما ينقص أو يزيد عن اسمين شريفين، كتلخيص لحقيقةِ ما يسبقها.

أسماؤه تعالى ذروة العلم الحي، الذي يشمل ما يسمّى: «العقيدة» بجميع جوانبها، مختزلةً بحورها بكلمات؛ إذ إن أسماءه ـ جَلَّجَلَالُهُ ـ جواب عن أيِّ ؤال يخطر على بال أيٍّ كان عنه سبحانه لأن:

القرآن عالم شاسع، أبواب كنوز عظمته مفاتيحها من نور أسماء الله.

من عرف الأخذ بها و سار بنورها دخل.

ومن استهان بها بقي على أطراف أسوارها مع الغثاء.

الحمد لله

الحمد لله وسبحانه و تعالى الذي منّ علينا بهذا الفضل.

* * * *

القسم الأول
خطوات باتجاه القرآن الكريم

الباب الأول
رحمة للعالمين

رحمة للعالمين

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

[الأنبياء: ٢١/ ١٠٧]

في زمن يرفع فيه الجميع شعار حرية الرأي، صار لا بد من تحقيقه كي لا يتحول إلى مغالطة أو نفاق.

كيف للمرء أن يكون حراً في رأيه، إن لم يحرر رأيَه من أسر المغالطات، و من إعاقة جملة معلومات و تصورات تتدرج من التقريبي و الناقص إلى المغلوط و ما لا أساس له؟

في زمن الاتصالات و انفتاح البشر على بعضهم، و في زمن تجاوَزَ فيه عدد المسلمين ربع البشرية، بات من جهة، من المحال تجاهلهم و تجاهل **حقيقة** دينهم، و التعامل معهم بناءً على فيضٍ من أوهامٍ أو افتراءاتٍ أو تصوراتٍ لا أساس لها.

و صار من جهة أخرى، من الضرورة بمكان تقديم معلومات **جوهرية** عن القرآن و الإسلام؛ لتخليص أفهام المسلمين و غير المسلمين من كل ما يأسرها و يعيق حريتها.

منظاران للنظر إلى الأمور

يمكن النظر إلى الأمور من خلال منظارين:

ـ **منظار الظاهر:** و هو سهل و مقنع و يبدو واقعياً، و لكنه محدود في اتجاهين أساسيين: العمق و الزمن.

محدوديته في العمق تحصر الرؤية في البعد الأول السطحي، حارمة إياها من أبعاد كثيرة و هامة.

محدوديته في الزمن تحرم الرؤية من إدراك حكمة علاقة البدايات بالنهايات.

منظار الظاهر منظار نسبيّ، إذ الرؤية فيه من أدنى إلى أعلى و من خلال إمكانيات الناظر، و ضمن حدود المكان و الزمان الذي هو فيه.

ـ **منظار الحقيقة:** و هو منزه عن عيوب المنظار السابق، و لكنه يحتاج إلى لياقات عقلية أكبر و أعلى، و يحتاج خاصة إلى مصادر معلومات تتجاوز سقف الإمكانيات البشرية.

منظار الحقيقة منظار من أعلى إلى أدنى، لذا فهو شامل مطلق، خاصة أنه يتجاوز محدودية المكان و الزمان.

❊ ❊ ❊

البشرية و مسألة الدين

السؤال هو: هل الدِّين استعداد فطري لدى الإنسان، أم هو اختراع من اختراعاته؟

بعد البحث، نجد أن الدين استعداد فطري ملازم للإنسان، كما أن نفسه ملازمة له.

هل يمكن إحصاء عدد الذين نشؤوا و شبّوا بعيداً عن الدين، إلى أن جاءهم يوم طرحوا فيه على أنفسهم الأسئلة الدينية الكبرى؟

هل نعلم أن بعثة استكشافية وجدت قوماً عزّلاً لا دين لهم؟

هل نعلم أن بعثة أثرية وجدت آثار قوم لا دين لهم، مهما توغلت في الماضي؟

الدين ملازم لمسيرة البشرية منذ القدم. مهما فعل البعض لإبعاده، فإنه يعود دائماً بشكل أو آخر.

لقد تزامنت بداية ازدياد و انتشار النفوذ الأوربي على العالم مع عصر الأنوار في أوربة، ترافق ذاك النفوذ بتدخل على الصعيد الديني من جهة، ومن جهة أخرى عملية متواصلة لإبعاد الناس عن قيمهم الدينية، من خلال استبدال قيم أخرى بها؛ كالقومية أو العلمانية مثلاً.

طغت نتائج هذه العملية المتواصلة في بدايات القرن العشرين، و خاصة بعد الحرب العالمية الأولى؛ لتصل أخيراً إلى ذروتها في نهاية الستّينات من القرن العشرين، حيث ظهرت كتب تحت عناوين مثل: «موت GOD»، و صدرت مجلة «تايم» العالمية واسعة الانتشار تحت عنوان على غلافها: «هل مات GOD»! و كأن مسألة الدين تحولت إلى إحدى ذكريات البشرية العتيقة.

لم يمض عقد إلا و عادت مسألة الدين كموجة عالمية عاتية، وذلك في نهاية الثمانينات؛ فقد أصدر باحث من مركز البحوث الفرنسية كتاباً يعرض وضع الأديان الكبرى على المستوى العالمي سماه: «La revanche de Dieu» أي: «ثأر GOD».

سبب هذه العودة إلى الدين يكمن في الحاجة الفطرية للدين، و خاصة عند إفلاس و فشل الأفكار الإلحادية في تحقيق سعادة البشرية.

ثمة من استغل هذه الموجة العالمية العاتية ليحولها باتجاه التخريب الذاتي: أي التطرف الديني على صعيد كل الأديان.

النتيجة كانت اهتماماً عالمياً بالأديان و بالإسلام خاصة، حيث كثرت علامات الاستفهام حوله لما أثير عنه من افتراءات و خلط و لغط، حتى صار مالئ الدنيا وشاغل الناس، خاصةً عند سقوط جدار برلين و انتهاء مسرحية الصراع الشيوعي الرأسمالي.

تزامنت العودة العالمية إلى الأديان مع انفجار في عدد وسائل الإعلام «المستقلة»، و كذلك مع تصعيد حملة عداء و تشهير غربيّة على الإسلام.

لقد أدت هاتان الظاهرتان إلى دفع كافة المجتمعات الإسلامية إلى الاهتمام بدينها. و كذلك دفعت حشوداً من غير المسلمين إلى الرغبة بالتعرف على الإسلام من خلال سيل ما يكتب عنه، و خاصة من خلال اقتناء ترجمة للقرآن.

و لكن، ما نسبة ما يكتب عن الإسلام إلى حقيقة الإسلام؟...

هل يمكن التعرف على الإسلام والحكم عليه من خلال قراءة ترجمة للقرآن؟

طبعاً، لا.

هل تكفي معرفة اللغة العربية لفهم صحيح للقرآن؟

طبعاً، لا.

هل يستطيع غيرُ مسلمٍ فهم **حقيقة** القرآن، من خلال مطالعة التفاسير الشهيرة و المعتمدة في العالم الإسلامي؟

مع الأسف، لا.

هل يستطيع غيرُ مسلمٍ فهم **حقيقة** القرآن و الإسلام من خلال استجواب المسلمين الحاليين، أو من خلال الاطلاع على أحوالهم؟

لا؛ لأن أحوالهم على العموم لا تعبِّر عن حقيقة القرآن و الإسلام. و لأن عقول مثقَّفيهم أو عقول أساتذتهم تقولبت في الجامعات الغربية، و نتاجهم ما هو إلا حل وسط بين النظرة الغربية للإسلام و بين التراث الإسلامي الكلاسيكي، فما أبعده عن حقيقة القرآن و الإسلام.و لأن الذين يعلمون تلك الحقيقة من المسلمين المعاصرين، ندرة نادرة غير مشهورين؛ فكيف يجدهم؟ و كيف يتأكد أنهم هم؟

لا بد إذاً من نصوص و بحوث متطوّرة تقدم معلومات دقيقة و موضوعية و موَثَّقة، تفيد في معرفة حقيقة القرآن لفهم الإسلام.

إذ لا يمكن لأي مثقف حرّ يتمتع بحس عالٍ بالمسؤولية أن يتجاهل تلك الحقيقة. كيف يتجاهل تلك الحقيقة و قد قارب عدد المسلمين ربع سكان العالم؟ خاصةً أنهم ينتمون إلى حضارة من أعظم و أرقى الحضارات في التاريخ. ألا يكفي أن الحضارة الغربية، بُعَيْد الحروب الصليبية، تدين في الواقع و عملياً إلى الحضارة الإسلامية أضعافاً مضاعفة لِما تدين ـ على زعمها ـ إلى الحضارة اليونانية؟

... هذا كله من منظار الظاهر، أي المنظار البشري.

* * *

أما لو أننا نظرنا إلى البشرية و مسألة الدين من خلال منظار الحقيقة، فإن أول منطلق ينبغي أن يكون حاضراً في أذهاننا كبديهة يقينيّة، و راسخاً كحقيقة أساسية، هو أن: الله حق.

و هو الأول فلا زمان و لا مكان و لا شيء قبله يسبقه في الماضي، ولا بعده يسبقه في المستقبل لأنه الآخر.

بما أنه الأول، فهو الواجد لكل موجود و خالق كل مخلوق.

طالما أنه الواجد و الخالق فهو عليم بحقيقة كل ما خلق، و هو حكيم أعلم بعلاقة البدايات بالنهايات و بعلاقة الأسباب بالغايات لأنه الآخر.

و هو سبحانه المهيمن، له الأمر كله. لذا، فلا تناقض ولا تضارب في سريان إرادته، بل انسجام مطلق في كل لحظة و مكان و كذلك في علاقة الأسباب بالغايات.

تنزّه عن خلقه بتفرده بصفات الألوهية المطلقة.

فهو واحد، و بضرورة مخالفة صفات الألوهية المطلقة، فإن خلقه مركب.

و هو أحد، و بضرورة مخالفة صفات الألوهية المطلقة، فإن خلقه متعدد.

بناءً على تلك الحقيقة، نفهم التعدد و التنوع في الخلق.

التنوع في الخلق يصدر عنه بالضرورة المراتب و التدرجات من أعلى عليّين إلى أسفل سافلين.

و كذلك من عاقلٍ و غير عاقل، و مكلَّف أي محاسَب يوم الحساب و غير مكلف.

الخلق كله موصول به سبحانه صلة روحية مستمرة منذ الإيجاد إلى الإفناء، من أبسط مخلوق إلى الأكثر تعقيداً: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ...﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ...﴿٤١﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٤١]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٠].

مسألة الدين إذاً، لا تنحصر بالبشرية بل تشملها و تتجاوزها، فقد شاء سبحانه لها الدين كغيرها من خلقه ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٣].

مسألة الدين من منظار الحقيقة إذاً، مسألة كونية شاءها موجد الأكوان و نواميسها.



حقيقة أبدية و واحدة

الدين، دين خالق السموات و الأرض و كل شيء، متلازم إذاً مع البشرية منذ فجرها.

﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١-١٠٣].

كيف لبشر أن يَعْرِف الذي **لا تدركه الأبصار** و لا الحواس و لا تحيط به العقول؟

من أين له معرفة الشعائر الصحيحة التي بها يتواصل مع خالقه؟

كيف لبشر أن يتأكد من صحة عقيدته؟

هل يفرض المخلوق عقيدته و طقوس عبادته على خالقه؟

كيف له أن **يضع** ديناً يُحْسِن به عبادته، أي يعبده عبادة حقيقية؟

إن ادعى أن هذا بمقدور البشر؛ فكيف له أن يتحقق مما يكون بعد الموت و يُحَضِّر له؟

كيف للتخمين أن يوصل إلى الحقيقة؟

هذا محال.

هذا محال، لأن الأمر يتطلب معلومات و رؤية تتجاوز سقف الإمكانيات القصوى للعقل البشري.

* * *

لا سمو روحياً حقيقياً إلا بدين حقيقي ينزِّله الخالق على خلقه وحياً.

فالدين الحقيقي يتميز بمعلومات و خصائص تفتح آفاقاً شاسعةً، ما كان باستطاعة العقل البشري المأسور في حدود سقف إمكانياته القصوى، إدراكها للارتقاء فيها.

إله خالق واحد، فبالضرورة: دين بحقيقته واحد.

دينٌ واحد في أسسه و حقيقة شعائره، مع فوارق بسيطة منسجمة مع فوارق الزمان و المكان.

و ذلك بمحض الرحمة و الرأفة من الرؤوف الرحيم سبحانه ببشرية كانت واحدة، تفرقت مجموعات و تباعدت بينها المسافات، **إلى أن أتى زمن التعارف و الالتقاء، للاجتماع ثانيةً على حقيقة واحدة.**

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٣]. عندما تقدم علماء الأحياء مؤخراً، في فكِّ و تحليل مكونات المورثات البشرية، استوقفتهم الفوارق البسيطة بين مورثات البشر من جميع الأجناس و الأقوام. لم تكن تلك الفوارق إلا في التفاصيل الثانوية، خلافاً للفوارق الجليّة و الجوهرية لمورثات حيوانات من فصيلة واحدة. بناءً على الأبحاث الأخيرة، توصل علماء الأحياء إلى أن البشرية الحالية بملياراتها الست تنحدر ممّا لا يزيد على خمسة آلاف شخص؛ إضافةً إلى التقارب الشديد بين مورثات أولئك خمسة الآلاف.

وهكذا فإن الاختلاف بين الأديان، ما هو في الحقيقة إلا انحراف عن حقيقة أبدية و واحدة.

انحراف سببه إما الإهمال و التراخي، و إما تدخّل بشري في غير محله.

أيُّ تدخلٍ بشري في أسس و شعائر الدين الحق المنزّل وحياً، هو انحرافٌ يحوي كل مقومات التفاقم المتسارع.

فهم حقيقة تعدد «الأديان» و تنوعها و اختلافها و انحرافها عن الدين الحق، يقتضي الانتباه إلى أنها **ليست سوى** ظواهر لاحقة و مطابقة لسابق الترتيب الإلهي.

كلما انحرف البشر عن الدين الحق، تداركهم سبحانه برحمته مرسلاً خيرة خلقه لإصلاحهم ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٣].

لا بد من التذكير بأن تداركه سبحانه لخلقه ليس تفاعلاً مع مجريات الأمور، إذ إنه سبحانه منزّه عن الزمن، بذلك فهو أعلم بما سيكون.



هيمنته المطلقة سبحانه و حكمته الشاملة و الكاملة تجعل أي حدث أو شيء جزءاً من كل له معنىً.

بناءً على ذلك، فإن كل ما جرى للرسل و الأنبياء منذ هبوط آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على الأرض إلى نزول عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أمر **له مدلول** و يتوافق مع سابق ترتيب المهيمن الحكيم جَلَّ جَلَالُهُ.

ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ... ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٩] دليلٌ و بيِّنةٌ على ذلك المدلول بما فيه من رموز، و كذلك آيات من الهداية تُخرِج الوعي من سطحية و محدودية منظار الظاهر إلى آفاق منظار الحقيقة.

فالمقابلة بين سيدنا آدم وسيدنا عيسى مقابلة حاذقة لمن يتدبر القرآن الكريم:

ـ كما أن سيدنا عيسى وُلِد بلا أب من امرأة، فبالمقابلة و بالمعاكسة التامة فإن حواء خلقت بلا أم من رجل؛ أي آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

ـ و كما أن سيدنا آدم أول نبي يكون على الأرض، فإن سيدنا عيسى، بالمقابلة، آخر نبي يكون على الأرض في آخر الزمان، عندما ينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق.

ـ و كما أن سيدنا آدم أول نبي على الأرض ذُكِر في القرآن خمساً و عشرين مرة، كذلك عدد ما ذُكِر سيدنا عيسى آخر نبي على الأرض.

ـ كذلك فإن الأنبياء المذكورين في القرآن بما فيهم أولهم و آخرهم خمسة و عشرون نبياً، أي مربع الخمسة. خمسة منهم هم أولو العزم: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ابن مريم، عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ. خاتم أولي العزم الخمسة ـ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ـ محمد سيد المرسلين و خاتم النبيين عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ذُكِرَ اسمه في القرآن خمساً بلا زيادة عدد أركان الإسلام، و اقترن آخر ذكر لاسمه مع آخر ذكر لسيدنا عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال: ﴿... وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ... ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦١/ ٦].

ـ خمس و عشرون أي مربع الخمسة، و هو مجموع مربع الأربعة و مربع الثلاثة. لقد ذكر سيدنا آدم ستة عشر مرة بشخصه و تسعاً بمعرض الكلام عن **ذريته أو بنيه**. بالمقابلة التامة: ذُكِرَ اسم سيدنا عيسى ست عشرة مرة **كابن** مريم و تسعاً من غير ذكر والدته.

تفاصيل ما سيجري قبل و بعد نزول سيدنا عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، و حتى أحداث زماننا بما فيها حال المسلمين، مشمولة بسابق الترتيب، فقد نبأ خاتم النبيين عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن كثير منها.

بذلك، و ضمن ذلك الترتيب الإلهي، فإن بعثة خاتم النبيين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ و تنزيل القرآن، لم يكونا أمراً طارئاً في مسيرة البشرية استوجبته شطحاتها و ضلالاتها، بل أمراً مرسوماً منذ الأزل.



فقد ألهم الله سيدنا إبراهيم الذي عاش في الألف الثانية قبل الميلاد، ليدعو عند رفعه لقواعد الكعبة المشرفة: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢/١٢٨-١٢٩]. و ذُكِر الأمرفي التوراة والإنجيل ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾[الأعراف:٧/ ١٥٧]. و كذلك بشر به سيدنا عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ...﴾ [الصف: ٦١/ ٦].

تسمية «الإسلام»

بذلك، و ضمن الترتيب الإلهي، فإن «الإسلام» ليس اسم دين «ابتكره عربيّ من مكة»، بل هو الاسم الحقيقي و المطلق الذي شاءه سبحانه منذ القِدم لدين أنبيائه و رسله.

فقد قال سيدنا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠/ ٧٢] و قال سبحانه: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨]، ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٧-٦٨].

هل يستطيع أحد أن يثبت أن: «يهودي» هو الاسم الذي شاءه سبحانه في الألواح لدينه؟

أو أن سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سمّى الدين الذي تلقاه «الدين اليهودي»؟

هل يستطيع أحد أن يثبت أن سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سمّى دينه «الدين المسيحي»؟

أم أن كل هذه التسميات، ما هي إلا تسميات بشرية ظهرت عقوداً أو قروناً بعد وفاة أنبيائها.

بالمقابل، فإن تسمية «الإسلام»، تسمية مصدرها إلهي، لوجودها في صريح النص القرآني. أي إنها كانت ثابتة بحضور ملك الوحي سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و بحضور خاتم النبيين محمد رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.



﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩].

لا بد من تعريف دقيق و موضوعي **لكلمة** «الإسلام» و **تبيان أصلها**.

إذ إن معظم ما هو متداول عن أصل تلك الكلمة و تعريفها ليس سوى محاولات، بقدر ما هي قريبة للارتجال بقدر ما هي بعيدة عن حقيقة الكلمة، و بقدر ما هي مسيئة في تقديم الإسلام و التعريف به. أذكر على سبيل المثال التعريف الشائع لكلمة «الإسلام» بأنها تعني الاستسلام لإرادة اللّه.

«الاستسلام» عندما تترجم تصير: to surrender، و في أحسن الأحوال: submission أو soumission. تركيب كلتا الكلمتين الإنكليزية والفرنسية متطابق: و كلتاهما تحويان جذراً معناه: تحت أو دون، وهذا لوحده لا يساهم في إعطاء وقع إيجابي للكلمة.

بالطبع، لا يجد المعتادون على هذا التعريف من بأس، طالما أن الاستسلام للّه.

و لكن هذا التعريف الشائع و الذي يبدو من حيث الظاهر مقنعاً، هو في الحقيقة نتيجة التباس و خلط بين كلمتين:

إذ إن ما يحضر في ذهن المعتادين على ذاك التعريف؛ مثل الثقة بحكم اللّه و التسليم بمشيئته و القبول بقدره و قسمته، ما هو إلا من معاني الإيمان و سِماته!

يقصدون أمراً خير ما تعبّر عنه كلمة «الإيمان»، و يعبّرون عنه خطأً بكلمة الاستسلام.

الأهم من ذلك، أن ذاك التعريف لا أساس له!

إذ لا يمكن دعم فكرة أن الإسلام «استسلامٌ» لإرادة اللّه بأي شاهد قرآني.

و الأخطر من ذلك، أن المرة الوحيدة التي يرد فيها اشتقاق لكلمة «استسلام» في القرآن الكريم، هي في سورة الصافات، في قوله تعالى عن الظالمين: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾!

بالمقابل، فإننا نجد شواهد كثيرة عن الطاعة، بصريح العبارة أو من حيث المضمون. ولكن، لا يخفى على المتفكر الفرقُ الشاسع ما بين الطاعة و الاستسلام. فالاستسلام موقف سلبي تنعدم فيه المبادرة و الهمة و العزم، و هو بشكل خاص تعطيل كامل لفكر المستسلم. و هذا كله على النقيض



التام لروح الإسلام، و لما يريده سبحانه من عباده من مبادرة و عمل، مما يمكن إدراكه بسهولة بتتبُّع مدحه لهم في كتابه الكريم.

فهو سبحانه يشيد بأنبيائه قائلاً: ﴿... وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ١٧]، و﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٠]، و ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤٥]، و﴿...إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ و بعباده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾. كلها مواقف إيجابية تتسم بالعزم و المبادرة و بدرجات عالية من حضور القلب و الوعي، كما هو الحال في ما هو جلي في آيات كريمة كثيرة نذكر منها: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٩]، و ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٧]، و﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩]، و﴿...فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ...﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤]، و﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٩].

«الإسلام» كلمة قرآنية، أي إن مصدرها إلهي. المنهج الصحيح الذي ينبغي اتِّباعه لتعريفها يقتضي اعتماد مصدر موازٍ في مستواه، أي عملياً: القرآن الكريم. هذا يقودنا في تتبعنا للكلمات المبنية على الجذر نفسه، بالضرورة إلى اسمه تعالى السلام جَلَّجَلَالُهُ. إنه سبحانه هو الأصل، فلا يستوي الأمر إن عرَّفنا اسمه تعالى السلام بناءً على الفهم الشائع للكلمات المبنية على جذر «سلم». بل لا بد من فهم حقيقة السِّلْم و السلام و جذر «سَلَم» انطلاقاً من فهم **حقيقة** اسمه تعالى السلام جَلَّجَلَالُهُ.

السلام، ككلمة قرآنية، تصبح بناءً على ذلك: انعدام صراع الأضداد.

من جهة أخرى، فإن تعريف كلمة «الإسلام» بكلمة «الاستسلام» مثلاً، ضرب بالحائط لعنصر حاسم في معاني الكلمات العربية: ألا و هو الوزن.

كلٌّ من العبادة و الاستعباد مبني على جذر واحد، و لكن الاختلاف في المعنى بين اللفظين شاسع، و ذلك لاختلاف وزن كل منهما. بذلك فما أبعد الأخذ عن المؤاخذة، و ما أبعد النهر كالنيل عن النهر كالزجر، و ما أبعدهما عن النهار.

كلمة «الإسلام» مبنية على وزن : «الإِفْعال»، مثل الإنجاز و الإيقام و الإنهاء و الإتمام و الإنشاء و إلى آخر ذلك من أمثلة.

جلي أن وزن «الإِفعال» يفيد المبادرة للقيام بأمر أو تحقيقه على التمام.

بناءً على ذلك يكون تعريف **كلمة** «الإسلام»: **القيام بتحقيق** انعدام صراع الأضداد.

فالأمر إذاً، قائمٌ على المبادرة و الهمّة و العزم، فما أبعده عن سلبية الاستسلام.

كلمة «مسلم» تتماشى تماماً مع ما سبق، فهي مبنية على وزن «مُفْعِل»، مثل مُنْصِف، منجز، منذر، مُكمل. و التي يُفهم منها أن وزن «مُفْعِل» يعبِّر عن الذي يقوم بأمر و خاصة يثابر عليه محققاً إياه.

* * * * * *

استمرار و تطهير و إكمال للتراث الكوني

«إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ؛ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ» [صحيح البخاري: ٣٢٧١].

إن قراءة صحيحة و ذكية للقرآن و الحديث بلغة الوحي، تثبت أن التراث الإسلامي استمرار و تطهير و إكمال لجميع ما سبقه من التراث الكوني:

استمرار:

على الأقل ١٧ مرة في اليوم في الصلوات الخمس المفروضة، يسأل المسلمون أجمعون الله جَلَّجَلَالُهُ بكلماته من فاتحة القرآن: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ... ﴾ أي من سبقهم ممن سار في نهج الحقيقة.

فأي شهود بالتواصل الروحي!

تبدأ أول سورة بعد الفاتحة بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: ٢/ ٤]. و هو دليل آخر على ارتباط المسلمين بمن سبقهم ممن تلقوا نفحات من الحقيقة، و على أن الإسلام استمرار لطريق أهل الحقيقة.

في اللغة العربية لا يذكر المسلم اسم نبي إلا و يسبقه بعبارة «**سيدنا**» أو يضيف إليه عبارة عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. عموماً، العبارتان تستخدمان معاً للتأكيد على عظيم إجلال المسلمين لجميع الأنبياء.

خير ما يعبر عن ذلك آية من سورة البقرة:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ
كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ
لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ
وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾

نجد تأكيداً آخرَ في سورة آل عمران:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

لقد أصر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الأمر، عندما طلب من أصحابه ألا يفضلوه على أحد من الأنبياء، كما روى عنه أبو هريرة في سياق حديث طويل: ثم قال: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللّٰهِ ...». [صحيح البخاري: ٣١٦٢].

يعظم المسلمون جميع الأنبياء بلا تفريق. فهم يعون أن الأنبياء يمثلون جماعة أهل الإيمان والمعرفة الحقيقية، وأنهم يكوِّنون أمة. ففي سورة الأنبياء، نجد ذكراً معبِّراً لأنبياء، مع جانبٍ أساسيٍّ من حياتهم، ثم يختم الله تعالى ذلك الذكر بقوله:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٢].

تطهير:

التطهير إزالة للشوائب.

الشائبة غريبة عما هي فيه، تفسده أو تحطّ منه.

الدين الحق في حقيقته إلهيّ، ينزل به الروح الأمين وحياً على من شاء الله من عباده.

أيُّ تدخلٍ بشري في ما هو في حقيقته إلهيّ، هو عنصر غريب لا ينتمي إليه. أي إنه شائبة تفسده أو تحطّ منه. إذ شتان بين الادعاء البشري و الكمال الإلهي.

من جهة أخرى، ليست الجهود الصادقة لفهم الدين الحق تدخلاً بشرياً فيه. إذ إن هذه الجهود لا تتدخل فيه بزيادة أو إنقاص، أو لتبديل أو تغيير أيّ شيء منه، بل تحافظ عليه أصيلاً نقياً لمن يريد المتابعة و التقدم في فهمه.

الإسلام استمرار للتراث الكوني الأصيل و تطهير له من شوائب التدخل البشري، و ذلك من خلال كتاب سماوي منزّل وحياً، واحد و كامل متكامل نقي من أيّ شائبة بشرية. و من خلال شرع موحى و كامل، ومن خلال شعائر العبادة كالصلاة و الحج و الصيام كاملة و نقية كمال و نقاء الوحي الذي جاء بها.

إكمال:

طالما أنّ الذي شاء الدينَ واحدٌ أحدٌ،

و طالما أنّ كل ما جرى و يجري لاحقٌ لسابق إرادته،

و طالما أنّ الرسالات النبوية المتلاحقة مطابقة لمسيرة أراد لها بداية و نهاية،

فلا بدّ إذاً أن تكون آخر رسالة شاءها سبحانه إكمالاً لكلٍّ ما سبقها،

خاصةً أنها تتميّز عما سبقها بأنها للبشرية قاطبة.

* * *

كافة للناس

تتصف الرسالات و الشرائع الموحاة من الله سبحانه و السابقة للإسلام، بانحصار رسالتها بقوم و لا تتعداهم إلى غيرهم.

مثال ذلك ما ورد بصريح العبارة في عدة مواضع من الإنجيل، و كذلك في القرآن عن سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه أُرسِل لبني إسرائيل حصراً. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ...﴾ [الصف: ٦١/ ٦].

الدين الوحيد الذي أراده الله سبحانه للعالمين هو الإسلام.

أراده شاملاً لكل رسالاته متمماً و مكملاً و خاتماً لها.

فقد أرسل سبحانه رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى البشرية جمعاء: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ...﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨]، حيث أن كلمة «الناس» في لغة القرآن تعني «البشرية» في لغة معاصرينا.

لم يرسل الله سبحانه رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **إلى العرب حصراً ليخلصهم من الوثنية، بل أرسله للناس كافة:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٨].

إذ لا ذكر للعرب اسماً في القرآن برُمَّته!

بذلك فإن الانتماء إلى الإسلام ليس انتماءً إلى «دين ابتكره عربيّ من مكة»، بل انتماءٌ إلى دين الله الخالق والذي هو أعلم بما خلق ولِمَ خلق.

فالنبي الذي أُنزِل عليه الدين و قومه و أول من آمن به، أنفس أصلها، كباقي الأنفس، من عالم آخر لا مادي، عالم لا علاقة له بالمواقع الجغرافية و لا بالأجناس و لا بالأقوام. أنفسٌ رتب لها العليم الحكيم أن تولد في أجساد، و تجتمع في وقت واحد و مكان واحد. كما هو الحال بالنسبة لأيٍّ منا و لمعاصرينا، أو لأيّ نفسٍ تولد في عالمنا في الماضي و في المستقبل.

النظر إلى الإسلام أو تقديمه كدين عربي، دعوة لا أساس لها. لا بل، و الأخطر من ذلك، دعوة هدامة!

فهي دعوة مخالفة لصريح الآيات، و لصريح كلام خاتم النبيين في خطابه للناس في حجة الوداع أشهراً قبل رحيله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ألا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ. **أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ،إلا بِالتَّقْوَى.أَبَلَّغْتُ؟»** [مسند أحمد: ٢٢٣٩١].

كلامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مرآة جليّة لقوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾.

فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يوجه خطابه إلى البشرية بعبارة «يا أيها الناس»، كما هو الحال في الآية الكريمة.

ثم يذَكِّرُ بالأصل الواحد الذي يجمع البشرية كما في الآية الكريمة.

ثم يذْكُر تصنيفاً للبشر من خلال اللغة المشتركة: «عربي أعجمي»، و هي إحدى أقوى الروابط التي تجمع شعباً من الشعوب، لا توجد بينهم بالضرورة أصول عرقية مشتركة. ثم يذْكُر تصنيفاً للبشر آخرَ من خلال الأصول العرقية المشتركة: «أحمر، أسود». فيكون عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك، محتذياً بتسلسل أفكار الآية الكريمة: ﴿... وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ ...﴾، إذ إنّ جميع أفراد قبيلة ما يرجعون بأصلهم إلى شخص واحد.

و يتابع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِيَصِل إلى بيت القصيد: «التقوى»، كما في الآية: ﴿...إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ...﴾.

فما أبعد رسالة القرآن و خاتم النبيين عن عِناد العرقية و القومية.

و ما أعظم و أجمل الدعوة القرآنية الإلهية إلى البشرية: ﴿...لِتَعَارَفُوٓاْ...﴾!

لم ترد كلمة «عربي» في القرآن إلا وصفاً للقرآن أو لِلُغته.

و لا بد من التأكيد أن كلمة «عربي» في القرآن الكريم، ليست اسماً لتلك اللغة كما هو شائع، بل وصفاً لها.



فالخطأ الشائع هو فهم كلمة «عربي» في القرآن الكريم، اسماً للغة العرب. أي إنها لغة جرت على ألسنتهم و طوروها فنسبت إليهم، كما هو الحال بالنسبة لباقي لغات العالم التي تسمى باسم القوم الذين تكلموا بها أصلاً.

اللغة العربية حالة خاصة، لا تنطبق عليها الاعتبارات السابقة. فهي لم تُنسَب إلى العرب، بل العرب نُسِبوا إليها.

يمكن فهم المقصود من كلمة «عربي» في القرآن الكريم، من خلال استخدامها في النص الشريف. إذ وردت الكلمة إحدى عشرة مرةً في نفس العدد من الآيات. أكثر ما يلفت النظر في تلك الآيات هو المقابلة بين «عربي» و « أعجمي».

فَهْمُ «أعجمي» على أنها تعني « فارسي» جهل فاضح! المقصود في القرآن الكريم من «أعجمي»: ما يثير الالتباس لعدم وضوحه. لذلك فإن الحيوانات تسمى «عجماوات»، إذ إن الأصوات التي تصدرها ليست مفهومة بوضوح بالنسبة للبشر. و كذلك الأحرف ذات النقط تسمى «معجمة» لإمكانية الالتباس بينها لولا نقطها، مثل: الباء و التاء و الثاء.

و هكذا و بالمقابلة مع «أعجمي»، يتجلى المقصود في القرآن الكريم من كلمة «عربي»: الوضوح التام، و خاصةً انعدام إمكان الالتباس. فعندما **تُعْرَبُ** جملة، يصبح المقصود من كلماتها واضحاً جليّاً لا لبس فيه. و كذلك عندما **يُعْرِب** المرء عن أمر، فإنه يعبر عنه بوضوح و بلا مواربة. بذلك تصير عبارة مثل: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: قرآناً واضحاً جليّاً، لا مجال للتضارب أو للالتباس في فهم معانيه مهما تعمق الباحث فيها.

فالكلمة إذاً أبعد ما تكون عن الاعتبارات القومية.

من جهة أخرى، فإن لِلُغة القرآن خصائص مميزة لا يعيها إلا قليل ممن يتعامل معها لترجمتها إلى لغات أخرى.

إضافة إلى ذلك، فإن النص الشريف يتميز بخصائص استثنائية تفوق التصور، لا يعلمها إلا النادرون. تلك الخصائص إضافةً إلى ما تشير إليه من الحقيقة، تفتح آفاقاً شاسعةً لفهم كلام الله، حدُّها الأقصى هو الحدُّ الذي شاءه سبحانه لعلم خلقه.

بذلك فإن رسالة القرآن تشمل البشرية و تتجاوزها إلى من سواها، فهي رسالة للعالمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ٢٧-٢٨].

* * *



ليس الإسلام مجرد دين بين الأديان، بل هو بمثابة آخر فرصة يمنحها الحق جَلَّجَلَالُهُ للناس كافة؛ لإخراجهم من الظلمات إلى النور رحمةً للعالمين.

لذا فإن نقاطاً كثيرة في القرآن خاصة و في الإسلام عموماً، هي بالواقع أجوبة عن تساؤلات و إشكالات لا تخطر على بال معظم الذين ولدوا مسلمين. و إنما أجوبة عن تساؤلات و إشكالات تعتلج في نفوس غير المسلمين، و خاصة من يبحث منهم عن الحقيقة.

عندما قال خاتم النبيين: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...» [صحيح البخاري: ٣٢٠٢] ترى من قصد؟ المسلمين أم غير المسلمين؟ بل، غير المسلمين و أهل الكتاب خاصة، أي أكثر من ثلث البشرية حالياً. و هم لا يعانون من إشكالات عقيديَّة و روحية كالتي تعاني منها باقي البشرية. أليس هنالك مئات الملايين من الهندوس و البوذيين و الشينتو و التاو و الأنميست أو حتى من الملحدين، ما أحوجهم لمعرفة الحقيقة.

ما أكثر الآيات والأحاديث التي ما هي إلا أجوبة عن تساؤلات البشرية، وليست حصراً على المسلمين.

منها إحدى كنوز القرآن: كمّ عظيم و استثنائي من المعلومات و المفاهيم الأساسية عن الألوهية، مركّز بكثافة عالية في كلمات هي أسماء الله.

السور و الآيات التي تحوي ذاك الكنز، تقدِّم الإطارَ الأمثل لفهم موضوعي و دقيق و عالٍ لما في ذاك الكنز من معلومات و مفاهيم.

بذلك فإنّ القرآن الكريم هو المرجع الأعلى و اليقيني للتعريف بربّ العالمين. إذ نجد فيه و على مدى آياته رؤية كاملة متوازنة و صحيحة عن الله جَلَّجَلَالُهُ، ما أحوج الذين يبحثون عن الحقيقة و الذين يهتمون بالمسائل الروحية إليها.

إذ إن السبب الأساسي للإلحاد أو الكفر أو الشرك أو الاضطراب الديني؛ هو الافتقار إلى معلومات و مفاهيم صحيحة و كاملة عن الله جَلَّجَلَالُهُ.

من جهة أخرى، فإنه لا يمكن ادعاء الخوض في المسائل الروحية من غير التعرّف على أصل الروح!

و كذلك لا يمكن الاستمرار في المسائل الروحية من غير تواصل حقيقي و صحيح مع الحق و أصل الروح.

فلا تجربة روحية حقيقية إذاً، إلا بالتعرف على أصل الروح.

و لا تجربة روحية حقيقية إلا بالارتقاء المتواصل في التعرف على أصل الروح، من خلال تواصل حقيقي معه.

خير ما يكون هذا التواصل هو حسن التوجه إليه سبحانه من خلال قنال الوعي العالي للحقيقة، الذي تعبر عنه أسماؤه الحقيقية المنزلة و الواردة على لسان رسوله المصطفى.

لا يعي المسلمون، لشدة اعتيادهم، عظيمَ نعمة التوجه إليه سبحانه بأسمائه. و كذلك لا يعي غير المسلمين تعاسةَ إساءةِ التوجه إليه سبحانه بأسماء لا تليق به، إن لم تكن مشينةً كونها أصلاً أسماء وثنية لآلهة وهمية مثل: Zeus, Deus, Dieu, God Gott.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠] بلاغٌ من اللّه الحق إلى كل من يتوق إلى الارتقاء الروحي بالتوجه إليه أو التواصل معه بكلمات من الحقيقة، تعبر عنها و تفتح أبوابها.

إضافة إلى كنوز المعلومات و المفاهيم عن الذات الإلهية في القرآن و السنة المشرفة، فإننا نجد فيهما معلومات استثنائية و أساسية، لا غنى عنها لكل من يتوق إلى فهم حقيقة العالم الذي يحيط بنا ليحسن التصرف.

إذ لا يمكن فهم حقيقة ذاك العالم و لا الخوض فيه بنجاح، إلا بمعرفة أنه ينقسم إلى عالم ظاهر و عالم خفي.

المعلومات اليقينيّة و الاستثنائية، المتوفرة في القرآن و السنة المشرفة عن العالم الخفي، تغطي كل الحاجات و التطلعات البشرية، من أبسط الناس إلى أعظمهم مقاماً و مسؤولية و مهامّاً.

***

ليس الإسلام مجرد دين بين الأديان، بل الدين الوحيد الذي تتوفّر فيه كل الضمانات التي تثبت ألوهية مصدره.

إن بحثت البشرية عن نص صادر يقيناً عن خالق السموات و الأرض، فلن تجد سوى النص القرآني الشريف.

فهو النص الإلهي الوحيد الحرفي و الأصيل و الكامل المتوفر منذ أكثر من ألف وأربع مئة سنة. وهو يتميز باحتوائه على ما لا يمكن إحصاؤه من أدلة ساطعة على ألوهية مصدره.

نُسخ التوراة المتوفرة ليست سوى إعادةِ صياغة بشرية، تحتوي على أصداء من النص المنَزَّل الأصلي، في بحر من الأخطاء و المغالطات و الافتراءات و التناقضات.



الأناجيل الأربعة المعتمدة تكاد لا تحوي شيئاً من الإنجيل الحقيقي المنَزَّل على سيدنا عيسى عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ. فهي عملياً سيرة نبوية أسطورية ملأى بالتناقضات الصارخة، رغم احتوائها على الكثير من الأقوال التي يمكن نسبها إلى سيدنا عيسى عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ. النصوص البوذية كُتبت بعد أكثر من أربعة قرون من رحيل بوذا. المعلومات المتوفرة عن بوذا نفسه تغرق في الأساطير؛ مثل الأسطورة الرائجة عن نشأته أميراً في قصر والده الملك، و التي تبين أن لا أساس لها.

لا دليل قاطعاً و لا حتى مشجعاً أن باقي النصوص المقدسة المتوفرة في العالم، مثل النصوص الهندوسية أو البوذية أو الصينية، نصوص حرفية و كاملة لوحي إلهي. قد تكون بعض تلك النصوص ملهَمَة، و لكنها قطعاً ليست موحاة. إن كثيراً من نصوص الأدب الروحي أو الصوفي الإسلامي تُجاري بل تتفوّق على نصوص الأديان الأخرى، لما فيها من حكمة و شفافية و إلهام. و لكنها تبقى نتاجاً بشرياً ملهَماً، و لا يخطر على بال المسلمين أنها موحاة. فالفارق بين الإلهام و الوحي فارق شاسع.

من جهة أخرى، و منذ فجر الإسلام، فإن شعائر الصلاة الأصيلة و الوحيدة ذات المصدر الإلهي في العالم، هي شعائر الصلاة الإسلامية.

الأدلة الساطعة التي تثبت ألوهية مصدرها، موجودة فيها و كذلك في ما يتعلق بها في القرآن و السنة.

باقي أشكال طقوس الصلاة المعروفة في العالم، ليست سوى مسخاً للأصل، أو اختراعات، أو مجرد أدعية و ابتهالات.

كذا الأمر بالنسبة للحج. فالحج الإسلامي إلى مكة المكرمة، هو الحج الوحيد في العالم الذي يطابق في تحديد أماكنه، و في شعائره و كل تفاصيله وحي خالق السموات و الأرض.

بالمقابل فإن كافة أنماط الحج الأخرى الموجودة منذ قرون، ليست سوى اختراعات بشرية.

...

هذا كله بسابق علم وهيمنة المهيمن جَلَّجَلَالُهُ...

ألا يفيد العطش في معرفة نعمة الارتواء؟

ألا تفيد الوحشة في إدراك مدى نعيم الأنس؟

ألا يفيد الحرمان في معرفة قيمة النعم؟

فما أحوج البشرية إلى التعرف على خالقها الذي هي لا محالة ملاقية إياه.

وما أحوجها إلى التعرف على الأخلاقيات و الأعمال و المناسك و الشعائر الحقيقية التي تسمو بها لتقربها إليه.

لن تجد ذلك إلا في دينه و كلامه المنزَّل.

فما أحوجها إلى التعرف على حقيقة الإسلام و القرآن.

بذلك، و ضمن الترتيب الإلهي، تصبح رسالة محمد رسول الله آخر فرصة ممنوحة للبشرية، **للالتقاء** و الاجتماع و العودة إلى الدين الحق.

دينٌ يتميز بكمال توازنه.

كمال التوازن

رسالة محمد رسول الله، آخر فرصة ممنوحة للبشرية **للالتقاء** و الاجتماع و العودة إلى **الدين الحق، الدين الذي يتميّز بكمال التوازن.**

فالتوازن الدقيق الذي نجده حيثما نظرنا في خلق الخالق، سمةٌ من السمات الأساسية للقرآن الذي أنزله خالق الخلق. التوازن فيما بين سور القرآن، و فيما بين آياته، و فيما بين كلماته، و فيما بين حتى أحرفه، توازنٌ دقيقٌ و عجيبٌ في مدلولاته و في الآفاق الشاسعة التي يفتحها لفهم مكنونه.

و كذلك فإن الإسلام كدين و شرع و منهاج يتميز بكمال التوازن:

توازن أمثل بين ما يتعلق بالأمور الدنيوية و بين الأمور الأخروية و التحضير لها.

توازن أمثل بين القلب و العقل.

توازن أمثل بين الاهتمامات المادية و بين الاهتمامات الروحية.

توازن أمثل بين ماديّة الجسد و متطلباته و بين أبعاده الرمزية و النفس و الروح.

توازن أمثل بين الحقوق و بين الواجبات.

توازن أمثل بين حقوق و واجبات الفرد و بين حقوق و واجبات المجتمع.

توازن أمثل بين الحرية الشخصية و بين ضمانة سلامة و كرامة الفرد.

توازن أمثل بين الحرية الشخصية و بين حرية و حقوق الآخرين.

توازن أمثل بين الإنسان و فعالياته و بين العالم الذي يحيط به و ما فيه من مخلوقات.

سبق للزمن

طالما أن رسالة القرآن هي آخر رسالة من العليم الحكيم جَلَّجَلَالُهُ إلى البشرية قاطبة وإلى آخر الزمان، كان لا بدّ إذاً أن تتناسب تلك الرسالة مع تقدم الزمن بل و تسبقه.

ليس الإسلام ديناً كان مناسباً لعرب صدر الإسلام (القرن السابع الميلادي) حصراً، ثم كُيِّفَ بشكل متواصل ليتناسب مع المكان و الزمان و ظروف العباد.

الإسلام مُعَدٌّ أصلاً ليتجاوز إمكانيات الناس أيام صدر الإسلام، بحيث تجده البشرية على الدوام سابقاً لها و بانتظارها.

فالملاحظ أنه كلما تقدّم الزمن، كلما صار لآيات القرآن و لتعاليم الإسلام معنى.

إذ إن معظم الآيات عن التاريخ و أحوال البشر و الأرض و الخليقة و الكون، لم يكن بالإمكان فهمها أيام التنزيل و في صدر الإسلام كما يمكن فهمها حالياً.

من المستبعد أن يكون بإمكان المفسرين، إلى أيام الخلافة العثمانية أن يقدموا جواباً موضوعياً و دقيقاً لعدم ذكر فرعون في قصة سيدنا يوسف، رغم ذكره الدائم عندما يتعلق الخبر بسيدنا موسى. في حين أن النص التوراتي الحالي يذكر فرعون حاكماً لمصر سواء أيام يوسف أم موسى، عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ.

يكفي القيام بعمليات حسابية بسيطة و تقريبية للتأكد من تزامن حياة سيدنا يوسف مع العصر الطويل لاحتلال الهكسوس لمصر.

«فرعون» لقب لا يطلق إلا على المصري الذي يملك و يحكم مصر مع كهانه حسب تقاليد و عقائد مصرية صرفة. لم يلقب المحتلون الهكسوس رأسهم بفرعون لاختلاف تقاليدهم و عقيدتهم.

فما أدق النص القرآني، إذ لم تُذْكَر كلمة «فرعون» قط في خبر سيدنا يوسف بل «الملك»، كما أنه لم تُذْكَر كلمة «ملك» قط في خبر سيدنا موسى الذي عاش أيام الفراعنة، بل «فرعون».

من المستبعد أن يكون بإمكان المفسرين، إلى أيام الخلافة العثمانية، أن يقدموا تفسيراً موضوعياً عن آيات من أوائل سورة السجدة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾، و التي تختصر مراحل خلق الإنسان. لا بد من النظر إلى تلك الآيات بتجرد تام، لربطها باكتشافات حديثة من بعد تنقية تلك الاكتشافات من التأويلات الغربية، و ذلك للخروج بفهم دقيق للمعلومات الاستثنائية التي تحويها.

من المستبعد أن يكون بإمكان المفسرين، حتى أيام الخلافة العثمانية، أن يدركوا أبعاد آيات من سورة الواقعة مثلاً، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، كما صار ذلك بإمكان معاصرينا، و هم يواجهون كل ما يتعلق بالتلقيح الاصطناعي و أطفال الأنابيب أو أجنة الأنابيب لاستخدامها كخلايا جذعية أو حتى مسألة الاستنساخ.

الآيتان تذكرة إلهية للإنسان المعاصر كي لا يصاب بدوار جنون العظمة في اندفاعه في أبحاثه البيولوجية.

إن ادعى الإنسان السيطرة على الحياة و تكييفها حسب إرادته، أي بعبارة أخرى أن يصير خالقاً لما يريد من خلال التدخل في الجينات، فإن اللّه سبحانه يعيده إلى الوعي و التواضع سائلاً إياه: إن كنت حقاً تسيطر على الحياة، فما تفعل بما سأقوله لك: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٦٠-٦١]؟

نتابع في الآيات التالية من سورة الواقعة فنجد نفس نمط السؤال الإلهي لإعادة الإنسان من جهل الادعاء إلى صواب وعي الحقيقة، و ذلك من خلال سؤال لا يمكن فهم أبعاده إلا لمعاصرينا الذين يواجهون إشكالات التعديلات الجينية النباتية: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

كذا الأمر بالنسبة لادعاء البعض إمكانية السيطرة على الأمطار، لحل إحدى أعظم المشاكل العالمية التي تتربص بالبشرية: مشكلة الموارد المائية وتلوثها. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾. ﴿أُجَاجًا﴾ أي شديد الملوحة



أو كاوياً. الإسراف في استخدام المياه الجوفية أو مياه الأنهار لري المناطق الجافة، يؤدي إلى تراكم الأملاح القليلة التي كانت في تلك المياه قبل تبخرها، و إلى ملوحة التربة و تفاقم ظاهرة التصحُّر. كذا الأمر بالنسبة لتلوث المياه الجوفية بمختلف أنواع الملوثات مثل أملاح النترات. الدعوة العالمية الحالية لمواجهة كارثة الموارد المائية تركز على حسن توظيف تلك الموارد. هذه الدعوة للعودة إلى الصواب مطابقة تمام المطابقة للدعوة الإلهية: ﴿... فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، فالشكر بلغة القرآن: حسن توظيف العطاء الإلهي.

من المستبعد أن يكون بإمكان البشرية أيام التنزيل و في صدر الإسلام و حتى بعد ذلك، فهم الآيات العديدة المتعلقة بالأرض و ما عليها و بالكون و ما فيه، كما يمكن فهمها حالياً.

كيف كان بمقدور أهل ذاك الزمان فهم قوله تعالى من سورة الطارق: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾؟ هيهات لأهل زماننا أن يفهموا هذا الكلام. كيف كان بمقدور البشرية زمان صدر الإسلام فهم قوله تعالى من سورة الطارق: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾، أو من سورة الذاريات: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾، كما يمكن ذلك لأهل زماننا، و بناءً على المشاهدات الفلكية المعاصرة؟ كيف كان بمقدور البشرية زمان صدر الإسلام فهم قوله تعالى من سورة الطارق: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾، إلا بناءً على الخرائط المعاصرة لأعماق المحيطات، حيث يظهر ذاك الصدع بجلاء؟

من المستبعد أن يكون بإمكان المفسرين، إلى أيام الخلافة العثمانية أن يدركوا أبعاد موضوع الفساد المطروح في القرآن الكريم، كما يمكن معاصرونا إدراكه و لمسه. ذاك الموضوع الذي لا يمكن إلا تذكُّره عند قراءة قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ من سورة الروم. لا يمكن أن يدرك أبعاد هذه الآية إلا الإنسان المعاصر عندما يشاهد الكوارث البيئية العالمية التي يحمل مسؤوليتها. لقد بدأ يستفحل هذا الفساد بتسارع مضطرد منذ ما سُمِّيَ بالثورة الصناعية؛ ليصير كارثة فيما سُمِّيَ بالثورة الزراعية، و هذا كله باسم التقدم و الإصلاح لسعادة البشرية. ألا يذكر ذلك بقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾؟ فساد لا يقف عند الكوارث البيئية، بل يمتد إلى الكوارث الاجتماعية و البشرية.

***

طالما أن رسالة القرآن هي آخر رسالة من العليم الحكيم جَلَّجَلَالُهُ إلى البشرية قاطبة و إلى آخر الزمان، كان لا بد لتلك الرسالة أن تواكب مسيرة البشرية و تقدم الزمن.

إن تحلّى أي عاقل بالتجرد، فسوف يجد جليّاً أنه **كلما تقدّم الزمن، صارت البشرية أحوج لتعاليم القرآن و الإسلام لحلّ مشاكلها.**

لا مجال مثلاً، للكوارث البيئية في مجتمع إسلامي نشأ أفراده على تعاليم تَجْبل نفوسَهم باحترام شديد لأيّ مخلوق و لأيّ شكل من أشكال الحياة. فالمؤمن بآيات من القرآن مثل: ﴿... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤]، و ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم...﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨]، شديدُ التواضع أمام أيّ مخلوق، و لو كان حجراً.

يستحيل على المتمثل لتعاليم القرآن و الإسلام أن يفسد في الأرض أو أن يلوث أو يسمم أو يخرِّب أو حتى يقطع شجرة حية بلا مبرر.

كما أنه منهيٌّ عن التبذير كما تنصُّ على ذلك صراحةً آيات و أحاديث كثيرة، على رأسها آيةٌ تشبِّه المبذرين بالشياطين: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٧]. القائمون على المسائل البيئية و الموارد الطبيعية مجمعون على أن التبذير من الأسباب الأساسية في المشاكل البيئية الحديثة؛ لذا فإن الجهود العالمية الحالية للحفاظ على البيئة تُجمع على أن الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها هي الحد من التبذير.

علاوة على ذلك فإنّ المتمثل لتعاليم القرآن و الإسلام يجد نفسه بدافع من إيمانه ملزماً بتأدية واجب الشكر لله، و ذلك من خلال التوظيف الأمثل لكل ما يحيط به من موارد طبيعية. فالشكر في لغة القرآن ليس بالقول كالحمد، بل بالعمل و ذلك من خلال حسن توظيف العطاء الإلهي؛ وهو عين ما تسعى إليه الجهود الحديثة بحثاً عن التوظيف الأمثل للموارد الطبيعية.

من جهة أخرى، فإنه لا مجال في الإسلام لكوارث بشرية، كالتي حصلت نتيجةً للاستهتار بالناس و دعوتهم باسم الحرية إلى الانحلال الخلقي في المسائل الجنسية، كما حدث في الستينات و السبعينات من القرن الماضي و في الغرب خاصةً. ما إن ذهبت نشوة تلك السكرة، إلا و جاءت الثمانينات و الصحوة المزعجة أمام النتائج المأساوية: ملايين ضحايا مرض نقص المناعة المستعصي و مآسيهم و مآسي أهاليهم و أحبابهم. ناهيك عن المآسي النفسية و الاجتماعية

لعشرات الملايين ممن نشؤوا في عوائل مزقتها «الحرية»، أو ولدوا أبناء زنى خرَّب نفوسَهم بحثُهم عن آبائهم أو أمهاتهم الحقيقيين.

الأسرة الإسلامية الحقيقية أسرة متماسكة متضامنة إلى أقصى حدّ. و ذلك لأن صلة الرحم واجبة بحسب النص القرآني و استناداً إلى الحديث الشريف، إلى درجة أن الذي لا يحترمها ترفض كل حسناته و يطرد من الرحمة الإلهية.

هذه الأسرة بدورها، نواة لمجتمع متماسك متضامن متوازن، يوفر لجميع أفراده الكرامة و الاحترام و الرعاية التي يحتاجونها.

بذلك فإنّه لا مجال في ظلّ تعاليم الإسلام للتعاسة و الوحدة، التي تقتل ببطء الملايين من المسنين المتروكين في بيوتهم أو في دور العجزة، و الملايين الذين يعيشون على هامش المجتمع و على قمامة الأثرياء.

إذ إنه علاوة على دور الأسرة، فإن لكل مسلم دوراً في التكافل الاجتماعي من خلال واجب الزكاة، و كذلك من خلال ما لا حصر له من الصدقات و الهِبات.

كما أن للزكاة دوراً أساسياً في التكافل الاجتماعي، فإن لها دوراً جوهرياً في سلامة الاقتصاد. إذ إن نسبة ربع العشر المقتطعة سنوياً من رأس المال و ربحه و المخصصة للأقل دخلاً، لَكافيةٌ لتخليص الاقتصاد من الاختناق الدوري الذي يعتريه و من الأزمات المالية الناتجة.

لا يقف الأمر عند ذلك، إذ إن الإسلام يتميز عن «الأديان» الأخرى باحتوائه بصريح النص على أسسٍ جوهريةٍ كثيرةٍ، لا يقوم اقتصادٌ عادلٌ وناجح إلا عليها. نذكر على سبيل المثال تحريم الرشوة؛ حيث أخرج الترمذي بسند حسن صحيح قول ابن عمر: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ». [سنن الترمذي: ١٢٥٧].

و كمثال آخر: الضوابط الواضحة و الصريحة فيما يتعلق بالتبادلات التجارية، تلك الضوابط التي تمنع الاحتكار و المضاربة، و بالتالي لا تترك مجالاً لحدوث ما يسميه الاقتصاديون «الفقاعة»، والتي ينهار الاقتصاد بشكل دوري بانفجارها. و كمثال آخر: احترام شديد و رعاية للمُلكية الخاصة تتوازن مع حرص فائق على الدقة و الأمانة في تأدية و تأمين حقوق الآخرين، و على رأسهم حقوق العمال و ما يتعلق بحسن معاملتهم. ضمان حقوق و رعاية الأقل ثراءً أو الطبقة الدنيا و الأكبر من المجتمع، ضرورة لتحقيق التوازن، و بالتالي الأمان و الاستقرار في أي مجتمع.

لقد أثبتت التجربة و شهد على ذلك التاريخ، أن الاقتصاد كان على الدوام منتعشاً و مزدهراً في

ظل تطبيق و لو جزئيّ للقرآن و الإسلام. فكيف لو كان التطبيق أمثل!

من ميزات تلك الأسس الجوهرية الإسلامية، التي تضمن وجود واستمرار اقتصاد عادل و منتعش، انسجامها مع الروحانيات.

تلك الروحانيات التي ينضح بها القرآن الكريم تعيد الاقتصاد إلى مكانه الصحيح: و ذلك بتحويله من هاجس جنوني في طلب الثراء سعياً وراء الهيمنة، إلى وسيلة تساعد الناس في عبورهم هذا العالم طلباً للآخرة.

و من هاجس جنوني يهبط بالنفس و يشوهها، إلى وسيلة تُحَرِّرُ النفسَ من الركوع أمام الحاجات المادية للالتفات و التسامي في المساعي الروحية.

أما الأخلاقيات الإسلامية فإنها تشكل القوة الرادعة التي تنجح حيث تفشل كل قوانين العالم!

لم تنجح القوانين الحديثة في الحد من تفشّي الرشوة و استفحال السرقات و العنف و القتل و انتشار المخدرات. لقد توصل معظم القائمين على المجتمعات الحديثة، رغم أنفهم، إلى الاعتراف في ظل العلمانية بخجل أن الرادع الوحيد الفعال في القضاء على الجريمة في كل أشكالها هو الرادع الديني.

ذلك الرادع متكاملٌ في الإسلام و فعّال، إذ يقوم على نصوص من الوحي صريحة، قادرة على استباق الأحداث و التحسب لكل الحاجات، لتقدم أسس كل ما يحتاجه المجتمع في هذا المجال.

❊ ❊ ❊

إنها لميِّزة عظيمة وجود نصوص موحاة من خالق الكون تقدم أسس و ضوابط كل النقاط التي تعرضنا لها.

تلك الميزة تكمن في **الانسجام** بين تعاليم الخالق، و بين الخليقة التي هو سبحانه أعلم بها.

و كذلك في الفارق بين عمق و شمولية النظرة الإلهية لمسألة ما، و بين نسبية النظرة البشرية لنفس المسألة و محدوديتها في الزمان و المكان.

إضافة إلى ما سبق، من بعد قرن لتفعيل التنوير، و قرن من الانفكاك، و قرن من العلمانية و الإلحاد، فإن البشرية حالياً أحوج ما تكون على الصعيد الروحي لحقيقة القرآن والإسلام.

إذ يفوت السواد الأعظم للناس أن الزمن ليس مجالاً ثابتاً في خصائصه، يتطابق فيه أي «جزء» منه في الماضي مع مثيله في الحاضر أو المستقبل.

الزمن، و كما هو جليٌّ في النص القرآني و في الحديث، نسبيٌّ و متبدل، و هو حالياً متسارع باضطراد.

لا بد من إدخال حقيقة نسبية الزمن و تسارعه في الحساب عند النظر في مختلف النُهُج و الشرائع الدينية، و صلاحيّة ما تقدمه لعبور الإنسان في هذه الحياة، و خاصة ما تقدمه لنجاته و سعادته في الآخرة.

النُّهُج مَسِيرة لها مراحلها و تتطلب وقتاً لإتمامها.

إن افترضنا وجودنا أمام نهج أو شرع ديني من وحي الله إلى قوم من الأقوام، قد وصل إلينا كاملاً بلا تحريف و بلا أي تدخل بشري، فإن ذلك الشرع غير مناسب لزمننا لأنه كان معداً لزمن آخر مختلف في خصائصه. لذلك، فإن تطبيق ذاك الشرع أو النهج في زمننا هيهات أن يوصل معتمِدَه بجهدٍ جهيد إلى منتصف الطريق.

دين القرآن هو الدين الأوحد المعَدُّ في كافة جوانبه ليتناسب مع تسارع الزمن، و هو فعال لدرجة أنه يمكِّن الذي يطبق الحد الأدنى منه الوصول إلى بر الأمان. فإلى أيَّة آفاق يصل من يجتهد في حسن تطبيقه!

* * *

لبشرية بلغت سن النضج و العقل

ليس الإسلام مجرد دين بين الأديان، بل هو المرحلة النهائية و الشاملة للرسالة الإلهية الموجهة لبشريةٍ بلغت سن النضج و العقل.

في خطة كونية محكمة، كانت الرسالات الإلهية المتلاحقة عبر الدهور و في مختلف بقاع الدنيا، متناسبة مع ظروف و إمكانيات و مؤهلات الأقوام التي كانت تتلقاها. لذا فقد كانت هذه الرسالات إضافة لما فيها من حق و نذر تعتمد على هزّ النفوس و المشاعر من خلال «المعجزات».

أسلوب «المعجزة» سريع المفعول في دعم مصداقية الرسول من خلال قوى خارقة، و كذلك من خلال الإعجاز أي نفي إمكانية منافسة صاحب «المعجزة» أو حتى مجاراته. **ليس** نفي إمكانية المنافسة أو حتى إمكانية المجاراة **إلا** مظهراً من مظاهر القوة الخارقة، و التي تحرك في أيِّ مخلوق ردّة فعل فطرية و بدائية: **آلية الخضوع للأقوى**.

طالما أن آلية الخضوع للأقوى فعالة في أيِّ مخلوق، فهذا دليل أنها لا تحتاج إلى ملكات عقلية متطورة.

لا يكمن الإشكال في «المعجزة»، بل في من يشهدها. فهي على الدوام خرقٌ لعادة الشهود. عادة الشهود يختلف حسب المكان و الزمان، فلو رجع أحدنا بإحدى أدوات زماننا العادية و المألوفة إلى قوم قبل ألف سنة، لاعتُبِرَ صاحب «معجزة».

و ليس كلّ من يخرق العادة برسولٍ لرب العالمين.

ما أكثر من لم يكن نبياً ولا رسولاً، و خرق العادة بممارسات سحرية تقوم على القوى الخفية السفلى.

ما أكثر الكُهّان المصريين أو الكلدانيين أو الهنود أو اليونان أو الرومان أو غيرهم، و ما أكثر من لحقهم من أحبار أو قساوسة و رهبان و أئمة ملل باطنية و مشايخ يدَّعون الصوفية، ممن خرقوا العادة إما بالاستعانة بالقوى السفلى، أو بحيلٍ فيزيائية انطلت على من شهدها.



لا يقوم الإسلام على استجرار الحشود من خلال الأسلوب الاستعراضي و العتيق للعجائب أو الخوارق، خلافاً لما هو شائع و رائج في الأديان الأخرى التي لا تزال قائمة.

لذا نجد على مدى صفحات القرآن الكريم تبياناً منه سبحانه أن «معجزات» أنبياء الأمم السابقة لم تنفع إلا أفراداً نادرين في إيمانهم، و أنها كانت حجة على من لم يؤمن بالذي شاءها.

لم تنفع «معجزات» سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذين عملوا المستحيل لقتله صلباً من اليهود. لم تنفع «المعجزات» التي أتى بها سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إيمان فرعون. لم تنفع تلك «المعجزات» بني إسرائيل الذين شهدوها، و الذين انشق أمامهم البحر فعبروه و نجوا، لم تنفعهم في إيمانهم عندما عبدوا العجل ما إن تركهم سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أياماً. هذا دليل أن **مفعول «المعجزة» آنيٌّ و قصير المدى.**

لم تنتفع قوم ثمود «معجزة» الناقة. هذا دليل أن **العادة تبطل في الأنفس مفعول «المعجزة» التي تقوم على خرق العادة.**

لذا، فإننا لا نجد في الإسلام الأصيل تركيزاً أو اهتماماً و لا حتى التفاتاً إلى «المعجزات» الكثيرة التي جرت على يدي خاتم النبيين! إذ لم يقُم الإسلام عليها.

علاوة على ذلك، فإن العجائب و الخوارق لا سبيل لها إلى القلب و العقل القائم على الإسلام الأصيل، لأن أعظم العجائب و الخوارق في تاريخ البشرية تكون على يديّ المسيح الدجال في آخر الزمان!

لقد أيّد الله أنبياءه و رسله بالبينات **كدليل على صدقهم**، و من بينها «المعجزات» كضمانات. و لكن تلك «المعجزات» كانت محدودة بالزمان و المكان.

كان لا بدّ لنبي آخر الزمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، من بينات يثبتُ بها لمعاصريه و للناس كافة أن رسالته حق، و أنها وحيٌ من رب العالمين.

أعظم تلك البينات اجتمعت في القرآن الكريم، كمعجزة تتميز عن «المعجزات» السابقة بتجاوزها حدود الزمان و المكان.

من جهة أخرى، فإنَّ أعظم «المعجزات» الدالة على صحة الدين و ألوهية مصدره، ليست في خرق العادة. بل، و كما هو مبين في القرآن الكريم، في «المعجزات» الإلهية الكبرى و المتواصلة المحيطة بنا و التي حجبتها غفلة العادة. فالعادة غشاوة تحجب البصيرة و تلبِّد النباهة.

القرآن الكريم أبعد ما يكون عن مجرّد «معجزة» تضمن صدق نبي آخر الزمان.

مُنَزِّل القرآن سبحانه و خالق البشرية و الذي هو أعلم بها، يعتبرها قد بلغت حد النضج، وقد آن لها أن تتخلص من التصرّف من خلال أهواء و أخطاء و سطحية المنظار الشخصي و الدنيوي. بشرية آن لها أن تُحَكِّم العقل ليكون قائماً على الحقيقة.

لذا فإنّ الإسلام أبعد ما يكون عن الأساليب الاستعراضية التي تستأثر بالمشاعر و تبهر النفوس على حساب تخدير العقول.

لا تتطلب الأساليب الاستعراضية ملكات عقلية متطورة!

فهي تقوم على الحواس من خلال سطحية المؤثرات الصوتية و البصرية، و تهدف إلى **الإبهار بالخروج عن المألوف و إلى فرض الهيبة**. و ذلك من خلال مظاهر القوة و الثراء مثل كثرة المواد الثمينة أو البرّاقة، و تمَيُّز الأماكن أو المعابد المختارة، و خاصة كثرة و تمَيُّز و انضباط الحشود المشاركة.

لعل أول من استخدم تلك الأساليب الاستعراضية هم الفراعنة. العجيب أن أدياناً معاصرة تستخدم نفس الأساليب.

هذا هو حال الاحتفالات الاستعراضية السنوية التي تتوج حج سانتياغودي كومبوستيلا، أو الاحتفالات الاستعراضية في الفاتيكان لعيد الميلاد و عيد الفصح، أو أعياد بعض المناسبات أو القديسين في إيطاليا و إسبانيا و كثير من دول أمريكا اللاتينية، أو التجمّعات الكبرى بحضور البابا و خاصة تجمّعات الشباب. و كذلك في الاحتفالات الدينية الاستعراضية في الهند و سريلانكا و تايلاند مثلاً.

هل تقوم عقيدة سليمة على الملابس أو المواد الثمينة، أو المواكب العجيبة، أو المؤثرات السمعية أو البصرية؟

لا بأس في ذلك كلّه في الحياة العادية ككرنفال أو تسلية فولوكلورية.

و لكن العقيدة القائمة على الحقيقة، و التحضير لمصير أبدي في الآخرة، و التواصل مع خالق السموات و الأرض، أمورٌ أكثر جدية.

القرآن برمته دعوة متواصلة لتحكيم عقل نقي و جليّ و ناضج في كل الأمور. و ذلك كخطوة أولية، أبعد ما تكون عن أسرٍ للنفس في عقلانية باردة و قاسية و محدودة. بل كخطوة أولية تهيئ النفس لاكتشاف آفاق لانهائية و للتسامي فيها.



منهج القرآن و الإسلام

السؤال الذي يطرح نفسه، من بعد الأخذ بالعلم بكل ما سبق و عرضناه عن القرآن و الإسلام، هو: «إلى أين يوصِلان؟ و كيف؟».

أي عملياً: «ما منهج القرآن و الإسلام؟».

المنهج ليس سوى كيفيّة الوصول إلى غاية.

لذا، فإنه لا يمكن الخوض في منهج لفهمه و لفهم آلياته، قبل معرفة غايته.

لا حاجة للبحث عن غاية القرآن في مؤلفات العلماء و المفكّرين المسلمين، فالجواب الجوهري على هذا السؤال موجودٌ في القرآن نفسه بصراحة و جلاء:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ

لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١].

أي: خروج من ضيق شتات تضارب تعدُّديّة ظلمات الأنا و الجهل، إلى ملتقى انسجام لانهائية النور.

بذلك، فإن منهج القرآن و الإسلام يقومان على السمو بالنفس و العقل إلى النور الحق.

أي إلى أقصى مستوى ممكن من الصفاء و الرقيّ في النفس، و الوعي في الرؤية و الموقف و العمل.

الهدف النهائي لذلك السمو هو الوصول إلى المستوى اللائق بلقاءِ اللّه العزيز الحميد البر الرحيم في سلام و رضا السعادة الأبدية. ﴿...رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: ٥/١١٩]، ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٣٦/٥٨].

فلا إسلام حقاً إلا بعملٍ متواصل للسمو بالنفس و العقل.



السمو بالنفس

السمو بالعقل و تحقيق المستوى الأقصى للوعي يستوجب بالضرورة سمواً بالنفس، و إلا كانت عائقاً مانعاً.

إذ ما فائدة شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله بعلومها و عظَمَتها، و الصلاة وما فيها من علوم لدنّيّة، و الصيام و الزكاة، و الحج وما فيه من رموز عظيمة، مع كِبْرِ النفس، مثلاً؟

فقد قطع و بتَّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ قال:

«**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ**

مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» [صحيح مسلم: ١٣٣].

لذا، فإن العمل على السمو بالنفس ليس استدراكاً مُلحَقاً بالإسلام اعتنى به مشايخ أفاضل، بل،إن ذلك العمل من أساسيّات الإسلام. فقد قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاَقِ**» [موطأ مالك].
و قال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ...﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

هذا العمل من المواضيع الأساسية المعروضة على مدار القرآن، إلى درجة أنه محور و بيت قصيد سورة الشمس برُمَّتها. و ذلك في أربع آيات تتوسط آيات بالِغة الرمزية: ست قبلها يُقسِم فيها سبحانه بأمور كونية للدلالة على خطورة الموضوع المطروح، و خمس تليها هي تذكرة بقوم ثمود كمثال نموذجي لهبوط الأنفس و جنوحها. هذه الآيات الأربع لشديدة التركيز والوضوح، كقانون لا يُنْسى، و خاصةً الأخيرتين منها ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

قانونٌ إلهي صريح في النص القرآني الشريف، يقوم الإسلام الحق عليه.

تجاهل أو إهمال ذلك القانون الإلهي، و الاكتفاء بتطبيق شكليات أركان الإسلام و بعض مظاهر السُّنَّة المشرفة، هو السبب الأساسي في انحراف أو تهور و فشل و مصائب أجيالٍ من المسلمين.

تزكية النفس، **أي السمو بها** يكون بتمثل الأخلاقيات الإسلامية للارتقاء إلى مساعٍ عالية.

تعاليم الإسلام، في حقيقتها، منهج يتّصف بالانسجام و التكامل.

فهو يعمل أوّلاً، على تحرير الملتزم به من هيمنة الدوافع الغريزيَّة، لا بخنقها، بل برفعهابما يليق بالكرامة.

إذ تشترك تعاليم الإسلام بعامل مشترك، ألا و هو صون الكرامة.

بذلك، فإن العامل المشترك للمحرّمات في الإسلام، هو كلّ ما يسيء بالحقيقة وعلى المدى القريب أو البعيد إلى الكرامة.

كذلك، فإن تعاليم الإسلام تقوم و بشكل فعّال بتخليص الإنسان من نوازعه النفسية البدائية برفق و من غير كبت، للوصول به إلى النضج و الرقي.

نذكر على سبيل المثال **الأنانية**: فقد لخَّص الرسول الأكرم المنهج المتعلق بهذه النقطة بقانون: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» [صحيح مسلم: ٦٤]. هذا المنهج لا يقف عند الوعظ والشعارات الجميلة، إذ إن الزكاة و الصدقات و إطعام المسكين و جميع أنواع البرّ المتلازمة مع كلّ لحظات حياة المسلم و على رأسها برّ الوالدين و صلة الرحم، هي منهج تربوي عملي و واقعي بما فيه من إلزام، لتخليص الإنسان من ذاك الاستعداد النفسي الشائع و المعيب، وليعلم أن «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ» [صحيح البخاري: ٢٢٦٢].

من أساسيات المنهج القرآني للسمو بالنفس **تخليصها من الانصياع للأهواء**. فقد قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٠-٤١].

فالهوى، في حقيقته، انقطاعٌ عن المرجعية الإلهية و عن الانسجام مع النظام الكوني للغرق في ضيق و حجب مرجعيةٍ ذاتيةٍ متأججة، و هدرُ صاحبِه لما مُنِح، بقَدَرٍ، من قوةٍ و وقت، ما أحوجه لهما لمهمّته في عبوره السريع في هذا العالم.

كذلك فإن كلّ شيء يمكن القيام به **لتخليص المرء من مركزية نفسه و من تعظيمه إياها**، موجود في تعاليم الإسلام. و ذلك من خلال الحثّ على التواضع و احترام الآخرين أي المجتمع، و الانفتاح عليه بالمساهمة فيه بشكل إيجابي. كما تشير إلى ذلك آيات و أحاديث كثيرة، نذكر منها:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٨-١٩].

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٨-٩]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ... ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٤].

كيف لمسلم أن يمنّ على أيٍّ كان أو يتعدّى عليه بأيّة إساءة، و قد جبلت نفسه بقانون إلهي يُظهِر حقيقة الأعمال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧].

فأيّ صفاء في نفوس الذين يطبِّقونه و أيُّ وقار.

فهم،إن أحسنوا، لا يتفاخرون و لا ينتظرون ثناءً و لا مقابلاً، لعلمهم أنَّما يحسنون لأنفسهم. فلا يُحرِجون أحداً و لا يثقلون عليه. و كذلك فإن نفوسهم تبقى صافية مهما صدر عن الذي أحسنوا إليه. و هم، بالطبع، لا يجرؤون على أيّة إساءة،لعلمهم أنما يسيئون، بالحقيقة، لأنفسهم.

فأيّ سلام في مجتمع يتم فيه تطبيق هذه التعليمة الإلهية.

مجتمع لا مبرر فيه للنزاعات و لا مكان فيه للأحقاد. فكل فرد فيه يقوم بعمله و يؤدّي واجباته على أحسن وجه، و لا يسيء لنفسه أو للآخرين بشيء.

ولا يقف الأمر عند ذلك، بل إن قانون ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ...﴾ يحرر النفوس التي جُبِلت به، بمجرد تطبيقه و بطبيعة الحال، من علة نفسية خطيرة في حقيقتها وفي عواقبها، وهي **الحاجة إلى كسب إعجاب و تأييد الآخرين**.

هذه العلة دليلٌ واضح على عقدة نقصٍ ما، و بالطبع، على ضعفٍ في النفس. ضعف في النفس لا يُرضي الذي يريد عزماً و عزة و سمواً لأنفس عباده.

فالذي تحكمه هذه العلة، و هو يسعى إلى التفوّق، يضع نفسَه، في الواقع، دون غيره لافتقاره إلى إعجابهم و تأييدهم.

خطورة هذه العلة، في الحقيقة، تكمن في صرف عقل و وجدان صاحبها عن الذي بيده ملكوت السماوات و الأرض و الذي إليه **المصير** هبوطاً سحيقاً إلى الناس. ناسٌ يصفِّقون مع المصفقين، و يُدّبِرون هاجرين مع المدّبِرين عند أول مشكلة.

خطورة عواقب هذه العلة هي النتيجة الحتمية للانصراف عن الذي إليه المصير.



فقد حذَّر الرسول الأكرم من ذلك صراحة في حديث رهيب:

«إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ **فَقَدْ قِيلَ**. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ **فَقَدْ قِيلَ**. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ **فَقَدْ قِيلَ**، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» [صحيح مسلم : ٣٥٢٧].

فالنفس و مصفقيها عابرة في هذه الدنيا عبوراً سريعاً، لتخلد في عالم آخر بعد أن تحاسب على كل كبيرة وصغيرة، لا ينفعها الذين صفقوا يومئذ بشيء، إذ إن همّهم الأوحد هو النجاة بأنفسهم. و لا تجد من عملها شيئاً ينفعها، إذ إنها كرّسته بالكامل للدنيا و لأهل الدنيا.

و قد بيَّن سبحانه ذلك بقانون جلي و في غاية الأهمية لإظهاره بنوره الساطع أساسيات مصيرية:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ **أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا** وَهُمْ **فِيهَا** لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود: ١١/ ١٦].

هذا القانون القرآني يجيب، كذلك، بوضوح على حيرة و حتى على اعتراض الكثيرين، مما يرونه من أحوال الناس. إذ إنهم لا يفهمون كيف يكون أناسٌ أو قوم بألف خير من النجاح و الرخاء و هم بعيدون كل البعد عن الله ﴿... نُوَفِّ إِلَيْهِمْ **أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا** وَهُمْ **فِيهَا** لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فلا بد إذاً في العمل على السمو بالنفس من التخلص من ضعف و ذل الحاجة إلى كسب إعجاب و تأييد الآخرين.

قد يعترض البعض بحجة أن تلك الحاجة بمثابة دافع قوي للطموح و للتفوق.

دافع جبار كان، في الواقع، وراء نجاح و تفوق معظم السياسيين و الشعراء و الأدباء و رجال الأعمال و العلماء و المستكشفين و الفنانين و الرياضيين. ولولا قوة دافع تلك الحاجة لما رأينا إنجازاتهم العظيمة.

شخصيات و إنجازات عظيمة تثير إعجاباً و ثناءً قد يؤثّران في شباب للتفوق؛ حالمين أن يكونوا يوماً مثل تلك الشخصيات، مبجّلة معظمة و أسماؤهم في الصحف والقواميس، أو حتى منقوشة على رخام قبورهم في صروح عظيمة حيث يرقدون، و الناس تتتابع أمامهم واضعين الزهور، و يتلقَّون برضاً و ترَفُّع ما يَصِلُهم في ضوء و سكون عالمهم السرمدي من تعظيمِ و تبجيلِ مما يقال أو يُكتب عنهم...

أوهام!

لا سكون سرمدي، و لا ترَفُّع و رضا. و إنما أحوال قبرٍ، اللّه أعلم بها، و حساب دقيق يوم القيامة.

فلا بد، إذاً، من تحرير النفوس من تلك العلة ابتداءً من الصبي الذي يسعى إلى كسب إعجاب و تأييد رفاقه وصولاً إلى المشاهير.

و لا يمكن تبريرها كدافع للاجتهاد و التفوُّق.

هل يعني حذف ذلك الدافع أن تعاليم الاسلام تدعو إلى عيش رتيب و متواضع؟

إطلاقاً!

إذ إن تعاليم الاسلام تتضمَّن مجموعة متكاملة فعالة و نبيلة من الدوافع للاجتهاد و التفوُّق. لعل أوضحها و أكثرها صراحة أمره سبحانه و تعالى لعباده: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٩].

فالمسلمون مدعوون، إذاً، للاجتهاد غاية الاجتهاد و للتفوق ليكونوا في مكان الصدارة في كل مجال. لا من باب التعالي و التكبر، بل لأنهم أولى بمكان الصدارة، لما في دينهم من أخلاقيات و قِيَم تجعلهم خير من يكون فيه.

و من الدوافع الأساسية للاجتهاد و التفوُّق، في تعاليم الاسلام، واجب الشكر.

و ليس الشكر كما يفهمه أهل زماننا: كلمات يقولها المرء للتعبير عن امتنانه، بل، و بلغة القرآن: **حسن توظيف العطاء الإلهي.**

بذلك فإن القيام بواجب الشكر يدفع المرء إلى الاجتهاد غاية الاجتهاد لتوظيف العطاء الإلهي بالشكل الأقصى و الأمثل. مما يوصل بالضرورة إلى تفوق مشرق متألق نبيل و متسام إلى اللّه!

هذا إضافة إلى الاجتهاد و التفوق بدافع الغيرية، لخير الناس.

دوافع نبيلة و نوايا طيبة و نفوس صافية و راقية و حسن ختام في رضا اللّه.

«مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ» [صحيح البخاري: ٢٢٦٢].

«مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي» [صحيح مسلم: ٢٩٥].

«لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ» [صحيح مسلم: ٣٠٣].

«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» [صحيح البخاري: ٥٦٠٤].

«لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ اللَّهُ» [صحيح مسلم: ٤٦٤٨].

لقد اختصر سبحانه ذلك كله، في سورة الشعراء، بقانونٍ ذهبي ليكون أساساً و معياراً دائمين في السلوك.

قانونٌ بقدر ما هو في حقيقته رهيب، بقدر ما هو إيجابي، إذ إنه يجبر الذي عَلِمَ به مراجعة نفسه بشكلٍ متواصل لتزكيتها:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٨-٨٩]

إضافة إلى ما سبق، فإن **تعاليم الإسلام تقود إلى تحقيق مستوى عالٍ من ضبط النفس.**

يتجلى ذلك من خلال ضبط الأفكار و المشاعر أي كلّ ما يختلج في النفس. بحيث لا يرضى المتمثل لتعاليم الإسلام لنفسه أفكاراً أو مشاعرَ رديئة أو سلبية: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٠]، «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» [صحيح مسلم: ٦٧٠١].

و لا يرضى لنفسه غفلةً ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ﴾ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠١]. فالغفلة مذمومة في القرآن أشدَّ الذمّ ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

من أساسيات ضبط النفس المفروغ منها في الإسلام: تمالك النفس عند الغضب.

فقد أوصى الرسول المصطفى بذلك صراحة و مراراً في أحاديث معبِّرة مثل: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّما الشَّدِيدُ الَّذِي **يَمْلِكُ** نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ». [صحيح البخاري: ٥٦٤٩]، و«إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ» [سنن أبي داود: ٤١٥١، مسند أحمد: ٢٠٣٨٦]. و«أن رجلاً قال للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أوصني**. قال: **لَا تَغْضَبْ**، فردد مراراً، قال: **لَا تَغْضَبْ**» [صحيح البخاري: ٥٦٥١]. أي إن الرجل ردد مراراً: «أوصني»، و في كل مرة كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «**لَا تَغْضَبْ**».

فالغضب جملة من ردود الفعل الجسدية و الكلامية، في **صيغ جاهزة** عدوانية تأخذ معظمها جذورها من البيئة المؤثرة في الشخص و من مجتمعه و ثقافته و تقاليده.

ردود فعل ذات أثر شديد السلبية، قد تدوم نتائجه المخربة و السامة أجيالاً في قطيعةٍ بين أفراد و حتى بين أرحام. هذا إن لم يصل الأمر في الغضب إلى الأضرار التي لا يمكن إصلاحها، أو إلى أشكالٍ من الجناية.

العلة الأساسية في الغضب هي التصرُّف تحت سلطان فورة النفس التي تُهَمِّش العقل و الحكمة.

لذا، و بقياسٍ جليّ، فإن تمام الامتثال لتعاليم المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الغضب و تمام التَّفقُّه فيها يكون:

بعدم التصرُّف، عموماً، تحت سلطان الانفعالات و ردود الفعل،

بل تحت سلطان عقل مَوصول بنور المرجعيّة الإلهية.

كم من مصائب حلَّت بالأمة الإسلامية كان سببها تصرُّف الحُكّام والأئمة و العامّة، تحت سلطان الانفعالات و ردود الفعل.

فالعدو الحاذق هو الذي يعلم كل انفعالاتِ و ردودِ فعلِ ضحيته، و يعلم كيف يثيرها ليدفع ضحيته إلى التصرُّف تحت سلطانها، فتقع في مهالك حبائل مكائده.

من أعظم التعاليم القرآنية التي تقود إلى تحقيق مستوى عالٍ من ضبطٍ للنفس ينعكس سكينةً و سلاماً على المستويين الفردي و الجماعي، أمرٌ إلهي قرآني بمثابة الدرة البهية و الترياق و البلسم الشافي لمن يمّتثِل له، و هو قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ٣٢﴾ [النساء: ٤/ ٣٢].

اللافت للنظر في القرآن الكريم أن جميع الكلمات من عائلة «تَمَنّى» واردة فيه ضمن إطارٍ سلبي.

فالأماني، فيه، على الدوام هزيلة لا أساس لها، و مصحوبة بوهنٍ في الوعي و العلم و الموقف و العمل. مثل أول واحدة تطالعنا في القرآن الكريم:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ [البقرة: ٢/ ٧٨]، و التي تليها: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: ٢/ ١١١]. و خاصة مثل تلك التي في قصة قارون و ثرائه الفاحش الذي: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٩-٨٢].

و يصل الأمر في بعض الآيات إلى السلبية الشديدة، كالآيات التالية التي تكشف بعداً رهيباً للتمنّي:

﴿... وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ



وَلَأُمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأُمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٠]!

فالأماني، في حقيقتها، من أهمّ أدوات الشيطان و أبوابه.

لذا فهو يترصّد أياً كان يتمنّى ليتدخّل في أمنيته، و لو كان رسولاً أو نبياً!:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٢].

هذا كله قد يصدم معاصرينا، لما فيه من تباينٍ شديدٍ مع الوقع الإيجابي و اللطيف للتمنّي في لغتهم، و منذ أمد.

فالناس يتبادلون أطيب التمنيات، و يرجون لبعضهم بعضاً أن تتحقق أمانيهم. و الأكثر من ذلك، فإن نفوسهم تنشأ منذ طفولتهم و للأماني مكانٌ و أهمية فيها، فهي مرتبطة بأعياد الميلاد و رأس السنة و مناسبات أخرى كثيرة. هذا ما يضفي عليها مسحةً من البراءة و الوداعة، و خاصة في الثقافة الغربية، و الأنجلوساكسونية بالذات.

ليس ذلك، في الواقع، إلا وهْم و غفلة و أحلام خلَّبية.

إذ، و بتجردٍ عن المفهوم المعاصر، و بقليل من التفكير، نجد أن أقلّ ما في التمنّي، موقفٌ وَهِنٌ حالم عاطل عن العمل.

هذا إضافة إلى إتلافه للوعي و البصيرة، بالغرق في وهْم تحقّقِ المراد بمجرد التمنّي.

إضافةً إلى ذلك، فإن أثر التمني و فِعْله على النفوس، و هذا ما يهمنا في ذلك الموضوع، سلبي للغاية و مخرب.

إذ، و بعد لحظة التمني الحالمة الشبيهة بجرعة مخدِّر، فإنه يضع النفس في حالة انتظار ثم شعور بالنقص. ما تلبث أن تتحول، مع الأيام، إلى حالة من الحزن و الضيق و المرارة و الإحباط و شعور بالغبن. هذا ما يلبث أن يتحول عند الكثيرين، و خاصة الذين يتمنون ما يتميّز به الآخرون عليهم، إلى حسدٍ و نقمة و غل تجاه كل الناجحين و المُنعمين.

و كل ذلك في شخصية لم تنشأ على الواقعية و العزم و الأخذ بالأسباب. هذا مما يزيد من سوء حالها و فشلها وهي واقعة في هذه الدوامة.



فتصير هي و أمثالها، و ما أكثرهم، عناصر سلبية في المجتمع،و نفوساً حامضة عكرة و محبطة، فيها كل بذور و استعدادات الجنوح و الجِناية، من أهزلها و أجبنها إلى أخطرها.

فلا مجال لترك النفس تدخل في وهنِ أوهام سلبيةِ التمني، فتكون في خطر جنوحٍ بعيد مع شيطان الأنا.

و الانتباه إلى ما ورد في القرآن الكريم عن سلبية التمني و خطورته، إذاً، ضبط للنفس و وعيٌ و عزمٌ و خروجٌ من الظلمات إلى النور.

فلا بد من هجر التمني و التحرر منه نهائياً، و لو ضاق صدر معاصرينا بذلك.

إذ قد يجدون في ذلك قسوة مع النفس و تقشُّفاً يصل إلى الكبت.

فالنفس تصبو لكل خير و حسن! فما أصعب منعها من ذلك.

اللّه جَلَّجَلَالُهُ أدرى بنفوس خلقه و ما تصبو إليه، و دينه ليس دين قسوة و تقشُّف.

فهو، من جهة، يبيِّن في كتابه الكريم عدم جدوى التمني، و خطورته كمدخل سهل للشيطان على نفسٍ في حالة تراخي. و ينهى عنه نهياً صريحاً عندما يصل الأمر في تفاقمه إلى تمني ما عند الآخرين.

إذ العامل المشترك لكل ما ينهى عنه هو صون الكرامة.

فأي إهانة للكرامة، في الحقيقة، أن يتمنى المرء ما عند الآخرين! فهو يُعَظِّمهم فيُحَقِّر نفسه من حيث لا يدري، إذ إنه كالذي يرضى لنفسه ما استخدمه الآخرون من متاع و ملابس و من أدوات و أواني طعام.

من جهة أخرى، و قد نهى سبحانه عن التمني، فإنه يقدِّم البديل، لا في سُوَرٍ أخرى، بل بعد ثوانٍ وفي نفس الآية:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ
وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ...﴿٣٢﴾﴾!

فأي صون للكرامة و أي شرف أن يكون المرء مدعواً من خالق الكون الذي بيده الخير كله للتوجُّه إليه في سؤال الفضل.

و أي نفسيَّة سمحةٍ متوازنة و متماسكة،تلك التي استغنت بفضل الله عن الحاجة إلى الآخرين، فلم تعد كالمتسوِّل الذي ينظر بعجزٍ وتمنٍّ و حسرة إلى ما عند غيره.

بذلك، فإن الامتثال لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾، تحقيق لمستوى عالٍ من ضبطٍ للنفس و سمو بها يخلِّص الفرد و المجتمع من مشاكل كثيرة و كبيرة منفتحة على عمل الشيطان.

ألا يكفي المتدبِّر مدعاة تفكُّرٍ أنه لم يرد في القرآن الكريم قط أن أهل الجنة يتمنَّون؟

تعاليم الاسلام تقود كذلك إلى ضبطٍ أقصى لأيِّ شكل من التعبير، إن كان إيمائياً أو كلامياً. إذ ثمة ارتباط وثيق و تفاعل بين التعبير و بين أعماق و خفايا النفس. فكما أن أيَّ تعبير سلبي يكشف عيوب أو سلبية النفس التي تنضح به، كذلك فإن أيَّ تعبير سلبي، إن لم يدفعه سامعه عن نفسه، يؤثِّر فيها سلباً، ما دام يدبق بأعماقها كالقطران.

لذا فقد قال سبحانه في ذكره للصفات الأساسية للمؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٣]. فاللغو هو كل تعبير لا يتَّصف بالصحة أو الدقة، و كذلك ما لا حاجة له، و حتى ما لا داعي له مما هو مفروغ منه أو مما لا يقدم و لا يؤخِّر.

إن كان اللغو، كما عرَّفناه، مذموماً في الإسلام، فما بال أشكال التعبير السلبية، من السوقي إلى الجارح و من الافتراء و النميمة إلى الكذب و التضليل!

بذلك، فإن المسلم مسؤول عن أيّ كلمة يقولها.

عليه أن يعي ما يقول، و كذلك وقعَ و عواقبَ ما يقول، حتى لو في المزاحة. فقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ كُلَّهُ حَتَّى يَتْرُكَ الْكَذِبَ فِي الْمُزَاحَةِ وَيَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا» [مسند أحمد: ٨٢٧٦].

ليس ذلك كبتاً للعفوية، بل تنشئة منذ الطفولة الأولى على انضباط راقٍ، هو راحة و أمان لمن اعتاد عليه.

لقد كان خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قدوة في دقّة و إيجاز و فصاحة و أناقة التعبير.



كذلك فإن تلك التعاليم تقود إلى ضبط كل الحركات و الأفعال و التصرفات إلى أقصى ما يكون بما يليق بكائنٍ راقٍ يباهي الله به ملائكته.

بذلك و قد عمل المرء على التخلّص من عيوب نفسه و على إصلاحها، اضمحلت و تلاشت سلبيتها و ما فيها من تضاد مع النظام الكوني، و تحولت إلى انعدام التضاد، أي السلام، و السعي فيه لتحقيقه، أي الإسلام.

عندئذٍ تأخذ أركان الإسلام كل معانيها، فاتحة للذي يزكّي نفسه و يلتزم بها أبواب التواصل و الانسجام مع الحقيقة المطلقة.

فالزكاة، إضافة إلى ما فيها من تدريب الميسورين على الغيرية في اهتمامهم بالمعسرين لسدِّ حاجاتهم، و لما فيها من تدريبٍ قائمٍ على الغيرية في الجهود الجماعية لجباية الأموال و حسن توظيفها و توزيعها؛ فإنها تحويلٌ للنفوسِ من الهبوط تحت سلطان المادة عليها، إلى نبل التحرر منها بجلاء النظر إليها كمجرد أمانة أودعها سبحانه بين أيدينا لنحسن التصرُّف فيها و لنعطي ذوي الحق حقهم المعلوم منها، واعين أننا لا نملك بالحقيقة منها شيئاً، إذ الملك لله. بتلك العقيدة، تصفو النفوس و تتخلص من كلابيب أثقال كثافات أوهام التملُّك، محققة انعدام صراع الأضداد بين النفوس، لتنطلق حرة من عبء المادة في تواصلها مع نور الملك القدوس، و نور الضابط العددي الذي في: ﴿...لَآ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴾، و الذي أراده سبحانه لتحديد النسبة الأساسية في الزكاة.

الصيام في الإسلام بمثابة دورة مكثفة لتحقيق كل تعاليم الإسلام. إذ ليس صيام المسلمين مجرَّد حرمان من الطعام و الشراب و الشهوات لساعات، بل منهج كامل لضبط النفس، في غرائزها و رغباتها و خواطرها و تصرفاتها و ما يصدر عنها من كلام أو تعبير، لجعلها طليقة من صراع الأضداد. فتحلِّق متسامية في تواصلها الروحي مع خالقها، و خاصةً في أوقات فلكية، ذات رموز عالية ضمن توافقات حركة الكون، شاءها خالق الكون و عرَّف بها خلقه في كتابه المنزل و على لسان خاتم أنبيائه.

الحج في الإسلام فرصة عظيمة لتطبيق تلك التعاليم، لما فيه من ضبطٍ للنفس و إنكارِ ذاتٍ و انفتاحٍ و تعرُّفٍ على إخوانٍ و أخواتٍ من سائر بقاع الدنيا. إذ الحجيج سواسية، لا لباس لهم سوى قماشٍ أشبه ما يكون بالكفن يذكرهم بفناء مادتهم، فتُغسَل بذلك نفوسُهم من قبح تضاد الطبقيّة



و الفوقيّة العرقية أو القوميّة. عندئذٍ فإن الحج انفتاح على آفاقٍ مَعْرِفيَّة عليا لما فيه من ارتباطٍ بأوقات فلكية عالية الرمزية، و لما فيه من رموز علوم الخواص في أماكنه و أسمائها، و شعائره و أعدادها.

أما الصلاة، إن كانت جماعية و ما فيها من إنكار تام للذات و احترام للآخرين و مشاركة في العمل الجماعي، أو كانت فردية، فهي محطات يومية مكثفة لتطوير و لرفع أرقى شكل من أشكال ضبط للنفس و الفكر ، و لا بد منه، للمسلم مع خالق الكون في تواصل مباشر معه! و ذلك، لا من خلال سذاجة و محدودية ما يصدر عن البشر، بل من خلال لغة تواصل إلهيةِ المستوى و الأبعاد مما شاء سبحانه في الصلاة من رموزٍ فائقة العلو، و من كلام الذي ﴿...يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ...﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٣] في كتابه المنَزَّل، أو مِن الذي علَّمه لخاتم أنبيائه.

أما الشهادة فهي ليست مجرد أساس العقيدة و حسب، بل، انعدامٌ تام لصراع الأضداد. و لعلو حقيقتها، اجتماعٌ لعلوم قوانين الحقيقة و الخليقة!

***

تزكية النفس و السمو بها بناءً على أسس القرآن لحسن القيام بأركان الإسلام، لا يعني الدخول في فقاعة مثالية بمعزل عن واقع العالم، و لا تعطيل العقل عنه بالاكتفاء و الانطواء.

لقد وقعت أجيال كاملة من المسلمين في هذا الخطأ، و بالطبع فشلت؛ و ذلك لتجاهلها أو إهمالها إحدى أساسيات القرآن التي تُذكِّر بأن واقع العالم، بكل أبعاده و تفاصيله، تحت الهيمنة المطلقة و الدائمة للحكيم العليم سبحانه. و التي تحذر كذلك صراحةً من الحملة الشرسة العنيدة و المتواصلة على الحق و أتباعه من قبل قوى الشر و الفساد و التضليل.

أساسياتٌ صريحة في القرآن تدعو إلى عدم تجاهل ذلك الواقع، و إلى معرفة تلك القوى، ظاهرة كانت أو خفية، معرفة تامة و عميقة، وإلى دوام الحذر منها، بل و إلى التصدي لها بالشكل الأمثل.

هذا كله يتطلب لياقات عقلية عالية، لحسن التصرف في هذا العالم، بناءً على معرفة النواميس الإلهية الكونية، و ما ينسجم معها من عمل.

السمو بالعقل

السمو بالعقل من أساسيات الإسلام. فمكانة الذين يفقهون و الذين يعقلون و الذين يتفكرون و الذين أوتوا العلم عالية في القرآن الكريم. و قد قال سبحانه لنبيّه الأكرم: ﴿...وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤].

السمو بالعقل يكون، أولاً، بإنقاذه من الانزلاق في التيار الجارف للاهتمامات و المشاغل اليومية الدنيوية، مهما كانت ضرورية و مشروعة.

إذ إن تلك الاهتمامات و المشاغل تستأثر على العقل على مدى السنين، و تحدُّه في دائرة تضيق بشكل متواصل.

فالعقل يتطور طالما أنه يكتشف و يهتم، و هو حال الطفولة و الشباب. و يتراجع عندما يكتفي بما لديه في تكرارالمشاغل اليومية الدنيوية، و الأخطر في التكرار الآلي للعبادات، و هو حال الكهولة.

تراجع تألّق عقول الكهول حرمانٌ للأجيال الناشئة من الاستفادة بالشكل الأمثل من خبراتهم في الحياة. و بالتالي تراجعٌ عام في المستوى الفكري للمجتمع.

فلا بد من إنقاذ العقول من خبل التكرار الآلي، و ذلك بدعم دافع الاكتشاف و الاهتمام، باتجاه رقي المستوى و التوازن بين الدنيوي و الروحي. وهذا ما يحققه حسن تطبيق تعاليم و شعائر الإسلام، و خاصة حسن تدبّر القرآن الكريم، الذي هو سلسلة من جُمَل شديدة التركيز، تفتح كل واحدة منها آفاقاً شاسعة في الاتساع و العمق. مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ... ١٠١﴾ [يونس: ١٠/ ١٠١].

و كما أن حسن تدبّر القرآن الكريم ينتشل العقل من استئثار الاهتمامات و المشاغل اليومية الدنيوية عليه، فإنه، كذلك، ينقذه من خبل انزواء التفرُّغ المزعوم للأمور الروحية، و ذلك بإعادته إلى الواقع و إلى التوازن. فالواقع مدعاة تأمُّل و تفكُّر، و الاحتكاك بالناس فرصة للاعتبار من أخطائهم بتواضعٍ و انكسار، و للارتقاء بالاستفادة من خبرات و محاسن أفاضلهم و أكابرهم.

من جهة أخرى، فإن السمو بالعقل يكون بتخليصه من أسر و إعاقة المعطيات البشرية المغلوطة و الناقصة و المحدودة، ليستبدل بها معطيات من الحقيقة صحيحة و كاملة تفتح آفاقاً لا نهائية.

السمو بالعقل لا يكون بمجرد الأخذ بالعلم بتلك المعطيات الصحيحة، بل يتطلب توظيفها بالشكل الأمثل.

ولا يكون ذلك إلا بتحقيق مستوى عالٍ من **الوعي**.

العلم من أهم ما يريده سبحانه لكل عاقل من خلقه. فقد اقترن أول التنزيل به ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ ﴾ [العلق: ٩٦/ ٣-٥]، و كذلك أول ذكرٍ لسيدنا آدم في القرآن، حيث إن كلمة «علم»، و بِلُغَتِه، تتجاوز مفهومنا عنها، إلى مفهوم يرتبط ارتباطاً وثيقاً **بالحد الأقصى** من **الوعي**:

فقد قال الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه فرأى من عجائب ربه ﴿... أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٩]. قوله ﴿... أَعۡلَمُ ...﴾ كما هو جليّ من سياق القصة، ليس مجرد أخذ بالعلم، بل تعبير عن وعي استثنائي. كذلك الحال بالنسبة لأمره سبحانه رسولَه ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ... ١٩﴾ [محمد: ٤٧/ ١٩]. جليّ أنه ليس مجرد أمر بالأخذ بالعلم، بل أمرٌ إلهي لتحقيق أقصى مستوى من الوعي و الحفاظ عليه، هذا مما يتطلب الكثير من الانضباط و الجهود المناسبة و الذكية.

لا فائدة من «العلم» (بمفهومنا المعاصر) إن لم يقترن بالوعي التام. ما فائدة «علم» سائق بتقاطعِ خطر، و قد سها أو التهى وعيُه عنه؟ و ما فائدة «العلم» بأمر ما، إن اضمحلَّ أو غاب الوعي بمخدِّر أو مُسْكِر؟

بذلك نستطيع أن نقول: إن العقل الإسلامي الحق لا يقوم على تكديس المعلومات، بل على **وعيِ** و تدبّرِ معانيها و الارتقاء فيها **بلا توقف** إلى أقصى ما يمكن أن يكون.

القرآن و الإسلام دعوة متواصلة للازدياد في العلم، و ذلك لبلوغ وضوح تام في الرؤية و وعيٍ عالٍ للحقيقة:

أولها، انتماء النفس البشرية إلى عالم لا مادي، و أنَّ وجودها على الأرض ما هو إلا عبور في عالم مادي لاختبار القناعات و لتجسيد الاستعدادات.

و ذلك، للتحول من إلى:

من جهل إلى علم،

من نوازع صبيانية إلى نضج،

من محدودية إلى انفتاح،

من محدودية المحسوس إلى الآفاق اللانهائية التي تفتحها المجردات.

لا حاجة في الإسلام لصور الأشخاص ولا للتماثيل للتركيز في الصِّلات الروحية.

فالإسلام و القرآن أبعد ما يكونان عن تلك المادية. فهما يرفعان الإنسان بالاتجاه المعاكس، أي اتجاه التّسامي في المجردات، و التي هي بلا خلاف أعلى نمط من فكر يمكن الخوض فيه.

ذروة ذلك السمو بالنفس البشرية، يكمن في تمحور حياتها حول المجردات المطلقة للمفهوم القرآني عن الذات الإلهية.

المفهوم القرآني عن الذات الإلهية يمثل ذروة ما يمكن للعقل بلوغه في المجردات.

فمهما خاض العقل في ذاك المفهوم و تقدّم، فإن التسبيحَ يذكره بأنّ ما بلغه منه كنسبة القطرة إلى البحر! و كأن عبارة «سبحان الله» تقول لسامعها أو ذاكرها: شتّان بين ما خطر على بالك و وصل إليه فكرك، و بين علوٍّ و عظمة صفات الله! «اقْرَأْ وَارْتَقِ» [سنن الترمذي: ٢٨٣٨] فيندفع بنور التسبيح متسامياً إلى أعلى و أعلى في المجردات للتعرُّف على خالقه و للتقرب منه.

فكيف تكون مؤهلات عقل يتسامى بشكل متواصل في مجردات موضوعها العليّ الأعلى سبحانه خالق الكون و نواميسه!

لا يقف الأمر عند ذلك، بل يستمر في سائر خصائص القرآن و شعائر الإسلام.

كم في الشعائر الحقّ التي أوحاها سبحانه لخاتم النبيين من سمو. و ذلك لابتعادها في **تجردها** المطلق عن العاميّة الدنيوية و السطحية: إذ إنَّ قوام الدوافع و الفكر العاميّ يقوم على **المادية** المباشرة و **المحسوسة**. في حين أنّ شعائر الصلاة و الحج و العمرة كلّها رموز و حقائق خفية، على النقيض التام من الهبوط إلى الدوافع الغريزية العادية و الاهتمامات المادية المحسوسة.

لِمَ أركان الإسلام خمسة؟ أي إنَّ الإسلام يقوم على مضلع له خمسة أركان، أي مخمّس، أي خير ما يجسد النسبة الذهبية. لِمَ الطواف سبعاً؟ هل يرى الإنسان الذي يعتبر نفسه واقعياً من فائدة محسوسة و جدوى من ذلك؟ لِمَ طواف؟ لِمَ حول الكعبة تحديداً؟ لِمَ بهذا الاتجاه و ليس باتجاه عقارب الساعة؟ لِمَ سبعاً؟ لِمَ الوقوف في عرفة بالذات؟ لِمَ الجمار سبعاً سبعاً؟ لِمَ خمسة فروض؟ لِمَ ركوع و سجدتان و ليست سجدة واحدة؟ لِمَ ذُكِرَ في القرآن أمر سجود الملائكة لآدم سبعاً؟ مرة و أربعاً، خمسة و مرتين؟ لِمَ تعرض الأعمال على الله يوم الاثنين و يوم الخميس؟ لِمَ تنقسم أحرف أساس الإسلام «لا إله إلا الله» خمسة للنفي و سبعة للإثبات، كانقسامها خمسةً مائية و سبعةً نارية؟ لِمَ المغرب ثلاث ركعات؟ ما الفرق مع أربع ركعات العشاء؟ ما فائدة ذلك؟

ما أبعد التفكير البشري المادي المحض، أي غير المُلهَم عن هذه الرموز المجردة التي لا يمكن حصرها ولا إحصاؤها في القرآن و الإسلام، و التي تسمو بالنفس و بالعقل إلى آفاق لا نهائية.

❋ ❋ ❋ ❋

الباب الثاني

ما ينبغي معرفته

و

ما لا يمكن تجاهله

حقائق و مصادر

آ ـ حقائق

إنه لمن سلامة الفطرة و الذوق و حسن التصرف عبر التاريخ و في سائر الحضارات، أن يطهر المرء نفسه و ثيابه و ما معه مما لا يليق، قبل الدخول في مجال مقدس.

القرآن الكريم مجال مقدس على أعلى درجة، إذ إنه كلام رب العالمين في كتابه الذي جعله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

بذلك فإنه يستحيل الشروع في التعرف على القرآن الكريم و تدبره، قبل تخليص النفوس و العقول مما تسرب فيها من شوائب و أخطاء، تمنع أو تعرقل الاقتراب منه و تحجب نوره.

لا بد إذاً من التخلص من تلك الشوائب التي تتمثل بمعلومات و تصورات و قناعات تتدرج انطلاقاً من عيوب التقريب و الارتجال لتصل إلى ظلمات المسخ و الباطل.

الحدّ الأدنى مما ينبغي معرفته حول تدوين النص القرآني

عدم معرفة ذاك الحدّ الأدنى قبل الشروع في التعرف على القرآن الكريم، يفسح المجال لجملة من شكوكٍ و ظنونٍ و قناعاتٍ تمنع صاحبها التقدم في فهمه و تحرمه نوره.

لقد كان أول نزول الوحي على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مفاجأة بالنسبة له، كما كان أول لقاءٍ لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بربه.

لم يكن محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قط يعلم، متى كان جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ سيعود إليه بالوحي، و لا بما سوف يُنزَّل عليه.

لم يتدخَّل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قط ببنية القرآن الكريم ولا بمواضيعه و لا بعدد وترتيب السور والآيات.
لم يكن له رأي في أي شيء فيه، لا بفكرة و لا بكلمة و لا حتى بحرف! و ما كان الأمر إلا ﴿... وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ٤].

فاللغة المستخدمة في النص القرآني الشريف، غير لغة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في نبرتها و أسلوبها و إيقاعها.

كما أن بنية النص القرآني الشريف مختلفة جذرياً عن كل ما كان معلوماً من نصوص و ما هو معلوم حتى الآن.

كذلك فإن المعلومات الواردة فيه تتجاوز معارف أهل زمانه و حتى أهل زماننا.

علاوة على ذلك مما يؤكد انعدام تدخل الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنص الشريف، ما ورد فيه من عتب موجه إليه و تحذير يكاد يصل إلى التهديد. عوتب في: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ٨٠/ ١]. وفي: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٣]. وفي: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ... ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧]. و حُذِّر ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ... ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٧]، و﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم



بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٥]، و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ... ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧]. و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ... ﴿١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١].

يؤكد انعدام ذاك التدخل التَّرَفُّع الإلهي فيما يخص شخص النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٩٣/ ٧]، و ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ...﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢] و ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ... ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤].

لقد نزل ملك الوحي الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول ما نزل، بالآيات الأولى من سورة العلق، و كان ذلك في شهر رمضان. ثم استمر الأمر على دفعات: جزء من آية، أو آية أو عدة آيات أو سورة كاملة.

كون التوازن من السمات الأساسية للقرآن الكريم، و كونه هو نفسه جزءاً من التوازن الكوني، كان لا بدّ إذاً، من توازن كلماته و حروفه في كل لحظة من تنزيله، كجنين يتشكل أو كمبنىً يُنشأ.

لذا فقد كانت آيات منه تتغير أماكنها أو تُنسخ للحفاظ على توازنه، إلى أن اكتمل.

لقد كان ملك الوحي جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يراجع كامل ما نزل سنوياً في شهر رمضان مع الرسول الأكرم، و ذلك على مدى ثلاثة و عشرين عاماً.

في العام الأخير من التنزيل راجع سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ القرآن مع خاتم النبيين مرتين. فبذلك يكون عددُ المراجعات ثلاثاً و عشرين عددَ السنوات.

و بذلك، فإن النص القرآني مضبوطٌ أتمّ الضبط بحياة محمد رسول الله، و بشهود الألوف التي حضرت و سمعت و رأت.

لقد كان القرآن كله مكتوباً في حياة خاتم النبيين.

فقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يملي على كتبة الوَحي ما يراجعه من القرآن معهم بحضور الروح الأمين أو ما كان يُنزّلُ عليه بالحال.

كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و بتوجيه من سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يملي على كتبة الوحي موضع السورة من بين السور، و موضع الآية من السورة و حتى اسم السورة و رسم كلمات القرآن.

لم يُجمَع القرآن الكريم بين دفتين في حياة خاتم النبيين لسبب بسيط و وجيه:

كيف يُجمع بين دفتين و الوحي لا يزال مستمراً؟

كيف يُجمع في نسخة **نهائية** و **لم ينتهِ** الوحي بعد؟ و خاصة أنّ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نفسه لم يكن يعلم متى يأتي الوحي و بمَ ينزل به.

كيف يتم إعداد نسخة نهائية و الوحي لم ينتهِ، و بوجود مسألة الناسخ و المنسوخ؟ خاصة أنّ آخر ما نزل أخذ محلّه في أماكن مختلفة غالباً ما كانت في أوائل القرآن. فالآيات الأخيرة من التنزيل أخذت محلها في سور النساء و المائدة و البقرة، أي السور الرابعة و الخامسة و الثانية.

ما أن تُوُفي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلا زال ما رأيناه من مانع جمع القرآن بين دفتين.

و هذا ما قام به أقرب الناس إلى المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، صدّيقه و خليله و خليفته أبو بكر الصديق.

فوكَّل بذلك أحد كتبة الوحي و أحد أكثر الصحابة ملازمةً لخاتم النبيين في سنواته الأخيرة كاتبه و أمين سره: سيدنا زيد بن ثابت، المشهور بذكائه الاستثنائي و الذي حضر العرضة الأخيرة مع سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و الذي كان حفظ القرآن كاملاً في حياة خاتم المرسلين.

أتمّ سيدنا زيد المهمة على أكمل وجه في حياة سيدنا أبي بكر. إذ لم يكن يدوِّن آية و هو أعلم بها إلا بحضور من سمعها من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و حتى يشهَدَ عليه شاهدان بأنه سمعها من النبي شخصياً.

توفي الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد أقل من سنتين و نصف السنة من وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و بقي المصحف الكامل عشر سنين بالحرز و الأمان التام عند خير من يبقى عنده: أقربِ المقربين إلى الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من بعد سيدنا أبي بكر: سيدنا عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء. و هو الذي أشار على أبي بكر الصدّيق جمع القرآن بين دفتين.

ما إن بدأت الخلافات حول القرآن في **العراق** (!) بعد مقتل عمر بن الخطاب، إلا و قام صديقه و صديق أبي بكر و النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المقرَّب الممدوح، عثمان بن عفان بطلب المصحف الكامل الأول من السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب و زوج خاتم النبيين، لإحداث خمس نسخ منه.

لم يقم بهذه المهمة سوى أَوْلى من يقوم بها:

سيدنا زيد بن ثابت نفسه و بيده! و بإشراف سيدنا عثمان بن عفان، الذي كان من الصحابة الحافظين للقرآن كاملاً عن ظهر قلب في حياة خاتم المرسلين.

فما أبعد ذلك الواقع المتماسك و المُوثَّق، عن أسطورة جمع القرآن على عجل أيام سيدنا عثمان اعتباراً مما كان مكتوباً منه عند الصحابة على العظام و أوراق الشجر، و عن التصور الهزيل الذي تدمغهم به!

بذلك تمّ تدوين القرآن بكامله، بين دفَّتين، بالشكل الأمثل و بالسرعة القصوى مباشرة بعد وفاة خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، و بحضور جمهور من صحابته، و بإشراف أقرب المقرَّبين إليه.

لا تعرف البشرية حالة مماثلة فيما يتعلق بتدوين و حفظ كتاب منزَّل.



الرسم القرآني

هو كيفية كتابة كلمات القرآن الكريم كما كانت عليه في المصاحف التي أمر سيدنا عثمان بن عفان بنسخها. و لذلك درج تسمية ذلك الرسم بالرسم العثماني، نسبة إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يستصعب بعض معاصرينا قراءة القرآن الكريم مكتوباً بالرسم العثماني، و تُشكل الكثير من كلماته عليهم فيعجزون عن قراءتها. و يتساءلون عن داعي الحفاظ على ذاك الرسم العتيق و الذي لا يجدون مبرراً له. فتتحرك في نفوسهم رغبة في إحداث مصحف مكتوب كما تكتب العربية حالياً و منذ قرون، و ذلك لتيسير قراءته.

لقد صدرت مصاحف من هذا النمط، و لكنها، و الحمد لله، لم تلق رواجاً.

السبب الأساسي لذلك هو أن الله، و له الحمد، تكفل بحفظ القرآن جملة و تفصيلاً. فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٧]، و كذلك ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩]. لذا فإن الأمر توقيفي، أي كما أمر به سبحانه، فلا أخذ و رد فيه.

رغم ذلك يعترض أصحاب فكرة كتابة المصحف كما تكتب العربية حالياً، أن الآيتين تشيران إلى قراءة النص الشريف لا إلى كتابته. الجواب هو أن كلمة الذكر تشمل القراءة و الرسم.

لقد جرت مداخلة بين الإمام الراتب لأحد جوامع دمشق العريقة مع شيخه الفقيه حول هذه المسألة. الإمام الراتب يحاول تبيان إمكانية كتابة المصحف كما تكتب العربية حالياً، و شيخه يحتد في كل مرة أكثر مكرراً نفس الجواب: توقيفي! أي لا يناقش.

توقيفي!

توقيفي! هكذا أراد الله، كما في أحكام الإرث كما وردت في القرآن الكريم، أو عدد الركعات المفروضة كما وردت بالتواتر.

توقيفي!

علماً أن سيدنا زيد بن ثابت قام بنسخ هذه النسخ الأربع بيده، و هو نفسه الذي قام بالنسخة الأولى التي منها نسخ. و هو وسيدنا أبو بكر و سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حفظة.



الحدّ الأدنى مما ينبغي معرفته عن العرب

إن التصورات الباطلة أو المشوهة عن العرب، و حتى التي لا تتسم بالدقة، لتعرقل العقول و النفوس في سعيها لتدبر القرآن الكريم.

هذه التصورات بمثابة الآفة التي تنتشر باطناً و بصمت فتفسد و تبَخِّس و تشلُّ.

لا بد إذاً من فضحها و التخلص من عرقلتها، بالعودة بالدقة و الموضوعية إلى الحقيقة.



العرب و الأعراب

أول ما ينبغي التخلص منه هو الالتباس بين العرب و الأعراب.

العرب ليسوا الأعراب، و شتّان بينهما.

لا ذكر للعرب اسماً في القرآن برمته؛ لأن الإسلام ليس ديناً كان للعرب ثم انتشر نتيجة للفتوحات، بل دين يسمو فوق القوميات و يتجاوز البشرية ليشمل أيَّ مخلوق عاقل.

أما الأعراب فقد ذُكِروا عشر مرات في القرآن الكريم. و لكنهم ليسوا عرباً!

و ما أجهل الذي يخلط بينهما، و ما أجهل الذي يظنّ أنّ الأعرابي هو العربي القحّ النموذجي الأصيل!

إذ الفارق بين العرب و الأعراب كالفارق بين النمساويين مثلاً و التزيغان (أو الرُّم أو الغجر، و هم نَوَر أو زُط أوربة)!

لا أصول مشتركة تجمع العرب مع الأعراب.

إذ إنّ أصل قريش و أمثالهم من العرب، يعود إلى إسماعيل بِكْر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. أي إن أصلهم يعود إلى أعظم حضارتين في العالم: حضارة بلاد الرافدين موطن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و حضارة مصر موطن زوجه هاجر.

لذا فإن قريشاً و أمثالها من العرب من نسل إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ هي المعنية بالوعد التوراتي الذي قطعه الربّ مع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: وعد أرض الميعاد من النيل إلى الفرات.

فقد ورد في أوائل التوراة في الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين:

(١٥: ١٨) في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: «**لِنَسْلِكَ أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات**».

ما بين هذا الوعد و عصر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يزيد على عشرين قرناً، لم يستطع بنو إسرائيل أو اليهود أبداً خلالها تحقيق ذاك الوعد.



بالمقابل، و بعد ما لا يزيد على عشرين سنةً من هجرة الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى المدينة و تأسيس دولته، حقق المسلمون هذا الوعد بشكل عجائبي و بلمح البصر. إذ إن انتصار أولئك النفر على أعظم إمبراطوريتين في ذاك الزمن بمثابة المعجزة. إضافة إلى ذلك، لم يكن ذاك التواجد في ما بين النيل و الفرات اجتياحاً عابراً، بل استمر إلى الآن بلا انقطاع.

كم هي مأساة حال أولئك الذين ينتظرون المسيح و قد أتى منذ ألفي عام، و يحسبون أن من واجبهم تحقيق وعد أرض الميعاد و قد تحقق منذ أربعة عشر قرناً!

هذا أصل قريش و أمثالهم من العرب.

أما الأعراب فهم أهل صحراء رُحَّل. و هم، كما يستدل من القرآن و الحديث، **عرقٌ آخر لا أصول مشتركة تجمعهم بالعرب.**

فقد ميَّز عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بوضوح و بصريح العبارة، ما بين عرب الحضر و البادية من جهة و بين الأعراب من جهة أخرى. فقد قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للسيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا موضحاً: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِالْأَعْرَابِ هُمْ أَهْلُ بَادِيَتِنَا وَنَحْنُ أَهْلُ حَاضِرَتِهِمْ وَإِذَا دُعُوا أَجَابُوا فَلَيْسُوا الْأَعْرَابِ» [مسند أحمد ٢٣٨٦١].

ذلك الحديث الشريف يجعلنا نفهم بجلاء المقصود من عبارة «الأعراب» في القرآن الكريم، فهي ليست مرادفاً لعبارة «البدو». بل تعني مجموعةً بشرية تجمعها أصول مشتركة، كما هو الحال بالنسبة لعبارة «الروم» مثلاً. إضافةً إلى ذلك فإن الأعراب موضع ذم شديد في القرآن الكريم، و خاصةً في سورة التوبة التي هي من آخر ما نزل منه.

***

من خلال استقراء دقيق للقرآن الكريم و الحديث الشريف خاصةً و الأثر، يتبين بوضوح أن شتّان بين الإمكانيات العقلية العالية و المتطورة للعربي الأصيل و بين محدودية عقل الأعرابي.

و شتّان بين رقيّ تطلعات و طموحات العربي و بين هبوط ماديّة و شهوانية طموحات الأعرابي.

شتّان بين أخلاقيات و قيم العربي و بين انعدامها عند الأعرابي.

و شتّان بين تحضّر العربي و بين تخلف الأعرابي.

شتّان بين سحنة قريش و أمثالهم من العرب و سحنة الأعراب. فقد ورد في البداية و النهاية لابن كثير وصف دقيق و مفصل لمحمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي ولد من أب و أم قرشيين، و الذي لم يكن يتميز في سحنته عن أهله و عشيرته و معظم صحابته. فقد كان لونه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أشبه ما يكون

بألوان أهل الشام أو أيّاً من سكان الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط. فقد كان لونه كلون أي أبيض تشوب السمرة ما تعرض من بشرته لشعاع و وهج الشمس المدارية، و يبقى باقي ما استتر من جسمه أبيض. لقد كانت أجسام العرب عموماً قوية ممتلئة رياضية، يعتنون بها و يمارسون أنواع الرياضة مثل المصارعة و الجري و الفروسية. و كانت قاماتهم بين المعتدل كالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و ابن عمه علي، و طويل كعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا و الإمام مالك الذي كان أزرق العينين. و كانت وجوههم سمحة، تتصف بالنبل لاتساع و ارتفاع الجبهة و وقار و اعتدال الأنف و جمال تقوّس الحاجب، ليصل الأمر إلى جمال فائق كجمال الصحابي الجليل دِحية الكلبي.

أما الأعراب، فقد كانوا أشبه برُحَّل شرقي شبه القارة الهندية في أجسامهم النحيلة و سمرتهم الشديدة.

* * *

الخلط بين العرب و الأعراب إما افتراء حاقد و إما جهلٌ فاضح، كجهل المستشرقين الذين إنْ كتبوا الكلمتين بأحرف لغتهم، كانتا كلمة واحدة: Arab.

لقد كان لمستشرقي القرنين التاسع عشر و العشرين دور حاسم في ترسيخ ذلك الخلط، أي مسخ صورة العربي ليستبدل بها صورة الأعرابي البدوي المتخلف.

لقد ساهمت في ذلك عناصر كثيرة مثل:

- سطحية أو خطأ مفاهيمهم بخصوص كلمات مثل: «قبيلة»، و المرتبطة في أذهانهم بالضرورة مع البداوة. و كذلك فكرة المناخ الصحراوي المرتبط في أذهانهم بالضرورة ثانيةً مع البداوة.

- احتكاكهم بأعراب شبه الجزيرة العربية، أو أعراب مصر و شمال إفريقيا المنحدرين من الذين جاء بهم الفاطميون إلى تلك البلاد مستعينين بهم للوصول إلى مآربهم. إن الذين كانوا وراء المستشرقين و حكوماتهم، كانوا أدرى بحقيقة و فاعلية تحالف الفاطميين مع الأعراب، فلم يوفروا خبرتهم في ذلك المجال...

الخلط بين العرب و الأعراب ليس من ابتكار المستشرقين، و إنما هو داء أخذ جذوره في صدر الدولة العباسية.

فعلى نقيض الخلافة الأموية العربية الصرفة، كانت الخلافة العباسية التي أطاحت بها خاضعة لسلطة الأعاجم بتدخلهم في الحكم و بكثافة وجودهم و حضورهم. لا إشكال في ذلك لأن الإسلام

منزه عن القوميات و يسمو فوقها. و لكن معظم أولئك الأعاجم و الفرس خاصة كانوا يحملون في أعماقهم حقداً و غلّاً مبطناً لا بالضرورة على الإسلام، بل على العرب لما ألحقوه بهم من هزيمة نكراء. هذا مما جعلهم يعدّون أولئك العرب الآتين من الصحراء بدواً كبدوهم المحتقرين في بعض مناطق إيران الصحراوية. فكان التعبير عن هذا الحقد بتحويل العربي إلى أعرابي، لترسيخ الصورة الهزيلة للعربي كبدوي بدائي جاء من الصحراء لا يعرف شيئاً عن التمدن و الحضارة، و حصره في حدود هذه الصورة.

لنا أن نتساءل بِحَيْرة: كيف تستمر الأجيال الحاليّة في نقل و تغذية مثل ذاك التصوّر من خلال وقائع مزعومة و قصص لا أصل لها؟

مثلاً قصة تهديد الوليد بن عبد الملك الإمبراطورَ البيزنطي، ليرسل له خير معمارييّه لبناء إحدى روائع العمارة العالمية (الجامع الأموي في دمشق). فأذعن الإمبراطور ذليلاً و قام العمال و المعماريون الروم ببناء المسجد العظيم.

المؤسف، أن الذي أورد هذه الأكذوبة التافهة هو المحدث الجليل ابن عساكر الدمشقي. كان ذلك قريب العهد بالحروب الصليبية، مما يفسر مصدر المعلومة و خاصةً الآلية التي جعلتها مقبولة: في عصر كان المسلمون يعانون فيه من جبروت الروم و الفرنجة، كان لا بد من قصة يستعيد الناس فيها كبرياءهم، و ذلك من خلال عنترية الخليفة و قهره لعظيم الروم!

طبعاً هذه القصة لا أساس لها. و الدليل على ذلك: أن المسلمين ـ بإجماع المؤرخين ـ هم الذين بنوا إحدى روائع العمارة في العالم، ألا وهي قبة الصخرة في القدس الشريف، و ذلك في عصر عبد الملك بن مروان بضع سنوات قبل بناء الأموي. فما حاجة الوليد بن عبد الملك إلى عمال بيزنطيين، و فريق بناء قبة الصخرة المسلم موجود عنده؟!

نظرة واحدة إلى أية تفصيلة في قبة الصخرة و خاصة الفسيفساء على الأقواس، تجعل المرء يحار هل هو في دمشق ينظر إلى أقواس الأموي أم هو في القدس ينظر إلى أقواس قبة الصخرة. التشابه بل التطابق في الطراز و التقنيات المتبعة حتى في أدق التفاصيل، يقطع أن من بنى الأموي هم الذين بنوا قبة الصخرة. هذه الحقيقة لا يشك فيها حتى الغربيون المتخصصون بالعمارة الأموية أمثال مارغريت فان برشم و كرزويل.

هذه القصة مثال لمعلومات باطلة و رائجة ترسخ ذاك التصور المغلوط أن المسلمين الأوائل بداوى عاجزون عن أي عمل حضاري.

المثال الثاني و المؤلم هو تهمة ظالمة بحق المسلمين، الذين كانت لهم الأيادي البيضاء في إحياء التراث اليوناني و نقله مصححاً و مطوراً إلى أوربة.

تلك التهمة الباطلة هي أنَّ الفاتحين المسلمين هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية. علماً أنَّ أحداً من المؤرخين المسيحيين آنذاك لم يُشرّ بكلمة واحدة إلى هذه الحادثة المزعومة قبل ذكرها أول مرة منذ خمسة قرون بعد فتح الإسكندرية. فقد وصف أوتيخيوس Eutychius كبير أساقفة الإسكندرية عام ٩٣٣ ميلادي، فتح الإسكندرية بتطويل كبير و لم يذكر هذه الحادثة و لا حتى بإشارة عابرة.

أول من ذكر هذه الأكذوبة هو مع الأسف ابن اللباد عبد اللطيف البغدادي (١١٦١–١٢٣١م). ترى من همس في أذنه هذه الأكذوبة عندما زار مصر خمسة قرون و نصف القرن بعد فتح الإسكندرية؟

على كل حال، الذي تولى إكمال هذه القصة بتفاصيل مؤثرة و مثيرة (مثل الأمر الذي أصدره عمرو بن العاص بالكتب لتكون وقوداً لحمامات الإسكندرية أربعة الآلاف! لمدة ستة أشهر!) هو المؤرخ اليهودي المتنصِّر الشامي بارهيبرايوس (Bar Hebraeus) الملقب بأبي الفرج (١٢٢٦-١٢٨٦م).

الأكذوبة التي لا يملون تكرارها من بعد استثارة مشاعر السامع إلى كنوز الحضارة البشرية القديمة التي تلفت في هذه المكتبة، هي أن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر بن الخطاب يسأله ماذا يفعل بالمكتبة، فأجابه عمر إنّ الكتب التي فيها إن لم تتفق مع القرآن فيجب حرقها، و إن اتفقت معه فما الفائدة منها؟ احرق المكتبة!

علماً أنّ أول حريق أتلف تراث القدماء الذي لا يقدر بثمن كان عند اجتياح يوليوس قيصر الإسكندرية عام ٤٧ قبل الميلاد. أعيدت بعدها الحياة إلى مكتبة الإسكندرية و لكن ما لبثت أن تعرضت للتخريب على يد الإمبراطورة كسينوبيا و الإمبراطور ديوكليسيان. أما الذي قضى نهائياً على مكتبة الإسكندرية و أتلف ما فيها فهو الإمبراطور البيزنطي تيودوزوس الأول عام ٣٩١ ميلادي. و ذلك في جملة عمليات التخريب الواسعة التي قام بها ضد كلّ ما لا يوافق عقيدة الكنيسة. لم يكن هذا التعصب الجائر طفرة بل كان أشبه بالقاعدة، إذ إنّ الإمبراطور البيزنطي جوستينيان هو الذي أغلق المدرسة الأفلاطونية الشهيرة في أثينا و كذلك مدارس الإسكندرية لعدم توافقها مع آراء الكنيسة. لنفس الأسباب أقفل الإمبراطور البيزنطي زينون عام ٤٨٩م مدرسة أوديسا الشهيرة في نشر السريانية

و الثقافة اليونانية عبر سائر المشرق، و في زمنه تمّ إتلاف ما تبقى من كتب قديمة في الإسكندرية. في عام ٧٢٨ أحرق ليون الإيزوري آلاف المخطوطات في القسطنطينية، و استمر ذلك قروناً على يد محاكم التفتيش «المقدسة» التي كانت تسير على خطا مؤسس الكنيسة بولوس الرسول أو شاؤول الفيريزي، و الذي أمر أتباعه عام ٥٤ في مدينة إيفيسوس بحرق كل الكتب التي تتكلم عن أمور غريبة.

إن تهمة حرق مكتبة الإسكندرية أكذوبة مشينة تهدف إلى إظهار الصحابة همجاً لا يعرفون قيمة العلم و الثقافة.

عندما فتح المسلمون الإسكندرية لم يكن هناك أي أثر للمكتبة...

***

تكاد تكون جميع أمهات الكتب المعتمدة حالياً في المعاهد الشرعية، و المتداولة بين المسلمين، مؤلفةً في العصر العباسي الطويل.

هذه الكتب مراجع لا تقدر بثمن.

ولكنه تسلل في الكثير منها و بشكل خفيّ، شيء من روح ذاك العصر و أنفاسه، و خاصة تلك التصورات المشوهة عن العربي النموذجي كبدوي بدائي لا يعرف من الدنيا إلا البادية. و كذلك تلك الصورة التي رسخها الفقهاء و الأئمة و الوعّاظ، عندما استرسلوا في المبالغة في تقشف و زهد الصحابة و التابعين، و ذلك لمحاربة الإسراف و الترف و البطر المستشري بين الحكام و الناس. هذا كله أثّر و لا يزال يؤثّر سلبياً في تصورنا عن الصحابة الكرام و العرب الفاتحين و أصل الحضارة الإسلامية.

لا بد إذاً، من تصحيح صورة الصحابة رضوان الله عليهم مثل أنهم بداوى تحت خيام مع جمال و أغنام. و لا بد من إعادة النظر في التصورات الشائعة عن عصر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ـ العرب عموماً ليسوا بدواً، بل أهل حَضَر أي أهل مدن مثل مكة أو يثرب أو الطائف أو سبأ و مدائن صالح في الماضي. تتوضح الأمور كثيراً إن قارنّا بين مكة و يثرب و الطائف و دورها في التجارة الدولية و بين مدن ألمانيا و إسبانيا و فرنسا و بريطانيا الهزيلة و المتخلفة آنذاك في نهاية القرن السادس الميلادي...

ولد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في مدينة مكة المكرمة. المكان الذي استقرّ فيه ليؤسس الدولة الإسلامية لم يكن مضرب خيام، بل يثرب مدينة والدته التي صار اسمها **المدينة** the city. و قد سكن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عند الصحابي أبي أيوب الأنصاري في بناء مؤلف من طابقين و ليس في خيمة.

ثم شرع ببناء مسجده كما خطط له. مخطط النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أساس لكثير من روائع العمارة العالمية المتمثلة في مساجد العالم الإسلامي المهمة مثل الأموي.

لقد كان لصحابته الكرام شغف بالعمران، فقد طور أحدهم منزله و بنى فيه قبة. و لكن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنكر عليه ذلك من غير أن يحرّمه، إذ إن الوقت لم يكن وقت تنعُّم و استقرار في المدينة المنورة بل وقت الفتوحات لنشر رسالة الإسلام.

الصحابة الكرام هم الذين خططوا مدناً مثل الكوفة و القيروان و الفسطاط.

– لم يكن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و صحابته الكرام، بدواً لم يروا شيئاً من الدنيا إلا وقت الفتوحات.

لقد كان احتكاكهم بأرقى بقاع المعمورة آنذاك في الشام، أمراً عادياً في تجارتهم الدولية في رحلة الشتاء و الصيف. فقد كانوا عنصراً أساسياً في الالتفاف على الفرس و حلفائهم المناذرة في العراق، لنقل بضائع الصين و الهند و خاصة حصى البان من مسقط و عمان إلى الإمبراطورية البيزنطية في الشام و مصر. لقد كانت روائع العمارة الهلنستية و الرومانية مألوفة بالنسبة لهم. لقد كان بمقدور عبد المطلب جدّ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أن يتجول في تجارته في متحف في الهواء الطلق، و يرى روائع فلادلفيا و جرش و بصرى الشام و فيليبوبوليس و دمشق و بعلبك و أفاميا و الرصافة و أنطاكية بكامل بهائها، قبل الزلزال الأكبر و قبل أن تعمل فيها القرون.

– لقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و صحابته الكرام على دراية و اهتمام بالأحداث الدولية حال حدوثها، كما يستدل على ذلك من سورة الروم.

– حرّم سيدنا النبي الحرير على الرجال و أباحه للنساء. علماً أن معظم حرير العالم كان مستورداً من الصين، حيث كانت صناعة الحرير من أسرار الدولة.

– كما أنه حرم على صحابته الكرام استخدام أواني الذهب و الفضة.

– و حرم كذلك ارتداء القماش المصبوغ بالزعفران أثناء تأدية شعائر الحج. تكفي معرفة ثمن الزعفران الذي كان يتجاوز ثمن وزن مثيله من الفضة ليقارب ثمن الذهب، لفهم سبب ذاك التحريم.

لو لم تكن تلك السلع مألوفة، لَما تكلم عنها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

– لقد كانت منكِّهات، مستوردة من بلاد بعيدة، مثل الكافور و الزنجبيل معلومة لديهم.

- لقد كان العرب و حتى الصحابة الكرام يستوردون أفخر أنواع الخمور من الشام و قبرص قبل تحريمه.

- كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و صحابته الكرام يتطيبون بالمسك و بأنواع الطيب. المصدر الوحيد للمسك في العالم إلى الآن هو ذاك الغزال الصغير الذي لا يعيش إلا في أعالي جبال الهيمالايا.

- لقد كان الزجاج مألوفاً لديهم. علماً أن تداوله آنذاك كان محصوراً في الشرق الأوسط و بقايا الإمبراطورية الرومانية. أي إنه كان آنذاك بمثابة الكريستال في زماننا.

فما هو المستوى المعيشي و المدني لهؤلاء القوم الذين كانوا يتجولون سنوياً في متحف في الهواء الطلق، و يستعملون أواني الذهب و الفضة، كما يكون من معاصرينا ممن يستعملون أواني Christofle. و يلبسون الحرير و الأقمشة المصبوغة بالزعفران، كما يكون من معاصرينا ممن يلبسون أقمشة Dormeuil و Cerrutti، و ممن يستخدمون كريستال Schwarzkoff و Lalique. و يتطيّبون بالمسك المستورد من الهيمالايا و طيب الهند و جاوا، كما يكون من معاصرينا ممن يتطيبون بعطور Givenchy و Guerlain!

كان ساداتهم يرسلون أولادهم إلى البادية حتى لا يفسُدوا في جو المدن و لتدريبهم على الخشونة و تحمل الظروف الصعبة، كما يفعل بعض معاصرينا عندما يرسلون أبناءهم إلى معسكرات الكشّافة.

يكفي بأن نقوم بوضع فهرس لمواضيع القرآن الكريم و الحديث، لنجد أن ثقافة أي صحابي كانت تفوق بشموليتها ثقافة أي إنسان معاصر له.

معظم عرب عصر الصحابة تركوا شبه الجزيرة العربية و استقروا في البلاد التي فتحوها ليؤسسوا إحدى أعظم الحضارات التي عرفتها البشرية.

أما الأعراب فقد بقي معظمهم في شبه الجزيرة العربية و على أطراف الدول المتاخمة لها.

* * *



الأمين؟

منذ آخر عهد التابعين، يوجد التباس بخصوص فهم حقيقة أمّية **خاتم النبيين** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و الأميّين.

و لقد تعرض الكثير من العلماء الأفاضل لتلك المسألة ليصلوا إلى نتيجة مختصرها: أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و قد ثبتت نبوَّته بين الناس، صار يقرأ و يكتب. و بيَّنوا على ذلك بالأدلة من الأحاديث الشريفة و السيرة، و ختموا أبحاثهم بأن ذلك لا ينافي «معجزة» الآية الكريمة من العنكبوت:﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

لقد لاقت هذه الفكرة معارضة شديدة من باقي العلماء، فقد وجدوا أنها تنافي «معجزة» الآية السابقة و ما فهموه من صريح الآيات. لعل سبب معارضتهم تخوّفهم أن تَزرع تلك الفكرة بذور الشك في كل الآيات التي تنصُّ على أمية خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فاتحة بذلك الباب للتشكيك بمصداقية النص القرآني الشريف.

لقد أشكلت المسألة على الفئتين من العلماء لأنهم حصروا مفهوم «الأمية» ضمن مجال المفهوم الشائع للكلمة أي: انعدام الأهلية للقراءة و الكتابة. مما اضطر الفئة الأولى إلى تكييف الوقائع الواردة في الأحاديث الشريفة مع فهمهم للآيات الكريمة، و الفئة الثانية إلى رفض دليل تلك الوقائع، على أنه، و كما زعموا، مهما صح فإنه لا يوازي الدليل القطعي و اليقيني للآيات الكريمة.

تحديد المفهوم القرآني للأمية **يُغني عن تكييف الوقائع مع الآيات**، لأنها عندئذ تتوافق معها و توضحها مزيلة بذلك ما كان يبدو تعارضاً.

إضافةً إلى ذلك، فإن اعتماد المفهوم القرآني للأمية **يحرر الفهمَ من ضيقِ حصرِ المسألةِ ضمن نطاقِ قَبْليّةِ أو بعديّةِ** قراءته و كتابته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنسبة لبعثته.

الأهم من ذلك، هو أن معرفة حقيقة المفهوم القرآني لأميّة خاتم النبيين و للأميّين، يوصل إلى معرفة عظمة المغزى و العبرة منها.

تحديد المفهوم القرآني للأمية يكون بأخذ جميع الآيات التي تتعلق بهذا الأمر بعين الاعتبار، و مقابلتها بالوقائع الثابتة في السنة المشرفة.

أول ما يسترعي الانتباه بقوة هو ما جرى في أول التنزيل:

عندما ظهر سيدنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ آمراً النبي الأكرم بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ ...﴾ ثلاثاً، لم يقدم له لوحاً أو صحيفة ليقرأ منها، خاصة أنه ضمّه ضماً شديداً!

إذاً ليست المسألة مسألة قراءة بالمفهوم الشائع.

ثاني ما يستدعي الوقوفَ عنده هو كلمة الأميين من قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ... ﴿٢﴾ ﴾ من سورة الجمعة.

لقد كانت قريش و العرب عموماً تقرأ و تكتب. و كانت نسبة القادرين على القراءة و الكتابة إلى نسبة العاجزين عن ذلك، كنسبة أي شعب متحضر في ذاك الزمان. لو لم تكن منهم نسبة لا يستهان بها يعلمون القراءة و الكتابة، لَما كَرّموا شعراءهم بتعليق قصائدهم على الكعبة المشرفة. و لَما علقوا قرار مقاطعة المسلمين ثانية فيها. و لَما كتبوا اتفاقيتهم مع المسلمين في صلح الحديبية.

لقد كان الصحابة الكرام يكتبون ما ينزل من الوحي قبل الهجرة. لقد كانت حادثة إسلام سيدنا عمر شهيرة، إذ ذهب غاضباً عند أخته عندما علم أنها أسلمت هي و زوجها. فوجدها و زوجها و خباب بن الأرتّ يتذاكران سورة طه من صحائف عندهما. فأخذها سيدنا عمر و قرأ منها مقطعاً طويلاً فأسلم. فالقراءة و الكتابة إذاً، بالنسبة للأربعة الحاضرين في تلك الحادثة أمر معتاد. كذا الأمر بالنسبة لمشاهير الصحابة.

عندما أسَرَ المسلمون كفاراً من مكة فور انتصار بدر، رَهَن رسول الرحمة سراح كل واحد منهم بتعليم القراءة و الكتابة عشرة من صبية مسلمي المدينة. لقد كان الصحابة الكرام قادرين على ذلك، و لم يكن الأمر إلا رحمة فائقة منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لفتح مجالِ تعارفِ و تواصلِ الكفار مع المسلمين.

هذه الأمثلة و غيرها تدلّ أن القراءة و الكتابة كانتا شائعتين في قوم خاتم النبيين.

بناءً على ذلك، فإن المقصد من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ... ﴾، لا يتعلق بمسألة جهل الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و قومه القراءة و الكتابة بالمفهوم الشائع للكلمتين.



إن تجاوزنا حُجُبَ المفهوم الشائع للأمية و ذلك بالإدبار عنه، فسوف نجد المفهوم القرآني لتلك الكلمة مَوَضَّحاً بجلاء في النص القرآني ذاته، و ذلك في ثلاث آيات:

١ - قوله تعالى من الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ... ﴿٥٢﴾﴾. إن كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يقرأ و لا يكتب قبل بعثته، فإنه من المحال أنه كان لا يدري ما هي الكتابة؛ خاصةً أنه كان من كرام قريش و مكة التي كانت تألف الكتابة، و كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معروفاً بذكائه و انفتاحه على الناس و نجاحه في إدارة تجارة زوجه.

المقصد من الآية جليّ: ﴿...ٱلْكِتَٰبُ...﴾ أي الكتب المنزلة كالتوراة و الإنجيل. يدعم ذلك العنصر الثاني من نفس الجملة الإلهية: ﴿...ٱلْإِيمَٰنُ...﴾، و إلا فما العلاقة بين مجرد معرفة ما الكتابة و بين الإيمان؟

بذلك يكون معنى الشاهد الذي نتدبّره من الآية: **أنه** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **لم يكن يدري قبل بعثته حقيقة الكتب المنزلة و ما فيها من القصص و العلم و الهداية.**

٢- قوله تعالى من البقرة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ...﴿٧٨﴾﴾ بمعرض ذكر مطوَّل عن بني إسرائيل، يساعدنا في التقدم في فهمنا للمقصد الإلهي من كلمة «أميّ»، من قوله تعالى: ﴿...إِلَّآ أَمَانِيَّ...﴾ نفهم بجلاء أن المقصد الإلهي من عبارة ﴿...ٱلْكِتَٰبُ...﴾ ليس الكتابة. و إلا فما العلاقة بين الكتابة و الأماني؟

بذلك يكون معنى الشاهد الذي نتدبّره من الآية الكريمة: أن من بني إسرائيل من يعلم التوراة و يكتمها أو يحرفها أو ينسب كلاماً لله سبحانه. و منهم من يجهل التوراة، كما كان و لا يزال الحال بالنسبة لمعظم المسيحيين. و كما هو الحال كذلك بالنسبة لكثيرٍ من المسلمين في الماضي و الحاضر ممن يخلطون بين الآية و الحديث و القول المأثور، أو يخلطون بين ما علق في أذهانهم من عبر و قصص و بين عبر و قصص القرآن، خاصة المسلمين غير الناطقين باللغة العربية و الذين ولدوا في بلاد غير إسلامية، هذا لم يمنعهم من إتقان الكتابة.

٣ - قوله تعالى من آل عمران: ﴿...وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ...﴿٢٠﴾﴾، دليلٌ حاسمٌ يؤكد ما فهمناه من الآيتين الكريمتين السابقتين:

ففي قوله تعالى: ﴿...لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ...﴾ تمييزٌ جلي بين فئتين مختلفتين جذرياً:



- من جهةٍ، الذين أوتوا الكتاب كاليهود و النصارى.

- و من جهةٍ أخرى و بضرورة استواء المعنى الذين لم يؤتوا الكتاب أي **الأميين**، أي سائر **الأمم** التي تجهل كتب الله المنزلة.

و إلا فما المغزى و ما العلاقة، في سياق رسالة الآية الكريمة، بين الذين أوتوا الكتاب و بين الذين يجهلون القراءة و الكتابة؟

بذلك يكون الشاهد الذي نتدبّره من الآية الكريمة: أمراً إلهياً إلى خاتم النبيين يتعلق بإسلام الذين أوتوا الكتاب و الذين لم يؤتوه، أي عملياً **البشرية جمعاء**.

و هذا ما يتوافق تماماً مع قوله تعالى من الأعراف: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ...﴿١٥٨﴾ ﴾، حيث أن عبارة «الناس» في لغة القرآن تعني «البشرية» في لغة زماننا.

إن تابعنا الآية الكريمة نجد أننا لم نخرج عن الموضوع قط: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ...﴿١٥٨﴾ ﴾.

إنْ حافَظْنا في مجال وعينا على رسالة الآية الكريمة السابقة من الأعراف، و أخذنا بما فهمناه من الآيات الثلاث التي وقفنا عندها، فسوف تتفتَّح أمامنا آفاقُ قوله تعالى من سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾.

و نفهم منه:

أنه سبحانه بعث في الذين لم يؤتوا كتباً مُنَزَّلة، أمثال قريش أو غيرهم من باقي البشرية وإلى آخر الزمان، رسولاً منهم أي إنه مثلهم لم يكن يعلم حقيقة الكتب المنزلة و ما فيها.

و قد علمنا ذلك، صار المغزى من مشيئته تعالى جعل رسالته فيمن لم يكونوا يعلمون حقيقة الكتب المنزلة و ما فيها، مغزى جلياً، خاصة إن أخذنا بعين الاعتبار الآيات التالية لشاهدنا من سورة الجمعة و المتعلقة بالذين ﴿ ...حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ...﴿٥﴾ ﴾:

١ـ طالما أنَّ رسالة القرآن و الإسلام آخر رسالة إلهية، فهي بذلك و بضرورة العدالة الإلهية **للبشرية جمعاء.**

سواد البشرية لا يعلم حقيقة الكتب المنزلة و ما فيها. فما أبعدهم عن سمو و كمال رسالة القرآن

و الإسلام التي تتجاوز جميع الرسالات السابقة و تحويها. و ما أصعب القيام بالخطوة الأولى للانتقال إليها، ما لم يكن هنالك من يقوم بها فيُهَوِّنُ الأمر على الآخرين.

بذلك فإن الرسول الأكرم و من أسلم من معاصريه و من لحقوا بهم، بمثابة الذين يسروا الأمر على البشرية. إذ كانوا مثالاً واقعياً و عملياً يحتذى، عندما بينوا إمكانية تحقيق نقلة نوعية و نهائية من الضلال أو الوثنية أو الشرك أو الإلحاد إلى دين خالق السموات و الأرض.

٢ ـ الذين أسلموا ممن لم يؤتوا الكتاب لم يكونوا كالذين أوتوا الكتاب، يعانون من موانع الاكتفاء بما لديهم من الشرائع و أخبار الخليقة و الرسل، غير مهتمين بما يُنَزَّل على خاتم النبيين، ظانّين أن لديهم مثله و يزيد. بل كانوا في غاية الانفتاح و الشوق لمعرفة حقيقة القرآن و النهل من السُّنّة المشرفة، فكانوا بذلك **خير من يتلقى الرسالة الأخيرة لينقلها.**

٣ ـ الذين أسلموا ممن لم يؤتَوا الكتاب لم يكونوا كالذين ﴿...حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا ...﴾، يمنعهم الاستغناءُ عن دعوة الناس إلى الحق، ضنينين بما لديهم، متكبرين على سائر الأمم على أنهم السفهاء. بل كانوا تواقين إلى نقل رسالة اللّٰه بلهفة الإخاء و بتواضع النفوس الكريمة و المنكِرة لذاتها.

٤ ـ كيف لسواد الذين أوتوا الكتاب بمواقفهم المسبقة و آرائهم الجاهزة المبنية على ما يتداولونه من التوراة و الانجيل، أن يتقبّلوا رسالة القرآن و الإسلام من غير جدل عقيم؟

و كيف لمواقفهم و آرائهم ألا تعرقل عليهم فهْمَ تلك الرسالة و ألا تشوهها؟

خاصة أنهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٤]. فقد بذل بعضهم جهدهم الأقصى لتخريب رسالة سيدنا عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، غير مدركين أنهم يعملون على تخريب رسالة آخر نبي من بني إسرائيل أي بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

أما الذين أسلموا ممن لم يؤتوا الكتاب فقد كانوا أبرياء من تلك الآراء و المواقف.

لذا فقد كانوا بمثابة الصفحة البيضاء النقية، يتلقون القرآن و الإسلام بثقة و صفاء لينقلوه إلى غيرهم بأمانة و حياد.



هذا عن جوانب من حكمةِ جعلِ اللّه ختمَ رسالته في الأميين أي الذين لم يؤتوا الكتاب.

أما عن حكمة جعلها في رسول منهم:

١ ـ لو كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبل بعثته على علم بالكتب المنزلة، لَما أبه به الذين لم يؤتَوا الكتاب و لَما اهتموا بما ينزل عليه. و لاعتبروا دينه و كتابه إضافةً أو تقليداً لِما لم يهتموا به أصلاً من دين أهل الكتاب!

٢ ـ من جهة أخرى، لو كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبل بعثته على علم بالكتب المنزلة إلى درجة تلاوة مختارات منها و القدرة على نسخ نصوصها بدقة، لَشَقَّ الأمرُ كثيراً على الصادقين من أهل الكتاب تقَبُّلَ القرآنِ كوَحْيٍ من اللّه لا كبدعة من مفترٍ.

عدم علمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالكتب المنزلة قبل بعثته، رحمة من اللّه يسَّرت عليهم الأمر كثيراً باستبعاد إمكانية الشبهة، و ما يتأتّى عنها من إعراض فإدبار فحرمان. و وفَّرت عليهم حرج و مشقة مواجهة بلبلة ارتياب المبطلين منهم و من غيرهم: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٨]، فاسحةً بذلك المجال لهم و لمن لم يؤتَ الكتاب التحرر من موانع الارتياب بالوقوفِ أمام حجةٍ بيِّنات ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ من البقرة، و ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ من السجدة. حجةُ أن ﴿ ...ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴾ في بينات ﴿ الٓمٓ ﴾.

إذ تتفرد سورتا البقرة و السجدة بافتتاحيةٍ تجمع ﴿ الٓمٓ ﴾ بنفيٍ إلهيٍّ لإمكانية الارتياب في الكتاب المنزل على خاتم النبيين.

﴿ الٓمٓ ﴾ التي نجدها أول مرة في القرآن في البقرة و آخر مرة في السجدة.

و السورتان متقابلتان على محورِ ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ من الإسراء و ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ لمن يعلم...

***

يمكن التقدم كثيراً في فهم **حقيقة** مسألة الأميين و النبي الأمي، و ذلك بتدبر جميع الشواهد المتعلقة بتلك المسألة ناظرين إليها من خلال ما يحيط بها من آيات.

نجد عندئذٍ و على الدوام على مدى القرآن الكريم عاملاً مشتركاً:

- **الشاهد الوحيد عن النبي الأمي** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، نجده في آيتين متلاحقتين من الأعراف: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

يبدأ هذا الشاهد الكريم بذكر أهل الكتاب. الأهم من ذلك، أن الشاهد الكريم محاط بذكر مطول عن بني إسرائيل يبدأ بالآية ١٠٣ بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و فرعون و السحرة و الآيات التسع لقوم فرعون، ثم الخروج إلى سيناء، ثم قصة الألواح و العجل مباشرة قبل الشاهد الشريف. و ينتهي ذكر أهل الكتاب بالآية ١٧١، بعد استعراض مفصل لمواقفهم المضطربة تجاه التوراة و أوامر الله، و بعد هذه الآية المعبِّرة: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

ـ **أول ذكرٍ للأميين في القرآن الكريم**، نجده في قوله تعالى من البقرة: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾، و هم من أهل الكتاب. هذا الشاهد الكريم محاط بذكرٍ استثنائيّ الطول عن بني إسرائيل و مواقفهم المضطربة و المؤسفة تجاه التوراة و فضل الله عليهم و نعمه، يبدأ بالآية ٤٠ و يستمر طويلاً إلى الآية ١٧٦.

بعد قصة البقرة الصفراء و ما فيها من رموز عظيمة مرتبطة بآخر الزمان، نجد آية ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ...﴿٧٨﴾ ﴾ محاطةً بالآيات التالية: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ...﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ...﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا



قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿...وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ...﴾ تذكّر كثيراً بـ ﴿...وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا... ﴿١٦٩﴾﴾ من الأعراف، مؤكدةً التوازي بين السورتين في الموضوع الذي نحن بصدده و ما يحيط به.

الآيات الكثيرة اللاحقة لآية ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ... ﴿٧٨﴾﴾ تؤكد على الفكرة و تفصلها: ﴿...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ... ﴿٨٥﴾﴾ و ﴿...أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ و ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ... ﴿٩١﴾﴾ و ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ ...

– **ثاني شاهدٍ عن الأميين في القرآن الكريم**، نجده في أوائل سورة آل عمران بعد آية الشهادة التي نزلت عندما سأل اثنان من أحبار الشام الرسولَ الأكرمَ عن أعظم شهادة لله في حق نفسه جَلَّ وَعَلَا.

الشاهد الثاني هو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾، نجده هو كذلك محاطاً بآيات معبرة عن أهل الكتاب على نسق ما رأيناه في سورتي البقرة و الأعراف: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿...وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ تذكر بـ ﴿...فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ من البقرة. ﴿...لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ ...﴾ تذكر بالضرورة بـ﴿...وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ...﴾ من البقرة و بـ ﴿...وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ...﴿١٦٩﴾﴾ من الأعراف، مؤكدةً التوازي بين السور في الموضوع الذي نحن بصدده و ما يحيط به.

– **ثالث شاهدٍ عن الأميين في القرآن الكريم**، نجده كذلك في سورة آل عمران محاطاً بآيات معبرة عن أهل الكتاب على نسق ما رأيناه في سورتي البقرة و الأعراف: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ...﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ...﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ...﴿٧٩﴾ ...﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ

أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ...... ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ... ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ... ﴿١٠١﴾ ... ﴿١٠٢﴾ ... ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾.

- **آخر شاهدٍ عن الأميين في القرآن الكريم**، الذي في أول سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾.

فلا عجب، من بعد ما رأيناه، أن نجده متبوعاً بتذكرةٍ ما ورد مفصلاً عن أهل الكتاب في الآيات المحيطة بالشواهد السابقة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

شاهد الأميين الأخير ورد في أول سورة الجمعة. إن أردنا أن ننظر فيما يسبقه كما فعلنا في الشواهد السابقة، فلا بد إذاً من النظر في السورة التي تسبقه، أي سورة الصف. فلا عجب أن نجد

في أوائلها: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

يلي ذلك مباشرة آخرُ ذكر لاسم خاتم النبيين في القرآن الكريم مصحوباً بآخر ذكر لسيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ... ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

بذلك تكون **جميع** الشواهد المتعلقة بالأميين و بالنبي الأمي محاطةً بآياتٍ معَبِّرةٍ عن أهل الكتاب، تُبَيِّن مواقفهم المضطربة و المؤسفة تجاه الأنبياء و الرسل و ما أنزل الله من الحق في كتبه.

و قد بَيَّنَ سبحانه ذلك بجلاء، فكيف يجعل فيهم و بأيديهم رسالته الأخيرة للبشرية!؟

و كيف يجعل بأيديهم مصير البشرية و فرصتها الأخيرة؟

لذا فقد جعل سبحانه رسالته الأخيرة في غيرهم، لا كرَدَّة فعلٍ، و لا عن تفاعل منه سبحانه مع الأحداث، بل عن سابق علم و ترتيب قبل أن يخلق السموات و الأرض، و لحكمة علاقة البدايات بالنهايات.

هذه الحكمة بيَّنها سبحانه في أمرين بالحقيقة متلازمين، نجدهما في الآيات المحيطة بالشواهد الخمسة السابقة عن الأميين و النبي الأمي:

- **أولهما** في الآيات المحيطة بشواهد سورتي البقرة و آل عمران عندما ذكر **سيدنا إبراهيم**:

لقد كان سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أعظم الأنبياء، فهو أحد أولي العزم الخمسة. جعله سبحانه بالنسبة للبشرية رمزاً لذي الفطرة السليمة و القلب الصافي و العقل الجلي، الذي لا تهمُّه نفسه في تجرُّده عنها، فيرى الضلال ضلالاً و لو كان دين قومه و آبائه. و الذي يبحث عن الحق حتى يجده، فلا يكتفي بذلك لنفسه بل يتوق أن يحظى بذاك الحق كل من سواه!

و جعل سبحانه ذكرَ إبراهيم مرتبطاً بالكعبة المشرفة، أي القِبلة الأولى و النهائية، بما في ذلك من رموز للبشرية جمعاء.

فقد توفى سبحانه نفسَه الشريفة، و جعله في السماء السابعة سانداً ظهره إلى البيت المعمور الذي يقابل الكعبة المشرفة على الأرض.

و رتب سبحانه الأمر بأن جعل في ذاك الرجل الرمز و في ذريته النبوة في سلالتين:

- **سلالة ابنه البكر إسماعيل** الذي وُلِدَ من هاجر المصرية. أسكنهما بوادٍ غير ذي زرع و رحل في مهامه.

ثم عاد و أمره سبحانه بذبحه ابتلاءً و كان عندئذ ابنه الوحيد، ثم فداه سبحانه بذبحٍ عظيمٍ.

و مع أبيه رفع القواعد من أول بيت وضع للناس و شهد دعاءه الملهَم و الموافق لسابق الترتيب الإلهي: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٩].

- و **سلالة إسحاق.**

إذ أرسل سبحانه إلى سيدنا إبراهيم الشيخ المسنّ ملائكةً ظنَّهم رجالاً فعجَّل مبالغاً في ضيافتهم ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ١١/ ١٩]، لم يأكلوا منه، بل بشَّروا إبراهيم و زوجه العجوز العقيم ﴿ ...بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾، يعقوب أي إسرائيل.

إسرائيل، و منه بنو إسرائيل الذين عبدوا العجل في سيناء.

و الذين أرسل إليهم سبحانه أنبياءَ و رسلاً منهم، بالبينات و المعجزات و العجائب ما لم يرسل لغيرهم.

و رتب سبحانه أن يولد بشكل عجائبيّ أول أنبياء تلك السلالة من عجوز عقيم، و آخرهما عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ الواحد من امرأة عاقر و الآخر من عذراء.

آخر أنبيائهم من سلالة إسحاق، عيسى بن مريم، بشر بنبيّ من سلالة إسماعيل وُلِدَ مثله بشكل اعتيادي و عاش مثله طفولة عصيبة، ليكون بذلك آخر الأنبياء من سلالة إبراهيم و أشبههم به في الهيئة و النفسية و **مِثْلَهُ ما كان يدري ما الكتاب.**

و ليكون خاتم النبيين أجمعين.

صلى بهم إماماً في القدس الشريف عندما أسرى به سبحانه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أي القبلتين و ما فيهما من رموز.

و أنزل عليه سبحانه بلاغاً للعالمين: ﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٣]، و ذلك عندما حج بالمؤمنين في الأماكن ذاتها التي شهدت كل ما جرى لسيدينا إبراهيم و إسماعيل، و ذلك في حجة الوداع أشهراً قبل وفاته، و حيث خطب بالناس قائلاً لهم: «الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللّٰهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» [صحيح البخاري: ٢٩٥٨].

جليٌّ أن كل النقاط السابقة التي ذكَّرنا بها بخصوص سيدنا إبراهيم و ذريته من إسماعيل و إسحاق، **رموزٌ** ذات مدلولات عالية تعبر عن:

- سبقِ و إحكام الإرادة الإلهية في تسلسل بعث الأنبياء و رسالاتهم و في سير الأحداث إلى نهاية حتمية و مرسومة.

- و تُظْهِرُ اكتمالَ الأمر عندما تلتقي النهايات بالبدايات، كما تكتمل الدائرة عندما يلتقي آخرها بأولها.

- **الأمر الثاني** من الأمرين المتلازمين، و الذي جعله سبحانه لتبيان حكمة علاقة البدايات بالنهايات في الآيات المحيطة بالشواهد الخمسة و ما فيها من نقاط مشتركة و ترابط و توازي، **أمرٌ متعلقٌ بالذين أوتوا الكتاب**، و ذلك في الآخرة يوم الجمع و الحساب حيث يأخذ كل شيء معناه الحقيقي و النهائي.

نجد ما يشير إلى هذا الأمر في الآيات المحيطة لشاهد الأعراف في ادعاء الذين أوتوا الكتاب: ﴿...سَيُغْفَرُ لَنَا ...﴿١٦٩﴾﴾. يقابله فيما يحيط بشاهد البقرة ادعاؤهم: ﴿...لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ...﴾، مثل ما يحيط بالشاهد الأول من آل عمران: ﴿...لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ...﴾. و يستمر نفس الموضوع فيما يحيط بالشاهد الثاني من آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾، و فيما يحيط بشاهد سورة الجمعة: ﴿...ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

نظرة واحدة إلى الآيات السابقة تظهر أنَّ عاملاً مشتركاً يجمعها: الزمن. زمن جميع الآيات السابقة في الآخرة.

حكمة ورود ذاك الأمر نجدها جليةً صريحةً في آية من الآيات المحيطة بالشاهد الأول من آل عمران:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

الآية الكريمة هي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

جلاء هذه الآية الكريمة ضمن توازي الآيات المحيطة بالشواهد الخمسة، يساعدنا بالتوازي على فهم أحد أسباب ورود الشاهد الأخير عن الأميين في سورة الجمعة بالذات: إذ لا تقوم الساعة و لا يكون يوم الجمع إلا يوم الجمعة.

و في انسجام تام مع التقابل بين الأميين أي الذين لم يؤتوا الكتاب و بين الذين أوتوه و لم يحملوه في سورة الجمعة، نجد مقابلته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بين الفئتين في كلامه عن الجمعة: «أَضَلَّ اللّٰهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ فَجَاءَ اللّٰهُ بِنَا فَهَدَانَا اللّٰهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ».

ثم تابع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في نفس الحديث، و ربط هذه المقابلة و ذِكرِ يوم الجمعة، بيوم القيامة و هو يوم الجمع: «وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ» [صحيح مسلم: ١٤١٥].



النقطة الأساسية في الآية الكريمة التي نحن بصددها من آل عمران، هي قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ...﴾ وتتمحور تلك النقطة في كلمة ﴿... جَمَعْنَٰهُمْ ...﴾، مثيرة سؤالاً:

طالما أن الأنفس و قد ذاقت الموت ترى مقامها في الآخرة في الجنة أو في السعير، أليس أوجَهاً أن يتم حسابها عند خضوعها لسؤال الملكين؟ ثم بعد القيامة و فناء كل شيء، تبعث بالضرورة لتكون في الجنة أو في النار.

إذاً لمَ يوم الجمع؟ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٧]، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ ... ﴿٩﴾ ﴾ [التغابن: ٦٤/ ٩]. لِمَ؟ لحكمة عَبَّر عنها سبحانه بقوله: ﴿... كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢].

عندئذٍ يجمع سبحانه سائر الجن و الإنس بحضور الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، و أمام هول الحساب يستميت الثقلان في تبرير أخطائهم و قد وعوها تماماً، و ذلك بتبرئة أنفسهم مبخسين ذنوبهم، و بإلقاء اللوم على غيرهم أو على الظروف التي عاشوا فيها مبالغين، لذا فإن ذلك اليوم ﴿... يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ...﴾.

لعل أكثر التبريرات وروداً يومئذٍ:

«ربِّ كيف أكون صالحاً و قد كان والدَيَّ و أقاربي و معارفي من أهل الضلال؟ ربِّ لو أنك أرسلت لي من ينصحني و يأخذني إلى صراطك المستقيم لكنت من الصالحين!».

فينظر في غيره فيرى أن العلة كانت في نفسه لا في ظروفه و لا في أهله أو قومه.

فقد كان والد سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و قومه من أهل الضلال، و لم يمنعه ذلك أن يكون إماماً للصالحين.

و قد كان والد إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و جدهم و أبو جدهم أنبياءَ، فلم يمنعهم ذلك من التخلص من أخيهم. و هم بنو إسرائيل، جعل الله فيهم اثنين من أولي العزم الخمسة و عدداً من أكابر الأنبياء و فضَّلهم على العالمين، فلم يمنعهم ذلك من الإساءة إلى أن ﴿... وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٦١]، و صاروا ﴿... وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤].

بذلك صاروا بين البشر حالة نموذجية:

حالة الذي يتميّز عن غيره بما عنده من حق من ربه، و ما يصاحب ذلك من عون و مدد لتيسير رفع راية ذاك الحق.

فيلتبس الأمر عليه، فيظن أن عظمة المهمة و المدد، ما هي إلا دليل على عظمة نفسه. فيقف عند تعظيم نفسه، عوضاً عن تكريسها للقيام بالمهام الموكلة إليه.

عندما فضلّهم اللّه على العالمين، فلا يعني ذلك أنه كانت لهم عنده من بين البشر مكانة خاصة، بل إنه سبحانه ميّزهم عمن سواهم لا بشخصهم **بل بفضله** الذي منَّ به عليهم عندما آتاهم الكتاب و حمّلهم التوراة.

و قد تميّزوا بما آتاهم اللّه من فضله، وقفوا عند ذلك، و بقيت عزيمتهم على ما كانت عليه و لم يضاعفوها أضعافاً مضاعفةً لحمل الأمانة ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢].

فقد توهموا أنهم وصلوا و حظوا بالمكانة العالية ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ...﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١٨].

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩-٢٦].

اعتبر اليهود أنفسهم «شعب اللّه المختار» الذي له الزعامة الروحية العليا و الذي له سلطان على سائر مَن دونه من «أمم». فرتَّب الذي هو بكل شيء عليم مالك الملك، الذي يؤتي الملك من يشاء

و ينزع الملك ممن يشاء، و الذي يعِّز من يشاء و يذل من يشاء، الزعامة الروحية العليا في تلك «الأمم»، أي الأميين!

و قال للمؤمنين منهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ...﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٩]. و قال لهم: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ... ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠]. و تابع سبحانه في نفس الآية و في ما بعدها قوله: ﴿...وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠-١١٢].

حسبوا أن ما تميّزوا به رخصة لهم ليتصرّفوا كمَلِك يتنعّم بملك لا يبلى. ذلك لأنهم نسوا أنهم في دار عبور و امتحان، و أن المرء بقدر ما يعطى يُسأل!

لذا فقد ذكرهم سبحانه مراراً في آخر كتابٍ أنزله، **ليكونوا عبرة لسائر الأمم.**

و ليكونوا عبرة و إلى آخر الزمان لمن ليس له من الصيام إلا الجوع، و ليس له من الصلاة إلا الحركات و التمتمة، و ليس له من الدين إلا القشور، و يحسب أنه من أهل النجاة و الامتياز، و لا يدري أنه على نهجهم، و لسان حاله يقول ما سبق و قالوا مدَّعين: ﴿...سَيُغۡفَرُ لَنَا...﴾ و ﴿...لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ ...﴾!

و لذا فقد جعل الله رسالته الأخيرة في سواهم، ممّن هو بريء من علتهم في تعظيمهم أنفسهم، و أيَّده و الذين معه و الذين اتبعوه بنور القرآن.

فكيف يعظم أهل القرآن أنفسهم و قد جُبلت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥-١٧]؟

و كيف يعظمون أنفسهم و قد تلاشت بمقارنتها برسولهم خاتم النبيين الذي ذكره سبحانه بترفّع الحميد المجيد ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ...﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤]؟

بنو إسرائيل خاصةً، و أهل الكتاب من اليهود و النصارى عموماً، **حجة على البشرية يوم الجمع و التغابن**، و على كل من يتذرع بآبائه و قومه و ظروفه ليبرر ضلاله و أخطاءه.

و هم كذلك، حجة في الدنيا على البشرية بعد ختم النبوة برسالة الإسلام و نزول القرآن، و على:

- كل من يطالب بمزيد من البينات و الآيات و المعجزات ليَطْمئنَّ قلبه للإسلام.
- أو من يطالب برسول أو نبي ليفصل فيما اختلف فيه الناس مما أُنزل من الحق. فلم تفد البينات و الآيات و المعجزات الذين عبدوا العجل و آذوا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و قتلوا الأنبياء و كتموا الحق و حرفوا كتاب الله.

و لم تفدهم الرسل و البينات فيما اختلفوا فيه، و لا حتى المسيح نفسه المسيح عيسى ابن مريم و كل معجزاته.

فلا حاجة إذاً لمزيد من الخوارق و المعجزات و تتابع الرسل و الأنبياء، و قد أظهر سبحانه للعالمين عدم جدوى ذلك في نموذج بشري معبِّر من سلالة سيدنا إسحاق و من أهل الكتاب، أوتيَ كل الفرص ففرَّط فيها و استنفدها و أضاعها على نفسه و على غيره.

بل الصواب:

- المسارعة في حسن توظيف كنوز الرسالة الإلهية الأخيرة قبل فوات الأوان!
- و الاجتهاد في حسن تدبّر كلام الله في كتابه بالصعود في آفاقه اللانهائية.

فالقرآن هو النص الإلهي الوحيد الحرفي و الأصيل و الكامل المتوفر منذ أكثر من ألف وأربع مئة سنة. خاصةً أنه آخر كتاب منزَّل، لذا فقد تكفل سبحانه بحفظه إلى آخر الزمان.

و جعل سبحانه فيه نوراً و هداية و بَيِّنات للثقلين.

و كذلك جعل فيه حجة **نهائية** عليهم ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ... ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦] بعد إذ وضعهم و **للمرة الأخيرة** أمام مسؤولياتهم عندما قال: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩].

لذا فقد شاء سبحانه، ضمن ترتيب له معنى و له بداية و نهاية، أن يجعل رسالته الأخيرة لسائر الأمم في نبيّ جعله على شاكلة جده الأكبر إبراهيم: نموذجاً للنفس الحية الصافية كالصفحة البيضاء النقية، الجاهزة لتلقّي الرسالة الإلهية النهائية و الكاملة، ليكون مثلاً و قدوة لسائر الأنفس.

و لذا فقد جعله ينشأ ما يدري ما الكتاب، ليكون عقله و نفسه بريئين نقيّين من تأثير أهواء أنفس أهل الكتاب، و من تلمودهم و من جدلهم و اختلافهم و تعقيداتهم و نصوصهم المحرفة التي اختلطت بالنصوص الصحيحة أو حلت محلها.



إذ إن آخر جيل منهم نشأ على نصوص منزلة صحيحة و **كاملة** كان محدوداً في بعض وجهاء أسرهم، مثل سيدنا زكريا. أي قروناً قبل ولادة خاتم النبيين، و قبل التلمود!

و لذا فقد رتب سبحانه نشأة آخر نبيّين من أنبيائهم في دائرة سيدنا زكريا.

و عصم سبحانه نفسيهما الشريفتين من ظلمات الجدل و الاختلاف و النصوص المحرَّفة أو المُبْتَدَعة، بأن بعث سيدنا يحيى نبياً و آتاه الحكم **صبياً**، بشكل استثنائي و خلافاً لكل من سبقه من الأنبياء الذين بُعِثوا رجالاً.

و بأقصى ما يكون الاستثناء بعث سيدنا عيسى نبياً و هو **في المهد** حيث قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿...إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٣٠].

و جنَّب نفسه الشريفة ظلمات الكتب المحرفة بأن علمه ﴿...ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٨]، لذا فقد كان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ... ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٠]، ليست أية نسخة محرفة من التوراة بل التي بين يديه. و لذا فقد قال سبحانه عنه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٤٦].

و لذا فقد قال سبحانه لخاتم النبيين: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨]، و جعله خيرَ من يعبدُه و أنزل عليه ﴿...ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١].

الصواب إذاً، بعد فهم ما جرى لأهل الكتاب و ﴿... قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ...﴾ اتّباع ﴿...ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ...﴾. أي النقيّ الذي لم تتعرض نفسه لظلمات الكذب و التحريف. و الذي هو على خلق عظيم، و الذي كان على النهج الحنيف لجده الأكبر إبراهيم الخليل نفساً صافية ترتقي بشكل متواصل في عبادتها لخالقها و تتوق إليه، حتى صار يختلي في غار حراء بعيداً عن ضجيج جعجعة مشاغل الناس و أفكارهم، لتنفتح نفسه في صمت الخلوة إلى آفاق الملكوت و عظمة الخالق، إلى أن بلغ السن المُعَبِّر أربعين سنة فنزل عليه الروح الأمين بالوحي، لينطلق اعتباراً من هذه اللحظة بشكل مضطرد و متسارع



و متواصل في ارتقائه في نور الحق، إلى أن توفاه سبحانه الذي سبق و قال له: ﴿...وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١١٣].

بذلك صار عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و قد تفضل سبحانه عليه بتحقيق هذه النقلة النوعية الشاهقة، مناراً يسعى نوره ساطعاً في الظلام **فاتحاً الطريق للآخرين** بالاقتباس من ﴿...ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ...﴾ و لينتشر بشكل مضطرد منهم في غيرهم إلى ما شاء الله.

فالأنفس البشرية في الحقيقة لا تنتمي إلى عالم المادة، لذا فهي تتصل ببعضها بدرجات مختلفة من حيث تدري أولا تدري.

هذا ما يفتح لها باب الاتصال بالنفس الشريفة لخاتم النبيين خاصةً أنه مُرسَل كافة للناس.

الاتصالُ به اتصالٌ بالذي هو رحمة للعالمين، إذ إنه ملتقى صلوات الله و ملائكته بصلوات المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٦]. فما أشرف و أكرم ذلك الملتقى!

لقد رأى الصحابة الكرام سيدَنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ متمثّلاً بِهيئة بَشَرِيَّة و سمعوه يتكلم في حادثة شهيرة. بذلك فقد كان بالإمكان أن يسمعوا القرآن كله أو بعضه منه مباشرةً.

لم يكن الأمر كذلك، بل كان ينزل بالقرآن على ملتقى الصلوات، لتكون نفسُه الشريفة أول نفس من أنفس الثقلين تتفاعل معه و تتمثّلُه بالكلية و يسري فيها نوره، لينتقل بالالتقاء إلى كل من يتوق إلى الحق، كما ينتقل القَبَس.

القرآن الكريم ليس مجرد معلومات يضيفها المرء إلى معلوماته، بل و الأكثر من ذلك مجالاً روحياً لا نهائياً. لا يجدي الفكر وحده فيه، بل لا بد له من مدد الروح و الهداية و النور للارتقاء في آفاق كلماته الإلهية ﴿...وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٤٠].

***



مهزلة مصطلح «الشعوب الساميَّة»

لا بد من التخلص من ذاك المصطلح الذي بقدر ما هو شائع بقدر ما هو تافه، و ذلك عند التعرض لشعوب و لغات ما يسمى بالشرق الأدنى.

إن استطاع باحث معاصر أن يرجع في الزمن ليلتقي بشعوب المنطقة عبر ما يزيد على خمسة آلاف سنة، فلن يجد أثراً لأولئك الساميّين، و لأنكر جميع من يلتقي بهم أنهم ساميّون!

هذا المصطلح ظهر لأول مرة عندما أطلقه الألماني شلوتزِل Schlözel عام ١٧٨١ في فهرسِهِ للأدبيات التوراتية و الشرقية. كان بالنسبة لشلوتزل أمراً مفروغاً منه و بناءً على التوراة، أن البشرية كلها تنحدر من أولاد نوح الثلاثة: سام و حام و يافث! فكان طبيعيّاً أن تكون الشعوب التي تتكلم لغةً قريبة من العبرانية شعوباً ساميّة...

لقد كان شلوتزِل و جميع معاصريه من علماء أوربيين مقتنعين أن خلق آدم كان قرابة عام ٣٧٦٠ قبل الميلاد، و ذلك بناءً على التوراة. لذلك فقد تعرض شامبليون لضغوط شديدة من الفاتيكان و من معاصريه كي لا ينشر بعض أبحاثه التي تعيد سلالات الفراعنة الأولى إلى ما قبل ذاك التاريخ.

رغم ذلك كله، فإن مصطلح «الشعوب الساميّة» لا يزال شائعاً بين الناس و معتمداً من قبل جميع الباحثين الأكاديميين المعاصرين، و الذين يرفعون عالياً لواء الدقة و الموضوعية!

أولئك الباحثون الأكاديميون المعاصرون أنفسهم مجمعون أن شعوب الهلال الخصيب القديمة أمثال الأكاديين و البابليين و الآموريين و الآراميين و الكنعانيين، شعوبٌ أصلها من شبه الجزيرة العربية، هاجرت منها دفعات عبر القرون نتيجةً لتصحُّرها التدريجي.

طالما أن الجميع مجمعون على أن تسمية أرض العرب أصيلة، حتى في المراجع اليونانية القديمة، و طالما أن شعوب الهلال الخصيب القديمة أصلها من تلك الأرض، فما المانع من تسمية تلك الشعوب باسمها الحقيقي: الشعوب العربية، و تسمية لغاتها باسمها الحقيقي: اللغات العربية؟

ما ينبغي معرفته عن حقيقة اللغة العربية و علاقتها بالقرآن

إن عدم معرفة حقيقة اللغة العربية، يحدُّ من فهم القرآن، و يزجُّ ذاك الفهم في حجب الإسقاطات البشرية، و هو خاصة يغلق أبواب آفاق القرآن لا النهائية.

إن عدم معرفة الحقيقة عن اللغة العربية كان سبباً لوَهْمٍ شائع: أن اللغة العربية، كباقي اللغات، مصطلحاتٌ متفقٌ عليها بين مجموعة بشرية أوجدتها و طورتها. فيصير الأمر في اعتقاد الجميع و إن لم يعترفوا به، و كأنه سبحانه كان لا بد له أن ينزِّل القرآن بلغة يفهمها نبيُّه المصطفى و قومُه، فاستخدم لغتهم أي اللغة العربية!

إن اعتُمِدَ هذا الوهم الفاحش، فإنه و بالضرورة يُفضي إلى إسقاطات بشرية و استنباطات غير صحيحة هي في الواقع مغالطات صارخة، منها:

– أنه سبحانه و حاشى له تكيَّف مع الواقع، و استخدم ما أوجده الآخرون. فكانت النتيجة غاية في التوفيق (!). بل و الأكثر من ذلك: تحدِّياً لهم في لغتهم الرائعة.

– و أنه و هو سبحانه الذي ﴿...يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ...﴾ أخضعَ و حاشى له كلامَه لقواعد و نحو لغة العرب.

– و أنه و حاشى له حدَّ صياغة كتابه الأخير للعالمين بحدود ما يفهمه أولئك القوم!

لقد رأينا سابقاً أنه لا ذكر للعرب اسماً في القرآن برمته. و أن كلمة «عربي» لم ترِد فيه إلا بصدد لغته أو حُكمه. و أن تلك الكلمة ليست اسماً لتلك اللغة كما هو شائع، بل وصفاً لها كلُفَةٍ لا تدع مجالاً للالتباس.

فالخطأ الشائع هو فهم كلمة «عربي» في القرآن الكريم، كاسم للغة العرب. و كأنها لغة جرت على ألسنتهم و طوروها فنسبت إليهم، كما هو الحال بالنسبة لباقي لغات العالم التي تسمى باسم القوم الذين تكلموا بها أصلاً.

اللغة العربية حالة خاصة، لا تنطبق عليها الاعتبارات السابقة. **فهي لم تُنسَب إلى العرب، بل العرب نُسِبوا إليها.**



اللغة العربية، بالنسبة لعلماء اللسانيات، حالة فريدة بين لغات البشرية. إذ إنها منذ البداية تتميز بثبات و كمال **نحوها و صرفها و قواعدها**. هذا الكمال يغنيها عن التطور خلافاً لباقي لغات العالم، التي لها أشكال قديمة تتغيّر حسب احتكاك الشعوب بعضها مع بعض.

يستطيع طفل عربي قراءة و فهم معظم آيات القرآن، و التي تعود إلى القرن السابع الميلادي، من غير صعوبة تذكر. اللغة المستخدمة آنذاك في **نحوها و صرفها و قواعدها** و **مفرداتها** نفسها المستخدمة أيامنا هذه.

يمكن لأي باحث مختص أن يجول في ذاكرته فلن يجد مثالاً للغة حية رسمية يستطيع طفل من أبنائها أن يفهم نصاً فيها يرجع إلى أربعة عشر قرناً.

قد يتبادر إلى الأذهان أن العبرية أَوْلى بهذا التصنيف. هذه هي قناعة المستشرقين عندما يعتمدونها مرجعاً يستندون إليه لترجمة النصوص الشرق - أوسطية العتيقة، مثل الألواح المسمارية الكلدانية أو البابلية أو الأوغاريتية.

كان الأولى بهم اعتماد اللغة العربية مرجعاً، كما فعل الدكتور عجان في إعادة ترجمة نصوص أوغاريتية. النتيجة كانت نصاً واضحاً سليماً متماسكاً ذا مدلول و مغزى، خلافاً لركاكة و عدم تماسك ترجمات المستشرقين لنفس النص باعتماد العبرية.

قد يبدو ذلك عجيباً، إذ أول ما يتبادر إلى الأذهان هو أن اللغة العربية تَبَلْوَرَت في القرن السادس الميلادي، في حين أن العبرية هي لغة سيدنا إبراهيم منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد.

الواقع أن العبرية لم تكن لغة سيدنا إبراهيم و لا سيدنا يوسف و لا حتى سيدنا موسى، بل الآرامية لغة سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. العبرية لغة اخترعها اليهود في فترة السبي في بابل، أي ما بين القرنين السادس و الخامس قبل الميلاد. و هي مزيج من اللهجات العامية للغات مثل البابلية و الآرامية. لقد قام اليهود باختراع هذه اللغة بحكم وضعهم كرقيق ليتفاهموا بها فيما بينهم، يتميزون بها عن غيرهم، و لتزيد الروابط بينهم، و كذلك لتزيد الاختلاف عن غيرهم. و ذلك خوفاً من الانصهار بالمجتمع متعدد القوميات و اللهجات في بابل. و الحال كذلك، فما أشبه العبرية و نشأتها باليدش Yiddish. و هي لغة اخترعها اليهود في أوربة لنفس الأسباب و الدوافع، فكانت مزيجاً من العبرية التلمودية و الألمانية القديمة و الرومانس و لغات سلافية. لقد انقرض اليدش عملياً في نهاية القرن العشرين، كما حصل سابقاً للعبرية التي بقيت لغة ميتة، أي لغة طقوس و نصوص لا يتكلم بها قومها في حياتهم اليومية، و ذلك لما يزيد عن تسعة عشر قرناً، إلى أن أعيد إحياؤها بشكل مصطنع أول القرن العشرين.

من الأمور الطريفة و المجهولة، أن أول كتاب لقواعد العبرية تم وضعه قياساً على قواعد العربية، و ذلك بعد انتهاء الحروب الصليبية.

كما أن اللاتينية مثلاً أم لغات أوربية كثيرة، فإن اللغة العربية هي أم لغات الكلدانيين و البابليين و الآكاديين و الآراميين و الكنعانيين، و هم أقوام هاجروا موجات نحو الشمال نتيجة لتصحر الجزيرة العربية موطنهم الأصلي.

يمكن اعتبار اللغة العربية أصل لغات تلك الشعوب القديمة، إذ إنها تجمع و بالشكل الأكمل و الأمثل الخصائص المميزة لتلك اللغات. على رأس تلك الخصائص: أن تلك اللغات صاحبة السبق بالأبجدية على سائر لغات العالم.

و الأهم من ذلك، ارتباط العربية الوثيق بالأبجدية، و الذي يقود الفكر بالضرورة أنها ليست لغة أوجدها و طوَّرها البشر.

قد تبدو الأبجدية لمعاصرينا و من سبقهم من مؤرخين، خطوة حتمية في تطور الكتابة.

بالنسبة لهم، احتاج الإنسان القديم إلى دعم ذاكرته بعلامات مميزة و إشارات طُوِّرت لتصير رسوماً، ثم بُسِّطَت مع الوقت لتصير رموزاً، لتصير أخيراً كتابة.

كان لكل كلمة رمز، و كان ذلك يسمح بكتابة نصوص بسيطة مع تجاهل النحو. تطور النصوص أدى بالضرورة إلى ازدياد مربك في الرموز، أدى بدوره إلى استخدام تلك الرموز لتعبر عن مقطع من كلمة، بذلك صار بالإمكان كتابة كلمات جديدة من غير استخدام رموز جديدة. و هذا يسَّرَ كذلك اقتراب النص المكتوب من النحو المستخدم في اللغة المحكية. ثم طُوِّرَت فكرة الرموز التي تعبر عن مقطع من كلمة باتجاه التبسيط للوصول بالنهاية إلى فكرة الأحرف التي يمكن استخدامها لكتابة أية كلمة.

هذا التصور عن تطور الكتابة مقنع من حيث الظاهر، و لكنه و لما فيه من تعميم غير مطابق كل التطابق مع الواقع و خاصة مع الحقيقة:

فالتصور الذي عرضناه يعاني من تأثير التصور الغربي المعاصر للإنسان الأول و تطوره، و هو تصور ساذج و بعيد عن الحقيقة.

من جهة أخرى، فإن استخدام مرتكزات للذاكرة على شكل رسوم أو أشكال مجردة مكونة من خطوط مستقيمة أو منحنية، يكاد يكون مشتركاً بالنسبة لجميع المجموعات البشرية عبر التاريخ. السؤالان اللذان يفرضان نفسيهما هما:

١- هل استخدام الخطوط تطور حتمي باتجاه التبسيط؟ أم إنه من مصدر خارجي؟ علماء الأنثروبولوجي الأكادميون القلائل الذين استطاعوا الالتقاء و دراسة آخر الـ «شامان» في العالم في منغوليا و سيبيريا و أمريكا الوسطى و إفريقيا، مقتنعون بفكرة الأخذ عن مصادر خارجية، و ذلك لما رأوه بأم أعينهم. فما يمنعهم من ترجيح فكرة المصدر الخارجي بالنسبة للخطوط على فكرة تطور حتمي باتجاه التبسيط؟

٢- السؤال الثاني هو: هل تطورت تلك الأشكال و الخطوط في جميع الشعوب التي استخدمتها لتصير شكلاً و لو بدائياً لكتابة؟ الجواب: لا. و مثال ذلك شعوب إفريقيا و أستراليا وما حولها و الجزر البولينيزية.

ثمة سؤالٌ آخر يطرح نفسه: هل الكتابة نتيجة حتمية لتطور مجموعة بشرية معينة؟

الجواب: لا. فقد شهدت أمريكا الجنوبية حضارةً عظيمةً على كافة المستويات، و هي حضارة الأنكا التي كانت على درجة عالية من التطور في مجال الفن و الفلك و العمارة، و وصلت إلى مستويات مدهشة في أمور الاقتصاد الداخلي و تنظيم دولة مترامية الأطراف، و ذلك في عصر لم يكن فيه الحصان و أمثاله من الدواب معروفاً لديهم. رغم كل ذلك التفوق الحضاري، فقد كانت الكتابة مجهولة بالنسبة للأنكا. لقد كان ملكهم و أمراؤهم و حكامهم يستخدمون مرتكزات للذاكرة على شكل عقد على حبال تفيد في نقل المعلومات و الأوامر، استخدامهم لتلك الرموز المشفرة و المعقدة لم يؤدِّ إلى الوصول إلى شكل ما من الكتابة و لو بدائي.

لم تكن الكتابة مستخدمة في الأمريكيتين رغم ما شهدته من حضارات، إلا في حضارة المايا حصراً. لقد وصل المايا و الأزتِك الذين ورثوا حضارتهم إلى درجات عالية من التطور الحضاري، و خاصةً في مجال العمارة، لم تتطور كتابة المايا رغم ذلك، لتصل إلى مستوى الكتابة الأبجدية.

من جهة أخرى، لم تتطور الكتابة الصينية لتصل إلى مستوى الكتابة الأبجدية رغم خمسة آلاف سنة من حضارةٍ متواصلة و استثنائية.



مما سبق نستطيع أن نجزم أن الأبجدية ليست نتيجة حتمية لتطور الحضارات.

مما لا شك فيه كذلك، أن أبجدية عائلة اللغات العربية هي الأولى في التاريخ، و باقي أبجديات العالم لاحقة لها و مبنية عليها أو مقتبسة منها.

بالمقابل، فإن تلك الأبجدية، و بالنسبة لأكثر الباحثين تخصصاً، ظاهرةٌ غامضة في تاريخ و كيفية نشأتها، و في خيار ترتيب أحرفها.

غموض تاريخ و كيفية نشأتها مرهونٌ إلى حد بعيد بالحفريات و اللقى الأثرية. إذ إن ما تم الكشف عنه حتى الآن، ليس في الواقع، سوى نذرٍ يسير مما تلف أو مما لا يزال مطموراً.

أقدم ما تم الوصول إليه حالياً هو ما يسمى بكتابة سيناء، و التي تعود إلى أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد. حروفها مؤلفة من خطوط مستقيمة و منحنية. جلي أنها تبسيطٌ شديد الاختزال لرسوم.

اللقيا الأثرية الاستثنائية هي التي تم العثور عليها في موقع رأس شمرا على الساحل السوري، حيث آثار مدينة أوغاريت. و هي عبارة عن لوح طيني صغير من أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، لم ينقش عليه نصّ، بل الأبجدية حصراً، و ذلك على شكل ثلاثين حرفاً: سبعة و عشرين حرفاً منها أصيلة و مشتركة مع العربية، و ثلاثة أخرى ثانوية مثل همزة مضمومة. هذه الحروف الثلاثون تختلف اختلافاً جذرياً من حيث الشكل مع حروف كتابة سيناء، إذ إنها منقوشة بواسطة ضغط طرف رأس قصبة مقلَّمة على طين طري، تماماً كما في الكتابة المسمارية.

من الاختلاف الشكلي بين كتابة سيناء و أوغاريت، نستشف أن **فكرة الأبجدية و ما فيها من تجرد كانت موجودة بحد ذاتها و معلومة عند البعض**، و أن كل مجموعة بشرية كانت تستخدم ما يناسبها من رموز لتدوينها.

فالخطوط، مستقيمةً كانت أو منحنية، غير مناسبة للكتابة على ألواح طينية. بالمقابل، فهي مناسبة للسطوح الصلبة كالحجر أو المعدن، و هي المثلى في حال استخدام المداد على صحف كالجلود أو البردى.

الأهم من ذلك، و بعد إذ تبين لنا أن فكرة الأبجدية و ما فيها من تجرد كانت موجودة بحد ذاتها و معلومة، فإننا نستطيع أن نستشف أن أشكال الحروف التي يمكن أن تكون تبسيطاً شديد الاختزال لرسوم تمثل أموراً معينة و أسماء تلك الأمور، ليست سوى تَكَيُّفٍ مع فكرة الأبجدية و أنها لاحقة لها، و ما هي إلا طريقةً لربط أصوات مجردة بالذاكرة. هذا ما ينفي القناعة السائدة و الساذجة أن الأبجدية، ليست سوى تبسيط للرموز التي كانت تعبر عن كلمات ثم عن شق من تلك الكلمات لتصير أخيراً الصوت الأول منها. بناءً على ذلك، فإن أشكال بعض حروف العبرية و أسماءها، مثل «بيت» للباء و «جِمل» للجيم و «يُد» للياء، لا يشير إلى نشأة الأبجدية بل هو تكيُّف مع الأبجدية و وسيلةٌ لربط تلك الأصوات المجردة بالذاكرة.

أهم ما في أبجدية أوغاريت ترتيب أحرفها: ا ب ج خ د ه و ز ح ط ي ك ش ل م ذ ن ظ س ع ف ص ق ر ث غ ت ... و هو عملياً الترتيب النهائي و الذي استقرت عليه الأبجدية بعد ما لا يزيد على قرن في جبيل أو بيبلوس الكنعانية: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت.

هذا الترتيب هو الذي حيّر الاختصاصيين، إذ إنه لا يقوم على جمع الأحرف بناءً على تشابه ولو تقريبي بين أشكالها، أو بين مخارجها و أصواتها، أو على أي معيار عملي أو منطقي آخر.

هذه الحيرة، جعلت Garbini و هو أحد أهم الاختصاصيين في هذا المجال، يميل كثيراً لرأي المستشرق اللامع Bausani و المتخصص في تاريخ الفلك عند شعوب المشرق، و الذي يرى أن ترتيب حروف الأبجدية ذو أصل فلكي، و أنه مرتبط بعلاقة البدر بالاعتدال الخريفي و الانقلاب الشتوي و الاعتدال الربيعي و الانقلاب الصيفي.

هذه الظواهر الفلكية بعيدة كل البعد عن اهتمامات الإنسان المعاصر اليومية و العامة. لذا فهو بحاجة لبذل مجهود ليدرك أنها كانت بالغة الأهمية بالنسبة للحضارات السابقة، و ليدرك العلاقة الوثيقة بين الظواهر الفلكية و بين الطقوس أو الشعائر أو المناسبات الدينية.

بناءً على ما سبق، فإن الارتباط الممكن بين الأبجدية و الظواهر الفلكية ارتباط في حقيقته ديني.

هذا مما يلقي بعض الأضواء على ظاهرة غامضة في كثير من اللقى الأثرية الكنعانية المخصصة لأغراض دينية، حيث نجد مكتوباً عليها حرف الجر «لام» كما في العربية، متبوعاً بالأبجدية هكذا:
لِـ ا ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن ...

و كأن اللقية استخدمت لتقديم قربان أو لإقامة طقوس على شرف ا ب ج د ...

لا بد أخيراً، من التذكير بخاصيَّة بالغة الأهمية في أبجدية عائلة اللغات العربية، فقد كان شائعاً عند الكنعانيين مثلاً و منذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد، استخدام حروف الأبجدية في أغراض دنيوية و عملية أو ذات طابع ديني، و ذلك للدلالة على قيم عددية، على الشكل التالي:

ا	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠
ق	ر	ش	ت					
١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠					

❊ ❊ ❊

أكثر ما يستدعي الوقوف عنده بالنسبة للأبجدية، هو علاقتها الوثيقة بخصائص عائلة اللغات العربية، و على رأسها اللغة العربية.

تبيان تلك العلاقة من خلال اللغة العربية هو الأمثل، إذ إنها تجمع و بالشكل الأكمل الخصائص المميزة و الأصيلة لتلك اللغات.

إن أخذنا من أنقى ما يمثل اللغة العربية، أي صفحات لا على التعيين من القرآن الكريم، فسوف نجد ألفاظاً يمكن تصنيفها كأحرف و أدوات و ضمائر و كلمات، كما هو الحال بالنسبة لمعظم لغات العالم.

إن تعمقنا في الكلمات فسوف نجد مباشرة أنه بالإمكان إعادة النسبة العظمى منها إلى جَذرٍ من ثلاثة حروف، و ما تبقى إلى جذر من أربعة حروف.

اعتباراً من تلك الجذور يمكن اشتقاق جميع كلمات اللغة العربية، و ذلك بمجرد إضافة حروف معيّنة جُمِعت في عبارة: «**سألتمونيها**»، و بناءً على أوزان معلومة مثل **فاعل و فعول و مستفعل**. هذه الأوزان ليست سوى جذر «فَعَلَ» مضافٌ إليه حرف أو أكثر من الحروف المذكورة.

إن ضبط كلمات لغة كاملة بجذورٍ النسبة العظمى منها مؤلفة من ثلاثة أحرف من أبجدية تلك اللغة، هو بالواقع أمرٌ لافتٌ للنظر إن لم نقل مدهشاً.

أما عملية إدخال حرف من مجموعة محددة من حروف الأبجدية على جذر كلمة ثلاثي أو أكثر، و ذلك للحصول على مجموعة واسعة من الاشتقاقات، فإنها عملية بقدر ما هي مجردة بقدر ما هي فريدة بين لغات العالم.

فما أبعد ذلك التجريد الذي هو أشبه بتركيب صيغ كيميائية، من خصائص كلمات لغات العالم و اشتقاقاتها القائمة على إضافة مقاطع صوتية أو حتى لصق عدة كلمات ببعضها.

إضافة إلى ما سبق، فإن ما يثير الانتباه هو التطابق التام بين الأصوات المستخدمة في اللغة العربية و حروف أبجديتها، فلكل صوت حرفه الخاص به.

فلا وجود لصوت لا حرف خاصاً به، كما هو الحال في العبرية مثلاً حيث نجد حرف «الفا» مستخدَماً لصوت «ف» و لصوت أشبه ما يكون بحرف P، كذا الحال بالنسبة للكاف الذي يستخدم للفظ «ك» و «خ».

كذلك، فإنه لا وجود لأكثر من حرف لنطق صوت واحد، كما هو الحال مثلاً في الفرنسية بالنسبة لصوت «ك» الذي يمكن كتابته بالحروف الثلاثة تلك c ، k ، q حسب الكلمات.

فلا زيادة، إذاً، في الحروف الثمانية و العشرين للأبجدية العربية و لا نقصان.

إن انعدام الزيادة فيما لا ضرورة له و النقصان فيما الحاجة إليه، لمن صفات الكمال.

من مظاهر ذاك الكمال، التطابق التام بين عدد حروف الأبجدية العربية الثمانية و العشرين و عدد منازل القمر و عدد سلاميات اليدين.

أي، مثلث من التوافق بين المجردات العُليا لعالم الحروف، و العالم الأكبر ممثلاً بمنازل القمر، و العالم الأصغر ممثلاً بيديّ البشر.

من جهة أخرى، يتجلى ذلك الكمال في القيم العددية لحروف الأبجدية العربية.

إذ إن أكبر قيمة عددية ممثلة بحرف واحد في الأبجدية الكنعانية هي ٤٠٠ لحرف «ت» الأخير منها، كما هو الحال في العبرية التي اعتمدت عدد حروف الكنعانية و شكل حروف الآرامية.



جلي أن لا معنى خاص أو رمز في ٤٠٠، بل هي مجرد القيمة العددية التي تقابل آخر حرف من تلك الأبجدية.

بالمقابل، فإن أكبر قيمة عددية ممثلة بحرف واحد في الأبجدية العربية هي ١٠٠٠ لحرف «غ» الأخير منها.

خلافاً لـ٤٠٠ و التي هي مجرد عدد غير مُمَيَّز من فئة المئات، فإن ١٠٠٠ بمثابة عتبة أو نقطة تَحَوُّل كما هو الحال بالنسبة لـ١٠ و ١٠٠. إضافة إلى ذلك، فإن ١٠٠٠ هي أكبر قيمة عددية يمكن التعبير عنها بكلمة واحدة في أية لغة من عائلة اللغات العربية.

بذلك فإن القيمة العددية لآخر حرف من الأبجدية العربية تتطابق مع آخر مفردة من المفردات العربية التي تعبر عن الأعداد.

ا	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠
ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ
١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠
غ								
١٠٠٠								

ما يُبْرِز ذلك الكمال، هو المجموع ذو الخصائص الرقمية الاستثنائية لقيم تلك الحروف الثمانية و العشرين، أي ٥٩٩٥.

٥٩٩٥ عدد استثنائي:

أول ما يلفت النظر فيه أنه متناظر، مما يضفي عليه سمة مميزة. هذا التناظر يصبح بحد ذاته استثنائياً عندما يُنظر إلى ٥٩٩٥ على أنه ٩٥ و مقلوبه ٥٩. إذ إن من بين الأعداد الواحد منها مقلوب الآخر و المؤلفة من رقمين، فإن ٩٥ و ٥٩ هما العددان **الوحيدان** حيث النسبة بينهما نسبة ذهبية.

إضافة إلى ذلك، فإن ٥٩٩٥ يحقق الخاصية التالية:

(٥+٩=١٤)+(٩+٥=١٤)=٢٨.

(٥+٩)+(٩+٥)=١٤+١٤=٢٨. بذلك فإن محصلة الأرقام المكونة لمجموع قيم الحروف الثماني و العشرين هو كذلك و بشكل استثنائي ٢٨ عدد تلك الحروف.



(٥+٩) + (٩+٥) = ١٤ و ١٤، و هذا يطابق خصائص حروف العربية التي تنقسم من حيث الخصائص اللفظية إلى مجموعتين متساويتين من ١٤ حرفاً، كذلك الحال بالنسبة إلى تقسيم حروف العربية في القرآن إلى مجموعتين متساويتين من ١٤ حرفاً، و كذلك الحال بالنسبة لمنازل القمر: ١٤ تتلاحق بشكل متواصل فوق الأفق و ١٤ بالضرورة تحته، و لسلاميات اليدين: ١٤ سلامية لكل يد.

و يصل الإحكام إلى درجة أن تحويل حروف عبارة «يد» إلى قيمها العددية:

(ي=١٠)+(د=٤) = ١٤.

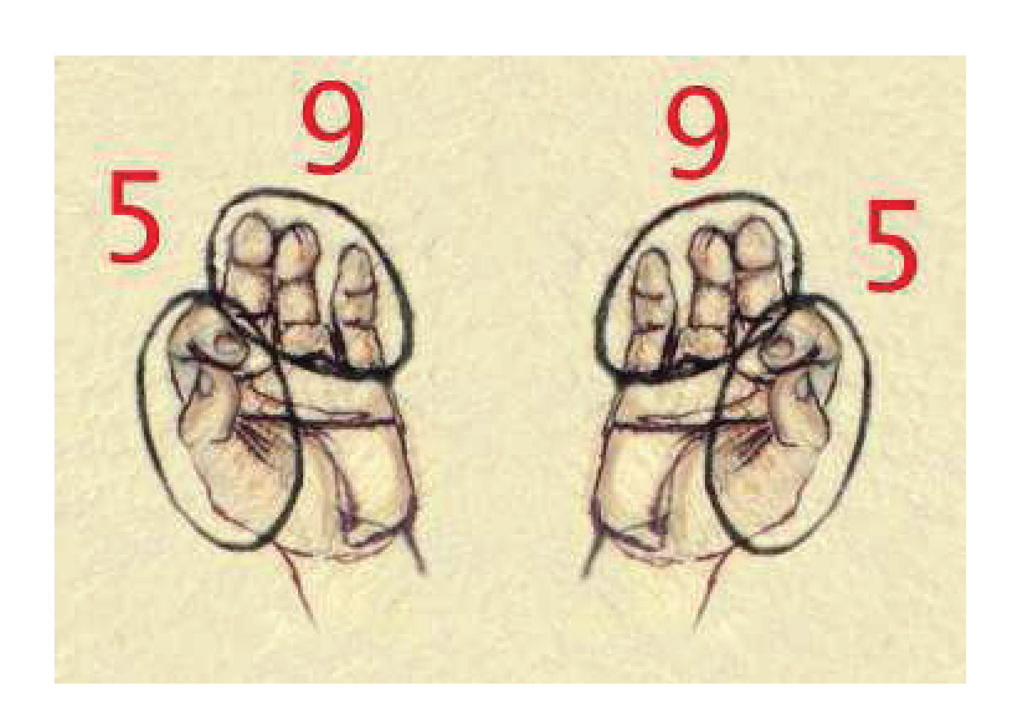
يدعم ذلك، تمثيل اليدين البديع للعدد ٥٩٩٥، و ذلك بالشكل التالي:

نمثل آحاد عددنا أي ٥، بالتقاء سلامية الظفر من الإبهام بسلامية الظفر من السبابة، بذلك نكون قد جمعنا ٥ سلاميات الإبهام و السبابة من اليد اليمنى، و حصلنا تلقائياً على شكل أشبه ما يكون بحرف «الها»، و هو خامس حروف الأبجدية.

سلاميات الوسطى و الخنصر و البنصر تعطينا أفضل تمثيل لعشرات عددنا أي ٩، و ذلك لأن ٩ ليست سوى ٣ × ٣ أي ٣^{٢}.

سلاميات الوسطى و الخنصر و البنصر من اليسرى، تمثل مئات عددنا أي ٩.

و أخيراً، فإن سلاميات الإبهام و السبابة من اليسرى تمثل ألوف عددنا أي ٥.





لا تقف الخصائص الرياضية الاستثنائية للقيم العددية لحروف الأبجدية العربية عند ما سبق، بل تتجاوز كل ما يمكن توقعه أو تخمينه، و خاصة فيما يتعلق بعلاقاتها الوثيقة بضوابط كونية.

تلك الضوابط الكونية بعيدة كل البعد عن تفكير معاصرينا، حتى المثقفين منهم. لذا فسوف نكتفي بأبسط مثال ممكن لتبيان وجه من بين أوجه كثيرة من تلك الخصائص الاستثنائية.

١	ا	غ	١٠٠٠	١٠٠١	٩١×١١=
٢	ب	ظ	٩٠٠	٩٠٢	٨٢×١١=
٣	ج	ض	٨٠٠	٨٠٣	٧٣×١١=
٤	د	ذ	٧٠٠	٧٠٤	٦٤×١١=
٥	ه	خ	٦٠٠	٦٠٥	٥٥×١١=
٦	و	ث	٥٠٠	٥٠٦	٤٦×١١=
٧	ز	ت	٤٠٠	٤٠٧	٣٧×١١=
٨	ح	ش	٣٠٠	٣٠٨	٢٨×١١=
٩	ط	ر	٢٠٠	٢٠٩	١٩×١١=
١٠	ي	ق	١٠٠	١١٠	١٠×١١=
٢٠	ك	ص	٩٠	١١٠	١٠×١١=
٣٠	ل	ف	٨٠	١١٠	١٠×١١=
٤٠	م	ع	٧٠	١١٠	١٠×١١=
٥٠	ن	س	٦٠	١١٠	١٠×١١=

نقابل جميع حروف الأبجدية: الأول «ا» بالآخر «غ»، و الثاني «ب» بقبل الأخير «ظ»، و هكذا إلى أن نصل إلى «ن» و «س».

نجمع قيم كل حرفين متقابلين، فنحصل على قيم تتدرج بين ١٠٠١ و ١١٠.

أول ما نلاحظه هو أن جميع تلك القيم هي من مضاعفات عدد بالغ الأهمية، من حيث وجوده في لفتات نبوية عالية مثل العدد الذي يضبط أحد أهم أذكار المسلمين، أي «سبحان الله» ثم «الحمد لله» ثم «الله أكبر» كل منها ٣٣ مرة. و كذلك عدد من أسماء الله الحسنى، أشار إليه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ٩٩.

١١ أساسي في قيم حروف أهم كلمة في التراث الإسلامي الكوني، أي لفظ الجلالة:

ا = ١، + ل = ٣٠، + ل = ٣٠، + ه = ٥، = ٦٦ = ١+٢+٣+٤+٥+٦+٧+٨+٩+١٠+١١.

و هو كذلك أساسي في قيم حروف شهادة «لا إله إلا الله» أي ١٦٥، أي ٩٩+٦٦ للفظ الجلالة. و في شهادة «لا إله إلا أنت» أي ٥٥٠، أي ٩٩ +٤٥١ لعبارة «أنت». و في شهادة «لا إله إلا هو» أي ١١٠، أي ٩٩ +١١ لعبارة «هو».

وردت هذه الشهادات ٣٣ مرة في القرآن الكريم، و عدد حروفها ٣٣.

اللفتات السابقة تبين و تضمن أن ما نحن بصدده أبعد ما يكون عن نوع من «الرياضيات المسلية»، و إنما رموز إلهية عالية و ضوابط كونية.

لذا فإن مجموع قيم حروف الأبجدية ٥٩٩٥ عدد ذو مدلول عالٍ،

إذ إنه ٥٤٥ × ١١.

١	ا	غ	١٠٠٠	١٠٠١	= ١١ × ٩١
٢	ب	ظ	٩٠٠	٩٠٢	= ١١ × ٨٢
٣	ج	ض	٨٠٠	٨٠٣	= ١١ × ٧٣
٤	د	ذ	٧٠٠	٧٠٤	= ١١ × ٦٤
٥	ه	خ	٦٠٠	٦٠٥	= ١١ × ٥٥
٦	و	ث	٥٠٠	٥٠٦	= ١١ × ٤٦
٧	ز	ت	٤٠٠	٤٠٧	= ١١ × ٣٧
٨	ح	ش	٣٠٠	٣٠٨	= ١١ × ٢٨
٩	ط	ر	٢٠٠	٢٠٩	= ١١ × ١٩
١٠	ي	ق	١٠٠	١١٠	= ١١ × ١٠
٢٠	ك	ص	٩٠	١١٠	= ١١ × ١٠
٣٠	ل	ف	٨٠	١١٠	= ١١ × ١٠
٤٠	م	ع	٧٠	١١٠	= ١١ × ١٠
٥٠	ن	س	٦٠	١١٠	= ١١ × ١٠

إن عدنا إلى الجدول السابق فسوف نلاحظ مباشرة أن قيم كل حرفين متقابلين ليست مجرد مضاعفات ١١، بل إنها مضبوطة بضوابط شديدة الصرامة و الانتظام:

إذ نجد أن ١١ مضروب بسلسلة من الأعداد التالية: ٩١، ٨٢، ٧٣، ٦٤، ٥٥، ٤٦، ٣٧، ٢٨، ١٩، ثم ١٠، ١٠، ١٠، ١٠، ١٠.

جلي أن الآحاد في تزايد نظامي في سلسلة ٩١، ٨٢، ٧٣، ٦٤، ٥٥، ٤٦، ٣٧، ٢٨، ١٩، و أن العشرات في تناقص مطابق في نظامه للتزايد. جلي كذلك في تلك السلسلة أن أول الآحاد مطابق لآخر العشرات منها، و ثاني الآحاد لعشرات قبل الأخير منها، و هكذا.

أرقام تلك السلسلة مضبوطة غاية الضبط، إذ إن مجموع آحاد و عشرات أي عدد منها يساوي ١٠، و هو العدد الذي يتكرر خمساً في آخر الجدول.

نلاحظ كذلك، أن الجدول السابق ينقسم إلى مجموعتين عموديتين من القيم: ٩ قيم متناقصة بانتظام من ١٠٠١ إلى ٢٠٩، و ٥ قيم ثابتة من ١١٠.

بذلك تكون تلك القيم قد فرزت الأبجدية العربية إلى مجموعتين من ٩ حروف و مجموعتين من ٥ حروف، أي ٥ و ٩ و ٩ و ٥. هذا يعيدنا إلى ٥٩٩٥.

ولا يقف الأمر عند ذلك، إذ إن كلّاً من المجموعتين متمحورةٌ حول محور تناظر:

محور ٦٠٥ لمجموعة ٩، و محور ١١٠ لمجموعة ٥.

إذ إن مجموع كل قيمتين متقابلتين في محور مجموعة ٩ يساوي ١٢١٠:

١٠٠١+٢٠٩ = ١٢١٠

٩٠٢+٣٠٨ = ١٢١٠

٨٠٤+٤٠٦ = ١٢١٠

٧٠٤+٥٠٦ = ١٢١٠

و مجموع كل قيمتين متقابلتين في محور مجموعة ٥ يساوي ٢٢٠.

المجموعة ٩ تتمحور عند ٦٠٥ الذي هو ١١×<u>٥٥</u>.

المجموعة ٥ تتمحور عند ١١٠ الذي هو ١١×<u>١٠</u>.

بذلك فإن الأعداد المكونة لكلا المحورين مضبوطة غاية الضبط، لأن العلاقة بين <u>١٠</u> و <u>٥٥</u> علاقة وثيقة للغاية لأن محتويات <u>١٠</u>:

١+٢+٣+٤+٥+٦+٧+٨+٩+١٠ تساوي **<u>٥٥</u>**.

هذا بغض النظر عن الرموز الإلهية و الضوابط الكونية التي تشير إليها اللفتة الأخيرة...

كمال الأبجدية العربية نجده كذلك في عدد حروفها بحد ذاته، أي ٢٨.

إذ إن ٢٨ عددٌ كامل، لأنه مساو لمجموع أجزائه التي هي حصراً: ١،٢،٤،٧،١٤.

إن اعتبرنا أن ١ هو أول عدد كامل على سبيل الرمز، فإن ٦ هو الثاني و ٢٨ هو الثالث.

يمكن الحصول على الأعداد الكاملة من خلال معادلة منسوبة إلى إقليدس:



[٢ مرفوعة إلى قوة «ع» (عدد ما) ناقص ١] في (٢ مرفوعة إلى قوة «ع»، و الحاصل ناقص ١)، شرط أن يكون الناتج الأخير للقوس الثاني عدداً أولياً.

إن طبقنا المعادلة مستخدمين ٣ لـ «ع» فإننا نحصل على ما يلي:

[٢ مرفوعة إلى قوة ٣-١] × [(٢ مرفوعة إلى قوة ٣) — ١]=

[٢ مرفوعة إلى قوة ٢] × [(٢ مرفوعة إلى قوة ٣) — ١]=

[٤] × [(٨) — ١]=

[٤] × [٧]= ٢٨.

السطر الأخير من المعادلة السابقة على أتم التوافق مع التمثيل البصري بالشكل الأكثر انكماشاً و انتظاماً لثمانية و عشرين عنصراً. إذ إنه لا يوجد حلٌّ خير من إعطاء كل عنصر شكلاً مربعاً و جعلها في مستطيل ٤×٧.

يمكن النظر إلى ذلك المستطيل بجعله عمودياً، فيكون سبعة أسطر بأربعة أعمدة:

د	ج	ب	ا
ح	ز	و	ه
ل	ك	ي	ط
ع	س	ن	م
ر	ق	ص	ف
خ	ث	ت	ش
غ	ظ	ض	ذ

أو أفقياً، فيكون أربعة أسطرٍ بسبعة أعمدة:

ز	و	ه	د	ج	ب	ا
ن	م	ل	ك	ي	ط	ح
ش	ر	ق	ص	ف	ع	س
غ	ظ	ض	ذ	خ	ث	ت

هذا المستطيل ٤ × ٧ بشكليه العمودي و الأفقي، ليس مجرد الحل الأمثل للتمثيل البصري الأكثر انكماشاً و تناظراً، بل هو و بشكليه، معيار يضبط خصائص أساسية في اللغة العربية بطريقة هندسية و رقمية ما أبعدها في تجردها عن المنطق البشري.

يمكن تبيان ذلك من خلال إحدى خصائص نطق حروف الأبجدية العربية، و ذلك على سبيل المثال.

إذ تنقسم حروف الأبجدية العربية من حيث النطق إلى مجموعتين:

– مجموعة تسمى قمرية، لأن لام أداة التعريف تلفظ بوضوح، كما في عبارة «القمر».

– و مجموعة تسمى شمسية، لأن لام أداة التعريف لا تلفظ إطلاقاً، و إنما يُشَدَّد أول حرف من الكلمة كما في عبارة «الشمس».

اللافت للنظر، هو انقسام الأبجدية العربية و بناءً على اعتبارات نطقية صرفة، إلى مجموعتين متساويتين من ١٤ حرفاً.

إن انفكاك مجموعة ما من العناصر ذات السمات و الخصائص المختلفة، لتجتمع بناءً على خاصية محددة مجموعتين متساويتين، هو أبعد الاحتمالات عن الصدفة.

من جهة أخرى، فإن انقسام الأبجدية العربية إلى مجموعتين من ١٤ حرفاً، يزيد من التوافق بينها و بين سلاميات اليدين، ١٤ لكل يد، و كذلك بين منازل القمر التي تتعاقب بحيث تكون على الدوام ١٤ فوق الأفق و ١٤ تحته.

التوزُّع الهندسي النظامي لحروف الأبجدية بين «قمرية» و «شمسية» في المستطيل ٤ × ٧ بشكله الأفقي يؤكد على السمة الاستثنائية لتلك الأبجدية:

إن أخذنا بعين الاعتبار الحروف «القمرية»، فإنها تتوزع بالشكل التنازلي المنتظم التالي:

ا	ب	ج		ه	و	
ح		ي	ك		م	
	ع	ف		ق		
		خ				غ

٥ حروف للسطر الأول
٤ حروف للثاني
٣ حروف للثالث
٢ حرف للرابع

و بطبيعة الحال، فإن الحروف «الشمسية» سوف تتوزع بالشكل التصاعدي المنتظم التالي:

			د			ز
	ط			ل		ن
س			ص		ر	ش
ت	ث		ذ	ض	ظ	

٢ حرف للسطر الأول
٣ حروف للثاني
٤ حروف للثالث
٥ حروف للرابع



جليٌّ أن هذا الضبط المتوازن و المتناظر هندسياً و عددياً، بعيد في تجرُّده كل البعد عن تشكُّل و تطور لغة بشرية صرفة.

لذا فلا عجب أن نجد تلك الاعتبارات الرقمية المجردة و بحدها الأقصى في النص الإلهي الشريف، حيث إن الالتزام بالخصائص اللفظية للحروف «القمرية» و «الشمسية» مثلاً، من أساسيات تلاوة القرآن الكريم. خاصة أن جميع من يجيد تلاوة القرآن يلتزم بدقة و احترام شديدين بجميع ما سمعه ممن علَّمه، و الذي بدوره يتلو القرآن تماماً كمن علَّمه، إلى أن تصل السلسلة إلى خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي تلا القرآن تماماً كما سمعه من الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و الذي سمعه من رب العالمين الله العزيز العليم.

لعل أسهل مثال لتبيان ضبط تلك الاعتبارات الرقمية المجردة لخصائص نطقيّة صرفة، هو سورة الفاتحة و الشهيرة بآياتها السبع بإجماع المسلمين. لقد استوقف أهلَ النظر و منذ قرون، أنها حَوَتْ على الأبجدية كاملة عدا سبعة حروف تحديداً كعدد آياتها، أي (٤ × ٧) – ٧. بالمقابل، فإن جميع من يجيد تلاوة الفاتحة يعلم أنها تحوي على ١٤ شدة. و لكنه لا بد مِن نظرٍ، لملاحظة أن تلك الشدّات الأربع عشرة لا تقع إلا على ٧ حروف من الأبجدية.

كذلك، فإنه لا بد من كثير من النظر لملاحظة أن ٧ حروف من الأبجدية تحديداً، لم ترد قط في أول أيّة سورة من القرآن الكريم و لا في آخرها، أي (٤ × ٧)– ٧ كما في الفاتحة.

اللفتة الأخيرة تقودنا بالضرورة إلى الوقوف أمام تلك الحروف الغامضة في أوائل سُوَرٍ من القرآن، و التي حيَّرت جميع المفسرين.

أولُ ما تطالعنا تلك الحروف الغامضة في أولِ السورة الثانية أي سورة البقرة، و ذلك في قوله تعالى لكل عاقل: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ...②﴾ .

تقديمه سبحانه لتلك الحروف الغامضة على نفيه القاطع للريب في كتابه، يقود التفكيرَ ليستنتج أنها بمثابة الضمانة التي تفتح الباب لأيّ عاقل حر ليتحقق من انعدام الريب.

لقد وردت تلك الحروف المسماة بفواتح السور، في ٢٨ سورة من نصف عدد سور القرآن الأول، و في واحدة من نصف عدد السور الأخير.

تميُّزُ تلك السورة بتفرّدها في النصف الأخير، يؤكده أمر لافت للنظر:

فقد استُفْتِحت بحرف واحد: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾ [القلم: ٦٨/ ١]. وهي المرة الوحيدة التي يرِد فيها هذا الحرف كفاتحة سورة.

و مما يزيد تميزَه أنه أول حرف من فواتح السور في تسلسل تنزيل الوحي، و هو، و بتوازنٍ تام، آخر حرف من تلك الحروف في تسلسل ترتيب سور القرآن.

و هو بشكل خاص الحرف الرابع عشر من الأبجدية.

اللفتات الأخيرة تأخذ أبعاداً كبيرة عندما نجد أن ١٤ هو حصراً عدد الصيغ التي رتَّبَ فيها سبحانه الحروف التي اختارها لفواتح ٢٨+١ سورة من كتابه.

عدد هذه الصيغ ١٤ على كل حال، إن اعتبرنا «حمعسق» صيغة، أو «حم» صيغة و «عسق» صيغة:

الم، المص، المر، الر، كهيعص، طه، طس، طسم، يس، ص، حم، عسق، ق، ن.

ما يؤكد دقة و إحكام الأمر، هو اختياره سبحانه ١٤ حرفاً من بين حروف الأبجدية لفواتح سور كتابه:

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
ا	ل	م	ص	ر	ك	ه	ي	ع	ط	س	ح	ق	ن

أي نصف الأبجدية، و التي تنقسم حسب ذلك الخيار إلى مجموعتين متساويتين على غرار الحروف «القمرية» و «الشمسية»، و منازل القمر و سلاميات اليدين.

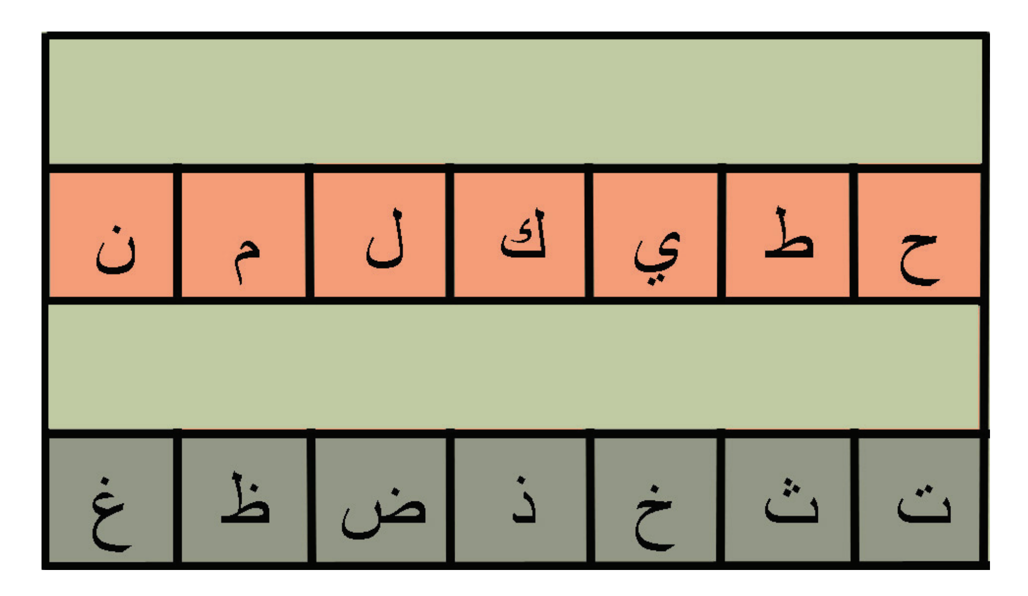
ما يزيد و بشكل دراماتيكي من تأكيد دقة و إحكام ذلك النظام الإلهي المجرد، هو التوضُّع الهندسي الرقمي و المجرد لتلك الحروف في المستطيل ٤ × ٧ بشكله الأفقي:

ا	ب	ج	د	ه	و	ز
ح	ط	ي	ك	ل	م	ن
س	ع	ف	ص	ق	ر	ش
ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ

قد يبدو ذلك التوضع، و للوهلة الأولى، عشوائياً.

ولكن، و بعد قليل من التأمل، نجد أن:

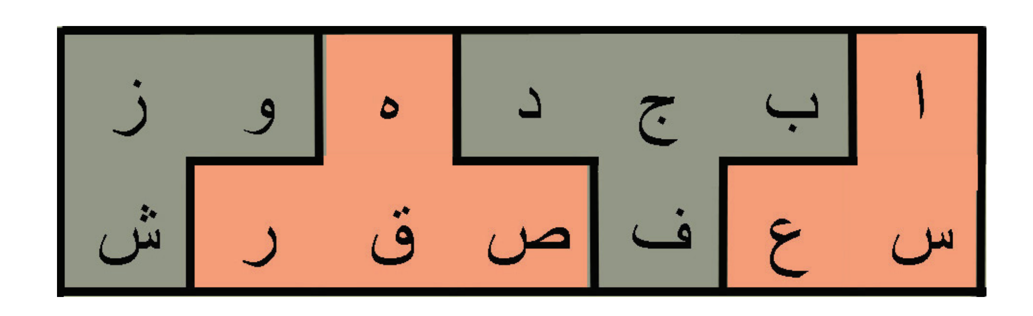
- جميع حروف السطر ٢، من الحروف التي اختارها سبحانه.
- و هي تقابل حروف السطر ٤، حيث أن حروفه جميعها لا تدخل في ذلك الخيار.



و كما أن ٢ كعدد زوجي يقابل ٤، فإن ١ كعدد فردي يقابل ٣:

- في السطر الأول جميع الحروف لا تنتمي إلى مجموعة حروف فواتح السور، عدا الحرف الأول و الحرف الخامس اعتباراً من بداية السطر.
- **و في تناظر عكسي مطلق مع السطر الأول، فإن جميع حروف السطر الثالث تنتمي إلى مجموعة حروف فواتح السور، عدا الحرف الأول و الحرف الخامس اعتباراً من نهاية السطر.**

دمج السطر الأول مع السطر الثالث يظهر بوضوح ذلك التناظر المطلق و العجيب في تجرده الهندسي:



ولا يقف الأمر عند ما سبق و ذكرناه من ضوابط مجردة، بل يستمر فيها و في مستويات أعلى منها بكثير.

نكتفي بالإشارة إلى أن القيم العددية لحروف فواتح السور الأربعة عشر هو ٦٩٣ أي ٦٣×١١. بذلك نكون قد وقفنا أمام باب ينفتح على ما لا أدري إن كان لا نهاية له من العلوم العليا. علومٌ لا تمت بصلة إلى سطحيَّةِ ظاهرةِ أو فكرةِ «الإعجاز العددي» في القرآن الكريم.

❋ ❋ ❋

إن تجردنا عن المواقف المسبقة و الآراء الجاهزة، و نظرنا إلى الأمور كما هي، فسوف نجد و بناءً على ما عرضناه، أن اللغة العربية قائمة على الأبجدية. إذ إن جذور كلماتها مضبوطة بها، كذا الحال بالنسبة لاشتقاقاتها و للخصائص النطقيّة لحروفها.

هذا لوحده يوصلنا إلى نتيجة منطقية حتمية:

هي أن اللغة العربية، و طالما أنها قائمة و مبْنِيَّة على الأبجدية، فإنها لاحقة لها. و منه نستنتج أنها ليست لغة بشرية.

كيف إذاً، إن أخذنا بعين الاعتبار كامل الخصائص الهندسية و الرقمية المجردة لتلك الأبجدية و تلك اللغة؟ و التي لم نقم إلا بالإشارة إليها ببضعة أمثلة بسيطة.

فسوف نجد أنفسنا عندئذ مضطرين للإقرار أنها لغة إلهية، و أن كلماتها ليست كلمات اصطلح عليها البشر، إذ إنها مضبوطة بالفكرة المجردة التي يحملها كل حرف من أبجديتها، و بمكان ذلك الحرف من الجذر. فالحرف عندما يكون أول الجذر أو المصدر فإنه يكون بقوة فكرته القصوى. ثم يأتي بعد ذلك و بالدرجة الثانية من حيث القوة، مكانُه آخر الجذر أو المصدر. و عندما يكون في الوسط فإنه يكون خاضعاً لتأثير فكرة كلا حرفي البداية و النهاية.

و كذلك فهي مضبوطة بقوانين رقمية هندسية تظهر بجلاء، و ذلك عند مقارنة حروف كلمة بحروف كلمة أخرى ذات معنى معاكس، مثل طول و عرض، أو صدق و كذب أو شرق و غرب، و ذلك من خلال توزيع حروف الأبجدية على دائرة يُضبط ترتيبها هندسياً.

هذا بغضِّ النظر عن الآفاق الشاسعة التي تفتحها القيم العددية لحروف كلمات القرآن، و التي تضمن صحتَها و علو مقامها حروفُ فواتح السور.

لا سبيل لانفتاح تلك الآفاق إلا بمعرفة أن القيم العددية لحروف كلمة واحدة لا تقف عند أربع قيم، بل تتجاوزها إلى ألوف من القيم المختلفة جذرياً للكلمة الواحدة.

ولا سبيل لانفتاح تلك الآفاق بمجرد الوقوف عند تلك القيم، بل بمعرفة معاني رموز تلك القيم.

هذه القيم تَفتح لمن أذن له الرحمن جَلَّجَلَالُهُ و امتثل لأمره سبحانه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٩]، علومَ «لا إله إلا الله» و ما أودعه سبحانه من علوم في كتابه الكريم.

فيتبين عندئذٍ لمن أُذِن له، أن كل حرف من القرآن الكريم مضبوط ضبطاً لا يقدر عليه مخلوق.

و يتبين له أن النص القرآني الشريف لا تحكم لغته قواعد النحو التي تضبط كلام البشر، لأنه يسمو في آياته فوقها.

و يتبين له كذلك، أن رسم النص القرآني الشريف لا تحكمه كتابة قريش و لا غيرها، بل يسمو فوقها ليوافق ما أودعه سبحانه من علم في كتابه. و إلا فما مبرر أو تفسير رسم قوله تعالى «آتانيَ» ﴿ ...ءَاتَىٰنِيَ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ في سورة مريم، و رسم نفس الكلمة ﴿ ...ءَاتَىٰنِۦَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ في النمل؟ و ما مبرر أو تفسير الرسم العجيب لقوله تعالى من نفس السورة: ﴿ ...لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ ... ﴾ ؟

و يتبين له أخيراً، أنه لا توجد لغة من لغات البشر تجمع الخصائص المناسبة لنقْلِ و لو جانب من تلك العلوم. و أن اللسان الذي نزل به القرآن هو الوحيد القادر على ذلك لأنه مُعَدٌّ أصلاً ليُبَيِّنه من غير التباس.

❊ ❊ ❊



القرآن الكريم و قضية الأعداد

في العقد الأخير من القرن الهجري الماضي، أي في السبعينات من القرن العشرين، بدأت تظهر أبحاث حول ما يُسمّى «الإعجاز العددي» في القرآن الكريم.

بالواقع، هذه الأبحاث ما هي إلا شكل من الأشكال الأخيرة من ظاهرةٍ نشأت في العالم الإسلامي منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. و ذلك، كردة فعل على الغزو العسكري و الثقافي الغربي للبلاد الإسلامية، و خاصةً مصر.

في هذه المواجهة الحضارية كان الغرب يؤكد على تفوقه المدني و العلمي و التكنولوجي، و على رجعية و تخلف الإسلام و القرآن.

ردة فعل بعض مثقفي المسلمين في القرن العشرين تمثلت بإثبات العكس، و ذلك من خلال أبحاث تحاول تبيان تفوق بل إعجاز القرآن في مجالات عدة. أهمها بطبيعة حال التحدي: الإعجاز العلمي. و منها الإعجاز اللغوي و الإعجاز البياني، و حتى الاشتراكية في الإسلام! و آخرها الإعجاز العددي.

المأخذ على أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، هو لسان حالها الذي يقول: «لا يتفاخر الغرب علينا و يتكبر بعلومه، فإنها موجودة في قرآننا منذ أربعة عشر قرناً». فَلِمَ ينتظرون أن يكتشف الغرب أمراً، ليقولوا: «إنه موجود في كتابنا»؟

ماذا ينتظرون ليقولوا: «ها نحن متفوقون عليكم علمياً بأشواطٍ بما عندنا في كتابنا»؟

أما بالنسبة للأعداد في الإسلام و القرآن، فهي تكاد تكون خافية عن الأنظار. لذا فقد طالها تيار البحث عن الإعجاز.

هذه الأعداد حقيقة عظيمة و جليلة شاءها سبحانه في دينه و في كتابه، كما شاءها في خلقه.

المأخذ الأساسي على الأبحاث التي تخوض في الأعداد في القرآن الكريم، هو حصرها علماً عظيماً و جللاً ضمن النطاق الجزئي و شديد الضيق لفكرة الإعجاز العددي.

فلا تخرج تلك الأبحاث، من أسخفها و أتفهها إلى ما لا بأس به منها، خارج نطاق استعراض جملة توافقات عددية «عجيبة». و وقوف أصحابها عندها بالعجب، من غير تبيان معانيها و مدلولاتها.



الإشكال الأساسي الذي وقع فيه أصحاب تلك الأبحاث هو عدم اعتمادهم لمنهجيةٍ حقيقية، أي مستنبطة من النص القرآني الشريف، و من تجليات الحقيقة في الأعداد و في الخليقة.

منهجية يستقطبها المقصد الإلهي، أي ما يريدنا سبحانه أن نعلم و نفهم.

منهجية تسير بذلك الاتجاه و لا تحيد عنه بأي شاغلٍ.

بل، إن منهجهم يقوم على التخمين و تجربة بعض الصيغ، مثل مضاعفات عدد ما و تواجداتٍ لأعدادٍ أولية. الهدف الأساسي لذلك كله إثارة الدهشة و العجب، ابتداءً بعجب و إعجاب الباحث باكتشافاته.

هذا لا يعني بطلان فكرة مضاعفات عدد ما، أو فكرة تواجد أعداد أولية.

بل هذا دليل أن معظم أصحاب تلك الأبحاث، و هم يجربون تلك الصيغ، يشعرون بوجود بنية رقمية في القرآن الكريم ذات مدلول عظيم.

ولكنهم ، و بالرغم من كل محاولاتهم، إنما يحومون حولها، و يحول بينهم و بينها سورٌ منيع و أبوابٌ تبقى مغلقة.

هذه الأسوار تمنع عن هذا العلم العظيم و الجليل، إضافة إلى أصحاب تلك الأبحاث، جميع الذين لا يدركون مدى أهمية الأرقام و الأعداد في الخليقة و الحقيقة. و خاصة أولئك الذين يعتبرون الخوض في الأرقام و الأعداد فضولاً و أمراً غريباً عن الإسلام الحق.

ولكن الأرقام و الأعداد جليَّة في الإسلام الحق، فهو مبنيٌّ على خمسة أركان، أي زوايا، أي مضلع خماسي الأركان، أي خير ما يمثل النسبة الذهبية.

بقي أن يتدارك المرء جهله للخصائص الهندسية الاستثنائية للنسبة الذهبية، و لتجلياتها في الخليقة.

الشهادة بنيان رقمي شامخ أول ما فيه التوحيد.

كذلك الصلاة. فهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأعداد التي تضبطها، و التي تظهر ما أودع سبحانه فيها من أسرار مما يفوق التصور.

كذلك الأمر بالنسبة لكل من يتفكر في الصوم و الزكاة و الحج.

و كذلك الأمر بالنسبة للقرآن الكريم و ما فيه من ضوابط رقمية معبِّرة لا يمكننا إحصاءها. و قد أشرنا باقتضاب إلى بعضٍ منها، بمعرض الكلام، عبر صفحات هذا الكتاب.

أمرُ العدد جلل، لحضوره في أساسيات تجليات الإرادة الإلهية.

ألا يكفي أن رب العالمين و بعظمته سبحانه، قد قال و بصريح العبارة ﴿... وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٨]؟

أليست الذرات من خلق الله؟ ذرتا الهدروجين و الهليوم مختلفتان اختلافاً كبيراً في خصائصهما الفيزيائية و الكيميائية، ما الفارق بينهما إلا أعداد شاءها سبحانه؟

ما الفارق بين مورثات بشر و مورثات ذبابة، إلا أعداد شاءها سبحانه. فالحموض الأمينية الداخلة في تلك المورثات نفسها في عالم الحيوان، أربعة بلا زيادة و لا نقصان، لا تجتمع إلا ثلاثة منها ضمن صيغ متنوعة.

كذلك الأمر بالنسبة لأي خلقٍ من خلقه سبحانه، الذي، أصلاً، حصر الخليقة في عدد، في ستة أيام: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ...﴿٣﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣]. و قال مفصلاً و مؤكداً على العدد: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٩-١٢].

و لو لم يكن للعدد شأنٌ عظيم، لما أدخله سبحانه في خلق السموات و الأرض. فهو سبحانه القادر المقتدر الذي ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢]، قادر على أن يخلق السموات و الأرض بأسرع من لمح البصر. فَلِمَ جعل سبحانه الأمر على ستة أيام؟ إلا لحكمةٍ بالغة و لمدلول عظيم.

* * *



الأهمية العظيمة للأعداد في الحقيقة و في الخليقة و في القرآن و في الإسلام جليةٌ، و تجاهلها جهل!

ولكن الخوض في هذا المجال بجدارة أمرٌ في غاية الصعوبة، و ذلك لسببين:

- أولهما، الهُوَّة الثقافية و الفكرية الشاسعة بين معاصرينا و بين ما يتطلبه الخوض في هذا المجال.

إذ إن عقول معاصرينا مسلمين أو غير مسلمين، و حتى آباءهم و أجدادهم، تقولبت في المدارس الحديثة، حيث إن العدد مجرد أداة تُعبِّر عن كمٍّ، و لا أكثر من ذلك. كما لا يتميز ثلاثون كيلوغراماً من القمح عن خمسين بمعنى أو مدلول أو بأي شيء، إلا بالكم.

و على ذلك نشأت و تقولبت عقول معاصرينا، من سوادهم إلى عظماء علمائهم، مثل إيليا بريغوجين Elia Prigogine الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٧٧. و الذي صار، هو و غيره من نخبة العلماء، يتساءلون عن سبب ما يلاحظونه من كثرة ورود أعداد بالذات دون أخرى في الأبحاث الفيزيائية المتقدمة. و تدفعهم تلك الملاحظات للتساؤل عن دور تلك الأعداد، و عن كيفية الوصول إلى فهم مدلولها.

هذا كله يتطلب الثقافة العددية التي لم يتلقوها في المدارس و لا في الجامعات.

ولكن أين يجدون تلك الثقافة العددية، و قد تجاهلتها سائر المناهج الدراسية و الجامعية، حتى العليا منها؟ بحيث صارت خارج نطاق ما يعتمد رسمياً مما يُعْتَبر علميّاً و موضوعيّاً و «جدّياً».

و قد صارت خارج ذاك النطاق، فكيف التمييز، فيما هو مطروحٌ في هذا المجال، بين الغث و الثمين، إن وُجِد؟

و كيف الوصول إلى مرجعية عليا في هذا الأمر، لاعتمادها لضبط الأمور و لتطوير مناهج جدّية؟

بعد البحث على مستوى الكرة الأرضية، يبقى ما يأخذ جذوره في التراث شرق الأوسطي خير ما هو **متوفر** في مجال التعرف على العدد.

إذ، و بغض النظر، عن التأويلات و الفلسفات المحيطة بالمعلومات العددية الصرفة الواردة في ذلك التراث، فإن بعضاً منها تنتمي إلى التجليات العليا للحقيقة.

أحد المحاور الأساسية لذلك التراث شرق الأوسطي هو المحور المرتبط بفيثاغورث.

فيثاغورث الذي لم يكن إغريقياً، بل سورياً من مواليد صيدا و من مواطني مدينة صور، هو وأبوه التاجر الثري الذي كان يجوب البحر الأبيض المتوسط في تجارته. و الذي لاحظ نبوغ ابنه فجمعه بتالس، و الذي بدوره أُعْجِبَ به و زكَّاه لدى علماء مصر. فأمضى فيثاغورث سنين عديدة من عمره يتعلم في مصر. ثم أُسِرَ و سِيق إلى بلاد الرافدين ثم حُرِّرَ، و بقي هنالك سنين استغلها في النهل من علوم بلاد الرافدين. ثم رحل إلى جزيرة ساموس، و قد بلغ السادسة و الخمسين من عمره، حيث استقر و شكَّل جماعةً مُنتَخَبَةً لتلقينهم ما تَعَلَّمه.

شاهِدُ هذه السيرة المقتضبة هو التأكيد على أن التراث الفيثاغورثي ليس تراثاً إغريقياً قط، بل مصري رافدي صرف، مثل أصول قريش من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و هاجر.

و شاهِدُ تتمة هذه السيرة المقتضبة هو لفت النظر إلى أمر غاية في الأهمية:

الجماعةُ المُنتَخَبَةُ حول فيثاغورث كانت أشبه بالجماعة السرِّية. فقد كانت بعض العلوم لا تُمْنَح إلا لمن ثبُت إخلاصه و جدارته، و ذلك بعد أخذ العهود و المواثيق، إلى درجة التهديد بالموت إن باح بالسر، مثل البوح بسر ما يُسمّى «تتراكتيس».

هذا مما أثار حقد من وصل إليهم صيت فيثاغورث ممن لم يكونوا جديرين بالانتماء إلى جماعته، و ذلك لما في نفوسهم من تكبر و رغبة في الطغيان و الإفساد. فاجتمعت قواهم بقوى ضغينة الحسَّاد الممنوعين عن تلك الجماعة، و بقوى حمق و غوغائية ارتياب العامة مِن كل من يختلف و يتميَّز عنهم، و تم القضاء بشكل عنيف على تلك الجماعة.

لم ينجُ إلا اثنان. أحدهما هو الذي اجتمع به أفلاطون، ليكون ذلك الاجتماع نقلة نوعية في فكر أفلاطون، الذي سبق له في شبابه أن اجتمع بما تبقى من علماء مصر، و قد زكَّاه لديهم والده الذي كان من أعيان أثينا.

لذلك فإن قناعة أفلاطون كانت قناعة فيثاغورث و قناعة كل من قطع شوطاً بعيداً في علوم العدد، بأن كل شيء مرتب بحسب الأعداد، وأن الأعداد تمثل أعلى مستوى للمعرفة.

و قد وعى أفلاطون ذلك، فقد كان متحفظاً شديد التحفظ بل غامضاً في كثيرٍ مما ذكره في مجال العدد.

هذا شأن كل من يبلغ مبلغاً متقدماً في هذا المجال، فيروعه ما يدركه من خطورة هذا العلم الذي يضبط قوانين كل شيء! فيرتعد من مجرد تصور هول كارثة وقوع شيء من هذا العلم بأيدي الطغاة و المفسدين.

هذا الكلام لا معنى له بالنسبة للذين تقولبت عقولهم بناءً على المناهج الحديثة، و لا يرون في الأعداد إلا مصطلحات تعبر عن قيَمٍ كمّية، فلا يرون كيف يكون ما ذكرناه من هول.

و خاصة المسلمون منهم الذين قد يقولون: «ما بالنا و فيثاغورث و أفلاطون؟ و ما أبعد ذلك عن القرآن الكريم و السنة المشرفة!».

ولكن، ليست العبرة في فيثاغورث و أفلاطون و غيرهما و لا في انتماءاتهم و لا فيمن تبعهم عند الخوض في الأعداد، و لكن العبرة فيما ورد مما هو صحيح و مُثْبَت و حقيقي في ذلك المجال.

إذ إن كل ما هو حقيقي، منَزَّه عن الأشخاص و عن كل ما هو متعلقٌ بهم من أفكار و تأويلات و مذاهب.

لأن كل ما هو حقيقي سابقٌ لاكتشاف أولئك الأشخاص إياه.

فهو، بأسبقيته، منزهٌ عنهم.

كذلك، و بما أنه حقيقي، فهو **مما شاءه الله**.

و خاصةً في مجال العدد.

فكيف يجرؤ كثيرون على إنكار أو تجاهل أو حتى إهمال ما هو حقيقي مما شاءه الله؟! و ذلك لعدم تواجده ضمن رؤيتهم الضيقة للقرآن و الإسلام.

هل ينفر عاقل من حقيقة جليلة مثل $٣^٢ + ٤^٢ = ٥^٢$ اعتمدها سبحانه في ترتيب ذكر آدم و عيسى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ في كتابه في سابق علمه قبل خلق السموات و الأرض؟ و ذلك لمجرد أن تلك المعادلة منسوبة إلى فيثاغورث، و قد كانت معلومة لدى قدماء المصريين قروناً قبله.

$٣^٢ + ٤^٢ = ٢٥$ حقيقة جليلة، يقف أمامها بالتعظيم نخبة من مثقفي العالم، يسعون جاهدين عاجزين لفتح أبوابها. المسلمون أولى بها، إذ عندهم مفاتيح حقيقتها!

ألم يجعلها سبحانه في أمر جلل هو ضبط الشهادات في كتابه الكريم؟

مسلمو كل الأمم أَوْلى بما هو حقيقي مما شاءه الله، في كل المجالات، و خاصةً في مجال العدد و ما فيه من ضبطٍ للأمور. فإن ذلك من صميم القرآن و الإسلام. و ليس شأنهم اكتفاء ينحدر إلى تحجر متخلف.

أليس العدد من صميم الصلاة؟

هل يستطيع المرء أن يقول: «لدينا فسحة من الوقت، فلنصلِّ فرض العصر ست ركعات بدل أربع ركعات؟»

إن سها المرء في صلاته و نسي بأي ركعة هو، هل يستطيع اعتبار الأمر من غير أهمية و متابعة صلاته كيفما اتفق؟ أم ينبغي عليه الاجتهاد غاية الاجتهاد ليحترم عدد الركعات المفروضة؟

أليس أكثر ما يميِّز الصلوات المفروضة بعضها عن بعض أنها مجموعتان: سرية و جهريَّة. اثنتان سريتان، الظهر و العصر، تُصَلّى و الشمس فوق الأفق. و ثلاثة جهرية تُصَلّى و الشمس تحت الأفق. ٢+٣ = ٥.

ثماني ركعات للظهر و العصر و تسع ركعات للمغرب و العشاء و الفجر.

٨ + ٩ = ١٧ = $٢^{٣} + ٣^{٢}$.

أي: إن عدد ركع الصلوات السرية المفروضة هو عدد الفروض السرية مرفوعاً إلى عدد الفروض الجهرية.

و عدد ركع الصلوات الجهرية المفروضة هو عدد الفروض الجهرية مرفوعاً إلى عدد الفروض السرية.

$٢^{٣} + ٣^{٢}$ = ٨ + ٩.

لو أن الأمر وقف عند تلك التوافقات، لما استحق أن يُعَار أهمية بالغة.

ولكنه لا يقف عند هذا الحد، بل ينفتح على علمٍ حقيقي جليل، يُدرك من يتقدم في فهمه مدى عظمة الصلاة و معاني ضوابطها العددية و الهندسية. فيفهم إلى حدٍّ بعيد لِمَ كان أول فرض صلّاه سيدنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إماماً بسيدنا محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الظهر. و يفهم معنى فرض الظهر و معنى فرض العصر. و يفهم مدى صحة كلام النذير عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من هول إثم عدم صلاة فرض العصر بالذات في وقته لمن كان قادراً عليه. و يفهم ما أودعه سبحانه في القرآن الكريم و خاصةً في شهادة لا إله الله محمد رسول الله، و في الصلاة و باقي أركان الإسلام ما لا يستطيع خيال البشر مجتمعين تصوره.

تبيان ذلك حالياً عبثٌ و أمرٌ متعذر، و ذلك بسبب غياب مرجعية عليا أصيلة في هيكلية محكمة تضبط الأمور و تضع حداً للعابثين و المدَّعين أو غير المؤهَّلين، و خاصةً بسبب الهوة الثقافية الشاسعة التي أشرنا إليها.

سدّ هذه الهوة الثقافية لا يكون بمجرد تزويد الذين يعانون منها بكمٍّ كبير مما ينقصهم من معلومات. بل برفع لياقاتهم النفسية و العقلية.

هل الاطلاع على كل ما نعرفه عن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يكفي المرءَ ليصير مثله في إيمانه و وعيه و خشوعه في صلاته و فهمه للقرآن الكريم؟ أم أن الأمر يحتاج أيما احتياج إلى رفع اللياقات النفسية و العقلية. هيهات هيهات!

هذا ما يعيدنا إلى ما ذكرناه قبل صفحات بأن الخوض في مجال العدد بجدارة أمرٌ في غاية الصعوبة، و ذلك لسببين:

- أولهما، الهُوَّة الثقافية و الفكرية الشاسعة بين معاصرينا و بين ما يتطلبه الخوض في هذا المجال.

- السبب الثاني هو ما يتطلبه الخوض في هذا المجال من لياقات نفسية و عقلية متطورة للغاية.

إذ إن ذلك العلم ليس مجرد علم اختصاصي من بين العلوم، بل هو من أعظم العلوم و أعلاها.

اللياقات النفسية و العقلية المتطورة و الضرورية للخوض في هذا العلم شبيهة إلى حد بعيد بالتي ذكرناها لفهم و تدبر المستوى الأوسط و الأعلى من القرآن الكريم.

الأساسي من تلك اللياقات النفسية هو درجةٌ عالية من نكران الذات.

بحيث لا تتدخل النفس في أمر يعرض عليها بضيق مرجعيتها، بل تنفتح عليه من خلال المرجعية الإلهية.

فلا اقتحام و لا استعجال، بل سكينةُ من هو خارج الزمن في بحر من نور.

الأساسي من تلك اللياقات العقلية هو درجةٌ عالية من التجرد.

بحيث يصير العقل كالصفحة البيضاء النقية، شديد الحساسية و الجاهزيّة للتلقّي من غير أيِّ تدَخُّل، إضافةً إلى ذاكرة متجردة حيادية نقية نورانية جبارة.

بتلك الخصال يكون الابتداء و السير في هذا العلم الجليل، ابتداءً بالتعرف على الأعداد.

و يكون ذلك، أولاً، بإلغاء استخدام لغة الكلام البشري.

إذ إن الأصلَ في لغة الكلام الاجتهادُ في تحديد مفاهيم الكلمات.

و هذا على النقيض التام من لغة الرقم أو الأعداد، التي هي رموز غير محدودة بل مفتوحة في اتساعها و عمقها بقدر طاقة الواقف عندها.

فأي مغالطةٍ تحديد معنى رقم أو عدد بكلمة، إذ إنه تحديدُ اللامحدود.

من بعد ذلك الشرط، يكون التعرف على الأرقام من الواحد إلى التسعة مع الصفر من خلال تفاعلها مع نفسها و تفاعلها مع غيرها و علاقتها بغيرها في أشكالٍ هندسية.

و من ثم التعرف على الأرقام و باقي الأعداد من خلال تواجدها و تفاعلها في سلاسل عددية مختلفة، منها المغلق و منها المفتوح. و من خلال علاقات تلك الأرقام و الأعداد فيما بينها ضمن أشكال هندسية نظامية.

و يكون ذلك كله، منذ البداية، بوعيٍ تام و بسعيٍ متواصل لفهم أصعب ما في ذلك العلم؛ ألا و هو طبقاته.

بحيث كلما ارتفع المستوى ازداد تركيز كم هائل من المعلومات في عناصر، هي بدورها تتناقص بارتفاع المستوى. و ذلك في نظام أوحد منسجم، ذي مركز أوحد، هو المستوى الأعلى النهائي الذي يشمل كل المعلومات التي تحيط به، دوائرَ.

كلُّ دائرة اختزالٌ للتي تسبقها من الخارج، و تفصيلٌ للتي تليها في الداخل.

فلا بد للذي يخوض في هذا العلم من معرفة تلك الدوائر التي تمثل مستوياته. و لا بد له، بشكل متواصل من معرفة في أي دائرة هو.

ميزة تلك المركزية، رغم صعوبتها الفكرية البالغة، هي توفير رؤية شاملة متكاملة للعلم و لأي عنصر منه في علاقته بالكل، و في علاقته بأصوله.

و قد قطع المرء شوطاً بعيداً في **بحور** ما ذكرناه، يستطيع الابتداء بالتعرف على حقيقة الأرقام و الأعداد من خلال نور كتاب اللّه و ما ثبت و صح من سنة رسوله، و النظر فيما أودعه سبحانه في خلقه.

❊ ❊ ❊

بعد إذ قطع المرء بإذن الله و بحول الله و قوته شوطاً بعيداً في بحور نور ذلك العلم الجليل، يجد نفسه عاجزاً عن التواصل مع الآخرين، الذين هم من الطرف الآخر من هوة فكرية و ثقافية شاسعة.

و لعله يترك أثراً يُشير إلى ما وصل إليه، كما فعل مسلمون وصلوا إلى مواصل متقدمة للغاية. و كما يشهد على ذلك باب المدرسة العادلية في دمشق، و نقش جصّيّ على أحد أعمدة الرواق الشمالي في صحن الجامع الأموي في دمشق، و باب منبر جامع جبلة و الذي كُتِبَ أعلاه ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٥].

ما أبعد ذلك كله عن الأبحاث المعاصرة عن الإعجاز العددي في القرآن الكريم!

هذا لا يعني بطلان كل ما ورد في ما لا بأس به من تلك الأبحاث و إلقائه بازدراء.

إنما ينبغي، أولاً، أن يستبدل بعبارة «إعجاز» و «مُعجِز» عبارة قرآنية مناسبة و لائقة مثل بيِّنة أو بيِّنات.

إذ لم ترد في القرآن الكريم الكلمات المبنيَّة على جذر «عجز» لتُعبِّر عن فِعله سبحانه قط. و يكفي النبيه النظر إلى الجذر ليعلم استحالة ذلك، دون الحاجة إلى مراجعة كامل النص القرآنيّ الشريف!

بل، لم ترد الكلمات المبنيَّة على جذر «عجز» إلا لتُعبِّر عن فِعل الخلق و ما يصدر عنهم. و خاصة من ورد ذكرهم في آيات كثيرة من نمط ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥١]! أو في ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٤]، حيث الإعجاز مرتبط بـ «مِن شَىْءٍ».

فسبحانه و حاشاه لا يُعْجِز أو يُعاجِز و لا يجعل كتابه الكريم مُعْجِزاً، بل نوراً و هدىً.

و هو جَلَّجَلَالُهُ لا يؤيد رسله «بالمعجزات»، و إنما بالآيات و البيِّنات. فلَمْ يؤتِ سبحانه سيدنا موسى تسع معجزات، بل ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ... ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠١].

و قد تم التخلص من ركاكة و عدم لياقة مصطلح «الإعجاز» باستبداله بكلمة «البيِّنات»، بات ينبغي توضيح تلك البيِّنات كدليل رياضي قابل للتدقيق، على صحة تنزيل رب العالمين للقرآن الكريم. دليل يتلاشى أمامه أي شك و يقطع الطريق على أي ارتياب. فيشهد الذي علم به أن ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢]!

و ينبغي خاصة، التأكيد على أن عرض تلك البيِّنات كدليل على صحة التنزيل ليس نهاية المطاف. بل، إن ذلك العرض ليس سوى الخطوة الأولى من أدنى ما يُعلم عن بحور علوم تلك البيِّنات.

***

الإسلام دين الله رب العالمين الذي شاء الأعداد في الحقيقة و في دينه و في كتابه المنزل و في خلقه. فالمنتمون بِوَعْيٍ و صدقٍ إلى دين الله أولى بهذا العلم الجليل، فهو لهم. إذ عندهم في كتاب الله و سنة رسوله ضمانات صحته و علو قدره، و عندهم مفاتيحه التي توصل إلى مدلولاته.

ألم يقل سبحانه لنبيه الأكرم: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٧٩]؟

ما لا يمكن تجاهله

ب ـ مصادر

في سيرنا باتجاه القرآن الكريم، نجد أنفسنا بالضرورة أمام كمٍّ هائل من المصادر و المراجع المتعلقة به، و التي لا يكاد يستطيع أحد تجاهلها أو الاستغناء عنها، دون تعريض نفسه لاحتمال الوقوع في أخطاء معيبة و خطيرة في فهمه للنص الشريف.

ولكن تلك المصادر و المراجع نتاج بشري، أي إنها عرضة للخطأ.

هذا مما يجعل بينها و بين القرآن الكريم بوناً شاسعاً، و يجعل أخطاءها و عيوبها على تباين تام مع نقائه القدسي و سمو آفاقه اللانهائية.

فلا بد إذاً من تفنيد تلك المصادر لتقييمها، و ذلك لتجنُّب عراقيل عيوبها بإظهارها، و لتوظيف محاسنها بالشكل الأمثل.

فما أخطر تكديس المعلومات، إذ إنها تخنق الفكر فتوهِنُه و تشلُّه إن لم تقتله، فيحسب المرء أنه عالم و هو بالحقيقة ببَّغاء أعمى.

ليست العبرة إذاً، في الحصول على المعلومة، بل في حسن تمثّلها و توظيفها.

الأحاديث الشريفة المرتبطة بالآيات أو السور

و هي أشرف تلك المصادر و أعلاها، شرط أن تكون صحيحة و موثّقة.

فلا بد إذاً من كثيرٍ من الاجتهاد و التوفيق للتمييز بين الزلل و السهو المحتمل من الرواة و بين نور كلام الذي أوتي جوامع الكلم.

لا مجال لتجاهل الأحاديث الشريفة عند تدبر القرآن الكريم، شرط أن تكون مرتبطة بالآيات أو السور بصريح نص الحديث، و على لسان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

جهل أو تجاهل البعض عند تناولهم للقرآن الكريم لتلك الأحاديث، أوقعهم في الخطأ أو الشطح، فيما يتعلق و على سبيل المثال بفتى موسى أو بالخضر في سورة الكهف.

أما الأحاديث التي ليست على لسان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و غير المرتبطة بصريح النص بالآيات أو السور، و المنسوبة إلى الصحابة و خاصةً ابن عباس، فإنها تؤخذ بكثير من الدراية و الحذر.

ثمة أحاديث صحيحة و على لسان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تنص صراحة على الآية أو السورة، و لكنها و بجلاء متطابقة بكلماتها و معانيها مع آية أو أكثر من كتاب الله.

جهل أو تجاهل تلك الأحاديث حرمانٌ من حجتها الساطعة في فهم ما قد يشكل في الآية التي تطابقها. مثال ذلك ما رأيناه في التطابق و التكامل البديع بين حديث: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ. أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، **إلا بالتَّقْوَى**. أَبَلَّغْتُ؟»، و قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾**﴾.

كذلك، فإن جهل أو تجاهل تلك الأحاديث حرمان من الآفاق الشاسعة التي يفتحها نبي الرحمة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمن يرتقي إلى شفافية و كرم إشاراته النبوية، فيسمو بأمان نورها ليَدَّبَرَ آيات الكتاب الذي أنزله سبحانه مباركاً. مثال ذلك التطابق البديع في الفكرة و في الكلمات الأساسية من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾، و حديث:



[«**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**» [سنن الترمذي: ٢٦٠٩]...]. كرم إشارته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جليٌّ في ذكره للنمل في تتمة الحديث: [... ثم قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إن الله و ملائكته و أهل السموات و الأرض حتى النملة في جحرها و حتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير»]، فالآية الكريمة السابقة هي من سورة النمل. أما شفافية إشارته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهي في ذكره للحوت الذي يُذَكِّر بالضرورة بقصة سيدنا موسى و الخضر المتمحورة حول العلم بأعلى درجاته، و التي تقع تماماً عند منتصف كتلة القرآن الكريم.

الأحاديث الشريفة المرتبطة بالآيات أو السور درر لا تُقدّر بثمن، ولكنها نادرة لا تتناول سوى جوانبَ يسيرةٍ من القرآن الكريم.

أسباب النزول

لا يمكن تجاهل أسباب نزول الآيات و السور عند الشروع في تدبر القرآن الكريم.

لقد أوردها معظم المفسرين في تفاسيرهم، كما قام علماء أفاضل مثل النيسابوري و غيره بجمعها في كتب تخصُّها.

ولكن لا بد من الانتباه أن ما ورد في كتبهم أو في التفاسير، ليس كله بنفس المستوى من الصحّة.

إذ لا خلاف على حديث صحيحٍ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو أحد صحابته الكرام ينص صراحةً عن الآيةِ و سبب نزولها، مثل الذي ورد في صحيح البخاري عن سؤال اليهود النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الروح، و نزول الآية من سورة الإسراء، أو مثل الآية التي تذكر الثلاثة الذين خُلِّفوا.

بالمقابل، فإن بعض أسباب النزول المذكورة في كتبهم أو في التفاسير، لا تقوم على صريح نص حديث صحيح، و إنما على اجتهاد العالِم في ربطه لحدث من سيرة النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ و صحابته الكرام بآية ما. مثال ذلك ما ورد في قوله تعالى من البقرة: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ﴾.

هذا النمط الأخير من أسباب النزول القائمة على الاجتهاد، قد يمثل عائقاً كبيراً في تدبر الآية أو السورة. و ذلك من خلال حد آفاق الآية أو السورة، بالنظر إليها ضمن نطاق سبب النزول، أي كحدث جرى أيام التنزيل و انتهى هو و المعنيون به.

هذه النظرة على تناقضٍ تامٍّ مع حقيقة النص القرآني الكريم، الذي هو رسالة للعالمين و لآخر الزمان.

هذا يعني أن أيّةَ حادثة أو قصة ترد فيه، يجب النظر إليها كحالةٍ نموذجيةٍ هي في الحقيقة دعوةٌ إلهية للتفكر فيها و للاعتبار منها و للتعمق فيها إلى ما شاء الله.

لا بد من التذكير أخيراً، أن أسباب النزول لا تغطي سوى نسبة يسيرة من القرآن الكريم.

معرفة الناسخ و المنسوخ

لا مجال كذلك لتجاهل الناسخ و المنسوخ عند تناول القرآن الكريم.

لا بد أن تقوم معرفة الناسخ و المنسوخ على أحاديث صحيحة و على شروط كالتي ذكرناها في أسباب النزول.

حالات الناسخ و المنسوخ حالات نادرة في القرآن الكريم. و هي تتعلق جميعها بأحكام شرعية حصراً.

لم تنسخ مثلاً آياتٌ تتعلق بأحداث تاريخية، أو حقائق عن الخليقة في السموات و الأرض من مادة أو أحياء، و لم تنسخ كذلك آياتٌ تتعلق بالعقيدة و به سبحانه.

يستغل البعض مسألة الناسخ و المنسوخ للطعن في القرآن الكريم و للتشكيك في ألوهية مصدره. إذ كيف يتراجع على زعمهم سبحانه عن كلامٍ أنزله ليعدِّله أو يصححه؟

المؤسف في الأمر أن تلك الشكوك تسللت إلى قلوب الكثير من المسلمين المثقفين و خاصة المتأثرين بالفكر الغربي.

لا إشكال قط في الناسخ و المنسوخ لمن يأخذ بعين الاعتبار الحقائق التالية:

- جميع حالات الناسخ و المنسوخ تتعرض و كما رأينا لأحكام شرعية تتعلق إما بالعبادات، و إما بالمحرمات، و إما بموقف المسلمين تجاه الآخرين.

هذه الأحكام كانت متدرجة لحكمة جلية و لتبيان رأفته و رحمته سبحانه بخلقه. فالأمر أبعد ما يكون عن تراجع لتعديل أو تصليح.

- هذا الضلال البعيد الذي يُرى فيه الناسخ و المنسوخ تراجعاً، ما هو إلا إسقاط بشري على نصٍّ إلهيّ.

ذاك الإسقاط يقوم على تناسي أو جهل حقيقة أساسية عن النص القرآني الشريف: و ذلك أنه جزء من التوازن الكوني، لأنه ليس كلام مخلوق، بل كلام الذي ﴿... إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢]. أي إن كلامه حقيقة و إيجاد، و بالتالي جزء من الحقيقة و الوجود.

لم يكن ظهور القرآن الكريم كظهور أي نص سبقه أو أي نص بشريّ.

فالنصوص السابقة له و النصوص البشرية متدرجة بالتتالي من بدايتها إلى نهايتها. أما النص القرآني الشريف فكان ظهوره و لِنَقُلْ دخوله في عالمنا تدريجياً كجنين يتشكل، بحيث أنه كان في كل لحظة من لحظات تنزيله متوازناً فيما بين كلماته و أحرفه و أعدادها و خصائصها. فأُولى آيات التنزيل صارت بتمام القرآن في سوره الأخيرة. و آيات من أول التنزيل تلتها آياتٌ بعد سنين طويلة. و كذلك فإن التنزيل كان يكمِّل آيات قد نزلت قبل سنوات.

النتيجة: توازن متواصل و بديع يحمل (إن جازت العبارة) بصمة الخالق سبحانه.

- جَلِيٌّ، بالنسبة للمتأمل، الانسجام و التوازن في كافة تجليات إرادة الخالق سبحانه. هل يخطر على بال عالِم مؤمن يرى سريان الإرادة الإلهية في تشكُّل الجنين، أن ثمَّة تراجعاً في القرار لتصحيح أو تعديل ذاك التشَكُّل؟ لِمَ يأخذ الجنين البشري شكلاً، ما أشبهه بجنين الدجاج في نفس المرحلة من التشكل؟ لِمَ يتطور الجنين البشري ليترك ذاك الشكل الذي أشبه ما يكون بالكائنات المائية ليتحول تدريجياً إلى الصورة البشرية؟ هل في هذا تردد أو تراجع؟ أم في هذا حكمة تتجاوز عقول البشر؟ أليس هذا ناسخ و منسوخ في الخليقة؟

هل من عجب أن نجد نفس المنطق في ظهور القرآن؟ أم أنه على العكس، دليل ساطعٌ على أن الذي جعل التدرج في كل ما و من سواه ـ ليميزه عن ذاته الكاملة التي لا تدرج فيها ـ هو نفسه منزل القرآن؟

الكتب التي جمعت معاني الكلمات كما شاع فهمها بين العرب

لا مجال لمن يريد تدبر القرآن الكريم تجاهل تلك المراجع القيمة مثل القاموس المحيط و لسان العرب، و لا حتى الاستغناء عنها.

هذا لا يعني أن تصير تلك الكتب مرجعاً أعلى يهيمن على الأفهام و يتحكَّم فيها. بل أداة قيمة تحتاج إلى من يحسن استخدامها.

حسن استخدامها يستوجب أولاً تخليصَها من عيوبها لتكون لائقة بتناول القرآن الكريم.

إذ إن تلك المراجع القيمة نتاج بشري، فهي تحْمِل بالضرورة بصمة العلماء الأفاضل الذين قاموا بها. و الذين، بدورهم، كانوا يحملون بصمة أصولهم و عصرهم و البلاد التي عاشوا فيها.

إن تجردنا عمّا أَلِفناه و رفعنا عن بصائرنا حجاب العادة، فسوف يستوقف انتباهنا أن النسبة العظمى مما وصلنا مما كُتِبَ عن معاني الكلمات في كتب الفقه و التفسير أو في الكتب المتخصصة بذلك، لم يكن في المدينة المنورة أو في الشام مقرّ الخلافة الأموية، بل في العراق حيث انتقل مقرّ الخلافة بعد مسلسل من الاغتيالات و المؤامرات و الفتن العظمى.

لِمَ لم يكن إسهام علماء المدينة في ضبط معاني الكلمات متناسباً مع موقعهم المتميِّز في العالم الإسلامي و مع تواصلهم مع سائر المسلمين و اطلاعهم على أحوالهم؟

لِمَ لم يكن إسهام علماء الشام متناسباً مع رقي و ذكاء و حضارة أهل بلادهم؟ خاصة أنهم كانوا خير من يتواصل مع سائر المسلمين و يطَّلِع على أحوالهم لتواجدهم في مقرّ الخلافة، و خاصة أن مبادرة التنقيط كانت فيهم.

ما يغيب عن أذهان الكثيرين الذين يتناولون الموضوع الذي نحن بصدده، هو محدودية احتكاك قريش و عرب الحجاز بالعراق في رحلاتهم التجارية قبل الفتوحات، خِلافاً لاحتكاكهم المتواصل مع أهل بلاد الشام.

و الأهم من ذلك، أن العراق و حكّامها المناذرة كانوا تحت النفوذ الفارسي.

أثرُ ذلك النفوذ بقي بعد الفتوحات الإسلامية، كما يبقى مما نشهده في زماننا في شعوبٍ كانت تحت نفوذ الاستعمار البريطاني أو الفرنسي.

كان من المفروض أن يتلاشى أثر ذلك النفوذ سريعاً أمام نور الإسلام و عظمته، لولا وجود من كان حريصاً على إبقائه و تغذيته.

ما يفوت الكثيرون هو أن العراق كانت تؤوي قبل الفتوحات الإسلامية و إلى أواخر الدولة العباسية أكبر تجمع لليهود في العالم، و الذي كان غالباً يقارب نسبة الثمانين بالمئة منهم. ما يؤيد ذلك هو أن قرابة ربع سكان بغداد قبل إعلان تأسيس دولة إسرائيل كانوا من اليهود.

و مما يغيب عن أذهان الكثيرين هو أن ملِك الفُرس هو الذي خلص اليهود من السبي البابلي. و بحسب العقائد اليهودية، أن «إستير» اليهودية و بتوجيه من الحِبر الأكبر «مردخاي» صارت زوجة لـ «أهَسوِرُس» ملك فارس، و بالتالي و بالضرورة أماً لملك من ملوك فارس، و الذي يصير بذلك، و بحسب الشريعة اليهودية يهودياً، إذ العبرة عندهم في الأم.

الأهم من ذلك، هو أن التلمود و هو المرجع الديني الأعلى بالنسبة ليهود العالم إلى الآن، تمت كتابته في العراق. يوجد تلمودان، أقدمهما هو تلمود أورشليم الذي كُتِبَ في فلسطين بعد خراب القدس على يد الرومان. ثانيهما هو تلمود بابل الذي يتجاوز في حجمه تلمود أورشليم أضعافاً مضاعفة، و الذي ساهم و تَتالى في كتابته عدد كبير من أحبار يهود العراق و على مدى قرون.

ما يستوقف الانتباه بقوة أمران:

- أولهما، التزامن التام و العجيب بين الفتوحات الإسلامية و بين توقف إسهام أحبار اليهود في كتابة تلمود بابل و إغلاقه.

علماً أن الفاتحين المسلمين لم يمارسوا أي ضغط أو حتى أية رقابة على يهود العراق و أحبارهم، بل عاملوهم كأهل ذمة تاركين لهم الحرية التامة في ممارساتهم الدينية و الدنيوية. و يشهد اليهود أنفسهم، أن القرون التي أمضوها في العراق في ظل المسلمين كانت من أهنأ فترات تاريخهم الطويل.

- ثانيهما، التشابه الشديد بين عقلية الجدل التلمودية و تعقيدات شكليات فقه التلمود، و بين ما تسرب و بشكل متزايد في كتب «الفقه» الإسلامي مما لا علاقة له بسمو و نقاء و نور الإسلام الأصيل.

تلك الحقائق التي أشرنا إليها بخصوص التواجد الاستثنائي لليهود في العراق و بخصوص آثار سيطرة الفرس عليه، جزء من معادلة شديدة التعقيد طبعت البلاد التي أعطت النسبة الكبرى مما كُتِبَ عن معاني العربية و نحوها. هذا مما أثَّر و بقوة في ذلك النتاج.

أوضَح و أخطر مظهر لقوة ذلك التأثير، هو ما يصاحب معلومات تلك الكتب من تصور مغلوط عن العربي النموذجي بتحويله إلى أعرابي بدائي، جاء من البادية لا يعرف شيئاً عن التمدن و الحضارة، و حصره في حدود هذه الصورة.

إذ نجد أن معظم معاني الكلمات تعاد إلى أصول ما هي إلا حيثيات عالَم البداوى: لحم، عظام، ناقة، بعير... مثل إعادة أصل معنى الاستعاذة إلى العوّذ، و هو اللحم الملتصق بالعظم. هل هذا المعنى هو الأصل، أم أنه من المعاني الفرعية للكلمة؟

هذا بالواقع تسفيه للمعاني التي بِدَوْرها تسفّه الفكر و تحطُّه. **إذ إن الفكر يقوم على المفاهيم و المعاني، فهي مادته و قوامه.**

فأي تسفيه للصلاة و ما أودعه سبحانه فيها من علوم لخواصه، عندما تستميت أجيال إلى أيّامنا هذه ممن يعتبرون أنفسهم فقهاء في الدين و اللغة، في تأكيدهم أن أصل كلمة الصلاة من «الصَّلَوَيْن»، و ذلك و بحسب توضيحاتهم لأن حركة الصلوين أكثر ما يميّز الصلاة...

الأنكى من ذلك، أن معنى «صلوين» غير مُثبَت! فمن يقول: أنهما ما يبرز من عظم الحوض عند البطن، و من يقول أنهما عِرقان في البطن.

كيف لمسوخٍ من ذلك النمط أن تُعتَمد بلا نقاش في تدبر سمو قدسية كلمات خالق الملكوت؟

و كيف لنا اعتمادُ ما كُتِبَ عن معاني كلمات العربية و نحوها في سعينا لتدبر القرآن الكريم، إن انطلت علينا كما انطلت على أجيال ممن يعتبرون أنفسهم فقهاء، مفارقة صارخة تأخذ جذورَها في ذاك التصور المغلوط عن العرب؟

هذه المفارقة الصارخة تكمن في اعتبار كلام الأعراب و الشعراء مرجعاً أعلى في اللغة العربية و إعطائهم القول الفصل فيها.



فقد كان علماء العراق يرجعون إلى أهل البادية و الأعراب خاصة كلما اختلفوا في مسألة تتعلق باللغة، و كأن أولئك الأعراب هم أساتذة الأكاديمية العليا للغة العربية، أو أعلام المجمع الأعلى للغة العربية.

فأي مفارقة عجيبة في جعل أولئك القوم المعروفين بتخلفهم و محدودية أفقهم، و الذين لا يجمعهم نسب مع العرب، مرجعاً في اللغة العربية.

كيف لعاقل اعتماد مفاهيم الأعراب المحدودة و الهامشية، لفهم الآفاق الشاسعة التي تفتحها مفاهيم كلمات اللّه جَلَّجَلَالُهُ في كتابه الكريم؟

وأي مفارقة في علماء اعتادوا التشدد في تحقيق رجال الحديث، اعتمادُهم كلام الأعراب بلا نقاش! خاصة أن سبحانه و تعالى قال فيهم معمِّماً: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٧]، و أكد على نفاقهم في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ... ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠١]، و في قوله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ... ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١١].

تأخذ تلك المفارقة الصارخة كل أبعادها في شيوع اعتماد علماء اللغة و الدين و التفسير و الفقه، أقوالَ الشعراء مرجعاً أعلى في اللغة العربية.

الحد الأقصى لتلك المفارقة هو اعتماد أقوال الشعراء في حضرة كلمات اللّه في كتابه الكريم!

لم يرِدْ ذكر الشعراء في القرآن إلا مرة واحدة. و لم يتجاوز صريحُ ذكرهم الأربع آيات الأخيرة من مئتين و سبع و عشرين آية من السورة التي سميت، و بشكل لافت للنظر، بهم. خاصة أن سبحانه عمَّهم بالذمِّ و لم يستثنِ منهم سوى الذين تتحقق فيهم أربعة شروط، كاملة مجتمعةٍ بدليل واو العطف:

﴿ ... ءَامَنُوا۟

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ... ﴿٢٢٧﴾ ﴾ ،

ما أندرها في الشعراء...

ما أعجب الذي يُعرِضُ عن الشيخ محيي الدين بن عربي أو الغزالي متقززاً منكراً إن لم يكن مكفِّراً أو مسفهاً، و يحفظ عن ظهر قلب طَرِباً أشعار قرمطيٍّ ادّعى النبوة! و يتعاطف معجباً مع ذلك



الوصولي المنافق المتآمر مع الفاطميين على المسلمين، و يطرب لأبيات غروره: « أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ...». و لا يرى من بأسٍ في نفاقه و كفره الذي تشيب له الرؤوس في مدحه للحمداني:

«ما شئت لا ما شاءت الأقدار   و احكم فإنك أنت الواحد القهار»!

و ما أعجب الذي يعيب على الآخرين عدم التمسك بإحدى تفاصيل مظاهر السنة المشرفة، و هو يحفظ و ينّظم و يُنشد الشعر بنشوة الطرب، مخالفاً النبي الأكرم الذي لم يَنّظم و لم ينشد شعراً قط. و في المرة الوحيدة التي نطق فيها ببيت واحد لأحد الشعراء، كسره!

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٦٩– ٧٠].

أي مفارقة في اعتماد أقوال الشعراء و سوادهم إما من أهل الجاهلية و إما من غير أهل السنة و الجماعة و غالباً من أهل الفسوق و الغرور، مرجعاً أعلى و فصلاً في لغة القرآن.

تلك اللغة التي لم يبتدعها بشر، كما سبق و بيَّنًا، و التي وصفها سبحانه بقوله: ﴿...لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٣]، ﴿عَرَبِيٌّ﴾ أي لا مجال فيه للالتباس، مُّبِينٌ يبين ما يريده سبحانه من بينات. و تلك اللغة التي شاءها سبحانه من القدم ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٥–١٩٦].

أيُّ بُعْدٍ عن كلام الله سبحانه و أي مفارقة في اعتماد أقوال الشعراء مرجعاً في لغة القرآن، و قد ورد قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ في سورة الشعراء بالذات، حيث أنهم موضع ذمّ!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾

أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾





...﴿٢١٤﴾...﴿٢١٥﴾...﴿٢١٦﴾...﴿٢١٧﴾...﴿٢١٨﴾...﴿٢١٩﴾...﴿٢٢٠﴾

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾

تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ

وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ .

ما الذي يضمن أن شاعراً يُسْتَشْهَدُ بكلامه كمرجع في اللغة العربية، لم يُسِئ في استخدام كلمةٍ غروراً ليتميّز، أو لمجرد ضرورة الوزن أو القافية؟

كيف نثق بمصداقية من شاع عنهم أن لكل واحد منهم شيطاناً يلهمه الشعر، و السعيد منهم من كان شيطانه من وادي عبقر!؟

كيف نثق بمصداقية كلام من تَنَزَّل عليه الشياطين؟

كيف يجرؤ الواقف أمام رحاب القرآن الكريم اتِّباع أقوال الشعراء، و قد قال سبحانه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ !

هل نستنتج مما عرضناه وجوب تجاهل كل ما ورد في كتب التراث عن معاني كلمات العربية؟

طبعاً لا.

إذ لا يمكن الاستغناء عما ورد فيها و لا تجاهله لما فيه من معلومات قيمة.

ولكنه يبقى نِتاجاً بشرياً، أي أنه يحتمل الخطأ و الصواب. و لا مجال لتسرب أي خطأ في فهم كلمات القرآن.

فقد رأينا في تلك المراجع، إلى أي وهم و ضلال جنح المفهوم الخطأ عن الأُميّة بعيداً عن عظمة مدلول موضوع الأميين في القرآن الكريم، و أهمِّيته البالغة بالنسبة للبشرية جمعاء.

فلا بد إذاً من تدقيق تلك المصادر بموضوعية و منهجية؛ للأخذ بخير ما ورد فيها من بعد تخليصها مما فيها من سموم و آفات و عيوب و محدوديّة، لتكون لائقةً بشرف تدبر كلام خالق السموات و الأرض، لا كمرجع يهيمن على كلامه سبحانه، بل كأداة تحتاج إلى من يُحْسِن استخدامها و يعرف حدودها.

إذ لا بد كذلك من الانتباه المتواصل إلى عدم التطابق بين نسبيَّة و محدودية المفهوم البشري للكلمات في تلك المراجع، و بين المفهوم الإلهي لكلمات القرآن. فلا بد إذاً من تمييزٍ و ارتقاء بالمفاهيم باتجاه عظمة المقصد الإلهي.

النحو و علومه

لا غنى عن النحو و علومه لتناول القرآن الكريم.

إذ إنّ النحو بيِّنة و حجة حاسمة لكثير مما قد يشكل على البعض في القرآن الكريم.

استخدامه مفيد و صحيح في الحالات العادية، كما في قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ٨٥/ ١٥]. إذ تجد القارئ يقف تلقائيّاً بالسكون على كلمة المجيد كونها آخر الآية، و قد يشكل عليه هل العرش هو المجيد أم سبحانه؟ تحديد حركة دال المجيد يحسم الأمر، و ذلك من خلال قواعد اللغة العربية.

نجاح النحو في الحالات العادية كالمثال السابق، أوهم كثيراً ممن اشتغلوا بالتفسير بأنّه قادرٌ على توضيح أيِّ شيء في القرآن الكريم، على الدوام و بنفس المستوى من الفاعلية.

فقد استخدموه بشكل يفتقر إلى الأمانة الفكرية في حالات كثيرة مثل الآيات السبع عن سجود الملائكة لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ...﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤]. و التي غالباً ما تثير عند قارئها تساؤلاً: «هل إبليس ملك من الملائكة قبل أمر السجود؟ كما يشير إلى ذلك كل شيء في ما يبدو من ظاهر ست آيات من السبع».

يشكل هذا الأمر على البعض، و يعتقد مخطئاً أن إبليس كان ملكاً. و البعض الآخر ينفي ذلك ـ وهو محق في نفْيه ـ مقدماً حجة نحوية هي: أن الاستثناء الوارد في الآيات استثناء منقطع.

طبعاً هذا مصطلحٌ نحويٌّ يعلمه المتعمق بالقواعد، ويجهله باقي الناس، و صيغته مبهمة بالنسبة لهم. فعندما يُقَدَّم كحجة، يُبهَت المستمِع لاعتقاده أن قواعد اللغة العربية حجة دامغة، و لا يسأل مستفهماً كي لا ينفَضح جهله.

إن سأل و استفسر، فسوف يكون التوضيح بأن الاستثناء المنقطع يعني أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، إذاً بالاستثناء المنقطع: إبليس ليس ملَكاً.

إن كان السائل أكثر شجاعة، و تابع في الاستفسار سائلاً: «و كيف عرفت أن هذا الاستثناء بالذات، استثناء منقطع؟ و من أين جاءت فكرة الاستثناء المنقطع؟». فسوف يكون الجواب مختصره مثال، ليس من شاهد آخر من القرآن، بل منحوت خصيصاً لهذه الحالة، و هو: «رحل القوم إلا حمارهم. الحمار مستثنى استثناءً منقطعاً، و جليٌّ أنه ليس من جنس القوم».



عموماً بعد هذا المثال الأنيق و الاستثنائي، لا تجد عند السائل شجاعة لمزيد من الاستفسار خوفاً أن يُقَّدَمَ له مثال آخر: فهم القوم إلا حمارهم، فيقبل الحجة كقدر محتم.

بالطبع، استخدام النحو كما في الحالة السابقة في غير محله، إذ ينقصه الكثير من الأمانة الفكرية.

فالمستثنى في الحالة السابقة منصوب و جملة الاستثناء تامة مثبتة، فالنصب إذاً واجب سواء أكان الاستثناء متصلاً، أم منقطعاً. أي إنّ ذاك الاستثناء لا يتميَّز بعلامة تميّزه عن الاستثناء المتصل، كالحركة مثلاً.

إن قلنا: «حضر الطلاب إلا سامراً».

هل سامر مستثنى متصل أم منقطع؟

لا شيء يشير إلى ذلك.

فأول ما يخطر على البال أن سامراً طالب، فهو إذاً مستثنى استثناءً متصلاً.

ولكن، لِمَ لا يكون سامر آذن المدرسة أو المدير أو حتى الرجل الآلي الذي يلعبون به؟ فهو عندئذٍ مستثنى استثناءً منقطعاً...

فالتمييز بين الاثنين - في المثال السابق و في مثال آيات السجود السبع - لا يقوم على دليل نحوي، بل على تمييز عقلي صرف **سابق** للدليل النحوي.

و طالما أن التمييز عقلي صرف، **فإنه يقبل الأخذ و الردّ**.

أما كان يكفي حسم الأمر بنور آية واحدة من الآيات السبع: قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ ...﴿٥٠﴾ ﴾؟

المثال الذي عرضناه في الأسطر السابقة ليس حالةً نادرة، بل مثال نموذجي يُظْهِر **عقليةً غالبة** في التفاسير و الدروس الدينيّة التقليدية.

ولا يخفى على أحد خطورة ذلك الأمر، إذ إن أيَّ نقص في الأمانة الفكرية، إدبارٌ تام عن آخر رسالة إلهية للعالمين، و الموجَّهة بشكل خاص لأولي العلم و لأولي الألباب و لقوم يعلمون و لقوم يفقهون.

فلا بد من معالجة ذلك الأمر من جذوره بحثاً عن أسبابه.

لعل أحد أسباب ذلك التجاوز لإمكانيات النحو، وصولاً لانعدام تام في الأمانة الفكرية، وهمٌ شائع، سبق و أشرنا إليه:

أن اللغة العربية، كباقي اللغات، مصطلحاتٌ متفقٌ عليها بين مجموعة بشرية، هي التي أوجدتها و طورتها.

فيصير الأمر في اعتقاد الجميع و إن لم يعترفوا به، و كأنه سبحانه كان لا بد له أن ينزِّل القرآن بلغة يفهمها نبيُّه المصطفى و قومُه، فاستخدم اللغة التي أوجدوها و طوروها، أي اللغة العربية!

إن اعتُمِدَ هذا الوهم الفاحش، فإنه و بالضرورة يُفضي إلى إسقاطات بشرية و استنباطات غير صحيحة منها:

- أنه سبحانه و حاشى له **تكيَّف** مع الواقع، و **استخدم** ما أوجده الآخرون. فكانت النتيجة غاية في التوفيق (!). بل و الأكثر من ذلك تحدِّياً لهم في لغتهم الرائعة.

- و أنه أخضعَ، و حاشى له، كلامَه لقواعد و نحو لغة العرب. فأي مفارقة و هو سبحانه الذي ﴿ ...يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ... ﴾.

- و أنه، و حاشى له، حدَّ صياغة كتابه الأخير للعالمين بحدود ما يفهمه أولئك القوم!

سبب ذلك الوهم:

جهل ما سبق و بيّناه، أن كلمة «عربي» في القرآن الكريم ليست اسماً للُغَتِه، بل وصفٌ لها على أنها جليّة لا لبس فيها.

و جهل أن تلك اللغة لم تنسب إلى العرب، و إنما هم الذين نُسِبوا إليها.

و كذلك تجاهل ما بيَّناه أن اللغة العربية ليست لغةً أوجدها البشر.

ذلك الوهم دفع الذين وقعوا فيه، إلى الاسترسال في فيضٍ من الاختراعات و التخريجات لإعراب و تفسير أيّ صيغة في القرآن الكريم، و لاعتبارها صيغة نظامية أي **عاديَّة** لتطابقها على ما زعموا مع ما قاله العرب، و كأن النحو مدوَّن و معروف بمصطلحاته و تفاصيله قبل نزول القرآن الكريم. فأي مغالطة، إذ إن معظم قواعد اللغة العربية مستنبطة من القرآن الكريم الذي فيه الحجج التي يستخدمها النحويّون لإثبات آرائهم.



بذلك و قد جعلوا لغة القرآن لغة سليمة و نظامية لتطابقها على زعمهم مع لغة عرب الجاهليّة (!)، فقد أخرجوا و حرموا النفوس و العقول من روحانية قدسية حضرة كلمات الله، هابطين إلى نسبيَّة و حدود و جدل كلام الناس و انعدام خشوعه.

الواقع أن كثيراً من صيغ الجمل في القرآن الكريم لم ترد في ما قاله العرب.

إذ إن خير ما يمثِّل كلامهم ليس أقوال الأعراب و الشعراء، و إنما الحديث الشريف.

نصُّ أيّ حديث صحيح، و إن لم يطابق بالضرورة حرفية كلام الرسول الأكرم، فإنه أقرب ما يكون إليه، و بعبارات و لغة الصحابة و التابعين. أي بلغة فصيحة و سليمة.

لن نجد في لغة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و صحابته الكرام الخصائص و الصيغ اللغوية الفريدة التي تتميّز بها لغة القرآن:

إذ لن يخطر على بال أيّ عربي فصيح قبل تنزيل القرآن الكريم أن يصيغ مقولة على شاكلة قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ !

شدّة اعتياد مسلمي العرب على هذه الصيغة، و هي من أوائل ما حفظوه من القرآن في طفولتهم الأولى، تُوهِمهم أن صيغتها عادية، بينما أنها من العجائب! فالعادة غشاوة تحجب البصيرة.

و لن يخطر على بال أيّ عربي فصيح قبل تنزيل القرآن الكريم أن يبدأ كلامه أو قصة يرويها بـ«وإذ» مثالَ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ...(٦٠)﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٠].

و لن يخطر على بال أيّ عربي فصيح قبل تنزيل القرآن الكريم أن يصيغ جملة على شاكلة قوله تعالى: ﴿...مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ...(٨١)﴾ من سورة يونس، و لن نجد مثيلاً لذلك في الحديث الشريف! إن كان ثمة تقديم و تأخير في كلام الشعراء، فلضرورة الوزن أو القافية. و لكن ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣)﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٣٨-٤٣]. فلا تقديم و تأخير لضرورة الوزن أو القافية، و إنما لآيات و بيّنات و آفاق لم يطلع على شيء منها سوى أفراد من ثلة...

مع الأسف، فإن تجاوز إمكانيات النحو لا يقف عند انعدام الأمانة الفكرية، **بل يصل إلى حدّ الآفة الفكرية التي تكاد لا تثير انتباه أحد رغم خطورتها البالغة، و التي تخفى خاصة عن المصاب بها.**

خطورة تلك الآفة يكمن في تفاقمها في التفاسير الكبرى و في دروس المستويات المتقدمة في

العلوم الشرعية، أي في نفوس و عقول المشايخ و الأئمة المعوَّل عليهم، و الذين يفترض أن يكونوا أولي الأمر أصحاب القرارات المصيرية الذين برقابهم مسؤولية أمة الإسلام و تربية الأجيال التي تخْلُفُهُم، و الأهم من ذلك مسؤولية حسن تقديم آخر رسالة إلهية إلى البشرية.

كمثال نموذجي لذلك الغرق في مداخلات نحوية، لا يخرج المطَّلع عليها، إلا نادراً، بنور لبصيرته أو بهمَّة و عزم لإحقاق الحق، نورد جانباً(!) مما ذكره الألوسي في تفسيره للآية الأولى من سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ مذكّرين أن تفسير الألوسي يُعتبر من أكمل التفاسير و أعلاها مستوىً:

« ... و في التعبير عن المشركين بالعدو مع الإضافة إلى ضميره عز وجل، تغليظ لأمر اتخاذهم أولياء وإشارة إلى حلول عقاب الله تعالى بهم. وفيه رمز إلى معنى قوله: «إذا صافى صديقك من تعادي فقد عاداك» و انقطع الكلام.

و العدو فعول من عدا، كعفو من عفا، و لكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد.

و نصب ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ على أنه مفعول ثان لتتخذوا.

و قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تفسير للموالاة أو لاتخاذها أو استئناف، فلا محل لها من الإعراب.

والباء زائدة في المفعول كما في قوله تعالى: ﴿... وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ...﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥]. وإلقاء المودة مجاز عن إظهارها و تفسيره بالإيصال أي توصلون إليهم المودة لا يقطع التجوز.

و قيل: الباء للتعدية لكون المعنى تفضون إليهم بالمودة، و «أفضى» يتعدى بالباء كما في الأساس.

و قيل: هي للسببية و الإلقاء مجاز عن الإرسال، أي ترسلون إليهم أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم.

وعن البصريين أن الجار متعلق بالمصدر الدال عليه الفعل، و فيه حذف المصدر مع بقاء معموله.

و جوز كون الجملة حالاً من فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾.



أو صفة لأولياء، و لم يقل: «تلقون إليهم أنتم». بناء على أنه لا يجب مثل هذا الضمير مع الصفة الجارية على غير من هي له، أو الحال أو الخبر أو الصلة سواء في ذلك الاسم والفعل كما في شرح التسهيل لابن مالك إذا لم يحصل إلباس، نحو: «زيد هند ضاربها»، أو «يضربها»، بخلاف: «زيد عمرو ضاربه» أو «يضربه» فإنه يجب معه هو لمكان الإلباس.

و زعم بعضهم أن الإبراز في الصفات الجارية على غير من هي له، إنما يشترط في الاسم دون الفعل كما هنا. و منع ذلك و تعقب الوجهان بأنهما يوهمان أنه تجوز الموالاة عند عدم الإلقاء. فيحتاج إلى القول بأنه لا اعتبار للمفهوم للنهي عن الموالاة مطلقاً في غير هذه الآية.

أو يقال: إن الحال والصفة لازمة، و لذا كانت الجملة مفسرة.

و قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل (لَا تَتَّخِذُوا۟) . و هي حال مترادفة، إن كانت جملة ﴿تُلْقُونَ﴾ حالية أيضاً.

أو من فاعل ﴿تُلْقُونَ﴾ و هي متداخلة على تقدير حاليتها.

و جوز كونه حالاً من المفعول وكونه مستأنفاً.

و قرأ الجحدري و المعلى عن عاصم «لما » باللام. أي لأجل ما جاءكم. بمعنى جعل ما هو سبب للإيمان سبب الكفر.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي من مكة.

﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي لإيمانكم أو كراهة إيمانكم بالله عز وجل. و الجار متعلق بـ ﴿يُخْرِجُونَ﴾.

قيل: حال من فاعل ﴿ كَفَرُوا۟ ﴾

و الجملة قيل: حال من فاعل أو استئناف كالتفسير لكفرهم كأنه قيل : كيف كفروا.

و أجيب: «بأنهم كفروا أشد الكفر بإخراج الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والمؤمنين لإيمانهم خاصة لا لغرض آخر». وهذا أرجح من الوجه الأول لطباقه للمقام و كثرة فوائده.

و المضارع لاستحضار الحال الماضية لما فيها من مزيد الشناعة و الاستمرار غير مناسب للمعنى.

و في ﴿ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ قيل: تغليب للمؤمنين و الالتفات عن ضمير المتكلم بأن يقال: «بي» إلى ما في النظم الجليل للإشعار بما يوجب الإيمان من الألوهية والربوبية.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ إلخ كأنه قيل: «لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي»، فجواب الشرط محذوف دل عليه ما تقدم.

و جعله الزمخشري حالاً من فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ و لم يقدر له جواباً، أي: «لا تتخذوا عدوي و عدوكم أولياء، و الحال أنكم خرجتم لأجل الجهاد وطلب مرضاتي».

و اعترض بأن: الشرط لا يقع حالاً بدون جواب في غير إن الوصلية، و لا بد فيها من الواو، و أن ترد حيث يكون ضد المذكور أولى. ك: «أحسِن إلى زيد وإن أساء إليك». و ما هنا ليس كذلك.

و أجيب بأن ابن جني جوَّزه، و ارتضاه جار الله هنا، لأن البلاغة و سوق الكلام يقتضيانه. فيقال لمن تحققت صداقته من غير قصد للتعليق والشك: «لا تتخذنني إن كنت صديقي تهييجاً للحمية»، و فيه من الحسن ما فيه، فلا يضر إذا خالف المشهور.

و نصب المصدرين على ما أشرنا إليه على التعليل، و جوز كونهما حالين أي: مجاهدين ومبتغين.

و المراد بالخروج: إما الخروج للغزو، و إما للهجرة. فالخطاب للمهاجرين خاصة، لأن القصة صدرت منهم كما سمعت في سبب النزول.

و قوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ استئناف بياني، كأنهم لمّا استشعروا العتاب مما تقدم، سألوا «ما صدر عنا حتى عوتبنا»، فقيل: (تسرون) إلخ.

و جوز أن يكون بدلاً من (تلقون) بدل كل من كل، إن أريد بالإلقاء الإلقاء خفية. أو بدل بعض إن أريد الأعم لأن منه السر والجهر.

و قال أبو حيان: هو شبيه ببدل الاشتمال.

و جوز ابن عطية كونه خبر مبتدأ محذوف، أي أنتم (تسرون).

و الكلام استئناف للإنكار عليهم. و أنت تعلم أن الاستئناف لذلك حسن، لكنه لا يحتاج إلى حذف.

و الكلام في الباء هنا على ما يقتضيه كلامهم كالباء فيما تقدم.

وقوله تعالى: (و أنا أعلم بما أخفيتم و ما أعلنتم) في موضع الحال. و (أعلم) أَفۡعَل: تفضيل، و المفضل عليه محذوف أي: منكم.

و أجاز ابن عطية كونه مضارعاً.

و العِلۡم قد يتعدى بالباء.

أو هي زائدة.

و (ما) موصولة.

أو مصدرية».

...إلخ...

الألوسي عالم جليل لا شك في حسن نواياه، و هو يمثل خير نموذج للعالِم «الكلاسيكي» العقلاني المتوازن و الموسوعي. فقد اجتهد في تفسيره غاية الاجتهاد ليقدم لقارئه و بشكل موسوعي كل ما كان معلوماً عند المشايخ و في الكتب عن أيَّة آية.

ولكنه كان كغيره من أئمةٍ و أعلام، ضحية انحراف متفاقم قوامه انشغال بالأدوات عن الغايات الحقيقية.

ما نلاحظه في المثال السابق، أن تفسير الآية انحرف عن المسارعة في تمثل أوامر إلهية غاية في الأهمية لبناء شخصية إسلامية ذات عقلية و مواقف واضحة ما أحوج المسلمين إليها، و هم عُرْضَة و بشكل متواصل إلى أشرس المؤامرات و التعديات إلى تمرينات في الصرف و الإعراب...

لو وُجِدَت ثمَّة صعوبة في فهم الآية الكريمة، لا يمكن تجاوزها إلا بتوضيح نحوي، لكان الدخول في **بعض** تلك المداخلات أمراً مبَرَّراً. و لكن الآية واضحة جليّة لا صعوبة تُذْكَر فيها.

ما الحاجة لكلام مثل: « ... و العدو فعول من عدا، كعفو من عفا، و لكونه على زنة المصدر أَوقَعُ على الجمع إيقاعه على الواجب».؟ خاصة أنه في العشر الأخير من ألوف صفحات ذلك التفسير.

لا يخفى على كل من مَنَّ اللّه عليه بقلبٍ حيٍّ فيتعامل مع القرآن كذكرٍ يوجب الخشوع، لا يخفى عليه ما في الاسترسال في التناول النحوي للقرآن من قسوة في القلب و انتقاص من قدر كلام اللّه.

ما أبعد ذاك التناول عن شرف مقام ﴿...ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٨/ ٢]. خاصة عندما يتلفظ أحدهم بلفظ الجلالة أو باسم من أسمائه تعالى ناعتاً إياه بالمنصوب أو المجرور أو المفعول به! استخدام تلك العبارات في هذا المقام انعدامٌ تام للحس و الخشوع، و ذلك لما فيها من قسوة و فظاظة، كمعظم المصطلحات النحوية مثل: **كسر**، **مجزوم**، فعل **ناقص**، أحرف **العلة**، و معظم الأمثلة المعتمدة مثل: «زيد هند ضاربها، أو يضربه». فما أبعد ذلك المثال عن رقيّ و عظمة و مقام القرآن، و ما أقربه إلى عقلية الكتاتيب!

الأخطر من ذلك هو **الغرور و الاكتفاء** المصاحب لإعراب بعض الحالات المتميزة، مثل الآية الأولى من سورة الإخلاص. فعبارات الآية الشريفة شائعة واضحة لا لبس فيها يفهمها الأطفال، عكس صيغتها النحوية التي تتطلب شيئاً من العلم.

ولكن ذلك العلم ليس مهيمناً على الآية و لا يحيط بها، و إنما يقدم جانباً يسيراً و مبدئياً من **ظاهرها**. فأي غرور عندما يكرر المرء ما حفظه عما ورد في النحو عن الآية و كأن ما يقوله هو ذروة ما يُعلم عنها.

الأصل الأساسي لذلك البلاء هو غياب الخشوع في حضرة كلامه جَلَّجَلَالُهُ، و ذلك لاضمحلال الوعي بأن القرآن الكريم ليس مجرد مرجع فقهي يقيني، بل **مجالٌ مقدس كليّ ينغلق أمام أيَّةِ هفوة**.

المثال الذي قدمناه في تفسير الآية الأولى من سورة الممتحنة، ليس حالة قصوى. بل غيض من فيض، و مثال وسطي و نموذجي لا يصل إلى الحد «السريالي» الذي نجده في أماكن كثيرة مثل تفسير حرفَيّ ﴿يسٓ﴾.

أيُّ ذي حسٍّ سليم سوف يضيق صدره و يشعر بكلابيب تعصر عقله و هو يقرأ تلك المداخلات النحوية في حضرة القرآن الكريم.
العجيب في الأمر و مما يدعو إلى القلق، هو أنه لو قرأ تلك الأمثلة أيُّ شيخ من المشايخ «الكلاسيكيّين» من القائمين على تدريس المستويات المتقدمة في المساجد أو في المعاهد الشرعية، أي الأجيال المسؤولة عن مستقبل الأمة، فسوف يشعر بمتعة الذي يغنم بما يتميز به على الآخرين! أو بسعادة الناجي من إحراج سؤال أحدهم في درسه عن سبب نصب تلك الكلمة أو محل إعراب تلك الجملة!

لكل ذي عقل و بصيرة و قد انتبه إلى ذلك، أن يتساءل:
كيف تحوّل النحو من مجرد أداة قيّمة تحتاج لمن يحسن استخدامها، إلى آفة تحجب الأفهام عن نور القرآن، و تستأثر بالنفوس فتبعدها عن روح الإسلام؟

أول ما لا بد من الإشارة إليه، هو أن أوائل و معظم من كتب و ما كُتِبَ في النحو **كان في العراق**، و ما ترتب على ذلك مما أشرنا إليه!

إضافة إلى ذلك فقد كان بالرجوع المريب إلى الأعراب و الشعراء عند الخلاف، تماماً كما جرى بالنسبة للمراجع التي جمعت معاني الكلمات كما فهمها العرب.

رغم ذلك، فإن علوم النحو لا تعاني في أساسياتها و لا حتى في تفاصيلها إلا الهامشية، ما تعاني منه المراجع التي جمعت معاني الكلمات كما فهمها العرب، و ذلك لسببين:

- أولهما: المراجع التي جمعت معاني الكلمات كما فهمها العرب قامت على عمل قوامه **تكديس** لمعلومات مصدرها بشري صرف.

في حين أن كتب النحو نتاج عمل قوامه **المقارنة لاستنباط العوامل المشتركة**، أي القواعد.

- ثانيهما و أهمهما: اعتماد القرآن الكريم كمرجع أعلى، مما زاد من مصداقية و قوة تلك القواعد و رَفَعَ كثيراً مستواها.

نتيجة جهود النحويين الأوائل لاستنباط ضوابط النحو و قواعده كانت نجاحاً باهراً و نتاجاً متألقاً، لا لسبب سوى استثنائيَّة اللغة العربية و روعتها.

ليس الإشكال إذاً، في النحو بحد ذاته، بل في كيفيّة استخدامه.

فإن ذلك النجاح الذي رفع شأن النحويين الأوائل دفع من لحقهم للاغتنام منه، سعياً منهم لتكون مكانتهم (و هنا مَكْمَن الآفة) في أعين الناس بمكانة الأولين إن لم تكن أعلى.

فما كان لهم إلا الاسترسال في ما بقي من حالات نادرة و استثناءات و مما لم يتعرض له الأوائل أو مما لم يفصلوه.

فأساؤوا أكثر بكثير مما أفادوا:

- إذ أغرقوا ما لا شك فيه مما هو جلي، بفيضٍ من **الآراء القابلة للأخذ و الرد**، و **التخريجات** التي تفتقر إلى الحدّ الأدنى من الأمانة الفكرية.

فيض **الآراء القابلة للأخذ و الرد**، تَسَمُّمٌ و فوضى في الفكر.

و الأخطر من ذلك: أرضية خصبة لجدل عقيم ليس منه سوى قسوة القلب و الكثير مما لا جدوى منه من الكلام و القليل القليل من العمل المُجدي.

التخريجات لما فيها من خلل و بعدٍ عن الإحكام هبوطٌ بالفكر.

و الأخطر من ذلك: انعدام تام للصدق مع اللّه و الخشوع في حضرة كلامه سبحانه. إذ كيف للمرء و هو في قدسيَّة تلك الحضرة، أن يقول على كلام اللّه ما لا أساس له، أي الباطل، و الأخطر من ذلك: ليقال عنه «عالم». فويل له يوم يقال له: «فقد قيل»!

- إساءتهم كانت بالغة عندما شحنوا بقوة و لأمد طويل النحو و علومَه بأنفاسهم و أنفاس عصرهم.

هذه الشحنة التي تنتقل كالعدوى، نجدها قوية و فعّالةً في المداخلات النحوية في التفاسير خاصةً.

و هي شحنة المعتدّ بنفسه الواثق «بعلمه». و الغافل أنه باكتفائه بمرجعيَّة نفسه و علمه مقطوعٌ عن نور خالقه.

أحد أصول ذاك البلاء يكمن في الماضي، و كذلك في الحاضر، في معادلة نفسية بسيطة:

للتخلص من عبء أو خوف سيطرة الآخرين، يكفي مجاراتهم بل التفوق عليهم بأمر يحترمونه.

في الماضي، أيام صدر الإسلام و ما لحقه، كان النصر و العز و السيطرة للعرب. و أكثر ما كان يميّزهم ليس بالذات مظهرهم، بل لغتهم.

بذلك فإن أقصر طريق للتشبه بهم لبلوغ مكانتهم للسيطرة، كان بإتقان لغتهم.

و من خلال ذلك المنظور المحدود الذي يقف عند الظاهر، فإن أكثر ما يميّز القرآن هو عظمة لغته. و أكثر ما يميّز الرسولَ الأكرم فصاحتُه و سلامة لغتِه هو و صحابته الكرام.

بذلك، فإن أقصر طريق للظهور بمظهر حامل القرآن و المنتمي للرسول الأكرم و صحابته، كان بإتقان لغتهم.

ما سبق ينطبق على الحاضر، و ذلك بتطبيق نفس المعادلة للتفوق بالفصحى على أهل زماننا، من أبسط العوام إلى عليّة القوم و أعلاهم ثقافةً الذين سيطرت على ألسنتهم العاميّةُ، رغم طلاقة معظمهم في قراءة و كتابة الفصحى.

إتقان العربية أدباً في حضرة القرآن و الإسلام و احتراماً للسامعين أو القراء، أمرٌ مفروغٌ منه و واجب.

أما لو تحوَّلت النفوس عن ذاك الأدب و الاحترام، فإن إتقان العربية ليس من السمات الأساسية للعالم المؤمن. إذ لم تنْقُص الكافرَ أبا لهبٍ الفصاحة، و لا الفاسق أبا النواس، و لا الزنديق المتنبي!

لقد كان لسوء استخدام النحو، و **لا يزال** دور خطير و خفيّ في انحطاط الفكر الإسلامي.

فهو يغرق دروسَ المستويات المتقدمة في العلوم الشرعية و عقول نخبة المسلمين بمداخلات ليست بالحقيقة سوى آراءٍ قابلة للأخذ و الرد، إن وُجِدَ فيها الصواب، فإنه يبقى فريداً بين عيوبِ أو أخطاءِ باقي الآراء!

فما بال أن سواد تلك المداخلات لا ضرورة و لا فائدة منها.

إذ إنها في الحقيقة من أعراض إفلاس علمي و فكري: عندما يسترسل المفسرون من غير طائل في تلك المداخلات، فإنهم يوهمون أنفسهم و قراءهم أنهم يعملون متدبرين للقرآن بعلم و عقلانية.

إن حذفنا تلك المداخلات من كتاباتهم، فماذا يبقى لهم؟

بذلك فإن مداخلات سوء استخدام النحو آفة خطيرة عرقلت و سمَّمت، و لا تزال، الأفكار، إذ إنها:

- تستقطب الاهتمام يقلِّبها المرء بحثاً فيها عن الصواب، **فتلهيه عن بيت قصيد كلام الله!**
- و تهبط به إلى دون المستوى اللازم لتدبره.
- فتحجب عنه و عن غيره نور القرآن الكريم.

و قد شغلت و صرفت الخشوع فإنها:

- تستنفد طاقة الفكر فيكتفي المرء بها، أي إنه يكتفي ببخس لا فائدة منه، و **تُجْبَل نفسه على ذلك.**
- فلا يستمد من نور القرآن الكريم ليزداد إيماناً و رقيّاً و علماً و فهماً.
- و لا يسير بذاك النور لإعلاء كلمة الله و نصر الحق و الإسلام.

فما تكون النتيجة، إلا قعوداً في قوقعةٍ مع القاعدين الذين يحسبون أنفسهم من العلماء و الصالحين، و قد حفظوا ما قاله من سبقهم في إعراب القرآن. و هم في الواقع لا يعون مما يدور حولهم ليعوا ما يدور في العالم إلا ما يعيه العوام!

فلا بد إذاً، من تحرير النفوس و العقول من تلك العراقيل و السموم، و ذلك من خلال معرفة حدود إمكانيات النحو. **فهو ليس معياراً أو أصلاً مطلقاً يهيمن على النص القرآني الشريف**، و إنما مجرد أداة قيِّمة ذات فوائد كثيرة إن أُحسن استخدامها.

التفاسير

التفاسير الشهيرة و المعتمدة في العالم الإسلامي إنجازاتٌ عظيمة تطلبت جهوداً جبارةً لجمع و تقديم معلومات قَيِّمة لا غنى عنها للتعرف على القرآن الكريم.

ولكنه لا بد من التنبيه إلى أن السواد الأعظم من المعاصرين، المسلمين أو غير المسلمين، المطلعين على تلك التفاسير تفوتهم نقطة هامة:

عقلية و ثقافة القارئ المعاصر لا تتوافقان تلقائياً مع تلك التفاسير التي كتبت في عصر آخر له عقليته و ثقافته.

بعبارة أخرى: **فإن معاصرينا لا يقرؤون تلك التفاسير كما أُعِدَّت لتُقْرأ، و كما كانت تقرأ في العصور السابقة**، و ذلك لسببين:

- **أولهما**: لقد تقَوْلَبَت عقول معاصرينا في المدارس. و ذلك عندما تعلموا القراءة و الكتابة و مبادىء العلوم، من خلال مناهج دراسية **علمانية و موحَّدة، أعِدَّت حصراً** لنظام دراسيّ **إلزاميّ** يزجّ **أفواجاً** من الأطفال من كل حدب و صوب و يُخرِّجُهم، للمتابعة إن استطاعوا أو شاؤوا في التخصص في جامعات، تُفَصِّل لهم الجوانب **المادية و الدنيوية** لدراستهم، و ذلك من خلال مناهج دراسية علمانية متوافقة مع التي للمدارس...

في حين أن التفاسير الشهيرة و المعتمدة في العالم الإسلامي، أُعِدَّت لتقرأ من قبل **مسلمين** تلقوا مبادىء القراءة و الكتابة و باقي العلوم في المساجد أو في مدارس قرآنية **غير إلزامية**، و ذلك من خلال منهاج إسلامي صرف يقوم على اختيار حرّ و متنوِّع من قِبَل الشيخ المعلم، للمواد الدراسية من بين **أمَّهات الكتب.**

بذلك، فإن عقلية معاصرينا غير معدة لقراءة تلك التفاسير. إضافة إلى ذلك، فإنهم يفتقرون على الغالب للكثير من المعطيات التي تكاد تكون بدَهِيَّة بالنسبة للقارئ المسلم في العصور السابقة.

ثانيهما و أهمهما: إن انتشار تقنيات الطباعة الحديثة و التي تسمح بتوفير عظيم في التكلفة، و كذلك و بشكل خاص انتشار النسخ الإلكترونية، جعل اقتناء التفاسير بمقدور الجميع. بحيث صار بإمكان أي من معاصرينا الذين تقَوْلَبَت عقولهم و ثقافتهم في مدارس و جامعات علمانية، مطالعة أيِّ تفسير، متى و حيثما شاء، و على الغالب وحدَه كما يطالع عادةً صحيفة أو رواية أو حتى مقالاً أو بحثاً على الإنترنت...

بالمقابل، فقد تمت كتابة معظم التفاسير الشهيرة و المعتمدة في العالم الإسلامي، قبل انتشار الطباعة باللغة العربية. أي إنها كانت مخطوطات باهظة الثمن لا يمكن مطالعتها إلا في الجوامع لا كل المساجد، أو في المكتبات العامة أو في المكتبات الخاصةِ بندْرَةٍ من الأثرياء المُهتمّين بالعلم.

إضافة إلى ذلك، فقد كتب أصحاب تلك التفاسير تفاسيرهم لتُقرأ من قبل مسلمين نشؤوا و تعلموا على نهجهم و بناءً على قاعدة أساسية، بقدر ما كانت عُرْفاً شائعاً بينهم كبدهية، بقدر ما هي مَنْسِيَّة من معاصرينا:

كُتِبَت تلك التفاسير لتقرأ، و لو للمرة الأولى، بحضور الكاتب أو من هو في سلسلةِ من قَرؤوا عليه، أو من هو مُؤهَّل لتدريسها. هذه الطريقة كانت تفسح مجالاً كبيراً لفهم مقصود الكاتب، و لتدارك أيّ نقص أو سوء فهم عند المستمع. كانت هذه الطريقة تسمح كذلك للتمييز بين ما هو أساسي في النص و ما هو ثانوي أو هامشي، و كذلك للتمييز بين مستويات المراجع المذكورة في النص من خلال مصطلحات مثل «قال» و «قيل» و «ذَكَرَ» و «ذُكِرَ» و «روى» و «رُوِيَ».

هذا كله يفوت السواد الأعظم من معاصرينا الذين يتعاملون مع تلك التفاسير؛ مثل تعاملهم مع المناهج الدراسية الحالية ذات المستوى المُوَحَّد.

❋ ❋ ❋

من جهة أخرى، فإنه لا بد من الانتباه إلى أن التفاسير الشهيرة و المعتمدة في العالم الإسلامي **هي في حقيقتها أداة عمل**. أي إنها كالقاموس أو اللوغاريتم.

هل يكفي اقتناء قاموس لفهم روح و خفايا و مقصد نص في لغة أجنبية؟

هل يكفي اقتناء لوغاريتم لحل أية مسألة رياضية؟

هذه التفاسير توفر على الذي يريد التعرف على القرآن الكثير من الوقت و الجهد بحثاً عن معلومات يستحيل الاستغناء عنها، و موزعة في مصادر متعددة و ضخمة.

فهي تحوي على كل ما ذكرناه مما يحتاجه المرء من أحاديث شريفة مرتبطة بالسور أو بالآيات، مما لا غنى عنه لمعرفة أسباب النزول و معرفة الناسخ و المنسوخ. و كذلك فهي تحوي على شروحٍ و تفصيل للأحكام الشرعية التي تنص عليها الآيات، إضافةً إلى جوانب لغوية هامة مثل النحو و الصرف، و معاني الكلمات كما شاع فهمها بين العرب.

هذا كله، مصحوب بما بيناه من عيوب و آفات تلك المصادر و العصر الذي كُتبت فيه.

كذلك، فإن هذا كله، و بطبيعة الحال، مصحوب بحدود رؤية و فهم المُفَسِّر للآيات و من يستشهد بهم ممن سبقوه.

فَهْمُ المُفَسِّرين للآيات يبقى اجتهاداً بشرياً قام به علماء أفاضل. أي إنه و بسبب بشريَّته يحتمل الخطأ و الصواب.

هذا الفهم، و بشكل خاص، متناسب معهم و مع منهجهم في التفسير، و كذلك مع ظروفهم و عصرهم، لا مع الآية أو السورة **بحقيقتها المطلقة**.

فتفسير الكشاف مرآة لعقلية الزمخشري المعتزلي، و تفسير الرازي بما فيه من مسائل مرآة لكثرة الافتراء و الجدل في عصره.

عموماً، فإن جميع التفاسير الشهيرة تشترك بمنهج متشابه، ألا و هو سيرٌ نقطيٌّ في القرآن الكريم، آيةً آيةً.

ميزة هذا المنهج هي سهولة الرجوع إلى أيّة آية، كما يكون الأمر في معجم.

هذا المنهج ناجح و فعّال إن اعتمد في الكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد، أو في شرح متون كتب الفقه.

ولكن علّته الكبرى هي عدم توافقه مع العرض الإلهي الكلي و الكوني لمواضيع و لجوانب من الحقيقة في القرآن الكريم.

هذا المنهج أشبه ما يكون بنظرةٍ و تعليق يرقة تسير على لوحةٍ من الفسيفساء: «هذه قطعة زرقاء، و هذه خضراء منحنية، و هذه ذهبية مستقيمة...». غير مدركةٍ بذلك العلاقة بين تلك القطع، أي الصورة التي تشكلها. فكيف لها أن تدرك علاقة تلك الصورة ببقية اللوحة؟ و أين لها، هيهات هيهات، أن تدرك معنى اللوحة و رمزيتها!

لذا، فإن التعامل مع ما وصل إليه فهم المفسرين يتطلب الكثير من الدراية و العمق، للتمييز بين ما يفيد منه للمتابعة و للتقدم في فهم كلام الله، و بين ما يعيق أو يعرقل أو يحجب.

فإن التفاسير تفيد، عندما تساعد القارئ في فتح آفاق الآيات و السور.

و تعرقل، عندما تحدُّ تلك الآفاق، أو تصرف القارئ عنها.

لا بد من الإشارة أخيراً، أن تلك التفاسير لا تكشف إلا جانباً يسيراً من القرآن، لا لضعفها أو قصورها، و إنما بسبب عظمة الآفاق الشاسعة للقرآن و مكنونه اللانهائي.

❊ ❊ ❊

الباب الثالث

منهجية تدبّر القرآن الكريم

التعرّف على القرآن الكريم

لا يدرك، في البداية، الذي يتعرف على القرآن الكريم مدى بعده عن عظمة حقيقته.

فتبدو له تلك الحقيقة، و لشدة بعده عنها، كبقعة صغيرة مبهمة.

ولكنه كلما اقترب منها، اتَّسعت و توضّحت معالمها البديعة، و ليصل إلى مشارفها فيجد أنها مجرّة عملاقة و خلابة، تسبح في فلكها و تتلألأ في عظمتها مليارات الشموس و العوالم. ولو أنه جال فيها مستكشفاً، لما كفاه الدهر أمداً.

التدرّج في التعرّف على القرآن الكريم

إنّ تناوَلَ القرآنَ قارئٌ حياديٌّ و على درجةٍ عاليةٍ من الثقافة و الاطلاع، فإن أولَ ما سوف يلاحظه: أن القرآن مختلفٌ جذرياً في **بنيته** و **كيفية** طرح مواضيعه عن كل ما سبقه و لحقه من كتب.

إضافة إلى ذلك، فإن ذلك الاختلاف، جذريٌّ عن أيِّ فكرٍ و عقلية سابقة أو معاصرة و حتى لاحقة لظهوره، و حيثما كان على رقعة الكرة الأرضية.

كلما عاد ذاك القارئ الحيادي إلى القرآن الكريم متفحِّصاً إياه و مقارناً، كلما تأكدت ملاحظته السابقة.

ذلك مما يدفعه، و بالضرورة، إلى استنتاج أن تدوين النص القرآني لم يخضع لأي تأثير بشري سابق أو معاصر.

بهذا يجد ذاك القارئ نفسَه أمام سؤالٍ لا يحتاج طرحه إلى الكثير من الذكاء: «هل النص القرآني نتاج **عبقرية** أول من تفوَّه به أمام الناس؟».

بعد القليل من المراجعة و التمحيص، يضطر إلى نفي الافتراض السابق و بشكل قطعي. و ذلك لأسباب وجيهة و كثيرة، سبق و ذكرنا بعضها في النصوص السابقة، لا لإثبات أو تبيان ما نحن بصدده، بل في معرض الموضوع المطروح عندئذٍ. فلا بأس من جمعها باختصار للتذكير بما يفيد الإثبات:

– أول ما يلفت النظر و بقوة في النص القرآني الشريف، هو عدم تعظيم شخص خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. لا بل خطاب قاسٍ موجَّه إليه في مواضع كثيرة من القرآن مثل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩].

و الأكثر من ذلك عتب موجه إليه و تحذير يكاد يصل إلى التهديد. فقد عوتب في: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ٨٠/ ١]. وفي: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٣]. وفي: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧]. و عوتِب و حُذِّر في: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ... ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٧]، وحُذِّر في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ... ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧]. و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ

...﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١]. و﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٥]!

إضافة إلى ذلك، فإن ما يلفت النظر بقوة، هو التَّرَفُّع الإلهي فيما يخص شخص النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٩٣/ ٧]، و﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ...﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢]، و﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٧]، و﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ... ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤].

– إن كابَرَ مجادلٌ بالمحسوس، و اعتبر ما سبق نتاجاً صادراً عن نوعٍ من ازدواج أو انفصام في الشخصية، فكيف يفسِّر وجود فيضٍ من المعلومات في النص القرآني الشريف، تتجاوز كل ما كان معلوماً أيام التنزيل. بل تسبق الزمن بحيث أن آخر الأبحاث العلمية هيهات أن تلحق بها، كالأمثلة التي رأيناها في نص «سبق الزمن».

– ما سبق وحده يكفي.

فما بال ما أشرنا إليه في نص «البشرية و مسألة الدين» عن آدم و عيسى و الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أجمعين؟ و حيث رأينا تقابلات و توازنات معبرة، و نموذجاً لنظام عددي مدهش و خاصةً ذي مدلول، نظام عددي يضبط موضوعاً ما، عبّر القرآن الكريم، و يفتح معانيه و رموزه إلى آفاقٍ شاسعة.

– و ما بال التوافُقات العظيمة في بنيتها و مدلولاتها، و التي مررنا عليها مروراً سريعاً في نص «الأميين»؟

– و ما بال الشذرات التي رأيناها و التي هي أقل من قطرة من بحر، و ذلك عندما تعرضنا لـ «حقيقة اللغة العربية و علاقتها بالقرآن»؟

فلا مناص عندئذٍ، إلا بالمكابرة بالمحسوس أو لمواقف أو أسباب شخصية، من قبول النص القرآني الشريف كنص إلهي كامل و متكامل و حرفيّ.

لا يُشْكِل ذلك بالطبع على المسلمين، أي أصحاب إحدى أعظم الحضارات التي كان لها دور

حاسم في نهضة جذرية و نوعية في العلوم، والذين يمثلون الآن قرابة ربع البشرية.

كذلك، فإن تَقبُّل فكرة وجود نص إلهي موحى، ينبغي ألا يشّكل، من حيث المبدأ، على قرابة ثلث البشرية، أي أهل الكتاب.

إذ، و على سبيل المثال، فإن النسبة العظمى منهم، أي الكاثوليك، يختمون أيّة قراءة لمقطعٍ من الكتاب المقدس في القداس، سواءً من التوراة و أسفار العهد القديم أو الأناجيل الأربعة و حتى رسائل بولس بقولهم: «كلام الرب». و هذا من غير تمحيص، بل بمحض الاعتقاد و التسليم.

بالمقابل، كلما تدرَّج القارئ في تحرره من مواقفه المسبقة و آرائه الجاهزة ممحِّصاً القرآن الكريم، تدرَّج في التأكد من حقيقة ألوهيته.

هذا مما يدفعه، إن كان حكيماً، أن يتريَّث قبل الحكم على أيِّ شيء منه، ليعطي نفسه الفرصة اللازمة للتدرج في فهمه.

إذ لا يمكن للقارئ ببشريَّة نفسه و عقله، أن يتعامل مع النص القرآني الشريف كما اعتاد التعامل مع نصوص صادرة عن نفوس و عقول بشرية.

إذاً، لا بد للقارئ البشري من نقلة نوعية في كيفية تعامله مع النص القرآني الشريف، لتتناسب مع ألوهيته في حرفية كلماته و رموزه و إشاراته و مواضيعه، و خاصةً مع آفاقه و حقيقته.

أخذاً بالفارق الجذري بين القدرات العقلية البشرية بحدها الأقصى و بين عظمة فعل و إرادة و علم و ذات الخالق جَلَّجَلَالُهُ، فإن تلك النقلة النوعية اللازمة للتعامل مع نصٍّ يصدر عنه جَلَّجَلَالُهُ، عقلاً مستحيلة.

ولكن منزل القرآن أدرى بمن قد يقرؤه من خلقه، فهو جَلَّجَلَالُهُ خلقه و خلق عقله بآلياته و إمكاناته. فهو جَلَّجَلَالُهُ، إذاً، أدرى بالأسلوب المناسب لمخاطبة ذاك العقل بطاقته القصوى.

بذلك، فإن التحرر من عيوب آليات التفكير البشرية المعتادة، للانتقال إلى آلية مناسبة للنص القرآني، بمثابة الفرصة الاستثنائية ليتداول العقل فكراً صادراً عن الذي خلقه و خلق آلياته، فرصة استثنائية لتتفتح، بذاك الانسجام الصميمي، طاقاته إلى الحد الأقصى.

ولا يتم ذلك إلا بالتدريج.

بدأ ذاك التدرُّج بدوام وعي قارئ القرآن للنقاط الأخيرة التي ذكرناها.

دوام ذاك الوعي يجعله يتريَّث، فلا يتسرع في الحكم سلباً أو خطأً على ما يقرأ منه، قبل أن تكتمل الصورة بتحصيل كل ما يلزم لاكتمالها.

فما أسهل أن يعترض المرء على أمر مُنْكِراً. فالاعتراض لا يتطلب الكثير من الذكاء. إذ يكفي ألا تتوافق قناعات المرء، مهما كان مستواه، مع ما هو مطروح عليه، ليعترض. فما أكثر نسبة الجُهَّل و الحمقى أو المخطئين في جملة المعترضين في أي مجال و على أي شيء، و ما أقل نسبة العاقلين المنصفين.

الذي نزَّل القرآن سبحانه أدرى بنفوس و عقول خلقه، لذا فقد حثَّهم على التريث بشكل يكاد يكون متواصلاً عبر صفحات كتابه:

فقد نبَّه الناسَ محذِّراً بتذكيره إياهم خصلةً متأصلةً فيهم: ﴿...وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١]. و كم من مرة ذمَّ العجلة و الاستعجال مذكِّراً: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢٠-٢١].

لقد أكد سبحانه على خطورة عدم التريث، و ما يترتب عليه من اعتراضٍ ناتجٍ عن تسرعٍ و سطحية في الحكم، عموماً، و في طلب العلم خاصةً. و ذلك في قصة سيدينا موسى و الخضر في سورة الكهف، حيث نجدُ عالِماً على موعدٍ مرتّب مع عالِم آخر، يبحث عنه ليتَّبِعه على أن يعلمه ممّا عُلِّم رشداً، علماً من لدن العليم الحكيم.

و قد علِمْنا مدى أهمّية العلم في القرآن، لوروده في أول ما نزل به الوحي، و لورود اشتقاقاته ٧٧٩ مرة، فإن ذلك يشير إلى أهمية هذه القصة، خاصةً أنها الشاهد الوحيد الذي أراده سبحانه في القرآن عن طلب العلم، و ذلك لنُركِّز عليه:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ

مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾ ﴾.

من اللافت للنظر، و ممّا يشير إلى فائق أهمية الأمر، أنَّه سبحانه جعل هذه القصة تماماً في منتصف القرآن. فكما هو متعارف عليه، يبدأ النصف الثاني من القرآن تماماً عند قول سيدنا الخضر لسيدنا موسى: ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ ﴾.

و ممّا يؤكد فائق أهمية الأمر ترتيبٌ إلهي يكاد يخفى بحد ذاته على الجميع، فما بال مدلولاته! إذ إن عبارة «بحر» بصيغة المفرد وردت ثلاثاً و ثلاثين مرة في القرآن. الثلاثة الوسطى منها، أي البحر السادس عشر و السابع عشر و الثامن عشر تقع في منتصف القرآن، أي في قصة سيدينا موسى و الخضر.

من جهة أخرى، فإن ما يؤكد على أهمية هذه القصة، الأحاديث الشريفة الواردة عنها في الصحيحين، حيث نجدُ تفاصيلَ ثمينة. هذا، بالرغم من ندرة ما وصلنا من أحاديث متعلقة بالقرآن الكريم، قياساً إلى كتلة باقي الأحاديث.

تبدأ جميع هذه الأحاديث بالمسببات التي تجاوزها النص القرآني:

– «قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ...»

[صحيح البخاري: ١١٩].

- «بَيْنَمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْمِهِ يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَأَيَّامُ اللَّهِ نَعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ، إِذْ قَالَ: مَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ رَجُلاً خَيْرًا وَأَعْلَمَ مِنِّي...» [صحيح مسلم: ٤٣٨٦].

- «بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا. فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ...» [صحيح البخاري: ٧٢].

العبرة في الأحاديث واضحة:

تنبيه يحذّر من خطورة نفي المرء وجودَ علم خارج و أبعد من الخطوط العريضة لما يعلم.

فهو بذلك، يقطع طريق الخير على نفسه، آسراً إياها بنطاق محدود من صنعه، لا يلبث إلا و يصير سجناً له يتقوقع فيه و يتحجّر.

إنه لمن اللافت للنظر، اختيار سيدنا موسى بالذات من بين الأنبياء في هذه القصة المعدّة في علمه الأزليّ سبحانه، لتكون في كتابه الكريم إلى آخر الزمان. سيدنا موسى المعظم في القرآن الكريم، و المعروف بشخصيته و إمكاناته الاستثنائية، و خاصة بعظيم علمه الذي يشمل ما كان معلوماً عند خواص المصريين، الذين كان علمهم يمثل ما يمكن اعتباره أعلى نموذج من نماذج المعرفة في الدنيا آنذاك.

القصة إذاً عن **رجل استثنائي**، عن **نبيّ استثنائيّ** يتمتع **بعلم استثنائيّ** و في **طلب المعرفة العليا**.

لو استبدلنا بسيدنا موسى في هذه القصة إنساناً عادياً، لَما كان لهذه القصة وقعها علينا. إذ يمكن أن يتسلل إلينا الغرور، فنقول: «لن نقعَ بأخطاء رجل عاديّ كهذا».

حدوث هذه القصة لسيدنا موسى، دليلٌ على خطورة الأخطاء المبيّنة فيها، و زيادةٌ من قوة عبرتها.

أولى هذه الأخطاء تتمثل بالتسرع في الحكم على أمرٍ من خلال **ظاهره**، و بناءً على محاكمة عقلية لا تخرج عن إطار **المعتاد و المألوف**:

عندما خرق الخضر السفينة، نسيَ سيدنا موسى كلّ شيء عن خبرته و حكمته.

نسيَ وعدَهُ و لم يصبرْ.

و بتعجّل و بشكل آلي، اعترض.

اعترضَ و أصدرَ حُكماً جاهزاً ﴿...أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ...﴿٧١﴾﴾. هذا الحكم جاهز، لأن أياً كان يستطيع إطلاقه. فهولا يحتاج إلى ذكاءٍ و بصيرة، و لا إلى تعمّقٍ في الفقه و الشريعة.

و عقّبَ موسى حاكماً تصرُّفَ معلمه ﴿...لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾.

هذا، و بالرغم من الضمانة **الإلهية** المقدَّمَة له، فقد خاطبه الله جَلَّجَلَالُهُ و أمره بلقاء رجلٍ أعلم منه. و بالرغم من عجائب شروط و كيفية اللقاء، و بالرغم من شرط الخضر عليه عدم الاستفسار عن أي شيء حتى يأذن له.

الأخطر من ذلك، أنه لم يستفد من تلك التجربة، بل وقع ثانية في نفس الأخطاء عندما اعترض على قَتْلِ الغلام، و ثالثةً عند بناء الجدار.

الأخطاء التي تُنبِّهُ إليها قصة سيدينا موسى و الخضر، هي الأخطاء الأساسية التي يدعو سبحانه عباده إلى اجتنابها لفتح آفاق فكرهم و للسمو بعقولهم، أي ما لا بد منه لحسن التصرف في مواجهة تحديات الحياة الدنيا، و كذلك لحسن تدبر القرآن:

– لقد نسي سيدنا موسى الضمانة الإلهية المقَدَّمة له، و إلا، لتريَّث و لَما اعترض على معلمه.

لعل سبب ذاك النسيان يكمن في **عنصر المفاجأة** التي تعرض لها. و في ذلك درس و عِبَرٌ غاية في الأهمية. إذ إن المعلومات الجديدة و الضرورية **التي لم تُرَسَّخ بتوظيفها** ﴿... خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/٦٨]، تتلاشى وقت الحاجة لها أمام عنصر المفاجأة، فلا يستخدم العقل عندئذٍ إلا ما رسخ فيه و خاصةً ما اعتاد استخدامه، فيفشل.

من جهة أخرى، فإن في سبب المفاجأة التي تعرض لها سيدنا موسى، درسٌ أساسيٌّ آخر: هذه المفاجأة تدل أن سيدنا موسى استبق معلمه و رسم و توَقَّع الخطوط العريضة لما سوف يتلقاه عنه. و هو الخطأ بعينه، إذ إن ذلك هو تماماً **الموقف المسبق** الذي يعرقل كلّاً من الفكر و التلقّي. و هو كذلك خطأ الذي تأبى نفسه أن تكون ضمن إحاطة علم غيره ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/٦٨]. لذلك، فإنه يستعدُّ لاحتوائه بتوقُّع و لو الخطوط العريضة لما سوف يصدر عنه. فيفوته بذلك، العلم الاستثنائي المعروض عليه، لتواجده خارج حدود توقعاته حيث انتباهه، فلا يعرفه، بل ينكره.

– رغم استثنائية الظرف، فقد بنى سيدنا موسى استنتاجه و حكمه انطلاقاً ممّا هو دارجٌ من تفكيرٍ بين الناس و ممّا يُعتبرُ حسّاً سليماً.

– لقد بنى حكمَهُ و كأنَّ المنطق الذي اعتمده كان الوحيد الصحيح و لأيّةِ حالة، و كأنَّ المعلومات التي حضرتْ على عجل في ذهنه كانت كافية لهذا الأمر.

ما حضرَ في ذهنه على عجل، هو ما يستخدمه الإنسانُ العاديُّ في حياته اليومية.

– إحدى الأخطاء الأساسية في تلك القصة و في التفكير البشري عموماً، تكمن في ضيق المجال الزمني المعتمد في محاكمة الأمور.

لا مجال للوقوع في هذه الأخطاء عند تناول النص القرآني الشريف.

العلة الأساسية في الأخطاء التي تُنبِّه إليها القصة، تكمن في نقصٍ في المعطيات **الداخلة في المحاكمة**، و كذلك في قصور الآلية اللازمة **لمعالجة** تلك المعطيات.

أهمّ وجه لقصور تلك الآلية يكمن في **عدم ربط** المعطيات الداخلة في المحاكمة بمعطيات أخرى لا بد من معرفتها، و ذلك لفهم المقصد و للوصول إلى المغزى.

لقد خرق سيدنا الخضر السفينة ليعيبَها، فيدرأ بذلك عن المساكين الذين يعملون في البحر كيد ملك غاصب. بهذه الطريقة **ابتدأ** سيدنا الخضر عرضه البصري. لم يخطرْ ببال سيدنا موسى كيف **بدأت** حياتُهُ. لقد كان يفكرُ في النتيجة **المنطقية** لخرق السفينة، و نسي كيف رُتِّبَ إنقاذه بطريقة **غير منطقية**، عندما ألقتْهُ أمه في اليم لتنقذَهُ من كيد ملكٍ غاصب.

عندما قتل سيدنا الخضر الفتى، اعترض سيدنا موسى و استنكرَ بشدةٍ ما اعتبرهُ جريمة نكراء بحقّ نفس زكية. لقد نسي سيدنا موسى كلّ شيء عن المصري الذي قتله بغير نفس و الذي لم يكن نفساً زكية.

عندما أقام سيدنا الخضر الجدار بغير أجر و ذلك ليحمي كنزاً ليتيمين كان أبوهما صالحاً، انتقده سيدنا موسى مشيراً إليه بأنه كان يمكنه أن يأخذَ عليه أجراً. نسيَ سيدنا موسى كيف ساعدَ الابنتين **الاثنتين** لسيدنا شعيب و الذي كان صالحاً و ذلك عند بئر مدين. لم يأخذْ سيدنا موسى أجراً رغم الحالة التي عبّرَ عنها بحزن و أسى: ﴿...رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٤].

لم يوظِّفْ سيدنا موسى في هذا الظرف الاستثنائي تجاربه الاستثنائية و علمَه الاستثنائي.

فلم **يربط** بين ما رآه و بين علمه و تجاربه، إذ **لم يرَ العلاقة**.

بل رأى كل حدث من خلال مجموعةٍ محدودة من الاحتمالات المنطقية و الصيغ الجاهزة.

ذلك لأنه رأى ما رآه من خلال منظار الظاهر، كحدثٍ مستقل، كغيره مما لا يحصى من أحداث. لذا فقد وقفت رؤيته عند الظاهر، فلم يستطع ربط ذاك الحدث بحدثٍ آخر مشابه بالحقيقة، و لكنه مختلف عنه بعض الاختلاف في الظاهر.

ما كان هذا ليحدثَ لسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لو أنه تجرّدَ عن نفسه، و رأى ما رأى، كما كان ما رآه عليه.

لو أنه رأى الحدث من خلال منظار الحقيقة، لما غاب عنه و لو للحظة، التي قد تكون اللحظة الحاسمة، أن ذاك الحدث غير مستقل عن غيره، بل يدخل تحت هيمنة و تدبير الحكيم العليم جَلَّ جَلَالُهُ الذي قدَّر كل شيء تقديراً. بذلك، و بانتماءِ أيِّ حدث إلى ترتيب محكم، فإن لذلك الحدث **معنىً** ضمن مجموعة الأحداث.

و بذلك، و بالنظر إلى أيِّ حدثٍ من حيث حقيقته، فلن تخفى علاقته بغيره، و لن يخفى المعنى الكامن في تلك العلاقة.

إنّ الطريقة التي رُسِمَتْ للقاء سيدنا موسى بالخضر، كلمة البحرين التي وردت في القرآن ٤+١ = ٥ مرات، الحوت الذي ذُكر في القرآن ٤+١ = ٥ مرات، نسيانه من قِبَل الفتى، الجملة الوحيدة التي قالها الفتى، أبوان صالحان و غلامٌ ميت، غلامان و والد صالح ميت... كلّ شيء حدثَ و قيل أمام سيدنا موسى، كان و لا يزال موضوعاً حرياً بالتأمل و التدبر، للتدرج سموّاً في آفاقه الشاسعة.

لماذا موعد عند مجمع البحرين؟ لماذا الحوت كإشارة؟ لماذا ثلاثة أمثلة؟ لماذا هذه الأمثلة و ليس غيرها؟ لماذا في هذا الترتيب؟

ما هو ذاك العلم الذي بعد بحرين و صخرة و حوت، يبدأ بسفينة، و بعد قتل ينتهي بكنز مخفي؟

كان سيدنا موسى **مدعوّاً للتفكّر بكل ما جرى و قيل، و كذلك قارئ القرآن، و لطرح أسئلة على نفسه و الانتظار ريثما يحصل على الإجابات الصحيحة، و ريثما يصير أهلاً لفهمها و توظيفها.**

كذلك الخارج من قوقعة غرور الادعاء و الاكتفاء، إلى ما يليق بنفسٍ و عقلِ ذريةِ من سجدت له الملائكة.

أُذَكِّر ثانية، أننا لو استبدلنا بسيدنا موسى في هذه القصة إنساناً عادياً؛ لَما كان لهذه القصة وقعها علينا. إذ يمكن أن يتسلل إلينا الغرور، فنقول: «لن نقعَ بأخطاء رجل عاديّ كهذا».

تجاوز تلك الأخطاء خطوة لا مناص منها.

إذ لا مجال لحسن تدبر القرآن إلا بالتحرر من أيّة إعاقة، و ذلك لتوظيف طاقات النفس و العقل بحدها الأقصى لتلتقي و تتواصل مع كلام الذي خلقها.

قاعدة ذهبية

إن كلّ ما قد يشكل على امرئ في القرآن الكريم، ما هو إلا مرآة تظهر حقيقة ثقافته و عقليته و مفاهيمه حيث يكمن الإشكال.



القرآن الكريم مجالٌ مقدس كليّ يمتنع أمام أيَّةِ هفوة

ليس النص القرآني الشريف صياغةً بشريةً لقناعات دينية و روحية، و لا حتى انعكاساً لحقيقةٍ روحية بكلمات بشرية، بل نص إلهي كامل بحرفيته و بلغته و ببنيته و مواضيعه.

إضافة إلى ذلك، لا بد من التأكيد أن القرآن الكريم ليس **مجرّد** مرجع فقهي أو وعظيّ يقيني أو كتاب تراتيل.

بل، و لأنه بحرفيّته كلام الخالق الذي يقول:﴿...كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢] فيحقق بكلماته إرادته و يوجد، فإن القرآن الكريم **مجالٌ مقدس كليّ**، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٧-٧٩].

و طالما أن القدسية انعدام مطلقٌ للعيوب و النقائص، فإن ذلك المجال لا يقبل أيَّةَ هفوة، بل يمنعها و يصرفها عنه.

فينقطع، بذلك، الاتصالُ بين الواقف أمام القرآن و بين نوره و حقيقته، و لا يبقى له منه سوى **مرآةٍ** تعكس حقيقة نفسه و عقله، هيهات أن يراها!

إذ إن كلّ ما قد يشكل على امرئ في القرآن الكريم، ما هو إلا مرآة تظهر حقيقة نفسيّته و عقليته و مفاهيمه و ثقافته، حيث يكمن الإشكال.

لقد نبَّه مُنَزِّل القرآن سبحانه صراحةً في مواضع عديدة إلى هذه الخاصية العجيبة و العادلة لامتناع النص الشريف عن غير المؤهَّل للخوض فيه:

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

هذه الخاصية عجيبةٌ للغاية، و مخيفة. إذ إنها تتجاوز المذكورين أو الموصوفين في الآية الكريمة السابقة، إلى المسلمين أنفسهم و حتى «علمائهم»! فكم ممن يعتقد أنه عالمٌ قبل أن يوهِم الناس بذلك، يحسب و قد حفظ ما أَوْرَدَه غيرُه في التفاسير أنه أحاط علماً بالآيات و السور.



لو لم أرَ بأم عينيّ مراراً تحرُّك تلك الآليَّة و بشكل عجائبيّ، لَما تيقنت أن ثمة تدخُّلاً خفياً لا يقاوم يصرف غير المؤهل عن نور و حقيقة النص القرآني الشريف! و لظننت أن ما يجري في تلك الأحوال مجرد إعراضٍ، لقناعاتٍ أو لأسبابٍ نفسية.

و هذه الخاصية عادلة، لأنها لا تشجع المقصّر في الاستمرار في أخطائه التي تمنعه من التقدم و السمو. بل تضطره لتداركها و لإصلاح نفسه و رفع لياقاته.

و هي كذلك عادلة، لأنها لا تساوي في المعاملة بين الذي عمل حبّاً و افتقاراً جاهداً لصفاء و سمو نفسه و عقله، و بين المتجاهل لعيوبه المكتفي بالتفوق على الأدنى.

إنَّ هذه الخاصية لشديدة الخطورة، فهي تحرُم عقل و مدارك الذي تقع عليه، من المرجع الأعلى اليقيني و الوحيد الذي يرتبط به مصيره الأبدي!

لذا، فإنه **لا مجال لتجاهل حقيقة هذه الخاصيّة عند تناول القرآن الكريم**.

إضافة إلى ذلك، لا بد من معرفة آليّتها، لتفادي الوقوع تحت فعلها.

الذي شاء هذه الخاصية في كتابه الكريم، سبحانه، هو نفسه الذي ابتدأه باسميه الرحمن الرحيم.

لذا فقد جعل ذلك الكتاب بمثابة الفرصة المتواصلة الممنوحة رحمةً، لإعانة أيٍّ ممن يُوَفَّق للوقوف في حضرته.

و لذا فقد بيَّن رحمةً، **أين يكمن** السبب الأساسي لتحَرُّك تلك الخاصية، و ذلك في شواهد كثيرة نذكر منها:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤]. و﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٥]. و﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٣].

العامل المشترك الأساسي في الآيات السابقة هو «القلوب».

أي كل ما يشمل **المشاعر** من رغبات و ميول و أهواء.

و كل ما يشمل **المواقف** على العموم، تدرجاً من القبول إلى الإعراض.

و كل ما يشمل **الدوافع النفسية**، من الأساسية المشتركة مع الحيوان، إلى المتطورة بما فيها العيوب و العقد.

أي عملياً، كل ما هو صميميّ في الشخصية، حيث الدوافع و القناعات العميقة لدرجة تصل إلى كبتها أو عدم وعيها. و التي تكاد تكون لها دوماً الكلمة الأخيرة في أي فعل. فكم ممن يعلم أنه لا ينبغي عليه أن يقوم بأمر، و يقوم به رغم ذلك، بسببها.

أي إنَّ الأمر متعلق بما لا يستهان به، نظراً لدوره الأساسي و الحاسم في ما يدخل في دائرة التكليف من مواقف و عمل. و **هما المعوَّل عليهما في الحساب يوم الحساب**.

بناءً على ذلك فإن المسألة خطيرة للغاية لأنها مصيرية.

فمن الضرورة بمكان، إذاً، معرفة **السبب** الذي يكمن في ما نبَّه إليه سبحانه في قوله: ﴿...أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ ﴿... وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً ...﴾ ﴿...فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ ...﴾ لتفاديه.

لقد تكرَّم سبحانه بإعطاء **السبب** بجلاء تام. و لكنه يفوت معظم من يقرؤه، لِما فيه من اختزال خارق في ثلاث كلمات كالبرق:

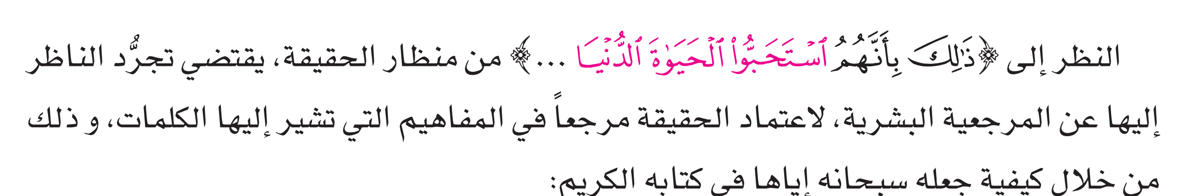
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٨].

تفوت البَيِّنة التي في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ...﴾ معظمَ الذين يقرؤونها، لأنهم يتناولونها من منظار الظاهر، أي باعتماد مفاهيمهم و مكتسباتهم مرجعاً. فلا يرون فيها، و بأحسن الأحوال، إلا وعظاً عادياً ألفوه، في الزهد في الدنيا.

بالنسبة للبشر عموماً ليس حب الدنيا جريمة! كذلك بالنسبة لعموم المتديّنين، فإن حب الدنيا ليس كفراً و لا شركاً. و هو ليس جريمة و لا ذنباً، طالما أنه لم يستأثر على صاحبه ليدفعه إلى المعاصي أو إلى التقصير في الواجبات.

طالما أن الطيبات ليست محرَّمة، و طالما أن «ساعة لك و ساعة لربك»، فإن تفاعل عموم من يقرأ الشاهد الشريف الذي نحن بصدده، يبقى تفاعلاً فاتراً تجاه «وعظٍ مألوفٍ»، نادراً ما يعتبر نفسه معنيةً به.



النظر إلى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ...﴾ من منظار الحقيقة، يقتضي تجرُّد الناظر إليها عن المرجعية البشرية، لاعتماد الحقيقة مرجعاً في المفاهيم التي تشير إليها الكلمات، و ذلك من خلال كيفية جعله سبحانه إياها في كتابه الكريم:

فالشاهد الشريف ليس محض وعظ، بل تفسيراً و بيّنةً بدليل قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ...﴾.

جليٌّ أن هذا الشاهد الشريف، و ما هو على نمطه في القرآن الكريم، ليس دعوة إلى التقشف و الرهبنة، و إنما دعوةٌ إلى معرفة **أصل الخطأ و الانحراف** عندما يكون **جنينيًّا لا يثير حذراً**. و إلى **رؤية لحظة مفترق الطرق** حيث **أول خطوة** في الجنوح و الضلال.

و على العموم، ليست رسالة القرآن الكريم قطّ دعوة إلى التقشف و الانزواء، و إنما دعوة إلى وعيٍ عالٍ لحقيقة كل أمر و شيء. وعيٌ يقوم عليه التوازن في تقييم و التعامل مع أيٍّ أمرٍ أو شيء.

أول و أهمّ ما ينبغي أن نشير إليه عن الذين يستحبون الحياة الدنيا، هو تجاهلهم لأساسيات مصيريَّة:

فهم يتجاهلون حقيقة **هويّتهم و ماهيتهم**، عندما ترتبط في نظرهم ارتباطاً وثيقاً بظاهر مادية أجسامهم و عالمهم، فيعتقدون خطأً أنهم ينتمون إلى عالم المادة.

في الحقيقة، ليسوا سوى أنفس، أي كيان لاماديّ ينتمي إلى عالم لاماديّ.

أي إن هويّتهم هي النفس، و ماهيتهم لاماديّة.

فهم، قطعاً، ليسوا أجسامهم. بل إنها بريئةٌ منهم، مستقلة عنهم.

تواجدهم فيها و في عالم المادة ليس سوى تواجد عابر، بترتيب إلهيّ مقدّر، و بناءً على حكمة بالغة.

هذا الالتباس في الهوية و الماهيّة ناتج عن الانسلاخ عن الفطرة، و هي الاستعدادات النفسية الأساسية التي جعلها الخالق الحكيم جَلَّجَلَالُهُ في خلقه.

إحدى تلك الاستعدادات الأساسية هي شعورٌ عميق: بوجود قوة عليا منظِّمة و مسيطرة على الكون، و بحاجة و شوق إلى التواصل مع هذه القوة. و كذلك، شعور عميق بانتماء إلى عالم آخر كوني و أبدي.

تُرى ما عدد الألوف المؤلَّفة من الذين انتابتهم تلك المشاعر، في وحدة الليل أو النهار، مستغرقين في تأمل السماء أو مناظر شاسعة و خلابة أو حشودٍ بالألوف من الخلق؟

تلك الفطرة التي جعلها الخالق الحكيم جَلَّجَلَالُهُ في خلقه، هي بالواقع جملة من المواهب الأساسية و الضرورية.

فالذين ينسلخون عن تلك الفطرة باستحبابهم الحياة الدنيا، يحرِمون أنفسهم من تلك المواهب، فتتقلَّص مداركهم و تتراجع هبوطاً، و بشكل خطير.

الخطوات الأولى باتجاه استحباب الحياة الدنيا تبدأ في الطفولة الأولى في كنف، أي تأثير، من يرعاها من بالغين وقعوا في هذا الاستحباب من تلقاء أنفسهم أو بالاحتكاك بغيرهم. إذ كلما ازداد التجمع البشري، كلما ازدادت فرصة عدوى الأخطاء.

تبدأ تلك الخطوات في ذاك الكنف و تحت ذاك التأثير، و تستمر طوال الحياة من خلال المبالغة في الالتفات إلى الأحاسيس الجسدية و النفسية، المتدرجة من الألم إلى المتعة. فتطبع تلك الأحاسيس، التي لا تحتاج إلى لياقات عقلية عليا أو متطورة، صاحبَها؛ فينشأ و يعيش و قد انحصرت اهتماماته و لياقاته بين تجنُّب تلك الآلام و الحصول على تلك المتع، ضمن حدود حياته تلك، و بناءً على سُلَّم الأهمية و القِيَم الرائجة في مجتمعه.

كيف له و قد حُدَّت اهتماماته و لياقاته بذلك، و فقدَ أهمَّ مواهبه بانسلاخه عن فطرته، أن يلتفت إلى القرآن الكريم ليتفاعل معه؟!

إذ يكفي أن تلك الحياة التي استحب موصوفة فيه بـ«ٱلدُّنۡيَا»، مثل «دون» و «دنيّ»، لنفهم لِمَ أنها ليست، و على مدى صفحاته، إطلاقاً موضع مدح: ﴿...وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٥]، ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٢]، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٤]، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤]، ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٥].



﴿...مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ﴿...لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ ﴿...حَصِيدًا ...﴾ ﴿...هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ...﴾! هذه هي الحياة الدنيا من منظار الحقيقة.

لحظة عابرة، كما رأينا قبل صفحات عن نسبيّة الزمن: من القليل ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٢]، ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٤]، ﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٢-١١٣]، إلى الساعة بالنسبة للمجرمين ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٥].

أما بالنسبة لعبارة ﴿...ٱسْتَحَبُّوا۟ ...﴾، فإن الكلمات التي من عائلة «حبب» في القرآن الكريم، مرتبطة بموضوعٍ شاسع، و خطير لما في هذا الأمر من سيطرة على النفوس و العقول.

فلا مجال لفتحه في هذه الأسطر، و إنما نكتفي بالإشارة إلى صيغة «استفعل» في قوله تعالى: ﴿...ٱسْتَحَبُّوا۟ ...﴾، و التي نفهم منها المبادرة و السعي، لا التلقائية. أي إن حبهم للدنيا ليس تلقائياً أو فطريّاً، بالمعنى الدقيق للكلمة، و إنما نتيجة لتفضيل. و هو ما نجده في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٦].

لقد ارتبط فعل «يحب» في القرآن الكريم، عندما يكون فاعله أحد الثقلين، بأمور كثيرة. نذكر منها ما يفيد ما نحن بصدده، قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٢٧]. يُفهَمُ من ذلك أن حبَّهم للعاجلة تلقائي، بسبب تلك الخصلة الأساسية في الإنسان: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٧].

بالمقابل، لم ترتبط عبارة ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ في القرآن الكريم بفعل «يحب»، بل «يستحب». هذا مما ينفي التلقائية، و يؤكد فكرة المبادرة المبنيَّة على تفضيل ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ...﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٧].

ولا تفضيل إلا، و بالضرورة، بمقارنة.

طالما أنه توجد ثمة مقارنةٌ و تفضيل، فبالضرورة ثمة **علمٌ** بوجود الخيار الآخر.

فلا يستطيع الذي «استحب»، أن يبرِّئ نفسه بحجة الجهل.

و طالما أنه يوجد ثمة علمٌ و ثمة مبادرة، فبالضرورة، ثمة **مسؤولية** فيما يتعلق بالتبعات.

لأن **المبادرة بالضرورة توظيف للطاقة** بشكل أو بآخر.

إن كان ذاك التوظيف منسجماً مع النظام الكوني، فإن تلك الطاقة تتضافر إيجاباً مع الطاقة العظيمة لذاك النظام.

أما لو أن ذاك التوظيف خالف النظام، فإنه يُحدِث خللاً لا بد من تعديله.

كلما مرَّ الزمن، تفاقَمَ الخلل و ازدادت الطاقة اللازمة لتعديله، إلى حدٍّ مرسومٍ يتبدل فيه الزمن و ما يصحبه. عندئذٍ و بالضرورة، و ذلك ضمن النظام الكُلِّي، تصير الطاقة اللازمة لتعديل الخلل جهنميّة.

لذلك: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

جهنم و خصائص الطاقة الموجودة فيها، مخلوقة قبل خلق المكلفين من الخلق. و هي عنصر ضمن عناصر توازنات الطاقة.

الذي خلقها سبحانه، أخبر المكلفين من خلقه أنهم أنفس مصيرها عبور الزمن إلى زمن آخر فيه وقفة الحساب، زمن آفاقه اللانهائية الجنّة حيث لا خلل بل التوازن و الانسجام المطلق. لذا و كما نبَّه سبحانه، فإن لا وصول إليها، إلا و بالضرورة، بمرور فوق ما يجذب أي خلل سابق للطاقة، ليعدِّله بطاقة جهنمية أو ليبقى في زوابعه الأبدية: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ﴾ [مريم: ١٩/ ٧١].

الذين انسجمت مواقفهم و أعمالهم مع ما علموه من الحق مروا من فوقها بسلام. أما الذين تجاهلوها و تجاهلوا الحق فأساؤوا توظيف الطاقة التي منحت لهم، فإنهم واقعون فيها بالضرورة، بجاذبِ ما أحدثوه في ضلالهم من خلل.

فقد: ﴿ ...طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ... ١٠٨﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٨].

وهو أحقّ بذلك! لأنه هو نفسه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ١٦/ ٧٨].

السمع و الأبصار و الأفئدة و ما فيها من مواهب و إمكانيات، ليست ملكات «طبيعيّة» ظهرت نتيجة لتطورٍ تلقائي مزعوم، بل محض عطاء إلهي لغاية محددة ضمن نظام كلّيّ.

و هي ليست مجرد إحساس بالمؤثرات الصوتية أو البصرية و تفاعلٍ معها، بل القُدرة على فهم الرسائل و المعاني التي تنقلها المؤثرات الصوتية و البصرية و تفاعلُ الوجدان مع تلك الرسائل و المعاني.

فسبحانه الذي أعطى و لغاية محددة، أحق بوضع حدّ لسوء توظيف ما أعطى.

إذ الشكر في لغة القرآن، هو حسن توظيف العطاء الإلهي.

عندما ﴿...ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ...﴾ ، أساؤوا توظيف العطاء الإلهي، إذ أتلفوا قلوبهم و سمعهم و أبصارهم بدفعها بالاتجاه المعاكس لِما خُلقت له من علمٍ و انفتاح و سمو إلى لانهائيّةٍ و قدسيّة الحضرة الإلهية.

كلما اندفعوا بالاتجاه المعاكس لِما خلقوا له، كلما ازداد فرق الكمون بالتعاكس، و كلما ازداد التلف و التخريب نتيجةً لازدياد التعاكس.

فما بال أنَّ ما اندفعوا فيه و علَّقوا فيه قلوبهم **ضيِّق بخس عابر لا يعوَّل عليه**، فانطبعت **بذلك** قلوبهم.

القلب و ما يعتريه، من أهمّ مواضيع القرآن الكريم؛ حيث نجد و بجلاء أنه ليس كياناً مادياً يضخ الدم، بل كيان معنوي أي لا مادي. و حيث نفهم أنه عكس «القالب» أي الظاهر المادي مما يظهر من المرء، بل هو خفايا نفسه و أعماقها التي قد يجهل الكثير منها. فهو يشير إذاً، إلى كل ما يتعلق بالسرائر و بالوجدان.

و هو خاصةً صلة الوصل بالسبوح القدوس رب الملائكة و الروح. لذلك، فما أثمنه و ما أقدسه!

و ما أقبح صرفِه عن تلك الصلة، و تعليقِه بفانٍ، و أكثر من ذلك بعابر، و أكثر من ذلك بِدنيّ، و الأكثر من ذلك ببخسٍ. هذه هي رسالة القرآن فيما يتعلق به.

عندما استحبوا الحياة الدنيا، فإنهم ـ كالمنتحر حصر مستقبله في اللحظات التي أبقاها لنفسه ـ حصروا فرصة حياتهم في ضيق زمن الحياة الدنيا، و قطعوا عن أنفسهم فرصة الحياة الأبدية.

و قد انحصرت حياتهم في أعينهم في ضيق هذه البرهة، صاروا يتهافتون إلى الاغتنام منها قبل انتهائها.

ولكن الحياة الدنيا ليست دار سعادة و سلام، بل أرضاً كأحرف «ضار»، أي دار بلاء و ابتلاء.

فما أكثر المصائب و الخيبات، و ما أكثر نسبة التعساء المحرومين منها إلى ندرة «السعداء» الغانِمين.

لذلك فقد امتلأت قلوب المتهافتين عليها المتنافسين للاغتنام منها حسداً و غلّاً و جشعاً ﴿...فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾، لتدفع أصحابها إلى جفاء و قسوة أنانية الاستئثار بما حصلوا منها ﴿...وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ...﴾، و إلى ظلم التعدي للنهل منها، و إلى قبح تكبر التفاخر عند استحواذ شيء منها ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

تهالكهم لتحصيل ذلك كله في البرهة الضيقة التي حصروا فيها «حياتهم»، استأثر على قلوبهم و عقولهم و اهتماماتهم استئثاراً تاماً يمنعها من الالتفات أو وعي أو إدراك أي شيء أو أمر آخر.

كعاشق الساقطة أو المدمن على الخمور أو المخدرات، أو المقامر، انصرف قلبُه عن محبّيه من أهله و صحبه، فصُمَّت أذناه عن نصحهم، و عمي بصره عن قبيح عمله و سوء عاقبته. ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ...﴿١٠٨﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٨].

كيف للذين ترسخت في عقولهم قناعات ناقصة و مغلوطة عن ماهيّتهم و هويتهم، أن يلتفتوا إلى كلام يبيّن لهم حقيقتها؟

و كيف لهم، وهم لم يلتفتوا إلى ذلك الكلام، أن يتقبلوا ما فيه عن وجودهم و مصيرهم؟

كيف لمن جعل وجهَه في الوحل أن يرى السماء؟ كيف لهم و قد زَجّوا و حَصروا و أتلفوا قلوبَهم و سمعهم و أبصارهم في أهوائهم، الالتفات إلى غير ما استحوذ عليهم للاهتمام به و التفاعل معه!؟

القرآن الكريم ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١]، يمتنع و بشكل عجيب أمام:

سطحية و ضيق أفق ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ...﴿٣﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣].

و أمام انعدام جدِّية و موضوعيّة المحكومين بأهوائهم ﴿...أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١٦].

و أمام المتكبرين خاصةً! ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ...﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

التكبر عَرَضٌ و مؤشّر لخلل نفسيّ و عقلي بالغ و خطير.

التكبر عَرَضٌ و مؤشِّر لخلل نفسيّ بالغ، لأنه دليل على شعور شديد و مكبوت، إما بالنقص يدفع صاحبه لتعويضه بإيهام نفسه بتفوقه على غيره. و إما بالخوف من النقص، مما يدفع صاحبه إلى محاربة ذاك الشعور، بالتمَيُّز عمن يرى فيه النقص الذي يخشاه كالعدوى، و ذلك بالتكبر عليه، أي عملياً بالتعالي عليه مخالفةً أو طرداً أو تسفيهاً، أو بالسيطرة عليه تسخيراً.

التكبر عَرَضٌ و مؤشِّر لخلل عقلي بالغ، لأنه دليل على انصراف العقل عن منظار الحقيقة و انقطاعه عن نور المرجعيّة الكونية الإلهية، و انحصار مرجعيته بضيق مرجعية نفسه و أمثاله في سطحية منظار الظاهر.

هذا الخلل العقلي أصل وهم الشعور بالنقص، و كذلك أصل كبته، و كذلك أصل المحاكمة المغلوطة أولاً لضرورة تعويضه، و ثانياً في كيفية تعويضه، و ثالثاً في الخوف منه، و رابعاً في كيفية مواجهته.

خطورة التكبر تكمن في أمرين:

من جهة، **عدم وعي أو تجاهل أو إنكار المتكبر تكبُّرَه**. هذا مما يجعل صلاحه و إعادته إلى الصواب أمراً مستعصياً أو شاقاً للغاية.

من جهة أخرى، جنوح التكبر بالقوى النفسية و العقلية إلى خيارات و قرارات غير متوازنة و خاطئة، قد تكون مصيرية.

لقد عرَّفنا الذي لا ينطق عن الهوى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقانونٍ رهيبٍ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءٍ!**» [صحيح مسلم: ١٣٢].

لذا فإن التكبر من أكبر الكبائر في الإسلام، لأنه أصل أكبر كفرٍ و إعراض: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٣٥].

لذلك، و لِما في التكبر من جنوح بالقوى النفسية و العقلية إلى خيارات و قرارات خاطئة و ما يترتب على ذلك من تبعات متفاقمة، فقد قال سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ... ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

إذ إن آياته سبحانه ليست عجائب بهلوانية مدهشة! بل تجليات للقوانين التي تضبط الكون. فالتعرف على تلك الآيات يوصِل إلى علم بالقوانين التي تضبط الكون.

كيف يضع سبحانه علم تلك القوانين بأيدي المتكبرين، الذين ما إن حصلوا على شيء من علم، طغوا مفسدين؟



إن كان التكبر بحد ذاته من أقبح الكبائر، حتى لو صدر عن مخلوق على حق، فكيف يكون التكبر، إذاً، بغير الحق!؟ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦]؛

لذلك، و بسبب جنوح تكبرهم بقواهم النفسية و العقلية ﴿...وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ...﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

﴿...وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ...﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦]، لأنه لا يناسب تكبرهم.

﴿...وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ...﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦]...

﴿...ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦]، تكبراً.

لذلك ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...﴾.

ماذا يستفيد السجين المؤبَّد الذي يأبى تكبراً أن يجتاز باب النجاة والعفو المفتوح أمامه؟



الاستعاذة

طالما أنه تبيَّن لنا أن النص القرآني الشريف ليس نصاً بشرياً في محتواه و لا حتى في صياغته و لا حتى في لغته، فلا مجال للتعامل معه كتعاملنا مع أي نص آخر.

بل لا بد من التعامل معه على ما هو عليه: أي مجال روحي مقدس فيه كلمات تختلف جذرياً عن سائر كلمات الخلق؛ لأنها كلمات صادرة عمَّن هو سبحانه منزه عن الزمن!

فهي، إذاً، متَّصلة به، **باقية** بقاء الباقي جَلَّجَلَالُهُ، **فعّالة** بكل قوتها من قوة قائلها سبحانه الذي يقول: «كُن فَيَكُونُ».

و قد أدرك و وعى ذلك، الواقفُ أمام ذاك المجال الروحي المقدس العظيم، فأي إرباك هو فيه! ولكن ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ ﴾ [طه: ٢٠/ ٢]، بل إنَّ ذاك المجال الروحي المقدس العظيم ﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢]!

لذلك فقد قال منزِّله سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ ... ١٧ ﴾ [القمر: ٥٤/ ١٧]، و وجَّه قارئه إلى كيفية التعامل مع كتابه الكريم، مثل قوله سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٩]، و خاصة في تعليمة واضحة و صريحة: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٨].

رغم صراحة و وضوح تلك التعليمة، فما أندر الذين يعونها فيحسنوا تطبيقها!

إذ إن سواد الذين يحسبون أنهم يطبقونها، إنما ينطقون بها على استعجال، و عموماً كي لا يُؤخذ عليهم تركها.

ولكن ما أبعد تطبيق تلك التعليمة عن مجرد النطق بها. إذ لم يقل سبحانه: «فإذا قرأت القرآن **فقل** أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». لو كان ذلك هو المقصود، لَوَرَد نصّاً، فما أكثر المواضع التي يرد فيها أمر ﴿قُلۡ﴾ في القرآن الكريم. علماً أن أمر ﴿قُلۡ﴾ في القرآن الكريم، ليس المقصود منه مجرد النطق، بل وعي القائل لما أُمِر به من قول و التزامه به.

فالأمر، إذاً، و لأهميته البالغة، يستوجب الوقوف عنده، لحسن فهم و تطبيق تلك التعليمة الإلهية.



أول ما يحتاج إليه ذلك الأمر حاجة ماسّة، هو الوقوف تفهُّماً عند الاستعاذة بحد ذاتها.

و ذلك لشيوع خطأ كبير في قناعة سواد من ينطق بها. و كأن مجرد النطق بها، و كيفما كان، كاف لسريان مفعولها، بشكل آليّ كتحصيل حاصل.

الواقع أن سريان مفعولها يكاد يكون فضلاً إلهياً استثنائياً يتفضّل به سبحانه على خاصَّةِ عباده، و ذلك بدليل الحديث الشريف الشهير: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إِنَّ اللَّه قَالَ:

مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،

فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». [صحيح البخاري: ٦٠٢١].

فالأمر جلل، إذ إن الحديث قدسي، يخبرنا فيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلام الله عز و علا.

و المستوى المعْنيّ برُمَّته استثنائي، كما يتبين لنا ذلك ممَّن به استفتح سبحانُه كلامَه: «من عادى لي **ولياً** فقد آذنته بالحرب».

و كما يتبين لنا من عبارة «عبدي» التي قالها منزِّل القرآن سبحانه. و التي هي، في تألقٍ و استثنائيةِ علم و عمل من تشير إليهم في القرآن الكريم، بعيدة كل البعد عن مفهوم دروشة «ناس ملاح» الشائع عنها.

المستوى المعْنيّ استثنائي، كما يتبين لنا مما هو جلي في قوله سبحانه: «فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، و بصره الذي يبصر به، و يده التي يبطش بها، و رجله التي يمشي بها، و إن سألني لأعطينَّه...»! فأي مقام، و أي عطاء استثنائي!

و يتوِّج سبحانه ذلك العطاء الاستثنائي بـ: «... ولئن استعاذني لأعيذنَّه»!

فالأمر أبعد ما يكون عن تحصيل حاصل آليّ لشكليَّة من شكليات قراءة القرآن الكريم.

بل إنه يستوجب حضورَ قلبٍ و افتقاراً شديداً لله.

أقلّ ما في حضور القلب: الانصراف عن مهزلة التركيز على الشيطان أي عملياً تعظيمه باسم حضور قلب مزعوم، إلى تعظيم الله جَلَّجَلَالُهُ عند النطق بلفظ الجلالة كـ﴿...ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢]، هذا إن ذُكِر سبحانه أمامهم، فكيف إن ذكروه.

و قد استأثر الوجل لذكر اللّه على قلبِ طالب الإعاذة، فإنه يدفعه إليها بما بيَّنه سبحانه: «ما يزال عبدي **يتقرب** إلي...».

فكلما استأثر سبحانه على قلبِ طالب الإعاذة ذكراً و عملاً، ازداد قرباً منه. و كلما تقرَّب منه سبحانه، ابتعد بطبيعة الحال عن الشيطان. فكيف للشيطان سبيل على من هو في حضرة القرب؟

هذا أقل ما يقال عن معادلة الإعاذة من الشيطان. فلا إعاذة إلا بتلك المعادلة.

و قد وقفنا عند الاستعاذة بحد ذاتها، فإن ثاني ما يحتاج إليه ذلك الأمر حاجة ماسّة، هو تحصيل الحد الأدنى الكافي في تصحيح المفاهيم عن الشيطان.

لقد تفضَّل سبحانه على قارئ قرآنه الكريم بلفتة أساسية في تعليمته: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ النحل، و ذلك في كلمة ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾، لتقودنا تلك الكلمة بالضرورة إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ من سورتي الحجر و صٓ ، و بالطبع إلى الآيات الكريمة المحيطة:

۞ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾

قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾

قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾

إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾

قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞

[الحجر: ١٥/ ٢٦-٤٣]

۞ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾

فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾

إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾

قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾

قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾

إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾

لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ۞

[صٓ: ٣٨/ ٧١-٨٥].

الشاهدان الشريفان، و كما هو الحال بالنسبة للحالات المشابهة في القرآن الكريم، يتكامل كل واحد منهما مع ما يحيط به من آيات السورة و ما يتجاوزها. و كذلك، فإنهما يتكاملان فيما بينهما.

و قد قادتنا كلمة ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ إليهما، فإن أكثر ما يستوقف انتباهنا فيهما هو التطابق التام في، و بالذات، المقطع الذي يحوي تلك الكلمة:

قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٤-٣٨]	قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ [صٓ: ٣٨/ ٧١-٨٥]

التطابق بين شاهدين أو أكثر في القرآن الكريم، يعني فيما يعني، و بشكل خاص، التأكيد الشديد على ما في الشاهد.

أما الاختلاف، فهو بشكل خاص لفتٌ للنظر إلى ما لا بد منه لاكتمال الصورة.

بذلك فإن كلمة ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ من تعليمة ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، و قد قادتنا إلى شاهدي الحجر و صٓ ، فإنها تؤكد، بتطابق الآيات الخمس السابقة، تأكيداً شديداً على فحواها الأساسي الذي ينبغي ألا يغيب عن بال أيٍّ ممن يستعيذ من الشيطان:

ألا وهو مجال زمني شاسع و متواصل، من لحظة الطرد إلى يوم البعث، إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ،إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ،مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ،يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ، يتهالك فيه الشيطان لإغواء المكلفين.

مجال زمني لم يولد و لم يمت بشر إلا فيه! كمن ولد و مات هو و آباؤه و ذريته في أجواء و تهديد حرب متواصلة!

و قد ذكَّرت كلمة ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ بالآيات المتعلقة بذلك الخطر المتواصل، فإنها تُذكِّر بالضرورة بالآيات التالية حيث وعيد إبليس، و مثيلاتها في باقي السور:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٩-٤٠].

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٨٢-٨٣].



﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧]

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٢-٦٤].

الآيات السابقة مربكة و محيِّرة بالنسبة لكل من يقرؤها، و هو، و من حيث لا يعي، يفكِّر فيها بعفويةٍ و حدودِ منطقه البشري المعتاد في حياته اليومية؛ فيقع بالضرورة بإشكالين خطيرين:

- أولهما: جعل كلام و وعيد إبليس بنفس قوة و مصداقية كلام رب العزة، سبحانه! و كأن الأمر جملة ردود فعل على شكل تراشق بالتحديات بين قوتين متقابلتين. حاشى! إذ لا يقابله، سبحانه، شيء!

- ثانيهما و أخطرهما: ما هو جليٌّ من الأسطر السابقة، أي خطأ الإسقاط البشري. أي إسقاط المنطق التقريبي الذي يحكم نفوس و عقول البشر، عليه سبحانه!

ذلك المنطق المطبوع خاصة بمجال زمني ضيق، و هذا لوحده كافٍ لاستحالة إسقاط ذلك المنطق على المنزَّه عن الزمن سبحانه. فهو الأول، فلا شيء قبله و لا حتى معه و لا حتى الزمن. و هو الآخر فلا شيء بعده و لا حتى معه و لا حتى الزمن. و هو الآخر، فإن ما هو مستقبل بالنسبة لخلقه، هو ماضٍ بالنسبة له سبحانه.

بذلك، ﴿...وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩]، و قد سبق علمه كل شيء، فكيف تكون له ردود أفعال، سبحانه، كمن يتفاعل مع ما يكتشف!؟ و هو العزيز الحكيم، الذي هو أدرى بكل ما خلق، و لِمَ خلقه.

بالنسبة للإشكال الأول، فإن كلام إبليس أبعد ما يكون عن القوة و الإحكام، لا بل فيه الكثير من الاضطراب. مثل قوله: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦]، و الذي ينطلي على كل من يقع في ذلك الإشكال الأول، فيرى في ذلك الكلام حجة وجيهة، في حين أنها محض حماقة.

إذ أيّ حجاب و أيّ عمىً هذا، أن يتطاول على خالقه و هو يعترف به خالقاً له! [...خَلَقْتَنِى...]

و أيّ حماقة هذه، أن يقدّمَ حجة يريد أن يبيّن بها لخالقه، أنّه أخطأ في أمره سبحانه! إذ فحوى حجته، و كأنه يريد أن ينبه خالق النار و الطين: «كيف غاب عنك فضل النار على الطين؟».

كلام إبليس ليس سوى ردود فعل مخلوقٍ، جعله خالقه، الذي هو سبحانه أدرى به و أعلم لِمَ خلقه، في موقف أقصى ليُفَعِّل ما هو كامنٌ في نفسه و ليجعله ظاهراً.

و ذلك ليكون عبرة لكل من يتفكر فيه متدبراً.

إن كان سيدنا يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أدرى بأبنائه و بردود أفعالهم عندما قال ليوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ يوسف، و عندما قال لبنيه مقدماً لهم الذريعة و هو أدرى بما سوف يصدر عنهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: ١٢/ ١٣]. إن كان سيدنا يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أدرى بأبنائه و بما سوف يصدر عنهم من ردود أفعال، فكيف سبحانه الذي سبق علمه كل شيء و الذي هو أدرى بما و لما خلق!

لو شاء سبحانه لأفنى إبليس حال عصيانه الأمرَ بالسجود لآدم، و لَما جرى كل ما جرى.

ولكن، و طالما أن علمه سبحانه سابق، و طالما أنه المهيمن الذي لا قوة، قطعاً، إلا به، فإن كل ما جرى مطابق لإرادته و لسابق ترتيبه.

بذلك، فإن كل ما صدر عن إبليس لم يُغيِّر شيئاً في سابق الترتيب. بل، ليس سوى ردة فعلِ مخلوقٍ داخلة ضمن شبكة احتمالات دقيقة و محكمة قدَّرها الخالق الذي قدَّر كل شيء سبحانه. و لذا، فقد قال سبحانه: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٤]، لا كردة فعل، و هذا مُحال بمجرد التفكير بالنسبة و التناسب بينه سبحانه و بين مجرد مخلوق﴿... مِنَ ٱلۡجِنِّ ...٥٠﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠]، بل كدليل أن الأمر كله تحت هيمنة الأول و الآخر جَلَّجَلَالُهُ الذي ﴿... وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ ...٦٧﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٧].

خاصةً أن ذلك الحوار لم يردنا عن خبرٍ أخبرنا به الرسول الأكرم نقلاً عن أحد الملائكة الذين شهدوه. بل عن الذي شاء الحوار، سبحانه. و الذي، أصلاً و في سابق علمه، شاء أن يكون في محكم تنزيله! لتدبره و للاعتبار منه.

فأي كنزٍ هو ذلك الخبر الاستثنائي الذي لا وجود له إلا في القرآن الكريم لمن يتدبره و يعتبر منه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي ...١٦﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦]. أي إن خياله و فكره لم يذهبا بعيداً، بل إنه اكتفى باستخدام أخطائه نفسها لإغواء غيره.

و قد بينها لنا سبحانه في ذاك الحوار عندما سأله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ...٧٥﴾ [ص: ٣٨/ ٧٥]، فما كان أول جوابه إلا «أَنَاْ»!

هذه الكلمة تكاد تكون، لوحدها، كافية لفهم ما أغواه، و ما به يتهالك لإغواء غيره. إذ لم يستفد إبليس من الفرصة المصيرية التي منحه إياها خالقه جَلَّجَلَالُهُ عندما ذكَّره عسى أن يعود إلى الصواب: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٥].

لم يستفد إبليس من تلك الفرصة المصيرية، إذ استأثر على نفسه اهتمامه بها. هذا مما أعمى بصيرته، و مما حدَّ و حجَّم كل شيء بضيق حدودها. فلم يرَ في الأمر إلا سجوده لمخلوقٍ آخر، و غاب بضيق و حدود هذه الرؤية عظمة أي أمر صادر عن رب العالمين، و عظمة تذكرة يديّ الله جَلَّجَلَالُهُ، و لم يعِ، في دوار جنون عظمته، تنبيه ﴿ ... أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾.

«أَنَا۠»، هذه الكلمة تُلخِّص الخطأ المهلك الذي يقع فيه أي مخلوقٍ عندما يتجاهل نور و إطلاق حقَّانية المرجعية الإلهية، ليعتمد في مواقفه و محاكمته و تقييمه للأمور مرجعيته الذاتية، أي ما تميل و تصبو إليه نفسه، و ما تقبَّله أو وصل إليه فكره من آراءٍ و قناعات.

بذلك نستطيع أن نقول: إن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، هي إشراقة وعي يهرع بها الذاكر إلى الله تقرُّباً، لتتلاشى أمام عظمته سبحانه «أنا» الذاكر، فتتلاشى بذلك ظلمات مرجعيته الذاتية أمام نور المرجعية الإلهية.

و قد وقفنا عند الاستعاذة بحد ذاتها، و عند الحد الأدنى الكافي لتصحيح المفاهيم عن الشيطان لفهم الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإن ثالث ما يحتاج إليه ذلك الأمر حاجة ماسّة، هو الوقوف عند **تطبيق** التعليمة الإلهية ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٨].

يمكن فهم تلك التعليمة الإلهية بطريقتين:

– أولى شائعة و سليمة:

﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ... ٩٨ ﴾ أي، إذا هممت بقراءة القرآن، ﴿...فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، ثم اقرأ القرآن.

بتطبيق التوضيحات التي أوردناها في الصفحات السابقة، تصير تلك التعليمة بالمفهوم الأول: انصراف قارئ القرآن في مواقفه مما يقرأ منه، و في محاكمته و تقييمه له عن نهج الشيطان أي **التشبُّث بمرجعيته الذاتية**، أي ما تميل و تصبو إليه نفسه، و ما تقبَّله أو وصل إليه فكره من آراءٍ و قناعات، كي لا تنغلق بذلك أمامه آفاق القرآن انغلاقاً تاماً.

بل ينبغي عليه تجاوز تلك المرجعية الذاتية و ما تتَّسم به من محدودية و نسبية، للانفتاح على نور الله.



- الفهم الثاني للتعليمة الإلهية غير شائع، رغم صحته التامة لتطابقه مع حرفية النص الشريف:
﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ... ﴿٩٨﴾ ﴾، أي، و قد قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ، فَٱسْتَعِذْ في الحال مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ، و حافظ على تلك الإعاذة بمواصلة تقرُّبك إليه سبحانه.

بتطبيق التوضيحات التي أوردناها في الصفحات السابقة، تصير تلك التعليمة بالمفهوم الثاني:

دعوة ملحَّة، جاءت أمراً لضرورتها القصوى، إلى قارئ القرآن كي لا يغيب عن باله أن حملة الشيطان عليه متواصلة ليغويه بما أُغويَ به، أي بطغيان المرجعية الذاتية.

خاصةً أن حملة الذي توعّد ﴿ ... فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦]، لأشدّ بكثير على الذي قرأ القرآن من حملته على من لم يقرأه.

فهي شديدة على الذي يهمُّ بقراءته، ليعميَ بصيرته فيحرمه مما أمامه من نور و هداية.

و هي أشدّ شراسة و كيداً و نقمة و غيظاً على الذي قرأه، ليستجِرَّه من الهداية التي تلقاها إلى الضلال، و من النور الذي كان فيه إلى الظلمات.

كيف؟ خاصةً أن ﴿ ... كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٧٦]؟

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ
إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ
إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى
فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٢].

الشيطان إبليس ﴿ ... مِنَ ٱلْجِنِّ ... ﴾، أي إنه، شأنه و الجن، و شأن الإنس، كلاهما من فئة العاقل المكلَّف، أي الثقلين. أي إنه بذلك الانتماء يشترك مع الإنس بكثير من الخصائص، خاصةً ما يتعلق منها بالأنفس و أحوالها و ردود فعلها.

و من هنا مدخله على الذي يستجيب له من حيث لا يدري.

فإن لم يواصل قارئ القرآن تقدّمه و انفتاحه على نور و هداية المرجعية الإلهية، فإنه يبتعد عنها بالتيار الهابط للحياة الدنيا إلى نفسه على علّاتها. و الشيطان بانتظاره ليؤجِّجها، فيتشبث صاحبها بقناعاته و ما تصبو إليه نفسه، فيغيب معظم القرآن عن وَعْيِه، ليبقى ما بقي منه مفككاً مقطوعاً عن المقصد الإلهي. فكيف له أن يتلقى ما في القرآن من فضل و عطاء؟ و أنّى له أن يشكرَ



بحسنِ توظيفِ ذلك العطاء، و لم يتلقاه؟ فالشكر حسن توظيف العطاء الإلهي. ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧].

و بطبيعة الحال، فإنه يُسيء فهم رسالة القرآن و يسيء تطبيق أوامر اللّه. و هو لا يعي أن الشيطان دخل عليه من خلال عيوب نفسه و نقاط ضعفه، مثل استعجاله و قصر بصره، و خاصةً اضمحلال حذره أمام ما يبدو خيراً، فيقع في فخ طعم الزيادة المزعومة للخير و هو يحسب أنه يحسن صنعاً.

فينسى تماماً ما تفضل به سبحانه عليه في محكم تنزيله، حيث لم يكن الشيطان يطيق ذكر اسم غريمه من شدة حقده ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ ... ٦٢ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٢]، إلا مرةً وحيدةً ليلتفت آدم إلى نفسه و إلى مناديه ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ ... ١٢٠ ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٠]، و ليستغلَّ نقطة ضعفه ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ﴾ [العاديات: ١٠٠/ ٨]، فيَمُدَّ له في الحال طعم الخير المزعوم ﴿ ... قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ ﴾ .

و قد وقع المرء في هذا الفخ و هو يحسب أنه يحسن صنعاً، في حين أنه يُكَيِّف كل ما استوقفه من القرآن بما يخدم نفسَه على علّاتها، فإنه يتبع خطوات الشيطان من حيث لا يعي.

فأين هو من ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ... ٦٩ ﴾ العنكبوت، و هو يُكَيِّف آيات القرآن مُدْبِراً عن حقيقتها، ليخدع نفسه و غيره بقلب تقصيره و جبنه و كسله تُقىً و ورعاً.

و أين هو من ﴿ ... مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٩]، و قد امتلأ قلبه، لشدة التفاته إلى نفسه، قسوةً و غِلّاً، و صار يتعامل مع كلمات اللّه و آياته كما يتعامل المدعي العام المتحامل أو المحامي المفتري مع القانون. فتصدر عنه و عن أمثاله عجائب من الرعونة و التسلّط و التكبر و خاصةً التعصب، فينافس الشيطان في إثارة الخلافات و شق الصفوف بإثارة ضلالات سخافات حماقات مسائل مثل: «هل القرآن مخلوق؟».

و ينافس الذي ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ... ٧٦ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦]، ليقول لسان حاله «أَنَاْ خَيْرٌ منهم أجمعين!» و قد تأنَّف أن يكون مجرد مسلم، ليتميَّز بأنه معتزليّ أو خوارجيّ أو ...ريّ أو ...عيّ أو ...فيّ أو ...جيّ أو ...بيّ أو أو أو، كلٌّ يُعظِّم نفسه مُحقِّراً غيره بالتهجم عليه رجماً، و قد التهى بذلك عن كلام اللّه إذ ذكَّره بـ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ، و ذكَّره ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٦]، و ما الرجم في الحج إلا امتثالاً لذلك الأمر الإلهي، لا ليرجم الناس بعضهم بعضاً، بل ليعلموا من هو عدوهم الحقيقي، فيرجموه.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ... ٧٦ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦].

بنية القرآن الكريم

دراسة بنية القرآن الكريم عملية ضرورية، أولاً، للتعرّف عليه، و ثانياً و خاصةً للخوض في مستوياته المتقدمة.

أول ما يظهر من تلك البنية لأيٍّ ممن يتناول القرآن الكريم، هو تقسيمه إلى سورٍ و آيات.

لا بد من التذكير بأن ذلك التقسيم ليس تقسيماً بشرياً لاحقاً للتنزيل، لا هو و لا تسميته. و إنما تقسيمٌ إلهي، شاءه سبحانه و شاء تسميتَه، و شهده سيدنا جبريل و خاتم النبيين، فقد قال سبحانه: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور: ٢٤/ ١].

كذلك فإن أسماء السور أسماء توقيفية، أي إنها حُددت وحياً بحضور خاتم النبيين.

ثاني ما يظهر من تلك البنية لأيٍّ ممن يتناول القرآن الكريم، هو تدرج في السُّوَر من الطول إلى القصر.

هذه الملاحظة لا تخفى على أحد، و لكنها تبقى تقريبية. فأول السور، الفاتحة، سبع آيات ثم البقرة ٢٨٦ آية، ثم آل عمران ٢٢٠، ثم النساء ١٧٦، ثم المائدة ١٢٠، ثم صعوداً الأنعام ١٦٥، فالأعراف ٢٠٦، ثم سقوطٌ إلى ٧٥ في الأنفال، ثم قفزة إلى ١٢٩ في التوبة، و هكذا ...

المنطلقات التقريبية لا تعطي عند اعتمادها في بحثٍ إلا نتائج أكثر تقريبية. لذا، فإنه لا يمكن الأخذ بها لاستنطاق ذلك «التدرج» بشكل موضوعي و للوصول إلى نتائج ذات مدلول.

ثالث ما يتبادر إلى ذهن أيٍّ ممن ينظر في تلك البنية ممن يتناول القرآن الكريم، هو تدرج في السُّوَر في ترتيب التنزيل، بحيث أن أول ما نزل يقع في آخر القرآن، و آخر ما نزل في أوله.

هذه الملاحظة أكثر تقريبية من سابقتها. لذا، و كما بيّنا فإنه لا يمكن اعتمادها للوصول إلى نتائج موضوعية و دقيقة. فالفاتحة، أول سور القرآن، هي من أوائل ما نزل به الوحي، و سورة النصر، و هي الخامسة من آخر القرآن الكريم، هي آخر سورة في التنزيل.

***

مما سبق، يتبيَّن لنا أنه لا يمكن اعتماد الملاحظات السابقة أو أمثالها لما فيها من تقريبية و سطحية لمعرفة بنية النص القرآني الشريف.

و يتبيَّن لنا كذلك، أن بنية النص القرآني الشريف أعقد بكثير مما يتراءى لأول وهلة.

لا أعني بالتعقيد: التشابك أو الصعوبة أو العسر من غير طائل، بل أعني شدة التطور و الغنى في المعطيات الداخلة في علاقاتها فيما بينها.

بهذا يصير «التعقيد» «complexité» الذي أعنيه هو: الذي نراه في الأحياء مثلاً؛ كاجتماع و تضافر و تكامل شبكات متعددة في الجسم البشري: البشرة بطبقاتها و ما فيها من وبر أو شعر و مسام و غدد عرقية و شبكة أوعية شعرية، تستمر في باقي الجسم مع شبكة الأوعية اللمفية و شبكة الأعصاب، هذا إضافة إلى ما لا يُرى مما بدأ الناس يقرون به، مثل شبكة نقاط الوخز بالإبر. هذا بغض النظر عن منظومة الخلايا الجذعية أو المتخصصة و عما وراءها من منظومة المورثات.

تعدد و اجتماع و تكامل الأنظمة، و بشكل بديع و بالفاعلية القصوى في المثال السابق، يساعد في تشكيل تصور مبدئي عن شدة غنى و عظمة بنية القرآن الكريم. لا عجب، إذ إن الذي خلق تلك الأحياء و كذلك المجرات و ما فيها من أنظمة بديعة، هو نفسه منزِّل القرآن.

بناءً على ما سبق، نستطيع أن نقول: إن بنية القرآن الكريم تقوم على مجموعة من الشبكات المتناغمة و المتكاملة تنتشر على مدى صفحاته، الله أعلم بعدتها.

هذه الشبكات تقوم بالطبع على السُّوَر و الآيات في ترتيبها النهائي، و على ما ثبت من ترتيب تنزيلها.

و كذلك و خاصةً على المواضيع و الكلمات، و حتى على الأحرف و على الأعداد.

شبكة المواضيع هي جميع الأماكن التي طُرِح فيها نفس الموضوع في القرآن الكريم، و ارتباط ذلك الموضوع بشبكات مواضيع ينتمي إليها أو تنتمي إليه.

شبكة الكلمات هي جميع الأماكن التي وردت فيها كلمة ما في القرآن الكريم، و ارتباط تلك الكلمة بشبكات كلمات أخرى تحوم حولها أو تلازمها. و قد سبق و مررنا على مثال بديع في مدلولاته، عندما أشرنا إلى ذكر سيدينا آدم و عيسى في القرآن الكريم.

الارتباط بين شبكات المواضيع و شبكات الكلمات ارتباط وثيق.



كذا الأمر بالنسبة للارتباط الوثيق بين شبكات الأحرف و شبكات الأعداد، و كذلك ارتباط كلتا الشبكتين بشبكات المواضيع و شبكات الكلمات.

نظراً لشدة غنى و تطور تلك الشبكات، فإنه لا يمكن التعرف عليها و الخوض فيها إلا بالتدريج، و بنور من الله سبحانه جَلَّوَعَلَا.

خاصةً أنها تصير، بالنسبة لمن لا يستطيع استقراءها، أجوبةً على أسئلة لم يطرحها فلا يعلم قيمتها و لا يفهمها.

إذ إن معرفةَ تلك الشبكات، و الخوض فيها لتدبرها بنور من الله، إحدى الخطوات المتقدمة و الأساسية التي لا بد منها لتتفتح بها آفاق القرآن الكريم.

فيتدرج المتدبّر في طبقاته متجاوزاً طبقة الفهم الدنيا، إلى ما شاء جَلَّجَلَالُهُ الحي القيوم العلي العظيم.

فكيف لمن لم يؤتَ معطياتٍ استثنائية أن يفهم المغزى من طرح موضوع الإسراء و المعراج، ضمن شبكة المواضيع، في آيةٍ واحدةٍ تستفتح سورة الإسراء، لينقطع الموضوع تماماً، و لا يعود إلا بعد خمس و ثلاثين سورة، و ذلك في سورة النجم!

و كيف لمن لم يؤتَ معطيات استثنائية أن يفهم المغزى من طرح موضوع سجود الملائكة لآدم، ضمن شبكة المواضيع، سبع مرات: خمساً و اثنتين:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١١].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦١].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٦].



﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٨-٣١].

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٤].

و بإدخال شبكة الكلمات، أخذاً بقوله تعالى: ﴿ ...ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ...﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١١]، تصير الخمسة: ١ + ٤، لتصير السبعة: ٥ + ٢ = ١+ ٤ + ٢. و ليأخذ هذا المثال الشريف أبعاداً شاهقةً في علوها عند إدخال شبكة الأحرف و شبكة الأعداد.

فما أبعد ذلك في عظيم مدلولاته عما يبدو تكراراً لنفس المعلومة عبر صفحات القرآن الكريم.

و ما أبعد ذلك كله عمن ليس بعدُ مُخَوَّلاً للخوض فيه.

* * *

فلا بد إذاً من التدرج في تبيان بنية القرآن الكريم. و ذلك من خلال خصائص و أمثلة لتلك البنية، لا يتطلب فهمُها ما أشرنا إليه في الأسطر السابقة.

من جهة أخرى، فإن هذه الأمثلة ينبغي ألا تُنسي الآفاق الشاسعة التي أشرنا إليها، خاصةً أنها تنتمي إليها و تفتح أبوابها.

لذا، لا ينبغي النظر إلى التوضيحات المرافقة لتلك الأمثلة على أنها نهاية مطاف ما يُعْلَم عنها، بل على أنها نقاط انطلاق لا بد من الاستمرار فيها لاحقاً، و لكنها كافية بحد ذاتها في جولة استكشافية.

في جولتنا الاستكشافية تلك، يمكننا الابتداء بما يستوقف انتباه، أو حتى يُشْكِل على سواد من يطالع القرآن الكريم، أي:

نقلاتٍ مفاجئة من موضوع إلى آخر من غير مبرر أو تعليلٍ صريح أو جليٍّ لها في النص الشريف.

بذلك فسوف يكون انطلاق ما نعرضه، من شبكة المواضيع خاصة، غير متجاهلين الشبكات الأخرى.



إن تشرفنا بتناول سورة البقرة، متدرجين فيها، فسوف لن يخفى عنا لغز ﴿الٓمٓ ۝١﴾، و هو ينتمي إلى شبكات الأحرف، وبالضرورة إلى شبكة الأعداد.

ثم يطالعنا مقطع عن المؤمنين ضمن موضوع الهداية: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

ثم مقطع قصير عن الذين كفروا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ .

ثم مقطع عن فئة ثالثة، أطول بكثير من السابقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٦ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ .

إنَّ ذِكْر ثلاث فئات، أولى إيجابية و اثنتين سلبيَّتين ضمن الموضوع الشاسع للهداية ﴿...هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ... ۝٣ ... ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ... ۝٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾، يدعو من يتمتع بحدٍّ أدنى من الانتباه و الذاكرة الحاضرة إلى ربط ذلك كله بالسورة السابقة، أي الفاتحة. حيث إن الهداية هي ذروة الدعاء المتأجج الذي تتمحور عليه السورة، و حيث نجد فئات ثلاثاً أولى إيجابية و اثنتين سلبيَّتين: ﴿...ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ...ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ . يُفهم من ذلك أن ما ورد مختزلاً غاية الاختزال في الفاتحة، مفَصَّلٌ فيما سائر ما يليها من القرآن الكريم.

من جهة أخرى، بشيء من الانتباه، و بالأخذ بشبكة الكلمات، نلاحظ أنه يوجد عامل مشترك أساسي و جليّ في المقاطع الثلاثة السابقة، ألا و هو الإيمان:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ...﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ...﴿٤﴾﴾

٢ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

٣ - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ ...﴿١٠﴾ ...﴿١١﴾ ...﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

طالما أننا انتبهنا إلى الإيمان كعامل مشترك بين المقاطع الثلاثة، فإننا، و بشيء من التمعُّن، نلاحظ:

أن الإيمان كسِمَةٍ للفئة الأولى ورد بالإيجاب التام ﴿...يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ...﴿٣﴾ ... يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ...﴿٤﴾﴾.

بالنسبة للفئة الثانية، و بمقابلة الفئة الأولى، ورد الإيمان بالنفي التام ﴿...لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾﴾. و طالما أن نفيَ الإيمان ورد على الإطلاق، فلا حاجة لتفصيل.

أما سمة الفئة الثالثة فهي مركبة من ظاهر إيمان الفئة الأولى ﴿...يَقُولُ ءَامَنَّا ...﴿٨﴾﴾ و حقيقة الفئة الثانية ﴿...وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ ، أي إنهم بالحقيقة معهم، كما يؤكد على ذلك حقيقةُ حصراً ما قاله سبحانه عنهم مما نجده في شبكة الكلمات. فقد ورد في الفئة الثانية قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ...﴿٧﴾﴾، و في الفئة الثالثة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ...﴾. و قد ورد في الفئة الثانية قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٌ ...﴿٧﴾﴾، و في الفئة الثالثة: ﴿...ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ ...﴿١٨﴾ ...﴿١٩﴾ ...وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ ...﴿٢٠﴾﴾.

ازدواجية سمة الفئة الثالثة المركبة من ظاهر الفئة الأولى و حقيقة الفئة الثانية و ما في هذه الازدواجية من زيف، تتطلب مزيداً من التفصيل و التوضيح.

و من هنا الطول النسبي لهذا المقطع الذي يخصهم، و غناه بمعلومات غاية في الأهمية تدعو قارئها لمتابعتها عبر القرآن الكريم من خلال شبكات الكلمات و شبكات المواضيع، فلا بد من العودة إليها في الصفحات القادمة.



من أهم تلك المعلومات قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

هاتان الآيتان تفتحان موضوعاً يفوق التصور في أهميته، تدرجاً من أرض الواقع على الصعيد العالمي و عبر التاريخ، وصولاً إلى فهم الموضوع ذاته في طبقاته الحقيقية العليا.

أهمُّ ما في الآيتين السابقتين مما ينتمي إلى شبكات الكلمات، كلمة «ٱلْأَرْضِ» و التي ترد لأول مرة في ترتيب النص القرآني الشريف. و مما يلفت الانتباه هو ارتباط الورود الأول لهذه الكلمة بالإفساد خاصة، و ثانية بالإصلاح.

من بعد المقاطع الثلاثة عن الفئات الثلاث، يطالعنا مقطع من خمس آيات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

بقليل من التمعن نجد أن ذاك المقطع في غاية الترابط و الانسجام و **التكامل** مع ما سبقه، و بشكل جليّ من خلال شبكات الكلمات:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ...﴿٢١﴾ ﴾، حيث يتوجه الخطاب الإلهي إلى البشرية جمعاء، بما فيهم من يعتبرون أنفسهم فوق الناس، و الذين قال عنهم سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ...﴿٨﴾ ﴾. و كذلك: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ...﴿١٣﴾ ﴾.

- ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ...﴿٢٣﴾ ﴾، تعيد إلى أول السورة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾. هذا بغض النظر عما يفتحه قوله تعالى: ﴿...نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا...﴿٢٣﴾ ﴾ مثل قوله تعالى أول الكهف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾.

- ﴿ ...لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ...﴿٢٢﴾ ...﴿٢٣﴾ ...فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ...﴿٢٤﴾ ﴾ تتكامل مع قوله تعالى: ﴿ ...**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴿٢﴾ ﴾.



- ﴿...فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ...﴿٢٤﴾﴾ تتكامل مع: ﴿...وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ في حق الفئة الثانية، و: ﴿...وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ ...﴿١٠﴾﴾ في حق الفئة الثالثة. و كلتا الفئتين مجتمعتان في حقيقتهما، فهما في النار. لذلك، دُمِجتا في قوله تعالى: ﴿...أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

ولاكتمال الأمر، كان لا بد من ذكر الفئة الأولى و تبيان جزائها في الآخرة بقليل من التفصيل، إذ لم يرد شيء عن ذلك في حقها عند ذكرها أول السورة.

هذا من جهة، و من جهة أخرى و كما هو الحال عبر صفحات القرآن الكريم، فإنه سبحانه يتدارك قارئ كلماته كي لا ينظر إلى أمرٍ ما من زاوية واحدة. بل لا بد أن تتوازن تلك النظرة، فكما أنه سبحانه ذكَّرَ بالعذاب، فهو كذلك يُذكِّر و يُبشِّر برحمته و عطائه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴿٢٥﴾﴾ تُذكِّر بالضرورة و بالمقابلة التعاكسية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

من بعد المقطع السابق و ما رأينا فيه من ترابط و انسجام و **تكامل** مع ما سبقه من مقاطع، و مما يتجاوز بكثير الأمثلة التي عرضناها، يطالعنا مقطع على شكل مَثَلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أول ما نلاحظه في ذاك المقطع، و من غير أي مجهود، هو تمَحْوُر المثل حول الموضوع الشاسع للهداية الذي به ابتدأت السورة، كما هو جليّ في قوله تعالى: ﴿...يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا ...﴿٢٦﴾﴾.



إضافة إلى ذلك، و بقليل من الانتباه و بالحد الأدنى من حضور الذاكرة نلاحظ تعاقب الفئات الثلاث التي في المقاطع الثلاثة الأولى:

﴿...فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ...﴿٢٦﴾﴾.

إنْ تردد قارئ القرآن لحظةً في تشخيص الفئة الثالثة في قوله ﴿...ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾، فإن سبحانه يقطع على ذاك القارئ تردّدَه بدليل ﴿...ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ...﴿٢٧﴾﴾، مما يُعيده إلى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

بذلك، فإن المقطع الأخير في غاية الترابط و الانسجام مع كل ما سبقه.

و شأنه شأن المقطع السابق له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ...﴿٢١﴾...﴿٢٢﴾...﴿٢٣﴾...﴿٢٤﴾...﴿٢٥﴾﴾، فهو يرسِّخ في ذهن قارئ القرآن كل ما سبقه من النص الشريف و يكمّله تدريجيّاً بمعطيات جديدة ضرورية، مثل تلك التي وردت فيه عن الفئة الثالثة: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ ...﴿٢٧﴾﴾.

❊ ❊ ❊

الآيات السابقة منذ بداية السورة أبعد ما تكون عن الرتابة، بل هي درامية من حيث التقابلات الحادة و المتتالية فيها، و خاصةً من حيث كل ما ورد فيها مما وقفنا عنده.

هذه البنية الدرامية و المتعلقة خاصة بالمصير الأبدي للبشرية، جُعِلت لتثير عند أيّ قارئ لهذه الآيات يتمتع بفطرة سليمة تجعله يؤمن بالله، و ذلك بِغَضِّ النظر عن ملَّته، حَيرةً تجاه الذين تجنح نفوسهم إلى الكفر، فيتساءل كيف يصلون إلى هذا المَوصل.

تَحَرُّك هذا التساؤل عند قارئ سليم الفطرة هو تماماً ما يريده سبحانه.



لذا فهو يؤيّده في سؤاله، كما أنه سبحانه يتدارك الذي تأخر عن التفاعل مع الآيات السابقة، فيثير السؤال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

بعد إذ طُرِح ذلك السؤال، يستوقف قارئَ القرآن بدل الجواب عليه، انتقالٌ مفاجئ إلى موضوع آخر مختلف جذرياً:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

من الطبيعي أن يتساءل أيُّ قارئ للقرآن:

«هل ثمة علاقة بين المقاطع السابقة التي وقفنا عندها، و بين هذا المقطع الذي هو أول ذكر لسيدنا آدم في ترتيب النص القرآني الشريف؟».

أو «هل ثمة معنى لهذه النقلة؟ و هل ثمة رسالة؟».

فلا بد له من وقفةِ تأمُّلٍ يستجمع فيها ذاكرته و حسَّه، لينظر في ذلك المقطع من غير استعجال في الحكم، و بتجرُّدٍ تام عن آرائه و مكتسباته.

أول ما ينبغي أن يسترعي انتباه قارئٍ يتمتع بحسٍّ سليم و مرهف، بحيث يتصاعد و يتأجج توترُ حسّه تباعاً لأهمية ما يقرأ، هو تتابعٌ و تكاملٌ في معلوماتٍ غاية في الأهمية عن خالقه و ربه سبحانه جَلَّ وَعَلَا. و ذلك آخرَ مقطع السؤال ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ... ﴿٢٨﴾ ... ﴿٢٩﴾﴾ ، و عبر المقطع عن سيدنا آدم:

فقد انتهى مقطع السؤال، بقوله تعالى عن ذاته سبحانه: ﴿...وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾، معرِّفاً بالشمولية المطلقة لعلمه. و يستمر الكلام الإلهي بهذا الصدد في المقطع عن سيدنا آدم، عندما يعرِّفنا سبحانه بمجالٍ من علمه مشمول بالآية ٢٩: ﴿...إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠﴾. ثم بمجالٍ آخر مشمول بالآيتين ٢٩ و ٣٠: ﴿...إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...۝٣٣﴾، ثم آخر مشمول بالآية ٢٩: ﴿...وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٣٣﴾.

هذا يدل على وجود ارتباط وثيق و تكامل بين مقطع السؤال و مقطع سيدنا آدم.

إذ إنّ تلك المعلومات عن العلم الإلهي تقطع و بجلاء أنّ سؤاله سبحانه ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ ...۝٢٨﴾ ليس استفساراً و لا تعبيراً عن حَيرة، بل هزّ للنفوس و العقول رحمةً و هدايةً من الذي هو بكل شيء عليم و الذي هو أعلم بما يبديه خلقه و يكتمون.

ولا يقف الأمر عند تلك الملاحظة الأولى.

إذ إنّ ثاني ما يسترعي انتباه قارئ يتمتع بحد أدنى من الذاكرة الحاضرة، في المقطع عن سيدنا آدم، هو ورود كلمة «ٱلۡأَرۡضِ» في الآية الأولى منه و ارتباطها بفكرة الإفساد: ﴿...فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ...۝٣٠﴾.

هذا مما يعيده إلى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١﴾، فيلاحظ أن:

- أول ورود لكلمة «ٱلۡأَرۡضِ» في النص الشريف كان سلبياً لاقترانه بفكرة الإفساد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١﴾، سلب مقرون بعمل الخلق.
- ثاني ورود لكلمة «ٱلۡأَرۡضِ» كان إيجابياً: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ...۝٢٢﴾، إيجاب مقرون بعطاء الخالق.
- ثالث ورود لكلمة «ٱلۡأَرۡضِ» كان سلبياً لاقترانه بفكرة الإفساد: ﴿...وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ...۝٢٧﴾، سلب مقرون بعمل الخلق.
- رابع ورود لكلمة «ٱلۡأَرۡضِ» كان إيجابياً: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٢٩﴾، إيجاب مقرون بعطاء الخالق.

هذا التناوب: ١، ٣ سلبي، ٢، ٤ إيجابي، يبعد فكر القارئ من احتمال الصدفة إلى ترجيح النظام.

ترجيح النظام يؤيده ما ينبغي على القارئ أن يلاحظه في شبكة الكلمات، و ذلك عند الانتباه



إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ...﴿٢٢﴾ ﴾، حيث تلفت كلمة «ٱلسَّمَآءِ» الانتباه بقوة كونها متبوعة في المرتين بكلمة تؤكد عليها بقوة بما فيها من تناغم صوتي بألفها الممدودة المتبوعة بهمز. و هي تلفت نظرَ ـ خاصةً ـ من اعتاد ورودَها مراراً في النص الشريف بصيغة الجمع و مقرونة بكلمة «ٱلۡأَرۡضِ»: «ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ». فيلاحظ أن كلمة «ٱلسَّمَآءِ» وردت مفردة و مستقلة أربعاً مثل كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ ...﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ...﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ...﴿٢٩﴾ ﴾.

ثم في المرة الخامسة بالذات ترد كلمة «ٱلسَّمَآءِ» بالجمع عند تحولها إلى سبع، وما في ذلك من إشارة إلى علوم عظيمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾. و هذا يسبق تماماً خامس ذكر للأرض: ﴿ ...فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ ... ﴿٣٠﴾ ﴾، ليذكّر ذلك قارئَ القرآن، بالتناوب السابق: ١، ٣ سلبي من عمل الخلق، ٢، ٤ إيجابي من عطاء الخالق. ليستنتج أن تلك الخامسة ينبغي أن تكون سلبية من عمل الخلق تماشياً مع سابقتيها ١، ٣. فيؤكد له ذلك قولُ الملائكة عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ: ﴿ ...أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ...﴿٣٠﴾ ﴾. ولكنه، و بقليل من التمعن، يلاحظ أن ذلك الورود الخامس لكلمة «ٱلۡأَرۡضِ»، هو كذلك و بنفس القدر، إيجابي من عطاء الخالق: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ...﴿٣٠﴾ ﴾، فيستنتج أن الورود الخامس لكلمة «ٱلۡأَرۡضِ» نقطة تحوُّل، تماماً كما هو بالنسبة لكلمة «السماء».

فلا يجد القارئ نفسه إلا مدفوعاً لتقصي ذاك التوازي و التوازن بين عدد ورود تلكما الكلمتين فيما يلي في النص الشريف.

فيجد أنهما بعد إذ وردت كل واحدة منهما على حدة خمس مرات، فإنهما تردان في السادسة، كاليوم السادس من اكتمال الخليقة، معاً: ﴿ ...قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴿٣٣﴾ ﴾، و ذلك، تحديداً في معرض الكلام عن العلم الإلهي في المقطع الذي نحن بصدده عن سيدنا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

بهذا الحد الأدنى الذي رأيناه في تلكما الكلمتين و عن العلم الإلهي، نكون قد حصلنا على أول جوابٍ على التساؤلات عن النقلة الفجائية في النص الشريف إلى قصة سيدنا آدم. فيتأكد لنا الارتباط الوثيق و الاستثنائي بين هذا المقطع عن سيدنا آدم، و بين **كل** ما سبقه.

هذا ما يدعونا إلى إعادة النظر، تعمقاً، في كلّ ما سبقه لفهم علاقة الترابط، أي لفهم المغزى و الرسالة من ورود هذه القصة في هذا المكان تحديداً من النص الشريف.

لعلّ أهم ما يمكن ملاحظته في كلّ ما ورد منذ أول السورة مما سبق مقطع سيدنا آدم، أنّه غير مُعَيَّن زمنياً. أي إنه يمكن أن يكون أيام التنزيل، أو ألف سنة بعده، أو الآن. أي إنه نظرة شمولية تعبِّر عن واقعٍ سائرٍ في الزمان و منتشرٍ في المكان.

بالمقابل، فإن مقطع سيدنا آدم يتميَّز بقوةٍ عما سبقه بشدة تحديده كحدث واحد، لم يتكرر، أي و بالضرورة مُعيَّنٍ في الزمان و المكان.

الانطباع المتحصّل من تلك المقابلة هو الإحساسُ العنيف الذي يشعر به من يطفو على زمنٍ مفتوح نحو المستقبل، عندما يعود فجأة إلى ماضٍ سحيق.

بذلك، و أخذاً بكلّ ما ورد من أول السورة الشريفة من طرحٍ إلهي لفتح الموضوع و لتحضير قارئ القرآن، لإيصاله بعد التفكُّر في مواقف الفئات الثلاث إلى سؤالِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...﴿٢٨﴾ ﴾، فإنه جليٌّ أنّ مقطع سيدنا آدم، و خاصةً ما فيه من عودةٍ إلى ماضٍ سحيق، ما هو إلا الجواب على السؤال!

و ذلك بالعودة إلى نقطة البداية حيث أصل المشكلة.

العودة إلى نقطة البداية لفهم مسألة أو مشكلة من جذورها و منطلقاتها، بالنسبة لأي عاقل، من ألف باء و أسس التفكير السليم.

طالما أن ما نحن بصدده هو تبيان **بنية** النص القرآني الشريف بمثال، و ليس تفسيراً، فلا مجال للوقوف عند بحور ما في تلك الآيات، بل لا بدّ من الإجمال و الاختزال الشديدين لتبيان الجواب الذي يقدّمه هذا المقطع بالعودة إلى أصل المشكلة، ثم تجاوز ذاك المقطع قليلاً للمتابعة بالقدر الكافي في تبيان تلك البنية.

أول ما يستوقفنا في ذاك المقطع هو معلومة جوهرية، و كذلك استثنائية لعدم وجودها في «الكتاب المقدس» بعهديه القديم و الجديد، كما هو معروف منذ قرون. و هي حوار، فيه الكثير من الغموض، بينه تعالى وبين الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٣٠﴾ ﴾.



هذه المعلومة الجوهرية تعبّر عن الهيمنة الإلهية المطلقة، من حيث أنّ ما جرى لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من إغواء و طرد من الجنة و هبوط على الأرض، لم يكن حادثاً خارجاً عن الترتيب الإلهي طرأ فغيَّر مجرى الأمور، كما نجد في «سفر التكوين»، بل قراراً إلهياً سابقاً لكلّ تلك الأحداث.

هذا مما يدعو إلى إعادة النظر في كل التصوّرات عما جرى لسيدنا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المشوبة بالمؤثّرات التوراتية؛ مما يتطلب علماً عالياً لفهم و توظيف المعطيات القرآنية الاستثنائية المرتبطة فيه. أقلُّ ما في ذاك العلم مراجعة جذرية لمفهوم كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾.

لن نقف عند تلك النقطة، لأننا لسنا بصدد التفسير، بل تبيان بنية النص القرآني الشريف.

ولكننا ندعو القارئ للوقوف ثانية عند أول ما يطالعنا في مقطع سيدنا آدم، و الذي، و بشكلٍ لافت للنظر، يبدأ بذكرٍ للملائكة و يستمر في ذلك الذكر إلى ما يزيد على نصف ذاك المقطع.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ...﴿٣٠﴾﴾، تتميز تلك البداية بجميع كلماتها التي ترد، بشكلها هذا « وَإِذْ »، « قَالَ »، «رَبُّكَ »، « لِلْمَلَٰٓئِكَةِ »، لأول مرة في ترتيب النص الشريف.

هذه الكلمات تعطي من خلال شبكة الأحرف و علاقاتها بشبكة الأعداد معلومة عددية استثنائية، تربطها مباشرة بما أشرنا إليه بصدد خامس ذكر للسماء عندما تصير سبع سموات ﴿...فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ...﴿٢٩﴾﴾...

- أولى تلك الكلمات «وَإِذْ »، بواو عطفها التي تسبق «إذ»، تركيبة قرآنية صرفة لا وجود لها في كلام العرب. إذ، ما أعجب ابتداء موضوع جديد لا علاقة ظاهرية تربطه بسابقه، بصيغة «وَإِذْ »، مثل قوله تعالى من الكهف: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

هذه الـ «وَإِذْ » ترد للمرة الثانية من ترتيب النص القرآني في المقطع الذي نحن بصدده: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾. وهي ترد كذلك، تماماً قبل ذكر سيدنا موسى في سورة الكهف: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.



- كذلك الأمر، بالنسبة لعبارة «جَاعِلٌ» من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...(٣٠)﴾، فهي ترد لأول مرة بشكلها هذا في ترتيب النص القرآني الشريف.

و لن ترد بشكلها هذا إلا مرة واحدةً غنية عن التعليق في أول سورة فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ...(١)﴾، لترتبط ثانية بالملائكة، و بما رأيناه من علاقة الخمسة بالسبعة في قوله تعالى: ﴿...فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ...(٢٩)﴾.

- كلمة «خَلِيفَةً» ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...(٣٠)﴾، لن ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، و ذلك في سورة ص، و بصيغة ما أشبهها بنظيرتها في سورة البقرة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ...(٢٦)﴾.

ما يلي ذلك البلاغ الإلهي، فصلٌ في المقصود من كلمة «خَلِيفَةً» في كلا الشاهدين الشريفين: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ

فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ...(٢٦)﴾. فإن كلمة «فَٱحْكُم»، بفائها، تقطع أن المقصد من كلمة «خَلِيفَةً» ليس الخلائف، وإنما الوظيفة.

مما يزيد و يؤكد من شدة الترابط بين الشاهدين الوحيدين حيث ترد كلمة «خَلِيفَةً» عناصرُ كثيرة مشتركة، أكثرها جلاءً عنصر الإفساد في الأرض ومقابلته بالإصلاح: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (٢٨)﴾.

هذه الوقفة عند الكلمات الأولى من المقطع الذي نحن بصدده عن سيدنا آدم، لفتٌ للنظر إلى الأهمية البالغة لكل واحدة منها.

فهي أبعد ما تكون عن مجرد كلمات ضرورية لسرد قصة، بل إنها كلمات أساسية في شبكة الكلمات و حتى في شبكة الأحرف و الأعداد. فهي تفتح بإذنٍ من الله و نورٍ منه لمتدبِّرها آفاقاً عظيمةً مكنونة في القرآن الكريم.



من جهة أخرى، و خلافاً لما يتوقعه قارئ القرآن، و خلافاً لتسلسل ما ورد في «سفر التكوين»، فإن ما يميِّز أول ذكر لسيدنا آدم في القرآن الكريم هو عدم التعرض من قريب و لا من بعيد إلى خلقه من تراب أو طين.

أي إن تلك النقطة ثانوية بالنسبة لأخرى أساسية:

مسألة الخلافة كوظيفة، و طرحها ضمن إطارٍ يؤكد تأكيداً شديداً على العلم.

فقد وردت، و بشكل عظيم في مدلولاته، **تسعة** اشتقاقات لجذر **واحد** هو جذر «علم»، و ذلك في **خمس** آيات متلاحقة، من ٢٩ إلى ٣٣.

﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

و هكذا ارتبط **أول** ذكر لسيدنا آدم، في القرآن، بالعلم ارتباطاً وثيقاً. إذ نجده تالياً مباشرة لفعل «علَّم» ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ...﴿٣١﴾ ﴾.

فأي تعليمٍ! إذ المعلِّم سبحانه، الذي ﴿ ... **هُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٢٩﴾ ﴾!

و أي علمٍ! فالعلم هو علم الذي قال للملائكة: ﴿ ...إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾!

هذا الارتباط بين العلم الإلهي و **أول** ذكرٍ لسيدنا آدم، يتماشى و يتكامل مع **أول** ما نزل من القرآن الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ٩٦/ ١-٥].

و في كِلا الشاهدين من سورتي البقرة و العلق، ليس العلم أي علم، بل حصراً علم رب العالمين و خالق كل شيء! ﴿ ...**وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٢٩﴾ ...قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ...﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ...إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فما أبعد العلم الذي علَّمَه سبحانه آدمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عن مجرد إعطاء أسماء للموجودات، و ذلك كما يتبيَّن من قراءةٍ متأنِّية للآيات الكريمة.

مما سبق، نستطيع أن تستنتج أنه سبحانه يريد لقارئ القرآن أن يعْلَم ضرورة التركيز على الأولويات في سلّم الأهمية في تناوله للموضوع.

لذا، فلم يرتبط أول ذكر لسيدنا آدم بخلقه من تراب. بل، و بشكلٍ عظيم المدلول، بأول ذكر للملائكة و بعظمة وظيفة الخليفة.

و بناءً على منطقٍ مُحْكَم، و لما تقتضيه هذه الوظيفة بالضرورة من مؤهِّلات و أسباب، فقد ارتبط أول ذكرٍ لسيدنا آدم بعظمة ما علَّمه سبحانه.

ولا يقف الأمر عند ذلك، بل يستمر مباشرة في تسلسل الآيات، بما يتناسب و عظمة النقطتين السابقتين بأمر عظيمٍ ثالث كنتيجة حتمية للأمرين الأول و الثاني خاصة، و ذلك في معلومة استثنائية ذات شقَّين، غابت و لم تترك أثراً في «سفر التكوين»، وردت في القرآن ٥ + ٢ = ١ + ٤ + ٢ = ٧ مرات:

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ ...﴿٣٤﴾ ﴾.

في الشق الثاني من هذه المعلومة الاستثنائية، يظهر لنا بجلاء **أصل مشكلة الكفر**: ﴿ ...فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾، كَرَدَّة فعل معاكسة تجاه العظمة التي ذكرناها.

إذاً، قرار إلهيّ: ﴿ ...إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ...﴿٣٠﴾ ﴾.

الأسباب الضرورية له: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ...﴿٣١﴾ ﴾.

إظهار لمفعول ذلك العطاء الإلهي: ﴿ ...قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ... ﴿٣٤﴾ ﴾.

ردة الفعل: ﴿ ...إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

هذه الآية الكريمة الأخيرة، و كما أشرنا في أوائل هذا النص، تنتمي إلى مجموعة من سبع آيات. أي أنه لا بد من أخذ تلك الآيات السبع كلها بعين الاعتبار للشروع بفهم المقصد الإلهي.

و هذا من صميم بنية القرآن الكريم. بنيةٌ تفسح المجال للذي يتعامل معها أن يدخل في الموضوع و يتحرك فيه ليراه رؤية كاملة متكاملة من كل جوانبه.

و إضافة إلى ذلك، مما هو بالغ الأهمية، عدم فصل الموضوع عما يحيط به مما يحويه أو يتصل به، بل عرض علاقة الموضوع بما يحيط به من عدة زوايا. كما يكون الأمر، و على سبيل المثال، بالنسبة لمبنى. إذ لا يكفي مخطط مسقط أرضي لفهمٍ صحيح لهذا المبنى. إن حصل المرء إضافةً إلى المسقط على مخطط مقطع للمبنى، فإنه يتقدم في فهمه لذلك المبنى. و المسقط الواحد و المقطع الواحد لا يكفيان، فلا بد من عدة مساقط و مقاطع. و هذا لا يكفي لتكتمل الصورة، فلا بد من مخطط إنشائي، و لا بد من منظور خارجي و داخلي و من عدة زوايا. و لا بد من النظر إلى ما يحيط بالمبنى. و بالنهاية لن تكتمل الصورة إلا بزيارة فعلية للمنطقة المحيطة بالمبنى، و للمبنى بحد ذاته، و التجول فيه للإحساس بجماليات الفراغ فيه، و لإدراك مدى تأديته لوظيفته.

الأخذ بتلك الآيات السبع و ما يحيط بها تدبراً، يفتح المجال لفهم أصل إشكالية الكفر و آليَّته.
ولا يحصل ذلك إلا بالتدريج.

و في ذلك خاصِّية أساسية في القرآن الكريم، حيث لا جدوى من لصق معلومة مهما كانت عظيمة على عيوب عقل جامد. بل لا بد من رفع لياقات ذلك العقل بتدريبٍ واقعي، ليصير أهلاً لتلقي و تدبُّر و فهم تلك المعلومة.

عندما يكتشف قارئٌ للقرآن، قرَّرَ التعرف عليه من أوله إلى آخره، قولَه تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فإنه يظن، أن إبليس كان ملَكاً، كما يُفهم من ظاهر الآية، طالما أن الأمر الإلهيّ موجَّه إلى الملائكة.

إن تابع سيره في القرآن الكريم، فسوف يترسّخ ظنه بناءً على ما يفهمه من ظاهر الشاهد الثاني و الثالث و الرابع حيث أمْرُ الملائكة بالسجود: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١١]. ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٨-٣١]. ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦١].

ثم يكتشف وهو يتابع سيره في شاهدٍ خامس: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ من الكهف، أنه تسرع في الحكم على المسألة، إذ لم يأخذ بعين الاعتبار سائر المعطيات المتعلقة في هذا الأمر.

و هذا بحدّ ذاته درس عظيم في ضرورته و نتائجه.

إذ ما أكثر المواقف و القرارات و الأعمال الفاشلة، لأنها بُنِيَت على استعجال، و خاصة على عدم الأخذ بعين الاعتبار **لسائر** المعطيات المتعلقة بها.

و في هذه الحالة كذلك، درس آخر أساسي. إذ إن تلك الآيات السبع تدرّب متدبّرها على **التراجع** عن قناعةٍ لا أساس لها ترسخت في عقله.

إذ ما أصعب أن يتراجع المرء عن رأيه أو قناعته، خاصة إن كان ممن يعتبر نفسه ذكياً و ممن اعتاد البتّ السريع في الأمور لذكائه، فما بال الحمقى!

إن كان التراجع صعباً، عن قناعة تشكلت انطلاقاً مما يُفْهم من ظاهر أربعة شواهد متلاحقة، و ذلك، أمام شاهد خامس يقع في منتصف كتلة النص القرآني الشريف، فكيف تكون الصعوبة في التراجع عند شاهدين سادسٍ و سابعٍ يثيران ثانية القناعة الأولى!: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾ [طه: ٢٠/١١٦]. ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص: ٣٧/ ٧٤].

ليس هذا إلا ترسيخاً لتدريب التراجع عن القناعة أو الفهم الخطأ.

و هو خاصة دفعٌ لقارئ القرآن لاستخلاص درس آخر:

فقد أخطأ إذ اعتمد لتحديد ماهية إبليس شواهدَ، رغم تعددها، ليس شأنها ولا هدفها التعرُّض صراحة لتلك الماهية.

و أمام ذلك التعدد، تردَّدَ في اعتماد الشاهد الوحيد و الصريح المعنِيّ بهذه الماهية. فالعبرة ليست في التعدُّد، بل في الفحوى.

بهذا، يتعلم قارئ القرآن على البحث عن فحوى الآية و أهدافها، قبل أن يتسرّع بإسقاط فهمه عليها.

و قد اعتمد قارئ القرآن الشاهد الخامس من سورة الكهف لتحديد ماهية إبليس، فإنه بنور هذه الآية يفهم الفارق الجذري و الجليَّ بين الشاهدين المتلاحقين الثاني و الثالث: ﴿...إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١١]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٣١].

هذا كله قد يثير تساؤلاً: «تلك الآليات في بنية القرآن الكريم و التي رأيناها في مثال الآيات السبع، أليست إرباكاً لقارئ القرآن؟».

هل يعترض من هو أحوج ما يكون للدفاع عن نفسه، على مدربه في رياضات الدفاع الذاتي: «لِمَ تهجُم عليَّ كل مرة بطريقة مختلفة؟ إنك تربكني!»؟

فما أحوج الإنسان إلى تطوير محاكمته للأمور، ليرى بجلاء عدواً متبدِّلاً و ضبابيّاً و ملبساً، فلا يلتبس الأمر عليه و لا يرتبك عند الحاجة إلى ضبط الأعصاب و العزم.

إذ اللافت للنظر في آيات أمر السجود السبع، و بالمقابلة مع ثبات المقطع المتعلق بالملائكة عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ...﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤].

﴿...ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ...﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١١].

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ...﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦١].

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ...﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠].

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ...﴿١١٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٦].

﴿...فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٩-٣٠].

﴿...فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧٣].

التبدل في المقطع الذي يلي اسم إبليس:

﴿...فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤].

﴿...فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١١].

﴿...فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦١].

﴿...فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ...﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠].

﴿...فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٦].

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٠-٣١].

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٣-٧٤].

بعد إذ عاد سبحانه بقارئ القرآن إلى نقطة البداية لفهم المسألة من جذورها و منطلقاتها، و تكرَّم عليه بمعلومةٍ جوهريةٍ لا وجود لها إلا في القرآن الكريم: ﴿...فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤]، و يسَّر له معرفة تفصيلها، بأن جعلها في شاهدين من السبعة: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧]، و ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٩-٤٠].

فلا يجد قارئ القرآن نفسه إلا و يكتشف حقيقة ذلك الأمر في الشواهد السبعة ذاتها، ليعلم سبب إباء و استكبار و كفر إبليس.

فيجد الجواب ساطعاً في الشاهدين الثاني و السابع، و ذلك في استنطاقه سبحانه لإبليس، إذ كان جواب إبليس في الشاهدين متطابقاً:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ

أَنَا۠

خَيْرٌ مِّنْهُ

خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢].

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ

أَنَا۠

خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ

خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦].

«أَنَا۠»! هذه الكلمة لوحدها تكفي لتبيان أصل الكفر.

فما بال هذه الكلمة، عندما تصدر من مخلوق في حضرة الخالق العليّ العظيم جَلَّجَلَالُهُ!

فأي عمىً في البصيرة و غياب للوعي عندما يبدأ مخلوق كلامه بـ «أَنَا۠» في حضرة خالقه العلي العظيم جواباً على سؤاله!

فقد تصدَّر سبحانه كلام ملائكته عندما قالوا: ﴿...أَتَجْعَلُ ...﴿٣٠﴾﴾، ثم تعرَّضوا لأنفسهم: ﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ...﴿٣٠﴾﴾. و كذلك، فقد تصدَّر سبحانه كلام ملائكته على أنفسهم عندما قالوا: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ...﴿٣٢﴾﴾. و كذلك، فقد تصدَّر سبحانه كلام ملائكته على أنفسهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٠-٤١].

و أي عمىً في البصيرة عندما تقال «أَنَاْ» بعد تذكرة ﴿...مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ...﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧٥]، و اليدان يدا الذي ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٧].

و أي عمىً في البصيرة عندما تقال بعد تذكرة ﴿...أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧٥] الممنوحة كفرصة ذهبية للتراجع عن الخطأ.

طغيانُ الـ «أَنَاْ» على الوعي خللٌ بالغ في معايير القيم، و ما في ذلك من عواقب وخيمة. إذ إن سلامة معايير القيم من ضرورات سلامة المحاكمة و القرار في تحديد الأولويّات.

طغيانُ الـ «أَنَاْ» على الوعي انقطاع عن حقيقة و عظمة و نور شمول المرجعية الإلهية، من أجل غوصٍ مُهْلِكٍ في ضيقِ و قصور المرجعية الذاتية.

﴿...خَيْرٌ مِّنْهُ ...﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦] نتيجة منطقية و حتمية لطغيانِ الـ «أَنَاْ» على الوعي، و ما يترتب على ذلك من اختلال بالغ في معايير القيم.

﴿...خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦]، هذه المقولة تبيِّن إلى أي حد من السفه و الحمق يوصل طغيانُ الـ «أَنَاْ» على الوعي.

إذ، أصلاً، أيُّ سُفْهٍ و حمق أن يُعْلِمَ مخلوقٌ خالقه العليم الحكيم فضلَ خلقٍ على آخر. فأي سفه و حمقٍ التمادي أكثر من ذلك و تبيان الفضل المزعوم للنار على الطين لخالق النار و الطين، و الأكثر من ذلك مع الاعتراف به خالقاً للنار و الطين!



هذا كله، و بقليل من التمعن و النظر، يذكّر كثيراً بالفئة الثالثة من أول سورة البقرة، و خاصة من هو على اطلاع بحقيقة أمر و مذهب أئمّتهم، فيعلم مدى طغيانُ الـ«أَنَاْ» على وعيهم بتعظيم أنفسهم، مما يعمي بصيرتهم عن الفرصة الإلهية الذهبية المعروضة عليهم للتراجع عن خطئهم. و يعلم مدى تكبرهم على من سواهم، و يعلم مدى السفه و الحمق في المنطق الأخرق الذي على أساسه يتعاملون مع خالقهم. فما أقرب مقولة: «خَيْرٌ مِّنْهُ» من مقولة: ﴿...أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ...﴿١٣﴾﴾، و من مقولة: ﴿...إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾. ﴿...وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾، فالطيور على أشكالها تقع.

***

و قد تابع قارئ القرآن أمر السجود في الشواهد السبعة، فإنه يجد أن سبحانه أورد مُيسِّراً معلومات أساسية و جوهرية عن سيدنا آدم في الشواهد السبعة نفسها، و كل مرة بما يتناسب مع الآيات المحيطة بها و موضوع السورة.

بالعودة إلى سورة البقرة، و من بعد آية أمر السجود، تستمر قصة سيدنا آدم باختصار شديد، و ذلك للتركيز على أساسياتها بما يتناسب مع الموضوع المطروح في السورة و أهدافه:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ

وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا

وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ

فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا

فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾



فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

أهم ما في تلك الآيات الثلاث الكريمة، الآيةُ الأخيرة.

فهي تحوي معلومةً جوهرية عما جرى لسيدنا آدم، لن تعود في القرآن ثانية ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ ... ﴾.

و لأنها تستفتح موضوع التوبة، التي ينغلق بابها عند أشراط الساعة الكبرى.

فما أبلغ أن يلي هذه الآية مباشرة قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾، و ما فيه من إشارةٍ إلى آخر الزمان و أشراط الساعة الكبرى، التي منها نزول سيدنا عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. و الذي مَثَله عند الله كمثل آدم. أول نبي يكون في الأرض و آخر نبي فيها، و كلاهما ذُكِرا اسماً في القرآن الكريم خمساً و عشرين مرة، عدد أسماء الأنبياء المذكورين فيه.

❋ ❋ ❋

بعد انتهاء شاهد سيدنا آدم من سورة البقرة، و ما في هذا الشاهد من مفاتيح و آفاق، يطالعنا قوله تعالى: ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

اللافت للنظر، و مما يثير التساؤل، هوقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا ... ﴿٣٨﴾ ﴾، و الذي يبدو لأول وهلة محض تكرار.

الواقع أن الورود الأول لهذه المقولة، كان ضمن سرد أحداث قصة سيدنا آدم في تسلسلها الزمني، كما يشهد على ذلك واو العطف و فاء الاستئناف:

﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ

وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا

وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ

فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا

فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ

وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ



بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

في حين أن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ... ﴿٣٨﴾﴾ ليس ضمن سرد التسلسل الزمني السابق، بل تذكرة إلهية خارج ذاك الزمن، موجَّهة لقارئ القرآن خاصةً، و للثقلين عموماً.

تذكرة إلهية رهيبة، إذ هي أمر الطرد من الجنة!

إضافة إلى ذلك، فإنها بمقابلتها بسابقتها تُبرز معلومة جوهرية فيها: ﴿...وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾، إذ إن تلك الكلمة هي كلمة الانطلاق للموضوع الهام المتعلق بها، و ذلك من خلال عمق و حقيقة الطرح القرآني.

هذه التذكرة الإلهية الرهيبة بأمر الطرد من الجنة، جُعلت أول الآية لتقدِّم ما يليها، أي مسيرة المعنيين بالخطاب، من لحظة الطرد إلى نهاية تلك المسيرة:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

كلمة «هُدًى» تُعيد أيَّ لبيبٍ ذي ذاكرة حاضرة إلى الموضوع الشاسع للهداية الذي بدأ في الفاتحة، والذي يستفتح سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

هذا مما يُذَكِّر بالضرورة بالفئة الأولى، ليجد قارئ القرآن نفسه أمامهم في ما يلي ذكر الهداية مباشرةً: ﴿... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾، مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

و قد وجد الفئة الأولى، فإنه يتوقع، بناءً على الحالات المماثلة في الآيات السابقة، ورود الفئة الثانية. فيَصُحُّ توقعه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

فلا يبقى له إلا أن يطالعه كلام عن الفئة الثالثة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾!



إنّ شكَّ قارئ القرآن أن الكلام عن الفئة الثالثة، فسوف يجد في هذا المقطع، الاستثنائي في طوله، من الآية ٤٠ إلى الآية ١٢٣، جميع المعطيات المرتبطة بهم في الشواهد السابقة:

ـ مسألة العهد مثلاً، التي نجدها مباشرةً في هذه الآية ﴿...وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ...﴿٤٠﴾﴾، و التي سترد كذلك ثانيةً في: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ...﴿٨٠﴾﴾، و ثالثةً في: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، وردت سابقاً في حقهم آخِرَ مثالِ البعوضة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

مسألة العهد تلك، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكلمة الميثاق، كما في الآية السابقة. و كما هو الحال في آياتٍ من ذاك المقطع الطويل، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، و قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

مسألة العهد و الميثاق، مسألةٌ في غاية الأهمية، و خاصةً بالنسبة لأهل الكتاب.

إذ ما «الكتاب المقدس»؟ سوى «العهد القديم» و «العهد الجديد»! العهد القديم، أي كل ما قبل سيدنا عيسى، و العهد الجديد: انطلاقاً منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

كذا الأمر بالنسبة لكلمة «الميثاق»، و التي صارت في اللغات الغربية: «Alliance»، و هي بالغة الأهمية بالنسبة لأهل الكتاب، و اليهود خاصةً، كما هو معلوم بالنسبة لمن هو مطلّعٌ على أمورهم.

– فكرة الشراء التي ترد مباشرةً في الآية التالية لقوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ ...﴿٤٠﴾﴾ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾، و التي سترد كذلك بعد آيات من ذلك المقطع الطويل و المتواصل بحقّهم، في ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ...﴿٧٩﴾﴾، و في ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾، و في ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا ...﴿٩٠﴾﴾، و في ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى



ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ...وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾.

فقد وردت سابقاً في حقهم في أول ذكر لهم الذي يبتدئ بـ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴿٨﴾﴾، و ذلك في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

- و خاصة فكرة الإفساد، التي هي أكثر ما يلفت النظر من السمات التي تميز تلك الفئة الثالثة، و التي رأيناها في أول و ثاني ذكر لهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، و ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾، نجدها في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

و الأكثر من ذلك، يكتشف قارئ القرآن في عناصر المَثَلين اللذَيْن ضربهما سبحانه مباشرة بعد أول ذكر للفئة الثالثة، تلميحات قوية إلى أهمِّ ما جرى لهم:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

اللافت للنظر في المثال الأول: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ ...﴿١٧﴾﴾ خروجُه عن متوقع المنطق المألوف. إذ إن الكلام، أول ذلك المثل، عن الذي استوقد ناراً، يقتضي بحسب ذاك المنطق أن تكون نتائجه بالشكل التالي: «مثلهم كمثل الذي (مفرد) استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله (مفرد) ذهب الله بنوره (مفرد) و تركه (مفرد) ...». أو: «مثلهم كمثل الذين استوقدوا ناراً فلما أضاءت ما حولهم ذهب الله بنورهم و تركهم...»! أي إن التمييز بين الذي استوقد ناراً و الذين ذهب الله بنورهم و تركهم في الظلمات، تمييزٌ قاطع. بذلك يصير المثل تلميحاً للنار التي قال عنها سيدنا موسى: ﴿ ...إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم

بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/٧]. و الضياء ضياء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٨].

أما المثال الثاني، فهو في قوله تعالى: ﴿ ... يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ... ﴿١٩﴾ ﴾، تلميحٌ قوي إلى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ من المقطع الطويل الذي نحن بصدده.

بذلك ينقطع الشك باليقين، و يتأكد لقارئ القرآن أنه حقاً أمام مقطعٍ عن الفئة الثالثة.

فليس له إلا تدبُّر ذلك المقطع الاستثنائي في طوله و في غنى معلوماته و في معانيها بحد ذاتها، و في معاني ترتيبها و تسلسلها، و في تفردها، مثل قصة البقرة، أو في علاقتها بما يرتبط بها فيما يليها من القرآن الكريم.

فيفهم أن الطول النسبيّ للمقطع الذي يخص الفئة الثالثة أول السورة، و الذي يتجاوز مرتين طول مقطع الفئة الأولى و الثانية معاً، ما هو إلا تمهيد للطول الاستثنائي لذلك المقطع المتواصل عنهم من الآية ٤٠ إلى الآية ١٢٣.

التمهيد أول السورة، في حقيقته، تحذيرٌ من خطرٍ بالغ.

خطر خديعة الذي يُخدِّرُ الحذرَ بادعائه الإيمان ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾. لذا فإنه سبحانه يُبيِّنُ ذلك، هدىً، في تحوّل مفاجئ من خطابٍ موجه إلى تلك الفئة في سرد بيّنات تفصيل ما ينبغي معرفته بالضرورة عنهم ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ... ﴿٧٤﴾ ﴾، إلى معترضةٍ تتوجه كتحذير لأيّ صادقٍ: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾. ثم يتدارك سبحانه مباشرةً ضعيف الذاكرة، كرماً منه و رحمةً، ليذكِّره بتحذيرات التمهيد حيث أول ذكرٍ لهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، و ذلك بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

هذا الكلام عن الفئة الثالثة في تمهيد أول السورة و في تفصيل المقطع الطويل عنهم، تحذيرٌ من خطر الذي يدَّعي الإصلاح و هو مفسد ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

و كذلك، تحذيرٌ من خطر الذي يتعامل فعلاً، لا مجازاً، مع الشياطين ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، و ذلك بدليلٍ، و بقليل من التفكير، ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾. و بالتأكيد القاطع في: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ...﴿١٠٢﴾ ﴾، حيث ترد كلمة « ٱلشَّيَٰطِينُ »، بشكلها هذا، لأول مرة في القرآن الكريم.

بين هذه المرة الأولى، و بين: ﴿...وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ...﴿١٤﴾ ﴾، لم ترد هذه الكلمة بأي شكل من أشكالها قطّ، هذا مما يزيد من شدة وقعها في آية ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ...﴿١٠٢﴾ ﴾، التي تتميز بمجموعةٍ من الكلمات، بالغة الأهمية، ترد لأول مرةٍ في القرآن الكريم، منها كلمة «مُلْكِ»، و كلمة «فِتْنَةٌ».

و يأخذ الأمر أبعاداً رهيبةً في معانيها و أبعادها في المستويات العليا لتدبر القرآن، عند ملاحظة أن أول و ثاني ورودٍ لكلمة « ٱلشَّيَٰطِينُ »، بشكلها هذا، ارتبط بأول و ثاني ورودٍ في القرآن الكريم لاسم نبي الله « سُلَيْمَٰنُ » عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في تلك الآية بالذات ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ...﴿١٠٢﴾ ﴾. و أن آخر ذكر له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم ارتبط بتلك الكلمة ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٤-٤٠].

و خاصةً، أن تلك الكلمة وردت في القرآن الكريم ١٧ مرة، تماماً عدد ذِكْر اسمه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. و ما في ذلك مما يشير إلى علوم عليا، يشير إليها ما ورد في أول ذكرٍ لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن، و ما جرى للرسول الأكرم في الإسراء و المعراج...

***

المقطع الطويل عن الفئة الثالثة، من الآية ٤٠ إلى الآية ١٢٣، يندرج ضمن الموضوع الشاسع للهداية.

فهو وفاء بوعد الهادي الكريم سبحانه الذي قال أول تلك السورة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾، و الذي سبق هذا المقطع بتذكرته سبحانه: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ... ۝٣٨﴾.

كما أن هذا المقطع الطويل هداية للذين يؤمنون بالقرآن، فإنه، كذلك، آخر خطابٍ إلهيٍّ موجه لدعوة المعنيين بالخطاب إلى الهداية!

خاصةً أن ذلك المقطع يهدي فيما يهدي إلى معرفة معلومات كثيرة مَخْفِيَّة مكتومة، أو ضائعة مما هو متوفر بين أيدي الناس من التوراة.

لقد بدأ هذا المقطع بدعوة الهادي الكريم جَلَّجَلَالُهُ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ... ۝٤٠﴾، لتعود التذكرة ثانيةً بعد ست آيات: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾. ثم في الثالثة تُختزل التذكرة لتصير: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ... ۝٤٩﴾ عوضاً عن «ٱذۡكُرُواْ»، ثم: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ ... ۝٥٠﴾، و: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ... ۝٥١﴾، و هكذا بشكل متواصل، إلى أن ينتهي ذلك المقطع و بشكلٍ سيمفوني، كما ابتدأ، بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ... ۝١٢٢﴾!

لقد ابتدأ سبحانه ذلك المقطع بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ... ۝٤٠﴾، ليتابع سبحانه بعد أمر التذكُّر بمجموعة من الأوامر:

- أولها أهمها؛ و هو كذلك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتذكرة، ألا و هو الوفاء بالعهد. العهد بكل أبعاده و معانيه التي أشرنا إليها سابقاً. لذلك فقد ورد في نفس الآية: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ... ۝٤٠﴾.



– ثم أمرٌ، هُم أولى من يفهمه، إن راجعوا أنفسهم: ﴿...وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾!

– ثم أمرٌ بالإيمان بالقرآن: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ ...﴿٤١﴾﴾. و يُبيِّن سبحانه، كرماً منه، أن الإيمان بالقرآن ليس بالنسبة لهم تحولاً جذرياً و إنكاراً لِما بين أيديهم من الحق: ﴿...مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ...﴿٤١﴾﴾.

– ثم نهيٌ عن الاستعجال بالحكم عليه كفراً: ﴿...وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ...﴿٤١﴾﴾، يُذكِّر بقوله من أوائل السورة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

هذا النهي عن الاستعجال بالحكم على القرآن كفراً، ما هو إلا فرصة إلهية ذهبية ممنوحة رحمة من الرحمن الرحيم، للتراجع عن الموقف الخطأ، و ذلك لاتِّباع الحق.

– ثم فكرة الشراء التي أشرنا إليها: ﴿...وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾، و يوضح ذلك، سبحانه بأمرين: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾، و خاصةً تجريمهم **بكتمان الحق** الذي يعود مراراً في تلك الآيات و في القرآن الكريم، و الذي يُفْهِمُ قارئ القرآن أبعاد كلمة «بُكْمٌ» في المثلين في المقطع التمهيديّ عنهم: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

– ثم يختم سبحانه تلك الأوامر الأساسية باثنين: إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

يلفت النظر أن الأمر الذي يؤكد سبحانه عليه في تلك الآيات، هو الصلاة.

و الأمر أبعد ما يكون عن الوعظ الديني كما يكون من رجال الدين، و كما قد يبدو لقارئ القرآن. و بسبب البَون الشاسع بين التصور الشائع عن الصلاة و بين حقيقتها، فالأمر، إذاً، بالغ الأهمية

لتعلقه بالصلاة بحقيقتها و ما فيها من علوم لدنّية عليا مكنونة.

من جهة أخرى، فإن ذلك الأمر بإقامة الصلاة يقتضي بالضرورة اتباعَ خاتم النبيين. إذ إن المعنيّين بهذا الأمر ﴿...أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٥٩]!

فهم بناءً على ذلك، عاجزون عن الامتثال للأمر الإلهي بإقامة الصلاة. إذ لن يجدوا الشعائر الصحيحة و الكاملة للصلاة الحقيقية، و قد ضاعت فيهم و في غيرهم، إلا أخذاً عن خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فما أعظم الرمز و مدلولاته أن تكون سورة الإسراء هي نفسها سورة بني إسرائيل!

بعد هذه الأوامر، يعود سبحانه ثانيةً بالخطاب إليهم مذكراً بنفس الصيغة السابقة تماماً: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ...﴿٤٧﴾﴾، و ليُتابع سبحانه، بدل أمر الوفاء بالعهد، بقوله: ﴿...وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾. لتستفتح هذه التذكرة في الآيات التالية جملةً من الأحداث التي تفصِّل ذلك الفضل.

ذلك الفضل زيادة. فعندما يقول سبحانه ﴿...وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾، فليس المعنى أنه سبحانه مالَ إليهم و اختارهم لما وجد فيهم من محاسن ما لم يجد في العالمين. بل إنه سبحانه آتاهم من فضله عطاءً و بيّنات و فرصاً زيادةً لم يؤتِ مثلها أحداً في العالمين.

فالفضل فضله سبحانه.

و طالما أن العطاء عطاء في الدنيا، فهو مقرونٌ بالضرورة بالمسؤولية. و كلما ازداد العطاء في الدنيا، ازدادت المسؤولية!

لذلك فهو سبحانه يتابع فضلاً منه مذكراً: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

و لذلك، فإنه سبحانه يختم ذلك الذكر الطويل و المتواصل لتلك الفئة الثالثة بهذه الطريقة بالذات: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، لنلاحظ تغيراً طفيفاً في الآية الثانية، و ذلك بدخول فكرة عدم النفع على الشفاعة. أي إنهم يوم القيامة لن ينفعهم نسبهم الذي يتباهون به إلى إسرائيل، أي سيدنا يعقوب ﴿...لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ...﴾. و لن تنفعهم شفاعته و لا شفاعة جدهم إسحاق و لا شفاعة والد جدهم إبراهيم. إذ ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٨].

و لذا، فإن المقطع التالي للذكر الطويل للفئة الثالثة، يبدأ بأول ذكرٍ لسيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾.

و ذلك كجواب و توضيح على تساؤلات يثيرها ذاك المقطع الطويل في أواخره.

و ذلك، و تماماً، على نفس النسق المفاجئ الذي رأيناه عندما عاد سبحانه بقارئ القرآن إلى أصل مشكلة الكفر، بعد التذكير بيوم القيامة و بفضله، و حتى باختيار العبارتين المتميّزتين «جاعل» و «وإذ» التي هى دعوة إلهيّة للتذكُّر:

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩

وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ... ٣٠﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣
وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا ... ١٢٤﴾.

هذا المقطع عن سيدنا إبراهيم حُجة عقلية و بينة و جلاء في الرؤية، و ذلك لفض الخلاف، المُثار في المقطع الذي يسبقه، بالعودة إلى الأصل.

فالإشكال الأساسي المتعلق بالفئة الثالثة يكمن في موقفها من القرآن و من الإسلام، الذي هو أشبه بموقف الذي أبى و استكبر و قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ...﴾.

هذا ما نجده في أواخر ذاك المقطع الطويل عنهم في آياتٍ مثل: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ... ١٠٩﴾.



و ليَظهَر الإشكال صراحةً بعد آيتين: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ... ﴿١١١﴾ ﴾.

و ليأتي الردّ مباشرة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

آخر الآية ﴿ ...وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ يذكِّر بأول ورود لهذه الصيغة في القرآن الكريم حيث نقطة البداية على الأرض بعد الطرد من الجنة: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾. و بثاني ورود لها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾. (لا بد من التمييز بين الذين «هَادُواْ» الذين هم على نهج الذين قالوا: ﴿ ...إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ... ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٦]، و بين «هود» أو «يهود»، فالفارق شاسع).

نلاحظ في قوله تعالى حيث يظهر الإشكال صراحةً: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴿١١٢﴾ ﴾ اجتماع ثلاثة: «هود»، «نصارى» و «مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ». و نلاحظ كذلك أن ذلك الشاهد هو أول ورود لفكرة الإسلام في القرآن الكريم، إضافةً إلى كلمة لا تستوقف انتباه إلا النبيه: «وَجْهَهُۥ».

و يلي ذلك الشاهد مباشرة تأكيدٌ على فكرة الخلاف: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ... ﴿١١٣﴾ ﴾، مع مفارقة صارخة: ﴿ ...وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ... ﴿١١٣﴾ ﴾!

لذا فلا بد من العودة بقارئ القرآن ـ كائناً من كان ـ مسلماً أو غير مسلم، إلى الأصل و تبيانه له، لفضّ الخلاف.

إذ لا يمكن لأيٍّ كان من أهل الكتاب أن يتبرأ من سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو أن يتجاهله أو أن يقلّل من شأنه.

بل لا يمكنهم أجمعون إلا الاعتراف به كأصل دينهم. إذ لا يمكنهم الادعاء أن إسرائيل، أي يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هو أصل دينهم، لا هو و لا والده إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكلاهما على دين و نهج سيدنا إبراهيم.



﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ
قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ
قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

من بعد ما رأيناه من أهميةٍ بالغةٍ لمسألة «العهد» بالنسبة لبني إسرائيل و اليهود، و موقفهم من ذلك العهد، فإن ما تشير إليه تلك الكلمتان من الآية السابقة ﴿...وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ ...عَهۡدِي ...﴿١٢٤﴾﴾، لغنيٌّ عن التعليق.

ثم يتابع سبحانه مباشرةً بدعوةٍ لتذكُّرِ أمرٍ أساسيٍّ، سوف يكون مدار آياتٍ كثيرة قادمة: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا ... ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ... ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ ... ﴿١٢٧﴾﴾، ليَصلَ سبحانه إلى بيت القصيد لفضِّ الخلاف في دعاء سيّدينا إبراهيم و إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾، و ذلك في ثاني و ثالث ورود لكلمات مرتبطة بالإسلام، و تعبِّر عن ملَّة سيدنا إبراهيم.

ثم يحكم سبحانه و هو أحكم الحاكمين الذي هو أدرى بما كان و ما يكون من خلقه: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ... ﴿١٣٠﴾﴾، مما يُذكِّر بالضرورة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾. أي إن الفئة الثالثة لا تزال موجودة في تلك الآيات، لا كمركز للموضوع، و لكن كعنصر أساسيّ فيه.

ثم يعود سبحانه مباشرةً إلى بيت القصيد، لفضّ الخلاف، في كلام عن سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:
﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

فالدعوة إلى الإسلام دعوةٌ إلى الأصل الذي أراده سبحانه في دينه لسائرِ أنبيائه.

فكما بينّا سابقاً في مقطع «تسمية الإسلام» من نص «حقيقة أبدية واحدة»:

هل يستطيع أحد أن يثبت أن: «يهودي» هو الاسم الذي شاءه سبحانه في الألواح لدينه؟

أو أن سيدنا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ سمّى الدين الذي تلقاه «الدين اليهودي»؟

هل يستطيع أحد أن يثبت أن سيدنا عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ سمّى دينه «الدين المسيحي»؟

أم أن كل هذه التسميات، ما هي إلا تسميات بشرية ظهرت عقوداً أو قروناً بعد وفاة أنبيائها.

بالمقابل، فإن تسمية «الإسلام»، ليست تسمية ابتدعها العرب «أتباع محمد» لدينهم. بل تسمية مصدرها إلهي، لوجودها في صريح النص القرآني. أي إنها كانت ثابتة بحضور ملَك الوحي سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و بحضور خاتم النبيين محمد رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

و هي ليست تسمية إلهية «لآخر دين»، بل التسمية الإلهية للدين الحق الذي أراده الله سبحانه منذ الأزل لعباده.

مسألة الدين الحق الأوحد تُشكِل على الكثيرين، و ذلك لخلطهم بين الشرائع و بين الدين. فالشرائع متعددة لتتناسب، رحمةً، مع الناس و الزمان و المكان. أما الدين فهو واحد، لأنه الأساس الذي أراده الواحد الأحد لعلاقة عباده به.

﴿...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨].

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ

وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ

وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٧].

و من يعترض على تلك الحقيقة التي وردت بصريح العبارة في الآيتين ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٢]، فإن الله سبحانه يعيده إلى الصواب في الآية التالية مباشرة، بحُجّةٍ تقطع الطريق على المدّعين: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ... ﴿١٣٣﴾﴾!!

﴿... إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾. إذ إن تلك الحادثة مذكورة في سفر التكوين من كتاب أهل الكتاب بطريقة مختلفة جذرياً.

ثم يؤكد سبحانه على الفكرة، إذ ما أحوج الأمر إلى التأكيد، ليتراجع المرء من الخطأ الذي يتشبث به إلى الصواب: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ



ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾، و ذلك كقولٍ فصلٍ، يذكِّرُ كثيراً بأول إثارةٍ للمسألة في أواخر المقطع الطويل: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴿١١٢﴾ ﴾.

قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ ... وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾، لافت للنظر، إذ يبدو لأول وهلة مفروغاً منه.

الواقع أن هذه اللفتة الإلهية حجة بالغة، قد لا يعي المسلمون أبعادها و شدة وقعها على النصارى خاصةً.

إذ إن ثمة من يروِّج منذ أمد، و ذلك لاستعطاف مئات ملايين المسيحيين على اليهود، أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أصله يهودي، إذ وُلِد منهم و نشأ فيهم. بناءً على ذلك المنطق، هل يُقال عن سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إنه من المشركين لأنه وُلِد منهم و نشأ فيهم؟

إذاً، ليس عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يهودياً، بل على دين الله، و آخر نبي من بني إسرائيل.

ثم يؤكد سبحانه مرة أخرى بحجة أخرى من فضله، إذ ما أحوج الأمر إلى التأكيد، ليتراجع المرء عن الخطأ الذي يتشبث به إلى الصواب: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾، حيث يعود تجريم الذي «كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ» كما في الآية: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

* * *

المقطع التالي الذي يبدأ بالآية ١٤٢، أبعد ما يكون عن مجرد ذكر حادثة من السيرة النبوية الشريفة: و ذلك عندما صلى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بعد هجرته إلى المدينة، باتجاه بيت المقدس لقرابة

سبعة عشر شهراً، ثم تحوَّل، بأمر من الله، من تلك الوجهة، ليولِّيَ وجهه ثانية و بشكل نهائيّ شطرَ المسجد الحرام.

هذا المقطع ما هو إلا استمرار و تصعيد في البيِّناتِ و الحججِ المتعلقة بموضوع موقف الناس و أهل الكتاب خاصةً من الرسالة الإلهية الأخيرة، و الذي وقفنا عنده في الصفحات السابقة. لذا فإنه سبحانه يبدأ ذلك المقطع الجديد بشكلٍ معبِّر:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ... ﴿١٤٢﴾﴾، ليدرك قارئ القرآن الترابط الصميمي بين هذا المقطع الجديد و بين بيِّناتِ المقطع السابق عن سيدنا إبراهيم، حيث قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ... ﴿١٣٠﴾﴾. مما يعيد إلى أول السورة، إذ إن كلمة «ٱلسُّفَهَآءُ» تُذكِّر بالضرورة بـ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾. ليتأكَّد لنا من ذلك، أن الفئة الثالثة لا تزال عنصراً أساسياً في الموضوع المطروح، و أن اعتراضاتها ليست سوى سُفهاً. و السفه عكس الفقه الذي هو اجتماع العلم و الفهم. فأي حجة على السفهاء، الذين وصل بهم سفه الادعاء إلى درجةِ جهلهم سفههم، قولُه تعالى: ﴿... وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

و أي سطحية في الفهم، اعتبار القرار الإلهي بتحويل الوِجهة إلى قبلة المسجد الحرام، كتعاطفٍ إلهي و تلبيةٍ لرغبةٍ شخصيةٍ و عاطفيةٍ سيطرت على النبي!

فالنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هو الذي اصطفاه سبحانه من بين خلقه أجمعين في سابق علمه، ليكون خاتم النبيين المرسل كافةً للناس و رحمةً للعالمين.

و هو الذي كان ليلاً عند الكعبة بين الركن و المقام، فأُسْرِيَ به إلى المسجد الأقصى، و منه عرج في السموات ليلتقي بالأنبياء الذين هم فيها، إلى أن وصل إلى السماء السابعة و التقى بجده الأكبر إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ سانداً ظهره إلى البيت المعمور، حيث يدخل كل يومٍ سبعون ألف ملك و لا يعودون، و الذي يقابل الكعبة على الأرض. ثم عرج ليصل إلى سدرة المنتهى و استمر ليرى من آيات ربه الكبرى. ثم عاد إلى بيت المقدس حيث صلى إماماً بالأنبياء أجمعين، بعد إذ التقى في معراجه بالله جَلَّ جَلَالُهُ عشراً، و بسيدنا إبراهيم اثنتين و عشرين مرة و بسيدنا موسى أحد عشر مرة، و بباقي أنبياء السموات كل واحد مرتين. ثم عاد في نفس الليلة إلى مكة المكرمة.



فأي رجلٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ! و أي مؤهلاتٍ و أي علمٍ و أي خبرةٍ، و أي نظرةٍ نظرته إلى المسجد الحرام و بيت المقدس، و قد عاش ذلك الحدث الذي لم يكن لأحد غيره في العالمين!

فالأمر أبعد ما يكون عن رغبة شخصية. إنما هو فطرة سليمة و حدس صادقٌ و خُبرة و علم.

و القرار الإلهي ليس نزولاً عند تلك الرغبة الشخصية المزعومة، بل قرار سابق ذي مدلول كما ورد في صريح الآية: ﴿...وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ...﴿١٤٣﴾﴾.

و لو كانت قبلة الرسول الأكرم مكة وخاصةً بعد هجرته إلى المدينة، لما لفتت مسألة القبلة الأنظار و لما أخذت هذه الأبعاد. و لما أُعير الأمر اهتماماً، بل نُظِرَ إليه كمجرد استمرار عادة مكيّ بالتوجُّه في صلاته باتجاه الكعبة.

بذلك، فإن توجّه خاتم النبيين و ألوف من المسلمين، ليس إلى أيِّ وجهة غير مكة، بل إلى بيت المقدس و ما يمثّله و يعنيه بالنسبة لأهل الكتاب، ثم تحوّله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و الألوف الذين معه فجأةً و بأمر الله إلى البيت العتيق، فإن ذلك يدلّ و يؤكد، بحدثٍ مشهود، انتهاء عصر قبلة بيت المقدس ببطلانها، والتكريس النهائي لقبلة البيت العتيق و ما فيها من معانٍ و رموز كقبلة للناس كافة، من أدناهم إلى أعلاهم علماً و مقاماً، و ذلك في أرقى و أعظم علاقة بين العابد و ربِّه، أي في الصلاة الحقيقية و ما فيها من خصائص استثنائية و علوم عظيمة مكنونة.

إضافة إلى ذلك، فإن مسألة القبلتين بمعطياتها الأساسية المحيطة بها في سورة البقرة، هي المرجع الذي لا يمكن فهم الرسالة الإلهية من افتتاحية سورة الإسراء إلا به: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١].

لقد بدأ سبحانه يحَضِّر قارئ القرآن لمسألة القبلة و ما فيها من رموز أولَ ذكر سيدنا إبراهيم، و ما فيه من عودة إلى الأصل لفض الخلاف حول الإسلام:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ...﴿١٢٤﴾

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾



وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ... ﴿١٢٦﴾

وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

بذلك، فقد حضّر سبحانه قارئ القرآن للرمزية العالية في مسألة القبلة. فتلك الوجهة ليست وجهة محلية لا تعني شيئاً إلا لقريش و سكان مكة.

فالبيت الذي رفع قواعده إبراهيم و إسماعيل هو ﴿ ...أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ ... ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦]. كلما اندثر مع مرور الزمن مع بقاء قواعده، رتب سبحانه أن يُرفع ثانية في الوقت الذي يشاؤه.

فالتوجه إليه كقبلة، عودة إلى الأصل بالتوجُّهِ إلى رمزية المبنى الأول المخصص للعبادة الحق على الأرض، و في المكان الذي شاءه سبحانه. فالمكان ليس من اختيار البشر، و المبنى ليس من ابتكارهم، بل مبنىً ذي تصميمٍ هندسي رمزي إلهي يتميّز عن كل ما سبقه مما بناه الإنسان في العصور القديمة، بما في الزاوية القائمة من تجرد.

هذا البيت العتيق برمزية تقابله مع البيت المعمور في السماء السابعة، و علاقة البيت المعمور بالملائكة، و بركنه و ميزابه و الذي منه يُسْتَنبط المضلع المخمس، و بمسقطه الشبيه بحرف U، هو المكان الحق للطواف سبعاً و ما في ذلك من رموز تشير إلى علوم عظيمة. طوافٌ باتجاه دوران الأرض حول نفسها، و دوران القمر حول الأرض، و دوران الأرض و الكواكب حول الشمس، و دوران الشمس حول مركز المجرة ...

هذا الطواف رمز، أقل ما فيه، تجرّدُ الطائفين عن محدودية ظاهر مادية محيطهم، تواصلاً مع حركة الموجودات من الذرات إلى المجرات، ليعِّبروا عن انتمائهم إلى النظام الكوني.

بهذا النذر اليسير الذي ذكّرْنا به في الأسطر السابقة، فإن مسألة القبلة المطروحة في الآيات، ١٤٢ و ما بعدها، مسألة بالغة الأهمية و عالية الرمزية تُذكِّر الإنسان، في الحج و العمرة و الصلاة، انتماءَه إلى عالمٍ لاماديٍّ عالي الرمزية.

لا بد من التذكير ثانيةً أن التصور الشائع عن الصلاة و منذ قرون، تصور هزيل بالمقارنة إلى حقيقتها عندما تكون مطابقة لما يريدها اللّه أن تكون عليه.

السبب في ركاكة ذاك التصور الشائع، هو ابتعاد الفكر و الثقافة منذ قرون عن الروحانيات الحقيقية و رموزها، هبوطاً إلى ظاهر كثافات المادة.

ما يدل على سطحية ذلك التصور البعيد كل البعد عن إدراك الأبعاد الروحية، هو اعتبار الصلاة و إقامة الصلاة سيان!

فبقدر ما يمكن اعتبار الصلاة بحد ذاتها مسألة شخصية أو فردية في العلاقة الروحية بين العابد و ربه، فإن إقامة الصلاة مسألة **في حقيقتها** شعيرة جماعية. فهي، بذلك، تستوجب لإقامتها الإمام و الاجتماع و الاتفاق على أوقاتها و كيفيتها و مستلزمات المكان الذي تُقام فيه. و هي، و بسبب الاجتماع، تقتضي بالضرورة، الاتفاق على وضعية المجتمعين. أي، عملياً تحديد الوجهة التي يتوجه إليها أجمعون.

بقليل من الانتباه و الذاكرة الحاضرة، نلاحظ أن الصلاة لم تُذكر، منذ أول القرآن إلى الآيات التي نحن عندها، بحد ذاتها. إنما، ما ذكر هو إقامة الصلاة.

و قد بدأ تحضير عقل و وجدان قارئ القرآن، للآيات التي نحن عندها عن القبلة و علاقتها الصميميَّة بإقامة الصلاة، منذ أوائل سورة البقرة. ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾. و يستمر ذلك التحضير في جملة الأوامر الموجّهة إلى بني إسرائيل أول المقطع الطويل عنهم: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾، و يستمر في نفس المقطع: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ۝٨٣﴾. ثم يعود الأمر الإلهي بإقامة الصلاة موجهاً إلى الذين يؤمنون بالقرآن محاطاً بآياتٍ معبرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١٠ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١١٢﴾.

أي إن ذلك الأمر الإلهي بإقامة الصلاة، و الموجه لمن يتَّبِع خاتم النبيين المرسل كافة للناس،

يرد مباشرةً قبل المقابلة بين اليهود و النصارى و بين «مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ»، حيث نجد كلمة «وَجْهَهُۥ» التي تلفت نظر أيَّ لبيب.

إذ إن المعنى يستوي تماماً، لو وردت المعلومة بهذه الصيغة: «من أسلم لله»، على شاكلة: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣١].

إضافةً إلى ذلك، فإن ورود كلمة «وَجْهَهُۥ» في الآية ١١٢، هو أول ورود لهذه الكلمة في كافة أشكالها و اشتقاقاتها في القرآن الكريم، كما هو الحال بالنسبة لكلمة «أَسْلَمَ» التي تسبقها.

الواقع أن كلمة «وجه» تحضِّر قارئ القرآن لعنصر، ذي معانٍ و أبعاد عالية الرمزيّة، يدخل في موضوع القبلة حيث وصلنا.

لتعود عندئذٍ كلمة «وجه» باشتقاقاتٍ و بأشكالٍ متعددة كالشلال: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾، لتسير هذه الكلمات مواكبةً كلمة «قبلة»، مع الاستمرار بذكر الفئة الثالثة: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾. إذ أي حجةٍ لهم على الذين تبعوا القبلة الحق ﴿ ...وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ... ﴾؟!

ثاني ظهور لها في القرآن الكريم يقود قارئه بقوة إلى ذاك الموضوع: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾، حيث نلاحظ تركيبة «ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ»، و التي نجدها تماماً في الآية ١٤٢ أول المقطع عن القبلة: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

و ليقول سبحانه أخيراً: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى



ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾، بما في هذه الآية من تلميح واضح للفئة الثالثة، خاصةً أنها وردت بعد آياتٍ عنهم تُجرِّمهم خاصةً بكتمان الحق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴿١٧٧﴾﴾، من آمن حقاً بالله و باليوم الآخر، لا ﴿... مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

و قد قرأ قارئ القرآن مراراً ذلك التجريم بكتمان الحق في آياتٍ تأتي كتعليق على ما سبقها أو كتأكيدٍ على تلك الفكرة، فإنه يبدأ فهم سبب تسمية تلك السورة بسورة البقرة. حيث أن القصة التي تدور حول أمر الله موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، ما هي إلا إظهار لخديعة القاتل الذي قتل ليرث الضحية، و علاوة على ذلك و لإبعاد الشبهة عن نفسه، فإنه طالب بديّة الضحية. فتظهر الحقيقة و يعلق سبحانه مخاطباً بني إسرائيل: ﴿...وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

فتصير تلك المقولة الإلهية ﴿...وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ المرتبطة بقصة البقرة، سِمةً أساسية لهذه السورة الشريفة التي تُظهر حقيقة الفئة الثالثة بكشف ماضيهم مع الله و مع الأنبياء، و بكشف ما كانوا يكتمون.

هذا كله لا يتمركز حول تلك الفئة الثالثة، بل يؤكد عليها و يندرج ضمن خطٍّ عريض يبدأ بما يقطع على أيٍّ من الثقلين احتمال شطحه: ﴿...فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٣]، و مروراً بآية الكرسي: ﴿...لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ...يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ...﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥]، وصولاً إلى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ...﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٤].

من جهة أخرى، و إضافةً إلى ما أشرنا إليه من رموزٍ في البيت العتيق، فإنه رمزٌ للالتقاء و الاجتماع على الأصل و الحق.

أي التقاء و اجتماع كل من يتوق إلى التواصل الروحي الحق عند نقطة مركزية واحدة.

لذلك فقد قال سبحانه أول كلامه عن القبلة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿ ...لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ...﴿١٤٣﴾﴾ فالرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس أيَّ رسولٍ، و أتباعه ما هم إلا أتباع آخر نبي من سلالة سيدنا إبراهيم، و آخر أولي العزم، و خاتم النبيين أجمعين.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ...﴿١٤٣﴾﴾، تحتاج إلى وضع النقاط على الحروف.

إذ إن كلمة «وَسَطٗا » في الآية الكريمة لا تعني الحد الوسطي، كما يفهمها الكثير من معاصرينا. بحيث تصير الأمة الإسلامية في هذا الفهم الخطأ: أمةً وسطاً ليست في طليعة التقدم و لا في مؤخرة التخلف، ليست في ذروة الحضارة و لا في حضيضها، ليست في غاية الغنى و لا في فقرٍ كالح، ليست في عظمة القوة و لا في ضعفٍ هزيل، و إنما وسطاً بين ذلك كله.

هذا الفهم مغلوط.

إذ إنه إسقاط لمفهوم معاصر و شائع لكلمة «وسط» على المعنى الأصلي في القرآن الكريم. فالمفهوم المعاصر و الشائع لكلمة «وسط» يأخذ جذوره في المدارس الإلزامية و في معدلات العلامات، حيث إنه علامة ٥٠ وسط بين ٠ و ١٠٠.

في حين أننا نستطيع تقريب المعنى القرآني لكلمة «وسط» لأذهان معاصرينا بأن نستبدل بها كلمة «مركز».

بذلك تصير الأمة الإسلامية أمةً مركزية، و هو ما يتماشى مع تتمة الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾. فالمركز أفضل موقع لشهود شامل، إذ إن جميع النقاط المتناظرة المحيطة به تقع على مسافة متساوية منه. علاوة على ذلك فإنها جميعها عمودية عليه، أي أن الناظر في المركز يستطيع النظر إلى أي من تلك النقاط المتناظرة من خلال زاوية مطابقة و مسافة متساوية، أي بانعدامٍ تام لأيّ تشوّهٍ منظوري، أي بالحد الأقصى من العدالة.

بذلك، فإن التحديد الإلهي و النهائي للقبلة في البيت العتيق، و إبطال قبلة بيت المقدس نهائياً بعد عملياً سبعة عشر شهراً من الهجرة أي في رجب كرجب الإسراء، سبعة عشر كالترتيب النهائي لسورة الإسراء من التنزيل و لم تنزل براءة بعد، فإن ذلك ما هو إلا رمزٌ يؤكد به سبحانه جعلَه الإمامة و الرياسة و المرجعية الروحية العليا لمن يولي وجهه شطره و هو محسنٌ.



هذا مما يثير بالضرورة ردة فعل من يدَّعي لنفسه تلك الرياسة. ردة فعل عدائية و مستميتة للقضاء على المنافس، خاصةً من بعد العلم بالتفوق الخارق لإمكانياته و مكانته عليه!

تماماً كما حدث عندما قال الله لملائكته: ﴿...ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ...﴿٣٤﴾﴾، و كانت ردة الفعل ﴿... فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾، و الذي توعَّد حقداً أن يُضِلَّ من يُضِل بما أُغْوِيَ.

و هل يصدر عن الحقد و ما فيه من طغيان الأنا، إلا الضلال و الإفساد؟

هذا واقع شهدته قرون التاريخ، فلا مجال لتجاهله، و ترك انتشار و تفاقم ذاك الضلال و الإفساد.

هذه هي الرسالة الأساسية للسورة.

و لذا، فقد بدأ سبحانه يحضّر قارئ القرآن عندما أعاده إلى نقطة الانطلاق في أساسيات قصة سيدنا آدم، و عندما بدأ يحضره عند أواخر تلك القصة بقوله: ﴿...وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ...﴿٣٦﴾﴾.

و لذلك، فإن المقطع، الذي يبدأ بمسألة القبلة و ما رأيناه فيها من رموز، يحوي على بداياتِ و تصعيد و طرح حقيقة ذاك الصراع، و ذلك ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

ليستمر هذا الموضوع عن الصراع و القتال الضروري و الذي لا مناص منه للدفاع عن الحق و لوضع حدّ للشر و العدوان. ليستمر هذا الموضوع طويلاً إلى أواخر السورة، **كخطٍّ أساسي تتخلله نقاطٌ ضرورية و واقعية لتحقيقه على أتم وجه.** و ذلك برفع اللياقات النفسية و العقلية و الروحية بالعبادات الحقيقية كالحج و العمرة و الصيام، و على رأسها تدبر القرآن، و كذلك بتجنب كل ما يعيق تلك المهمة من أمورٍ أرضيةٍ واقعيةٍ لا يمكن تجاهلها و لا إهمالها، و أخطاءٍ لا مجال للوقوع فيها. أمور و أخطاء مفصَّلة و مرتبة بشكل معبّر على مدى تلك الآيات العديدة. إذ كم من أمرٍ أرضي أو خطأ استهين به، فكان سبباً في فشل مهامٍ عظيمة.

و لتنتهي السورة بشكل معبِّر بهذا الدعاء:

﴿ ...أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾. الذي يذكِّر كثيراً بدعاء المؤمنين مع سيدنا طالوت: ﴿ ...رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٠].

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ



وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

للمتبصر في قصة ذلك الرجل الصالح سيدنا طالوت، إشارة إلى حال المسلمين في آخر الزمان، زماننا. حيث لا وجود، منذ قرابة قرن، لرأس لأمة أهل الإيمان، أي للخليفة الذي هو الوحيد المخوّل شرعاً بإعلان الجهاد في سبيل الله لإحقاق الحق.

حال المسلمين في آخر الزمان، سبق و نبأ عنه خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا.**

قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:

أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ.

قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:

حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» [مسند أحمد: ٢١٣٦٣].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٤].

ثم بعد آية كريمة واحدة تأتي قصة سيدنا طالوت:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴿٢٤٦﴾﴾. أي: «ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا» فـ أو لـ «نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ»، و إلا، و بغيابِ الملك أي رأس و قائد المؤمنين، فلا شرعية للقتال فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ.

فالخليفة هو الوحيد المخوّل شرعاً بإعلان الجهاد في سبيل الله لإحقاق الحق.

﴿ ...ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ

قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ

سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

لم يكن مقتل جالوت على يد طالوت، بل على يد اليافع نبي الله داوود...

بعد آية واحدة من انتهاء قصة سيدنا طالوت و ما فيها للمتبصرين من إشارات إلى آخر الزمان، يأتي ذكر نبي الله سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾. المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي ينزل آخر الزمان؛ لينجز الصراع على الباطل و الإفساد في الأرض بقتل المسيح الدجال.

المسيح الدجال الذي يكرسه اليهود بعد التضحية ببقرةٍ ﴿...صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾... بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا...﴿٧١﴾﴾.

المسيح الدجال الذي يدعي لنفسه إرثَ الذي ظن اليهود أنه مات صلباً و لكن شُبِّه لهم.

لم يمت، بل رُفِع إلى السماء الثانية ليكون مع سيدنا يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اثنين. ثم يعود نزولاً من السماء عند المنارة البيضاء حيث رأس يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ليواجه الدجال بنفسه و بالحق، و قد سبق أن ذبح اليهود البقرة قرباناً لتكريس مسيحهم.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

***



ما رأيناه في الصفحات السابقة عن سورة البقرة، يمكن اعتباره مثالاً نموذجياً لبنية القرآن فيما يتعلق بشبكة المواضيع و الكلمات.

فهو تناولٌ إلهي غاية في الديناميكية و العمق لموضوعٍ ما من منظار الحقيقة، ذلك المنظار الذي يتجاوز مكاناً و زماناً ما، و الذي لا تغيب فيه علاقة البدايات بالنهايات و لا معرفة الغايات.

فقد رأينا كيف يثير سبحانه موضوعاً ليتفاعل قارئه معه، و يزوده سبحانه بالحد الكافي من المعلومات ليقف عندها متفكراً.

ثم يصعِّد سبحانه الموضوع، إلى اللحظة المناسبة، لإعطاء الجواب الجذري، من خلال منظار الحقيقة، على التساؤلات التي يثيرها ذلك الموضوع. و ليكون ذلك الجواب الجذري مرجعاً دائماً يعود إليه قارئ القرآن للتعمق في فهمه.

و قد رأينا كيف يحضِّر سبحانه العقل الذي خلقه و خلق آلياته، عقلَ قارئ القرآن و أحاسيسَه و وجدانه بالتدريج:

تُطْرَحُ الكلمة لتُحَضِّر العقل الجليّ و الأحاسيس الصافية و الوجدان الحي للاستعداد للموضوع و لتقبُّله.

ثم تعود الكلمة ضمن كتلة أكبر، و قد اتسع مجال استقبال الموضوع الذي تثيره و اتسع فهمه في عقل و وجدان قارئها بعد أول تعاملٍ معه.

ثم تعود هي و كلمات أخرى ظهرت بنفس الطريقة، لتتضافر كلها معاً عند ذروة الموضوع؛ فتعطي صورةً متعددة الأبعاد، تفسح المجال للتجوال فيها تعرفاً، و للتعمق فيها بنور الله.

فهْمُ هذا الطرح الإلهي في القرآن الكريم من خلال الشبكات التي أشرنا إليها، يُخوِّل قارئ القرآن، بشكل متواصل، معرفةَ العلاقة بين المعلومة أو الموضوع الذي يقف عنده، و بين بقية المعلومات أو المواضيع المطروحة المصاحبة أو المجاورة.

فيعلم بذلك، إن كانت تلك المعلومة أو ذلك الموضوع من معطيات موضوع أوسع يحويه؛ أو إن ذلك الموضوع هو الذي يحوي مواضيع أخرى معروضة معه، وإن كان ثمة موضوع أشمل يحويهم.

و ذلك، كما رأينا في جولتنا الاستكشافية في سورة البقرة، كيف أنها تبدأ بموضوع الهداية الشاسع بما فيه خطُّه الأعلى و الأساسي، حيث التعريف الحق بالله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ...رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ... ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠-٢١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾، و الذي يسبق السورة و يتجاوزها ليستمر عبر القرآن، لتدارك قارئ القرآن بتجنيبه الوقوع و الشطح في تصوّر مغلوط عنه سبحانه، و ذلك بإعطائه على الدوام المعلومة المناسبة في المكان المناسب للارتقاء بمفهوم متكامل و متوازن عنه سبحانه.

مثال ذلك ما نجده في آياتٍ وعيدٍ رهيبٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٢]، يليها ما يبدو قفزةً إلى فكرةٍ مختلفة: ﴿...لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾، في حين أنه تداركٌ في محله وضروري لتكامل و توازن و حسن العقيدة. كذلك الحال، كلما يرد تعريفٌ به سبحانه.

و هذا، في أول استقراء لأيٍّ من تلك التعاريف.

أما في استقراءٍ متقدم، فإن أياً من تلك التعاريف يصير هو الأساس الذي يقوم عليه الموضوع المطروح عنده.

هذا بغض النظر عن التكامل البديع فيما بين تلك التعاريف ليتجاوز شبكتي الكلمات و المواضيع إلى باقي الشبكات. فالآية الأخيرة أولى ستٍّ و ثلاثين آية عن الألوهية تشترك بصيغة «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا»، وردت فيها ستٍّ و ثلاثين مرةً، و مرة واحدة بمثابة الصفر.

و رأينا كيف أن موضوع الهداية و التعريف به سبحانه، يحوي الموضوع الواسع للإيمان و عدمه، بما فيه الفئات الثلاث، و الموضوع الأساسي للعلم.

و كيف أن هذين الموضوعين هما أساس لمواضيع متعددة، منها موضوع القتال في سبيل الله لإحقاق الحق. و منها موضوع الرزق و الإنفاق، الذي تبدأ تباشيره منذ أول ذكر للفئة الأولى أول السورة. و يستمر ليتصاعد و ليأخذ مكان الصدارة على مدى صفحات عديدة من أواخر السورة.

و قد انتبه قارئ القرآن إلى ذلك، فإنه يأخذ بعين الاعتبار كل المعطيات المتعلقة بذلك الموضوع منذ بداية السورة، فتتكامل فيما بينها. و تتكامل، بشكل خاص، مع المواضيع الأخرى المرافقة لها، لتأخذ أبعاداً و معانيَ ما كانت لتأخذها لو طرحت مستقلة.



بهذا التكامل يفهم قارئ القرآن داعي، و مدى ضرورة، و عظيم قيمةِ، نقاطٍ مطروحةٍ ضمن هذا الموضوع. مثل وجهات الإنفاق و كيفيتها، و مثل الوصية و الدين، و مثل الحلال والحرام في الرزق الذي اختزله سبحانه منذ البداية بكلمتين ﴿...وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾، ليفصِّله في تلك النقاط في آيات مثل: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ...۝١٨٨﴾. و مثل خاصةً نقطة الربا، التي تذكِّر بسبق القرآن الدائم للزمن، حيث و كما رأينا أن سورة البقرة ترتبط بحقيقتها بآخر الزمان، الذي استشرى و استفحل فيه النظام المصرفي أي الربا آخذاً أبعاداً ما كان بالإمكان تَخيُّلها قبل قرنين، فكيف أيام التنزيل!

بذلك، فإن هذا الطرح الإلهي في القرآن الكريم يجنِّب قارئه الوقوع في خطأ محدودية النظر إلى موضوعٍ ما بحد ذاته و بمنأى عن ارتباطاته بغيره. كما يكون الأمر في جملة، حيث يغيب المقصد تماماً إن اعتبرت كل كلمة بحد ذاتها مع تجاهل باقي الكلمات.

بل إن هذا الطرح الإلهي، الذي نجد فيه عدة خطوط تسير معاً، يسمح لقارئ القرآن إدراك علاقة التكامل بين خط موضوع ما و الخطوط المتضافرة معه، و التي غالباً ما تتجاوز السورة إلى عدة سور. فتتحصل لديه رؤية عميقة للموضوع كجزء من كلٍّ يعطيه معناه.

فما أبعد هذه الرؤية التي تتسامى بشكل متواصل باتجاه الحقيقة، من تشويهات و عقم الرؤية للموضوع نفسه مفصولاً عما يكمّله و عما يحويه.

و أيُّ توافقٍ بين الواقع بكل أبعاده و بين هذا الطرح الإلهي بخطوطه المتضافرة!

إذ إن أمور الإيمان و العبادة و الرزق و الإنفاق و العلاقات بين الرجال و النساء و قوى الشر و معرفتها و مواجهتها و القتال، و ما إلى ذلك من أمور هامة من صميم الواقع، كلها تسير في حياتنا اليومية خطوطاً متضافرة كما في الطرح القرآني.

و قد أدركنا ذلك، يتبين لنا مدى قصور و ضعف الطروحات البشرية المبوَّبة التي اعتاد الناس احترامها، و التي تغيب فيها تماماً الخطوط المتضافرة. و لو أسقطنا تلك الطروحات المبوَّبة على الواقع، لاضطر الناس إلى تقسيم سنين حياتهم أقساماً عدد أبوابها، و التفرغ التام سنين لموضوع ما، ثم تركه تماماً للانتقال إلى آخر و هكذا، مما لا يخفى هزله.

و من أهم خصائص هذا الطرح الإلهي أنه يذكر بشكل متواصل بمحدودية النظر إلى الموضوع من خلال جزء من البعد الزمني للحياة الدنيا، و يدعو إلى النظر إليه من خلال البعد الزمني الذي يعطي لكل أمرٍ دنيوي معنىً، أي الآخرة.



مثال ذلك موضوعٌ من المواضيع التي نجدها **متضافرة** في الثلث الأخير من السورة. موضوعٌ نجد أول تباشيره في أوائل السورة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾، فلا تغيب عن البال هذه الافتتاحية عند قراءة ما تفضل به سبحانه من نقاط تتعلق بالنساء في ذلك الثلث الأخير من السورة. فلا يغيب بذلك البعد الأُخروي لموضوع ما عن الوعي، هذا مما يؤثر إيجاباً على نضج و اتزان المواقف و على حُسن العمل.

لذلك، فإنه سبحانه، و هو يطرح موضوعاً ما، يؤكد على الآخرة حيث يأخذ كلُّ شيء معناه و حيث الخلود. فما أحوج الناس إلى التأكيد و التذكير، إذ إن مواقفهم من الإيمان بالآخرة بين منكر و شاكٍّ و متردد و جاهل و غافل و ناسٍ و ساهٍ.

مثال ذلك. النقاط التي نجدها ضمن خط موضوع الإنفاق في سورة البقرة. فهو يذكِّر بحقيقة الآخرة ليُطمئن الذين يقفون عند أوامره بالإنفاق بأنهم لن يخسروا شيئاً، لا، بالعكس.

فقد ورد، تماماً بعد نهاية قصة طالوت و ذكر سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾، ليستمر خط موضوع الإنفاق في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾. و قد تخللت ذلك الخط نقاطٌ يؤكِّد فيها سبحانه على حقيقة البعث و النشور في الآخرة، مثل قصة الذي ﴿... مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ ... ﴿٢٥٩﴾﴾، و قصة سيدنا إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ... ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٦١﴾﴾.

***

طبعاً، كل ما ذكرناه في الصفحات السابقة يتطلب حساً مرهفاً تجاه الكلمات القرآنية، و تعاملاً موضوعياً معها بتجردٍ تام عن الإسقاطات البشرية، ارتقاءً إلى حقيقتها الإلهية، و ذلك من خلال سائر الشبكات التي أشرنا إليها.

و كذلك، فالأمر يتطلب نباهةً و تجرداً لمتابعة بيت القصيد لإدراك العلاقة بين الكلمات و المقاطع و المواضيع و السور، و لفهم الرسالة الإلهية المطروحة في القرآن الكريم بطريقة جشتالتية. حيث

يأخذ كل عنصر معناه من خلال علاقته بالعناصر الأخرى المرتبطة به، و من خلال علاقته بالكل، و حيث يساهم كل عنصرٍ في إعطاء الكل معناه.

في الحقيقة، يجب اعتبار و فهم أيّ مقطع في القرآن على أنه بمثابة تعليقٍ و شرحٍ و مثال و نتيجة لما سبقه، و تهيئٍ و تحضير لما بعده.

هذا الأمرُ يُصبح أكثر وضوحاً، عندما نعتبر أيّ مقطع من القرآن كجزء من منظومة إشارات، و كجزء من آلية تعمل لخدمة هدفٍ محدّد، ألا و هو رسالة إلهية موجّهة لقارئه، و بنفس الوقت جزء من النظام الكوني الذي يُدعى قارئ القرآن للانتماء إليه.

ولا يحصل ذلك إلا بالتدريج.

ولا يحصل ذلك إلا بقراءاتٍ متعددة و ملهمة، يقترب في كل واحدة منها العقل و الوجدان ارتقاءً و سمُوّاً من نور كلمات خالقه.

فالقرآن ليس قصةً أو روايةً أو بحثاً علمياً يُقرأ مرة واحدةً كافيةً متسلسلةً من أوله إلى آخره. بل، مجالاً روحانياً مقدساً تتكشّف و تتّسع آفاقه في كل عودةٍ تدبرٍ له. ليدرك الذي رأى تلك الآفاق النورانية الشاسعة أنه حقاً و بلا مغالاة و لا مبالغة: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان]. و لتمنى لو أنه يعيش الدهر كله ليتسنى له العودة إليه المرة بعد المرة ليستزيد من فضله و نوره.

التدرّج في حسن تدبر القرآن الكريم

إن كان الهدف حسن تدبر القرآن الكريم، فلا يمكن، إذاً، اعتماد منهج البحث العلمي الشائع و القائم على التخمين و الافتراض و التجريب.

لأن ذاك المنهج بتخميناته و افتراضاته ينطلق من أرضيةٍ مكوَّنة من معطياتٍ تثير تساؤلات هي أساس البحث التجريبي.

بالواقع، هذه الأرضية تحدد الإطار العام للبحث بحدود و سقف يُؤسر فيه الباحث؛ فلا يخرج باستنتاجات أبعد من إمكانيات تلك الأرضية.

إلا بنور من الله!

و انطلاقاً من معطيات حقيقية، هي الوحيدة التي تتفاعل مع ذاك النور لتنفتح على آفاق شاسعة.

الحقيقة مطلقة، و البحث عنها يقتضي عدم الوقوع في مغالطة اعتماد معطيات نسبيَّة كمرجع، إذ لن يصدر عنها إلا استنتاجات أكثر نسبية.

«إلا بنور من الله!»

قد لا يُؤخذ هذا الكلام محمل الجد من قبل معاصرينا، معتبرين إياه نوعاً من المعتقدات العاطفية، لا دخل لها فيما يمكن اعتماده في منهجية جديَّة و موضوعية.

السبب في ذلك هو ما نشأت عليه عقول معاصرينا على مقاعد الدراسة. عقلية مطبوعة و إلى أقصى حد، و منذ أكثر من قرن، بالعقلية العلمية و الفكرية الأوربية، و التي عُمِّمَت على العالم.

ولكن العقلية العلمية و الفكرية الأوربية تلك، و التي أصبحت عالمية، ليست عقلية كونية مطلقة موضوعية و حيادية. بل عقلية قائمة على ردود فعل التجربة الأوربية مع العلم و الفكر:

في حين أن شعوب الشرق الأوسط كان وراءها أربعة آلاف عام من الحضارة و التمدن و الكتابة، فإن شعوب أوربا، أيام الإسكندر المقدوني، أي الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد، كانت شعوباً بدائيةً على مستوى التمدن و الحضارة، لا بالضرورة على المستوى الإنساني.

أيُّ مظهرٍ من مظاهر الحضارة و التمدن، آنذاك في القارة الأوربية، كان على الدوام قريباً من

الشواطئ، أي ضمن منطقة تحرُّك و تأثير الكنعانيين الذين وصلوا إلى بحر الشمال. أو ضمن منطقة الامتداد و التأثير المباشر لحضارة الشرق الأوسط، كما هو حال الإغريق، و الذين بدورهم حملوا تلك الحضارة الشرق الأوسطية إلى إيطاليا. أما السواد الأعظم للأوربيين، فقد كانوا قبائل بدائية همُّها الأكبر البقاء على قيد الحياة.

بدأ التمدن في أوربا، اعتباراً من القرن الأول قبل الميلاد، لا بمبادرة من تلك الشعوب بحضارة أصيلة نابعة من تراثهم، بل، و على الدوام بما فُرض عليهم مما هو غريب عنهم، ابتداءً من الجبروت الروماني المتواصل لمدة قرون. و استمراراً لقرون أخرى، بما فرضته الكنيسة من عقيدةٍ غريبةٍ عنهم، و من تمدنٍ ورثته عن الرومان.

و على ذلك تبلورت الشخصية الفكرية الأوربية: فكر قائم على عقيدة الكنيسة.

إلى أن شيئاً من الحرية، أيام عصر النهضة و ما بعده، سمح لأفراد اكتشاف التراث العلمي و الفكري الإسلامي، و الذي يدحض بأدلة و براهين ساطعة الكثير مما تعتمده الكنيسة. فأثبت التحقق صحة الرؤية العلمية و الفكرية الإسلامية، لتنفتح بذلك آفاق العلم، و لتنهار، و بكثير من المرارة و خيبة الأمل، مصداقية الكتاب المقدس و الكنيسة، و بشكلٍ خاص، في كل ما هو علمي.

منذ ذلك العصر، و كردَّة فعل، حدث في الفكر الأوربي طلاق بائن و تعارض تام بين الدين و بين العقل و العلم. فاللّه سبحانه جَلَّوَعَلَا مَلغيٌّ تماماً عندهم في كل ما هو علمي و موضوعي، منذ مقاعد الدراسة الأولى إلى أعظم مراكز البحوث. إلى درجة الوقوع في مفارقات صارخة، و باسم الموضوعية، مثل نسب عجائب و روائع الخلق إلى اختراع بشري شاعري، أي ... الطبيعة!

ردة الفعل تلك، على الدين، كان ينبغي أن تكون على التدخل البشري السافر في كل جوانب الدين، إن كان في الكتاب المقدس أو في العقيدة أو الشعائر.

هل يصحُّ، إذاً، تعميم أسس الفكر الموضوعي الأوربي، و القائم أصلاً على ردة فعل، و اعتباره نموذجاً عالمياً مطلقاً و أمثلاً؟

لا يمكن إخضاع الفكر الإسلامي الحق و القائم على القرآن الكريم لذلك النموذج. فهو بريءٌ من عقدة الأوربيين تجاه الدين و من ردود فعلهم تجاهه. و لم تكن له نفس المسيرة.

إذ إنه من اللافت للنظر، أن أتباع العهد القديم قبل سيدنا عيسى عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ لم يساهموا قط في التقدم العلمي العالمي.

كذلك الأمر بالنسبة للكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد، فلم يكن له أي دور إيجابي في التقدم العلمي العالمي عندما صارت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية. لا، بل

العكس، إذ كان للكتاب المقدس و للمسيحية دور سلبي للغاية، و ذلك بإحداث حالةٍ من الجمود التام، إن لم يكن تراجع. بحيث صار يُنْظَر إلى علوم القدماء كذروةِ ما يمكن للعقل البشري بلوغه، ذروة يستحيل تجاوزها.

أما القرآن الكريم و الإسلام، فقد كان لهما دورٌ حاسم في قفزة نوعية شاهقة في التقدم العلمي العالمي.

و إلى الآن، لا تعارض بين القرآن و بين ما ثبت علمياً بالدليل. بل، و كما رأينا، فإن القرآن سابق للزمن.

لا عجب، فهو حرفيَّة كلام الخالق الذي هو أدرى بما أوجد و خلق. فكيف يكون أي سبيل للتعارض؟

و نحن كذلك ممن خلق!

و هو سبحانه المهيمن على كل أحدٍ و شيء، و علمه سابقٌ لكل شيء و محيط به. فهو، يقيناً، أدرى بنا عندما نقرأ كتابه، يفتح لنا أبوابه أو يغلقها. و كذلك الأمر في أي مجال آخر.

فقد قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٤٠].

بالطبع، الضوء مادي، و النور لا مادي.

الضوء يسمح برؤية جانب من ظاهر المادة التي تتعرض له.

أما النور فإنه يسمح برؤية حقيقة الأمور.

فكيف بنورٍ من الله؟!

ما السبيل إلى ذلك النور؟

بالتخلص من ظلمات حجب عند التشبث بالمرجعية الذاتية.

كيف؟

بالتدريج، و بخطوات موضوعية و مسلكيّة و مضمونة:



الاهتمام

إن جواباً على سؤال لم يطرحه سامعه، لا قيمة له و لا معنى بالنسبة إليه، ما لم يطرح السؤال الصحيح و ما لم يكن أهلاً لتلقّي و تمثّل الجواب الذي كان يبحثُ عنه.

كذلك القرآن الكريم.

إذ في كل آية من آياته و كلمة من كلماته كنوز من أجوبةٍ تفوت من لا يهتمُّ بها لعدم إدراك قيمتها.

ولكن، **ليس الاهتمام معياراً في تحديد أهمية أمر ما.**

فالاهتمام متباين حسب الأشخاص و مقاماتهم و مهامهم. وهو كذلك متباين في الشخص نفسه عبر الزمن، و متبدِّل حسب أحواله.

إن لم يُعِر المرء موضوعاً ما في القرآن اهتماماً، فإن ذلك ليس سوى مرآة لحدود أفق ذاك الشخص في تلك اللحظة، و يبقى حكماً شخصيّاً و نسبيّاً لا يعوَّل عليه في تقييم ذاك الموضوع و ما يشير إليه من آفاق و حقيقة.

القرآن الكريم كنوز من أجوبةٍ، لن يعي معناها أو يدرك قيمتها من لا يقف عندها و يدّبِر عنها بعدم السؤال، فتفوته.



طرح السؤال الصحيح

طرح السؤال هو بحد ذاته تحوُّل من سلبيةِ اللامبالاة أو الاكتفاء، إلى التعبير عن الاستعداد للتلقي. بذلك، فإن طرح السؤال بمثابة النقلة النوعية من الانغلاق، إلى الانفتاح على الجواب و التفاعل معه.

ولكن ذلك لوحده لا يكفي.

فالجواب القرآني **ينتظر** من قارئه، **ليتفاعل** معه، **طرحَ** السؤال **المناسب و الصحيح**.

إذ إنّ كثيراً من الأسئلة **غير مناسبة**، لأنها في غير مكانها أو وقتها.

و هذا يحصل عندما لا يعي السائل ما الموضوع المطروح، فيثير سؤالاً لا علاقة به، أي في غير مكانه. مثل السؤال عن هوية إبليس في ست آيات لا علاقة لموضوعها بهويته.

و السؤال الذي في غير وقته، هو إما المطروح قبل اكتمال طرح الموضوع، و إما قبل أن يكون السائل مؤهَّلاً لتلقيه.

و كذلك فإنّ كثيراً من الأسئلة **غير صحيحة**، لاحتوائها في طياتها مغالطاتٍ صارخة.

الخاصية الأساسية لتلك المغالطات تكمن في تعميم **منطق بشريّ** على مسائل تتجاوزه، أي تعميم النِّسبيّ على المطلق.

ذلك المنطق نسبيّ، لأنه ينظر عموماً إلى الأمور من خلال منظار الظاهر، و ضمن نطاق مكانيّ و زمنيّ ضيِّق.

إنّ تجاوَز ذلك المنطق حدودَ إمكانياته، فهو يقع في إحدى أكبر مغالطاته عندما **يُسْقِط** الأدنى **على** الأعلى!

مثال ذلك: مجموعةٌ من مغالطات صارخة في سؤالٍ واحد: «هل الإنسان مُخيَّر أم مُسيَّر؟».

سؤالٌ لم يكن الهدف منه الاستفسارَ أو الازدياد من العلم، بل الهبوط بالنفوس، بالتشكيك في العدالة الإلهية، إلى وحشة ظلمات البعد.

لذلك، فإن في ذاك السؤال عملية التفاف و مواربة مريبة. و هي تكمن في عدم ذكر الله صراحة في صيغته: «هل الإنسان مُخيَّر أم مُسيَّر؟».

ذلك، لأن ذكر الله جَلَّجَلَالُهُ في أول عملية الاستدراج، خطأٌ تكتيكيّ:

إذ إنّ ذكر الله منعَطفٌ في الوعي، يعيد المرء إلى مفاهيم صحيحة عنه جَلَّجَلَالُهُ، تلقّاها في القرآن الكريم.

فلا بدّ إذاً أولَ عملية الاستدراج من صرف الوعي عن نور الحق، بالإدبار عنه إلى سهولة تعاطف المرء مع نفسه: «**هل الإنسان...**».

و قد خطى المرء هذه الخطوة، صار الرجوع صعوداً أصعب لما يتطلبه من عزم، و صار الانزلاق أسهل. فالعزم ليس خصلة تلقائية في الإنسان: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٥].

و قد علمنا ذلك، باتت عملية الالتفاف مكشوفة: «هل الإنسان مُخيَّر أم مُسيَّر؟»، أي و بصيغة أخرى: «هل **يُخيَّر** الإنسان أم **يُسيَّر**؟».

من المجهول في هذين الفعلين المبنيين للمجهول؟:

سبحانه، المقصود بالتشكيك بعدالته.

أمام سؤال «**هل الإنسان مُخيَّر أم مُسيَّر؟**»، سوف يكون الجواب غالباً: «مخيَّر». عندئذٍ يقال: «إن كان الإنسان حقاً مخيّراً، فكيف يتوافق ذلك مع ما قُدِّرَ (ثانيةً، مبني للمجهول!) عليه؟ إذ إن حرية الاختيار تتعارض مع القدر. و بذلك يستحيل الأخذ بالاثنين معاً، فلا بد من إلغاء أحدهما».

فتجد المرء بذلك، لا خيار (!) له. فيتحوّل بسرعة إلى الاحتمال الثاني الوحيد المعروض عليه، طالما أن الاحتمال الأول قد تم نقضه.

فلا يسلم.

بل يُطرح عليه سؤال ثانٍ: «إن كان الإنسان مسيَّراً أي لا خيار له في شيء، بحكم أن كلَّ شيء مقدّرٌ عليه لسبق علم الله، فكيف يحاسبه على ما أجبره عليه؟».

و قد وقع المرء في ذاك المأزق، بات جاهزاً للجنوح بالتشكيك في عدالة ربّه، أي بكمال ألوهيته. و بالتالي، بجدوى عبادته و طاعته!

أول مغالطات ذاك السؤال، مغالطة تتسم بانعدام تام للأمانة الفكرية:

وهي حصر المسألة و زجّ الفكر في احتمالين لا ثالث لهما: «مخير»، «مسيّر». و كأن حصر المسألة في تلك الثنائية، مُسَلَّمَة لا مناص منها، و كأن ليس للإنسان غيرهما.

بذلك، فإن السؤال يصير بحقيقته، بتفاهة سؤال مثل: «هل الشجر اشتراكي أم رأسمالي؟»، أو «هل الطير الصافات صوفية أم سلفية؟».

كذلك، فإن هاتين الكلمتين «مخير» و «مسيّر»، تُطرحان في السؤال و كأن كل واحدة منهما بدهية كونية لا تناقش، أو عبارة إلهية قرآنية لا يمكن إنكارها. إذ ما أبعد تلكما الكلمتين لما فيهما من إشكالات عن البدهيات، و كذلك فإنه لا أساس لهما في القرآن الكريم.

إضافة إلى ذلك، فإنّ صيغة السؤال توهم السامع بأن الكلمتين ببعديهما المطلق.

إن كان الإنسان حقاً مخيراً، و على الإطلاق، صار بإمكانه أن يختار أي شيء مثل أن يصير ملَكاً أو حتى إلهاً.

و إن كان مسيراً على الإطلاق، « فكيف يُسألُ عن عمله؟ و كيف **يُظلَمُ** بعقاب على ذنب أُجبِر عليه؟».

الواقع، أن الإنسان ليس «مخيراً» و لا «مسيراً»، **بل مكلَّف**: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٢].

ها و قد أثرنا المسألة و بدأنا في تفنيد ذلك السؤال، سرعان ما وجدنا أنفسنا أمام الآية الكريمة السابقة، من كلام الذي خلق المكلفين من خلقه و هو أدرى بما يصدر عنهم. فجعلها في كتابه تنتظرهم لتتفاعل معهم! فتجيبهم على قدر صحة سؤالهم و سعة إمكاناتهم و مؤهّلاتهم.

الأسئلة التي على شاكلة: «هل الإنسان مخير أم مسير؟»، أو «هل القرآن مخلوق؟»، أسئلة ليس الهدف الحقيقي منها الاستفسار سعياً للازدياد من العلم. بل استدراجَ الناس إلى الجدل، أي عدم الوصول إلى نتيجة مفيدة، أي انقطاعاً عن نور الحق، أي ضلالاً و اختلافاً و تفرُّقاً.

«العجيب» في الأمر، أن تلك الأسئلة طُرِحَت و لأول مرة في العراق، بُعَيْد فتحها المتزامن مع إغلاق تلمود بابل الذي ساهمت في تدوينه أجيال من أحبار اليهود. علماً أن العراق كانت تؤوي و لقرون قبل فتحها و بعده أكبر تجمُّعٍ لليهود في العالم.

و «الأعجب» من ذلك، أن تلك الأسئلة بأنفاسها و عقلية الجدل العقيم التي تميزها، لشديدة الشبه بالأسئلة التي تطرح في أهمّ تدريبات المدارس التلمودية التي تُخَرِّج الحاخامات. تلك التدريبات التي تجري في القاعة الأساسية للمدرسة، و التي تغص بالطلاب مجموعين اثنين اثنين، كل واحد من الاثنين يواجه الآخر و بينهما منضدة عليها المراجع اللازمة. فيُمنح أحدهما مسألةً و على الآخر إثبات الرأي المعاكس. و على الاثنين إثارة الجدل و الخوض فيه إلى أقصى ما يمكنهما و لأطول مدة ممكنة، و باستخدام كل الوسائل حتى المكابرة بالمحسوس أو الكذب أو المواربة أو التمثيل أو المباغتة و حتى الصياح. فتمتلئ القاعة بصياح الذي يقوم و الذي يقعد، والذي يضحك تهكماً و الذي يمسك برأسه منكراً، والذي يهز الكتاب الذي بيده مرتعداً و الذي يخبط المنضدة غاضباً.

كل هذه الأسئلة التي على شاكلة: «هل الإنسان مخير أم مسير؟»، **تقوم على جهل** الذي يدخل في الجدل **للأسس التي يقوم عليها السؤال**:

إذ، و إضافة إلى الوقوع في فخّ الخيارين المعروضين، فإنّ الاستدراج الذي في سؤال: «هل الإنسان مخير أم مسير؟»، ينطلي على الذي يجهل الأسس التي يقوم عليها السؤال و تختلط في عقله الأمور، **فلا يميز بين القدر و سابق علم الله** جَلَّجَلَالُهُ.

يكفي أن يستحضر المرء في عقله كل اشتقاقات جذر «قَدَر» في القرآن الكريم، و بشكل خاص كلمةً مثل: «مقدار»، ليتقدم في فهم عبارة «القدر»، أي:

تحديد المقادير كماً و زماناً، في الخلق و في الأرزاق و الآجال.

هذا التقدير، أي تحديد المقادير، أي الضبط، تجَلٍّ لما لا بد منه من **هيمنةٍ** إلهية و إحكامٍ و توازنٍ في الخليقة. ﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢].

الإنسان أحد عناصر تلك الخليقة. فلا بد من تقديرِ و ضبطِ كل ما يتعلق به، كما هو الحال بالنسبة لغيره.

فالإنسان ليس معزولاً عن الخليقة في فقاعة مخصصة له، بل هو مع غيره من الخلق في علاقةِ تفاعلٍ وثيقةٍ ضمن حيِّز الزمن. أي، و كما يكون الأمر مثلاً في حسابات تصادم جسمين ذوَي أبعاد و كتلة محددة، فإن الإنسان يتقدم في سيره عبر الزمن ضمن شبكة من تشعُّباتٍ متتابعة لاحتمالاتٍ أو أحداثٍ مضبوطة بقوانين دقيقة. و ذلك كله ضمن النظام الكليّ للخليقة حيث لا زيادة و لا نقصان: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ ... ۝٣﴾ [الملك: ٦٧/ ٣]، و لا تقطّع أو تفتُّت بل ترابط و تواصل متوازن و متكامل: ﴿... مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾.

ذلك النظام الذي بدأت جوانب ضئيلة منه تتراءى في العقود الأخيرة لعلماء الفيزياء الذرية و الكونية. فهم يدركون أكثر فأكثر علاقة أي جزء بالكل، و يفترضون أن أي شيء يحدث لمكَوِّنات أية ذرة ينعكس في الحال على ما يقابل تلك المكونات في «اللامادة» «antimatière».

فالقدر، إذاً، ليس محصوراً بالإنسان، بل يشمل الخلق كله.

و يمكن النظر إليه من خلال الزاوية السابقة على أنه:

تحديد و ضبط للطاقة و تجلياتها في المادة و «اللامادة» ضمن الزمن، و بناءً على ترتيب له معنىً في وجوده و تسلسله و في علاقة كل مراحله ببدايته و بنهايته.

و من يقدر على ذلك، إلا الذي أحاط بكل شيء علماً؟

لا عجب، فهو خالق كل شيء، سبحانه.

بذلك، فإن الذهاب إلى أن «**إتيان** المعصية و الفسق و الجور و الظلم قدرٌ محتم»، ما هو إلا مغالطةٌ تقوم على:

عدم التمييز بين سبق علم الله و بين القدر، و ذلك لجهل الحد الأدنى مما ينبغي علمه عن القدر.

إذ، كيف « يُقدَّر» إتيان المعصية و هو معارضة للنظام الكوني، في حين أنّ القدر ضبط لكلّ شيء ضمن ذاك النظام؟ و كيف يُجْبِرُ سبحانه بالعصيان من يأمره بالطاعة؟

ما يدخل في القدر، أي تحديد المقادير كماً و زماناً، هو شبكة الاحتمالات أو الأحداث. أي جملة الاحتمالات اللاحقة لفعل ما، و سلسلة الأحداث الناتجة و اللاحقة لذاك الفعل.

سؤال «هل الإنسان مخير أم مسير؟» في سطحيَّته و ضيق أفقه، يُطرح و كأن الإنسان في فقاعة، و أن ما يُقَدَّرُ عليه لا علاقة له بالخليقة.

و الأكثر من ذلك، فإن ذاك السؤال يطرح بغفلة تامة عن شبكة الاحتمالات و الأحداث، و كأن الإنسان شخص واحد في حدود الزمن المخصص له، و أن ما يُقَدَّرُ عليه لا علاقة له بغيره و بما و بمن سبقه و يلحقه.

أما ما يشكل على الكثيرين عن سابق علمه سبحانه، فما هو إلا الوقوع في مغالاطات إسقاط منطق و قوانين الأدنى على الأعلى.

سابق علمه سبحانه، **متعلق به**، و هو الله الخالق تقدس اسمه و جلّ و علا.

طالما أنه متعلق به سبحانه، فإنه و غيره مما هو متعلق به منزهٌ عما يحكم الخلق. فأين هو في



علوه و قدسيته سبحانه مما يصل إليه خلقٌ من خلقه من منطق أو قوانين.

فقد هدانا فضلاً منه و رحمة لنعلم أنه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣].

بشيء من التفكير السليم، و طالما أنه سبحانه الأول، نستنتج أن:

لا شيء يسبقه و لا حتى يصاحبه، و لا حتى الزمن!

كذلك، و طالما أنه سبحانه الآخر، فلا شيء يسبقه و لا حتى يصاحبه في المستقبل، و لا حتى الزمن!

فهو إذاً منزهٌ عن الزمن.

أي إنه لا مجال لإدخال عامل الزمن عند التفكير **بما يتعلق به** سبحانه.

و طالما أنه واحد أحد، فإن الأول و الآخر سبحانه واحد، كما و لله المثل الأعلى ـ أن نقطة البداية و النهاية واحدة في الدائرة.

و في مجرد محاولة لتقريب ذلك إلى الأفهام، نقول: طالما أن الأول سبحانه هو الآخر، لذلك فإنه يرى منذ البداية كل ما نعتبره مستقبلاً مقبلاً إليه، أي عملياً: ماضياً.

الفكرة السابقة خارجة عن المألوف.

ولكن... هل يمكن اعتماد المألوف عند التفكر بالسبوح القدوس الذي لا تدركه الأبصار و لا تبلغه العقول؟ سبحانه و تعالى!

الفكرة السابقة بخروجها عن المألوف، تُربِك من يضع نفسه (دون أن يعي ذلك) مكان الأول و الآخر جَلَّجَلَالُهُ، فلا يدركها لعجزه عن التجرد عن الزمن. و كيف يدركها، و لم يقم بالجهد الأدنى لتطوير فكره استناداً إلى نور الحق!

فقد جعل سبحانه للعالمين في كتابه المنزّل الأخير دعوةً لتطوير الفكر، انطلاقاً من النظر إلى نسبيّة الزمن عند التفكُّر في مجال الخليقة و في فعله سبحانه في خلقه. و ذلك عندما قرّب الأمر إلى الأذهان بصريح الآيات مثل: ﴿...وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٧]، و﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٥]، و﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤]،

و﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٢]، و﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٣-١٠٤]، و﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٢-١١٣]، و﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٥].

هذا عن نسبيّة الزمن **في مجال الخليقة و في فعله سبحانه في خلقه.**

أما عندما يتشرّف التفكُّر **بما يتعلق به** سبحانه، فلا مجال لإدخال عامل الزمن، إذ إنه سبحانه منزه عنه، كما رأينا في اسميه الأول و الآخر جَلَّجَلَالُهُ و كما يشير إلى ذلك القرآن برمته:

إذ لا يختلف عاقلان على عظمة و رقيّ و بشكل خاص دقة لغة القرآن الكريم. فما أبلغ البرهان على تنزهه سبحانه عن الزمن، أي انعدام الزمن في كل ما يتعلق بذاته جَلَّجَلَالُهُ، عندما ينتبه قارئ القرآن إلى ترفُّعه سبحانه عن مراعاة استخدام الزمن المناسب للحدث المذكور في الآية.

فكم من مرة و مرة، عبَّر سبحانه عما يكون في الآخرة - أي في المستقبل بالنسبة لنا. بفعل ماض، بدلاً من فعل مضارع مصحوب بما يفيد الاستقبال مثل سوف. ما أكثر الآيات الكريمة على نسق: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧١].

ليس الترفع في استخدام الزمن المناسب في تلك الآيات مجرد أسلوب بلاغي، بل هو إشارة إلهية في كتابه الكريم إلى تنزهه سبحانه عن الزمن.

بناءً على ما سبق ندرك تمام الإدراك أنه سبحانه، و هو منزه عن الزمن، فإن ما هو ماضٍ و حاضر و مستقبل بالنسبة لنا، سيان بالنسبة له سبحانه.

و كأن الزمن كله لحظة، كما أن ﴿ ...وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧١].

بذلك فإنه لا تعارض بين سابق علمه سبحانه، و بين مسؤولية المكلفين عن أعمالهم.

حذف عامل الزمن عند التفكّر به سبحانه، بإذنه و بهدايته و بنوره، قفزة نوعية في الفكر لا بد منها.

ولكن، و بما أن السواد الأعظم من الناس قد اعتاد النظر إلى الأمور من خلال المنظار البشري المحدود في العمق و في المكان و الزمان، فإن حذف عامل الزمن من التفكير يشُقُّ عليهم كثيراً. و هو بالنسبة لهم بمثابة خطوة جبارة تكاد تكون مستحيلة.

لذلك فإن تفكيرهم يقف ممنوعاً أول ما يتعرضون إلى أمور تتعلق بذاته سبحانه المنزه عن الزمن.

رغم ذلك، فإنه يمكن تجاوز ضرورة حذف عامل الزمن من التفكير في مسألة سبق العلم و مسؤولية العباد، و ذلك بتبسيط الأمور بأدلة قرآنية و شرعية لا خلاف عليها:

الهدف المُبَطَّن لسؤال «هل الإنسان مخير أم مسير؟» هو الوصول إلى تعارض مزعوم بين القدر الذي يختلط بسبق العلم، و بين مسؤولية العباد إن أذنبوا.

إن لم يحقق الفكر القفزة النوعية في حذف عامل الزمن، و بقي على ما اعتاده، فلن يجد التعارض المذكور:

إذ العبرة في تحميل أياً كان مسؤولية عمله و تجريمه، تكمن في نيته و إرادته.

فلا يختلف اثنان أن تلك المسؤولية تسقط بغياب تلك النية و الإرادة، إما بغياب الوعي أو فيما يُجبَر المرء و يستكَره عليه.

إذاً، **لا إشكال أصلاً**، ليعترض المجادل قائلاً: «كيف يحاسبه على ما أجبره عليه؟». إن كان حقاً قد أجبر مُستَكْرَهاً، فلا مسؤولية له.

إضافة إلى ذلك، فإنه سبحانه و تعالى لا يخيِّر عباده بين الذنب و الطاعة، بل يبين لهم إثم الذنب و شروره و ينهاهم عنه، و يأمرهم بالطاعة و يَعِدُهم بالجنة. إنما الشيطان «يخيِّر» بينهما.

خاصة أن اختيار (!) عبارة التخيير فيما يتعلق بالذنب، مغالطة صارخة:

فالتخيير، و كما يشير إلى ذلك جذر الكلمة، دعوة إلى انتقاء الأنسب بين **خيرين** أو أكثر ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٢٠]. فلا اختيار حقاً بين شرٍّ أي ما لا خير فيه، و بين خير، و إنما استخدام خطأ للكلمة.

لا بد أخيراً من لفت النظر إلى أن ذروة مهزلة إسقاط الأدنى على الأعلى تتجلى في أسئلة من نمط:

« **كيف** يحاسب اللّه الناس على ذنوبهم و هو يعلم أنهم سيذنبون؟».

المهزلة الكبرى تكمن في عدم وعي الذي يخوض في ذاك السؤال أنه يتصور نفسَه مكان اللّه سبحانه، و الناس أمامه يريد حسابهم.

ذروة المهزلة: أنه إن لم يستطع حل تلك المسألة بعقله الراجح و ذكائه الخارق، فكيف يستطيع سبحانه ذلك؟!

و كمثال آخر شائع من الأسئلة التي تتنافس على مكان الصدارة في مهزلة إسقاط الأدنى على الأعلى، سؤال من نمط: «**كيف** يحاسب اللّه غير المسلمين و خاصةً الكثيرين الطيبين و المسالمين الناشئين بعيداً عن الإسلام فلا يعلمون عنه شيئاً ؟». طالما أن الذي طرح ذاك السؤال لم يستطع حل تلك المسألة بعقله الراجح و ذكائه الخارق، فكيف يستطيع سبحانه ذلك؟!

***

و قد أدركنا خطورة المغالطات الكامنة في الأسئلة غير الصحيحة، بات طرح السؤال الصحيح و المناسب خطوة أساسية في التفكير السليم الضروري لتدبر القرآن الكريم.

الأهلية

بغضّ النظر عن الذين ذكرناهم ممن يمتنع القرآن الكريم أمامهم امتناعاً تاماً، فإن الجواب القرآني يفوت من ليس مؤهلاً لتلقّيه.

إذ لا بد أن يتوفر في قارئ القرآن، و لو الحد الأدنى من اللياقات اللازمة **للالتقاء** بحقيقة معانيه و رسالته. و إلا، فإنها تبقى ممنوعةً عنه.

انعدام الأهلية لتلقي الجواب، مرتبطٌ و متناسبٌ مع سامعه أو قارئه، و نقاء نفسه و ذهنه من عراقيل الآراء المسبقة و الأفكار الجاهزة و المفاهيم المغلوطة أو المرتجلة. و كذلك مع سعة أفقه و عمق فكره و تطور ملكاته الفكرية، كما رأينا مثلاً في القدرة على التفكير بتجردٍ عن عامل الزمن.

ليس انعدام أهلية التلقّي نهائيّاً في كل الحالات، بل هو على الغالب مؤقت.

و الباب لاستعادة الأهلية و لتطويرها مفتوح، و يكون ذلك بالتدريج.

أولى خطوات التدرّج في تطوير الأهلية لتلقّي الجواب و تمثّله، **تكونُ بالبحث الصادق في كل ما يتعلق به، و ذلك لفهمه.**

إذ إن القيام بالبحث، في حقيقته، تحولٌ من سكونٍ و سلبية الاكتفاء أي الانغلاق، إلى إيجابية التحرك و الانفتاح إلى آفاق أوسع و أكثر تنوعاً.

أما الصدق في البحث، فهو ضمانة أن الباحث يجند طاقاته النفسية و الوجدانية و العقلية بالكلية، باتجاه واحد نحو الحق.

بهذا، و قد انسجمت خفايا نفسه و وجدانه مع عقله، فلا تتبدَّد طاقاته بل تتوحد. هذا مما يفسح له المجال **للتواصل مع أصل الحقيقة** بناءً على قانونِ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ... ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت. بذلك تتضاعف إمكانيات نجاحه، للوصول إليه، أضعافاً مضاعفة.

و قد خطا المرء تلك الخطوة الأولى في صدقه في البحث، صار تخلصه من عراقيل الآراء المسبقة و الأفكار الجاهزة و المفاهيم المغلوطة أو المرتجلة، أسهل و أسرع، و قد بات في صدقه يعيها، ليصحح أفكاره و مساره بنور الحق الذي يتواصل معه.

فأبواب القرآن تنفتح لمن يستفتحها، بقدر صدقه.

بذلك، فإن على طالب الحقيقة قراءة النص القرآني الشريف و قلبه:

متوهِّج توّاق لفهم كلام خالقه و خالق الكون

كله شوق و حب مطلق للمعرفة

لا يعتريه ادّعاء

ولا غرور

ولا طموح التعالي

ولا فضول الذي لا يعرف حدوده.

إن كان مستعداً و مؤهَّلاً للتلقِّي، فإنه يفهم تلقائياً بنور من الله ما ينبغي أن يفهمه، و يستمر في ذلك وصولاً إلى ما شاء الله مما يتجاوز ما هو معلوم.

ولكن، كيف يعرف طالب الحقيقة أن ما وصل إليه مما يتجاوز ما هو معلوم، فتح و نور، و ليس ادعاءً و غروراً أو وقوعاً في مطب التهيّؤات و الأوهام؟

الأصل أن المرء إن كان صادقاً مع الله، ذاكراً له أي لا يغيب عقله و وجدانه عنه، و **هو الحق** جَلَّجَلَالُهُ، فلن تغيب عنه **الحقيقة**.

و إن كان صادقاً مع نفسه، أي إن قلبه لم يتلفه الادّعاء و الكبر و الغرور و الذنوب و الكذب خاصة، فسوف يميّز بجلاءٍ بين سعادةِ نورانية الصدق و بين تعاسةِ شقاوة ظلمة الغش و الكذب، و بين أنس نور الحقيقة و وحشة ظلام البُعد و الضلال و الوهم.

كلما كان الإنسان صادقاً مع الله و مع نفسه، كلما كانت هذه القدرة على التمييز أقوى.

ولا يقف الأمر عند ذلك، بل **لا بد له** من التحقق مما وصل إليه مما يتجاوز المعلوم، و ذلك إستناداً إلى ضوابط و قواعد راسخة، يجدها في القرآن نفسه، و في اليقيني المتواتر من السنّة المشرفة، و في الخليقة و قوانينها، و في الضوابط المطلقة لتلك القوانين.

لعل أول سؤال ينبغي ألا يغادر ذهن طالب الحقيقة عندما يقرأ القرآن الكريم هو:

«ماذا يريد منزِّل القرآن الذي خلقنا و خلق الأكوان أن نعلم؟

و ماذا يريدنا أن نفهم؟

و ماذا يريدنا أن نعمل؟».

يريد سبحانه أن يدربنا على رفع لياقاتنا النفسية و العقلية و الفكرية و الروحية، إلى الحد الأقصى لطاقة كل منا، و ذلك من خلال تناول كتابه و استقرائه و العمل به.

فالنص القرآني الشريف يحوي على كنوز من أسس لا غنى عنها للسمو بالنفس.

و هو يطور اللياقات العقلية، لما يتطلبه من حسٍّ مرهف و انتباه متواصل و نباهة عالية و ذاكرة جبارة.

و يرفع اللياقات الفكرية، لما يتطلبه من سعيٍ في تدقيق المفاهيم و تطويرها، و جمعٍ لمعلوماتٍ موزعةٍ عبر صفحاته و مقارنتها و الربط بينها لاستخلاص رسالتها الكليّة، و لما يتطلبه من لياقات متطورة للخوض في مواضيعه العليا.

و يسمو باللياقات الروحية لانفتاحه على نور الحق.



الاقتناع

من بعد ما رأيناه من ضرورة التريث في الحكم عند التدرج في التعرف على القرآن الكريم، و من بعد معرفة الموانع التي تحُولُ بين المرء و بين الالتقاء بحقيقة و نور القرآن، و من بعد مراعاة طرح السؤال المناسب و الصحيح، و من بعد الشروع بالبحث الصادق لمعالجة إشكالات المؤهلات، فإن قارئ القرآن الكريم سوف يقف مراراً أمام عدم اقتناعه بالجواب القرآني.

عموماً، إنْ لم يقتنع المرءُ بجواب، فهذا لا يعني أنّ الجواب بالضرورة غير صحيح!
فالجوابُ المقنع ليس بالضرورة صحيحاً، و كذلك فإنّ الجواب الصحيح ليس بالضرورة مقنعاً.

إنْ كان الجواب صحيحاً فإنّ صحته دائمة و مطلقة.
أما القناعة بصحة الجواب، فهي مرتبطة بالأشخاص و بظروفهم و أحوالهم و مؤهلاتهم.
بذلك، فالقناعة مسألةٌ نسبية و شخصية، لا يُعوَّلُ عليها في تقييم صحة جواب.

طالما أنّ قناعة شخص ما، مرتبطة بظروفه و أحواله و مؤهلاته المتبدلة، فهي متبدّلة معها.
و كذلك متدرّجة، إنْ كانت تلك الأحوال و المؤهلات متدرّجة نحو الأفضل.
فمن الحكمة التريّث ريثما يصير أهلاً لفهم الجواب.
كذلك التدرج في تدبّر و فهم القرآن الموجّه للعالمين.

مستويات فهم القرآن الكريم

الخطوط العريضة للموضوع

إنْ كان مستوى القرآن موافقاً لنموذجٍ بشريٍّ ما، في عصر و مكان ما، فإن في ذلك غُبناً للذين لا ينتمون إلى ذلك النموذج، و للذين هم في عصر و مكان آخر.

كذلك، إنْ كان مستوى القرآن موافقاً لمستوى نموذجٍ بشريٍّ ما، فإنّ ذلك غبنٌ للأقلِّ مستوى، بقدر ما هو غبنٌ للأعلى مستوى.

خاصة أن فهم رسالة القرآن ليست مسألة تكميلية، بل **ضرورة مصيرية**.

الخالق العظيم مُنَزِّل القرآن جَلَّجَلَالُهُ أدرى و أعلم بهذه الحقيقة، و بمن سيقرأ كتابه من خلقه. لذلك فقد صاغه بطريقة هو الوحيد القادر عليها، بحيث يُفْهَم على مستويات متعددة سمواً و عمقاً، لا تناقُضَ أو تضارب بينها.

فمن رحمة الذي افْتَتَحَ القرآن باسميه الرحمن الرحيم، أن إنساناً عادياً يستطيع أن يقرأه و يأخذ منه ما يُسعِده مما يتناسب و حدود إمكانياته، و من غير تحميله فوق طاقته. و ذلك للخصائص الاستثنائية لصياغة و بنية النص الشريف.

فالذي أنزل القرآن هو نفسه سبحانه الذي خلق نفس و عقل ذاك الإنسان العادي، و هو نفسه الذي جعل فيه من الفطرة ما سبق و أشرنا إليه.

بذلك، فإن نفس و عقل و فطرة ذاك الإنسان، أصلاً و في الحقيقة، على انسجام مع النص القرآني الشريف. و لذا، فإنه لا يخفى عليه ما فيه من قدسية و روحانية، فيقرأه بقبول تام، يسعد بما تحصَّل له من فهم و يُسَلِّم بما يتجاوز فهمه، فتشمله الرحمة فيمن تشمل.

ولكن رسالة القرآن الكريم أبعد ما تكون عن مجال مدارك و اهتمامات إنسان عادي!

و هي قطعاً ليست محدودة بحدود ملكاته العقلية و مؤهلاته الفكرية!

بل تتجاوزه هو، و ما لا يمكن تخمينه و لا إدراكه.

إذ إنّ ما نجده في خير ما ورد من أرقى التفاسير المتوفرة يكاد لا يتجاوز آخر مستوى الفهم الأدنى للقرآن الكريم. أما المستوى الأوسط لفهمه، فهو يتوجه منذ أوائله إلى النخبة الذين يتمتعون بملكات عقلية متطورة و بثقافة واسعة و عميقة.

بما أن القرآن الكريم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٥٢]، فأينَ مؤهلات أيٍّ ممّن يطّلعُ عليه، من المستويات العليا و القصوى التي يحويها في آياته!

القرآن بحقيقته و بمستوياته العليا و القصوى يتجاوز إمكانيات العقل البشري. إذ إن رسالته و حقيقته ليستا محصورتين بالبشرية، كما هو جليٌّ أول سورة الرحمن.

إذ إنه سبحانه عندما يقول: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ فإن ذلك الكلام على الإطلاق: فهو جَلَّجَلَالُهُ علَّم القرآن، أولاً، ملائكته، و خاصة سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فهُمْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أول من علموا به. فقد ورد، و على سبيل المثال، أن سبعين ألفاً منهم شيعوا الأنعام عندما نزلت. ثم كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أول الثقلين علماً به، و منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سمع الإنس و الجن.

هذه الحقيقة فاتت سواد من قرأ تلك الآية، و ذلك للتسرع في القراءة بحيث اندمجت الآيات الأربع الأولى من السورة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾، لتصير في أذهانهم [الرحمن خلق الإنسان علمه القرآن و علمه البيان].

و طالما أنه سبحانه تفضل على كل عاقل مِن خلقِهِ بإمكانية الازدياد من العلم و الارتقاء فيه، فإن الأفهام تتدرج عمقاً و رقيّاً في الآيات و السور، نحو مركز العلم إلى حدود ما شاء الذي وسع كرسيّه السموات و الأرض، حيث تقف الأفهام عند حدِّها، لا عند حدِّ الآية أو السورة، لأن الآية أو السورة و حتى الكلمة القرآنية تتجاوز إمكانيات الأفهام.

آيـة

تسمية الآية بالآية ليس مصطلحاً بشرياً اتُّفِقَ عليه، بل تسمية شاءها منزل القرآن عَزَّوَجَلَّ.

يمكن فهم معنى لفظ «آية»، على أنه بيِّنة أو دليل أو برهان. و لكن لفظ «آية» ليس مجرد رديف لتلك الألفاظ، بل يتميز عنها بما يلي:

فالآية يُقصدُ بها: ما يثير الدهشة و الإعجاب، و ما تحارُ به العقول و ما يفوق إمكانية إحاطة الأفكار.

بناءً على ذلك، فإن لم تحيّر آية من آيات اللّه، و خاصة آيات كتابه، عقلَ قارئها أو سامعها، و اعتقد أن فكره قد احتواها، فإن ذلك يعني أنها لم تعد آية!

و هذا محال لأنها آية ﴿...لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ...﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٦٤]!

العلّة إذاً، في تبلد الحس و العقل، لا في الآية.

لقد كان جدي مفتي الشام و مفتي القدس و قاضي الحرمين الشريفين عالماً علّامة، و نابغة، إذ كان أصغر قضاة الخلافة العثمانية سناً عندما عُيِّن. و كان عندئذٍ فقيهاً ابن فقيه و محدث. و كان حافظاً لكتاب اللّه، مدهشاً في استحضار أية كلمة أو آية منه في أية لحظة بلا تردد و لا خطأ.

مرَّ والدي أمامه ذات يوم و قد تجاوز الثمانين من عمره، و كان المصحف مفتوحاً بين يديه، و كان يضحك.

خشي والدي أن يكون فيه أو في ثيابه ما يضحك، فاستفسر جدي سائلاً. فأجابه جدي: «إني أضحك من نفسي! فالآن فهمت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١]!».

بُهِت والدي و هو أدرى بعمق علم والده، لذا فلم يستفسر عما فهمه، علماً منه أن الخوض في ذلك فوق طاقة فهمه.

قناعتي الشخصية هي أنه لو عاش جدي ثمانين سنة إضافية و هو يخوض في القرآن الكريم، لقال ثانية: «الآن فهمت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾!».

عملياً

تبيان مستويات فهم القرآن الكريم، لا يمكن أن يكون إلا ابتداءً من الأدنى ارتقاءً إلى مستويات أعلى. إذ لا يمكن الخوض في المستويات العليا إلا لمن هو مؤهَّلٌ للخوض فيها ممن خاض أصلاً في المستويات التي سبقتها و استطاع فهمها و الارتقاء فيها.

أدنى مستوى لفهم القرآن الكريم من المستوى الأدنى

هو الذي نجده في ترجمات القرآن.

هذا، وفي أحسن الأحوال، عندما تكون الترجمة بحدها الأقصى من الدقة، و ذلك ضمن إمكانيات لغة الترجمة. إذ غالباً ما تفتقر لغات العالم إلى مفردات تقابل مفردات القرآن.

فما أصعب، و على سبيل المثال، ترجمة كلمة «سبحان»، أو كلمة «يفسدون». فما بال كلمات لا مقابل لها في سواد لغات العالم، مثل كلمة «نور»، فتترجم و كأنها كلمة «ضوء»، مع الفارق الشاسع بين الكلمتين.

كذلك، فما أصعب ترجمة اشتقاقات الكثير من الكلمات القرآنية، إذ إن اللغة العربية تتميز باحتوائها على سائر اشتقاقات أي كلمة من كلماتها، في حين أن اللغات الأخرى تحوي عدداً محدوداً و غير نظامي من الاشتقاقات. مثلاً: اسم و فعل، و لا وجود لصفة تقابل الصفة المراد ترجمتها في القرآن الكريم.

كذلك، فإن الكلمة تثير بالضرورة تداعيات. و هذه التداعيات تؤثِّر في تفاعل قارئها أو سامعها معها. و هي تختلف اختلافاً جذرياً بحسب البلاد و الثقافات. فكلمة «البقرة» و على سبيل المثال، تكاد تكون كلمة حيادية لا تثير تداعيات تُذْكَر في الثقافة الإسلامية. بالمقابل فإن تلك الكلمة، بالنسبة للفرنسيين، تدخل في كثير من تعابيرهم الشائعة في الدارج من لغتهم، و في الكثير من تداعياتهم، مما يبعد وقع هذه الكلمة، هبوطاً، بعداً شاسعاً عن حيادية وقعها القرآني.

إضافة إلى ذلك، فإن وقع الكلمات على النفوس و العقول يختلف بحسب اللغات. كمثال على ذلك، كلمة «ظل» ذات الوقع الإيجابي في لغة القرآن و الحديث الشريف، حيث تحوي معاني الحماية

و الوقاية و الراحة و الطمأنينة. و التي تأخذ وقعاً سلبياً في لغات كالفرنسية أو الإنكليزية، إذ تحوي عندئذٍ معاني الظلمة أو الطرد أو الريبة و الشبهة و الغدر.

عموماً، **يتماشى** مستوى الفهم الذي تفسحه الترجمة بحدها الأقصى من الجودة، مع ما نجده في التفاسير المختصرة. إذ غالباً ما يعتمد المترجمون تلك التفاسير.

بذلك، نفهم سبب اختلاف ترجمة بعض الكلمات أو الأفكار، لاختلاف أو تعدد ما ورد فيها في تلك التفاسير.

طبقات فهم القرآن الكريم من المستوى الأدنى

وهي التي نجدها في التفاسير الشهيرة و المعتمدة أو محاولات التفسير المعاصرة.

فالفارق في مستوى الفهم المطروح بين تفسير الجلالين و تفسير ابن كثير جليّ. كذلك الفارق بين تفسير ابن كثير و تفسير القرطبي، و بين تفسير القرطبي و تفسير الرازي، و بين تلك التفاسير و ما نجده في بعض الوقفات التأملية في ظلال السيد قطب أو كتابات الشيخ محيي الدين.

ليس جعل تلك التفاسير في المستوى الأدنى لفهم القرآن الكريم، تبخيساً لها.

إذ إن ثمة بَوناً شاسعاً بين علم مَن لم يطلع عليها بالقرآن، و بين ما فيها من علم مرتبط به.

إنني شخصياً لا أجرؤ الخوض في بحور آية من كتاب الله و بنوره متبرئاً من حولي و قوتي، إلا من بعد مراجعة ما ورد في تلك الآية في التفاسير بمنتهى التواضع و الاهتمام و الاحترام.

ولكن، ليس جعل تلك التفاسير في المستوى الأدنى لفهم القرآن الكريم، إلا لعظمة مكنون القرآن الكريم مما يفوق التصور و قدرة الأفهام.

فمستوى فهم القرآن الكريم الذي نجده في أيٍّ من التفاسير المتوفرة مرتبطٌ بالضرورة بحدود رؤية و فهم المُفَسِّر و بمن يستشهد بهم ممن سبقوه.

فَهْمُ المُفَسِّرين متناسب معهم و مع ظروف و ثقافة عصرهم. و بشكل خاص، مع منهجهم في التفسير. إذ إن جميع التفاسير الشهيرة تشترك، عموماً، بمنهج متشابه. ألا و هو سيرٌ نقطيٌّ متسلسل في القرآن الكريم، آيةً آيةً. و هو منهج غير متوافق مع الآية أو السورة **بحقيقتها المطلقة** ضمن العرض الإلهي الكلي و الكوني لكتلة القرآن الكريم، و علاقته الوثيقة بالحقيقة و تجلياتها في الخليقة مما يتجاوز الثقافات و العصور.



طبقات فهم القرآن الكريم من المستوى الأوسط

للارتقاء إلى هذا المستوى شروط أدناها:

– الأخذ بعين الاعتبار كلّ ما سبق و فصّلناه مما لا يمكن تجاهله، من بعد تنقيحه تنقيحاً تاماً.

– عملية تطهير تام للنفس و للعقل من سائر المواقف المسبقة و الآراء الجاهزة.

– الانتباه المتواصل لعدم الوقوع في خطأ الإسقاطات البشرية.

– التجرد التام عن الأنا و مهزلتَي الفضول و طموح التفوق.

– التجرد عن الرأي و عن كلّ المكتسبات السابقة، للتحول إلى مثل صفحة بيضاء نقية جاهزة للتلقي.

– التبرؤ التام من الحول و القوة، فالموقف ليس موقف مراجعة كُرّاسٍ من كُرّاسات الجامعة بمجهود ذهني عنيد، أو مطالعة بين قبول و اعتراض و بين اهتمام و ملل لكتابٍ من رفوف مكتبة، بل وقوف في حضرة الله و كلماته و بشهود ملائكته.

– تفعيل الحساسية و النباهة و الذاكرة إلى الحدّ الأقصى.

– تفعيل ملكة ربط المعلومات إلى الحد الأقصى.

– تفعيل الافتقار إلى الله و الشوق إلى نور علمه بالحدّ الأقصى.

و قد راعى المرء تلك الشروط فإنه يتحرر من الأثقال التي كانت تمنعه من الارتقاء إلى النص القرآني، و يتخلص من الحجب و الكثافات التي كانت تحول بينه و بين نوره. فيرى بجلاء و من غير مجهود ما كان خافياً عليه عندما كان يطالعه و هو في المستوى الأدنى.

كالفارق بين مبصرٍ و أعمى يتجولان في نفس القصر. فالأعمى لم يرَ القصر بحدائقه و أسواره من خارجه، و مهما لمس و تحسس فلن يدرك عظمته و بهاءه. و ما له سوى أقوال غيره، فكيف إن كانوا عمياناً مثله. و إن وُفِّقَ للدخول من بابٍ من أبوابه، فما له إلا السير على غير هوادة متعثراً واقعاً، أو الالتصاق بالجدران تحسساً، فلا يدري أنه بالنهاية يدور ليعود باستمرار إلى نفس النقطة، و قد فاتته أبواب و أدراج تقوده إلى مكتبات و قاعات ملأى بنفائس الدرر. و ما له من ذلك القصر هو و غيره مثله إلا الآراء و التخمين و نزر يسير مما فيه.



أما المبصر، فلا حاجة له بالآراء و التخمينات، ليدرك بنظرة واحدة أنه في قاعة كنوزٍ و درر أو سلاح و عتاد أو قاعة اجتماع القيادة أو مكتبة عامرة. أو أنه أمام أبواب أو أدراجٍ توصله إلى طوابق عليا متتالية عروجاً في السموات.

و قد وعى المبصر تمام الوعي أن النص القرآني الذي يتدبره ليس كما تكون الصياغة البشرية للأفكار أو الطروحات للمواضيع، و تخلص من ذلك الحجاب، فإنه يدرك مدى جلاء النص الشريف.

و يدرك مدى الرحمة الإلهية في جعله مُيسَّراً للذكر في صياغته التي تساعد متابعة و معرفة بيت القصيد من خلال ربط عناصر نفس الموضوع التي تشير إليها كلمات مميزة. و كذلك من خلال نقلات و وقفات و عودات معبرة للغاية. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٣٢].

و قد جعل المبصر نفسه و عقله صفحة بيضاء نقية جاهزة للتلقي، و قد فعَّل ذاكرتَه إلى الحد الأقصى، و ضبطها بحيث أن أول ما يحضر في ذهنه و هو يقرأ القرآن هو القرآن نفسه. فتتحرك في عقله، بتلك الذاكرة المشرقة و المنضبطة، آليةُ التداعيات الضرورية لتدبر النص القرآني الشريف. فيدرك، عندئذٍ، خاشعاً ممتنّاً مدى كرمه سبحانه بجعل القرآن ميسراً للذكر ﴿... فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، و هو يرى كيف تقوده التداعيات السليمة إلى المكان المناسب، فيجد المعلومة اللازمة التي حضَّرها سبحانه له تنتظره، لتتكامل في عقله و وجدانه الصورة القرآنية بكل أبعادها و عظمة حقيقتها.

و يدرك ممتنّاً أن هذه المعلومات لو جمعت في مكان واحد، لما استطاع فهمها لشدة تركيزها و عمقها.

و يدرك ممتنّاً أن جولاته كانت تحضِّره تدريجياً لتلقّي تلك المعلومات عندما يكون حقاً مستعداً لتلقيها و جاهزاً لفهمها.

و يدرك المبصر ضرورة و قيمة طرح نقاط أو مواضيع معينة مراراً في أماكن متعددة. بحيث أن ما يحيط بها في كل مرةٍ، يسمح النظر إليها من زوايا متعددة، لتتكامل الرؤية تماماً. كما هو الحال بالنسبة للشواهد السبعة حيث يأمر سبحانه الملائكة بالسجود لآدم.

و كما هو الحال، عندما تطرح تلك النقاط أو المواضيع بطريقة مختلفة و متكاملة فيما بينها، ضمن إطار ليس متطابقاً بل مشابه و متكامل، مثال ما رأيناه في موضوع الأميين.

أو كشواهد فرعون موسى، و اللافتة للنظر في تعددها، دليل الأهمية البالغة لما تشير إليه، و التي تأخذ كل معناها من خلال الإطار المحيط بها، و التي بدورها توضِّح كثيراً ذاك الإطار، شرط فهم عمق ما تشير إليه.

و يرى المبصر عدة مواضيع تسير متضافرة لتعطيه تصوراً و فهماً متكاملين للرسالة الإلهية. كالمواضيع التي تسير متضافرة في سورة البقرة و تتجاوزها بعيداً إلى سورٍ أخرى.

و يميِّز المبصر بوضوح بين موضوعٍ مطروحٍ عبر السور و بين نقاط توضِّح و تدعم ذلك الموضوع. كقصة سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، التي ما هي إلا معترضة كبيرة و توضيح عظيم لموضوع يحويها، جليٌّ و صريحٌ فيما يسبقها من أواخر سورة هود، و ما يليها من أواخر سورة يوسف نفسها. موضوعٌ يهمُّ بشكل خاص أولي الأمر ممن هم أحوج إلى معرفة حقيقة أحوال الناس، ليصيبوا و يحسنوا في اتخاذ القرار المصيري المتعلق بالألوف المؤلفة على مدى قرون.

و يدرك المبصر مدى كرمه سبحانه في تيسير الأمر لمتدبر كتابه الكريم بجعله سبحانه، مثلاً، سؤالَه لملائكته: ﴿...أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾ في سورة سبأ بالذات. و كان بالإمكان، بحسب منطقنا البشري، أن يرِدَ هذا السؤال في أماكن أخرى عديدة.

ورود ذلك السؤال في سورة سبأ بالذات، دعوةٌ إلهية في غاية الشفافية لتذكُّر ما ورد عن سيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و ملكة سبأ في سورة النمل.

و في زيادة من كرمه و رحمته سبحانه، فإنه يدعم الذي انتبه إلى تلك اللفتة بتأكيدٍ لا يدع مجالاً للشك، و ذلك بذكر جانبٍ معبر، و في محله ضمن تلك اللفتة، عن سيدنا سليمان؛ ليتابع الذي هو مخوَّلٌ للخوض في هذا الموضوع ممن يدرك أهميته البالغة، فيربط أول ذكر له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و ما ورد معه، بآخر ذكر له و ما ورد معه. فتتحصل لديه رؤية لا بد منها، لتدبر و فهم ما ورد في سورة براءة و العمل به. فيكون بذلك، قد خطا خطوة كبيرة و أساسية لتحقيق هذه المهمة، التي تتطلب تدبر تلك الشواهد نفسها تدبراً يتجاوز ذلك المستوى الأوسط إلى الذي يليه.

قد تثير الأسطر السابقة تساؤلاً في طيّاته اعتراض: «لِمَ لم تُطْرَح تلك الرسالة الإلهية ببساطة و وضوح؟».

نعيد صياغة ذاك السؤال لنظهر حقيقته: «لِمَ لم تُطْرَح تلك الرسالة الإلهية بطريقة يستطيع فهمها أيٌّ كان و من غير أي مجهود؟».

الجواب، و بكل بساطة، أن تلك الرسالة الإلهية ليست موجهة على الإطلاق لأيٍّ كان، و خاصةً غير المستعدين لبذل أي مجهود!

هل في ذلك أي تعالٍ أو ازدراء؟

لا، بل على العكس: رحمة فائقة. إذ إن كلامه سبحانه ليس أيَّ كلام في أي كتاب، بل كلام الخالق جَلَّجَلَالُهُ إلى خلقه. أي إن ذلك الكلام يُلزِم مَن عَلِمَه ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة: ٥/ ٧]، فما أرهب هذا القانون: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ...۝٥٧﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٧].

إضافة إلى ذلك، فإن المبصر يصير قادراً على التمييز بين نقاط أو مواضيع لا يتطلب فهم الطبقة الدنيا منها عمليات ربط غالباً ما تتجاوز السور، و بين نقاط أو مواضيع يتطلب فهمها بالضرورة ذلك الربط.

و كيف أن النمط الأول مطروح بهذه الكيفية ليكون، و لضرورته، مفهوماً من الجميع، مثاله ما ورد عن الصيام في سورة البقرة. و أن النمط الثاني و ما يتطلبه من ربط يتوجه إلى مؤهلات أعلى، مثاله موضوع دقيقٌ و حساس عن المشيئة الإلهية، نجد أول شاهدٍ منه في الجزء الثامن: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٩]، و الشاهد الثاني الذي يؤكده في الجزء الثالث عشر، و الثالث و الرابع اللذين يحضّران الجواب في الجزء الرابع عشر، و الشاهد الخامس و الأخير، الذي به تكتمل عناصر الموضوع، في الجزء الحادي و العشرين.

ثم يدرك المبصر أن ما ورد على النمط الأول لا يقف إطلاقاً عند طبقة الفهم الدنيا الصحيحة و الضرورية، بل يتجاوزها طبقات تحتاج هي كذلك بدورها إلى ربط عبر السور.

و يدرك المبصر كذلك، أنه كلما اتَّسعت معرفته بالخليقة و قوانينها و بالخلق و بأحوالهم و أخبارهم و ازدادت دقةً و موضوعيةً، ازداد فهمه للنص القرآني الشريف. فيدرك، مثلاً، عظمة و استثنائية الكشف الإلهي لحقيقة تهُمُّ أكثر من ثلث البشرية آخر سورة المائدة، و يدرك مدى عمق و شفافية ما ورد عن رؤيا صاحِبَي يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في السجن.

و يدرك تمام الإدراك أنه لن يتقدم في تلك الوجهة، ما لم يوظف المعطيات القرآنية حال فهم طبقة منها، ليُطوِّر عمقاً و ارتقاءً معرفته بالخليقة و قوانينها و بالخلق و بأحوالهم و أخبارهم.

و قد فعل، فإنه، و بنور من اللّه، يزداد فهماً لما ورد عن تلك الأمور في النص القرآني. فلا يلبث إلا و يوظف ذلك الفهم ليطور معرفته بها، فيزداد فهماً لما ورد عنها في القرآن، و هكذا إلى ما شاء اللّه.

و يتعلم المبصر كذلك، أن المعاني القرآنية الأساسية و العظمى تُحَلِّق فوق الآيات و المقاطع، و لا يمكن إدراكها إلا بالنظرة الشاملة القادرة على استخلاص العوامل المشتركة. كتحليق الفكرة الأساسية لضيقِ أو اتساع عامل الزمن المأخوذ بعين الاعتبار، فوق مقاطع سورة الكهف.

و يدرك المبصر أخيراً، مدى فضله و كرمه سبحانه إذ فتح أبواب ذاك الصرح العظيم و الشامخ و الذي يتطلب ذاكرة جبارة و قدرة عالية على الربط، من كل الجهات. بحيث يستطيع الدخول في رحابه من أي باب من غير حاجة لإعادة مسيرته منذ أول البداية. بل ينطلق من حيث وصل آخر مرة، و قد نضج فهمه كبذارٍ أو غراسٍ في أرض خصبة تواقةٍ إلى مزيدٍ من الماء؛ فلا يجد إلا الكلمات و المواضيع التي خاض فيها متدبراً تنتظره لترفعه إلى أعلى و أعلى.

❋ ❋ ❋

طبقات فهم القرآن الكريم من المستوى الأعلى

من المفروغ منه، و للتشرُّف للارتقاء إلى ذلك المستوى، ضرورة مراعاة شروط المستوى الأوسط، و بالحد الأقصى من الإخلاص و الصدق و إنكار الذات و الافتقار إلى الله.

إذ لا يمكن للمتدبِّر بلوغ هذا المستوى من فهم القرآن الكريم مهما بذل فِكْرُه فيه من جهود.

كيف، و المستوى الأوسط لا يمكن التدرج فيه إلا بنور الله!

إن كان ثمة بذل للجهود، فلتحقيق الشروط التي ذكرناها، إضافةً إلى صلة وثيقة بالله سبحانه بالاستغراق بذكره بأسمائه و بآيات قرآنه، استغراق افتقار و شوق و تحقُّق و شهود. ذكرٌ حق يصرِف بِرُقيِّه الواقف عند مشارف ذلك المستوى عن سفاسف صغائر الأمور و يرفعه، ليكون مستعداً لتلقي ما يفتح الله عليه من فهمِ علمٍ و نورِ كلماته.

فالخوض في ذلك المستوى يتطلب لياقات نفسية و عقلية عالية، هي أصلاً عطاءٌ من الله. و لا تُجدي بحد ذاتها إلا إنْ فعَّلها الذي أعطاها سبحانه.

لا مجال للخوض في ذلك المستوى إلا بلياقات نفسية عالية، إذ إن البون شاسع ما بين أول ما يُفهم من ذلك المستوى و خير ما يُفهم من المستوى الأدنى، بون يثير الدوار! أيْ: خللٌ شديد في التوازن النفسي فيما يراه المرء من فارقٍ بينه و بين غيره، فيُخشى عليه من اضطراب تقييمه لنفسه و لغيره، و بالضرورة من اضطراب تعامله معهم.

فلا بد من لياقات نفسية عالية، تصرف صاحبها بهدوئها المستمدّ من سكينة الذكر الحق و باتزانها المستمد من اتزان أسماء الله و كتابه، تصرفه عن التأثُّر بذلك الفارق الشاسع، إلى وجه ذي الجلال و الإكرام، ليَصْغُرَ كل ما سواه سبحانه أمام عظمة جلاله، و ليصير بالنسبة و التناسب في صغره فانياً.

و لتتلاشى الأنا بتلك اللياقات بالكُلِّية، و ليزداد صاحبها تبرُّؤاً من قوته و افتقاراً إلى الله و انكساراً و هو يعلم أنه في دار امتحان و ابتلاء، و بقدر العطاء السؤال و الحساب. فكيف يتكبَّر أو يتعالى على غيره؟



كيف لا تتلاشى الأنا، و قد تقدَّم في التحقُّق و هو يتدبر في المستوى الأوسط جميع الشواهد التي تحوي «هو» مشيراً إليه سبحانه.

كيف لا تتلاشى، و هو يرى بنور علوم المستوى الأعلى آيات مكنون «هو».

كيف لا تتلاشى الأنا، و قد سبق و وقف موقف الشهود كلما استغرق في آية تشير إليه سبحانه بلفظ «أنت».

كيف لا تتلاشى، و هو يرى بنور علوم المستوى الأعلى آيات مكنون «أنت».

و كيف لا يتبرأ من قوته، و قد بدأ يفهم بنور علوم المستوى الأعلى حقيقة مكنون كلمة « قُوَّةَ ». و صار، لا بالتفلسف و لا بالذوق، لا؛ بل بعلومٍ عليا موضوعية و جلية يفهم الترابط بين « لَا قُوَّةَ » و بين «عَبۡدُ ٱللَّهِ» و بين «القوة».

و بمزيد من ذلك العلم صار يرتقي في فهم حقيقة مكنون كلمة « قُوَّةَ » فيراه ذاته في مكنون كلمة « عِبَادِى »، و في مكنون تحقُّق «هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى »، و في مكنون عطاء «فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ »، و في مكنون عطاء «وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ».

فما أبعده عن ضعف و دَرْوَشة مدَّعي الصوفية، و ما أقربه إلى إيمان و همة و عزم أبي بكر صاحب الرسول الأكرم.

لا بد للذي يخوض في ذلك المستوى الأعلى من فهم القرآن الكريم من لياقات نفسية عالية، إذ عليه مواجهة الشعور بالوحدة و هو يخوض في تلك الآلاء. فأين ذلك الذي يستطيع السير معه، أو حتى مفاتحته؟

لياقات نفسية تجعله قادراً على تحمُّل آلام ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ... ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١١]، ﴿ ... قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١١]، و آلام ﴿ ... فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ... ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٨].

لياقات نفسية تجعله منسلخاً منذ أمد من ردود أفعال الناس، كالتي تجعل الذي علِم أمراً جللاً أو شهد حدثاً مميزاً، منفعلاً متلهفاً تواقاً للتكلم عنه لاهثاً، مراراً، مع كل من يلتقي به.

لياقات نفسية عالية تجنبه العزلة عن الناس و ما هم فيه، و لما وصل إليه مما رأى. فمهما رأى

و فهِمَ و علِمَ، فلن يبلغ ما رأى و فهِمَ و علِمَ الرسول الأكرم في معراجه! و لن تكون المسافة بين علمه و علم الناس أعظم من المسافة بين علم الرسول الأكرم و علم الناس. فله في الذي عاد من حيث عاد في معراجه، أسوة حسنة في ضبط النفس و حسن التعامل مع الناس، و كأن شيئاً لم يكن.

لا بد من لياقات نفسية عالية تجعل الذي يخوض، بإذن الله و نوره، في ذلك المستوى الأعلى، منسلخاً، منذ أمد، تماماً عن الاستعجال لتلقي و فهم علوم ذلك المستوى. فالاستعجال جهل، لذا فهو محال على العلم، و لذا فهو طرد.

لياقات تجعل صاحبها متجرداً عن الزمن و كأن الدهر أمامه و هو يتشرف بالخوض في مسألةٍ متدبراً.

و بالطبع، لا بد من لياقات عقلية عالية تجعل صاحبها أهلاً لتلقّي و لفهم و تفعيل العلوم؛ التي لا بد منها لفتح مكنون ذلك المستوى الأعلى بإذن اللّه و نوره.

من أُولى تلك اللياقات، نذكر قدرةً عاليةً على التجرد عند مراجعة كل ما يعتبر بدهيَّة من جذورها. و يكون ذلك بعمليةِ تجرُّدٍ تام عن كل المكتسبات و المعارف المتعلقة بتلك البدهيَّة. و ذلك كله للتأكد من الانعدام المطلق لأيّة نسبيّة بشرية في العلوم المعتمدة في ذلك المستوى.

من تلك اللياقات العقلية، نذكُر: القدرة على تدقيقِ كل ما سوف يُعتمد من علمٍ للخوض في هذا المستوى، حتى لو كان كشفاً، فلا بد من التأكد و التحقق من صحته بالحد الأقصى. إذ لا مجال لأية مجازفة في ذاك المقام.

و كذلك، لا بد من التحقق من العلم المعتمد، للتأكد من توافقه في المطلق مع مكنون ذلك المستوى.

من جهة أخرى، فإن التأكد و التحقق و قد أثبتا حقيقة الكشف، بأدلة و براهين تصل إلى حد أن إنكارها محض مكابرة بالمحسوس، فإنَّهما يفيدان في التقدم في معرفة مكنون ذاك الكشف.



و يكون ذلك مثلاً، في جولات مثلَّثية بين ضوابط قوانين الخليقة، و بين الأعداد بخصائصها الذاتية و استقراءاتها الهندسية و البصرية، و بين مكنون أركان الإسلام الخمسة و القرآن الكريم. و لا بد من التعمق لتمثُّل يقينيّة هذه الثلاثية. فلا عجب أن نجد ضوابط قوانين الخليقة على تعددها و اتساعها، مركَّزةً مجتمعةً في القرآن الكريم، فالذي أحسن كل شيء خلقه هو نفسه سبحانه منزِّل القرآن. و هو سبحانه نفسه الذي ﴿... وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٨] في سابق علمه قبل دهورٍ من تعامل البشر مع الأعداد. فالعدد في حقيقته، إذاً، و أصلاً، أمرٌ إلهيٌّ صرف كما يشهد على ذلك القرآن برمته. فالذي ﴿... وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ هو نفسه سبحانه الذي قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ٢٩].

من تلك اللياقات، نذكر كذلك، حساً مرهفاً للغاية و شفافية عالية لا بد منهما لتمثُّل مجردات و نور تلك العلوم.

* * *

بهذه اللياقات النفسية و العقلية لا يستطيع صاحبها الاجتهاد في معرفة ذلك المستوى الأعلى، كما يجتهد طالب جامعيّ أو مهندس بحثاً عن حل، أو كما يجتهد اختصاصي يريد فك رموز نص عتيق.

و إنما دور هذه اللياقات رفع صاحبها إلى المستوى اللائق من الأهلية لتلقي ما يفتح عليه سبحانه من نور علوم كتابه. فالحق الحق يقيناً: ﴿... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٤٠].

فما أعجب الذي يطمح بمعرفة العلوم التي فيها مفاتيح فهم ذلك المستوى، ليخوض فيه وحده بجهدٍ عنيد كطالب على مقاعد المدرسة، متجاهلاً تماماً نورَ الله! فلا يصل إلى حق، بل إلى ما لا معنى له و لا جدوى منه.

كيف يتجاهل نور الله؟

لأنه لم يسبق له أن تعرض له!

و لو مرة واحدة، كافية لتجعله لا يطيق وحشة الحرمان منه، و لا يطمئن إلا بأنس السير به.

الذي آتاه الله من فضله اللياقات التي ذكرناها، يعلم منذ أول سيره في المستوى الأوسط مدى ضحالة الفكر القائم على مستوى أوحد عفويّ، و عجز ذاك الفكر عن الخوض في تلك المستويات العليا.

الفكر القائم على مستوى أوحد عفويّ، هو الفكر الشائع بين الناس، حتى من يعتبرون أنفسهم مثقفين، و هو يتدرَّج في مستوياته تبعاً لمستوى صاحبه. و لكن ذلك الفكر، و مهما تباين حسب الأشخاص، فإنه يتصف على الدوام بمستوى أوحد من المنطق و الآليات المعتمدة للخوض في أي موضوع مهما كان مستواه.

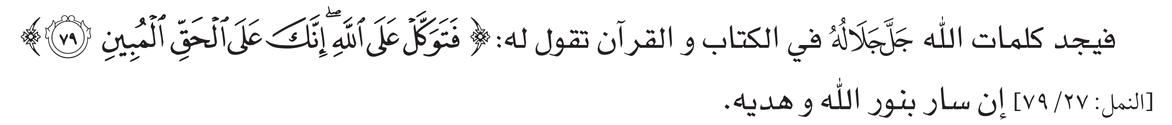
و هو عفويّ، لأن صاحبه يخوض به تلقائياً في الأمور، و هو منشغل كل الانشغال بها عنه. فإن أشكل عليه شيء منها، لا يخطر على باله أن الإشكال قد يكون في ذلك الفكر، و لا يخطر على باله التأكد من توافقه مع ما يخوض فيه، لأنه لم يسبق له الوقوف عنده تفحُّصاً ليرى كيف و على أي أسس تَشكَّل.

الذي آتاه الله من فضله اللياقات التي ذكرناها، فأحسن توظيفها امتناناً و احتساباً، و تأدَّب خشوعاً و حباً مع خالقه، يبدأ بمعرفة طبقات ذلك المستوى الأعلى و طبقات العلوم التي لا بد منها للخوض فيه.

فيتعلم مداومة الانتباه و الوعي إلى أي مستوى هو فيه، فلا يخلط بين المستويات، بل يدرك التوافق فيما بينها.

فإن وفِّق إلى فهم أمرٍ في مستوى ما، و علِم مكانه من مستوى آخر، يستطيع بالقياس إدراكه و معرفته. و بهذا الوعي، يستطيع التحرك فيما بين تلك الطبقات تعمقاً و ارتقاءً في العلم.

فلا يجد إلا و آفاق القرآن تتفتح أمامه من فضل الله و كرمه. و يجد كل ما في القرآن بانتظاره كما ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٣١].



فيجد كلمات الله جَلَّجَلَالُهُ في الكتاب و القرآن تقول له: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٧٩] إن سار بنور الله و هديه.

و يجد ﴿الٓمٓ ﴾ و باقي فواتح السور تنتظره بنور علومها لتصرفه عن أدنى ريب إلى اليقين. و لتفتح بما فيها من ضمانةٍ إلهية آفاق كلمات الله في كتابه، ما لم يسبق و فُتِحَ قبل تنزيل القرآن.

فيجد بجلاء أن العلم الذي يتشرف في الخوض فيه هو الحق الحق الحق. و يطمئن على نفسه و على دينه عندما يجد أن ذلك العلم من صميم ﴿... دِينِ ٱللَّهِ ...﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٣]، و هو تماماً ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ...﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩]. خاصةً، و قد امتثل لأمر الله ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٩]، فإنه يجد الضمانة المطلقة و اليقينية في بحور علوم لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ .

علومٌ لا بد منها للخلافة الحق. فيجد في «لِتَحْكُمَ» من ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٥]، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ...﴿١٩﴾ ﴾ و ما في ذلك من علوم.

ثم يتقدم في كلمات الآيات السابقة بنور الله و إذنه، فيجد اسمه تعالى الجامع جَلَّجَلَالُهُ بانتظاره، و يرى الضرورة الماسة له في هذا المقام لتحقيق مكنون ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ... ﴾ ، فيجد، و قد تبصر فيها، أنها تلتقي مع ﴿ ...جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ...﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨١]. و يجد فيها ﴿ ...أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ...﴾ يتطابق سرها تطابقاً تاماً مع سر ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ...﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٩]، و مع سر ﴿ ...ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ...﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠]، و مع سر ﴿ ...وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧]. فيعلم عندئذٍ حقيقة أوامر وقف عندها طويلاً في المستويات السابقة مثل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٤]، و يعلم مدى عمق و استثنائية العلم اللازم لاتخاذ القرار لتنفيذ تلك الأوامر، و خاصةً التي في سورة براءة.

و قد استوقفته «ب» براءة، فما يجد إلا و تفتحت أمامه الأبواب، فيجد أن مكنون «ب» يصل به إلى نفس عظيم مكنون كلمة «كُن» الذي هو نفس مكنون كلمة « قُوَّةَ » و مكنون كلمة «عِبَادِى »، فيفهم كيف يكون العبد عبداً لله و إلامَ يصل. و يجد نفس ذلك المكنون العظيم في مكنون ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾، فيكاد يغشى عليه من عظمة و جلال اجتماع تلك الكلمات الثلاث، فيغيب عن كل شيء و هو يشهد بها، فيجد مكنونها في مكنون ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾، و مكنون ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾. و قد فهم المغزى من التقاء



الشواهد السابقة بنفس المكنون، فلا يجد نفسه إلا و قد صار أمام بسملة كتاب سيدنا سليمن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ملكة سبأ. فيجد آفاقاً نورانية لا يُرى آخرها من العلوم العليا، حيث تلتقي علوم ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ...﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٣١-٣٣]، و علوم الشواهد السبعة حيث يأمر سبحانه الملائكة بالسجود لآدم، و علوم ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٥]، و علوم ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٦]، و علوم ﴿ ...مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٨].

فيرى في مكنون قول الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى الله جَلَّجَلَالُهُ: «مَا عَلَّمۡتَنَآ» ما كان محالاً عليه فهمه لولا أن قادته «ب» براءة بنور الله إلى ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾، و يرى في مكنون قولهم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ: «مَا عَلَّمۡتَنَآ» ما كان محالاً عليه فهمه لولا أن قادته «ب» براءة بنور الله إلى ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣١].

و قد علم ذلك فإنه يتيقّن و يرى كيف ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٣]، فيعلم أن ذلك من مكنون «يَدُ ٱللَّهِ»، فيرى رمزاً من أهم رموز العلوم العليا في ﴿ ...يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ...﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٠]، هو نفسه في ﴿ ...يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤]، و هو نفسه في: ﴿ ...يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ...﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٨]. فلا يسعه إلا السير متتبعاً ذلك الرمز، فيعلم بانفتاحه كيف حقاً ﴿ ...يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ... ﴾، و لِمَ و كيف حقاً ﴿ ...يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴿٥٤﴾ ﴾، وكيف أن ﴿ ...يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ...﴿١٠﴾ ﴾.

و قد عَلِم ما عَلِم من ذلك كله مما وجده في ﴿ ...وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١١٣]، يتوهَّج امتناناً لذلك الفضل و حباً ليلحق ﴿ ...بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ...﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤]، فإنه بذاك الذل و ذاك العز لن يقبل أبداً لنفسه الباطل و لا لأحبابه و لا لذريته و لا لأيٍّ كان، بل الحق الحق الحق. و يسعى في ذلك جاهداً لا يخاف لومة لائم.

و كيف يخاف لومة لائم، و قد عَلِم ما عَلِم من عجائب قول الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ: ﴿ مَا عَلَّمۡتَنَآ ﴾، و قد عَلِم ما عَلِم من ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٧]، و قد عَلِم ما عَلِم و تيقن من ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ... ﴾، و علِم عظيم قدر و حقيقة و نور القرآن و الإسلام!

نافذة نحو اللانهاية

و قد تحرر قارئ القرآن من كل ما يعيق أو يمنع حسن تدبُّرِه، فإنه يتدرج في فهمه، كما أشرنا، عمقاً و سمواً، ليصل، إن كان أهلاً لذلك و كانت له قسمة، إلى مستوياتٍ ما أبعدها عما كان فيه أول الطريق.

أول الطريق، عندما كان يرى، كغيره، القرآن مكتوباً مراراً، و بخطوط مختلفة على سطحٍ كتيم كالجدار. و أمامه جمعٌ غفيرٌ يقرؤون كلماته و عيونهم شاردة، كالذي لم يعد يمعن النظر في الشيء لشدة اعتياده عليه.

أول الطريق، عندما بدأ يلاحظ أن ذلك الجدار مطليٌّ بطبقاتٍ من الكلس و الطين، ليست من أصله.

خطوات أول الطريق، عندما تجرَّأ و بدأ يزيل تلك الطبقات، فما لبث إلا و انهارت، كاشفة حجارة عظيمة في بهائها من سُورٍ عظيم فيه نوافذ و أبواب.

نوافذ تُشِعُّ نوراً أخذ بلُبِّه، فما وجد نفسه إلا و يمسحها ليزيل عنها ما بقي من طلاء. فتكشَّف له روعة ما تطل عليه. و تبين له أنها تنفتح هي و الأبواب.

ففتحها بـ «لا قوة إلا بالله» و بـ «بسم الله».

و قد وصل ذلك الموصل و رأى ذلك النور الساطع و آفاقاً لا ترى نهايتها، فإنه يدرك عندئذٍ تمام الإدراك أن القرآن الكريم بمثابة نوافذ و أبواب نحو اللانهاية.

نوافذ تتفتح على آفاق تسمو بنورها نفسه و مداركه، و لكن لا يمكنه الانتقال إليها طالما أنه في دار الامتحان.

و أبواب تتفتح على تلك الآفاق، لتسمح للداخل منها رؤية و معرفة ما لم يكن بإمكانه، عندما كان واقفاً عند أعتابها.

آفاق لا نهائية، لأن القرآن الكريم كلام الواحد الأحد سبحانه، بحرفيته.

و لأن كل موجود ما هو إلا تجلٍّ من تجليات حقيقة واحدة.

حقيقة تتجلى بطرق مختلفة و على مستويات مختلفة.

حقيقة متجلية في أشمل و أعظم تجلياتها في مصادر الوحي، أي المتواتر من السنة المشرَّفة، و خاصةً في القرآن الذي يحوي أسس مستويات تجليات الحقيقة، و الذي يتميز بأنه كلٌّ متكامل شامل.

فالذي يُوفَّق لحسن تدبره، يستطيع، بالقياس، فهم أي تجل للحقيقة فهماً عميقاً و دقيقاً.

لأن الذي خلق الكون، هو الذي أنزل القرآن و شاء الإسلام. **فلا عجب أن نجد في القرآن و الإسلام أسس القوانين التي تحكم الكون.**

كيف؟

هل يقف النص القرآني الكريم عند ظاهر كلماته؟

أم أنه كلام الذي ﴿...أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٨]، والذي قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴿٢٩﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ٢٩]؟

ما قولك في الذي فَتَحتَ له باباً من أبواب قصرٍ عظيم بحدائقه و عمارته، و أخذتَه إلى نافذة من نوافذه مطلة على منظر خلاب؛ فأراد الاحتفاظ بذلك لنفسه، فخلع الباب و النافذة و أخذهما عنده، و وضعهما في صندوق في قبو بيته، مقتنعاً أنه كلما فتح ذلك الصندوق فسوف يدخل و يتجول و يغنم مما في ذاك القصر؟

كذلك حال الذي لو اطلع على شيء مما أشرنا إليه، أراد أن يكون مدوناً على ورق ليضعه على رف من رفوف مكتبته.

❊ ❊ ❊

لا غنى عن خبرة مرشد

لقد بيّنّا في النصوص السابقة أن القرآن الكريم كلام اللّٰه بحرفيته. و هذا ما تؤكده النصوص التالية و ترسخه. علاوة على ذلك، فإن القرآن الكريم هو، و منذ أكثر من ألف وأربع مئة سنة، الكتاب المنزل الوحيد الكامل لكلام اللّٰه بحرفيته.

فعندما يعي المرء أنه، بالحقيقة، ليس سوى نفساً عابرةً في هذا العالم لحكمةٍ و لمهمةٍ، و أن مصيره في عالم آخر. لم يعد تعرُّفه على القرآن الكريم مجرد مطالعة ثقافية، بل، ضرورة قصوى و مصيرية.

و قد وعى المرء تلك الضرورة المصيرية، فإنه لا يستطيع بثقافته المعاصرة الخوض في القرآن الكريم و الذي هو مختلفٌ في بنيته و كيفية طرح مواضيعه و عمقها الشاسع عن سائر ما سواه من الكتب.

و كذلك، فإنه لا يستطيع السماح لنفسه بالتخبط في كل ما كتبه الناس عن القرآن الكريم، أو الاسترسال في التجارب و التعلُّم من الأخطاء الشخصية، إذ إن الزمن لم يعد يسمح بذلك قط!

فهو في تسارع مضطرد. فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ» [مسند أحمد: ١٠٥٢١].

فلا بد إذاً، في ذلك السباق المصيري مع الزمن، من الاستعانة بخبرة مرشد.

ولكن، و الأمر خطيرٌ و مصيريّ، فكيف السبيل لتمييز المرشد الحق عن غيره؟

المرشد الحق هو الذي يعلم تمام العلم إلى أين يصل الطريق الذي يسير عليه و الذي يرشد إليه.

المرشد الحق هو، المتجرِّد عن محدودية مرجعية نفسه تجرداً تاماً، لاعتماده عظمة حقيقة المرجعية الإلهية. حال الخضر عندما قال لسيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خاتماً كلامه و متبرِّئاً من مرجعية نفسه: ﴿... وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ...﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٢].

دليل تجرُّد المرشد الحق عن مرجعيته الذاتية و مرجعية غيره، و اعتماده المرجعية الإلهية، هو دعمه لكل ما يقول بالبينة الجلية و بالدليل الساطع.

السمة الأساسية للأدلة التي يقدمها هي تطورها إلى الحد الأقصى الذي يكون فيه رفضها إما غباءً أو مكابرةً بالمحسوس.



مهمة المرشد تتلخص بـ :

- تخليص مَن يرشدهم مِن مواقفهم المسبقة و آرائهم الجاهزة.
- تطوير صلتهم بالله إلى أقصى حد.
- تطوير تريثهم و ضبطهم لأنفسهم و حضور ذاكرتهم.
- رفع وعيهم و رهافة حسهم إلى طاقتهم القصوى.
- مساعدتهم على استبدال المفاهيم البشرية للكلمات، باعتماد المفاهيم القرآنية الصحيحة.
- تدريبهم على ربط المعلومات و البحث عن بيت القصيد.
- تعريفهم بأمور قد لا يصلون إليها مهما بذلوا من جهود مثل:

قضية التوازن في بنية القرآن كجزء من النظام الكوني.

مسألة أول ورود للكلمة في القرآن.

الفئات الثلاث في الفاتحة و أول البقرة.

قضية تكامل المعنى عبر السور، مثال: سبع آيات سجود الملائكة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. أو مثال مسألة حساسة، نجد أول شاهدٍ عنها في الجزء الثامن ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٩]، و الشاهد الثاني الذي يؤكده في الجزء الثالث عشر، و الثالث و الرابع اللذين يحضّران الجواب في الجزء الرابع عشر، و الشاهد الخامس و الأخير، الذي به تكتمل عناصر الموضوع، في الجزء الحادي و العشرين.

الحوت خمساً، البحرين خمساً.

قضية معرفة المقصد أو بيت القصيد، مثل قصة سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو رمزية سورة التين.

آفاق شاسعة!

و زمنٌ في تسارعٍ مضطرد.

فما أحوج المرء، لا إلى مرشد يتأمله.

بل، إلى **خبرة** مرشد يوظّفها، في الحال، أحسن توظيف.

كيفية التعامل مع الكلمة القرآنية

طالما أنه تبيَّن لنا أن النص القرآني الشريف ليس نصاً بشرياً في محتواه، و لا حتى صياغةً **بشريةً** لقناعات دينية و روحية، و لا حتى انعكاساً لحقيقةٍ روحية **بكلمات بشرية**. بل نص إلهي كامل بحرفيته و بلغته و ببنيته و مواضيعه.

و هو، إضافةً إلى ذلك، ليس **مجرّد** مرجع فقهي أو وعظيّ يقيني أو كتاب تراتيل. بل، وجهٌ من الحقيقة و الوجود و التوازن الكوني.

فلا مجال للتعامل معه كتعاملنا مع أي نص آخر.

بل لا بد من التعامل معه على ما هو عليه: أي مجال روحي مقدس كليّ فيه كلمات تختلف في حقيقتها جذرياً عن سائر كلمات الخلق؛ لأنها كلمات صادرة عمَّن هو سبحانه منزه عن الزمن. فهي، إذاً، تجلٍّ محكم لسبق و إحاطة علمه.

بذلك، فإن حسن التعامل مع الكلمة القرآنية يقتضي:

- التخلص من حجب الإسقاطات البشرية.
- اعتماد منهجية فعَّالة للارتقاء بالحد الأقصى إلى حقيقة الكلمة القرآنية.
- معرفة، و لو الحد الأدنى، عن آفاق الكلمة القرآنية.

التخلص من حجب الإسقاطات البشرية

التعارض بين نسبية الإسقاط و بين حياد الموضوعية تعارض جليٌّ.

لذا، فإن التخلص من الإسقاطات البشرية خطوة منهجية و عملية و فعالة باتجاه الموضوعية الضرورية لتناول القرآن الكريم.

يمكن إجمال الإسقاطات بنمطين: إسقاطات باطنة، و إسقاطات ظاهرة.

الإسقاطات الباطنة

عند تعاملنا مع الكلمة القرآنية، لا بد من تنقية مفهومنا عنها من أي عيب أو شائبة و خاصة **الخفيّ** منها.

إذ إن مفاهيمنا عن الكلمات مصحوبةٌ بجملة شحنات و انطباعات و مؤثرات و تداعيات، لا مجال لتركها تعمل فينا **من حيث لا ندري**.

بل لا بدّ من السيطرة عليها و تصحيحها لتتوافق مع الكلمة القرآنية.

هذه الشحنات و الانطباعات و المؤثرات و التداعيات المصاحبة لمفاهيمنا عن الكلمات، **متضافرة و متفاعلة فيما بينها، شديدة القرب الواحدة من الأخرى، بحيث أنّ حدود الواحدة منها تتداخل مع حدود الأخرى**. و لكن لا بدّ من الوقوف عند كلّ واحدة منها لخطورتها.

الشحنات أو وقع الكلمة

لكلّ كلمة وقعها على النفوس بدرجات مختلفة بحسب الأشخاص، و ذلك من خلال ما يمكن تسميته «الشحنات».

و يمكن تبسيط الأمر و إجمال تلك الشحنات بين طرفي نقيض، لتتدرج بين السلب و الإيجاب.

مثلاً: لفظ الجلالة، فهو بالنسبة للمسلمين، مصحوبٌ بشحنة تعظيم، أي بشحنة إيجابية. أما بالنسبة للغربيين، مثلاً، فهو عموماً مصحوب بشحنةِ ازدراء، بالطبع سلبية، و ذلك بسبب الكيفية

التي يُنطق و يَرِدُ بها في أحاديثهم.

بذلك، فلا مجال لقارئ غربي تناول القرآن أو التعرّض لموضوع الإسلام، قبل تخلّصه من تلك الشحنة السلبية، و التي لا تقوم على أيّ أساس موضوعي.

إذ إنّ لفظ الجلالة ليس اسم «إله من آلهة أولئك البداوى في الجاهلية اعتمده أحدهم ادعى النبوة»، بل الاسم الحق لربّ العالمين، علّمه لأنبيائه، و انتقل في سلالة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وصولاً إلى خاتم النبيين. اسمٌ فيه من الخصائص و البيّنات ما لا وجود له في سائر الأسماء التي يتداولها البشر، و ما يفوق التصور.

كمثال آخر على الشحنات، نوردُ كلمة «إنسان»: فهي، و في سائر اشتقاقاتها، إيجابية بالنسبة لمعاصرينا في وقعها و شحنتها، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

لا مجال لتناول تلك الكلمة في القرآن قبل تجريدها من شحنة معاصرينا. إذ إنّ كلمة «إنسان» مصحوبة فيه بشحنة سلبية و على مدار صفحاته.

هذا مما يدعو قارئ القرآن لتجاوز استغرابه، و مراجعة مفهومه عن تلك الكلمة. و ذلك بناءً على ما ورد عنها في النص الشريف. فإنْ وُفِّق لذلك، فإنه يتعلم الكثير.

الانطباعات

وهي شديدة القرب من الشحنات، بحيث يمكن تبسيط و إجمال تدرّجاتها بين الإيجابي و السلبي. و هي تشترك معها في تأثيرها النفسيّ. و لكنها تتميز عنها بكيفية تشكّلها و بزيادةٍ في وضوح معالمها و اتساع مجالها.

فالشحنة تنتقل كالعدوى، أما الانطباع فلا بدّ له من تجربة شخصية.

و الشحنة تبقى مجردة و مختزلة. أما الانطباع، فله معالمه و مجاله المرتبط بتلك التجربة.

مثال ذلك كلمة «الإسلام» بالنسبة لغير مسلم، و بشكل خاص غربيّ. و الانطباع المتحصل لديه و المرتبط بتلك الكلمة بعد رؤية ندوات تلفزيونية عن الإسلام. ندوات ما هي في الحقيقة إلا جزء من حملة إعلامية. ندوات مدروسة، تجمع متحاورين من أوساط و اتجاهات مختلفة. ندوات تبدأ بهدوء، لتجنح تدريجياً نحو التوتر الشديد بين المتحاورين حيث تتعالى أصواتهم، كلّ يحاول أن يغطي صوته صوت الآخر و مقاطعة حديثه. فلا يخرج المشاهد بنتيجة مفيدة، و إنما بانطباع سيئ للغاية عن الإسلام.

كيف له، بعد حين، و قد تأصل فيه ذاك الانطباع، أن يفهم حقيقة المقصد الإلهي من كلمة «الإسلام» و هو يقرأ و لو ترجمة للقرآن الكريم؟

من جهة أخرى، كيف لمسلم حُسن تدبر كنوز علوم الآيات القرآنية المتعلقة بسيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و لم يتحرر من الانطباع الذي ترسخ في ذهنه عن تلك الآيات؟ انطباعٌ تحصَّل لديه من قراءة بعض التفاسير و حضور بعض مجالس التفسير. انطباع قوامه أمور هامشية بعيدة في الماضي، و بعيدة عن الواقع.

التداعيات

معلومٌ أن كل كلمة تثير سلسلة من التداعيات.

اختصاصيّو العلاج النفسي أدرى بأهمية تلك التداعيات؛ فهم يثيرونها، مثلاً، لسبر خفايا النفس و لتشخيص عللها.

أمام عظمة كلام الخالق في قرآنه الكريم، و ما يتطلبه تدبره من انضباط فكريّ عال، لا مجال للخضوع لفوضى عفويةِ التداعيات.

فقد تثير كلمة «الصلاة» عند غير المسلم سلسلة تداعيات: منها مشاهد سينمائية في أفلام المغامرات، حيث تكون الشمس عند الأفق قبل المغيب و يُسْمَع الأذان، و رجال بله غير مصطفين يرفعون أيديهم عالياً و يسجد كلٌّ على حدا... هذا المشهد يستدعي مشهداً آخر تلفزيوني مصاحب لخبر عن عملية إرهابية، يُرى فيه مصلون يصلون أثناء الأذان. مشهد يستدعي صور الإرهابيين، الذي يستدعي بدوره منظمة إرهابية و زعيمها، مما يستدعي... و هكذا. فأين جنحت تلك التداعيات بالعقل بعيداً عكس اتجاه الكلمة القرآنية؟

أما بالنسبة لأي قارئ للقرآن الكريم، مسلم أو غير مسلم، فلا مجال له لترك عقله كورقة شجر في مهب ريح التداعيات، و هو واقف أمام ذاك الصرح العظيم الذي يتطلب الحد الأقصى من النقاء و الانضباط الفكري.

فلا مجال له إلا ضبط تداعياته، و ذلك أولاً: بتفريغها من كل ما لا أساس له و ما لا طائل منه، و ثانياً: بشحنها بما يليق بهذا المقام، أي بمعلومات قرآنية، و من ثم بمعلومات من المتواتر من السنة و بمعلومات من اليقيني من عالم الخليقة.

المؤثرات

إن معظم المفردات التي يتداولها الناس خاضعة لمؤثرات عديدة منها: البيئة التي يعيشون فيها، و الإعلام و الاتصالات على العموم، و التيار الثقافي الغربي بشكل خاص. أي إنها، بالنهاية، مؤثرات بشرية.

هذا مما يجعل تطابق أو حتى توافق المفردات الخاضعة لتلك المؤثرات، مع مفاهيم و حقيقة الكلمات القرآنية أمراً مستبعداً.

نادراً ما ينتبه الناس لحضور تلك المؤثرات عند قراءتهم القرآن الكريم، و لمدى عرقلتها فهم كلماته.

كمثالٍ معبرٍ، يمكن القياس عليه لباقي الكلمات، كلمة «الأرض»، و التي تُعتبر واضحة مفروغ منها و لا داعي للوقوف عندها لتدقيقها.

الواقع، أن هذه الكلمة بالنسبة لسائر معاصرينا، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، كلمة مجبولة بتأثير الثقافة الغربية و رؤيتها لها. فعندما يقرؤها معاصرونا، فإن ما يخطر على بالهم هو ما أخذوه من كتب مقاعد الدراسة أو البرامج العلمية، أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية. أي كوكب صغير بالمقارنة مع المشتري و خاصة مع الشمس، كوكب متناهي في الصغر بالمقارنة مع الكون الشاسع الذي يحيط به.

هذا المفهوم عن «الأرض» غير متضارب مع مفهوم الكلمة القرآنية، و لكنه إطلاقاً غير متطابق معه لأنه لا يمثل إلا جانباً يسيراً منه، أي إنه بالمحصّلة غير متوافق معه. لذا فإن ذلك المفهوم المجبول بالتأثير الغربي يعرقل إلى حد منع فهم المقصد الإلهي من كلمة «الأرض»، عندما ترد في صيغة مثل: «ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ». إذ يقف عقل القارئ عند الضآلة المتناهية لكوكبنا بالنسبة للكون.

في حين أن كلمة «الأرض» في القرآن الكريم، ذات معانٍ متعددة، و ذلك بحسب ورودها في النص الشريف. أما معناها الأساسي و المطلق فهو: المادة المجتمعة الكثيفة، و ذلك بالتقابل مع «السماء» أي: المادة المبعثرة. لتصبح السموات السبع: سبع أوساط متميزة الواحدة عن الأخرى للمادة المبعثرة.

***

هذا، على العموم، بالنسبة للإسقاطات الباطنة، أي التي لا يعي الناس مدى فعلها في نفوسهم و في عقولهم.

فالشحنات أو وقع الكلمات و كذلك الانطباعات، فِعلُها في النفوس خاصة.

و التداعيات، فِعلُها بين النفس و الفكر.

و المؤثرات، فِعلُها على الفكر خاصة.

الإسقاطات الظاهرة

هي ما يعيه المرء، إن سُئل، من مفاهيمه و تصوراته و مواقفه و آرائه من الكلمات و كيفية تعامله معها.

مفاهيم الكلمات

و هي و بالنسبة لسواد الناس مكتسبة، إما ـ و بشكل عفوي ـ من البيئة الأسرية و الاجتماعية و الإعلام، أو من المراجع التي تحددها.

أي إن تلك المفاهيم متنوعة و متدرجة في الدقة و المستوى بحسب مصدرها. إذ يكفي القيام باستطلاع يقوم على سؤال فئات نموذجية عن مفاهيمهم عن كلمات مثل «الإيمان» أو «الإسلام» أو عن بعض الأسماء الحسنى، لإدراك مدى التفاوت و الاضطراب في المفاهيم، بين ما هو مرتجل و بين ما هو إلا تكرار لصيغ جاهزة لا تصمد كثيراً أمام تدقيق موضوعي.

لذا فإن مفهوم كلمةٍ ما بحاجة إلى إعادة نظر جذرية، للتأكد من توافقه مع مفهوم الكلمة القرآنية.

الآراء المصاحبة للكلمة

و هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفهوم أي شخصٍ عن كلمةٍ ما، لأنها محاكمة عقلية تقوم أصلاً على ذلك المفهوم.

بالطبع، لا ترتبط بالضرورة سائر الكلمات بآراء عنها. و إنما، و بشكلٍ خاص، الكلمات التي تعبر عن موضوعٍ يستدعي الوقوف عنده.

كمثالٍ واضح على ذلك: كلمة «الأميين» التي سبق و وقفنا عندها مطولاً. فقد رأينا أن الأمر لا يقف عند المفهوم الخطأ لتلك الكلمة، بل يتجاوزه إلى جملة من الآراء المختلفة و المرتبطة بذلك المفهوم الخطأ.

النتيجة، أن تلك الآراء ترسِّخ ذلك المفهوم الخطأ، و تُشَكِّل كتلةً تحجب عن قارئ القرآن نور و هداية المقصد الإلهي، فتصرفه عنه بلا عودة و قد استهلكت طاقة فكره.

هذا حال الكثير من الكلمات القرآنية مثل «تنزيل» أو «نزل» أو «لوح» أو «كتاب» أو «قدر»، حيث تتباين المفاهيم المتعلقة بتلك الكلمات في صحتها و دقتها، و كذلك الآراء المرتبطة بها.

فقد تكون المفاهيم صحيحة إلى حد ما، و لكن ليس ذلك بالضرورة حال الآراء المرتبطة بها. إذ إن تلك الآراء، و كما أشرنا أول الكلام عنها، قائمة على محاكمة عقلية تتمركز على مفهومِ الكلمة التي هي بصددها. و هذه المحاكمة العقلية قد تجنح من السطحية و انعدام الدقة إلى الخطأ، و ذلك إما بسبب المعلومات الداخلة في تلك المحاكمة، أو بسبب المنطق المعتمد فيها.

موقف القارئ من الكلمة

أي، تفاعل القارئ مع الكلمة.

هذا التفاعل قائم على سلم الأهميات المعتمد عند أي شخص. و ذاك السلم، بدوره، قائمٌ على قناعاته.

كمثال على ذلك: **تحجيمُ** سواد معاصرينا لكلمات قرآنية مثل: «سحر» أو «جن» أو «شيطان»، و ذلك بذريعة العقلانية و مواكبة الفكر «العلمي» الحديث.

الأخطر من ذلك، اضمحلال التفاعل أمام الكلمة القرآنية، و ذلك لتبَلُّد المشاعر و النباهة لغَرَق معاصرينا في فيضٍ مستمر و متزايد من الكلمات الضحلة التي لا تستوجب أية وقفة تأمل أو تفكير.

و كذلك، لدور الاعتياد في تبلُّد المشاعر كما ورد في التحذير الإلهي: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ٥٧/١٦].

و الأخطر من ذلك، عدم وعي قارئ القرآن موقفَه من كلمةٍ مثل: «قال» عندما تكون بحقه سبحانه، و كما سبق و أشرنا. فيكاد يتفاعل معها و كأنها كما تكون لو وردت بحق بشر.

فلا بد إذاً، من إعادة جدولةٍ جذرية و شاملةٍ للقناعات و للاهتمامات التي يقوم عليها الموقف من الكلمة القرآنية.

فالموقف السليم من الكلمة القرآنية، و ذلك بالتفاعل الصحيح معها، من أساسيات حسن تدبر القرآن الكريم.

لأن النص الشريف يتطلب حساً مرهفاً و نباهةً عالية للتفاعل مع كلماته، المُعَدَّة أصلاً ليتفاعل قارئها معها بالحد الأقصى. فتبرز و تتميز بذلك الكلمات الأساسية التي يقوم عليها الموضوع المطروح، و التي تستدعي غيرها، لتقود قارئها بنور منزِّلها سبحانه إلى معرفة بيت القصيد و الارتقاء في فهم الرسالة الإلهية.

فوائد هذا التفاعل، أشبه بفوائد غنى معلوماتِ تناولٍ حسيٍّ متكامل في دراسةٍ لأمرٍ أو شيءٍ ما، تتضافر فيها رؤية ثلاثية الأبعاد بسائر تدرجات الألوان مع مجال صوتي كامل و مع باقي الحواس.

بالمقابل، فإن عدم توافق التفاعل مع الكلمة القرآنية، أشبه ما يكون بشحّ معلوماتِ ورقةٍ طُبِعت عليها صورة مضطربة، و حصراً بالأسود و الأبيض، في نفس الدراسة.

كيفية التعامل مع الكلمة

السواد الأعظم من معاصرينا يقرأ و يكتب منذ طفولته الأولى، ليت ذلك كان في عصرٍ كان فيه معظم ما يُقْرأ ذا قيمة. إذ إننا في عصرٍ لا سابق و لا شبيه له بالنسبة للكلمات، التي صارت طوفاناً يغطي الشوارع و الجدران و يُداس عليه بالأقدام و تمتلئ به البيوت و سلّات المهملات. طوفان بلَّد حس القراء، كما أشرنا في الفقرة السابقة.

طوفان طبع النفوس، منذ مقاعد الدراسة، بحيث لا يكاد يستطيع القارئ المعاصر التخلّص من ذلك الطابع و هو يقرأ كلمات الخالق سبحانه. فلا تجده إلا و يُسقِط ما نشأ و غلب عليه من تعامل مع كلمةٍ صادرةٍ عن بشر، على الكلمة القرآنية.



إنْ بَذَلَ جهوداً بحثاً عن كيفية حسن التعامل مع الكلمة القرآنية، على أنها الكلمات المنزلة على النبي المصطفى، فسوف يجد نفسه أمام ما هو مدوَّنٌ في كتب ما قبل طوفان الكلمات.

فيسعد، و قد أخذ عنها، أنه صار يعظم كلمات القرآن، و قد علم ما ورد عنها من نحو و صرف، و ارتقى إلى إدراك الإعجاز البلاغي للنص الشريف.

فيكون، بالواقع، لم يخرج من إسقاط بشري على النص الشريف، إلا ليسقط في إسقاطٍ آخر!

الخوض في النحو لتبيان عظمة لغة القرآن، إسقاطٌ أساسه وهمُ اعتبارِ لغة القرآن لغةً أوجدها العرب. فيصير النص القرآني الشريف بذلك الإسقاط، «تحدياً» للعرب في لغتهم، و تحدياً لشعرائِهم في بلاغته.

ألا يُذَكِّر ذلك بتنافس شعراء العرب في سوق عكاظ؟

إذاً، أليس ذلك إسقاط بشري على النص الشريف؟

هذا إسقاط؛ لأنه يقتضي أن منزل القرآن سبحانه اعتنى في النص الشريف غاية الاعتناء ليكون على أعلى مستوى نَحَوي، كما يكون الأمر من أديب أو شاعر متمكِّن. حاشاه، جل و علا! لأن كلماته سبحانه تشمل ما استنبطه النحويون من قواعد و تترفَّع عنها و تتجاوزها إلى آفاق إلهية.

أما بالنسبة للتحدي البلاغي، فإنه إسقاط أشد من سابقه في كثافات حجبه؛ لأنه يقتضي أن منزل القرآن سبحانه **تقَصَّد** أكثر الكلمات و الصيغ فصاحة. هذا شأن الأديب البارع الذي يختار بين الألفاظ المترادفة أو المتقاربة، و الصيغ الممكنة، الأكثر فخامة و الأقل شيوعاً، على حساب الشائع منها رغم سلامته، ليضفي على كلامه أبَّهة و تميُّزاً.

هذا الإسقاط يقتضي إمكانية صياغة النص الشريف بطرق أخرى لا تأخذ بعين الاعتبار البلاغة. و أن تلك البلاغة زيادة كمالية على الصيغ الممكنة.

هذا محال. لأن كلمات الذي يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كلمات مُحْكَمَة. فهي، إذاً، و الصيغ التي وردت فيها، بالضرورة و كنتيجة حتمية لذلك الإحكام، غاية في الفصاحة و فائقة الجمال، لا عن مجرد قصد لذلك الهدف.

هذا الجمال، ما هو إلا إحدى نتائج ما أراده سبحانه في كتابه الكريم، عندما قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ...﴿١٧﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ١٧].

﴿...فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ١٧]؟!

فلا ينبغي التعامل مع تلك الكلمات المقدسة من خلال النحو إلا عند الضرورة. و ما عدا تلك الضرورة ليس سوى فضول يحجب عن صاحبِهِ نور القرآن.

كذا الأمر بالنسبة **للاسترسال** في الأمور البلاغية، فهو التهاء عن معرفة و فَهْمِ المقصد الإلهي لتمثُّله و للعمل به، و إدبار عن التقدم في آفاق القرآن.

إذ إن إعجاز القرآن الكريم لا يتمركز على البلاغة. بل إن ذلك الإعجاز يشملها كجانبٍ من جوانبه، و يتجاوزها بما يفوق التصور مما أودعه سبحانه فيه من علومٍ عُليا.

التصور المصاحب للكلمة

و هو نطاق شخصيّ يحوي، إضافة إلى مفهوم كلمة ما، سائر ما هو مرتبط في الذهن عنها. أي سائر ما يستطيع أن يقوله المرء عن كلمة كموضوع طُلِب منه تقديمه.

في حين أن المفاهيم عموماً مكتسبة، و كذلك الآراء المرتبطة بها مأخوذة عن الآخرين، فإن التصور المصاحب للكلمة نطاق شخصيّ. أي إنه، بالواقع، مرتبطٌ، إضافةً إلى ما يحويه، بالملكات العقلية للشخص و بمستواه الفكري و الروحي.

التصورات المصاحبة للكلمات لها دور حاسم في فهمها عندما ترد في نص ما. فكيف، إذاً، لا نراجع تلك التصورات بشكل شامل و جذري قبل إسقاطها على كلمات القرآن. إذ لنا أن نتصور مدى تعدد و تباين تصوراتٍ تتراوح بين الضحالة و الركاكة لتصل إلى الانحراف لكلمات قرآنية مثل: «خليفة» أو «حكم» أو «جهاد».

خطورة إسقاط التصورات تتجلى في دورها الحاسم في تحديد **مستوى فهم** القارئ للنص القرآني، إلى درجة أنه ينغلق أمام صاحب تلك التصورات، و قد حجبته عنه.

فالنص القرآني الشريف هو الكتاب الإلهي الأخير المنزل على المرسل ﴿... كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ... ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٨] والذي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٧]. أي إن الحد الأدنى من مستوى الطرح فيه، عالميّ يتجاوز العصور، ليصل إلى المستوى الكوني و ليتجاوزه إلى الحقيقة المطلقة.

لذا، فلا بد من إعادة جدولة التصورات المصاحبة لأية كلمة ترد فيه من جذورها، و رفعها لتصل إلى المستوى اللائق به.

التخلص من حجب الإسقاطات الباطنة و الظاهرة على الكلمة القرآنية، خطوة أساسية للارتقاء إلى معانيها و رسالتها و آفاقها. و يكون ذلك عملياً بـ:

- تحرير الكلمة من **الشحنة** المرتبطة بها، لشحنها تدريجياً بالشحنة الصحيحة و المتوافقة مع النص القرآني الشريف.

- تحرير الكلمة من سائر **الانطباعات** المرتبطة بها.

- تحرير الكلمة من سائر **التداعيات** المرتبطة بها، و استبدال تداعيات منضبطة مصدرها القرآن الكريم بها، ثم المتواتر من السنة المشرفة و اليقيني من عالم الخليقة.

- تحرير الكلمة من سائر **المؤثرات** الداخلة عليها.

- **التعامل مع الكلمة** القرآنية، حصراً، ككلمة منزلة من لدن عليم حكيم، الذي خلق الخلق كله بقوانين محكمة.

- تحرير الكلمة من سائر **الآراء المصاحبة** لها.

- مراجعة **مفاهيم الكلمات** من جذورها بناءً على كيفية ورودها في القرآن الكريم.

- تطوير **موقف القارئ من الكلمة** القرآنية، و تفعيل حساسيته تجاهها.

- تفريغ **التصور المصاحب للكلمة** تفريغاً تاماً، ليستبدل به تصوراً يسمو إلى ما يليق بالمستوى العالمي و الكوني و الحقيقي للكلمة القرآنية.

منهجية العمل بحثاً عن معنى أيّة كلمة في القرآن الكريم

توَخّي الدقة

أي ضبط الأمور إلى أقصى حد، بحيث تكون أبعد ما تكون عن التقريب.

فالكلمات المدروسة في هذا المقام ليست مصطلحات شائعة لا داعي للأخذ والرد فيها، وإنما كلمات تعبِّر عن مفاهيم مرتبطة بالألوهية وأساسية في العقيدة.

فلا بد من الانتباه إلى عدم الخلط بين المفهوم البشري للكلمة، و المفهوم الإلهي الوارد في القرآن الكريم.

إن أسقطنا المفهوم البشري للكلمة على النص القرآني، فلن نستطيع تجاوز المستوى الأدنى لفهمه. هذا بِغضِّ النظر عن خطورة الحَطِّ من قيمة أمور غاية في الأهمية مذكورة فيه.

خطورة الأمر تستوجب، إذاً، حرصاً ودقة شديدين في البحث.

إن عدم دقة الأسس و نقاط الانطلاق، غالباً لا تظهر نتائجها السيئة عندما يتم تناول الأمر بسطحيّة. لأن هذا التناول لا يذهب بعيداً في البحث.

مثل بناء متواضع من طابق واحد، فإن كان ثمة عيب خفيف في أسسه أو انحراف بسيط في زواياه، فلن يؤثر ذلك عليه.

أما، لو وجد العيب و الميل نفسه، في بناء بمقاييس مئة ضعف و ارتفاع برج من خمسين طابقاً، لاستحال حتى إتمامه.

كي لا نقع في ذلك الإشكال، ظناً أن الأمر لا يحتاج لكل هذا العناء، فإن التوخّي للإتقان الشديد في الأسس، ضرورة، إذ المراد من عملنا بحثاً يتقدم إلى أقصى ما يمكن أن يكون.

فبقدر ما تكون الأسس صحيحة و متقنة، بقدر ما يسمح ذلك المتابعة بعيداً عمقاً و ارتقاءً من غير خطأ أو حتى انحراف.

مراجعة أية مسألة من جذورها

التوخّي للإتقان الشديد في الأسس يقتضي مراجعة أية مسألة من جذورها.

أي مراجعة و تدقيق كل شيء، حتى ما يعتبر مُسلّمة أو بديهة أو أمر لا يناقش، كما هو الحال، مثلاً، بالنسبة لبعض ما ورد في النحو أو في معاني الكلمات العربية، كالأخذ بمعنى أوحد لكلمة عربية، أو اعتبار جميع اشتقاقات كلمة عربية تدور في فلك معنى أوحد.

كيفية التعرف على مفهوم الكلمة القرآنية

الأسلوب الشائع و المتعارف عليه لتحديد مفهوم الكلمة القرآنية قائم على:

- الأخذ بالمفهوم الشائع للكلمة.
- تدقيقه و إغنائه بمعانيها المختلفة الواردة في المصادر القديمة كالقاموس المحيط و لسان العرب و الأشعار مثلاً.
- و **من ثم** تطبيق ذلك كله على النص القرآني الشريف.

هذا الأسلوب يعطي نتائج سريعة و مقنعة.

ولكن تدقيقاً في هذه النتائج، يظهر فيها الكثير من العيوب و الأخطاء، خاصة إن توخّينا الدقة للتعمق في رسالة الكلمة. عندئذٍ، نجد أن هذا الأسلوب **يعرقل** التفكير، و **يحدّه** بما يزجّه من معانٍ بشرية تحجب حقيقة المعنى و المقصد الإلهي. هذا ما رأيناه في المفهوم الخطأ و الشائع لكلمة «الأميين».

فلا بد لنا، إذاً، من أسلوبٍ آخر يجنبنا إشكالات الأسلوب الشائع.

و هو، في خطواته، عكس الأسلوب الشائع:

- إذ **نبدأ** من النص القرآني الشريف، و **نعتمده كأول مصدر في عملنا.** نكون بذلك قد تجنبنا الأفكار الجاهزة و المواقف المسبقة.
- و من خلال القرآن الكريم نقوم بدراسة الكلمة، لنرى كيف أوردها سبحانه فيه؛ فهو أدرى بمعناها و كيفية استخدامها!

هذا مما يعطينا **الوجهة** الصحيحة لمعناها الإلهي الحقيقي، و ليس نسبية المفهوم البشري لها، من خلال إسقاطاته عليها أو حدود فهم العرب أو أهل زماننا لها.

إذ إنَّ لكيفية استخدام الكلمة في أيّ نص دوراً حاسماً في إعطائها معناها.

- انطلاقاً من تلك الوجهة الصحيحة، نصل إلى جملة استنباطاتٍ وخطوطٍ أساسية لا غنى عنها لمتابعة و إكمال هذه الدراسة من خلال:



- التعمق في فهم الجذر الثلاثي للكلمة، و ذلك من خلال دراسة كيفية ورود سائر اشتقاقاتها في القرآن الكريم.
- دراسة الكلمة من خلال وزنها؛ و ذلك من خلال تفهُّم ذلك الوزن بحسب وروده في القرآن الكريم.
- إكمال الدراسة، إن اقتضى الحال، من خلال معرفة خصائص الأحرف و معانيها.

و قد سبق أن طبقنا تلك الخطوات عند وقوفنا، مثلاً، لتعريف كلمة «الإسلام» آخر نص «حقيقة أبدية و واحدة».

فقد بدأنا بتحرير تلك الكلمة من سائر ما هو ملصق بها، و خاصةً فكرة الاستسلام.

و من ثم، راجعنا ورود الكلمة في النص القرآني الشريف. و من ثم، راجعنا اشتقاقات جذرها فيه، لنصل إلى مفهومٍ أقرب ما يكون إلى المفهوم الحقيقي و المطلق.

و من ثم، تابعنا في تفهمنا للكلمة من خلال دراسة وزنها.

تطبيق قانونِ «**لكيفية ورود الكلمة الدور الحاسم في إعطائها معناها**»، يكفي لوحده للتخلص من الكثير من الخطأ أو الالتباس.

مثال ذلك: خلط الكثير من المسلمين و حتى الفقهاء منهم و مشايخ الحُفّاظ بين كلمتين مثل: «عبيد» و «عباد»، و اعتبارهما مترادفتين.

فقد وردت كلمة «عبيد» خمساً حصراً في القرآن الكريم، و بهذه الكيفية:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨١-١٨٢].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٥١].

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٩-١٠].

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٦].



﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٢٦-٣٠].

بعد التبَيُّن من معنى كلمة «عبيد»، و ذلك بناءً على كيفية ورودها في النص الشريف، فإني أشك أن يجرأ عاقل، يعي ما يقول، على النطق بكلام مثل: «نحن كلنا عبيده». بل سيدعو بافتقار و انكسار: ﴿...وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ١٩].

كذلك، فإن تحرير الكلمة القرآنية من سائر ما هو ملصقٌ بها، ثم النظر في كيفية ورودها في النص القرآني الشريف، كافٍ لوحده لتحقيق قفزة نوعية في دقة و صحة النتائج. نتائج لا تضع حداً للبحث، بل تفتح آفاق الكلمة الإلهية.

مثال ذلك: كلمة «الروح» و المفهوم الخطأ المرتبط بها، سواءً بالنسبة للعامة أو لسواد مشايخ المسلمين. فهي بالنسبة لهم، و في أحسن الأحوال، مرادف لكلمة «النفس»، إن لم تكن بديلاً عنها. و هي كذلك مرتبطةٌ في أذهانهم بمفهوم «الحياة».

يكفي مراجعة كيفية ورود كلمة «الروح» في القرآن الكريم، لنصل إلى نتائج مختلفة جذرياً عن ذاك المفهوم الشائع، و الذي رسَّخه الالتباس الوارد في كلام بعض رواة الحديث. فكما هو معلومٌ و مما لا خلاف عليه، أن الأحاديث، حتى الصحيحة منها، لم تردنا بحرفيَّة كلام المصطفى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إلا ما ندر، و إنما بعبارة الرواة.

بذلك، فإن استخدام عبارة الروح في [صحيح مسلم] ٥١١٩، مثلاً، ليس سوى التباساً: «حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا بُدَيْلٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا. قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ. قَالَ: وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ...».

جليٌّ أن ذلك الكلام ليس سوى صدى لقوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٢١]. فسبحانه لا يتوفى «الأرواح»، بل ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٢]. و لم يقل سبحانه: «يا أيتها الروح المطمئنة...»، بل ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٧-٢٨].

ولم ترد عبارة «الروح» في القرآن الكريم في صيغة الجمع قط. و هذا، لوحده، يكفي المتفكر دليلاً.

كيف إذاً، و لم تنسب الروح في القرآن الكريم لأحد قط، إلا لله جَلَّجَلَالُهُ؟! و ذلك في آياتٍ كثيرة مثل: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٩].

و لم ترد عبارة الروح في القرآن الكريم، في ما عدا ذلك، إلا لقباً لسيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. و هو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليس موكلاً بالحياة و الموت، بل بتبليغ رسالة الله جَلَّجَلَالُهُ و ما فيها من العلم خاصةً ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [النجم: ٥٣/ ٥].

بذلك، و أخذاً بالملاحظة الأخيرة، و بسائر ما أشرنا إليه، يستوي المعنى في ذهن قارئ القرآن عندما يتشرف بالوقوف عند قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥]. فيفهم أن صيغة «مِنْ أَمْرِ رَبِّى» لا تعني أن «هذا أمر يخصه سبحانه و لا شأن لكم فيه». بل إن تلك الصيغة تذكره بآياتٍ اقترنت فيها عبارة «الروح» بعبارة «أمر»:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ٢].

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٥].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢].

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القدر: ٩٧/ ٤].

فيتبين له أن قوله تعالى: ﴿ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾، جوابٌ صريحٌ على السؤال.

و يفهم، و قد علم ارتباط الروح بالعلم داعي تتمة الآية: ﴿ ...وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥].

بذلك، فإن نفخه سبحانه من روحه في آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و في ذريته و في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ما هو نفخٌ للحياة، و إنما منحُ المنفوخ فيه مؤهلاتٍ تمكنه من الخوض في مجردات العلوم العليا و الحقيقة.

و يؤيد ذلك تأملٌ، يحتاج إلى الكثير من التجرد و العلم، في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ
وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾
ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾
ثُمَّ سَوَّىٰهُ
وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ
وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٧-٩].



مسألة اختيار الكلمات في القرآن الكريم

الوقوف عند أية كلمة في القرآن الكريم، و التساؤل عن سبب اختيارها هي بالذات، من أساسيات حسن تدبر القرآن.

ولكن، و خاصةً بعد معرفة الحد الأدنى من آفاق تلك الكلمات الإلهية، فلا مجال لحصر سبب اختيارها ضمن الاعتبارات اللغوية و البلاغية.

إذ إن تلك الاعتبارات ليست سوى جانباً يسيراً من الاعتبارات العظيمة الداخلة في اختيار الكلمة القرآنية.

الخوض في سبب اختيار أية كلمة في القرآن الكريم، يقتضي أولاً التخلصَ من سائر ما يخطر على البال عند دراسة نصٍّ أدبي أو فكري بشري.

إذ لا تفضيل في النص القرآني الشريف لكلمةٍ على أخرى، لمجرد أنها أجمل أو أقل شيوعاً. و لا تنميق فيه أو استخداماً أدبياً محضاً للمترادفات من باب تَجنُّب التكرار، أو من باب التنويع و غنى التعبير.

هذا مما يُبّرِز **خطأ المترادفات** كإسقاط بشري على النص الشريف.

بل ينبغي **إلغاء ذلك الاعتبار** عند تناول كلمات مثل: ضياء (ضوء) و نور، عبيد و عباد، عمل و فعل، جسد و جسم، إنسان و بشر، عفو و مغفرة...

فهي، و لدقة و إحكام معانيها الظاهرة، كلمات يستحيل أن تحلَّ الواحدة محل الأخرى. و ذلك، للفوارق الشاسعة في الحقيقة بينها، بغض النظر عما أشرنا إليه من آفاقها.

ثم ينبغي تدقيق مفهوم تلك الكلمات من خلال ورودها في النص الشريف لمعرفة المقصود منها و الفوارق بينها.

ثم يتابع قارئ القرآن تساؤله عن سبب ورود كلمة ما بالذات، من غير استعجال الجواب. بل، بتدبر القرآن ريثما يصل إلى الدليل و البينة.

و يعي كل الوعي أن الجواب المبني على الدليل و البينة و الذي حظي به، ليس الجواب النهائي على تساؤله، بل أول الطريق الصحيح، أو جواب على طبقة من طبقات القرآن الكريم.



من أبرز تلك التساؤلات، سبب ورود اسم بالذات من بين أسماء اللّٰه جَلَّجَلَالُهُ في آية ما.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٠]. فهو جَلَّجَلَالُهُ عزيز، أي لا يؤثِّر فيه سبحانه شيء. بذلك فإن إجابته سبحانه سيدنا إبراهيم ليست إلا لحكمةٍ سابق ترتيبه. فقد شاء في سابق علمه ذكر هذه الحادثة في محكم تنزيله لكتابه الأخير على خاتم النبيين. هذا ليس سوى الحد الأدنى مما يُقال للشروع في أول الطريق.

ثم يستمر قارئ القرآن في التفكر في سبب ورودِ كلمة من كلماته بنورِ اللّٰه و هدْيِه، أخذاً بشبكة الكلمات و بما أشرنا إليه من آفاق، فيرتقي فيها إلى ما شاء اللّٰه.

معرفة و لو الحد الأدنى عن آفاق الكلمة القرآنية

و قد وعينا كل الوعي أن النص القرآني الشريف نصٌّ إلهيٌّ في مواضيعه و لغته و حرفيَّة صياغته و كلماته، فلا مجال للتعامل مع كلماته كما يكون التعامل مع كلمات نصوصٍ بشرية، مهما كانت عالية في مستواها.

خاصةً من بعد معرفة، و لو الحد الأدنى، عن آفاق الكلمة القرآنية.

قاعدة هذه الآفاق، و التي لا يكون الانطلاق إلا منها، هي المفهوم الصحيح و الصريح للكلمة القرآنية نقيةً من سائر الإسقاطات.

مفهومٌ صحيح و صريح، و مفتوح باتجاه العمق و الارتقاء، كالذي كان عند أكابر الصحابة أمثال سيدنا أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تبدأ هذه الآفاق بانتماء أيَّةِ كلمة إلى مثيلاتها في شبكة الكلمات، و التي لها بداية عند أول ورودٍ للكلمة في الترتيب النهائي للنص الشريف، و نهاية عند آخر ورودٍ لها، و تعداد يقيني للمرات التي وردت فيها.

كل شيء في هذه الشبكة مقصود. وطالما أنه مقصود، فإنه، بالضرورة ذو مغزى و مدلول عظيم.

مثال ذلك، ما أشرنا إليه إشارةً في نص «بنية القرآن الكريم»، و من غير الخوض فيه، عندما تعرضنا لأول ورودٍ لكلمتي «الأرض» و «السماء»، و كذلك بالنسبة للكلمات الأربع الأولى من الآية ٣٠ من البقرة «و إذ» «قال» «ربك» «للملائكة».

كذا الأمر بالنسبة لآخر ورودٍ لكلمةٍ ما في الترتيب النهائي للنص الشريف. دليل ذلك:

أنّ أول ورودٍ لأيّة كلمة مبنيةٍ على جذر «هَدَيَ» نجده في الفاتحة، أي أول سورة في الترتيب النهائي للنص القرآني الشريف.

و رُتِّب الأمر بشكل معبِّر، بحيث أن الكلمات المبنية على جذر «هدي» غائبةٌ تماماً في السور الثمانية عشرة الأخيرة من القرآن الكريم، و ذلك ليكون آخر ورودٍ لأيّة كلمة مبنيةٍ على ذلك الجذر في سورة العلق بالذات، أي أول سورة في ترتيب تنزيل النص القرآني الشريف.

هذا ينطبق على سائر كلمات القرآن الكريم، و يتجاوز ما أشرنا إليه، لنجد تلازماً بين كلمةٍ في اشتقاقاتها مع كلمة أو كلمات أخرى في اشتقاقاتها.

مثال ذلك: أبواب كنوز قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢]. حيث ترد جملة من الكلمات لأول مرة في ترتيب النص الشريف. منها: ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ بهذه الكيفية و ﴿مُلۡكِ﴾ و ﴿سُلَيۡمَٰنُ﴾ و ﴿فِتۡنَةٞ﴾. اللافت للنظر أن تلك الكلمات تعود في آخر ذكر لسيدنا سليمان في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾ [ص: ٣٨/ ٣٤-٣٧]. ليس ذلك مجرد توافق، بل إحكاماً ذا مدلول عظيم يتوجه إلى أفهام أولي الأمر خاصةً.

ولا يقف الأمر عند ذلك، بل يتجاوزه إلى تعداد الكلمات. فقد ورد اسم سيدنا سليمان في القرآن الكريم ١٧ مرة عدد ورود كلمة «ٱلشَّيَٰطِينُ».

ليس هذا العدد، أو عدد ورود أية كلمةٍ أخرى في القرآن الكريم، تحصيل حاصل. و إنما عددٌ مقصودٌ بعينه، شاءه خالق الخلق كلِّه و موجد قوانينه، الذي ﴿...أَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٨].

بقي أن يفهم قارئ القرآن معنى ذلك العدد أو غيره مما أشرنا إليه في كثير من النصوص السابقة.

إن كان تناول الكلمة القرآنية يستلزم اعتماد منهجية دقيقة و متطورة للارتقاء إلى التعرف على مفهومها، فعلى أيِّ مستوى ينبغي، إذاً، أن تكون المنهجية المتَّبعة لفهم معاني تلك الأعداد؟!

بذلك، فإن الانتباه إلى كيفية الورود الأول و الأخير لأية كلمة في القرآن الكريم، و عددها و تلازمها مع كلمات أخرى، يفتح آفاقاً في الكلمات القرآنية هيهات أن تحيط بها العقول.

هذا الذي ذكرناه مما هيهات أن تحيط به العقول، هو أول ما يطالعنا من آفاق الكلمات القرآنية.

فكيف إذاً، آفاق ما أودعه سبحانه في بحور علوم أحرف و رسم أيَّةِ كلمة من كتابه الكريم؟

لِمَ وردت كلمة «اسم» بلا ألف في سائر بسملات القرآن الكريم، و وردت بألف في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٤]، و ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٥]، و ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٥٢]، و ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق: ٩٦/ ١]؟

لِمَ وردت كلمة «كتاب» بألف في قوله تعالى: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ٢٧/ ١]؟

في حين أنها و في سائر القراءات السبع تُقْرَؤ تماماً بالنفس الكيفية، لِمَ وردت كلمة «آتانيَ» بهذا الرسم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٣٠]؟ إلا لأن قائلها هو المسيح. و لِمَ وردت كلمة «آتانيَ» بهذا الرسم في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٦]؟ إلا لأن قائلها هو الذي قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥-٣٨].

و لِمَ وردت في الفاتحة الأبجديةُ كاملةً ما عدا سبعة أحرف؟

و لِمَ لم ترد سبعة أحرف من الأبجدية في أول سور القرآن و لا في آخرها؟

لِمَ وردت الشدَّة في آيات الفاتحة السبع في أربع عشر موضعاً، و على سبعة أحرف من الأبجدية حصراً؟

ما الفارق في القراءة بين ألف اسمه سبحانه «الغَفَّار» و واو اسمه تعالى «الغفور» جَلَّجَلَالُهُ؟

ما خطب تلك السينات في سورة الناس؟

إنها أسرار علوم كلمات الله في كتابتها، و قوة سريان حقيقتها في قراءتها.

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ١].

﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ١].

في ذلك، يقيناً، بحورٌ مما أودعه سبحانه في أحرف كلماته من علومٍ عليا، و مما يتجاوز الأفهام و طاقة العقول.

معرفة مجرد وجود ذلك كله، يدعو إلى تواضعٍ شديدٍ عند التعامل مع الكلمة القرآنية، بحيث لا يجرؤ الواقف عندها ادعاء الإحاطة بها تفسيراً. فكيف يكون إذاً، موقف الذي رأى شيئاً من تلك الآفاق؟!

كيفية التعامل مع المواضيع القرآنية

ضرورة التخلص من الإسقاطات البشرية

كي لا ينغلق القرآن الكريم في وجه قارئه، و كي لا يتحول إلى مرآة تعكس نفسية و عقلية و ثقافة ذلك القارئ، فلا بد له من التخلص من إسقاطاته تلك عليه.

الإسقاط افتراضٌ يصدر عن طرف بحق طرف آخر، يفترِض فيه أنه:

- إما ينفعل و يتفاعل و يفكر مثله، كالكذّاب الذي يعتبر الآخرين كذّابين مثله، أو كالكلب الذي أراد أن يُكرِّم سيده اعترافاً منه بالجميل فأهداه أفخر هدية: عظماً.

- و إما ينفعل و يتفاعل و يفكر مثل نموذج معيّن. كالذي يُسقِطُ على كل النساء تصوره عن المرأة، أو الذي يُسقِط على أجنبي من قومية ما تصوره عن تلك القومية.

طالما أن الإسقاط مجردُ افتراض، فإن علاقته بالواقع و بالحقيقة لا تعدو أن تكون احتمالاً.

المشكلة في الذي يقع في خطأ الإسقاط هي عدم وعيِه أن ما يقوم به ما هو إلا من قبيل الافتراض و الاحتمال.

لذا فإن الإسقاط، بحد ذاته، عيب كبير في المحاكمة؛ إذ إنه يفتقر إلى الحد الأدنى من الدقة، و هو بشكل خاص عجز تام عن التجرد و الموضوعية الضروريين لحسن المحاكمة و الفهم.

طالما أن النص القرآني الشريف نصٌّ إلهي في مواضيعه و في كيفية طرحها و في صياغته و حتى في لغته، فإن أي إسقاط يسقطه قارئه عليه ما هو، بالنهاية، إلا من الإسقاطات البشرية.

لا يعي قراء القرآن عموماً مدى كثرة وقوعهم في إشكال الإسقاطات البشرية، و لا مدى عرقلة تلك الإسقاطات حسنَ تدبره.

فهُم عموماً يقعون في ذلك الإشكال كلما قرؤوا حدثاً مذكوراً فيه، غير واعين للإسقاطات التي يقومون بها **على شخصياتِ** ذلك الحدث. كما هو الحال بالنسبة للأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ. فهُم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ ليسوا كمن ألِفْنا من صالحين أو فقهاء ممن يحفظون الألفيات و المتون و الشروح، متميزين عليهم بالعصمة و الوحي. بل، إنهم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ متميزون، عن سائر من نلقى، بشخصياتهم الفذة و بسرعةِ بديهةٍ خارقة و بعقل جلي و ذكاء استثنائي في عمقه و شفافيته. لا عجب، فهُم صفوة من اصطفاهم الله.

إن كان لا ينبغي إسقاط تصوراتنا على الأنبياء الذين هم بشر مثلنا، فكيف هو الحال بالنسبة للمذكورين في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]؟ و الذي يشكل كثيراً على كل من يقف عنده سواء كان قارئاً أو مفسراً.

و السبب في ذلك هو إسقاط القارئ انفعاله و تفاعله و كيفية تفكيره على الملائكة عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، عندما يتساءل: «كيف علموا أن البشر سوف يفسدون في الأرض و يسفكون الدماء»؟

فيخوض القارئ في احتمالات تتوافق مع علمه و خبرته و منطقه و كيفية تفكيره، ما هي إلا إسقاطاته عليهم. فلا يتقدم في تدبره للنص الشريف أيّة خطوة سليمة يستطيع اعتمادها للمتابعة على نور و بيِّنة.

إذ إن نفسية أي بشر و مؤهلاته العقلية تخضع فيما تخضع لمورثاته. و هذا، بالطبع، ليس حال الملائكة فهُم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يتوالدون.

و كذلك، فإن ردود فعل و علم و خبرة و منطق و كيفية تفكير أي بشر تخضع فيما تخضع لظروف النشأة؛ من الطفولة الأولى و المراهقة و الشباب إلى الكهولة و الشيخوخة، إضافة لمؤثرات البيئة الأسرية و الاجتماعية، و لحُجُب الأخطاء و الذنوب. جليٌّ، أن ذلك كله ليس حال الملائكة.

و هو يتساءل: «كيف علموا؟»، يصل استرسال قارئ القرآن في إسقاطاته على الملائكة و افتراضاته، حداً يصرفه تماماً عن الجواب الإلهي الصريح لسؤاله، و الوارد لا بعد سورٍ و أجزاء، بل



بعد ثوانٍ من قراءته الآية التي أثارت تساؤلاته. و الأكثر من ذلك، على لسانهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ! فيتجاهله تماماً، و هولا يزال واقفاً مستغرقاً في جعجعة و ضباب ما وصل إليه فكره.

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٢].

من الإسقاطات النموذجية التي يقع فيها الناس كلما قرؤوا حدثاً مذكوراً في القرآن الكريم، مثل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا ... ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ... ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ ... ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ ... ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ ... ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠-٣٤]، إسقاطان:

- أولهما: اعتبارهم ذلك الحدث بحد ذاته، متجاهلين علاقته الوثيقة بـ«الكل»، أي سائر الأحداث التي جرت و تجري في الكون.

عدم وعي وجود تلك العلاقة، أو عدم إدراكها، شأن المخلوق.

ولكن، هل هذا شأن المهيمن الذي هو ﴿...بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩]، و الذي ﴿...وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٨]؟

بذلك، لا ينبغي النظر إلى قصصِ الأقوام المذكورين في القرآن الكريم، مثل قوم نوح أو عاد أو ثمود أو لوط أو فرعون، على أنها اختيار منه سبحانه لما جرى في الواقع ليكون في القرآن الكريم عبرةً. كما يكون الأمر من كاتبٍ يستشهد بقصصٍ أو أحداثٍ واقعيةٍ، ليبين لقارئه صحة الفكرة التي يطرحها.

بل، ينبغي النظر إلى قصصِ تلك الأقوام، كحالاتٍ قصوى لاحتمالاتٍ من عالم الخليقة، ضمن تدرُّجاتِ شبكةِ احتمالاتٍ بين أطراف نقيض، مضبوطة أيما ضبط بنواميس إلهية محكمة. كمن يسير في طريقٍ ذي تشعبات عديدة و متزايدة، مرسومة و مضبوطة أيَّما ضبط. فإنه لن يصل في آخر مسيرته إلى مكانٍ لا على التعيين، بل سوف يصل إلى نقطةٍ محدَّدةٍ من نهايات التشعبات، مرسومة و مضبوطة منذ البداية.

و قد قدَّر المهيمن العليم الحكيم تلك الاحتمالات، فهو جَلَّجَلَالُهُ عندما يذكُر في كتابه الكريم ما جرى لفردٍ أو قومٍ، فإنه، لا يستشهد، كأحدنا، بما جرى. بل، يخبرنا بما وصل إليه فردٌ أو أفرادٌ أو قومٌ ضمن ذلك التقدير، و قد سبق و قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠]. خاصةً أنه سبحانه الخالق الذي خلق أنفسهم منذ البداية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ ...﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢]، و خلق الظروف و العالم الذي أوجدهم فيه، في الزمن الذي شاءه. بناءً على ذلك، فشتان بين ذكره لحدثٍ في كتابه الكريم، و بين استشهاد مخلوق بحدث.

هذا مما يعطي لقصص تلك الأقوام أبعاداً رمزيةً، لا بد من تدبرها لفهمِ ورودها هي بالذات في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، لا تكراراً، بل تكاملاً عظيماً.

ـ ثانيهما: اعتبارهم ذلك الحدث حدثاً من بين ما لا يُحصى من الأحداث جرى بحد ذاته في الواقع، قبل اختياره و ذكره لمقصدٍ ما.

لا إشكال في ذلك، من حيث الظاهر، إذ يُعتبر أمراً مفروغاً منه. و لكن في الحقيقة، ما ذلك إلا إسقاط بشري.

إذ إنهم، بذلك، يعتبرون النص القرآني لاحقاً للحدث المذكور فيه، كما يكون ذِكرُ بشرٍ لحدثٍ ما شهده، بالضرورة، ذكراً لاحقاً له. و كأن قرار إيجاد النص الشريف لاحق للحدث.

ولكن ذاكر الحدث في القرآن الكريم سبحانه منزّه عن الزمن.

و لم يقرِّر سبحانه إدراج ذاك الحدث بعد حدوثه في كتابه الكريم.

فهو الأول جَلَّجَلَالُهُ كما أنه الآخر. أي إنه أصلاً، و هو الأول، أعلمُ بما هو مستقبل بالنسبة لخلقه، فهو مقبلٌ عنده إذ إنه الآخر سبحانه.

بذلك فإن قرار تنزيل القرآن ليس قراراً لاحقاً لمجريات الأحداث، بل قرار خارج عن الزمن، أي سابقٌ له بالنسبة لنا.

طالما أن ذكر حدث ما في القرآن الكريم، هو في الحقيقة، و بناءً على ما سبق، و بالنسبة لنا، سابق له. فإن ذلك الحدث، **في الحقيقة**، هو اللاحق لذكره فيه.

بذلك، و على سبيل المثال، فإن قصة سيدنا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ و الخضر في سورة الكهف، **ليست مجرد تقرير بما جرى**، تم اختياره للاعتبار منه.

بحيث، مثلاً، أن حادثة نسيان الحوت عند الصخرة، لو جرت في أي مكان آخر، لما كان لذلك أيّة أهمية. أو، لو أن الأحداث الثلاثة التي جرت لسيدنا موسى مع الخضر حدثت بترتيب مختلف، أو



لنبي آخر مع شخصية أخرى، لَما غَيَّر ذلك من عبرة القصة.

إنما، كل ما جرى في تلك القصة و كل ما قيل، لاحق و مطابق لما هو مُعَدٌّ أصلاً ليكون في الكتاب الأخير المنزل، بما في ذلك انتقاء الشخصيات و حتى أسمائهم. كما هو الحال بالنسبة لأي حدث آخر في القرآن الكريم.

فما جرى لسيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و على سبيل المثال، مما هو مذكورٌ في سورة النمل، معدٌّ أصلاً ليكون في تلك السورة. و لا يمكن أن يجري إلا لسيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و باسمه كما هو في الرسم القرآني ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٠]...

إن أُخِذَت هذه الحقيقة بعين الاعتبار، انفتحت الآفاق القرآنية لعبرٍ و معانٍ و رموز أي حدث مذكور فيه بأدق تفاصيله.

و إلا، فإن القارئ يقف عند إسقاطاته.

لقد ذُكِر الحوت و البحرين في قصة سيدنا موسى و الخضر. و كلا الحوت و البحرين ذُكِرا في القرآن خمساً: أربعاً و مرة، مثل أصابع اليد. فقد ورد ذكر الحوت أربعاً بالمفرد و مرة بالجمع. و وردت عبارة «البحرين» أربعاً و مرة «البحران».

قصة سيدنا موسى و الخضر تقع، كما أشرنا سابقاً، تماماً في منتصف كتلة القرآن الكريم، أي في مكان شديد التميُّز. و قد ذكر الذي أحصى كل شيء عدداً البحرَ بصيغة المفرد في كتابه الكريم ثلاثاً و ثلاثين مرةً. منها ثلاث مرات في قصة سيدنا موسى و الخضر، ترتيبها السادس عشر و السابع عشر و الثامن عشر. أي إنها بالذات المرات الثلاث التي تتوسط كتلة الثلاث و الثلاثين، و هي تقع في وسط القرآن.

ليس المقصد الإلهي من ذلك مجرد «الإعجاز»، و إنما إعطاء المتدبر دليلاً على وجود نظام.

و طالما أنه يوجد نظام، فبالضرورة ثمة مقصد. لتعارض النظام مع العبثية أو الصدفة.

إن تابع متدبر القرآن بنور اللّه في هذا الاتجاه، فسوف يجد آفاقاً عظيمة فيما ذكرناه، و في كل تفصيلة و في كل كلمة و حتى، و من غير مبالغة، في كل حرف، مثل نون و ها قوله تعالى: ﴿ ... وَعَلَّمۡنَٰهُ ... ٦٥ ﴾ الكهف. كما هو الحال بالنسبة لكنوز علوم أي حدث آخر وارد في القرآن الكريم.

من الإسقاطات البشرية الشائعة على النص القرآني الشريف، إسقاط قارئه **تصوره** على الموضوع الذي يقرأه فيه، فلا يتقدم أبعد من حدود تصوراته.

هل ثمة نسبة و تناسب بين تصور بائع خضار متجول عن الاقتصاد، و تصور أحد أساطين الاقتصاد العالمي الذي يعلم خفايا آليات البورصات و المصارف؟

هل ثمة نسبة و تناسب بين تصور سواد المسلمين بما فيهم مشايخهم الذين يقفون عند شكليات الصلاة، و تصور العارفين عنها؟ أو بين تصور سذَّج أو حمقى زماننا عن الجهاد، و تصور سيدنا أبي بكر الصديق عنه؟ أو بين تصور من لم يرَ الكعبة إلا مرسومة على سجادة صلاة، و تصور سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عنها و هو ساندٌ ظهره إلى البيت المعمور؟ أو بين تصور عامة و مدَّعي زماننا عن الحكم، و تصور الذي خاطبه سبحانه قائلاً: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٥]، و الذي ﴿ ... رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم: ٥٣/ ١٨]؟ شتان!

فكيف، إذاً، البون الشاسع بين محدودية تلك التصورات، و بين عظمة آفاق المقصد الإلهي؟

هذه الإسقاطات تتدرج انعكاساتها من عدم الفهم إلى سوء الفهم، و لتصل إلى سوء الظن، كما هو الحال بالنسبة لمواضيع قرآنية كثيرة، و بشكل خاص موضوع الجنة.

تتلخص تلك الإسقاطات عندئذٍ في وجهين:

- إسقاط القارئ شخصيته و نفسيته و عقليته و تجاربه و مكتسباته على أهل الجنة.
- إسقاط القارئ تصوراته على الجنة و ما و من فيها.

بالنسبة لإسقاط القارئ شخصيته و نفسيته و عقليته و تجاربه و مكتسباته على أهل الجنة، فأول ما ينبغي التذكير به قبل مقارنة أهل الدنيا بأهل الجنة، هو الفوارق الشاسعة ما بين أهل الدنيا أنفسهم فيما يتعلق بالشخصية و العقلية و التجارب و المكتسبات، خلافاً للفوارق الجسمية و الظاهرية فيما بينهم، و التي تبقى محدودة.

إنْ قُمْنا بتمثيل هذين النمطين من الفوارق بمقاييس، و في حالة رجلين أحدهما من عامة العامة و الثاني في غاية التطور، فإن الفوارق الجسمية و الظاهرية لن تتجاوز المليمترات، في حين أن الفوارق الأخرى سوف تُقدَّر بألوف الكيلومترات!

لنا أن نتصور الفوارق الشاسعة بين هذين الرجلين فيما يتعلق بالتذوق و التفاعل و الإدراك، إن وضعناهما أمام لوحةٍ استثنائية في متحف، أو أمام أداء عال لمقطوعة من الموسيقى العالمية، أو أمام صرح معماري عظيم، أو حتى أمام وجبة مترفة أقرب للوحةٍ فنية في أحد المطاعم العالمية الشهيرة.

إن كانت الفوارق بين أهل الدنيا في تذوقهم و تفاعلهم و مداركهم شاسعة، فكيف، إذاً، الفوارق بين أهل الدنيا و أهل الجنة؟!

الفوارق بينهما **جذرية**.

إذ إن أهل الجنة كغيرهم من أهل الآخرة مرُّوا **بتجربة الموت!**

فالناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا.

إن كانت صدمة من صدمات الحياة الدنيا كافية لتغيير نفسية و عقلية و اهتمامات الذي تعرَّض لها، فكيف هذه التجربة بما فيها من مشاهدة ملك الموت، و الرحيل النهائي عن العالم المألوف، و انتقال النفس إلى عالم لامادي و انفتاحِ وعيها عليه و مشاهدته، و مشاهدة ملَكي السؤال و تبعات الأعمال؟

إنها كافيةٌ لتكون الفوارق بين الاثنين في **مداركهم و اهتماماتهم** فوارق جذرية.

فكيف إذاً، شهود هَول البعث و النشور و الجمع أمام رب العالمين، و كتاب الأعمال الذي ﴿ ...لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩]، و الميزان، و الحساب ﴿... يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٥] أمام سائر من كانت لهم بهم علاقة في الحياة الدنيا و أمام رب العالمين و ملائكته، و عبور الصراط مروراً فوق جهنم، و الشرب من الحوض الشريف، و الدخول في الجنة؟!

﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٢٢]، إن كان هذا الكلام يُقال لأهل السعير، فكيف وعي و مدارك أهل السعادة؟!

الفوارق الجذرية في التفاعل و المدارك بين عموم أهل الدنيا و أهل الجنة، تتركَّز بشكل خاص في مستوى الوعي الروحي.

إن كان عموم أهل الدنيا لا يعون وعياً تاماً معنى و أبعاد كلمة «روحي»، فكيف لهم، إذاً، أن يكونوا واعين على المستوى الروحي؟!

هذا لوحده يثبت أن الفوارق بين الاثنين جذرية.

فالالتباس بين النفس و الروح التباس شائع بين المسلمين الناطقين بالعربية، و حتى علمائهم. أما بالنسبة لغير المسلمين و غير الناطقين بالعربية، فإن مفهومهم للروح يبقى ضمن الاجتهاد البشري. و ذلك لعدم اعتمادهم المرجع الأعلى في هذا الخصوص، أي القرآن الكريم. و حيث نجد فيه تمييزاً واضحاً بين النفس و الروح. و حيث نجد أن الروح لا علاقة لها بالحياة و بالموت، و أنها لم تنسب قط لمخلوق، و إنما و على الدوام لله جَلَّجَلَالُهُ. أما بالنسبة للروح الأمين و روح القدس سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإنه لُقِّب بالروح لشدة علاقته بها. وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليس موكلاً بالحياة أو بالموت، بل بالعلم و بأعلى درجاته أي الوحي. التفكر في ذلك، خطوة أساسية لفهم المفهوم الحقيقي لكلمة الروح.

الفوارق الجذرية في التفاعل و المدارك بين عموم أهل الدنيا و أهل الجنة، تتركَّز بشكل خاص في مستوى الوعي الروحي.

هل يتفاعل أحدنا مع رسالةٍ أو أي شيء، كما يتفاعل عاشق مع رسالةٍ أو شيء أتاه من معشوقه، **لا يرى فيه إلا أثره و أنفاسه**؟ فقد استأثر المعشوق على قلب و عقل العاشق، فلا يغيب عن وعيه و هو يرى أي شيء آتٍ منه.

أمّا أهل الذكر، و هم لا يزالون في الحياة الدنيا، فقد أعادوا جدولة اهتماماتهم و وعيهم بناءً على سُلَّم أهميات، على رأسه سبحانه.

فبالضرورة، و بالنسبة و التناسب، صار ما سواه عدماً لعظمته سبحانه. بذلك، فإنه سبحانه لا يغيب عن وعيهم، بل يستأثر عليه و هم يرون أي خير آتٍ منه.

إن بعض أهل الذكر لا يستحضرون في بالهم و هم أمام فاكهة أنها من خلق خالقهم، بل يعون ذلك تلقائياً لشدة صلتهم به سبحانه. و يرون في لونها و شكلها و قوامها و في سائر تفاصيلها آياتٍ من جمال و إكرام سيد قلوبهم و معبودهم.



فهم عندما يتناولونها واعين أن ﴿...وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] إنما يندمجون بنقاء طهر جمالياتها، واعين أنها من تجليات إرادة سيد قلوبهم و ربهم و معبودهم، فتذوب قلوبهم امتناناً و ذكراً و تسبيحاً.

إن كان هذا حالهم رغم كثافات الدنيا، و رغم شدةِ خشيةِ من لم يعبر الصراط بعد، فكيف إذاً، يكون حالهم و قد عبروه بفضل الله و رحمته مارين فوق جهنم، داخلين الجنة بعد كل ما مرُّوا به و شهدوه و كشف عنهم الغطاء و شربوا من الحوض الشريف، فصاروا بالحالة القصوى من الصفاء و النقاء؟

و كيف يغيب سبحانه عن بالهم و عن وعيهم، و كل ما هم فيه من فضله و عطائه يذكرهم به فيزيدهم صلةً به و حباً؟

و كيف، إذاً، يتعاملون مع أي شيء أو أمر في الجنة، إلا من خلال صفاء و رقي هذا الوعي الروحي العالي و المطلق؟

خاصة، أنهم و قد انتقلوا إلى العالم الآخر، فقد انتقلوا إلى عالم مختلف جذرياً في ماهيته عن عالم أهل الدنيا.

كيف، إذاً، وقد انتقلوا من عموم ما في هذا العالم الآخر إلى عالم آخر له سُورُه و أبوابه الثمانية! بحيث يتحول الداخل فيه، بمجرد دخوله، تحولاً جذرياً.

عالم يخضع لقوانين مختلفة، لعل أهمها الانسجام المطلق بين كل ما فيه و من فيه، في سلام انعدام صراع الأضداد ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٣٦/ ٥٨].

انسجام و توازن مطلق في كل شيء، حتى في ما نسميه الطاقة ﴿...لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١٣]. فلا ضوء، بل نور بجمالياته الخارقة، و بما يكشفه من جماليات و حقيقة.

بهذا النور يظهر كل ما و من في الجنة بحقيقته و بجمالياته المطلقة لمن و لما فيها.

بذلك، فإن سائر ما ينتاب أهل الجنة من أحاسيس، ما هي إلا وعيٌ لتلك الحقيقة و لتلك الجماليات من خلال التقاءٍ يصل إلى حد الاندماج.

نعيمُ وعيِ حقيقة الجنة و جمالياتها، لا يقف عند ذلك، بل يَسّبَح بشكل متواصل في نعيم الصلة التامة برحمة الله و رضاه و حبه، ليصل إلى أقصى النعيم برؤية وجهه الكريم سبحانه...



فما أبعد ذلك العالم و من فيه، عما يعلم أهل الدنيا من عالمهم، و عن ضيق أو عكر إسقاطاتهم. خاصة عندما يحكمون بعنجهية، تفتقد بالطبع إلى الحد الأدنى من الموضوعية، على تفاصيلِ ما ورد في القرآن عن الجنة.

في حين أن الموضوعية و النزاهة الفكرية تقتضي الأخذ بالكل المتكامل الذي ورد فيه عنها.

كلٌّ متكامل يعطي أيَّة تفصيلة معناها الحقيقي.

كلٌّ متكامل، تستدعي كلُّ كلمةٍ من خطوطه العريضة وقفاتِ تأملٍ عميقة و إعادةَ نظرٍ كاملة و شاملة، مثل كلمة «**أُعِدَّتْ**» من قوله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣**﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣].

ما ذكّرنا به في الفقرات السابقة عن الجنة و أهلها، يستدعي، من تلقاء نفسه، لفتَ النظر إلى إسقاطاتٍ على القرآن الكريم تعرقل أو حتى تمنع فهمه. ألا و هي إسقاطات البشر مفاهيمهم عن الكلمات على كلمات القرآن.

تتدرج تلك الإسقاطات انطلاقاً من الكلمات التي تعتبر شائعة لا حاجة للوقوف عندها مثل «حوت» أو «نملة» أو «قمر» أو «رجال» أو «أرض»، و مروراً بكلمات تحمل مفاهيم عامة و أساسية تعتبر مفروغ منها مثل «إيمان» أو «هدى» أو «علم»، لتحجِّمها و لتحدّها بحدودٍ ما أبعدها في ضيقها عن آفاق ما يشير إليه قائلها سبحانه و ما أودعه فيها.

الكلمات القرآنية، و التي ذكرنا أمثلة منها، تحتاج إلى إعادة نظر جذرية و مسلكية للارتقاء إلى معانيها الإلهية، و للانفتاح على آفاقها الشاسعة. و ذلك ابتداءً من تحريرها من الإسقاطات البشرية.

إن كانت الإسقاطات على كلماتٍ كالتي ذكرنا، و التي يكاد لا يعي أحد أنه واقع فيها، حجاباً مانعاً يطرد صاحبها عن حقيقة المقصد الإلهي، فكيف إذاً خطورة تلك الإسقاطات عندما تكون على كلماتٍ متعلقة بفعله سبحانه؟!

تُرى، ما عدد الذين يقومون بما ينبغي أن يقوم به كل من يقرأ القرآن الكريم، أي القيام بعملية إعادة نظر جذرية لكلمة «قال» عندما تكون بحقه سبحانه؟

أما ينبغي أن نراجع مفهومنا لكلمة «قال» عندما تتعلق به تعالى؟

مفهومنا عن أيّة كلمة هو حصيلة تجاربنا معها و ما يتأتى عن ذلك من مشاعر و تصورات و انطباعات و تداعيات و ذكريات ترتبط بها. هل يمكن إسقاط هذا المفهوم الدنيوي عليه سبحانه؟

أم يجب رفع مفهومنا و تصوّرنا عن الكلمة إلى أقصى ما يمكن في سعي للاقتراب من المعنى، و كخطوة في طريق العلم، و خوفاً من قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٧].

فقوله سبحانه إحقاقٌ أي إيجاد و خلق ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٣].

الأسطر الأخيرة تقودنا تلقائياً إلى إسقاطات تأخذ أبعاداً خطيرة عندما تكون عليه سبحانه.

إن كانت ذروة ما و صلت إليه العلوم المادية الحديثة من قوانين فيزيائية، هيهات أن تكون مطابقة لواقع العالم المادي. و إن كان ذروة ما و صل إليه المنطق البشري، هيهات أن يكشف واقع ذلك العالم. فكيف لتلك القوانين و لذلك المنطق أن يخوض بجدارة في عوالم لا مادية؟

و كيف، إذاً، لتلك القوانين و لذلك المنطق أن يخوض في أمرِ مَن هو منزه في علوه و عزته و قدسيته حتى عن العوالم لا المادية؟

فما أوهى المنطق و الفكر المعتمدَين في تساؤلات أو اعتراضات يثيرها الكثير ممن يقرأ القرآن، مثل: «و ما حاجة الله لذلك؟» في صدد آياتٍ كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٦].

غير واعين أن سؤالهم «**و ما حاجة الله لذلك؟**»، قائم على إسقاطٍ بشري صرف، حيث الحاجة هي الدافع الأساسي وراء أي عمل. و هو سبحانه ﴿...غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧]، منزه عن الحاجة لكماله. و ما يخلق إلا لأنه أصلاً الخالق! و لِمَ يخلق؟

لأنه الإله الحق لا إله إلا هو. و هذا شأن الإله، سبحانه.

و ما أهزل المنطق و الفكر المعتمدَين في تساؤلات أو اعتراضات يثيرها الكثير ممن يقرأ القرآن، مثل ما سبق و أشرنا إليه: «**كيف يحاسب الله الناس على ذنوبهم و هو يعلم أنهم سيذنبون؟**».

المهزلة الكبرى تكمن في عدم وعي الذي يخوض في ذاك السؤال أنه يتصور نفسَه مكان الله سبحانه، و الناس أمامه يريد حسابهم.

ذروة المهزلة: أنه إن لم يستطع حل تلك المسألة بعقله الراجح و ذكائه الخارق، فكيف يستطيع سبحانه ذلك؟!

و كمثال آخر شائع من الأسئلة التي تتنافس على مكان الصدارة في مهزلة إسقاط الأدنى على الأعلى، سؤال من نمط: «**كيف** يحاسب الله غير المسلمين و خاصةً الكثيرين الطيبين و المسالمين الناشئين بعيداً عن الإسلام فلا يعلمون عنه شيئاً؟». طالما أن الذي طرح ذاك السؤال لم يستطع حل تلك المسألة بعقله الراجح و ذكائه الخارق، فكيف يستطيع سبحانه ذلك؟!

* * *

ضرورة مراعاة الرسالة الكلّية للنص القرآني الشريف

نظراً لاستثنائية النص القرآني الشريف في مواضيعه و صياغته، فقد تبين لنا استحالة التعرف عليه و تدبره إلا بالتدريج.

ما لم يبذل قارئ القرآن جهوداً ذكية، هو أول المستفيدين منها، للتقدم و الارتقاء في تدبره، فإنه سيقف عند ما يظهر له منه و هو يقرؤه، أي سلسلة من مواضيع مختلفة و متشابكة، منها ما يرد مرة واحدة، و منها ما يعود مرات أو مراراً.

لا بد، أثناء التدرج في التعرف على القرآن و تدبره، من المرور، بطبيعة الحال، في هذه المرحلة.
الإشكال هو الوقوف عندها! و هذا هو حال سواد قارئي القرآن.

إشكال الوقوف عندها، هو الوقوف عند أول مرحلة تمهيدية!
الذي أنزل القرآن، سبحانه، أدرى بذلك و أدرى بعقل قارئه.

و هو سبحانه لا يريد لعباده مجرد الاطلاع على كتابه. و بأحسن الأحوال، لصق بعضٍ منه على عقولهم على علاتها و ما فيها، فتبقى عقولهم **واقفة** حيث هم.

بل يريد **رفع لياقاتهم** بالخروج من جمود ذلك الموقف السلبي، و مما هم فيه من نسبيّة و محدودية، إلى **التحرك** و الارتقاء في عالم النور و الحقيقة بآفاقه الشاسعة ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١].

الذي أنزل القرآن، سبحانه، هو الذي خلق عقل قارئه، فهو سبحانه أدرى بطاقاته و بآلياته الحقيقية.

بذلك، و بالحقيقة، فإن التوافقية بين تلك الطاقات و الآليات و بين كيفية طرح المواضيع في النص الشريف، توافقية بالحد الأقصى.

فالأمر أشبه ما يكون بالمولود و العالم الذي يحيط به. فإنه، إضافةً إلى باقي حواسه، يسمع و يرى كل ما يحيط به دفعةً واحدةً متكاملةً، رغم أنه لا يعي مما يسمع و يرى إلا ما هو متناسبٌ مع إمكانياته. هكذا رتب له الذي خلقه.

لنا أن نتصور الأمر بحسب المنطق البشري في المنهج: و ذلك بترتيب مجال ما يسمع و يرى المولود حصراً بحسب حاجاته. بذلك، يُجعل لا يسمع و لا يرى ما لا شأن له به، كالسماء و النجوم و الأشجار و الناس و الشوارع و الأبنية و الكتب و المجلات و الفرش و الأثاث و المعدات و إلى آخر ما ذلك. تُرى كيف ستكون مداركه؟ ما أعقم ذلك المنهج! و ما أغنى منهج الرؤية الكلية.

الأول و الآخر الذي أحاط بكل شيء علماً سبحانه، و الذي أنزل القرآن الكريم، أعلم بالألوف المؤلفة التي ستقرؤه من وقت التنزيل إلى آخر الزمان، و باختلاف ثقافاتها و قناعاتها و عقلياتها و ملكاتها!

ما أعظم التباين فيما بين حاجات و تساؤلات و أحوال كل من يقرؤون القرآن.

و ما أعظم التباين بين جاهزية من يقرأ القرآن و بين ما تتطلبه تلك القراءة.

لذا فقد صاغ سبحانه كتابه بتلك الطريقة الفريدة التي تتماشى مع تبايُن أنماط قارئيه، و مع تباين جاهزيتهم.

فهو، سبحانه، يزوِّد قُرّاء كتابه الكريم بجملةِ معلوماتٍ متنوعة، يمكن قراءة كل واحدة منها بثوان أو دقائق. و قد راعى سبحانه كرماً منه قُرّاء كتابه، بأن جعل المدة اللازمة لقراءة تلك المعلومات متناسبة مع نمطها: فبقدر ما هي مجردة، هي قصيرة. و بقدر ما هي محسوسة، كالقصص مثلاً، هي أطول.

بهذه الطريقة الفريدة يزود سبحانه قُرّاء كتابه بجرعات خفيفة **ليتقدموا**.

فهو، سبحانه، أدرى بالبَوْن الشاسع بين استعداد تقبُّل أولئك القُرّاء، و بين عظمة رسالته في كتابه الكريم.

لذا، فهو، سبحانه، لا يعرض على قُرّاء كتابه الكريم المواضيع الكبرى دفعة واحدة؛ بل يجعلهم يتدرجون في سلسلة من مواضيع مختلفة و متشابكة، هي في الواقع عناصر على أعلى مستوى لمفاهيم أساسية، و لتلك المواضيع الكبرى.

و هو أدرى، سبحانه، بالنذر اليسير الذي سوف يفهمه أولئك القُرّاء في قراءاتهم الأولى.

و هو أدرى، سبحانه، بتباين مستوياتهم و ملكاتهم النفسية و العقلية و مسؤلياتهم، لذا فقد جعل الضروري لكل المستويات واضحاً في عرضه، صريحاً قريب المنال. و جعل نسبةً و تناسباً بين مستويات فهم المواضيع الكبرى و بين مستوى القُرّاء و مستوى آليات الربط و المقارنة المعتمدة.

ولكن، و بفضل التوافقية القصوى بين النص القرآني الكريم و بين طاقات و آليات عقول الذين سيقرؤونه، فإن ما يغيب عن وعي أولئك القُرّاء، يدخل، رغم ذلك، نوراً في أعماقهم.

و من جملة ما يدخل في أعماقهم و يساهم في تهييء عقولهم، هو رؤية فراغية ديناميكية يُعْرَض فيها الموضوع ضمن إطاره أو أطره المتعددة و من زوايا مختلفة.

بحيث يأخذ كل عنصر معناه من خلال علاقته بالعناصر الأخرى المرتبطة به، و من خلال علاقته بالكل، و حيث يساهم كل عنصرٍ في إعطاء الكل معناه.

هذه القراءات الأولى هي مرحلة تمهيدية تفسح المجال لقُرّاء القرآن للتعرف على بعض المفاهيم الأساسية، للتأمل و التفكر فيها، كخطوة أولية لتفهمها و للتعمق فيها بعد العودة إليها المرة تلو الأخرى.

عندما يبدأ قُرّاء القرآن بتحصيل المفاهيم الأساسية، يرتقي مستواهم الفكري و الروحي، و تتفتح مداركهم طالبةً المزيد من البينة و النور.

مما يدفعهم إلى العودة إليه و التحرك فيه و توظيف ما عندهم من نباهة و فطنة و ذاكرة، بالحد الأقصى، و هذا ما يريده سبحانه لهم. و سوف يربطون بالتأكيد بين ما يجدونه فيه من نقاط متماثلة أو متشابهة.

بذاك التحرك الصحيح و الربط، يكون القُرّاء قد أثبتوا جاهزيتهم و جدارتهم للتقدم في فهم النص الشريف.

عندئذٍ، و بهذا الربط الذي لا بد منه، سوف يتحصّل لديهم فهمٌ صحيح لرسالة ما، واردة كجزء لا يتجزأ من رسالة كلية هي رسالة القرآن الكريم.

فلا مجال، في تناولٍ سليم للقرآن الكريم، للحكم على أي مقطعٍ منه، قبل ربطه بشكلٍ صحيح بباقي النص الشريف.

هذه النقطة من أساسيات منهجية تدبر مواضيع القرآن الكريم.

لذا فقد تم اعتمادها عند تعرضنا لموضوع الأميين، و كذلك عند تبيان بنية القرآن الكريم، و عند التعرض للطبقات الوسطى و العليا لفهمه، و عملياً كل مرة نتشرف فيها بالخوض في أحد مواضيعه.

القرآن الكريم و القناعات و التطبيق

لكل من يقرأ القرآن الكريم، بالضرورة، قناعات تتعلَّق به و بتطبيق ما ورد فيه.

ولكن القرآن الكريم ليس مجرَّد كتاب هام، و إنما النص الحَرْفيّ لكلام الذي خلق قارئه، كلام مالك يوم الدين و الذي إليه المصير.

لذا، عندما يصل الأمر بقارئ القرآن إلى بناء قناعاته عنه و الشروع في تطبيق ما فيه، فإن المسؤولية تصبح عظيمة، لا بل مصيريّة.

فلا بد، إذاً، من التأكُّد من صحة تلك القناعات و من صحة التطبيق، و ذلك ضمن منهجية لتدبر القرآن الكريم و لكيفية التعامل مع مواضيعه.

عندما يتعلق الأمر بإعداد منهجية لتدبر القرآن الكريم و لكيفية التعامل مع مواضيعه، لا مجال قط لتجاهلِ أو إهمال قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

و ذلك لاحتواء الشق الأول من تلك الآية الكريمة على تعليمةٍ إلهية صريحة في هذا الخصوص: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴿٥٥﴾ ﴾.

شق الآية الثاني، و ما فيه من نُذُر شديد، يبرز الأهمية البالغة لتلك التعليمة.

و من جهة أخرى، فإنه يحض على الامتثال لها لتطبيقها بالشكل الأمثل، و ذلك من خلال تنبيهين:

﴿ ... مِّن قَبۡلِ ... ﴾: تنبيه إلى إن عامل الزمن ليس في صالح الذي لا يستغله بالشكل الأمثل.

﴿ ...وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ... ﴾: تنبيه إلى الخطورة المهلكة للغفلة.

ولكن، و في استقراء أولي للآية ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴿٥٥﴾ ﴾، ثمة ما قد يُشكل على الكثيرين في عبارة «أَحۡسَنَ».

إذ، و طالما أنه ثمة ما هو «أَحۡسَنَ»، فإن حرفيّة الكلام تدلّ، بالنسبة لهم، على وجود مستويات جودة متباينة في القرآن. منها الممتاز و منها الجيِّد و منها خاصةً ما هو أقلّ شأناً.

كذلك، فإن حرفيّة الكلام تدلّ أنه ينبغي القيام بعملية اصطفائية لاتِّباع الأحسن و ترك الباقي.

بالطبع، هذان الاستنتاجان لا يتوافقان مع عظمة و كمال **سائر** النص القرآني الشريف.

ولكن لا داعي لإعادة النظر في عظمة و كمال **سائر** النص القرآني الشريف، إذ لا ريب قط في ذلك. فكما قال سبحانه في الزمر: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم ... ﴿٥٥﴾﴾، فقد أمر نبيَّه الكريم بنفس الفعل ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ في آخر آية من سورة يونس. جليٌّ أن أمر الاتِّباع في هذه الآية يشمل سائر النص القرآني الشريف بلا تفاوت في الجودة و لا تفضيل و لا اصطفائية.

يلي خاتمة سورة يونس تأكيدٌ ساطع على ذلك، في فاتحة سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾. جليٌّ من الآية الكريمة، أن الإحكام المذكور فيها يشمل سائر النص القرآني الشريف. إحكامٌ نجد مظهراً منه أمام أعيننا مباشرة في الكلمات الشريفة المبنيّة على جذر «حكم»: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١٠٩] ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١١/ ١].

الذي أحكم آيات كتابه الكريم و الذي خلق نفس و عقل قارئهما، أدرى بما يعتلجهما. لذا فقد تكرّم سبحانه على الذي أشكلت عليه كلمة ﴿أَحۡسَنَ﴾ في: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٥]، و يسَّر له الضمانة على عدم تفاوت مستويات الجودة في النص القرآني الشريف، في آية كريمة، لا في سورة بعيدة عن سورة الزمر، بل في السورة نفسها. و علاوة على ذلك، بإيراد نفس الكلمة التي أشكلت: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا ...﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣]!

جليٌّ أن كلمة «أَحۡسَنَ» تشمل سائر النص القرآني الشريف.

إذاً، و قد بتَّت الآية الكريمة السابقة في الأمر، فلا تفاوت في الجودة و لا تباين و لا تفضيل و لا حاجة للاصطفائية. و ليس المقصد من «أَحۡسَنَ» قطّ ما ورد في التفاسير: « الأخذ بالعزائم و ترك الرخص»، أو «ما تضمَّن الإرشاد إلى خير الدارين دون القصص و نحوها»، فالعظمة و الكمال يشملان كل حرف من النص الشريف.

فلِمَ صاغ سبحانه الذي خلق نفس وعقل قارئه هذه التعليمة الأساسية و الخطيرة ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴿٥٥﴾﴾ بهذه الطريقة التي قد تربك الكثيرين؟



لأنه سبحانه لا يريد الوهْنَ لعقل قارئه، لعدم بذله المجهود الصحيح. و لا يريد إلصاق معلومات جوهرية على عقلٍ قاعدٍ بليد. بل يريد رفع لياقات عقل قارئه إلى تفكير صحيح و إلى التحرُّك في نور النص القرآني تدبُّراً، خاصة في ما نحن بصدده.

هكذا، و بالنظر إلى ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴿٥٥﴾ ﴾ بناءً على بديهة و يقين عدم تفاوت جودة النص القرآني الشريف، يفهم القارئ أن ما أشكل عليه، ما هو إلا:

اختزال قرآني أنيق بِتجاوزه ما هو مفروغ منه.

فينكشف له عندئذ المقصد الإلهي كالنور الساطع ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴿٥٥﴾ ﴾ أي:

وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ **(ما يمكن أن يصل إليه الفهم و التدبر من)** مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم .

ولا بد من السعي في ذلك، بالحد الأقصى من الذكاء و النباهة ﴿ ...مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾!

بناءً على ذلك، لا يمكن للأفراد و لا للجماعات و لا حتى لعموم أمة اعتماد قناعات بخصوص النص القرآني الشريف، أو تطبيق ما ورد فيه، إن لم يبذلوا أقصى ما يمكن بذله من ذكاءٍ مُوفَّق و مُجدي لاتِّباع أَحْسَنَ **ما يمكن أن يصل إليه الفهم و التدبُّر من** مَآ أُنزِلَ. و إلا، فهم يقيناً تحت وعيد ﴿ ...مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾!

و هذا ما حدث، فقد أتى العذاب بغتةً و الناس لا يشعرون، و ذلك في فتنة اغتيال علي بن أبي طالب و الحسن و الحسين، و ما حدث آنذاك و تبعاته إلى الآن، بما في ذلك فتنة الخوارج و المعتزلة و الانقلاب العباسي و أهوال و فواجع و خراب الغزو المغولي و الحكم الفاطمي و القرامطة و أهوال الغزو الصليبي و سقوط الأندلس و فظائع ما فعله تيمورلنك، وصولاً إلى زوال الخلافة و احتلال القدس و بلاء و فتن يكادان لا ينقطعان!

بذلُ أقصى ما يمكن بذله من ذكاءٍ مُوفَّق و مُجدي لاتِّباع أَحْسَنَ **ما يمكن أن يصل إليه الفهم و التدبُّر من** مَآ أُنزِلَ، إذاً، ضرورة ماسة. و لكن ذلك يتطلَّب اعتماد:

- منهجيةٍ مُحكمة
- و لياقات عقلية متطورة للغاية، إن لم تكن استثنائيّة.
- و ذلك كله بنور من الله.



هذا ما يشير إليه ما جعله سبحانه، رحمةً و تيسيراً، في نفس سورة الزمر: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ ﴾.

- منهجيةٍ مُحكمة ﴿ ...فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ... ١٨ ﴾
- و لياقات عقلية متطورة للغاية، إن لم تكن استثنائيّة ﴿ ...أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ ﴾
- و ذلك كله بنور من الله ﴿ ...ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ... ١٨ ﴾

بهذه الآية الكريمة يهدي الله قارئ القرآن إلى اللَّحاق بأولي الألباب ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ... ١٨ ﴾ و السير على نهجهم. و ذلك ليعْلَم الأساسياتِ التي لا بد منها لحسن اتِّباع ما أنزل إليه من ربه، كيلا يسيئ في قناعاته عن القرآن و عند تطبيق ما ورد فيه فيحق عليه وعيد ﴿ ... مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥ ﴾، هو و من معه و سائر الأمة، خاصةً إن كان ممن يعتبرون مرجعاً أو من الأئمة أو من أولي الأمر.

لقد ذُكِر «أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ» في القرآن الكريم ست عشرة مرة، منها ثلاثاً في سورة الزمر. أوّلها: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾. تتميز هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ ...قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ... ٩ ﴾، و الذي يشير إلى أهمية العلم، و خاصةً في المجال الذي نخوض فيه.

و نلاحظ في هذه الآية ارتباط ذكر أولي الألباب بالتذكر ﴿ ...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾. و كذلك ارتباط ذكر أولي الألباب بالحثّ الشديد على التقوى ﴿ ...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ ... ١٠ ﴾.

بذلك، فإن هذا الشاهد من سورة الزمر يكون قد جمع ما سوف نجده في سائر الشواهد الكريمة الباقية عن أولي الألباب، أي: ارتباطاً إما بالتذكر و إما بالتقوى.

ارتباط ذكر أولي الألباب بالحثّ الشديد على التقوى نجده في أول و ثاني ذِكرٍ لهم في القرآن، و ذلك في سورة البقرة: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٩]، ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧].

ثاني ذكرٍ لأولي الألباب في سورة الزمر، قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾. يلفت نظرنا فيه بقوة، ما لم يرد في حق أولي الألباب إلا في هذه الآية: «وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ»، و خاصة ضمير «هُمْ». نفهم من ذلك أن **السمة الأساسية لأولي الألباب هي اتباعهم أحسن ما يمكن أن يصل إليه الفهم و التدبُّر من** مَآ أُنزِلَ. كما أننا نلاحظ في هذا الشاهد الشريف ارتباط ذكر أولي الألباب بالحثّ الشديد على التقوى: ﴿... ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٧-٢٠]. ارتباط ذكر أولي الألباب بالحثّ الشديد على التقوى نجده في سورة المائدة: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾. و كذلك في سورة الطلاق: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾. و كذلك في خواتيم سورة يوسف: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

هذا الشاهد الشريف من سورة يوسف دراماتيكي. إذ إنه يدل على أن اعتماد «ما تضمَّن الإرشاد إلى خير الدارين **دون القصص** و نحوها» تفسيراً لـ«أَحۡسَنَ»، هو في الواقع عدم اتِّباع «أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ»! إذ إنه مخالفة لآيةٍ صريحة. خاصة أنها لا يمكن إلا أن تلفت النظر بموقعها المتميِّز. فقد جعلها سبحانه كلمة ختام سورة يوسف: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾. علاوة على ذلك، فقد أورد سبحانه لكل نبيه لبيب كلمة «أَحۡسَنَ» في موقع متميِّز أول السورة، مباشرةً قبل بداية قصة سيدنا يوسف: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ... ٤﴾!

ثالث ذكرٍ لأولي الألباب في سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾. نلاحظ فيه ارتباط ذكر أولي الألباب بالتذكر، كما في الشاهد الأول من الزمر ﴿...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾. إذ إن موضوع الآية، إن أُخذ على ظاهره، مُحيِّر، من حيث غموض علاقته بما قبله و بما بعده. فيُسلِّم سواد القراء بالأمر، و يعتبرونه تذكيراً بآيات الله في خلقه على الأرض. و لكن أولي الألباب يتذكرون و يفهمون في الحال أن المقصد هو الحياة الدنيا، في صورة رمزية تستدعي الكثير من التأمل، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤]، ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٥].

ارتباط ذكر أولي الألباب بالتذكر نجده في ثالث ذكر لهم في سورة البقرة: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾. و كذلك، و بنفس الصيغة تماماً، في أول ذكر لهم في سورة آل عمران: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾. و كذلك في سورة الرعد: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ



كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾، و تماماً بنفس صيغة الشاهد الأول من الزمر ﴿..إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾. ارتباط أولي الألباب بالتذكر نجده كذلك في خاتمة سورة إبراهيم: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾. و كذلك في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ . و كذلك في سورة غافر، و بنفس الصيغة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾. و لعل أكثر الآيات تميُّزاً، حيث نجد ارتباطاً بين أولي الألباب و التذكر، هي التي في سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

فالسورة الشريفة تبدأ بذكر الذين يكفرون برسالة ما يأتيهم من رسل. هذا في استقراء سليم لظاهر الكلام مما لا غبار عليه. في استقراء بدرجة واحدة أعمق، نفهم تماماً من الآيات أن سبب إعراضهم عن رسالة الرسول هو عدم توافقها مع قناعاتهم و مع ما نشؤوا عليه مما هو سائد عندهم، و هم الغالبية و هم في موقع قوة. هذا الاستقراء الصحيح حريّ بالتأمل... يلي تلك الآيات أول سورة ص، تحوُّل الخطاب إلى الرسول الأكرم، و الشروع في قصة سيدنا داوود مع الخصمين و النعاج: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾. و تنتهي القصة بهذه الطريقة: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾. و يستمر الكلام الإلهي بعد ذلك مُبتعداً تماماً، في ظاهره، عن قصة سيدنا داوود إلى ما ألفه قارئ القرآن عبر صفحاته، و كأن الأمر قد أخذ منحى آخر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾. و فجأةً يظهر قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ تماماً خارج سياق الكلام، بحسب أي منطق بشري. بحيث، لو حُذفت الآية الكريمة لما اختل المعنى، و لما لاحظ القارئ شيئاً. الأعجب من ذلك هو الآية التي تليها، و خاصةً واو العطف التي تبتدئ بها: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

المنطق العجيب في تسلسل الآيات في هذا الشاهد الشريف من ص، و خاصةً الآية الكريمة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾، لدليل قاطع على وجود آليات و شبكات شفافة في النص القرآني الشريف تدعو إلى تتبُّعها، للارتقاء بنور من الله في فهم الطبقات العليا من كتاب، و هذا شأن أولي الألباب.

الجولة التي قمنا بها ضرورة، لأن مسؤولية قارئ القرآن عظيمة، لا بل مصيريّة، عندما يبني قناعاته حول النص الشريف، و خاصةً عند الشروع في تطبيق ما ورد فيه.

فلا بد له من الامتثال لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ... ﴿٥٥﴾ ﴾ أي: وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ **(ما يمكن أن يصل إليه الفهم و التدبُّر من)** مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم .

هذه المهمة ليست سهلة.

ولكنه سبحانه يسَّرها عندما ربطها بأولي الألباب في آية من نفس سورة الزمر: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذا مما دعانا إلى تتبُّع أولي الألباب عبر سائر النص القرآني لنَعْلَم الأساسياتِ التي لا بد منها لحسن اتِّباع ما أنزل إليهم من ربهم. فوجدنا أن تلك الأساسيات تتمَحْوَر حول محورين: التذكُّر و التقوى.

- التذكُّر، كأداة أساسية في آليات ربط المعلومات عموماً و القرآنية خاصةً.

إذ لا مجال **للتقدم** في فهم رسالة ما، في القرآن الكريم، إلا بربط ما فيه من معطيات و معلومات. و لا تتم عملية الربط تلك مع نسيان بعض المعطيات و المعلومات، و حتى لو معلومة واحدة، و عدم إدخالها في الحسبان.

قد يبدو ذلك فوق مقدور البشر، و لكن سبحانه يسر القرآن للذكر، كما رأينا في سورة الزمر.

إذ يكفي أن يكون المرء حقاً ذاكراً لله ليُجزى ذاكرةً ملهَمة، و صادقاً في تدبره للقرآن الكريم، لتبدأ مادية صفحاته بالتلاشي تدريجياً، و ليشعر المتدبر أنه دخل في المجال القرآني يتحرك فيه، و أن كلمات خالقه حية تتفاعل معه و مع ذاكرته، فتأخذ به حيث ينبغي، ليتقدم و ليفهم و لتكتمل الصورة في ذهنه.

- ثاني عنصر رأيناه ملازماً لأولي الألباب عبر القرآن الكريم هو التقوى.

تقوى الله جَلَّجَلَالُهُ العزيز الجبار المنتقم القهار الذي إليه المصير سبحانه.

أي عدم القيام بأية خطوة إلا من بعد التحسب لكل تبعاتها على المدى البعيد، و خاصةً الأقصى، أي في الآخرة عند الحساب.

أي عدم القيام بأية خطوة إلا من بعد توخي فيها رضا الله.

ما أصعب تلك المهمة!





ولكنه سبحانه يسّر القرآن للذكر، فبيَّن السبيل لبلوغ التقوى في آيتين للحاق بالذين بلغوها، أولاهما في البقرة، مفصّلة:

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧].

ثانيهما في سورة الزمر!:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٢-٣٣].

العامل المشترك بين آيتي البقرة و الزمر، و بجلاء، هو الصدق. و قد يسر سبحانه الأمر، إذ جعله في آخر الآيتين.

الصدق مع النفس و الصدق مع الآخرين و الصدق مع الله خاصةً، إذاً، هو الأساس الذي تقوم عليه أمور كثيرة من أهمها التقوى.

و التقوى بما فيها من إحاطةٍ و علمٍ عميقٍ بكل الأوامر و النواهي، و بما فيها من تحسب لتبعات كل عملٍ على المدى البعيد و الأقصى، و هذا كله و ما يتطلبه من تذكُّر لربط المعلومات لبلوغ المقصد، هذا كله سبيل أولي الألباب ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ... ﴾.

فما أدق الأمر و ما أخطره عندما يبني المرء قناعاته عن القرآن الكريم، و خاصةً عندما يشرع بتطبيق ما فيه!

إذ لا يقف التطبيق عند حدود ما بين العبد و ربه، كالصيام و قيام الليل و كثير من الأحكام. بل يتجاوزه إلى أمور خطيرة، مثل ما يمس حقوق العباد من أموال أو أعراض أو دماء أو ذمة، و إلى أخطر بكثير كالقتال و الجهاد.

هذه الأمور الخطيرة لا ينبغي أن يقرر فيها إلا من هو موكل بها، و ذلك ضمن هيكلية متكاملة على رأسها خليفة حقيقي. خليفة من أولي الألباب الصادقين المتقين. خليفة استوفى، هو و من معه، سائر الشروط التي ذكرناها.

ما يبدو تكراراً

يمكن إجمال قُرّاء القرآن في فئتين:

فئة تقرؤه بتسليم تام، و هم سواد المسلمين.

و فئة تقرؤه و هي تارة تؤيد ما فيه و تهّتمُّ به، و تارة لا تأبه بمقاطع كثيرة منه أو تتململ منها أو تنتقدها أو حتى تستنكرها. معظم تلك الفئة من غير المسلمين، أو من المسلمين الخاضعين أو المتأثرين بالتيار الثقافي و الفكري المعاصر و الغربي خاصة.

في الواقع، معظم الذين يقرؤون القرآن بتسليم تام، تعتلج أعماقهم نفس مواقف الفئة الثانية، و بدرجات متفاوتة. و لكنهم يتجاهلون السلبية منها ليجنبوا أنفسهم اضطراب و خيبات الخوض فيها، لقناعتهم بقصور علمهم و علم غيرهم عن الوصول إلى جواب حاسم و إيجابي.

ولكن ما يعتلج أعماقهم رغم تجاهلهم إياه، يفعل فعله في تخدير وعيِهم و هبوط اهتمامهم و تفاعلهم مع النص الشريف، و تحويل قراءتهم له إلى قراءة ميكانيكية هدفها الأساسي مجرد تحصيل الثواب.

و بطبيعة الحال، فإن عدم اكتراث أو تململ أو انتقادات الفئة الثانية يجعل موقفها من القرآن الكريم موقفاً سلبياً كافياً لينغلق أمامهم، و ليتحول إلى مرآة تعكس قناعاتهم و ثقافتهم.

بذلك، فإن كلا الفئتين تبقيان خارج رحاب القرآن الكريم عندما تمرّان مروراً على الكثير منه لعدم تفهُّمه.

لعل السبب الأساسي في ذلك كله، الإسقاطات البشرية على القرآن الكريم. و خاصة في حالة العودات الكثيرة على مدى صفحاته لمواضيع مثل التشكيك بخاتم النبيين و بالقرآن الكريم، و مثل ما يتعلق بنعيم الجنة و عذاب النار و بمصير المؤمنين و الكفار.

سبب سلطان تلك الإسقاطات هو نشأة عقليات قُرّاء كلا الفئتين على التعامل مع كتب بشرية صرفة، أو كتب مقدسة خضعت، و إلى حد بعيد، لتأثير بشري.

كتبٌ أكثر ما يجمع بينها: بنيتُها في تسلسلٍ و تصنيف مواضيعها.

هذه الكتب، عدا القواميس، مُعَدّة لتُقْرأ بطريقة واحدة حصراً، أي بالتسلسل و بالضرورة من بدايتها إلى نهايتها. و هي مصنَّفة بتجميع المتشابه و تَبْويبه، لتسهيل الرجوع إليه.

هذا كله، ليس شأن القرآن الكريم. لذا فهو يُشْكِل على من يُسقِط عليه نمط الكتب البشرية، فتبدو له تلك العودات الكثيرة لنفس الموضوع تكراراً.

فالقرآن الكريم ليس معَدّاً ليُقْرأ بالضرورة بالتسلسل و من بدايته إلى نهايته.

و هو ليس مصنَّفاً بتجميع المتشابه و تَبْويبه. إذ، لو كانت السور نوعاً من جمعٍ و تبويبٍ للمواضيع، فإن ما ورد عن بني إسرائيل في سورة البقرة لوحدها أو في سور أخرى يعادل عشرات أضعاف ما ورد عنهم في سورة بني إسرائيل، و التي لم يرد فيها ذكرهم إلا في بضع آيات أولها و آخرها.

ولا يقف ذاك الإسقاط البشري على القرآن الكريم عند السمة السابقة، بل يستمر إلى طغيان أثر مادية الواقع الحياتي على عقليات الناس، و حتى المسلمين منهم، إلا ما ندر.

لطغيان أثر تلك المادية دور كبير في تحديد **مدى اهتمام** قارئ القرآن الكريم، مهما كان دينه أو قناعاته، بما يقرأ منه، كما هو حاله عند قراءته لكتبٍ بشرية. ذلك الاهتمام يتمحور بشكل خاص ضمن دائرة القارئ الشخصية و ضمن المجال الزمني المعتمد لديه، و هو في الواقع مجال زمني محدود.

لذا، فهو ينزلق على مقاطع كثيرة من القرآن الكريم تتجاوز تلك الدائرة و ذلك المجال. و بالذات تلك التي تعود مراراً، مثل المتعلِّقة بنعيم الجنة و عذاب النار و بمصير المؤمنين و الكفار.

إذ إن الكتب البشرية التي يسقطها على القرآن الكريم، مهما كانت مواضيعها هامة، فإن مصيره ليس مرتبط بها.

خلافاً للقرآن الكريم، و الذي يرتبط به المصير الحتمي و النهائي و الأبدي لقارئه.

طالما أن الأمر متعلقٌ بالمصير النهائي و الأبدي لقارئ القرآن الكريم، فلا عجب أن تكون نسبة التذكِرة التي تبدو تكراراً و التي وردت بهذا الصدد، فضلاً و رحمةً، متناسبةً مع أهميته البالغة.

و كذلك متناسبةً، مع طغيان دور مادية الحياة اليومية في إلهاء و إبعاد اهتمامات القارئ بشكل متواصل عن ذاك المصير.

فالأمر مُعَدٌّ، رحمةً، ليكون القرآن الكريم مفتوحاً من كل الجهات. بحيث من أينما دخل قارئه في رحابه، فسوف يجد **ما هو أحوج ما يكون إليه**، أي:

ـ ما يُذكِّره بأنه نفسٌ، أيْ كيانٌ لا ماديٌّ، عابرٌ في الدنيا و لحظاتها. فمهما غَنِمَ منها فلن يأخذه معه في قبره، بل يأخذ معه حسناته و ذنوبه، أي عمله.

تلك الدنيا التي ليست سوى دار امتحان تجعل المكنون ظاهراً، فتُظْهِرُ حقيقة النفوس التي تعْبُر فيها.

ـ و أن أيَّ أمرٍ يعيشه في حياته الدنيا تلك، أو ما يشهده من أحداث، أو حتى الأحداث و الوقائع الماضية و ما ذُكِر منها في القرآن الكريم، كل ذلك آيلٌ إلى الآخرة **حيث يأخذ معناه الكامل**، و **حيث يَظْهر كل شيء على حقيقته**.

و الأمر مُعَدٌّ، رحمةً كذلك، ليكون القرآن الكريم مفتوحاً من كل الجهات. بحيث من أينما دخل قارئه في رحابه، فسوف يجد نوراً مُسَلَّطاً على أمورٍ أساسيةٍ و في غاية الأهمية من واقعهِ:

ـ فالعودات الكثيرة في النص القرآني الشريف إلى ما كابده عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من تقريع و تشكيك و اتهامات، و كذلك الأمر بالنسبة للعودات الكثيرة إلى قضية الطعن أو التبخيس أو التشكيك في القرآن الكريم، فإن ذلك لا يزال واقعاً نعيشه في زماننا على المستوى العالمي بكل أبعاده و إلى أقصى حد. واقعٌ يعاني منه كل من يحاور و يناقش في هذا المجال.

ذلك الواقع يظهره سبحانه في كتابه على **حقيقته**، و يقدم لقارئه الحجة و البينة من خلال ما يسبقه و يليه من آيات تحتاج إلى تفهُّمٍ ذكي و تدبُّر. فإن قال المسلم: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة: ٣٢/ ١-٢]، فسيقول معظم معاصرينا: ﴿... ٱفۡتَرَىٰهُ ... ۝٣﴾، فيقول سبحانه رحمة: ﴿... بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة: ٣٢/ ٣]. و مَا الدليل أنه الحق؟ مئات الأدلة مثل ما رأيناه في مَثَل عيسى و آدم عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، أو ما مررنا عليه مروراً في نص «سبق الزمن»، أو ما أشرنا إليه في معرض الكلام عن الأبجدية و فواتح السوَر: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢/ ١-٢]، و ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة: ٣٢/ ١-٣].

– كذلك الأمر بالنسبة للعودات الكثيرة عن **دور النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بشيراً و نذيراً**، شأنه شأن سائر الأنبياء و المرسلين. دورُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و دورهم هزُّ النفوس و العقول بتزويدها بالمعلومات الصحيحة و الدقيقة عن حقيقة الأمور و على مداها البعيد، واضعين بذلك الناس أمام مسؤولياتهم.

هذه العودات الكثيرة توعية إلهية لمئات الملايين من غير المسلمين التي تُعاجز أو تطالب جهلاً و سذاجةً برسول أو زعيم روحي ذي إمكانيات و قوى خارقة، يُقيم و يُقْعِد و يَحُلُّ و يربط بوجوده على الأرض و بعد رحيله. جاهزٌ في أي لحظة، كجِنيِّ الحكايات، لنجدتها أو لتلبية حاجاتها و ليحقق لها سعادتها، يريحها نفسياً، أو يحمل خطاياها، لمجرد أنها اعتقدت به!

ليس ذلك شأن أنبياء الله و رسله الذين شأنهم تزويد النفوس و العقول بكل ما يلزمها لسموها. و إنما شأن كل ضلال و دجل، و شأن الأوهام و الوعود الكاذبة، التي لا تسمو بالنفوس و العقول، و إنما تغمس الناس في أنفسهم على عِلّاتها و أهوائها، فيغرقهم ذلك الانغماس في الضلال.

شأن أنبياء الله و رسله، شأن المعلم الجامعي المخْلِص الذي يُحضر الطلاب نفسياً وعقلياً لامتحان مصيري، مزوداً إياهم بكل ما يحتاجونه من معلومات. فعليهم اغتنام تلك الفرصة الذهبية بتَحَمُّلهم مسؤولياتهم، و الجدّ في العمل.

– كذلك الأمر بالنسبة للعودات الكثيرة إلى قصص الأمم السابقة مثل قوم نوح و عاد و ثمود و فرعون و لوط. كلها حالات نموذجية معبِّرة نراها في كل زمان، و خاصة في زماننا. يُبين سبحانه من خلالها **عقليةً و منطقاً و قيماً** كانت في تلك الأقوام، و نراها بحذافيرها في معاصرينا.

و يبين سبحانه لقارئ كتابه الكريم، في رؤية بعيدة المدى، ما آلت إليه تلك العقلية و القيم و ذلك المنطق، كي لا ينجرف في تيارهم بقِصَر نظره مخدوعاً بما مدَّهم به سبحانه من متاع الدنيا. إذ ما أقوى سلطان الأحاسيس المادية على عقول و محاكمة الناس ما لم يكونوا حقاً مؤمنين! فإن كانوا يعتقدون بوجود قوة أو قوى عليا خفية، فإنهم يعتبرون النجاح المادي دليلاً على رضا تلك القوى على الذي يحظى عليه. فيصير بالنسبة لهم مثلاً أعلى يتوقون للتشبُّه به و الوصول إلى ما وصل إليه. هذا حال سواد معاصرينا، فما أحوجهم إلى الاعتبار من قصة قارون، و التي سارع فيها سبحانه الأحداث، هدىً و رحمةً، ليعتبرَ الذين بُهِروا بالنجاح المادي الدنيوي: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ



أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٦-٨٣].

إن لم يدرك قارئ للقرآن الحد الأدنى مما بيَّناه من معنى و حكمة تلك العودات الكثيرة، فذلك دليل أنها قليلة، و أنه يحتاج لعودات أكثر ليفهم!

و إن أدرك معنى و حكمة تلك العودات الكثيرة، و لم يجعلها من قناعاته فيعمل بها، فذلك دليل أنها قليلة، و أنه يحتاج لأكثر من تلك التذكرة كي يعدِّل مساره عن الهاوية التي يتَّجه إليها!

بشيءٍ قليل من الانتباه و التدبر، يتبين لقارئ القرآن أن كل ما يبدو له تكراراً، هو توعية ضرورية لفهم الواقع المعاصر من جهة، و من جهة أخرى مآل كل شيء، ليحسن القرار و التصرف.

هذه العودات مرتبة بحيث تكون في المكان المناسب و محاطة بكل العناصر الضرورية لتحصيل رؤية متكاملة.

كل ما يتطلبه الأمر هو استقراء ذكي للنص القرآني الشريف، و تدبر صادق له.

فعرضُ المواضيع في الكتب البشرية أشبهُ ما يكون بألوف اللقطات التصويرية لمقاطع من طريق أو طرق مختلفة.

لقطات لا تُظْهِر كلّ واحدة منها أكثر من أمتار من تلك الطرق، و تغيب فيها الخلفيات، أي ما يُرى على المدى البعيد.

لا تكرار في تلك اللقطات، و إنما تعدد كبير يستوجب تبويباً...

أما عرضُ المواضيع في القرآن الكريم، فأشبهُ ما يكون بلقطات لطرق مختلفة من زوايا متعددة و معبِّرة. لقطات تُظْهِر كل واحدة منها تلك الطرق كاملة، بحيث لا تغيب فيها رؤية واضحة جلية للخلفيات بالبعد الأقصى، تلك الخلفيات التي تحوي على نهايات الطرق كلها.

هل ظهور تلك الخلفيات حيث منتهى كل شيء، في جميع تلك اللقطات، تكرار؟

العرضُ القرآني متميِّز، من حيث إنه يسمح في أي مقطع منه رؤية علاقة أي عنصر بالكُلّ.

و ذلك في شبكة علاقات كما يكون الأمر بالنسبة لنقاط ثابتة على سطح كرة. حيث يمكننا اعتبار نقطة ما مركزاً في علاقتها بباقي النقاط. و حيث يمكن أن تصير تلك النقطة، بدورها، ضمن علاقات نقطة أخرى معتبَرة كمركز.

يظهر ذلك جلياً في أي كلمة متميّزة من مقطع ما من القرآن الكريم. فإنها محاطة بمجموعة من الكلمات و المواضيع تتدرّج بابتعادها عنها. إن ذهبنا إلى نفس تلك الكلمة المتميّزة في أي مقطع آخر من القرآن الكريم، فسوف نجد أنها على الدوام محاطة بنسبة عالية و ذات مدلول من نفس المجموعة من الكلمات و المواضيع. فقد رأينا سابقاً، و على سبيل المثال، كيف أن كلمة «الأمّيّ» أو «الأميين» محاطة على الدوام بذكر أهل الكتاب و اليهود خاصة.

بذلك فإن عودة مواضيع أو نقاط معينة في أماكن متعددة من القرآن الكريم ليس مجرد تكرار، و إنما لتكون الفكرة المعروضة محاطة بالعناصر المصاحبة لها و الضرورية لفهمها فهماً صحيحاً من خلال علاقتها بالكل.

ما أشبه تلك البنية بالخليقة. حيث أننا لو تفحصنا عنصراً ما منها، فسوف نجده على الدوام محاطاً و مرتبطاً بعناصر معينة، و هي بدورها مرتبطة بعناصر أخرى.

لا عجب أن نجد نفس الخاصية في القرآن الكريم، إذ إنه الأصل، كونه كلام الخالق جَلَّجَلَالُهُ الذي أوجد تلك الخليقة!

هذه الخاصية تفتح المجال لنقلة نوعية في التعرف على المفهوم الذي تحمله الكلمة القرآنية من خلال منظار الحقيقة. مفهوم لا يمكن للعقل البشري بلوغه لولا القرآن الكريم.

بذلك، فإن مواضيع القرآن الكريم و كلماته لا تقف حدودها عند ظاهرها و أول ما يُفهم من صريح معانيها. بل هي يقيناً تجلّ متكامل من تجليات الإرادة الإلهية و الحقيقة الكونية. و ذلك من خلال ورود، أبعد ما يكون عن محض تكرار، لأي موضوع أو كلمة فيه بناءً على توازناتٍ فيما بينها و بين كامل النص الشريف، و بناءً على أعداد ذات رمزية عالية.

تدبُّر تلك التوازنات و خاصةً تلك الأعداد يفتح المجال للارتقاء في فهم النص الشريف باتجاه الآفاق الشاسعة لتجليات الإرادة الإلهية و الحقيقة الكونية.

من جهة أخرى، فإن القرآن الكريم ليس مجرد مرجع أساسي يوضع على رفٍّ من المكتبة، للعودة إليه عند الحاجة، كما هو الحال بالنسبة للكتب البشرية.

إذ، ذاك الذي يوضع على رف المكتبة باحترام فائق و تقديس، ليس القرآن و إنما المصحف.

لم يكن أحد في الأجيال السابقة يقول: «هات القرآن»، بل «هات المصحف». و لم يقل أحد منهم: «قرآن عثمان»، بل «مصحف عثمان».

فقد كان التمييز بين المصطلَحين، و إلى حد بعيد، واضحاً. خلافاً للخلط بينهما الذي بدأ ينتشر في الأجيال المسلمة المعاصرة، و خاصة غير الناطقين بالعربية. أما بالنسبة لغير المسلمين، فالالتباس كامل، إذ إن مصطلح «مصحف» غير وارد عندهم.

ذلك الالتباس يحجب وعيَ حقيقةِ لامادية القرآن.

فالقرآن مجال لامادي يحوي مكنوناً و أسراراً، و الخصائص الفعالة لما ورد فيه من **كلام الله**، مما يفوق التصور و ما تدركه الأفهام.

كذلك الأمر بالنسبة لكلمة «ٱلْكِتَٰبِ» بمفهومها القرآني الصحيح، كما في قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر: ١٥/ ١].

لو كانت كلمة «ٱلْكِتَٰبِ» مجرد مرادف للقرآن، لكانت تكراراً لا مبرر له.

جليٌّ أن المقصد الإلهي في الآية الكريمة هو الإشارة إلى بُعدين لاماديين لكلامه سبحانه: البعد المنطوق المسموع بكل خصائصه و أسراره، و البعد الذي يتجلى من خلال الحرف و ما يفتحه من آفاق تفوق التصور.

إن كان الالتباس بين «المصحف» و «القرآن» محصوراً في الأجيال المعاصرة و في غير الناطقين بالعربية و في غير المسلمين، فإن الالتباس بالنسبة للمفهوم القرآني لكلمة «ٱلْكِتَٰبِ» يشمل الثلاثة المذكورين إضافة إلى الأجيال السابقة من المسلمين الناطقين بالعربية و حتى الفقهاء منهم.

فمفهوم الفئات الأربع تلك عن كلمة «كتاب»، إضافة إلى المعاني الفرعية مثل الرسالة المكتوبة، مفهومٌ ـ عملياً ـ مطابق للمفهوم الشائع منذ أمد، أي ذلك الكراس أو المجلد الذي يجمع نصاً أو نصوصاً كاملة.

هذا المفهوم ليس المفهوم القرآني لكلمة «ٱلْكِتَٰبِ». إذ، لا يستوي المعنى إطلاقاً، بذاك المفهوم الشائع، في قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ٩٨/ ٢-٣]. إذ كيف للكتب، بالمفهوم الشائع، أن تكون **في** صحف؟!

لذا، لم يقل سبحانه: «كمثل الحمار يحمل كتباً»، بل ﴿...كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ...۝٥﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٥]. فكلمة «أسفار» في القرآن الكريم تطابق عموماً المفهوم الشائع لكلمة «كتاب». و كلمة «ٱلْكِتَٰبِ»، بالمفهوم القرآني، تعني **النص** المسجل بالكتابة.

أما عن «كتاب» أهل الكتاب، أو أصلاً ﴿...كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ...۝١٢﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٢]، فليس المقصود به الكراس أو المجلد الذي يجمع تلك النصوص، و إنما كلامه سبحانه مدوناً، أي ببعده الذي يتجلى من خلال الحرف و ما يفتحه من آفاق.

فقد كانت نقطة انطلاق «كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ» ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ...۝١٤٥﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٥]. و لم ينتقل كلامه سبحانه في «كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ» عبر الأجيال ببعده المنطوق المسموع ﴿...وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ...۝١٤٥﴾ ، بل ببعده الحرفي، إلى أن حُرِّف إلى حد بعيد.

في حين أن نقطة انطلاق القرآن كانت ﴿ٱقْرَأْ ...۝١﴾ [العلق: ٩٦/ ١]. و انتقل عبر الأجيال، محفوظاً، ببعدَيه: المنطوق المسموع، و الحَرفي البَصَري.

بعد إذ ميَّزنا بوضوح بين مادية المصحف و بين لا مادية القرآن و الكتاب، على أنهما بعدان متكاملان لكلام الله، صار بالإمكان التعرض إلى أهم سمة لذاك الإسقاط البشري على القرآن الكريم، و الذي يَعتبِر العودات الكثيرة لمواضيع معينة تكراراً.

أهم سمة لذاك الإسقاط هي عدم وعي حقيقة أساسية تتعلق بالقرآن الكريم. و ذلك، بسبب كيفية التعامل مع الكلمة و النظر إليها كمجرد أداة بشرية شائعة لتبادل المعلومات، أداة ليست سوى مصطلحات تختلف اختلافاً كبيراً باختلاف الأقوام و العصور.

هذا ليس شأن الكلمة القرآنية. فالقرآن الكريم ليس صياغة لرسالة إلهية في إحدى اللغات البشرية.



بل، هو كلام الخالق جَلَّجَلَالُهُ بحَرفيَّته، في لغة شاءها قبل الخلق. وصل إلينا **كاملاً** كما سمعه الصحابة الكرام من خاتم النبيين عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، و كما سمعه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من سيدنا جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، الذي سمعه من رب العالمين.

اعتباراً من الحقيقة السابقة، يمكن التقدم في وعي الفارق الجذري بين القرآن الكريم و سائر ما هو متوفرٌ من كتبٍ.

فكلمات القرآن الكريم ليست مثل كلمات الخلق، ممن يولد و يموت ضمن نطاق مكاني و زمني محدود. كلمات الكثير منها غث و القليل ثمين، و مهما بقيت في ذاك النطاق، فإنها بالنهاية **تضمحل و تتلاشى و تذهب أدراج الرياح**، و لا يبقى منها إلا ما يحاسب المرء عليه يوم الحساب.

أما كلمات القرآن الكريم، فإنها كلمات الأول و الآخر. فهي **كلمات**، لصدورها عن المنزه عن الزمان و المكان سبحانه و اتصالها به، **باقية بقاؤه لا يطرأ على قوتها و فاعليتها و حقّانيتها تغَيُّر و لا تبدُّل** ﴿...لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ...﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٦٤].

الفارق الجذري بين كلمات الله و كلمات أي مخلوق، هو أن كلمات الله ليست مجرد إخبار و حسب، بل هي أصلاً و علاوةً على ذلك إيجاد.

إذ إن سبحانه ﴿...قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ...﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٣]!

«الحق»، بالطبع، بمعنى الصحة و الصواب. و لكن و خاصةً، معنى «الحق» عندما يتعلق بالله، و بلغة القرآن: التحقيق و الإيجاد.

فأي قول يقوله سبحانه ليس مجرد قول، بل أمر يتحقق.

لذلك، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢].

الآية الكريمة، تقطع الطريق على سذاجة و جهل و إسقاط التفكير البشري الذي لا يرى من ضرورة دائمة للكلمة الإلهية في علاقة الإرادة و الإيجاد.

تأمُّلُ الآية الكريمة يظهر الفارق الجذري و النوعي بين الكلمة الإلهية و كلمة أي مخلوق. أولاً، و بكل بساطة، بسبب الفارق الجذري و النوعي بينه سبحانه و بين أيٍّ من خلقه. هذا الفارق يكمن في انتماء أي مخلوق إلى عالم الخليقة، فأي فعل يصدر عنه إنما يكون في عالمٍ ينتمي إليه. أما سبحانه، فإنه قدوس **منزه عن عالم الخليقة** و مهيمن عليه. فلا بد، بناءً على ذلك، بينه سبحانه و إرادته و بين الخليقة، لكلمته، كما لا بد للعرش...

لا يمكن النظر إلى كيفية طرح المواضيع في القرآن الكريم، كما لو أنه مجرد مرجع يجمع معلومات استثنائية في عمقها و في آفاق استقرائها. إذ إنه، علاوة على ذلك، مُعَدٌّ ليكون مما لا بد منه لإقامة أعلى و أرقى شكل للتواصل الروحي مع رب العالمين، و ذلك في الصلاة خاصةً.

إعداد القرآن ليكون ذِكراً يفسر الكثير من خصائص بنيته و طروحاته و ورود كلماته.

فكلمات القرآن الكريم، هي ـ يقيناً ـ كلماته سبحانه الذي ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢]، بنفس اللغة، بحرفيتها، و بنفس الحقيقة، و قوة الإيجاد.

كذلك، فإن نفسَ أيِّ قارئٍ للقرآن الكريم لم تكن شيئاً قبل إيجادها **بكلمة** ﴿... كُن ...﴾.

كذلك حال العالَم الذي تتواجد تلك النفس فيه، إن كان في الدنيا أو في الآخرة، إذ لم يكن شيئاً قبل إيجاده **بكلمة** ﴿...كُن ...﴾.

بذلك، فإن كلمات الذي سبحانه يقول: ﴿... كُن فَيَكُونُ ﴾، في القرآن الكريم، عاملٌ مشترك و **صلة جوهرية و صميمية** بين حقيقة وجود قارئ القرآن و حقيقة وجود العالم الذي يتواجد فيه، و بين خالقه الذي أوجده، هو و هذا العالم، **بكلماته**.

فأي انسجام جوهري و صميمي، و بالحد الأقصى و الأسمى!

بذلك، فإن الدخول في رحاب القرآن الكريم و وعي تلك الحقيقة، خروجٌ من ضيق و محدودية ما يعيه قارئه من مكان و زمان، إلى وعيٍ عالٍ لعالَم الحقيقة و الإيجاد، و تسامٍ فيه في تواصلٍ مع رب العالمين، الذي سبقت إرادته و كلماته كل موجود.

فها هي كلمات الحقيقة و الإيجاد، و بما فيها من توازنات و أعداد ضمن رؤية كلية لا تغيب فيها علاقة العناصر فيما بينها و بين الخلفيات، و بما فيها من انسجام صميمي و جوهري مع قارئها، و خاصة في الصلاة، ها هي أمامه، فضلاً و رحمة، تفتح له المجال لتجول نفسه في حقيقتها و آلائها، لتعي أصل كل شيء و كل أمر، و مآله، فتحسن الظن و الموقف و التوجه و العمل، قبل أن ترى بأم عينيها ما كانت تقرأ، حق، أي إنه قد تحقق و **يتحقق**!

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَٱتَّقُوهُ ۚ
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ
وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ
قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ
وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٣].

ما يبدو مفروغاً منه

لا وجود في القرآن الكريم لِما يمكن اعتباره مفروغاً منه، بحيث يمكن حذفه من غير أن يختلَّ المعنى.

أعجب ما في قوله سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ... ﴿١٤٦﴾ ﴾ من سورة الأعراف، هو عبارة « فِي ٱلْأَرْضِ »:

إذ إنها لا تستوقف انتباه الذي يُخْطِئُ كثيراً عندما يقرؤها و كأنها مفروغ منها في سياق الكلام.

قراءة عبارة « فِي ٱلْأَرْضِ » و كأنها مفروغ منها، يعني أنَّ تجاهُلَها (!) و حذفها لا يُخِلُّ بالمعنى، بحيث أن:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... ﴾،

و (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون بغير الحق ...)

سيان.

هذا محال.

إذ، من المحال أن يكون ثمة زيادة أو نقصان في كلام الخالق الذي يقول: ﴿ ...كُن فَيَكُونُ ﴾ .

الذي نزَّل القرآن سبحانه، هو الذي خلق عقول الذين يقرؤونه. فهو أدرى بها و بطاقاتها.

لذا، فإنه سبحانه لم يجعل أقل ما يُفْهَم من كلامه دون مستوى تلك الطاقات عندما تُوَظَّف بشكل صحيح.

بل، جعل أقصى ما يفهمُهُ منه من شاء من خيرة خلقه، هيهات أن تبلغه طاقاته القصوى!

إذاً، لا وجود في كلامه لِما هو مفروغ منه، مما يمكن حذفه من غير أن يختلَّ المعنى.

بل ينبغي في تلك الحالات العديدة في القرآن الكريم، حيث يبدو الكلام لأول وهلة و بالنسبة للذكي النبيه مفروغاً منه، مضاعفة الجهود. و ذلك لتجاوز المعنى المعتاد في كلام البشر، و للوصول إلى ما يشير إليه كلام الله جَلَّجَلَالُهُ، و ما يقتضيه ذلك من شفافيَّة.

عبارة «فِي ٱلۡأَرۡضِ» في الآية الكريمة ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ...﴾، مفارقة صارخة!

إذ، كيف **لذرية** اللذين أكلا من الشجرة فـ ﴿...بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ... ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٢]، أي مخرج الفضلات و ما فيها من عيب و ذل، **أن يتكبروا!؟**

و كيف لذرية اللذين ﴿...بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ...﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٢]، و اللذين وقعا في عار خزي ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ...﴾ [البقرة: ٢/ ٣٦]، و اللذين قالا تضرعاً: ﴿...رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٣]! و اللذين قال لهما سبحانه: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٥]، أن يتكبروا فيها؟!

عبارة «فِي ٱلۡأَرۡضِ» أبعد ما تكون عن أمرٍ مفروغ منه في سياق الآية الكريمة. بل إنها ذات مقاصد عديدة:

- منها التذكرة الإلهية الرهيبة بهول الطرد من الجنة: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٥].

- و هي تضع قارئها أمام مفهومها القرآني العميق و المتميّز، و الذي يتجاوز أشواطاً بعيدةً المفهوم الشائع لها. هذا بغض النظر عن دور وجود تلك الكلمة في شبكة الكلمات و توازناتها و أعدادها، و دورها في الاستقراءات العليا للآية الكريمة.

فالواجب، إذاً، عند ملاحظة أي أمرٍ يبدو مفروغاً منه بالنسبة لذكيٍّ نبيه، مضاعفة الجهود للتدرج في فهم ما المقصد الإلهي منه.

ما يبدو مفروغاً منه بالنسبة للمسلمين

القرآن الكريم، و كما قال عنه مُنَزِّله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٧].

لذا فإنه ليس محصوراً في رسالته بالمسلمين، بل يتوجه إلى أي عاقل في أي مكان و حضارة و عصر، ليجد فيه جواباً عن تساؤلاته الأساسية.

فقد تبدو شواهد كثيرة منه مفروغاً منها بالنسبة للمسلمين، في حين أنها أجوبة ساطعة و دراماتيكية تضع غير المسلمين أمام الحقيقة التي كانت غائبة أو مُغَيَّبَة عنهم.

لعل أقوى مثال على ذلك، قوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ **من** الفاتحة. خاصةً أنه أول ما يحفظه المسلمون في طفولتهم الأولى من القرآن الكريم، و أنهم يتلونه يومياً مراراً في صلواتهم، إلى درجة غياب وعي سوادهم عن عظمة و حقيقة و حتى معنى ما صاروا يتلونه بشكل آليّ.

أما لو أن أسقفاً كان بحالٍ من الانفصال عن أثقال الدنيا و الادعاء، و كانت نفسه حرة من قيود أهواء و غرور و أنانية المرجعية الذاتية، لو أنه كان في تلك الحال من السكينة و الاستغراق، فسوف يشعر بصدمة عظيمة و مهولة و هو يقرأ أو يسمع قوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾!

إذ إن تلك الآية الكريمة تضطره إلى إعادة النظر بإحدى الأساسيات الكبرى لعقيدته، و التي يجهر بها أمام المصلين في كل قداس.

فهو، و كل من تسمح له الكنيسة بإقامة القداس، يتلو فيه جهراً، مذكِّراً حضور المصلين، عقيدة الكنيسة، التي من أساسياتها أن المسيح هو الملك يوم الدين، وهو الذي يحكم بين الناس، يدخلهم في الجنة أو في النار. هذه العقيدة هي موضوع إحدى أكبر و أشهر اللوحات الجدارية في العالم. تلك التي رسمها مِكيل - أنجيلو بأمر من البابا، و ذلك في الفاتيكان في صدر كنسية السيكستين حيث يتم انتخاب البابوات. فالأمر إذاً، من أساسيات العقيدة المسيحية مما يتم التأكيد عليه في كل قداس.

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ حقيقة إلهية تضطر أي مسيحي إعادةَ النظر في عقيدته، من خلال التفكير في المسألة، و خاصةً من خلال مراجعة القرآن الكريم بحسن تدبره.

فما يجد نفسه، و هو يبحث عن توضيحٍ عن المُلك يوم الدين، إلا و هو أمام سورة الانفطار يقرأ قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧
ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨
يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ
وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ .

الآية الأخيرة تُظْهِرُ بجلاء المفهوم القرآني الأساسي و الجوهري لكل الكلمات المبنية على جذر «مَلَكَ»، ألا و هو: الاستطاعة و القدرة على الشيء أو الأمر. المفهوم الشائع صحيح، و لكنه لاحق للذي بيّناه.

بذلك يصير قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗا ... ١٩﴾: «يوم لا تستطيع نفس و لا تقدر أن تفعل أي شيء لنفسٍ أخرى».

ولا حتى المسيح؟

ولا حتى المسيح. كما يُسْتَدَلُّ من الآية الكريمة عن يوم الدين من سورة غافر، و التي يجد المتتبع لكلمات «ملك» نفسه واقفاً في حضرتها:

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ
لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ
لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: ٤٠/١٦].

هذه الآية الكريمة تنفي الملكية، بالمفهوم الأساسي الذي بيناه، عن سائر الخلق، و تحصره بالله ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ. بذلك، و باسمه تعالى ٱلۡوَٰحِدِ خاصةً، فإن الآية الكريمة تقود بالضرورة و بشكل عظيم إلى سورة المائدة بالذات:

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ
وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ
وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣
أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤
مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٦].

الآيات الكريمة السابقة جلية، فهي لا تحتاج في هذا الصدد لأي تعليقٍ. يكفي قراءتها بوعي عالٍ و بانتباهٍ إلى كلماتها الأساسية. فقد قادنا تتبُّع اسمه تعالى «ٱلۡوَٰحِدِ» إلى فكرة الثالوث و نفْيها. و لم يخرج الموضوع عن فكرة المُلك بمعنى القدرة و الاستطاعة ﴿...مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ...(٧٦)﴾، إضافةً إلى إثارة فكرة العبادة ﴿...أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...(٧٦)﴾.

سؤال الآية الأخيرة: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ ...(٧٦)﴾، يعيد إلى الفاتحة:

باسم الأب و الابن و روح القدس؟

أم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟

ما الأولى؟

حصر الألوهية بصفة الأبوة و البنوة؟ أم اسم الله الحق صراحة؟

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ...﴾

﴿...ٱلرَّحۡمَٰنِ...﴾؟

الاسم الشريف معلومٌ لدى اليهود و لدى مسيحيي السريان. و لكنهم، كسواد العرب و المسلمين، لا يعلمون مفهومه الحقيقي.

هذا يقود، بتتبعِ الاسم الشريف، لا إلى أيّة سورة، بل إلى سورة مريم بالذات. و حيث، و بشكل لافتٍ للنظر، لم يرد أي اسم من الأسماء الحسنى إلا اسمه تعالى الرحمن.

و جُعِلَ الأمر ليكون أكثر لفتاً للنظر، بحيث إن سورة مريم، من بين سور القرآن الكريم المئة والأربع عشرة، جمعت لوحدها ١٦ وروداً لاسمه الرحمن من بين ٥١ مرة يرد فيها لوحده، أي عملياً الثلث. فيها نقرأ عن يَوۡمِ ٱلدِّينِ:

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا (٨٦) لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا (٨٧) وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا (٨٨) لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا (٩٣) لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا (٩٤) وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا (٩٥)﴾.

لقد قادنا تتبُّع اسمه تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ إلى فكرة الولد و نفْيِها. و لم يخرج الموضوع عن فكرة المُلك بمعنى القدرة و الاستطاعة ﴿... لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ...﴿٨٧﴾﴾، إضافةً إلى فكرة العبادة ﴿...إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ...﴿٩٣﴾﴾. مما يعيدنا إلى سؤال:

﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ ...﴿٧٦﴾ ﴾

و إلى الفاتحة، و التي تبدو كل آيةٍ منها مفروغاً منها بالنسبة للمسلمين، في حين إنها بالنسبة لغيرهم ...:

باسم ...

لا، بل

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾!

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾...

لا يمكن في منهجية صحيحة لتدبر القرآن الكريم تجاهل أو إهمال ما يبدو مفروغاً منه.

فأيُّ خسارةٍ ذلك التجاهل أو الإهمال، للمسلمين و لغير المسلمين.



ما يبدو لحظيّاً

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣].

بما أنه سبحانه ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ...۝٣﴾، فلا يسبقه في الماضي شيء، و لا حتى الزمن. و هو الأول وحده.

ولا يسبقه في المستقبل شيء، و لا حتى الزمن. و هو الآخر وحده.

فهو سبحانه منزه عن الزمن.

و بما أن ﴿...ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ...۝٣﴾ سبحانه واحد، فإن ما هو مستقبلٌ بالنسبة لنا، هو، إن جازت العبارة و كتقريب للأذهان، بالنسبة له سبحانه ماضٍ.

لذا ﴿... وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾!

خاصةً أنه سبحانه الخالق الذي قدَّر كل شيء ضمن شبكة احتمالات محكمة.

لذا، فإن تنزيل القرآن الكريم ليس تفاعلاً مع انحراف البشر عن الدين الحق، و ليس الكثير مما ورد فيه تفاعلاً مع أحداثِ زمنٍ و دائرةِ خاتم النبيين عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

بل إن كل الأحداث المذكورة فيه لاحقةٌ و مطابقة لسابق علمه سبحانه و ترتيبه. و ما ورد عنها ذو مدلولٍ عميق، و فيه هداية لكل مكان و زمان.

لذا، فإنه لا ينبغي النظر إلى الكثير من الآيات الكريمة على أنها ذكرٌ لوقائع جرت أيام الرسول الأكرم في دائرته و انقضت.

و إلا، فلِمَ جُعِلَت في محكم تنزيل الكتاب الإلهي الأخير للبشرية جمعاء؟

إلا لحكمة بالغة.

هذا هو حال ما قد يبدو لحظياً بالنسبة لقارئٍ للقرآن تصبو نفسه إلى كل ما هو روحي و كوني و أبدي. فلا يتحمس كثيراً لشواهد قرآنية يعتبرها «لحظيةً»، فيُهْمِلها، مثل ما ورد عن أُحُد أو عن حنين أو عن الثلاثة المُخلَّفين أو عن حادثة الإفك أو عن المجادِلة، و خاصةً مثل ما ورد في أول سورة التحريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التحريم: ٦٦/ ١-٣].

كانت للرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَة و كان كرماً منه يبيت عندها. لم يَرُقْ ذلك لزوجه السيدة حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. فلم تتورع أن تعيب ذلك على الرسول الأكرم!

أين ذلك؟ و أين عقل و نفس و وجدان الرسول الأكرم! الذي هو في عالم آخر من مهام عظيمة و صلة استثنائية بالله. فضاق صدره من ذلك الموقف، و أراد التخلص منه نهائياً درءاً لمزيدٍ من التعليقات، فحرَّم على نفسه تلك الأمة؛ و أسرَّ بذلك إلى السيدة حفصة لترضى، و رغبةً منه ألا يكون ذلك الأمر حديث زوجاته؛ فما لبث أن باحت السيدة حفصة بالسر للسيدة عائشة.

فنزلت آيات شاهدنا الكريم من سورة التحريم.

كل ما في هذه الحادثة يبدو لحظياً عابراً.

و قد يتساءل قارئ القرآن عن سبب تخصيص آيات لهذه الحادثة المؤسفة، و قد كان بالإمكان أن تصلنا من خلال السيرة النبوية الشريفة.

فلا بد من حكمة بالغة.

أول ما يبرز من تلك الآيات، ما لقوته و شدته و وضوحه الباهر، و يا للمفارقة، لا يستوقف انتباه معظم من يقرؤه، قوله تعالى: ﴿ ...لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ ...﴿١﴾ ﴾!

تحديد الحلال و الحرام أمر من أمور التشريع.

إعداد تشريع ما يقتضي تحديد الأسس التي يقوم عليها، و دراسة سائر تطبيقاته، و التحسب لسائر منعكساته.

كلما اتسعت دائرة من ينطبق عليهم التشريع، ازدادت المعطيات و الاحتمالات و الانعكاسات التي ينبغي الأخذ بها لإعداد ذلك التشريع بأسسه و تطبيقاته.

بذلك، فإن إعداد أو وضع تشريع متوازنٍ أمرٌ يتطلب قدرات عقلية عالية للإحاطة بالموضوع و بسائر معطياته و احتمالاته، و كذلك بنتائج و منعكسات تطبيق ذلك التشريع على المدى البعيد و ضمن رقعة واسعة.

و لذا، فإن نقض تشريعٍ ما، يقتضي الإحاطة التامة بسائر أسسه و معطياته واحتمالاته، للقيام بتعديل لا يُخِلُّ بتوازنه و شموليته.

أي إن الذي ينقض ينبغي أن يكون، و على أقل تقدير، على مستوى الذي شرَّع إن لم يكن أعلى، في شموليّة نظرته لموضوع التشريع من كافة جوانبه، و على اتساع رقعة الزمان و المكان و الاحتمالات و المنعكسات.

لذا، فإن السؤال الإلهي ﴿...لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ ...(١)﴾ سؤال رهيب!

و كأنه سبحانه يسأل نبيه على أي أساس، و بناءً على أي معطياتٍ و إحاطةٍ، ينقض بالتحريم ما أَحلّ؟ هل علمه تجاوز علم الذي ﴿...أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١٢] سبحانه ليعدِّل ما شرَّع؟! و لمجرد إرضاء زوجاته؟!

لقد تسرَّع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و بالغ و قطع على نفسه، كما تسرَّع و بالغ و قطع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على نفسه عندما قال للخضر: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي...(٧٦)﴾ [الكهف: ١٨/ ٧٦]. و هذا بحد ذاته خطأ، إذ لا ينبغي اتخاذ القرار بناءً على انفعال، و لا تحت ضغط أو تأثير خارجي.

إن كان هذا التصرف من سيد المرسلين تَعَدٍّ على عظمةِ المشيئة و الحكمة الإلهية، فكيف، إذاً، تحريمُ الناس لِما أحل الله؟

ظاهرة التحريم ظاهرة شائعة منذ القدم. فكما حرَّم بنو إسرائيل على أنفسهم أموراً و لا زال اليهود يزيدون عليها، كذلك فقد حرَّمت قريش الجاهلية على نفسها أموراً أخرى، و كذلك حال باقي الأمم إلى زمننا هذا.

تحريم ما أحل الله، أصلاً، تعدِّياً سافراً على دقة توازن النظام الكوني.

فكيف أن ذلك التحريم قائمٌ على علمٍ ناقصٍ، إن لم نقل على جهل، و خاصةً قائم على دوافع نفسية صرفة، أي عملياً على أهواء، أي ماً هو أبعد ما يكون عن الحقيقة. فالناس تسعى لتحريم كل ما لا يوافق رغباتها، و هي تنكِر أو تستنكر ما أحل الله.

من جهة أخرى، فإن الذين وصل بهم ضعفُ الإيمان إلى حافة النفاق، و الذين طغت عليهم نفوسهم، يوهمون أنفسهم و غيرهم بالتدين و التقى و يتكبرون. و ذلك من خلال التشدد في

محرمات اخترعوها، لا يتطلب الالتزام بها كرماً و لا سموا في النفس، بل تزيد القلب قسوة!

المساس بما أحل و حرَّم الله هو، و من حيث المبدأ و على الصعيد الروحي، تجرُّؤ أرعن و تَعدٍّ سافر على عظمة المشيئة و الحكمة الإلهية.

و هو كذلك باب كبير مفتوح على مصراعيه لخلل التوازن و للفوضى.

فما أخطر المساس بما أحل و حرَّم الله، حتى و لو صدر ذلك عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و بحق نفسه.

و بسبب شدة خطورة ذلك الأمر، فقد سُمِّيَت السورة بسورة التحريم.

ثاني ما يبرز من تلك الحادثة هو الموقف الدقيق و الحساس للنبي الأكرم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، و للعبء العظيم الذي كان عليه.

لم يكن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مخلوقاً من نور، بل بشراً من تراب كباقي الأنبياء من آدم إلى عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. يجوعون و يعطشون و يمرضون و يتعبون و يتألمون كأيٍّ من البشر.

فأي عبءٍ و أي تقييد شديد لحريته، أن تكون أيّة كلمةٍ يتفوه بها و أي فعلٍ يقوم به و حتى أيّة حركةٍ، سُنَّةً و تشريعاً للبشرية جمعاء و لآخر الزمان!

لذا، فإن سبحانه الذي سبق علمه كل شيء و أحاط به، لم يترك تلك الحادثة المرتَّبة تمر بطي الكتمان. بل، و على عكس ما أراد النبي الأكرم، عُرِفَت إلى درجة أنها وردت في محكم التنزيل و في أوائل سورة!

فكان جَلَّ جَلَالُهُ الذي قال لخاتم أنبيائه: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ...﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٨]، و الذي أمره أن يقول على الملأ: ﴿ ...وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ...﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٩]، يضع نبيه في مواقف مرتبة في سابق العلم، ما كانت لتخطر ببال النبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فما يجد نفسه إلا أداة بيد رب العالمين، يوجهها سبحانه كيف يشاء لتبليغ و تبيان ما يشاء من دينه. كما كان الحال حال الأنبياء أجمعين، يضعهم سبحانه في مواقف مرتبة، مثال سيدنا موسى الذي قال له: ﴿ ...ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ٤٠]. مواقف و أفعال لتكون بالنهاية في محكم تنزيلِ الكتاب الأخير من العزيز الحكيم إلى العالمين، و ليتدبرها العباد.

تبليغ الرسالة الإلهية من خلال مواقف و أفعال النبي يشير، فيما يُشير، إلى ما في الإسلام دين الله للبشرية جمعاء من واقعية في التعامل مع النفس البشرية.

فقد أمر الرسول الأكرم، أيام صلح الحديبية، صحابَته و قد أحرموا بالذبح و بالتحلل بالحلق. فلم يفعلوا! ثم أكد ثانيةً و ثالثةً، و لم يفعلوا! فبأي حالٍ كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يأمرهم و لا يطيعونه. فدخل على السيدة أم سلمة فأشارت عليه: «اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضاً» [صحيح البخاري: ٢٥٢٩]!

هكذا النفس البشرية، تتأثر بفعل الآخرين أكثر بكثير من تأثرها بقولهم. و خاصةً إن كان الفعل صادراً عن قدوةٍ أو مرجع أو من هو بموقعِ قوة ما.

و من هذا المنظار ينبغي النظر إلى سائر أفعال الرسول الأكرم التي جعله الأول و الآخر سبحانه يقوم بها ليُبَلِّغ رسالتَه للبشرية جمعاء.

و ضمن ذلك الترتيب ينبغي النظر إلى ما ورد في أول سورة التحريم.

فلولا نزول الآيات الكريمة، لصار تحريمه تلك الأمة على نفسه مصدراً تشريعياً. و الأخطر من ذلك، و بالقياس، إمكانية تحريم النبي لما أحل الله؛ و هذا مُحال.

من جهة أخرى فإن تلك الحادثة تظهر سابقة بالنسبة لعصر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كيفية تعامل الرجال مع النساء، حيث كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مجدداً و قدوةً.

الكلام عن تلك السابقة يقتضي النظر إلى الأمر بكامل واقعيته في المكان و الزمان. إذ لا ينبغي إسقاط مفاهيم زماننا المتأثر إلى حدٍّ بعيد بالمفاهيم الغربية و بكل تناقضاتها، على عصور سابقة.

إذ ينسى معاصرونا أن ما يرونه من ثروات الولايات المتحدة و بريطانيا، قد قامت على أكتاف الرقيق. و لا يرى معاصرونا المفارقة الصارخة في القوانين التي تُحَرِّم تعدد الزوجات دفاعاً عن حقوق المرأة، في حين أنها تبيح العشيقات و المومسات بلا حساب، و كأنهنَّ لسن نساءً و لا بشراً.

لقد كان نظام الرق و كذلك تعدد الزوجات هو القاعدة الشائعة بالنسبة للبشرية جمعاء، قروناً قبل خاتم النبيين و قروناً بعده.

أما بالنسبة للرقيق، فقد كان الترتيب الذي أراده سبحانه بمنتهى الواقعية و الحكمة، كما هو الحال في أي إجراءٍ في الإسلام. فقد كان الهدف النهائي تخليص البشرية من نظام الرق. فلو

أمر الله بتحرير الرقيق، لكان ذلك بمثابة الكارثة الإنسانية؛ إذ لوجد أولئك الرقيق أنفسهم دفعة واحدةً في العراء، لا سقف لهم و لا قوت. و ذلك في زمنٍ نسيه معاصرونا، زمنٍ كانت فيه الأقوات محدودةً إلى أقصى حد. تحرير أولئك الرقيق دفعة واحدة حكمٌ عليهم بالتشرد و الموت جوعاً. تحرير أولئك الرقيق دفعةً واحدةً انهيار تام للنظام الاجتماعي و الاقتصادي لأسيادهم. لذا، فكانت أولى الخطوات الواقعية و الحكيمة للإسلام في هذا المجال، حسن معاملتهم مع فتح كل الأبواب لتحريرهم مثل تحرير الأمة التي تلد من سيدها، و من خلال كفارات كثيرة للذنوب. إضافةً إلى تضييق أبواب ورود رقيق جدد. فما لبث أن تلاشى الرق في العالم الإسلامي.

أما بالنسبة لتعدد الزوجات فقد كان هو القاعدة على مستوى البشرية جمعاء، قروناً قبل الإسلام و قروناً بعده. و ذلك لأسباب واقعية، مثل نسبة البالغين من الذكور التي كانت عموماً أقل من نسبة البالغات من الإناث. فالذكور أكثر عرضةً للأمراض في طفولتهم و أقل مقاومةً من الإناث. و هم أكثر عرضةً للمخاطر القاتلة في الصيد و العمل و الغزو و الدفاع عن الأراضي. إضافةً إلى نسبة وفيات عالية في المواليد. الحل المنطقي و الطبيعي كان تعدد الزوجات. من جهة أخرى فإن الوضع الاجتماعي الأمثل لأية امرأة، في تلك العصور، هو أن تكون متزوجة. فلها زوج يحميها هو و أهله و كذلك أولادها، و مركز اجتماعي واضح و ثابت، خلافاً للوضع الحرج للعزباء التي سريعاً ما تعتبر عانساً و للمطلقة و للأرملة.

فلو جاء وفدٌ من أيةِ بقعةٍ من العالم آنذاك إلى المدينة، لَما استنكر على أهلها تعدد زوجاتهم، و لا حتى لفت ذلك نظره.

رغم ذلك، فقد رتب سبحانه الأمر في دينه السابق للزمن؛ فحَدَّ عدد الزوجات و لأول مرة في تاريخ الدين المنزَّل. هذا مع عدم التشجيع على تعدد الزوجات، بل العكس. إضافةً إلى توصياتٍ شديدة للإحسان إلى الزوجات، نجدها عبر صفحات القرآن.

ولا بد من التأكيد أن هذه سابقة، لا نجدها لا في العهد القديم و لا في العهد الجديد من الكتاب المقدس.

ضمن ذلك الترتيب كان دور الرسول الأكرم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في تبيان كيفية حسن معاملة النساء، و خاصةً الزوجات و حتى الإماء.

و هذا يعيدنا إلى الحادثة المذكورة أول سورة التحريم.

فقد كان النبي الأكرم معروفاً بخلقه العظيم الذي أشاد به رب العالمين، و كان معروفاً بحُسن معشره و طيب و كرم نفسه و رقته و ذوقه العالي و حتى بحسنه كرجل. و إضافةً إلى ذلك فقد كان

سيد قومه و خاتم النبيين! فبأي سعادة و بأي شرف كانت تشعر تلك النفس البشرية عندما يأتيها الحبيب المصطفى! ما ذنبها أن تُحرم من ذلك نهائياً لمجرد تعليقٍ في طياته غيرةِ إحدى زوجات النبي؟ حتى لو كنَّ من علية القوم، مثل السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب أو السيدة عائشة بنت أبي بكر.

كلهنَّ، الزوجات و الإماء، أنفسٌ سواسية أمام الله في التزامهنَّ في دينهنَّ، و خاصةً في مسؤولياتهنَّ العظمى في نقل ما شهدنَ و سمعنَ من سنة الرسول الأكرم إلى الصحابة و السلف و البشرية جمعاء.

لو لم يكن في تلك الأَمَة خير لَما جعلها سبحانه ملك يمين نبيه الأكرم، و لا حتى في دائرته. ولو كان طموحها الاستئثار عليه كامرأة على حساب زوجاته، لصرفها سبحانه عنه. وهذا دليل أنها كانت طيبة كريمة و صاحبة مبادرة. لذا فقد دافع الله عنها! و لذا فقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بصفاء بصيرته يرى الخير فيها، فيبيت عندها، لتشهد منه ما تشهد و لتنقله بطيب نفسها إلى قومها خاصةً، و إلى كل من يلتقي بها و لتكون فيما بعد ـ كما جاء في التفاسير ـ مملوكته السيدة ماريه القبطية أم إبراهيم ولده الوحيد الذي له من غير السيدة خديجة بنت خويلد ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ـ.

هل مبيت خاتم النبيين عندها، كمبيت أيٍّ من العوام عند إحدى نسائه؟ أم قدومه عندها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قدوم رجلٍ مقدس بكل معنى الكلمة و إلى أقصى حد من القدسيَّة. قدسيَّة لا يستطيع معاصرونا إدراكها و لا تصورها، فهم لم يروها قط في حياتهم، و لا حتى نذراً يسيراً حقيقياً منها. فذاك الرجل المقدس عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على صلة استثنائية و متواصلة بالله و بملائكته. لذا فقد قال سبحانه في سورة التحريم نفسها: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾. ترى ماذا كان يجري، على الصعيد الروحي، في نفس تلك التي كانت لوحدها في سكينة الليل، في بقاع نادراً ما تكون فيها السماء غائمة، بل مشرقة متلألئة، و أمامها ذاك الرجل المقدس بوقاره و استغراقه المتواصل بصلته بالله، و بحضور الملائكة! يقوم من الليل ما عرف عنه كثرة قيامه، يصلي و يركع و يسجد و يسبح و يهلل و يمجد، و هو الذي يرى الملائكة عياناً، و هو الذي أُسريَ به و الذي عرج في السموات السبع و وصل إلى سدرة المنتهى... فأي شحنةٍ تتلقاها تلك النفس و هي تسمع منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تسبيحاً أو ذكراً لله أو أيَّة نفحةٍ من الحكمة أو الحقيقة! و بأي توهجٍ سوف تنقل تلك النفس ما شهدت من ذلك الرجل المقدس، الذي تستأثر ذكراه على ذاكرتها و كأنه حاضرٌ تراه. و أية شحنة روحية سوف تنقل إلى مستمعيها و هي تحدثهم بما شهدت!

هذا هو معنى تواجد تلك النساء من زوجات و إماء حول خاتم النبيين.

مهمَّتُهنَّ نقْل من السُّنة كل ما هو متعلق بالنساء و بعلاقتهنَّ بالرجال، خاصةً.



ولا يقف الأمر عند ذلك، بل مهمَّتُهنَّ التناوب مع الصحابة الكرام في ملازمة الرسول الأكرم. و ذلك في بيوته، لنقْلِ ما يشهدن منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كي لا يفوت البشرية شيء من السنة المشرَّفة. فأي ثقة وُضِعَت في النساء! و أي مهمةٍ عظيمة وُكِّلْنَ بها!

لذا فلا يَحُقُّ لهنَّ الانصياع لدوافع نفسية عادية، و لذا فقد قال جَلَّجَلَالُهُ لهنَّ: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٥].

و لذا فلا مجال لهنَّ إلا الارتقاء بنفوسهنَّ إلى أقصى حدٍّ، لتكنَّ لائقاتٍ بتلك المهمة. و لذا فقد قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٨]، إذ لا معنى لتواجدهنَّ مع خاتم النبيين إن كانت تلك هي مطالبهنَّ. بل، إنهنَّ موكلاتٍ بمهمةٍ عظيمةٍ، لذا ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٩].

و لذا فقد قال سبحانه: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٢]، و هُنَّ موكلاتٍ بتلك المهمة العظيمة من خلال ما يقُلْنَ مما شهدنَ من السنة المشرفة، فلا بد من إضفاء إليهنَّ هالةً قدسيةً ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٢].

ولا مجال في تعاملهنّ مع الآخرين إلا لوقارٍ شديد و جدية و انضباطٍ عاليين، ﴿ ...إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٢]، و ذلك كله لضمان مصداقيتهنَّ في النقل.

و من منطلق الارتقاء روحياً في القدسية التي أُضْفِيَت عليهنَّ لزيادة ضمان مصداقيتهنَّ في النقل، فإنه سبحانه يأمرُهُنَّ ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٣].

ثم ينتهي ذلك الخطاب الإلهي إلى نساء النبي، بتوكيلهنَّ صراحةً بنقل ما يشهدن من الرسول الأكرم ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٤]. فلا ينبغي لهنَّ نسيان شيء مما شهدنَ، لا بل تَذَكُّره و تذاكره و ذكره، و خاصةً ما شهدنَ من فهم النبي لآيات الله و حسن تطبيقه لها من خلال معرفة حكمة المقصد الإلهي منها.

هذه الثقة التي وُضِعَت في النساء، و هذه المهمة العظيمة التي وُكِّلْنَ بها، سابقة في تاريخ البشرية.

فهي أول مرة تُعْهَد إلى النساء المهمة العظيمة و الخطيرة لنقْلِ الدين من نبي مباشرة إلى الآخرين!

الأحاديث المروية عن نساء النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ تُعَدُّ بالألوف! و جميع الفقهاء لا يخطر ببالهم التقليل من شأن تلك الأحاديث، و لا النظرَ إليها إلا كما ينظرون إلى التي رواها الصحابة!

عملياً و منطقياً، لا يمكن توكيل امرأة واحدة و لا حتى رجل بهذه المهمة العظيمة. بل، و لا بد لضمان عدم ضياع هذا الكم القيِّم من السنة المشرفة و حسن انتقاله، من أكبر عدد من الشهود، بحيث تتكامل الشهادات و تؤكد بعضها و توفر خير فرص الانتشار.

و ما كان بالإمكان أن تكون ملازمة تلك النساء للرسول الأكرم إلا ضمن إطارٍ من شرع الله سارٍ منذ ألوف السنين. فكان لا بد لتلك النساء أن يكنَّ، إما زوجات، و إما مما ملكت يمين خاتم النبيين.

فأي افتراءٍ رخيصٍ اتهامُ خاتم النبيين بالشهوانية!

و ذلك، إما بجهلٍ معيب، و إما بتعتيم آثم على واقعٍ معلومٍ و مثبت و موثق.

فأين تلك الشهوانية و قد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لعبادته و مهامه، يعتزل النساء، لا أياماً، بل شهراً كاملاً! و أين تلك الشهوانية و قد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يصوم ما لم يستطع مجاراته أحد من صحابته. و كان يقوم من الليل ما يقوم حتى تتورم قدماه. و يسجد لله فيطيل بالسجود حتى خشيت عليه السيدة عائشة، ذات مرةٍ، أنه قد مات. هذا بغض النظر عن الوقت الذي كان يمضيه إماماً في الصلوات الخمس و مع الصحابة يعلمهم دينهم، و في مهامه العظيمة.

***

الشواهد القرآنية الكثيرة التي قد تبدو لحظيةً، هي بالواقع آياتٍ بيِّنات شاءها الأول و الآخر الذي سبق علمه كل شيء، و جعلها في محكم تنزيله ليتدبرها أولو الألباب، كما رأينا في سورة التحريم.

فقد رأينا مدى خطورة خطأ التعرض لشرع اللّه و لِما أحلَّ و حرَّم.

خطأ خطير على الصعيد الروحي، إذ يُخرِّب العبد، بما في ذلك الخطأ من سفهٍ و رعونة، صلتَه بربه و إلهه و أصل الروح.

و خطأ كبير على الصعيد الواقعي و العملي، إذ يُخِلُّ بالتوازن و الانسجام، فاتحاً باب فوضى متفاقمة.

و كذلك، فقد أشارت تلك الآيات إلى المهمة العظيمة الموكلة بالنساء، و خاصةً نساء النبي، للمساهمة في نقل الرسالة الإلهية للبشرية و إلى آخر الزمان. و ما يتطلب ذلك من لياقات نفسية و عقلية و روحية عالية.

فلا مجال للمسلمة، كما هو الحال بالنسبة للمسلم، أن تنسى قانون ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩١/ ٧-١٠]، ذلك القانون الذي يخضع له المكلفون أجمعون.

فلا بد للمسلمة، ضمن تطبيق ذلك القانون، من التخلص من سائر النوازع النفسية التي تأخذ جذورها في الطفولة و المراهقة، و التي تتجلى فيما تتجلى في الحاجة إلى لفت النظر و إثارة الإعجاب و الاستئثار بعواطف الآخرين، و ما إلى ذلك من مطالب في حقيقتها أنانية و بعيدة كل البعد عن الرفعة و النبل، و بشكل خاص غير مفيدة و لا بنّاءة.

فلا بد للمسلمة تجاوز ذلك كله، لتطوير لياقات تتجلى في مستوى عالٍ من حسن التصرف و الإحساس بالمسؤولية. و خاصة عندما تكون على علاقة ما بمسلم من أصحاب المهام الكبرى. إذ إن دورها و مسؤوليتها المساهمة الفعالة في نجاح تلك المهام الكبرى.

لقد انقضى عهد الإماء و شيوع تعدد الزوجات. و ذلك كله في سابق علم الأول و الآخر الذي جعل الإسلام دينه سابقاً للزمن و لآخر الزمان. و لم يتغير شيء في مسؤولية المسلمات في المساهمة الفعالة في نجاح مهمة الأمة الإسلامية، الأمة التي تجمع كل من يسير إلى اللّه بحق و صدق.

فأصحاب المسؤوليات و أصحاب المهام محاطون بعدد كبير من النساء، ابتداءً من الأم و الشقيقات و الخالات و العمات و الزوجة و أمها و شقيقاتها و أقاربها، و وصولاً إلى الموظفات

و المستخدمات. كل واحدة تحاول الاستئثار على ذلك الرجل صاحب النفوذ أو السلطة لمصالحها، و منافسة الأخريات و التقليل من شأنهنَّ أو حتى إقصائهنَّ، و ذلك كله في زوبعة من طغيان النفس و الأنانية.

ليست هذه هي المسلمة بحق. و إنما التي اجتهدت في الارتقاء و السمو بنفسها و عقلها روحياً، و التي وعت تمام الوعي أهمية دورها بمسؤوليتها، فصارت عنصراً فعالاً في رقي البشرية.

الشواهد القرآنية التي قد تبدو لحظيةً هي، في الحقيقة، وقائع ذات رمزية عالية و ذات مغزى عميق، تحتاج لوقفةِ تفكرٍ و تدبرٍ سعياً في معرفة المقصد الإلهي من ورودها في محكم التنزيل. حالها حال الشواهد التي ورد فيها ذكر وقائع عن شخصيات أو أمم سابقة. و حالها حال أي شاهدٍ من القرآن الكريم.

القرآن الكريم هو دعوة متواصلة إلى عدم الوقوف عند سطحية الظاهر. بل، إلى الاجتهاد في التفكير و التدبر، للتقدم في معرفة حقيقة المقصد الإلهي. و هذا ما يريده سبحانه من قارئ كتابه الكريم، و كما ذكره صراحةً:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ
لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٣٨/ ٢٩].



أمور مادية في مجال روحي

كل نفس تصبو في سر أعماقها و بفطرتها إلى ما هو روحيّ، و لو لم تعِ ذلك، بفعل طغيان الأحاسيس المادية عليها.

يكفي إثارة تلك الفطرة التي جعلها سبحانه في الأنفس، لتتحرك بحثاً عما يُرويها.

في ذاك البحث عما هو روحي حقيقي و أصيل، يكون المرء مسعوداً، إن وجد نفسه، أخيراً، أمام القرآن الكريم.

فيجد في الفاتحة و في أوائل البقرة، عن الله الرحمن الرحيم جَلَّجَلَالُهُ، و عن الهداية، و عن الآخرة، ما يروي تعطشه إلى ما هو روحي.

ثم تتنوع المواضيع المطروحة على مدى صفحات القرآن الكريم. فيتفهَّم ذاك القارئ الكثير منها على أنها موضع تأمُّل و تفكُّر للتدبُّر و الاعتبار، و لا يشعر عندها بابتعادٍ كبير عما يصبو إليه من روحانية.

ولكنه يتعثَّر على بعضٍ من تلك المواضيع، و يضيق صدره منها لِما يجد فيها من تعرُّضٍ لأمورٍ من صميم الواقع المادي، كقضايا القتال و الدَّيْن و الوصية و الإرث و أحكام الطلاق، و خاصةً ما يتعلق بالزنا. أمورٌ يعتبرها غير منسجمة، بل متنافرة مع المجال الروحي الذي يخوض فيه.

فيُسرع و قلبه منغلقٌ، في المرورِ على تلك المواضيع، هذا إن لم يجاوزها، كلما طالعته في النص القرآني الشريف إلى ما يروقه من مواضيع أخرى، فينفتح قلبه عندها و يعيرها كل الاهتمام.

في اصطفائيَّتِه تلك، سعياً منه للتركيز على الروحانية، فإنه، في الواقع، ينقطع عنها تماماً و لا يفهم منها شيئاً!

إذ لا مجال لقراءة اصطفائية للقرآن الكريم.

فالقرآن الكريم كله، من أوله إلى آخره، كلام الله جَلَّجَلَالُهُ الذي يقول: «كن فيكون» بحرفيَّته، كلام الذي هو أصل الروح.

فهو إذن، من أوله إلى آخره، مجال روحي مطلق متجانس و لا تفاوت فيه.



فلا سبيل لتلك الاصطفائية التي أشرنا إليها. بل، لا بد من وقفة تفكُّر للارتقاء إلى النص القرآني الشريف، لتنفتح أبوابه ثانية أمام ذاك القارئ بعد إذ انغلقت.

أول ما ينبغي القيام به قبل التعرُّض لِما نحن بصدده، هو تحديد مفهوم الروح. و ذلك للتخلّص من شيوع الالتباس الشديد بين أنواع الارتقاء النفسي و الخلقي و بين السمو الروحي، و ليتوضَّح ما هو ـ حقاً ـ روحي.

سبق و تعرّضنا مراراً لمسألة الروح، و خاصة في نص «كيفية التعرف على مفهوم الكلمة القرآنية». فقد نبَّهنا إلى شيوع الخلط بين مفهومي النفس و الروح. و رأينا أن لفظ روح لم يرد في القرآن الكريم في صيغة الجمع قط، و أن الروح لم تنسب فيه لأحد قط إلا لله. و كذلك رأينا أن نفخ الروح ليس نفخ الحياة في الكائن، بل منحه إمكانية و ملكة التواصل مع الأمور الروحية.

و قد رأينا كذلك أن المفهوم القرآني الصحيح و الحقيقي لكلمة «الروح» مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالعلم الحقيقي خاصةً، و كذلك بالقوة بلغة القرآن، أي «الطاقة» بلغة معاصرينا.

ارتباط «الروح» بالعلم قد لا يروق لكثير من معاصرينا الذين تصبو نفوسهم إلى الروحانيات، و خاصة الغربيين منهم. و السبب في ذلك، الاختلاف بين مفهومهم و تصورهم عن العلم و بين المفهوم القرآني عنه. فالعلم بالنسبة لهم نتاج جهد و بحث و فكر بشري. و ذاك العلم في حرصه على الموضوعية علمانيّ، هذا إن لم يكن، و هو الغالب، إلحادي، ينفي كل ما هو روحي.

لو اطلعوا على العلم الحقيقي، بمفهومه القرآني الصحيح، لطار لُبُّهم فيه، و لقالوا: هذه هي الروحانية الحقيقية!

فهو، و لشدة جاذب صفائه و قدسيته و نورانيته، يسمو بالنفوس إلى أعالي نور الحق؛ فتزهد النفوس بسفاسف الأمور لرفعة و سمو و عظمة ما هي فيه.

نادرون هم الذين يصلون إلى تلك المواصل، و لكن الباب مفتوح رحمة و كرماً. يكفي الارتقاء إليه.

ولكن، و قبل الوصول إلى تلك المواصل، لا بد من التعرف، لأي كان يسعى فيما هو روحي، على أصل الروح. إذ كيف يتقدَّم المرء روحياً و هو يدير ظهره لأصل الروح؟ كيف يتقدم روحياً و هو يجهل الأساسيات عن أصل الروح؟

إذ يستحيل التقدم روحياً إلا بمعرفةِ و وعيِ الأساسيات عنه سبحانه من خلال ما عرَّف به نفسَه في كتابه الكريم و خاصة من خلال أسمائه الحسنى.

إذ يستحيل الدخول في المجال الروحي الحقيقي إلا بمعرفة و وعي الحد الأدنى عن اسمه تعالى الرحمن جَلَّجَلَالُهُ.

بعد إذ ذكَّرنا بأساسيات مفهوم «الروحي»، صار بالإمكان العودة إلى ما نحن بصدده.

هذا يقتضي التخلص من الإسقاطات البشرية و التصورات الحالمة عما هو روحي، للنظر إلى الأمور كلها من منظار الحقيقة.

نقطة انطلاق النظر إلى الأمور من منظار الحقيقة تكون بتفريغ مجال الوعي من كل شيء و أمر، و توجيه ذلك الوعي حصراً لله جَلَّجَلَالُهُ.

عندئذ، و اعتباراً من أَحَدِيَّته سبحانه و من وحدانيته، نفهم ضرورة الخلق و تعدده و تنوِّعه من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، و ذلك كله ضمن هيمنته المطلقة على كل كبيرة و صغيرة.

فكلُّ ما يجري و سيجري، سلباً أو إيجاباً، داخلٌ في شبكة احتمالات ضبَطَها الحكيم أيما ضبط، و قدَّرها الذي قدر كل شيء.

لذا، و في مسيرة روحية حقَّة، فإنه لا يمكن تجاهل الواقع بإيجابياته و خاصة بسلبيّاته، إذ إنه تجلٍّ من تجليات أصل الروح.

فالسذاجة، كل السذاجة، النظر إلى سلبيات الواقع كأمور بعيدة عن الإرادة الإلهية أولا علاقة لها بها. إذ و بشيء من التفكير، تصير سلبيات الواقع من منظار السذاجة تلك، و كأنها فرضت نفسها على الإرادة الإلهية.

الواقع، و بكل أبعاده، جانبٌ هامٌّ مما يتعرَّض إليه المرء في حياته الدنيا من فِتَنٍ، أي امتحانات تُظهِر ما جهل من خفايا نفسه و من حقيقتها، و تُظهِرُ أين وصلت في سعيها.

لا مهرب من ذلك، إذ لا يستطيع أحد من الثقلين الادعاء أنه أعلى مقاماً في سعيه الروحي من الأنبياء، و الذين تعرضوا للفتنة في أمورٍ من صميم الواقع المادي. ذلك الواقع الذي، وكما ينبغي أن لا ننسى، لا يخرج من تحت الهيمنة الإلهية و لا مما قدّر سبحانه.

فقد كان سيدنا داوود، الممدوح في القرآن، في استغراق روحي يتعبَّد ربه في المحراب، عندما جاءه خصمان ليحكم بينهما في أمر ماديّ ﴿...وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٤]. كذا الأمر بالنسبة لسيدنا سليمان الممدوح في القرآن أيما مدحٍ ﴿...سُلَيْمَٰنَ

نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٠]، والذي فُتِن ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٤]. و كذلك الأمر بالنسبة لسيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيما ورد في الأناجيل، عندما اختلى متعبداً في الصحراء أربعين يوماً، و ظهر له الشيطان يحاول أن يفتنه ثلاثاً. و كذلك الأمر بالنسبة لسيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، و الذي قال عنه سبحانه: ﴿... وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ٤٠].

هذا عن الأنبياء، و الذين خصهم سبحانه بالعصمة نظراً لخطورة مهمتهم في نقل رسالته، فليس للشيطان عليهم من سبيل.

أما مَن هم دون الأنبياء، فهُم عرضة لكيد الشيطان إلى آخر لحظة من حياتهم الدنيا. فقد قال الشيطان بعد إذ أبى أن يمتثل لأمر الله بالسجود لآدم: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧]، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

[الحجر: ١٥/ ٣٩-٤٢].

حُكي أن المرض اشتد بالإمام أحمد بن حنبل، فظنَّ ابنه أنه يحتضر. فصار يقول له: «يا أبت قل لا إله إلا الله»، فيرد الإمام أحمد: «لا بعد!»، فيجزع ابنه من عدم نطق أبيه بالشهادة، فيصِرُّ عليه، و يعيد الإمام أحمد نفس الجواب. إلى أن خفَّ المرض عنه، فقال له ابنه: «يا أبتِ، ما خطبك إذ كنت أقول لك: قل لا إله إلا الله»، فترد: «لا بعد»؟ فأجابه: «ظهر لي الشيطان و قال لي: فُتَّني يا أحمد». فلم ينطلِ الأمر عليَّ، لعلمي أنه لو بقي لي ثانية من عمري فأنا عرضة للفتنة و السقوط! لذا فقد كنت أقول: لا بعد».

و حُكِيَ أن شيخاً كان يظن بنفسه خيراً رأى في نومه الشيطان يحمل حبالاً متنوعة في أحجامها. فسأله عنها، فقال له: إنها ليستجِرَّ الناس بها. فالغليظة منها لمن يشق استدراجه. فقال له الشيخ: «لا بد أن أغلظها لي!». فرد الشيطان: «لا بل لفلان من البسطاء!». فتابع الشيخ يشير إلى الحبال، الأصغر فالأصغر، و الشيطان ينفي، إلى أن أشار إلى آخر واحد يكاد يكون كالخيط، فنفى الشيطان أن يكون له. فقال الشيخ فرحاً: «علمتَ أنك لن تقدر علي فلم تحَضِّر لي حبلاً». فرد الشيطان: «لا، بل لا حاجة لحبل لأستجِرَّك، فأنت على خُطايَ، تكاد تسبقني بغرورك و ادعائك!».

لا يعترض الشيطان من هم بعيدون عن الطريق إلى الله. فهم لا يشعرون به، و يعتبرونه اختراعاً من اختراعات رجال الدين ليخوفوا به البسطاء. إنما يعترض الشيطانُ من يرتقي روحياً، ابتداءً بأنواع الإغراءات و الملهيات، ثم الغرور و الادعاء. فإن لم ينجح، فأشكال و ألوان المنغصات و العقبات و الضغوط. إلى أن يظهر للمرء في نومه، و أخيراً عياناً.

كلما تقدم المرء روحياً، اشتدت حملته عليه.

كنتُ يافعاً، و كانت عبرةً لي لا تنسى، عندما رُوِيَ لي كيف كان عبد القادر الجيلاني في ذكرٍ و عبادة عندما نزل عليه عمود من نور و صدر عنه صوت قال له بعد إذ مدحه و عظَّم مقامه: «سقطت عنك الصلاة و أحلت لك المحرمات». فرد عبد القادر في الحال: «خسئت! ما سقطت الصلاة عن الأنبياء لتسقط عني ...». فتحوَّل عمود النور إلى دخان مظلم. لم ينطلِ عليه كيد الشيطان.

لا مهرب من ذلك.

فقد اعترض الشيطان، عَنْداً، سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثلاثاً ليمنعه عن الامتثال لأمر الله في ذبح إسماعيل، فرجمه في كل واحدة.

لقد حذَّرنا الله جَلَّ جَلَالُهُ من الشيطان، و بين لنا أنه هو العدو الحقيقي: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ١١٧]، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٦].

الله العليم الحكيم جَلَّ جَلَالُهُ هو الذي خلق الشيطان فيمن خلق، فهو أدرى به و بغيره و بما يكون منه و من غيره. و تكرَّم فضلاً منه إذ جعل في كتابه المنزَّل الأخير معلوماتٍ استثنائية عن الشيطان، لم يعد لها أثر في التوراة و لا في الإنجيل. منها جواب إبليس على السؤال الإلهي عن عدم سجوده لآدم: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦].

بتحليل ذلك الجواب المعبِّر، يتبين لنا أن الشيطان يمثِّل الحالة القصوى لطغيان الأنا على النفس، بحيث تستأثر عليها؛ فتصير فيها المرجعية في محاكمة الأمور بما يوافقها، قاطعةً إياها بذلك عن نور المرجعية الإلهية، فتضلّ ضلالاً بعيداً.

الشيطان نفسٌ من أنفس الثقلين، فما أسهل انتقال عدوى عيوب و سموم نفسه إلى نفوس الثقلين من خلال عيوبها و استعداداتها. هكذا مدخله، و ذلك بتأجيج استئثار النفس على صاحبها، فيحكم على الأمور من خلالها و هو ينقطع بشكل مضطرد عن نور المرجعية الإلهية.

طغيانُ الـ «أَنَا» على الوعي انقطاعٌ عن حقيقةِ و عظمةِ و نور شمول المرجعية الإلهية، من أجل غوصٍ مُهلِكٍ في ضيق و قصور المرجعية الذاتية.

فما أخطر ذلك؛ فهو فتحٌ لباب الأهواء و الأوهام على مصراعيه، و انقطاع تام عن الروح.

القرآن و الإسلام منهج حقيقي و فعَّال للسمو الروحي. إذ، إضافةً إلى المراتب العليا في السمو الروحي و التي لا يفتحها غيره، فإنه يسدُّ سائر الثغرات التي تدخل من خلالها بذور الانحراف، و يقطع الطريق على كل الأوهام و الضلالات.

بذلك فإن منهج القرآن و الإسلام يهيّئ أرضية سليمة و قوية يستطيع الساعي في السمو الروحي الانطلاق منها، لا تميد به و لا تنهار، و الارتقاء إلى ما شاء الله.

من هذا المنظار، ينبغي النظر إلى تلك الأمور المادية التي هي من صميم الواقع، و المعروضة ضمن المجال الروحي للقرآن الكريم.

لعل خير مثال على ذلك، ما يمكن اعتباره حالة قصوى لتباينٍ شديد بين أمر مادي و المجال الروحي الذي عُرِض فيه.

المفارقة و التباين، في هذا المثال، يصلان إلى درجة من الشدة، بحيث يصبح الأمر جلياً أنهما مقصودان، و جلياً أنه ينبغي تقصّي ذلك المقصد في هذا الشاهد القرآني و أمثاله.

لو أن ذاك الذي تصبو نفسه إلى ما هو روحي، فكان مسعوداً إذ صار في رحاب القرآن مستكشفاً، و بدأ يتعثَّر بمواضيعٍ يعتبرها خارج اهتمامه إلى درجةٍ تدفعه إلى قراءة اصطفائية، فإنه سوف يصل به الأمر إلى الرجوع إلى فهرس السور عسى أن يجد ضالته. فما أعظم جاذب عنوان سورة النور بالنسبة له. فيفتح المصحف عليها مستبشراً فتطالعه الآيات التالية: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾. و يجد نفسه يخوض إلى قرابة منتصف السورة في آيات من هذا النمط مرتبطة بالدوافع الجنسية، إلى أن تفاجئه آية النور بعظمتها و بهائها.

السؤال الذي يطرح نفسه هو: لِمَ إثارة تلك المواضيع قبل آية النور؟

هذا يستدعي وقفة تدبُّر.

أول ما نلاحظه هو أن كتلة الآيات، تلك، محاطة بآيتين أوّلهما و آخرهما متشابهتين متناغمتين:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

و نلاحظ أن تلك الكتلة تحوي أربعة مواضيع أساسية متتابعة:

- الزنا ـ الإفك و رمي المحصنات ـ الحثّ على الحشمة ـ مساعدة الإماء و العبيد على الزواج.

لتنظيم الدوافع الجنسية

و نلاحظ كذلك التدرُّج في تلك المواضيع، من التجريم الشديد، إلى الأمر، ثم إلى الدعوة و الندب:

- من هول فحش جريمة الزنا.
- إلى عظيم إثم الإفك و رمي المحصنات، رغبةً في إشاعة الفحشاء.
- إلى تعليمات، العامل المشترك بينها الحثّ على الحشمة.
- و انتهاءً بدعوةٍ إلى مساعدة الإماء و العبيد على الزواج، صوناً لعفّتهم و كرامتهم.

الانتباه إلى المعطيات القرآنية المُعدّة لتدارك قارئه

الذي نزَّل القرآن سبحانه، هو الذي خلق نفوس و عقول الذين يقرؤونه. فهو أعلم بها و بما يعتريها.

و هو كذلك سبحانه الذي جعل في خلقه التعدّد و التنوّع من أعلى عليّين إلى أسفل سافلين، لحكمةِ تنزُّهِه عنهم بالتفرَّد بالأحدية و الوحدانية.

فهو جَلَّجَلَالُهُ أعلم بما خلق و لِمَ خلق.

فهو إذاً، أعلم بالشيطان الذي هو من أحد الثقلين أي المكلفين من الخلق. و الذي هو نموذج للذي استأثرت عليه نفسه، إلى درجة الانقطاع عن المرجعية الإلهية في محاكمة الأمور، لاعتماد المرجعية الذاتية. أي الانقطاع عن نور الحق و الإدبار عنه إلى الشطح و الضلال.

لذلك، فقد تفضّل الذي ابتدأ كتابه باسميه الرحمن الرحيم بتدارك قارئ القرآن كي لا تنقصه المرجعية الإلهية، فيسترسل فيشطح، فيصير مع الشيطان و على نهجه، فيَضُلُّ و يُضِلّ.

كمثال على ذلك، ما قد لا يدرك قيمته المعافى، كالشاب الصحيح الذي لا يُقدِّر ما به من نِعَم حتى يفقدها، قولُه تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [أول سورة إبراهيم: ١٤/ ١]، و التي سبق و تشرفنا بالوقوف عندها عدة مرات.

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾

لعل قوله تعالى ﴿...بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ...﴾ لا يلفت النظر كثيراً.

لنا أن نتصور انعكاس غياب تلك الكلمتين من الآية الكريمة:

يصير خاتم النبيين عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيده الصلاحية المطلقة في إخراج الناس من الظلمات إلى النور. يُخۡرِج من يشاء، و على من يريد الخروج التوجه إليه بالسؤال و التوسل. أي، عملياً، نسب و إضفاء قدرات إلهية على بشر.

لا يمكن استبعاد ذلك الأمر و الاستهانة به، لأنه استعداد قائم و متأصل و متواصل، ذلك الاستعداد لتعظيم الأشخاص و لنسب قوى خارقة لهم. تعظيمٌ يصل إلى حد التأليه.

السبب في ذلك، أولاً، الانصراف عن المرجعية الإلهية، و ما تتطلبه من حد أدنى من تواصلٍ مع الله، إلى سهولة هبوط إلى المرجعية الذاتية.

بغياب المرجعية الإلهية تغيب النظرة إلى الأمور من منظار الحقيقة. و تبدأ سلسلة من المغالطات عند النظر إلى الأمور على ظاهرها.

عندئذٍ ينظر الناس إلى واقعهم من خلال ما فيه من صعوبات، و من خلال إمكانياتهم و من خلال إمكانيات غيرهم.

فمنهم من يتفوق بإمكانياته على غيره، و منهم من يدَّعي إمكانياتٍ تتجاوز بكثير ما عنده، و يوهم بذلك غيره.

و منهم من قد يصدِّق، و يحلم أن تكون له مثل تلك الإمكانيات و أكثر.

ولكن الأيام و السنين تذهب بتلك الأحلام، لتزيد ما في واقعهم من صعوبات و عقبات. فتتحول أحلامهم إلى الأمل في مساعدة و مدد أصحاب «الإمكانيات».

فتصبو نفوسهم إليهم، و تعقِد عليهم الآمال. و تصير تعظِّم في «إمكانياتهم»، إذ لا أمل لهم في غيرها.

و هكذا يبدأ و يستفحل الاعتقاد بقدرات فلان من الأحياء، لينتقل الاعتقاد إلى الولي أو القديس أو الشيخ أو صاحب القبر الفلاني.

و يستمر الأمر ليصل إلى الاعتقاد الرسمي و التكريس، كما هو الحال بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية. حيث لكل قديس أو قديسة مهمة و اختصاص. و حيث إن التوجه إلى قديسٍ في حاجةٍ ما أمر مشروع و سليم، إذ إنه من أسس عقيدتهم.

و يستمر الأمر ليصل أخيراً إلى التأليه، كما هو الحال في أديان و عقائد عدّة، و بالنسبة لمئات الملايين من أتباعها.

الذي نزَّل القرآن سبحانه، هو الذي خلق نفوس و عقول الذين يقرؤونه. فهو أعلم بها و بما يعتريها.

قوله تعالى إلى خاتم النبيين: ﴿...لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ يفتح المجال لتعظيم قدرات البشر إلى درجة الشرك، و ذلك بجعل مصير الناس و خروجهم من الظلمات إلى النور بيد خاتم النبيين. فيصير عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كآخر نبي سبقه، هو «المُخَلِّص» الذي يتوجه إليه الناس بالرجاء و الدعاء و التبجيل و التعظيم.

لذا، فهو سبحانه يتدارك قارئ كتابه الكريم بنورٍ و بينةٍ، ليقطع الطريق منذ البداية على أي انحرافٍ، و ذلك بقوله: ﴿...بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ...﴾.

كمثال آخر لتداركه سبحانه قارئ كتابه الكريم، ما أودعه سبحانه مباشرة بعد معلومة استثنائية في علوها و شفافيّتها و بُعْدِها الشاسع عن التفكير السليم الدارج. و ذلك في قوله تعالى من سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾.

المعلومة الاستثنائية في علوها و شفافيّتها و بُعْدِها الشاسع عن التفكير السليم الدارج، هي قوله تعالى: ﴿... بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ ...﴿٨﴾﴾.

الخوض في تلك المعلومة، من غير علمٍ حق يليق بذاك المقام و من غير نورٍ من الله، يفتح المجال للشطح و الضلال و كثير من الاضطراب.

لذا، فقد تدارك سبحانه قارئ كتابه الكريم رحمةً ليجعله يقول الصواب:

﴿...سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾!

الصمت و الرمز و الإشارة

الإشارة هي أداة في غاية الرقيّ و الشفافية و هي أساسية في منهج و أسلوب القرآن الكريم.

المعرفة التي تُشيرُ إليها إشارة ما، يمكنُ التعبيرُ عنها أحياناً و نوعاً ما و لعله بصريح العبارة. ولكن عندما يصلُ الأمر إلى مستوى تعجزُ فيه كلماتنا العادية و المحدودة عن التعبير عن العلوم العليا لا بدّ من إسكاتها و استبدالها بالصمت والرمز.

قوله تعالى في سورة الكهف مخبراً عن قصة سيدنا موسى و الخضر:

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ [الكهف: ١٨/ ٧٠].

إنه لمن المفيد جداً النظر إلى هذه الآية من خلال المفهوم العام للقرآن ككل.

بعد ما لا يزيد عن صفحتين أو ثلاث من قصة سيدنا موسى و الخضر و في بداية السورة التالية، سورة مريم، سيدنا زكريا أولاً و من ثم سيدتنا مريم كلاًّ منهما طُلِبَ منه أنْ يلزمَ الصمتَ و هو يواجه آية.

لقد سُمِحَ لهما باستخدام الرمز أو الإشارة فقط للتعبير عن نفسيهما.

فالكلمات العادية غير مناسبة للأحداث غير العادية.

قوله تعالى في سورة مريم:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ

قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ

ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ

فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ

أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١ ﴾ [مريم: ١٩/ ١٠-١١].

و في سورة آل عمران نجد الاستخدام الصريح لكلمة رمز:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ

قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤١].

لِمَ؟ و ما الحكمة من ذلك؟

كذلك يُطلَبُ من سيدتنا مريم في سورة مريم:

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٢٦].

و عندما سألها قومها عن وليدها

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ

قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٢٩].

تبدأ قصة سيدتنا مريم في هذه السورة بقوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ﴾ [مريم: ١٩/ ١٦].

أما في سورة الكهف فقد طلب سيدنا الخضر من سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنّ لا يسأل عن شيء حتى يسمح له.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٧٠].

لا بدَّ و أنّ سيدنا الخضر كان قد أُنبئَ عن ردود الفعل القادمة لسيدنا موسى ليجرؤَ و يقول له جازماً بأنّه: لن يستطيعَ معه صبراً.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٧].

على الرغم من ذلك، و بعد هذا التحذير فقد نسيَ سيدنا موسى و لم يصبرْ.

في صحيح مسلم نقرأ قول الرسول صلى اللّه عليه و سلم:

«يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا» [صحيح مسلم: ٤٣٨٥].

و في رواية أخرى من الباب نفسه في صحيح مسلم نقرأ:

«رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ...» [صحيح مسلم: ٤٣٨٦].

منذ زمن النبيّ صلى اللّه عليه و سلم يتساءل المسلمون بناءً على الحديث السابق: ماذا كان يمكن أن يحدث لو صبر سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟.

وهي إشارة منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما في هذه القصة من معرفة وعبرة.

تنتهي قصة سيدنا موسى و الخضر بكلمة صبراً. و التي وردت بشكل مميّز و متكرر:

٥ مرات في كل مرة عند آخر آية.

٢ مرة أتت معدّلة في قوله **تصبر** و قوله **صابراً**.

... ينبغي على قارئ القرآن الكريم أنْ يكونَ قد تأمل و اعتبرَ من قصص:

سيدنا آدم ـ إبليس ، هابيل ـ قابيل وسيدنا يوسف و إخوته كما طُرِحَتْ في القرآن الكريم.

إنّ فهم و إدراك و استيعاب الرموز و الإشارات الأساسية في هذه القصص، خطوة من الخطوات في الطريق نحو المعرفة المطروحة في القرآن الكريم و التي لا غنى عنها لأي إنسان، فالإنسان في تغيّر دائم و في أحوال متبدّلة. سبحان مقلب القلوب.

المعرفة الحقّ التي في القرآن الكريم تساعدنا على تحويل أنفسنا.

يقتضي التحوّل مفهوم القبلية و البعدية، لذا نحن في هذا العالم، عالم الزمان و المكان.

أما في العالم الآخر: فيثبت كل شيء، لذا كم هي مأساوية حالة أولئك المذكورين في أواخر سورة الكهف:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾



مراعاة المستوى العالمي و الكوني للنص القرآني

لقد بات جلياً، بعد جولاتنا السابقة و بعد ما تشرفنا بالوقوف عنده من آياتٍ، أنَّ القرآن الكريم بما يستلزمه من منهجية متطورة و ثقافة شاسعة و فكر رفيع لتدبره، أبعد ما يكون عن كتاب موجهٍ إلى البسطاء و العوام، أو حتى المستوى الأوسط من الناس.

هذا لا يعني أنه ممنوعٌ عنهم، بل، و كما رأينا في نص «مستويات فهم القرآن الكريم»، فإن أبوابه مفتوحةٌ لهم رحمةً بحسب صدقهم.

فقد رأينا في نص «مستويات فهم القرآن الكريم»، أن القرآن الكريم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٧]، فأينَ مؤهلات أيٍّ ممّن يطّلعُ عليه، من المستويات العليا و القصوى التي يحويها في آياته!

فالقرآن بحقيقته و بمستوياته العليا و القصوى يتجاوز إمكانيات العقل البشري، لأن رسالته و حقيقته ليستا محصورتين بالبشرية، كما هو جليٌّ من الآية السابقة و من أول سورة الرحمن. إذ إنه سبحانه عندما يقول: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾، فإن ذلك الكلام على الإطلاق: فهو جَلَّجَلَالُهُ علَّم القرآن، أولاً، ملائكته، و خاصة سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ثم كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أول الثقلين علماً به، و منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سمع الإنس و الجن.

إضافةً إلى استحالة تجاهل المستوى العالمي و الكوني للنص القرآني الشريف عند تدبره، فإنه لا مجال لتجاهل مستواه القيادي. إذ إنه جليٌّ من استقراء سريع لكامل النص الشريف، أن أول المعنيّين برسالته و هدايته هم المتواجدون في رأس الهرَم.

و السبب في ذلك، أن مصير الألوف المؤلَّفة مرتبط بأولئك النفر و بما يصدر عنهم.

فما أكثر المواضع حيث نجد خطاباً إلهياً مباشراً إلى سيد المرسلين، منه ما هو خاصٌّ به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، و غالبه ما هو لمن يخلفه في موقعه الأعلى كرأسٍ لأهل الإيمان و الهداية، ممن برقبتهم مصير الألوف المؤلفة، إن لم تكن البشرية جمعاء.

و كذلك فما أكثر المواضع التي تشير إلى خطورة دور من هم في رأس الهرم ممن برقابهم المصير النهائي لألوف مؤلَّفة، مثل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ

حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦-١٦٧]، و ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

[هود: ١١/ ٩٦-٩٩].

ذروة ذاك الواقع نجده في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٦]. فلا خلاف أن المترفين هم عليّة القوم المنعَّمين الذين بأيديهم الثروة و السلطة. فهُم، بتلك النعم و بذاك الجاه و السلطان، و بالنسبة لأهل الدنيا، رمزٌ للنجاح، و بمنطق أخرق، دليلٌ على الرضا الإلهي عليهم ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٩]، و بمنطق «رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ» ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٥].

بذلك المنطق السطحي، فإن جاذب الاقتداء بأولئك المترفين طمعاً بما حظوا به، جاذبٌ قويٌّ على كل مَن دونهم ممن ليس لهم مرجع، أو التزام بشرعٍ حق.

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾، هذا حال أي بلد أو أي قوم قطعوا أشواطاً بعيدةً في الضلال، و صار لا بد من إيقافهم عند حد.

فأمرُ اللّهِ مترفيّ ذاك البلد، و هو أدرى بهم، بمثابة **الفرصة الأخيرة** الممنوحة إليهم ليعودوا إلى جادة الصواب، و كي لا يستهين مَن هم دونهم بالمعاصي طالما أنها لا تؤثر سلباً في الثراء و السلطان، لا بل، و لربما، على العكس. و هذه هي قناعة المترفين، لذا فهم لا يمتثلون لأمر اللّه، و قد استأثرت أهواؤهم عليهم. و الأكثر من ذلك فإنهم **لا يتورعون** عن الإتيان بالمعصية **علناً**، و هو الفسوق. فيكون ذلك، و هم عليَّة القوم و أصحاب السلطة، بمثابة الرخصة لمن هم دونهم، فيَقتدون بهم، فيستشري الفساد و يعمّ. و قد وصل الأمر إلى هذا الحد ﴿... فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ ...﴾.

فلا بد، إذاً، من تناول سائر شواهد و مواضيع الرسالة الإلهية الأخيرة تناولاً بالمستوى القيادي و العالمي و الكوني، لضرورة الانسجام مع تلك السمة الأساسية في النص القرآني الشريف. و لعدم الوقوف عند الحد الأدنى من جانبٍ مما يفهم منه. و لتنفتح أبوابه للارتقاء تدبراً في نور آفاقه.

و ذلك اعتباراً مما يبدو، لأول وهلةٍ، بعيداً كل البعد عن ذلك المستوى، و لا علاقة له به، **مثل** قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِۖ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا



تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ من البقرة!

هذه الآية الكريمة وردت في جملةٍ من آياتٍ عن أحكام عن النساء و علاقة الرجال بهن.

أول خطأ شائع في التعامل مع تلك الآيات، هو في الواقع إسقاط بشري.

بحيث يُنظر إلى موضوعها كأمورٍ، من الواقع المعاشي الشخصي، التي قد تُشْكل أو تثير اختلافاً في وجهات النظر، و التي لا بد من البت فيها. و أن الجواب الإلهي حسمٌ لها، بفعلِ المرجعية الإلهية العليا.

لا غبار، من حيث الظاهر، على ذلك.

ولكن، و من حيث الحقيقة، فإنه سبحانه هو الخالق الذي خلق ذاك الواقع المعاشي الشخصي بكل تفاصيله.

فكلامه سبحانه ليس حكماً فصلاً فيما هو «موجود» و حسب. بل، بيِّنة فيما، و لحكمةٍ، أوجد و خلق.

أي إن حسن تدبرهِ ليس محصوراً بالجانب الصغير لمجرد تطبيق تلك الأحكام تطبيقاً حرفياً. فلا يجوز لسائر المتشرِّفين بتناول القرآن الاكتفاء بذلك الحد الأدنى من التناول رغم صحته و ضرورته. بل، لا بد لمن فضَّلهم الله على أدنى العامة بعلمٍ و فهمٍ، من تأملِ و تدبُّرِ تلك البينات فيما أوجد و خلق سبحانه لحكمة.

الخطوات الأولى في ذلك الاتجاه تكون بـ:

- التخلص من ذلك الإسقاط البشري الذي ينظر إلى تلك الآيات كمجرد أحكام في مسائل تنتمي إلى إطار شخصي محدد.
- و ثم النظر إلى تلك الآيات ضمن الإطار القرآني العام المحيط بها.
- و كذلك، النظر إليها ضمن الواقع بكل أبعاده، لا المحلية، بل القيادية و العالمية التي أشرنا إليها.

عندئذٍ تأخذ الأمور أبعاداً أخرى و تبدأ معانيها الحقيقية بالظهور.

فسورة البقرة كلها تندرج تحت الموضوع الشاسع للهداية.

ضمن ذلك الموضوع الشاسع للهداية، يُوَجِّه سبحانه قارئ كتابه الكريم إلى موضوع الإيمان أو عدمه. هذا ما يفضي بالضرورة إلى تضادٍّ و مواجهة بين أهل الإيمان و الطرف الآخر، و خاصةً

المفسدين في الأرض.

فيُبَيِّن سبحانه ذلك، بالعمق، هدايةً للمؤمنين و لأولي الأمر خاصةً. ليكونوا على بينة تامة و على أعلى مستوى من الوعي، فيُحسِنوا التصرف، بما في ذلك القتال إن اقتضى الحال، و ذلك لإحقاق الحق و نجدةً لضحايا البغي.

ضمن ذلك الإطار وردت الآيات التي أشرنا إليها. فهي محاطةٌ بموضوع القتال و ما يتعلق به.

مسألة القتال، في الإسلام، مسألة حساسة و دقيقة للغاية.

و هي **محصورة** في رأس الهرم، أي الخليفة الحقيقي. فهو **الوحيد** الذي يصدر عنه قرار القتال. و ذلك بناءً على علم عميقٍ بالأوامر الإلهية، يكاد لا يوجد عند سواه، و بناءً على مددٍ و نورٍ من اللّه.

و ينبغي على أمرائه، كذلك، أن يكونوا على أعلى مستوى من الجاهزية النفسية و العقلية و الروحية، ليكونوا على تفاهمٍ تامٍّ معه. و ليطبقوا القرار، بعد المشورة و النقاش، بالشكل الأمثل.

ولكن هؤلاء الأمراء، هم و الخليفة، رجال و أنفس بشرية...

فلا مجال، لتعريضهم، و هم أمام مسؤولياتٍ عظيمةٍ و مصيريةٍ، لأي شيء يُخِلُّ بجاهزيتهم. فهُم أحوج ما يكونوا إليها بحدها الأقصى، فمصير البشرية مرتبطٌ بهم.

هم رجال، و أنفسٌ بشرية. و هم أحوج ما يكونوا إلى توازنٍ نفسيٍّ، أحد أركانه لا يستطيع أحدٌ القيام به إلا المرأة المسلمة المؤمنة بحق.

إذ إنهم يمضون معظم أوقاتهم في مهامهم مع شبابٍ و رجالٍ، في جو خشنٍ و صارمٍ بضرورةِ ضبطِ الأمور، و لجدية المواقف.

ولكنهم مخلوقون من نفسٍ واحدة، في أعماقهم شيء منها...

نفس واحدة لم تخطُ خطواتها الأولى على الأرض، حيث هي غريبة عابرة. بل نفسٌ خطت خطواتها الأولى في الجنة حيث انتماؤها، و إلى حيث تتوق بالعودة كالطائر إلى عشه.

لا خشونة في الجنة، بل كل ناعمٍ و مرهف.

لذلك، فهم بحاجة، و قد كانوا مع شبابٍ و رجالٍ في ضيق المبيت و ضوضاء التحركات و صياح الميادين و القفار شمساً و ريحاً و قسوة التدريبات و هول المعارك، إلى استعادة توازنهم.

فما أحوجهم، و قد كانوا مع من كانوا في خشونة ضيق المبيت، إلى رقة و سكينة و أنس دارهم.



و ما أحوجهم، و قد كانوا مع من كانوا في صياح القفار شمساً و ريحاً و قسوة التدريبات، إلى هدوء و رقة و نعومة زوج صالحة مؤمنة نبيهة تفهم من الإشارة.

و ما أحوجهم، و قد عاشوا هول المعارك يتوقعون الموت في كل لحظة، إلى ذريةٍ ترثهم. و ما أحوجهم إلى من يرعى تلك الذرية.

لذلك فهم شديدو الحساسية لكل ما يتعلق بالزوج و ما يدور حولها، فهي ركنٌ من أركان توازنهم. وإلا فسوف تصل بهم الأمور إلى حد الانفجار، و فقدان السيطرة على النفس و السقوط في الفحشاء، إما زنىً و اغتصاباً، و إما شذوذاً.

أو، و لاختلال ذلك التوازن، فسوف تغلب عليهم القسوة، لتصل بالضرورة و بسرعة إلى الشراسة و العدوانية.

فما أشد خطر ذلك كله على نبل مهام الذين على عاتقهم محاربة الضلال و الجور و الطغيان.

هؤلاء الذين برقابهم مصير البشرية، و قد قطعوا أشواطاً في الإيمان ارتقاءً بتواصلهم مع الله، لانت قلوبهم، و ازدادت نفوسهم حساسيةً لنُبلها و سموِّها في استغراقها في آلاء القرآن. فما أشد حساسيتهم لكل ما يمس أهلهم. و ما أشد اضطرابهم لأي خلل فيه، و ذلك لشدة فرق الكمون بين نبل و سمو ما هم فيه، و بين سفاسف ما تصل إليه الأمور إن تُرِكت من غير ضبط.

لذا فقد تكرَّم الله بآياتٍ لضبط كل تلك الأمور، كي لا يكون للشيطان و للأعداء مدخل على الرجال فيما هو حساسٌ و حميمي بالنسبة لهم من أهل و ذرية. فتنشغل قلوبهم و عقولهم عن مهامهم، و تزهق من غمٍّ و نكدٍ.

بل جعل سبحانه الأمور واضحةً، كي لا ينقطع عنهم مدد التوفيق بإساءتهم التصرف مع نصف المجتمع. و كي يكون لهم في المرجعية الإلهية، التي تعرضت لكل الاحتمالات، طمأنينةٌ تصرفهم عن هواجس تلك الأمور.

كل الاحتمالات، بما فيها ما يضمن حقوق و مستقبل أهلهم و ذريتهم، وصولاً إلى الآية الكريمة التي فتحنا بها هذا الكلام، و ما فيها من بيِّنة لحفظهم من أذى بالغ. إذ إن الأذى، و بلغة القرآن، يكون بشكلٍ خاص على المستوى المعنوي و النفسي و في البعد الخفيّ. فلا مجال، و بسبب ذلك الأذى، لهبوطٍ شديدٍ و مزمن في مؤهلاتِ مَن هُم في مهامِّهم أحوج ما يكونون للتألق و للمدد الروحي.

هذه الآيات الكريمة هي كذلك مرجع إلهي فصل لنصف المجتمع، ليتدبَّرْنَها تفهماً و امتثالاً، فلا يدَعْن للشيطان و لأعداء الإسلام مدخلاً عليهنَّ و لا على المسلمين، بل يُحْسِنَّ التصرف بحكمةٍ و ذكاء لمساندة النصف الآخر، إذ إن لهنَّ دوراً أساسياً في ذلك المجتمع الرائد، الذي يبدأ عندهن.

هذا هو كذلك حال الآيات الكريمة التي تكمِّل الموضوع ذاته في سورة النساء، و التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ٤/ ١].

﴿...ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ...﴾، هذا التحذير من غضب الله حال الظلم و سوء التصرف، و خاصة مع الأهل، تَرافَقَ بتذكرةٍ للناس و بينةٍ تعيد وعيَهم من ضلالِ مرجعيةِ ما ذهبت به نفوسهم تعنتاً، إلى مرجعية الحقيقة لينظروا من خلالها إلى أمورهم: ﴿...خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ...﴾.

﴿...خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ...﴾ مرجعٌ مطلق للرجال و النساء، يكون أساساً، بعد تأمله و التعمق فيه، لكيفية اعتبار كلٍّ منهما الآخر. و بناءً على ذلك، كيفية تعامل كلٍّ منهما مع الآخر بما يرضي الله، لتوافقه مع الحقيقة.

فما أقربهما الواحد من الآخر، و ما أعظم الحقيقة التي يذكِّر بها سبحانه، لتكون أساساً.

إذ إن تلك النفس الواحدة، هي التي جعلها سبحانه في الأرض خليفة، و علمها علماً فاقَ علمَ ملائكتهِ، و جعلهم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يسجدون لها.

فينصرف كلا الطرفين، بوعيهم لعظمة ذلك الأساس، عن ضيق مرجعية و تعنت النفوس، و ليركِّز كلاهما على نبل مهامهما، إذ ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾!

بعد تلك الافتتاحية العظيمة، و ما فيها من أساسٍ حقيقي كمرجعٍ مطلقٍ و دائمٍ للنفوس في حسن تعاملها مع بعضها، تستمر سورة النساء بجملةِ أحكام عنهن و عن اليتامى و عن الإرث. أي كل ما يتعلق بالدائرة الحساسة التي يقوم عليها المجتمع، و التي ينبغي أن تكون منظَّمة و سليمة و واضحة ليقوم المسلمون بمهامهم النبيلة، و خاصة أولي الأمر منهم.

ثم يتحول الموضوع ليعود كما في سورة البقرة إلى تحذيرٍ من ﴿...ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥﴾. ثم ليعود إلى موضوع القتال، كإطار عام لما نحن بصدده، كما هو الحال تماماً في سورة البقرة، مما يؤيد الرؤية التي من خلالها تَقدَّمْنا في الموضوع.

لا مجال لأية هفوة في الأمور العظيمة و المصيرية.

هذا ما هو متداول في الأوساط العليا البريطانية الحاكمة، عندما تُذكِّر النخبةُ الجيلَ الذي يليها بالهزيمة التي لحقت بالملك و جيشه، و ذلك بسبب حدوة حصانه التي لم تكن محكمة. فزل الحصان و وقع، فظن الجنود أن الملك قد أصيب، فاضطربوا و أصابهم الهلع و خسروا المعركة.

كيف إذاً، بالنسبة للمسلمين بمسؤولياتهم العظيمة؟!

عندما وقف أئمة مشايخ المسلمين عند الجانب الصغير لمجرد تطبيق أحكام الآيات، التي كنا بصددها، تطبيقاً حرفياً ضيقاً ضيقَ البعد الشخصي و المحلي، متجاهلين بُعدها القيادي و العالمي، فتحوا الباب على مصراعيه لأعداء الإسلام و الحق ليغيروا مجرى التاريخ لصالحهم!

فما حاجة خليفة المسلمين، على كثرة مشاغله و مهامه، و قد وصل فاتحاً إلى فيينا عاصمة الإمبراطورية المقدسة، ما حاجته إلى الجوارِ و قد أكرمه الله بزوج صالحة و بذرية مفتخرة؟

أولئك الأئمة، الذين على عاتقهم تنشئة الخليفة ليكون على أعلى درجة من العلم و العمق في الفهم، عندما تَجاهلوا البعد القيادي و العالمي و الكوني للقرآن الكريم، قَصُرَ بصرهم، بل عمت بصيرتهم عن دخول عدوهم عقر دار الخلافة، عندما لم يكن من بين عباقرة أطباء العالم الإسلامي طبيب لسليمان القانوني غير اليهودي موسى بن هامون! و، بشكل عجائبي، ليهوى الخليفة على حساب زوجه الفاضلة و من بين كل جواريه، اليهودية صاحبة المهام «روكسلان»! و التي نجحت في تنحية تلك الزوج الفاضلة، و نجحت أن تلد بذكر فتصير أم ولد، و نجحت في التشكيك بالصدر الأعظم و القائد المظفر إبراهيم باشا فيُقتَل بتهمة الخيانة العظمى، و نجحت في التشكيك في بكر السلطان الرجل القائد المحبوب فيُقتَل بتهمة الخيانة العظمى، و نجحت أن تكون أول سلطانة في تاريخ الدولة العثمانية، و نجحت بجعل صهرها صدراً أعظماً، و نجحت بجعل ابنها السكّير المستهتر خليفةً للمسلمين، و بدايةَ نهايةِ الخلافة!

لقد قال سبحانه جل و علا في محكم تنزيله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ١٤].

تُرى، هل المقصد من تلك الآية الكريمة تذكيرٌ بنعم الله و أفضاله التي منها وجبة سمك شهية، و لؤلؤ و مرجان لدلال النساء، و متعة نزهة على الشاطئ لرؤية السفن؟

سنرى ...إن شاء الله.

الخروج من مجالس الورق للسعي في واقعية وحقيقة عوالم القرآن

و قد أدرك قارئ القرآن الكريم أنه ببشريَّة نفسه و عقله لا يمكنه التعامل مع النص الشريف، بعد التأكد من حقيقة ألوهيته، كما اعتاد التعامل مع نصوص صادرة عن نفوس و عقول بشرية، فإنه، و بطبيعة الحال، سوف يلجأ إلى من أو ما يعينه على هذه المهمة، إن كان شيخاً أو تفسيراً.

أي إنه، عملياً، سوف يجد نفسه بالضرورة أمام التفاسير المتوفرة.

و سوف يجد أنها تشترك في عشرات ألوف صفحاتها بمعلومات قيِّمة عن مسائل فقهية، إضافة إلى استرسال في مسائل لغوية و نحوية، و إلى فيض من الآراء المختلفة و المتضاربة.

إن كانت فطرة قارئ القرآن سليمة، و عاد إلى القرآن بحد ذاته، فسوف يشعر بمفارقة كبيرة:

سوف يشعر بوضوح أن عالم التفاسير الذي كان يخوض فيه، أشبه ما يكون بقاعاتٍ و ممرات مكتبة تخصصية. كمكتبة و أرشيف القصر العدلي، حيث تصطف مجلدات القوانين و شروحها و تعديلاتها و ألوف الملفات و القضايا و الأحكام و اجتهادات محكمة التمييز.

عالم ورقي مغلق، ما أبعده عن انفتاح القرآن الكريم.

العالم الذي يجول فيه قارئ التفاسير، ليس العالم الذي يفتحه القرآن، بل عالم المفسِّرين.

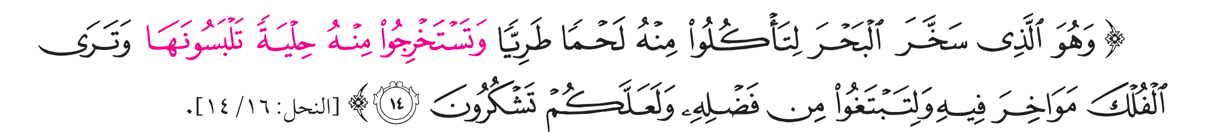
أيُّ مُدخلٍ في القرآن الكريم، ما هو إلا انفتاح على واقعية و حقيقة العوالم الشاسعة التي **يعرضها الذي هو خلقها و خلق الأكوان كلها** سبحانه!

فلا بد إذاً، و لحسن تدبر القرآن الكريم، من الخروج من مجالس الورق، للسعي في واقعية و حقيقة عوالم القرآن.

و إلا، فسوف تغيب عن قارئ القرآن تلك العوالم و ما تفتحه معانيها، و لن يرى أبعد من مسافة الورق عن عينيه! فيبقى حيث هو، لا يصله شيء من نور القرآن. فيفوته فضلٌ من الله عظيم، كما فوَّتَ المسلمون على أنفسهم أفضالاً عظيمةً من الله باكتفائهم بما تداولوه عن آيات القرآن في مجالس الورق.

و ما أكثر الأمثلة المؤسفة، بل المأساوية، على ذلك.





﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ١٤].

لا تستوقف هذه الآية سواد قُرّاء القرآن كثيراً، بل يعتبرونها واضحة بسيطة لا إشكال فيها يستدعي مراجعة التفاسير.

إن راجعنا أفضل التفاسير لنتعمق فيها، فسوف نجد تناولاً للآية على ظاهرها.

و لمجرد وجودها مع باقي الآيات، لا للوقوف أمامها للتدبُّر و الاعتبار.

و لن تقدم لنا تلك التفاسير في تناولها لقوله تعالى: «لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ...» رؤية تتجاوز آفاق سمكة في صحن، أو بسطة بائع سمك.

هذه الرؤية، ما هي إلا الرؤية الفردية المحدودة لإنسان أقل من عادي.

ولكن، في الواقع، و بكل أبعاده الداخلة تحت الإرادة و الهيمنة الإلهية، فكيف ستكون المسألة؟

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ...﴿١٤﴾ ﴾

أول ما يستوقف انتباه قارئ حيادي للقرآن الكريم مفارقةٌ صارخة: بين تصور شائع عن القرآن ككتاب دين قوم بادية و صحراء، و بين أول استقراء سريع لمحتواه.

إذ ما أندر ذكر الصحراء في القرآن. و بالمقابل ما أكثر ذكر أمور بعيدة عن الصحراء كالعمران مثلاً، و خاصةً البحر. لدرجة أنه لو عرض على شخص لا يعلم عنه شيئاً، ككتابٍ معتمد في دينٍ من الأديان، و قرأه، لتساءل: «هل أصحاب هذا الكتاب بحَّارة؟».

الآية الكريمة التي نتشرف بالوقوف في حضرتها، وردت في جملة آياتٍ ليست موجهة إلى المسلمين أو المؤمنين حصراً، و إنما هي دعوة صريحة من الخالق جَلَّجَلَالُهُ إلى البشرية جمعاء للتفكُّر فيها.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ...﴿١٤﴾ ﴾، كلامُ الخالق رب العالمين جَلَّجَلَالُهُ.

فهذا الكلام، و بالضرورة، أبعد ما يكون في مقصده و رسالته عن الأمور البسيطة و **المفروغ منها**.

إذاً، فالحدّ الأدنى من حسن تناوله يقتضي النظر إليه من خلال الواقع بكل أبعاده، خاصة أنه موجّه إلى البشرية جمعاء.

هذا يستدعي، إذاً، التفكُّر بأهمية حجم الموارد الغذائية البحرية في العالم. و التفكُّر بالدول التي تشَكِّل عائدات الصيد جانباً هاماً من دخلها و مواردها الغذائية. و كذلك، بالمعارك التي تجري حول تقسيم حصص الصيد البحري quota، و بالمعارك على تحديد المياه الإقليمية.

و هذا يستدعي أيضاً التفكّر بدور عائدات الصيد في تغيير مجرى التاريخ.

إذ إنها كانت، و على سبيل المثال، من العوامل الحاسمة في نهضة و ثراء مناطق مثل بلجيكا و هولندا التي تسمى (Flandres) أواخر العصور الوسطى إلى ما بعد عصر النهضة. و ذلك لتوفر سمك الرِّنجة herring بكثرة في بحر الشمال المتاخم لتلك البلاد. فقد كان يكفي أن تُلقى الشباك في البحر، لتتقطَّع من كثرة السمك.

سبب ازدهار اقتصاد الصيد آنذاك، يكمن في تعاليم الكنيسة التي تحرِّم أكل لحم المواشي أو الصيد البري أو الطيور يوم الجمعة، و كذلك فترة صيام الأربعين يوماً قبل عيد الفصح، و كذلك أياماً أخرى على مدار السنة. أي قرابة ثلث السنة يحرّم فيها أكل أي غذاء من منشأ حيواني عدا السمك. الالتزام بتلك التعاليم آنذاك وراء زيادة الطلب على الأسماك و رواج تجارتها بشكل كبير. لقد كان سكان Flandres يقومون بتجفيف أطنان الأسماك وحفظها بالملح لتصديرها إلى إيطاليا و فرنسا و ألمانيا. تجارتهم تلك، أدّت إلى ثراء بلادهم، و الأهم من ذلك إلى نهضتها و تطورها الكبير لاتصالها بمراكز حضارية مثل إيطاليا.

لولا اقتصاد الصيد في Flandres، لأخذ تاريخ أوربة مجرى ثانياً مختلفاً تماماً. و لبقيت تلك البلاد على تخلفها و عزلتها و تواضع مواردها الزراعية. و لكن ذلك الثراء القائم على أكتاف البحّارة و التجار استقطب، كما جرى في البندقية، من يهرعون دوماً إلى حيث الثراء، آتين بما معهم من جدل، ليستسري و ليكون له دور كبير في جذور الحركة البروتستانتية.

هل ما تطرقنا إليه في الأسطر السابقة، يجري في كون آخر لا علاقة لمنزِّل القرآن به؟

هل علم و إرادة منزل القرآن سبحانه بمنأى عمّا ذكَّرنا به في الأسطر السابقة، لأن ذلك غير مطروق في مجالس الورق؟

أم أن ما ذكَّرنا به مما هو من صميم الواقع، مقدَّرٌ في سابق علمه و تحت هيمنته؟

فلمَ لا نأخذ بعين الاعتبار، عند تناول القرآن، ذلك الواقع الذي أوجده منزلُ القرآن سبحانه، و الذي أوجد المُشاهد الذي يشهده و عقله؟

بذلك، فإنه ثمة علاقة وثيقة بين الواقع بحقيقته، و بين المُشاهد و عقله بطاقاته القصوى.

خاصةً أنه سبحانه كلَّف حاملي رسالته الأخيرة إلى البشرية بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

بناءً على ذلك، فإن معرفة الواقع العالمي معرفةً عميقةً واجبٌ.

لعل أكثر ما يستوقف الانتباه في الآية الكريمة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، تحوُّل الخطاب الإلهي من صيغة المخاطب بالجمع ﴿ ...لِتَأۡكُلُواْ ...وَتَسۡتَخۡرِجُواْ ...وَلِتَبۡتَغُواْ ...وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾، إلى المفرد في قوله: ﴿ ...وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ... ﴾. أي أن الخطاب تحوَّل من الناس إلى الرسول الأكرم و من يخلفه من رؤوس الأمة.

فالجملة الإلهية، إذاً، دعوة للتأمل و للتفكر، لا على مستوى متنزِّه على شاطئ البحر، بل على مستوى أولي الأمر.

«مَوَاخِرَ» بالجمع، تُشير مباشرةً إلى أساطيل.

أي عملياً، أساطيل تجارية أو عسكرية.

أي، ما هو أساسي في الهيمنة الاقتصادية و العسكرية و السياسية.

فقد كانت تلك الأساطيل أساس ثراء و قوة نفوذ البندقية لقرون. و كانت أساساً لثراء و ازدهار تجارة الهولنديين. و كانت أساساً لقوة و هيمنة الإسبان و البرتغال لقرون. و أخيراً لهيمنة الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس. و مما لا يزال ساري المفعول في أيامنا.

ما أشرنا إليه في هذه الأسطر، ليس معترضات عابرة في تاريخ البشرية، بل أمور كان و لا يزال لها دور أساسي في واقعنا.

هذه الأساطيل تستوجب تطوير التقنيات اللازمة لتفوُّقها.

هذا مما دعا بطرس الأكبر قيصر روسيا، و قد أدرك أن **لا دولة عظمى إلا بأساطيل عظمى**، إلى التنكر و العمل كنجّار هو و جملة من أمراء الروس في حقول بناء السفن الهولندية، و ذلك لمعرفة سر تفوقها.

﴿...وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ...﴾

التفكر في تلك الأساطيل يستوجب التفكر في أهمية ما كانت تحتاجه من معرفة عميقةٍ بالتيارات الهوائية و المائية البحرية، و التي هي من آيات الله في كوكبنا.

تلك الأساطيل كان لها دور حاسم في تطوير كل ما يتعلق بالخرائط و بتحديد المسافات من خلال تعيين خطوط الطول و العرض، إضافة إلى تطوير رصد النجوم للملاحة.

لقد نسي الناس أن المسلمين، و قد كانوا أسياد الرياضيات و هندسة المثلثات و الفلك، كانوا رواد الملاحة و علومها في العصور الوسطى، و أن كل من تلاهم مدينٌ لهم.

يعترف الصينيون أنفسهم رغم اعتدادهم بحضاراتهم العظيمة و هم محقّون، أنهم و إن كانوا قد اخترعوا البوصلة، فإن الفضل في استخدامها في الملاحة يعود للمسلمين.

علوم المسلمين المتفوقة في الرياضيات و الفلك و خبراتهم الاستثنائية في الملاحة، كانت، و لا بد، ما اعتمده أمير البحر المسلم المغولي الأصل Zheng He، في حملاته الاستكشافية بأمر من إمبراطور الصين Zhu Di، و التي قادته فيما قادته إلى أميركا، سبعين عاماً قبل كولومبوس.

إنه لمن اللافت للنظر أن ممالك قوية و مزدهرة مثل الإمبراطورية الجرمانية المقدسة أو المملكة الفرنسية لم يكن لها دور في الفتوحات الكبرى. بل، و بالذات إسبانيا و البرتغال، و تماماً بعد القضاء على الإسلام في الأندلس.

لقد بات واضحاً الآن، أن كريستوف كلومبوس كان يعتمد في مغامرته على معلومات و تقنيات و أدوات إسلامية صرفة. بل أن أمير بحر سفنه Pietro Alonzo، كان في الواقع من أصل مسلم.

و كذلك، فإن فاسكو ديكاما في محاولته للوصول إلى الهند، احتذى بسفنه الشواطئ الإفريقية بشق الأنفس نزولاً، ليصل إلى رأس الرجاء الصالح؛ ثم ليصعد إلى نواحي زنجبار، و ليقف هناك محتاراً لا يدري كيف يصل إلى الهند؛ لولا ابن مجد الربان المسلم الذي قام أمامه بالعجب في ذلك الزمان، و ذلك بقطع المحيط الهندي برحلة واحدة بلا توقف، ليصل تماماً إلى بيت القصيد، أي كاليكوت إحدى عواصم التوابل في الهند.

المسلمون بعلومهم، كانوا آنذاك الوحيدين القادرين على قطع المحيطات ذهاباً و إياباً.



لقد بدأت تظهر حالياً أدلة كثيرة على وصول المسلمين الأمريكيتين قبل كولومبوس.

هذا بغض النظر عما يرويه الإسبان عن ردود فعل السكان الأصليين للأمريكيتين أول الاحتكاك بهم، مثل مسالمتهم و تعظيمهم و تبجيلهم لهم؛ ذلك لأنهم كانوا ينتظرون رجالاً بيضاً مُلتَحين كزعماء روحيين. لا تختلف سحنة الإسبان عن سحنة العرب، لا الأعراب، كثيراً. فمن أولئك المُلتَحين الذين يفضلون الثياب البيضاء؟

فقد أشار كولومبوس في دفتر ملاحته إلى تشابه الكثير من عادات السكان الذين صادفهم، بعادات الأندلسيين.

كذلك، فإنه أمرٌ لافت للنظر، حين الاجتماع بترتيب من البابا لاتفاق ملك البرتغال مع ملك إسبانيا لتقاسم العالم قسمين بناءً على خط طول معين، شرقيّه للبرتغال، و غربيّه للإسبان، إصرار ملك البرتغال إصراراً شديداً لدفع ذلك الخط غرباً عند حدٍّ معين. في حين أن المعلوم آنذاك أن إفريقيا كلها تقع بعيداً شرق هذا الخط، و أن سائر ما تم اكتشافه من أمريكا يقع غربه. و أن ذلك الخط و بالنهاية بعد دفعه غرباً لا يقسم سوى مياه المحيط الأطلسي. في الواقع، هذا كان شأن خط الطول الأول المقترح. أما الخط المعدل فقد مرَّ بقسم كبير من أمريكا الجنوبية التي كانت مجهولة تماماً آنذاك. بذلك فإن أراضي البرازيل الشاسعة صارت تابعةً للتاج البرتغالي. تُرى، أية وثائق إسلامية كانت بحوزة ملك البرتغال؟ خاصةً أن كثيراً من اللقى و الكتابات الأثرية في مدينتي Bahia و Minas Geraïs تشير إلى تواجد المسلمين في تلك الأراضي قبل وفود الأوربيين. و التي تؤكد مصداقية ما رواه سلطان مالي في حجه و زيارته لمصر عام ١٣٢٤م، عن رحلات أمر بها ـ عام ١٣١٢م ـ أبو بكر السلطان الذي سبقه لعبور الأطلسي. و قد حطت تلك الرحلات في مناطق مصب نهر الأمازون. و قد أشار المؤرخ Basil Davidson في كتابه (المملكة الإفريقية) إلى تواجد عدد كبير من المرافئ الإسلامية في مناطق من البرازيل إلى المكسيك منذ القرن العاشر الميلادي. هذا ما يتوافق مع ما ذكره المسعودي في كتابه (مروج الذهب) عن رحلة خشخش بن سعيد الذي اجتاز المحيط الأطلسي ليصل إلى الأراضي التي على الطرف الثاني ثم ليعود إلى الأندلس.

ولا يقف الأمر عند ذلك، بل و من تلك الأدلة على ما ذكرناه شهاداتٌ ممن ينحدرون من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية، تدل أن إسلامهم يعود إلى قبل مجيء الإسبان.

﴿ ... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ... ﴾

تُجمع التفاسير على التعليق على قوله تعالى: ﴿... وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ...﴾، بأن المقصود هو التجارة. و لا تقف التفاسير أكثر من ذلك عند تلك الدعوة الإلهية التي تكاد تكون أمراً. و نظراً للمستوى العام للطرح في التفاسير، فإن قارئها لا يرى في تلك التجارة أكثر من بيع و شراء صاحب دكان بهدف الربح.

هل هذه هي رسالة الذي سبحانه قال ذامّاً: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١١]؟

خاصةً أن تلك الآية تلت مباشرة قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

يستطيع قارئ القرآن أن يتشرف بالتجوال فيه متتبّعاً الآيات الكريمة التي يُذكَر فيها فضل الله، فلن يجد واحدة تشير إلى التجارة كباب رزق دنيوي، بل إنها كلها تشير إلى أمور عالية و عظيمة.

قوله تعالى: ﴿... وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ...﴾، دعوة إلهية تكاد تكون أمراً بطلب ذلك الفضل عن طريق إيصال آخر رسالة إلهية للعالمين إلى سائر الأمم.

ألم تبدأ سورة الجمعة بهذه الفكرة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾؟

الآخرون منهم الذين لمّا يلحقوا بهم، من يتلو عليهم آيات الله و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة، و قد توفى سبحانه نبيه الأكرم؟

أليسوا هم الذين وُجِّهَت إليهم دعوة ﴿... وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ...﴾؟

و إن لم يفعلوا، فقد رأينا ما أضاعوا على أنفسهم و على غيرهم!

و إن لم يفعلوا، فلم يؤدّوا الأمانة الموكلة إليهم، و كان مثلهم ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٥].

لقد نجحت الحملات الاستكشافية البرتغالية و الإسبانية و البريطانية، و وُظِّفَت نتائجها بالحد الأقصى من النفع، لأن وراء تلك الحملات كانت تقف و تسهر و تتابع رؤوس تلك الدول.

رحلات المسلمين إلى الأمريكيتين قبل كولومبوس ذهبت أدراج الرياح لأنها لم تحظَ بدعم و لا تأييد و لا حتى اهتمام و لا حتى اكتراث رؤوس الأمة الإسلامية، فقد كانوا يخوضون و يغوصون في بحور عالم آخر في مجالس الورق...

﴿...وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

الشكر هو حسن توظيف العطاء الإلهي من مؤهلات و مواهب و إمكانيات و ... **فرص**...

النظر إلى الموضوع بكامل واقعيّته في الزمان و المكان

منزِّل القرآن سبحانه، خالق كل شيء و كل أحد. و هو المهيمن و الشهيد عليه و على كل حدث.

فهو أعلم **بواقع** ذلك كله و بما ذكر منه في كتابه، علماً شاملاً مطلقاً لا يستطيع مخلوق تصوُّر مدى إحاطته و نفاذه.

فلا بد إذاً، من أخذ تلك الحقيقة بعين الاعتبار عند التعرّض لأي موضوع قرآني، و تناوله بكامل واقعيّته في الزمان و المكان، لينفتح بابه، و التقدّم عندئذٍ في تدبره و فهمه.

ثمة موضوع لافت للنظر في عودته مراراً في القرآن الكريم. عودات تؤكد على الأهمية البالغة لما يشير إليه:

في حين أن الملك الحاكم لمصر أيام سيدنا يوسف لم يذكر إلا في سورة يوسف. فإن ذكر فرعون يعود مراراً على مدى صفحات القرآن الكريم.

فهْمُ الأهمية البالغة لما يشير إليه ذلك الموضوع، يقتضي أولاً الاجتهاد في استحضار سائر المعلومات الموثوقة عن ذاك العصر، للخوض في الآيات الكريمة و كأننا نعيش الواقع آنذاك بكل أبعاده.

باستحضار تلك المعلومات، نفهم، مثلاً، جور المصريين على بني إسرائيل نقمةً عليهم؛ إذ كانت لهم المكانة العالية أيام سيدنا يوسف و بعده، عند الهكسوس، أولئك القوم الآتين من الشام و فلسطين إلى مصر، و المختلفين عن المصريين اختلافاً تاماً في تقاليدهم و عقائدهم. ليقيموا أولاً في منطقة دلتا النيل، ثم ليحتلوها مقيمين حكمهم فيها، و ليتوسَّعوا باتجاه الجنوب تدريجياً طاردين النظام الفرعوني، ليحجِّموه أخيراً في دويلة صغيرة في الجنوب تحت سيطرتهم.

استمر احتلال الهكسوس لمصر أمداً طويلاً، إلى أن طردهم المصريون منها بعد معارك عديدة و طاحنة، قُتِلَ في أولاها فرعونهم.

ذلك الواقع التاريخي، و الذي ترك أثراً عميقاً في نفوس المصريين، لا بد من استحضاره لفهم قول فرعون و سحرته و حاشيته في سورة طه. إذ إن طلب سيدينا موسى و هارون كان واضحاً و صريحاً: ﴿... إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ...﴿٤٧﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٧]. فلِمَ يقول فرعون



و سحرته و حاشيته: ﴿...إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾؟ إلا بسبب الجرح العميق الذي تركته ذكرى احتلال الهكسوس لمصر. و كذلك بسبب ذكرى خروج كثير من المصريين عن دين الفراعنة تأثراً بفترة سيدنا يوسف و ما بعدها، وصولاً إلى إنكار فرعون نفسه ذاك الدين أيام أخناتون.

إضافة إلى ذلك، فإن أول ما يتلاشى، باستحضار واقع ذاك العصر، هو التصور الساذج و الكريكاتوري الشائع عن فرعون. تصور عن طاغية في قصره، عنيف في حركاته، عابس أرعن، يكشر عن أنيابه و يزمجر، يدوي صوته و يضحك كالحمقى.

لتظهر بدل ذلك، صورة واقعية لحاكم **فعليّ**، على درجة عالية من الأناقة في الملبس و المظهر: تعلو وجهه نظرة هادئة و ابتسامة خفيفة للتعبير عن الثقة بالنفس و السيطرة على الوضع و الترفع عن صغائر الأمور. ابتسامة تعكس سرمدية الآلهة التي يمثلها. كذلك جلوسه و قيامه و أي حركة من حركاته، التي ينبغي أن تكون بمنتهى الأناقة و الانسيابية و الجمال و التميُّز. كذلك كلامه في صوته و نبرته و فحواه، و كذلك ثيابه و حليّه.

حاكم فعلي محاط بحاشية من رجال الدين و الموظفين و المستخدمين. هم كذلك تلقوا تلك التربية ليكونوا على أعلى مستوى من الأناقة في المظهر و المنطق، و أعلى مستوى من ضبط النفس احتراماً لبرتوكولات البلاط في سائر كلماتهم و حركاتهم.

حاكم فعلي ديني و دنيوي، محاط بمظاهر أبهة و عظمة عمرانية استثنائية، و بتفوق حضاري و علمي و سياسي و اقتصادي مطلق، عريق و مستمر.

أي كل ما كان و **لا يزال** يزعزع نفوس و إيمان من يحتك بمثل ذلك عند بعض الحكام الحقيقيين، لا رؤساء الدول الذين ليسوا سوى موظفين عابرين يتقاضون رواتبهم الشهرية.

ابتسامة خفيفة و هادئة، نبرة كلام لبقة، محاطة بالأناقة و الأبهة و العظمة و الحضارة و التفوق، مما يفرض الاحترام، و يدعو الذي زُعزِع ليظن أنهم لا بد أن يكونوا على حقٍّ ليحظوا بذلك العز و النجاح المستمرين.

و ما أكثر الذين زُعزِعوا، ابتداءً من الذين وَهَنَ عزمهم في مجابهة طغيانهم أمام إعجابهم بحضارتهم، وصولاً إلى الذين انساقوا انسياقاً تاماً فصاروا ذيولاً.



﴿...وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٥-٤٧].

هذا الحد الأدنى الذي ذكّرنا به، وحده يكفي لفهم كثرة ورود ذكر فرعون في القرآن **بوصفه رمزاً** لواقعٍ مستمر عبر التاريخ، لا بد من الوقوف عنده تفكُّراً و تدبُّراً.

فكيف إن تابعنا جولتنا في الواقع زماناً و مكاناً؟ فنتساءل، مثلاً، عن داعي الجهود الجبارة و المضنية المبذولة أيام السفن الشراعية، لنقل المسلات المصرية بمئات أطنانها، من صعيد مصر إلى أعظم العواصم الأوروبية، و لتُنصب في أعظم ساحاتها. و عن داعي بناء أكبر مسلة في العالم لتكون نصباً تذكارياً على شرف جورج واشنطن.

من جهة أخرى مختلفة جذرياً، و بالنظر إلى الموضوع في كامل واقعيته في المكان و الزمان، فإن ذلك يسمح لنا التقدم كثيراً في فهم صياغة بعض الآيات كالتي أول التنزيل.

إذ إن اللافت للنظر في الآيات العديدة الأولى من التنزيل عدم ورود لفظ الجلالة، بل لفظ «رب» مضافاً أو مُعَرَّفاً بصفة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٩٦/ ١-٣]. علماً أنّ الآيات التي ورد فيها لفظ الجلالة، و التي في السور الأولى من التنزيل، هي كذلك غالبها مكية، و لكنها نزلت فيما بعد.

اللافت للنظر في الأمر هو أن لفظ الجلالة كان معلوماً و شائعاً بين العرب آنذاك. فالنبي الأكرم محمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ابن عبد الله بن عبد المطلب. فلِمَ لم يرد لفظ الجلالة في تلك الآيات بدل لفظ «رب»؟

بالعودة إلى زمن التنزيل بكل واقعيته، نجد أن مفهوم العرب آنذاك عن لفظ الجلالة لم يكن مفهوماً صحيحاً. إذ كان يشير إلى إلهٍ أعظم غير واضح في صفاته، منقطعٍ عن هذا العالم و منصرف إلى شؤونه انصرافاً تاماً، تاركاً الأمر لآلهةٍ أخرى.

بذلك، فإن سمع أحدهم تلك الآيات الأولى، و بلفظ الجلالة بدلاً من لفظ «رب»، لارتبطت تلك الآيات بمفهومه الخطأ عن لفظ الجلالة و بما فيه من تداعيات و أفكار جاهزة و مواقف مسبقة، و لحَجَبَ ذلك كله الرسالة القرآنية عن سامعها.

كما هو الحال لو جاء أحدهم نفراً يعرفون «سامراً»، كل واحد منهم بدرجةٍ مختلفة و بانطباعٍ متفاوت، و قال لهم: سأحدثكم عن «سامر». فمهما قال لهم، فإن كلامه، و بأحسن أحوال، سيلتصق بقناعاتهم عن سامر فترة ليتلاشى بعد حين. هذا إن لم يؤثّر فيهم قط، لاكتفائهم بما علِموه عنه.

أما، لو جاء أولئك النفر و قال لهم: سأحدثكم عن رجلٍ. عندئذٍ، سوف يكونوا كالصفحة البيضاء الجاهزة لتلقي كل جديد من غير تدخل.

و بعد إذ حدثهم عن الصفات الحقيقية لذلك الرجل، و رسَّخها في قناعاتهم، يستطيع عندئذٍ أن يقول لهم: هذا الرجل هو سامر.

فمن رحمته و فضله تعالى أنه أعطى أوائل من سمع القرآن فرصةً، و جنَّبهم حجب الآراء الجاهزة، إذ عرَّفهم بربٍّ غير ربهم، رب الرسول الأكرم. ثم رويداً و قد نزل الحد الأدنى من الأساس الذي لا بد منه، بدأ يظهر لفظ الجلالة، و أنَّ ذاك الرب سبحانه هو الله جَلَّجَلَالُهُ.

الوقوف عند ما أشرنا إليه، يجعل قارئ القرآن أكثر وعياً و تقديراً لأهمية التأكيدات الإلهية الكثيرة، حيث نجد ربطاً بين لفظ «رب» و لفظ الجلالة بعد التعريف به سبحانه مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ

ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ



سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ

وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ

وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ

فَٱعۡبُدُوهُۚ

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[الأنعام: ٦/ ١٠٣].

و مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ

فَٱعۡبُدُوهُۚ

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٣].

آياتٌ كريمةٌ بالغة الأهمية، تدعو إلى عمليةٍ عميقة و راقية لتأصيل الترابط الصحيح لمفهوميّ الربوبية و الألوهية في القلوب و العقول.

لقد سبق و أشرنا في «الحد الأدنى مما يُعْلَم عن آفاق الكلمة القرآنية»، و في «مسألة اختيار الكلمات في القرآن الكريم»، إلى تعدد و عظمة الاعتبارات الداخلة في ذلك الاختيار مما يفوق طاقة العقول.

بذلك، فإن ما ذكرناه في الأسطر السابقة عن ورود لفظ «رب» في الآيات الأولى من التنزيل، ليس سوى تبيان لجانبٍ من حكمة ذلك الورود، و من خلال النظر إليه بكامل واقعيته في الزمان و المكان.

الانتباه إلى تبدلات النبرة في النص القرآني الشريف

لا صعوبة تُذْكَر في هذا المجال، فتبدلات نبرة النص القرآني الشريف واضحة و شديدة التنوع و الغنى؛ إنما ينبغي دوام الانتباه إليها.

وفي مواضِع كثيرةٍ من القرآن الكريم، ينبغي مضاعفة الانتباه إليها، و رفع مستوى رهافة الحس تجاهها.

هذا هو حال مقاطع من سورة يوسف. حيث أنّ عَدَم الانتباه إلى نبرة الكلام، أو نقص رهافة الحس تجاهه، أودى بعيداً سواد قارئي السورة الشريفة، و حتى سواد المفسرين، عن حقيقة مجريات الأمور، و كيف إذاً، عن حقيقة رسالة السورة.

فالشائع في فهم مجريات قصة سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هو أن إخوته ساءتهم مكانته العالية عند أبيهم، فكادوا، ليتخلصوا منه، فاستأذنوا أباهم ليرسله معهم ليلعب، فعبَّر عن مخاوفه لشدة تعلقه به و لكنه رضخ لمطلبهم. فلم يقتلوا يوسف، بل ألقَوْه في الجب.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: ١٢/١٦-١٨]. و انطلى الأمر على يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنّ يوسف قد مات، و سلَّم بقدر الله. ثم تستمر أحداث القصة إلى زمن المجاعة و ذهاب إخوة يوسف إلى مصر طلباً للقوت الذي كان مقنناً بعدد الأشخاص. و عودتهم إلى أبيهم ليأخذوا منه ـ بعهود و مواثيق و هو كاره ـ شقيق يوسف ليزدادوا في الكيل. و من بعد حادثة سرقة الصواع، عودتهم المأساوية إلى أبيهم من غير بنيامين.

عندها نقرأ ردة فعل سيدنا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٤-٨٦].

الشائع في فهم هذه الآيات الكريمة المؤثرة، هو أن حادثة بنيامين فتَّقت جروح سيدنا يعقوب و أججت أساه لفقدانه يوسف.



ولكن، و بالانتباه إلى نبرة النص الشريف، يتبين لنا أن الفهم الشائع للقصة جنح بعيداً كل البعد عن المقصد الإلهي في عمقه و علوه، و حتى عن أول ما يُفهم من صريح الآيات الكريمة.

فاللافت للنظر و بقوة، هو برود ردة فعل سيدنا يعقوب، عندما أخبره أبناؤه بموت سيدنا يوسف بشكل شنيع، و قميصه بأيديهم ملطخٌ بالدم: ﴿...قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

الواضح من الآية أنه لم يُصدِّق حرفاً مما قاله أبناؤه، إذ اعترض على مصداقية كلامهم مُصَحِّحاً بقوله «بَلْ»: ﴿...قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ...﴿١٨﴾﴾. ذلك لأنه، و هو النبي، كان قد أُخبِر بمجريات الأمور، و أَخبَر بها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما قصَّ عليه رؤياه:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا...﴿٥﴾﴾ و هذا ما حصل.

﴿...إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ هذا ما قاله يوسف في آخر القصة بعد إذ رفع أبويه على العرش: ﴿...مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ...﴿١٠٠﴾﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ...﴿٦﴾﴾ و هذا ما حصل.

﴿ ...وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ...﴿٦﴾﴾ و هذا ما حصل، عندما صار قائماً على خزائن مصر.

﴿ ...وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ و هذا ما حصل عندما رفع والديه على العرش و جاء بأخوته من البدو ليسكنوا مصر.

بذلك، و قد كان سيدنا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على درايةٍ مما سوف يكون من أبنائه، فإن جوابه لهم في الآيات التالية يأخذ أبعاداً غير ما شاع في فهمه، و خاصةً بالانتباه إلى نبرته:

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن ...﴿١٣﴾﴾، قالها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُمْتَحِناً قلوب أبنائه، فكانت قاسيةً، لم يأبه أحدٌ منهم بمشاعره، و لم يهمهم إن حزن أو لم يحزن.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ...﴿١٣﴾﴾، في هذه الكلمات عبَّر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن حقيقة مشاعره. فحزنه ليس لفراق يوسف، إذ إنه مستعد لذلك. و إلا لقال مركِّزاً في كلامه على يوسف: «لَيَحْزُنُنِيٓ أَن يغيب عني». بل، قال مركِّزاً في كلامه على إخوته: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ...﴿١٣﴾﴾، أي: « لَيَحْزُنُنِيٓ ما نويتم ليوسف و ما ستفعلون به».



لا بد من التأكيد، بأن حزنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ليس مجرد حزن والد مما يراه من أبنائه، بل حزن الأنبياء مما يصدر عن الأنفس. كحزن خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، و الذي قال له سبحانه: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٦].

﴿ ...وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾، و هو بصير بكيد أبنائه الذين لم يجمعوا بعد على كيفية التخلص من أخيهم، و منهم من يريد قتله، بادر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و زوَّدهم بما يقولونه عن موت يوسف؛ فينجو بذلك من بطش حمقاهم. فالتقموا الطعم: ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

فما أهزلهم في عينَيّ والدهم، عندما عادوا يخبرونه بما زوَّدهم به!: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ... ﴿١٨﴾ ﴾.

و أي مرارةٍ و خيبة أمل في نبرة كلامه من تلك المهزلة، عندما ردَّ على ادعائهم و زُورِهم مُصَحِّحاً: ﴿ ...بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ... ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ...فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ... ﴿١٨﴾ ﴾ صبرٌ على فعلهم و قولهم، صبرٌ كالذي أُمِر به خاتم النبيين: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٠]. ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٥]، فالصبر بالضرورة انتظار، و النهاية التي أخبر بها يوسف أول السورة نهاية سعيدة، ﴿ ...فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ... ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ...وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ... ﴿١٨﴾ ﴾، لا على موت يوسف، و لا حتى على فراقه، و لا حتى على ما جرى له في الواقع، بل ﴿ ...عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾!

فأيّ فظاظةٍ و انعدام تامٍّ للرحمة في مراعاة مشاعر والدٍ، إخبارُه بموت ابنه بهذه الطريقة. و خاصةً، ما يكاد يكون تشفٍّ و شماتةً: عرضهم قميصه ملطخاً بالدم!

بمتابعة قراءة قصة سيدنا يوسف، فسوف تقودنا أحداثها بطبيعة الحال إلى ردة فعل سيدنا يعقوب المأساوية بعد سماعه نبأ احتجاز بنيامين في مصر.

﴿ ... يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾! نبرة سيدنا يعقوب في مرارتها وتأججها تكاد تكون نحيباً.

شدة تباين هذه النبرة مع هدوء و رصانة نبرته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عند إعلامه بموت يوسف المزعوم و ما فيها من ضبط النفس، يستوجب إعادة نظرٍ جذريةٍ في الفهم الشائع للحادثة، على أنها فتقت جروح



سيدنا يعقوب على موت يوسف.

لو أن ذلك كان صحيحاً، لتأججت مشاعره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما طلب بنوه منه إرسال بنيامين معهم.

و الحال ليس كذلك، إذ نقرأ تأكيداً على ما سبق و رأيناه من علمه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مما يكون من أمر يوسف عندما قال: ﴿...عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ... ﴿٨٣﴾﴾، أي يوسف و بنيامين و الأخ الأكبر الذي بقي في مصر.

و يؤكد علمه مما يكون من أمر يوسف، قولُه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أربع آيات ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

فالمقصِد الإلهي، يقيناً، غير ما شاع فهمه:

عندما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم بعد حادثة الصواع، و أخبروه بما جرى كانت ردة فعله، و بالانتباه إلى نبرته، هادئة و تكاد تكون، هذه المرة، فعلاً باردة. و ذلك عندما كرَّر، تماماً، نفس كلامه وقت حادثة الذئب: ﴿...بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ... ﴿٨٣﴾﴾.

ولكن هذه المرة لم يكيدوا و يكذبوا عليه ليعترض مصحِّحاً، بل كانوا هم ضحية ما جرى لهم.

إذاً مقصده عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن الاعتراض و الاتهام، بل، و بكثير من الشفافية، تذكِرة!

لقد ذكَّرهم بكلامه لهم قبل سنين طويلة، عندما تخلصوا من يوسف. وكأنه يقول لهم: «لقد سبق آنذاك و قلت لكم» ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾. و ها هي نتائجه أمامكم تعيشونها. و لقد سبق و قلت لكم «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»، علماً مني بما يكون من عاقبة هذا الأمر، و ها قد آن أوانه. ﴿...فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ...﴿٨٣﴾﴾، إذ ﴿... عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

بالطبع، لم يفقهوا شيئاً مما قاله لهم!

ثم ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾. بذلك، فإن ذلك الأسف المأساوي و الملتهب ليس أسف أبٍ على فقدان أو فراق ابنه. بل، أسف سيدنا يعقوب كنبيٍّ و أعلى سلطة روحية في زمانه، على ما صدر من خليفته سيدنا يوسف تجاه إخوته:

عندما جاؤوه أول مرة، و بعدما جهزهم بجهازهم و قد همّوا بالعودة إلى ديارهم، عندئذٍ وضعهم في مأزق و طالبهم بأن يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم. طلبٌ، بالواقع، دراماتيكي، إذ إنه هو أخٌ لهم من أبيهم!

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.



اللافت للنظر في الأمر، و بقوة، عدم دهشتهم و عدم سؤالهم: «و ما أدراك أن لنا أخٌ من أبينا؟».

السبب في ذلك، ردةُ فعلٍ نموذجية صادرة عن اللاوعي.

ذلك اللاوعي الذي دُفِنَت في أعماقه جريمة التخلص من أخٍ لهم من أبيهم، أي سيدنا يوسف. ألَمُ إثمِ هذه الجريمة عبءٌ كبير على اللاوعي، لذا فهو يتهرب منه بالتناسي و بعدم إثارة الموضوع. و إن أُثِيرَ، فهو يسعى، تهرُّباً، لإغلاقه بأسرع ما يكون.

لذا، لم يناقشوا، بل تجاوبوا في الحال: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)﴾!

بذلك بدأت قسوة يوسف على إخوته، فقد جعلهم، في أعماقهم، بوضعٍ نفسي غير مريح بإثارة مسألة الأخ من أبيهم. و منع عنهم الكيل، و جعلهم في إرباك مراودة أخيهم عن أبيهم، يفكرون في ذلك طوال المشقة البالغة لقطع المسافة الشاسعة بين ضفاف النيل و فلسطين في صحارى و قفار، أيام قحط و مجاعة، و الأكثر من ذلك: عائدين إلى أهلهم صفر اليدين!

إلى هذا الحد، تقبّل سيدنا يعقوب الأمر. بل، و ساهم في درس يوسف لإخوته، و ذلك في تقريع و إرباك أبنائه عند طلبهم بنيامين. ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ... (٦٤)﴾.

إن ما جعل سيدنا يعقوب أكثر تقبُّلاً للأمر و إسهاماً في درس يوسف لإخوته، ما لمسه منه من رأفةٍ و قد زودهم بشيء من القوت و ردَّ إليهم، من حيث لم يشعروا، بضاعتهم التي بها يُقَايضون الكيل، لتشجيعهم على العودة إلى مصر: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾. بذلك فقد يسَّر عَلَيْهِ السَّلَامُ لقاء يوسف و بنيامين على انفراد.

أما عندما عاد إخوة يوسف، بوضعٍ نفسي مأساوي، إلى أبيهم ليُخْبروه بسرقة بنيامين صواع الملك، و ذلك بعد عذاب قطع المسافة الشاسعة بين ضفاف النيل و فلسطين، و للمرة الرابعة، في الصحارى و القفار، في مخاطر أيام القحط و المجاعة، صُدِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بقسوة يوسف تجاه إخوته، خاصةً أنه أدرك أنهم سيضطرون إلى مكابدة عذاب و مهالك قطع تلك المسافة الشاسعة مرتين أخريين، خامسة و سادسة، من غير طائل.



و أكثر ما صدمه و أثار أسفه هو تلفيق تهمة سرقة الصواع، لعلمه أن بنيامين لم يسرق. لذلك، فقد قال سبحانه متداركاً قارئ القرآن، كي لا يظنَّ بأن نبيَّه يوسف لفَّق و كذب انتصاراً لنفسه: ﴿...كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...﴿٧٦﴾﴾.

بذلك، فإن أسف سيدنا يعقوب المأساوي و الملتهب ليس أسف أبٍ على فقدان أو فراق ابنه. بل، أسف نبيٍّ و أعلى سلطة روحية في زمانه، على ما صدر من خليفته سيدنا يوسف تجاه إخوته، مما يبدو انتصاراً لنفسه على حساب القيم و المبادئ.

فسيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي و ابن نبي، و عمه نبي، و جده نبي! و الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يتميزون عن سائر البشر، و حتى عن العلماء و العارفين، بوعيٍ استثنائيٍّ، لا يمكننا تخيُّله، عن هول مصير الأنفس في الآخرة و عن عذاب جهنم. هذا يجعلهم، و قد صَفَت و سَمَت نفوسهم و رقَّت قلوبُهم، يستميتون في إنقاذ الغافلين و الضالين، و يا ليت البشرية جمعاء! هذا كان حال سيدنا إبراهيم الذي وصل به الأمر في استماتته، إلى جرأة مجادلة ربه في شرِّ أهل زمانه: قوم لوط!

و قد ورث سيدنا يعقوب رقة قلب جده، التي نلمسها بوضوح في نبرة قوله لبنيه، بعد إذ ابيضت عيناه من الحزن: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن نبي، و عمه نبي، و جده نبي، و هو نبي و رأس الزعامة الروحية في زمانه. و الأكثر من ذلك، هو إسرائيل، و يوسف و إخوته هم بنو إسرائيل!

لذلك، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ تواق ليكون أبناؤه طليعة أهل الإيمان، بمثابة صفحة جديدة في تاريخ البشرية من السلام و التفاهم والاتفاق و الاجتماع على الحق. و يريد ليوسف، و هو يعلم أنه خليفته في النبوة، أن يقود إخوته لتحقيق ذلك.

أسِفَ على يوسف و ابيضت عيناه من الحزن عندما أدرك أن يوسف قد أخذ منحى آخر، و أن صراع الأخوة لا زال قائماً.

سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذج للزعيم الروحي الذي، و لشدة وعيِه لهول يوم القيامة، و لشدة نكران ذاته و تعاطفه مع غيره يرجو الهداية للناس أجمعين في عالم من السلام والتفاهم.

بالمقابل، فإن سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يمثل الزعيم الروحي المتبرئ مما تصبو إليه نفسه من خير، و العامل بناءً على ما هداه اللّه و علَّمه و فهَّمه من حكمته في خلقه.

لقد علَّم اللّه سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ و أخبره بما سيكون من أمر بنيه ﴿... وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾، و لكن إلى حد.



إذ لم يُعْلِمه، مثلاً، بأمر تهمة سرقة الصواع.

لذلك فقد قال سبحانه: ﴿...كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ
مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ ...(٧٦)﴾

﴿...نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ...(٧٦)﴾، أي سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿...وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ...(٧٦)﴾، أي سيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي هو لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ.

﴿ ...عَلِيمٌ (٧٦)﴾ أي سبحانه.

فالموقف السليم، إذاً، و بشهادةٍ من الله ﴿...نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ...(٧٦)﴾، هو موقف سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بما فيه من حزم و صرامة.

أما تعاطف سيدنا يعقوب الزائد، و الذي تجاوز حكمة الله في خلقه، و رغبته أن يكون ابنه على نهجه، فقد أَوْدَيا ببصره.

لذا فقد ارتد بصيراً عندما أُلقيَ على وجهه قميص يوسف.

فقد أدرك، من ريح القميص، أن ما صدر عن يوسف و خاصة تلفيق تهمة السرقة، لم يؤثِّر سلباً في مقامه عند رب العالمين. لا، بل على العكس، فقد استدل من ريح القميص أن يوسف على أحسن ما يكون من نقاءٍ و صفاءٍ و من علو مقامٍ عند رب العالمين. فلم يعد أي داعٍ للأسف.

ارتد بصيراً عندما أُلقيَ على وجهه قميص يوسف، لأن ذلك القميص كان بمثابة الحجة التي تدعو سيدَنا يعقوب ليوازن تعاطفه الزائد تجاه الذين لا يستحقّونه.

إذ كان القميص في المرتين السابقتين شاهداً على الشر و الظلم الصرف اللذين يصدران عن الأنفس لمجرد الانصياع لأهوائها. و ذلك طلباً لمكانِ الصدارة، كما في المرة الأولى، أو، و كما في المرة الثانية، إرضاءً للشهوات.

فطلب مكانِ الصدارة و إرضاء الشهوات بابان عظيمان من أبواب الضلال.

إذ إن استئثار طلب مكان الصدارة على النفس، يدفع المرء إلى التنازل المتفاقم عن المبادئ و القيم، ليصل الأمر إلى التعدي و الوقوع في المحرمات و موالاة أهل الضلال.

أما استئثار إرضاء الشهوات على النفس، فهو باب ينفتح مباشرة على هاوية الانقطاع عن نور الله، فالاستهانة ثم التخلي عن سائر المبادئ و القيم.

و قد أدرك سيدنا يعقوب تلك المعاني بذكاء الأنبياء الخارق و الذين يفهمون الإشارة بأسرع من لمح البصر، زال عنه ما أعمى بصيرته فارتد بصيراً. يرى، بنور الله و هديه، الأمورَ على حقيقتها



ضمن إرادته سبحانه و حكمته في خلقه.

و هذا ما أراده سبحانه بقصة يوسف و إخوته لخاتم أنبيائه، الذي هو أشبه الناس بالهيئة و بطيب النفس و رقة قلب بجده الأكبر، جد يعقوب، إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿...يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ١١/ ٧٤-٧٥]. آيات وردت في سورة هود، أي تماماً قبل سورة يوسف. سورة هود التي تلخِّص نهاياتها رسالتها: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾. و تقدِّم لسورة يوسف: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١١/ ١٢٠]، حيث نقرأ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٣]. ليبين سبحانه العبر التي تعرضنا إليها من خلال قصة سيدنا يوسف. ثم، و من بعد انتهاء القصة، ليعود سبحانه بخطابه إلى المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما يُذَكِّر بتعاطف سيدنا يعقوب الزائد: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٣]، و هو حال المؤمنين كما ورد في سورة الرعد التالية مباشرة لسورة يوسف: ﴿...أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ...﴿٣١﴾﴾، و التي تناظر قوله تعالى من سورة هود قبل سورة يوسف: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

العبر و المعاني التي بيّنّا جانباً منها ليست صريحةً و لا قريبة المنال. بل تحتاج إلى انتباهٍ شديد و منهجيةٍ محكمة في تدبر القرآن الكريم. السبب في ذلك، ما سبق و بيناه، من خاصيةٍ في القرآن الكريم تجعل وضوح الطرح متناسباً مع مستوى و مسؤوليات المعنيّ به.

فما أكثر المقاطع القرآنية التي تتطلب انتباهاً شديداً و حساً مرهفاً إلى ما في النص الشريف من شفافية و عمق.

هذا ما رأيناه في المقاطع التي وقفنا عندها من سورة يوسف. حيث أنّ عَدَم الانتباه إلى نبرة الكلام، أو نقص رهافة الحس تجاهها، أودى بعيداً بسواد قارئي السورة الشريفة، و حتى سواد المفسرين، عن حقيقة مجريات الأمور، و كيف إذاً، عن حقيقة و عظمة رسالة السورة.

البحث عن بيت القصيد

لا مجال في حسن تدبّر القرآن الكريم لاعتماد منهجٍ قائمٍ في حقيقته على سؤالٍ من نمطِ: «ماذا تراني أفهم من هذه الآية؟».

ولا لاعتماد منهجٍ قائمٍ في حقيقته على سؤالٍ من نمطِ: «ماذا يُفْهَم من هذه الآية؟».

فهذان المنهجان يفتحان الباب واسعاً للجنوح بعيداً عن المقصد الإلهي.

بل لا بدّ من اعتماد منهجٍ قائمٍ على هذا السؤال:

«ماذا يريدنا سبحانه أن نفهمَ من هذه الآية؟».

إذاً، فالبحث عن بيت القصيد هو مواصلة التركيز على عين الوجهة التي يريدنا سبحانه اتِّباعها، للتقدم في فهم أيّة رسالة أودعها في كتابه الكريم.

بذلك فإن عملية البحث عن بيت القصيد من أساسيات حسن تناول أي موضوع قرآني.

ولكنها عملية حساسة تقتضي مراعاة سائر ما سبق و ذكرنا من شروط:

مثل التخلص من المواقف المسبقة و الآراء الجاهزة و من الإسقاطات البشرية.

و مثل النظر إلى الموضوع بكامل واقعيته.

و مثل رفع مستوى التناول إلى المستوى العالمي و الكوني اللائق بالنص الشريف.

و مثل النظر إلى الموضوع من خلال كامل النص الشريف.

و ما إلى ذلك مما وقفنا عنده، مما لا غنى عنه، و مما، رغم فاعليته، لا يجدي في أيّة خطوة في تدبر القرآن الكريم، و في هذه العملية بالذات، إلا بنورٍ من اللّه.

تبدأ عملية البحث عن بيت القصيد بالانصراف عن النظر إلى الشاهد القرآني المدروس كمجرد إخبار بما جرى أو بما سوف يجري. خاصةً عندما يكون ما ورد في ذلك الشاهد، مما سبق و ورد مراراً في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

في هذه الحالة بالذات، يضعُفُ انتباهُ قارئَ القرآن أمام ما يعتبره مجرد تذكرة؛ فيقع في وَهْمِ راحةِ فخٍّ تبلُّدِ الاكتفاء و حرمانه.

في هذه الحالة بالذات، ينبغي مضاعفة الانتباه إلى النص الشريف و خاصةً إلى بُنْيته، و التركيز على الوجهة التي يريدنا سبحانه اتِّباعها، للتقدم في فهم رسالته.

هذا حال سورة الشعراء، حيث نجد النُّذُر الوارد على مدى القرآن الكريم، و كذلك قصص أقوامٍ ورد ذكرها مراراً فيه، مثل قوم فرعون و قوم نوح و قوم عاد و قوم ثمود و قوم لوط.

بالتشرف بمطالعة سورة الشعراء بالكامل، نجد أن آياتها المئتين و السبع و العشرين تتمحور حول **العواقب المأساوية لعدم الإيمان و لتجاهل النُّذُر الإلهي.**

فالآيات الأولى من السورة و الأخيرة منها تدور حول هذه النقطة، و ذلك في خطاب منه سبحانه إلى خاتم النبيين المرسل كافةً للناس. خطاب يلفت النظر بقوة، في استمراره بعد إذ انقطع في مئة واثنتين وثمانين آية، و كأن شيئاً لم يكن. و لتنتهي السورة، بعد كلام عن القرآن الكريم، بكلامٍ عن الشياطين، و أخيراً عن الشعراء ذمّاً، و كأن الموضوع قد تحول إلى وجهةٍ أخرى.

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾



هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

و يتوسط ذلك مئةٌ و اثنتان و ثمانون آية بمثابة المعترضة، و التي هي و بجلاء **سبعة** أمثلة نموذجية لأقوام جاءتهم الأنبياء بالبينات و النذر، فلم يستجيبوا فحَلَّ فيهم العذاب.

كلما تنتهي قصة قومٍ ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن نبيهم و رسالته و نذره و رحمته، يختم سبحانه تذكرته لمن يريد أن يعتبر بآيتين تعودان كل مرة بلا أي تغيير:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

هاتان الآيتان تختمان، كذلك، خطابه سبحانه إلى خاتم أنبيائه أول السورة، حيث نرى معاناة نبي الرحمة عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من عدم إيمان الذين يتوجه إليهم بدعوته، ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

و هما تسبقان كذلك مباشرة عودة الخطاب الإلهي إلى خاتم النبيين في آخر السورة بعد ختم القصة السابعة و الأخيرة:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾
وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

أي إن تلك الآيتين وردتا:

- سبع مرات، خاتمةً لقصص نموذجية في عِبَرِها لأقوامٍ غابرةٍ.
- و مرة في المقطع المرتبط بالمرسل كافةً للناس، و من يتوجه إليهم بدعوته.

هذا مما يدعو المتدبِّر للسورة لربط الحالة الثامنة بالحالات السبع:

كل قوم من تلك الأقوام السبعة المذكورين كانوا يتميزون بعيبٍ جَنَحَ بهم بعيداً.

أليس أكثر ما يميِّز الذين يتوجه إليهم خاتم النبيين بدعوته و نُذُرِه شغفُهم الشديد بالشعر؟ العرب بالطبع، و يفوقهم بذلك، الفرس، و الترك من تخوم الصين إلى الأناضول.



إن لم يفهموا النذر الإلهي في تلك السورة مستهينين بجنوحِ شغف أهوائهم بالشعر عن القرآن الكريم، كما جرى أيام المتنبي مثلاً، فسوف يحل فيهم العذاب و يلحقون بتلك الأقوام السبعة في دخولهم جهنم من أبوابها السبعة.

و إن فهموا بيت قصيد السورة، و أحسنوا تدبر القرآن الكريم افتقاراً و امتثالاً و شكراً، فإنهم يدخلون الجنة من أبوابها الثمانية.

في حالة سورة الشعراء، التي تشرفنا بالوقوف عندها، كان الانتباه إلى ما جعله سبحانه لافتاً للنظر، تيسيراً، كعودةِ مقولةِ الآيتين ثمانياً و كالذكر الفريد للشعراء في القرآن، كافياً لتبدو بنيةُ السورة بوضوح. فاتحةً بذلك، باب معرفة بيت قصيدها بمجرد النظر إلى الموضوع بكامل واقعيته.

و كذلك، فقد أمكن قطع شوط أساسي في معرفة بيت القصيد من سورة الشعراء، من غير الاضطرار إلى القيام بجولة أولية تحضيرية على مدى صفحات القرآن الكريم.

هذا لا يعني الوقوف عند ما ذكرناه قط. بل، لا بد من متابعة موضوع الإيمان المطروح في هذه السورة، من خلال معطياتها و من خلال معطياتِ السور التي يُطرَح فيها. و بشكلٍ خاص، من خلال التقابل البديع بين سورة الشعراء و سورة يونس. تقابلٌ، سوف يفهم القارئ روعته بعد صفحات، شرط أن يكون منتبهاً و حاضر الذاكرة. إذ لن نتعرَّض له صراحةً، و ذلك لخوضنا في مجالٍ آخر في البحث عن بيت القصيد.

إذ، ثمَّة شواهد قرآنية كريمة تتطلب، و ذلك لعلو مستواها و مستوى من تتوجه إليهم، جولاتٍ عبر كامل النص الشريف لتدبرها، و بحثاً عن بيت القصيد منها.

كما سبق و أشرنا، فإن عملية البحث عن بيت القصيد تبدأ بالانصراف عن النظر إلى الشاهد القرآني المدروس كمجرد إخبار بما جرى أو بما سوف يجري.

هذه الخطوة ضرورية للنظر إليه كَكَمٍّ عظيم من معلوماتٍ استثنائية تستوجب منهجيةً فصَّلناها، و تفكُّراً للتعرف تدريجياً على مغزاها و عبرها، للارتقاء إليها تمثُّلاً و تطبيقاً.

لقد أشكل قوله تعالى من [صٓ]: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ على الكثيرين، و ذلك لأنهم لم ينظروا إلى الموضوع بكامل واقعيته، فكيف لا يغيب عنهم بيت قصيده؟



لقد وُلِد سيدنا سليمان في عز مُلك أبيه عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، ليرثَه و ليملك بعده بعزٍّ أعظم إذ قال: ﴿...وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ ...﴿١٦﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ١٦]. في تلك الظروف عُرِضت عليه، هو، و له، أفخر الجياد، بما ترمز إليه من عزٍ و بهاء و ثراء، كما يكون بالنسبة لملوك و أمراء و أثرى أثرياء الماضي و الحاضر. و جُعلت تجري بأقصى سرعتها في استعراضٍ بهي لإظهار طاقاتها في المعارك.

فاستحوذ جمال و بهاء ذلك الاستعراض عليه.

ولكنه عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، و كما وصفه سبحانه: ﴿...نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٠]، و قد جُبلت نفسه بالصلة بالله و تعلَّقَ قلبُه به، فإنه أحسَّ بوحشة الانقطاع عنه سبحانه و لو للحظات، فتذَكَّر، فنوَّرَ الله بصيرته و أنطقه بإحدى درر القرآن: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي...﴿٣٢﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٢]. حيث شخَّصَ نقطة ضعف خطيرة في الإنسان ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ١٠٠/ ٨]، يُستَدرَج بها إلى الهاوية.

إذ يتلاشى حذر الإنسان أمام ما يبدو له خيراً، و يندفع إليه ساعياً بكل قواه حتى يحظى به.

بنقطة الضعف تلك و بهذا الدافع استدرج الشيطان آدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٠]. فما كانت النتيجة إلا ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٠].

لقد كان سيدنا سليمان، كنبيٍّ، أَوْلى من يكون واعياً لذلك، و لحقيقة ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٢-١٢٤]، لذا فقد قال: ﴿...إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي...﴿٣٢﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٢].

و ما كان منه، إلا أن سارع بتأديب نفسه فيكون قدوة لغيره، و ذلك بالتحول من موقع المَلِك الذي يتنعَّم بملكه إلى موقع العبد لمالك الملك، و الذي كأدنى الناس في السلَّم الاجتماعي، أي كالسائس الموكل بتنظيف الخيل مسحاً للاعتناء بها، صار، إنكاراً لذاته و لأي تميُّزٍ اجتماعي على غيره، يمسح سوقها و أعناقها.

فلا خير في «خير» يَشغل القلب عن الله.

الوقوف عند تلك العبرة، أولُ خطوة في معرفة بيت قصيد ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾.



في المرتين الوحيدتين في القرآن الكريم اللتين ذُكِر فيهما استدراج آدم عَلَيهِ السَّلَامُ بحب الخير، ما كان له ولزوجه من حَلٍّ وقد بدت لهما سوآتهما إلا ﴿...وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ...﴿١٢١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢١]. أما سيدنا سليمان عَلَيهِ السَّلَامُ فقد سارع، إذ إنه أواب، لتدارك خطأ الانشغال بحب الخير، بالتواضع وإنكار الذات ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٣]. وهي المرة الثالثة التي لا رابع لها حيث يرد فعل «طفق» في القرآن الكريم...

وليكون عَلَيهِ السَّلَامُ بذلك التبرُّؤ من الحول والقوة وبالافتقار إلى الله، لائقاً بذكره في الوقت الذي يذكره فيه الأنبياء والصالحون.

إذ ما أحوج المرء إلى ذكر الله في العشيّ، للعودة إلى أنس وطمأنينة وسكينة ونور القرب منه سبحانه، بعد إذ أُثقِلَت نفسه وأظلمت بما توغَّل فيها تدريجياً من مشاغل الدنيا والناس طوال نهاره، ولو كانت تلك المشاغل «خيراً». ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٨].

النظر إلى الموضوع المطروح في القرآن الكريم بكامل واقعيته، خطوةٌ لا بد منها بحثاً عن بيت القصيد، كما هو الحال بالنسبة للشاهد التالي من نفس السورة والذي أشكل كثيراً على كل من وقف عنده: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٤].

الذي أشكل بشكل خاص، هو الجسد. والسبب الأول لذلك الإشكال، هو اعتماد المفهوم البشري التقريبي لتلك الكلمة، حيث إنها مرادف لكلمة «جسم».

الصواب هو التجرد عن المفهوم البشري للكلمة تجرداً تاماً، والنظر إليها من خلال كيفية ورودها في النص الشريف.

فقد وردت تلك الكلمة في أربعة مواضع حصراً:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٨].

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٨].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧-٨].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٤].

جليٌّ من شاهدَي قوم موسى عَلَيهِ السَّلَامُ، أن المقصود بـ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾: ليس رسماً لعجل على

لوح، و لو رسماً نافراً كما كان شائعاً آنذاك. و إنما **كتلة مادية صماء** ثلاثية الأبعاد يمكن رؤيتها من كافة الزوايا، و على شكل عجل.

هذا المفهوم القرآني عن الجسد **ككتلة مادية صماء** ثلاثية الأبعاد، يفسح المجال لفهم الشاهد الكريم عن الأنبياء أنهم لم يُجْعَلوا كالأصنام مادةً صماء لا تأكل.

بذلك، نفهم أن الجسد الملقى على كرسي سيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليس سوى كتلة مادية صماء.

و بالنظر إلى الأمر بكامل واقعيته، نستطيع التقدم فيه:

فكرسي سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لا بد أن يكون ذاك الكرسي المخصص له في قاعة المُلْك.

ولا بد أن يكون ذلك الكرسي في صدر تلك القاعة، التي لا بد أن تكون عظيمةً. إن كانت عظيمة فهي بالضرورة طولانية، و ذلك لصعوبة تغطية، آنذاك، أي مساحة تتجاوز عرضاً محدداً. هذا بالإضافة إلى الاضطرار لأسباب إنشائية جعل فتحات الإضاءة و التهوية عالية و ضيقة.

و صدر القاعة بالضرورة في جهتها العرضانية، هذا مما يجعل الكرسي بعيداً عن مدخلها، و الذي يكون غالباً في صدر فسحة سماوية واسعة.

و بالطبع، و بما أن ذاك الكرسي مخصص للمَلِك، فهو يرمز له، و لا يجرؤ أحد الجلوس عليه.

بذلك، و ما إن دخل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تلك القاعة بضوئها الخافت من ضوء الصحن المبهر، و لمح عن بعدٍ ما يشغل كرسيه، إلا و تسارعت الخواطر في ذهنه باتجاه الاستيلاء على ملكه، و كل ما يترتب على ذلك. إلى أن أدرك أن ذاك الذي رآه لم يكن سوى جسدٍ...

ولكنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من خيرة عباد الله الذين خصَّهم بالمدح ﴿...نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٠]، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤٠]. لذلك، و قد جُبِلَت نفسه بالصلة بالله، فقد أحس بوحشة الانقطاع عنه سبحانه في تلك الثواني التي تخبط فيها عقله و قد حرم من النور بانقطاع الصلة.

فما كان منه إلا و سارع بالعودة إلى ربه مستغفراً ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ... ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥]. لأنه عاش، في تلك الثواني، فقدان ملكه باستيلاء من سواه عليه، و السبل لاستعادته.

ثم عاد قلبه و عقله إلى الله، و بذلك عاد إلى حقيقة ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦].

فأدرك أنه كان، فيما سبق، غافلاً عن تلك الحقيقة، و قد وُلِد في عز مُلْك أبيه، و صار بدوره مَلِكاً. و كأن مُلْكه تحصيل حاصل و أمر مفروغٌ منه. و أنَّ استعادة ذلك المُلك، إنما تكون بمبادرة سياسية و عسكرية، فاستغفر لكل تلك الغفلة عن الهيمنة و المشيئة الإلهية المطلقة في توليته سبحانه وحده،



أياً كان على أيٍّ كان من خلقه.

و تحول من تلك الغفلة مصححاً موقفه، أولاً، بالافتقار إلى الله سائلاً: ﴿...وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا ... ٣٥﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥].

و قد فُتنَ بما أُلقيَ على كرسي مُلْكه، و هو النبي المعصوم، فقد زاد في سؤاله: ﴿...مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ... ٣٥﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥] رحمةً بمن بعده:

إذ إنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أدرى بقومه و بأفعالهم و أقوالهم منذ أيام سيدنا موسى، و بتلك النزعة المتأصلة فيهم، و التي ورثوها عن آبائهم إخوة سيدنا يوسف! و هو كذلك أدرى بقومه أيام النبي الذي من بعد موسى، عندما طالبوا بمَلِك ليقاتلوا في سبيل الله، ثم جادلوا ذلك النبي إذ **بعث الله** لهم طالوت مَلِكاً، و قالوا: إنهم أحقّ بالملك!

سيدنا سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أدرى قومه بذلك كله، فالذي خلَف طالوت في المُلْك ليس سوى والدُه سيدنا داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، و الذي، و بحسب سِفر الملوك من العهد القديم، عانى ما عانى من قومه من منازعته على ملكه. و لعل ذلك، سببُ فزعه ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: ٣٨/ ٢١-٢٢].

و بحسب سِفر الملوك، فإن سيدنا سليمان عانى من منازعة قومه على ملكه، ابتداءً من أخيه من زوجٍ لأبيه قبل أمه.

أما الذين من بعد سيدنا سليمان، فقد مُنع عنهم، فِعلاً، مُلْكه بدعوته، فقد انشق حال وفاته إلى مملكتين.

فكيف لو لم تُمْنع عنهم الإمكانيات العظيمة لذلك المُلك، و قد عبدوا بعْلاً أيام سيدنا إلياس، و وصل بهم الأمر إلى أن ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ ... ١٠٢﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢]!؟

أليس في ذلك، رسالة إلهية، و دليل على ما في الأسطر السابقة؟

خاصة أن هذه الآية هي أول ذكر لسيدنا سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، و هي أول موضع يرد فيه أي اشتقاق لجذر «فتن» في القرآن الكريم. و الآية الكريمة التي نحن بصددها ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾ هي آخر موضع يُذْكَر فيه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. بذلك يكون أول و آخر ذكر له في القرآن الكريم قد ارتبط بالملك و بالفتنة و بالشياطين.

ثم ختم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عودته الرائعة إلى الله ﴿...رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا ...٣٥﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥]،

بأعظم ذكرٍ، أي بالشهود ﴿...إِنَّكَ أَنتَ...﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥] وحدك و لا أحد غيرك ﴿...ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥]! فهو، سبحانه، الذي يؤتي الملك من يشاء و ينزع الملك ممن يشاء. و هو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أصلاً، هبة من الوهاب جَلَّجَلَالُهُ إلى سيدنا داود.

لم يقل سبحانه: «فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ»، كما ورد أربعاً في حالات مماثلة في سورة الأنبياء، و إنما ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٦-٣٩]. أي إن الغني الكريم جَلَّجَلَالُهُ أعطى عبده ما يفوق سؤاله، عطاءً يوافق شهوده ﴿...إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

لا بد لنا، و نحن بمعرض الكلام عن ذاك العطاء الإلهي العظيم، من التحذير من كثافات حجب هبوط الإسقاطات البشرية على تلك الآيات الكريمة، و خاصةً على المعنيّ بها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فهذا العطاء ليس لواحدٍ من الناس كأيّ ممن نلقى، ليتنعم به و ليصول و ليجول، كما لو أنه فاز بجائزة اليانصيب الكبرى.

و إنما عطاءٌ لنبي خصَّ سبحانه عبادته له بكثيرٍ من المديح. أي إنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كباقي الأنبياء زاهدٌ بالدنيا و بما فيها، ليقين علمه ﴿... وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٥]، و أن ﴿... وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ...﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٦]. و هو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كباقي الأنبياء شديد التعلق بالله و الافتقار إليه و إلى رضاه، لا يطيق وحشة الانقطاع عنه و لو ثانية، لذلك فهو شديدٌ في مراقبة نفسه و محاسبتها في كل صغيرة و كبيرة، كما رأينا في حادثة الجياد و حادثة الكرسي، و كما كان من والده سيدنا داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حادثة النعاج قبل آياتٍ من السورة نفسها ﴿...وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٤].

إن كان سبحانه ﴿...ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ...﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١١]، فكيف، إذاً، أنبياؤه!؟

فهُم، عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أصحاب مهامٍّ و مسؤوليات عظيمةٍ، و هم على وعي تام أنَّ كل ما آتاهم الله ليس سوى لتحقيق تلك المهام بالشكل الأكمل، و ذلك بالعمل على توظيف العطاء الإلهي بالشكل الأمثل، أي بالشكر.

لذلك، فقد أنطق سبحانه نبيه سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، عندما أُتِيَ بعرشِ ملكة سبأ، بقانون أساسي في ما يتعلق بعطائه سبحانه لعباده في الدنيا ﴿... هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ...﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠].



في الأسطر السابقة، كان النظر إلى الشاهدين الشريفين: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ و ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ بكامل واقعيتهما، كافياً للتقدم كثيراً في تدبرهما بحثاً عن بيت القصيد.

كيف إذاً، بالأبواب التي بدأت تتفتَّح أخذاً بشبكة الكلمات، و بالنظر إلى الموضوع المدروس من خلال كامل النص القرآني الشريف؟

خاصة أنه سبحانه جعل إحدى آيات كتابه الكريم معترضة عجيبة و عظيمة، تماماً قبل حادثة الجياد. بحيث لو حُذِفَت هذه الآية الكريمة، لما أحس قارئ القرآن بأي اختلال في المعنى و لا في سياق الكلام. و خاصة أن ما بعدها يبدأ بواو عطف، لا عليها، بل على ما قبلها. هذا مما يزيد الإحساس بها كمعترضة عجيبة جُعلت لتلفت النظر بقوة إلى التعليمة الإلهية الكريمة التي فيها:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾...

جليٌّ من هذه اللفتة الإلهية الكريمة، أنه سبحانه يريد من قارئ كتابه الكريم ربط ذاك الشاهد عن نبيّه سليمان بما ورد عنه في مواضع أخرى من القرآن.

هذا يقودنا، في تتبعنا لبيت القصيد، بالضرورة إلى أطول ذكرٍ لسيدنا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم، أي إلى سورة النمل.

إن الجواهر و الدرر لا تخفى على من يعلم قدرها. أما الذين لا يعلمون قدرها، فإنها تخفى عليهم، لتُمنَع عنهم، لأنهم ليسوا أهلاً لها.

ما ورد عن سيدنا سليمان في سورة النمل، كنزٌ من كنوز القرآن العظمى مُنِع عن سواد من وقف عنده. إذ لم يجتهدوا ارتقاءً في تدبره، افتقاراً لِما يريده الله من فهم، بل أسقطوا فهمهم عليه. فمُنِع عنهم أيَّما منع، و غاب عنهم تماماً بيت قصيده، و حتى أول ما تدركه الأفهام من بيت قصيد أي حادثة واردةٍ فيه.

فقد جنحت أفهام الكثيرين في هبوطٍ سحيق عند تعرضهم، مثلاً، لحادثة الصرح، بما زجُّوه مما لا يليق.

كان يكفي القليل من التجرد و الهدوء و الواقعية و احترام المستوى العالمي للنص الشريف، لتظهر المعاني بكل رقيّها و شفافيتها و وضوحها.

فقد أُخبِرَ سيدنا سليمان عن ملكة سبأ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ ...﴿٢٣﴾﴾ ، و ليست أيّة امرأة، بل امرأة ﴿...وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾، و لكنها ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فما كان لسيدنا سليمان أن يسكت عن ذلك، فأرسل إليها برسالةٍ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. فما كان منها، و بكثير من الهدوء و الوقار و الاحترام، إلا أن قرأت تلك الرسالة على قومها ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾. و بكثير من الحكمة و السياسة و الدبلوماسية استشارتهم ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾. فما كان جوابهم: ﴿...نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ إلا شهوداً منهم على ما سبق و رأوه فيها من حكمة و دراية عميقة في الحكم. و هو تماماً ما يتسم به رأيها الذي هو أبعد ما يكون عن السذاجة، بل انعكاس لخبرة أجيال ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾. و قررت بمنتهى الذكاء و الدبلوماسية إرسال هدية مَلَكية، لكسب الوقت، و للتزوّد بأكبر قدر ممكن من المعلومات عن الطرف الآخر، و على أمل تغيير موقفه، خطوة خطوة.

لم ينطلِ ذلك على سيدنا سليمان، فاضطرت للسفر إليه.

و بترتيبٍ من منزِّل القرآن سبحانه و الذي سبق علمُه كل شيء، أُتِيَ سيدنا سليمان بعرش ملكة سبأ على عظمته و صعوبة نقله قبل مجيئها، ليبين لها القدرات الخارقة التي جُعِلت له.

و أراد أن يكون ذلك التحدّي، حصراً لها، عسى أن تعترف بإلهِهِ الذي آتاه تلك القدرات الخارقة، فتهتدي، لذلك فقد نكَّر عرشها.

لو لم ينكِّر لها عرشها، لهتف قومها حال رؤيته: «يا للعجيبة! إنه عرش الملكة!». و لاضطرَّت لموافقتهم مهما كان موقفها الشخصي، و لكتمت غيظها و إعراضها و مكابرتها.

نكَّر لها عرشها، بحيث تكون هي الوحيدة القادرة على التعرف عليه من تفاصيل فيه هي أدرى بها.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ...﴿٤٢﴾﴾؟

فما كان جوابها إلا انعكاساً لقدراتها النفسية و العقلية الاستثنائية، في ضبط النفس مهما كان الموقف مفاجئاً و مربكاً، و في سرعة البديهة. و كذلك انعكاساً لكبرياء و ترفع الذين هم، و منذ أجيال، في موقع السلطات العليا، و الذين هم ممن أوتوا من كل شيء.

فلم تُجِب بالإيجاب، كبرياءً.

و لم تُجِب بالنفي، ذكاءً، فتَظْهَر بمظهر الأحمق الأرعن الذي يكابر بالمحسوس، و يَجْعَل نفسَه في موقفٍ غاية في الإحراج و الإذلال، عندما، و بدقائق، يُزال عن العرش ما نكَّره، فيعرفه جميع الحاضرين من قومها.

بل أجابت باختصار شديد يضاعف أضعافاً مضاعفة ترفُّع جوابها: ﴿...كَأَنَّهُۥ هُوَ...﴿٤٢﴾﴾، جواب دبلوماسي، و دقيق. جواب لا يمكن أنْ يُؤخَذ عليه، إذ إنَّ السؤال لم يكن «هل هذا هو عرشك؟»، بل ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ...﴿٤٢﴾﴾.

لم تنفعها عجيبة الإتيان بعرشها، فتهتدي. كما لم تنفع الآيات التسع فرعون.

فقد ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴿٤٣﴾﴾. و السبب: ﴿...وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، إذ إن مدخل الشيطان على المرء من تعظيمه لنفسه. **فتصير هي المرجع في الحكم** على الأمور من خلال ما يرضي كِبْرها و تعاليها، **فتنقطع عن نور المرجعية الإلهية.**

لم تنفعها عجيبة الإتيان بعرشها، كما لم تنفع الآيات التسع فرعون. و في ذلك حجة على كل من يطالب بالمعجزات كبَيِّنة و دليل على مصداقية من يدعو إلى سبيل الله، و يشرط إيمانه بالإتيان بالمعجزات. ثم عندما يشهدها، يكفر بها، إذ لم يكن صادقاً عندما طالب بها، بل كان معاجزاً. و هذا تماماً حال المعرضين و الملحدين الذين يقولون: «برهِنْ لي، أقنعني» معاجزين، لا يهمهم البرهان، بل إنكاره مهما كان، على أمل زعزعة الطرف المؤمن لجرِّه إلى صفّهم.

ما أندر الذين اهتدوا إثْر شهودهم معجزة أتى بها نبي أو رسول. و ما أكثر الذين استُدْرِجوا و يُسْتَدْرَجون بالخوارق إلى الضلال.



... ثم استمرت مراسم الاستقبال، و دُعِيَت ملكة سبأ للدخول إلى الصرح

﴿قِيلَ لَهَا

ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ

فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً

وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ

قَالَ

إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ ...﴿٤٤﴾﴾!

يا لَلْعار!

سليلة الملوك، الملكة التي يقول لها قومها: ﴿...نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾، و التي ﴿...وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ...﴿٢٣﴾﴾ من أفخر نفائس الدنيا، و التي لم يُعرف لها هفوة و لا زلة قدم، و التي لم يرفّ لها جفن عند رؤيتها عرشها. ها هي، الحريصة على الظهور بأبهى مظهر، تتصرف كبلهاء لم ترَ من الدنيا شيئاً! و ذلك أمام أعيان قومها و أعيان قوم مستضيفها، و أمامه هو بالذات، ليته لم يلحظ، لتسمع منه، هو، ما برودُه يكتسح ﴿...كَأَنَّهُۥ هُوَ...﴿٤٢﴾﴾: ﴿...إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ...﴿٤٤﴾﴾.

و قد انْسَفَحَ كبرياؤها على الصرح عند الأقدام، فقد تحررت بصيرتها عن حجبه و ظلماته.

مما سمح، عندئذٍ، لسرعة بديهتها و حكمتها و ذكائها الاستثنائي فهْمَ الإشارة:

«كيف لي ادِّعاء التمييز بين الحق و الباطل في ديني و سجودي للشمس، و لم أُميِّز بين ما حسِبتُه لجةً و ما هو بلَّور!

و قد خُدِعَ بصري، فكيف لا أكون مخدوعة في بصيرتي؟!

... أيُّ ضلالٍ كنت فيه! ﴿...رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي...﴿٤٤﴾﴾!».

﴿...رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فصارت تسجد لله رب العالمين وحده، لتكون من الساجدين ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٢-٤٣].



جليٌّ في الشواهد الثلاثة التي تشرفنا بالوقوف عندها، أن بيت القصيد منها متعلق بأمور أساسية و بالغة الأهمية في **الخلافة و الرئاسة و الحكم، و على المستوى الأقصى و الأعلى لها عالمياً.**

إن أدنى خطأ، في تلك المستويات، و حتى أي نقصٍ في المؤهلات، وخيمٌ في عواقبه، على الألوف المؤلَّفة من الضحايا و على مدى قرون!

فالذي هو في موقع تلك المسؤوليات العُليا و في مواقف دقيقة و حساسة و أمام قرارات مصيرية، ما أحوجه إلى نور و مدد الصلة بالله.

فلا مجال له للانقطاع عنه سبحانه، و الوقوع، مثلاً، في استدراجِ فَخِّ حب الخير و مهالكه، كما في حادثة الجياد.

فالذي يصير في موقع المسؤوليات العُليا، يبقى نفساً بشريةً مطبوعةً بطفولتها الأولى و مراهقتها و شبابها.

نفساً لا مجال لتركها في ذلك الموقع، و ما فيه من سُلُطات و إمكانيات هائلة، على علّاتها. فتستأثر تلك الإمكانيات عليها، صارفةً إياها عن خطورة المهام المُوْكَلة إليه.

بل، لا بد من تحضيرها و تدريبها على الانفكاك عن جاذب تلك الإمكانيات، و ذلك بإنكار الذات للتحرر من محدودية مرجعيتها، و بتحويل النفس بالكلّية من مجرد الطاعة إلى الانسجام التام مع أوامر خالق الكون و نواميسه. و ذلك كله، بهدف حسن أداء المهام.

ولا بد لنور و مدد تلك الصلة بالله، لدوام الحياد و التريث لعدم البت بالحكم قبل استكمال المعلومات اللازمة، كما في حادثة نِعاج سيدنا داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فالذي يصير في موقع المسؤوليات العُليا، يجد نفسه قطباً يهرع إليه أولو الشأن في كل لحظة و حين، بتضارب وجهاتهم لحلّ خلافاتهم. فلا بد له من تجردٍ و حيادٍ و تريثٍ و ضبطٍ للنفس، و خاصةً مراقبة لله.

إن كان سيدنا داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، و هو قدوةٌ، قد اضطرب أيّما اضطراب من أجل الحكم في نعجةٍ، و هو ليس بشيخ عشيرة صغيرة يحكم بين الرعيان، بل ملكٌ استثنائي و ﴿...خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ...﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٣٨/٢٦]. فكيف إذاً الاضطراب عند وعي هول السلسلة الهندسية لمنعكسات سوء الحكم في الزمان و المكان؟

ولا بد لنور و مدد تلك الصلة بالله، لدوام وعي الهيمنة الإلهية المطلقة في كل ما يتعلق بالملك و المناصب كما في حادثة الجسد على الكرسي. و لدوام تذكُّر و وعي حقيقة ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦].

هذه الآية ليست مجرد مقولة «دينية وعظية»، بل **قانون إلهي ذهبيّ يعبِّر عن حقيقةٍ تهيمن على الواقع هيمنة مطلقة.**

إذ يكفي التفكير بالسر العجيب الذي يجعل فئات من البشر، تتدرج من العشرات لتصل إلى الألوف المؤلَّفة، تهاب رجلاً واحداً منهم (!) و تطيعه و تتحمل سلطته عليهم و مشقة تنفيذ أوامره!

ما أبعد سواد أهل زماننا، حتى «الفقهاء» أو المثقفين منهم، عن واقع خفايا و أسرار كواليس الحكم الفعلي، فأنّى لهم معرفة حقيقته؟!

فلا مجال لمن هم في المواقع الحساسة للمسؤوليات العليا، الوقوع في تلك الأخطاء الخطيرة التي أشار إليها سبحانه في كتابه. إذ إن أخطاءهم تنعكس على الألوف المؤلفة من الضحايا و على مدى قرون.

ولا بد لهم، كذلك، من إمكانياتٍ و مؤهلاتٍ استثنائية لمعرفة حقيقة الحكم الفعلي، و للقيام بمهامهم العظيمة.

و قد بيَّن لهم سبحانه السبيل إلى ذلك، كرماً منه، في كتابه.

و هنا تكمن تتمة البحث عن بيت قصيد الشواهد التي وقفنا عندها.

إن غاب ذلك عن السواد الأعظم للناس، فلأن ذلك ليس شأنهم. إذ إنهم، و بكل بساطة، أبعد ما يكونون في اهتماماتهم و مداركهم و مؤهلاتهم عن تلك المواقع الحساسة للمسؤوليات العليا.

أمّا المعنيّين بذلك، **ممن هو ميسَّر لِما خُلِق له**، فهم أَوْلى من يتدبر كتاب الله بحثاً عن بيت قصيد الشاهد القرآني المدروس، للنظر إليه كَكَمٍّ عظيم من معلوماتٍ استثنائية تستدعي تفكُّراً للتعرف تدريجياً على مغزاها و عبرها، **للارتقاء تمثُّلاً و تطبيقاً.**

الآيات الكريمة التي تشرفنا بالوقوف عندها، آياتٌ عن نبي حاكمٍ و قائدٍ للجيوش، أي سيدنا سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. و هذا حال والده سيدنا داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم يسبقه بذلك نبيّ آخر. و لم يخلفهما في ذلك نبي آخر، كنبي حاكمٍ و قائدٍ للجيوش، إلا خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فحريٌّ بنا إذاً، في تقدمنا بحثاً عن بيت القصيد، التشرُّف بتتبع هذين النبيين الكريمين عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم. كطالب الدراسات العليا الذي يتبع أستاذه من قاعة محاضرات إلى أخرى. إذ إنه سبحانه، و قد يسَّر القرآن للذكر، فقد جمع معلوماتٍ استثنائية تتعلق بالحكم الفعلي و على المستوى العالمي في الآيات التي ورد فيها ذكر هذين النبيين الكريمين.

هذا مما يقودنا، و نحن بصدد الإمكانيات و المؤهلات الضرورية للحكم و الخلافة، و بلفتة نبوية كريمة و شفافة إلى سورة النمل ثانيةً:

«عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ» [سنن الترمذي: ٢٦٠٩].

لقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، و كما وصفته السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا «خلقه القرآن» [مسند أحمد: ١١٥٠٢]. أي إنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان قلبه و عقله مجبولين به.

فما أعجب اختياره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من بين المخلوقات كلها النملة و الحوت!

طالما أن الحديث الشريف عن فضل العلم، فإن الحوت يُذكِّر بالضرورة بحوت سيدينا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و الخضر من سورة الكهف.

أما النملة، فلم يرد ذكرها في القرآن الكريم إلا في قصة سيدنا سليمان من سورة النمل، و التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾، حيث نجد تماماً نفس عناصر الحديث الشريف: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»!

بذلك، فإنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يدعو، بلفتته الكريمة تلك، كلَّ من فَهِم إشارتَه إلى قصَّتي سيدينا موسى و الخضر من الكهف، و قصة سيدنا سليمان من النمل.

تتميز قصة سيدنا موسى و الخضر من الكهف بتواجدها تماماً عند منتصف كتلة النص القرآني الشريف. إذ يبدأ الجزء السادس عشر بقول الخضر لسيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

و تتميز قصة سيدنا سليمان من سورة النمل باحتوائها على البسملة الوحيدة في القرآن الكريم الواردة في نص السورة لا أولها.

إنْ اعتبرنا، بناءً على ما ذكَّرنا به، سورة الكهف محوراً:

فإن سورة الإسراء قبلها تقابل سورة مريم بعدها.

و سورة النحل تقابل على ذلك المحور سورة طه.

و سورة الحجر تقابل سورة الأنبياء.

و سورة إبراهيم تقابل سورة الحج.

و سورة الرعد تقابل سورة المؤمنون.

و سورة يوسف تقابل سورة النور.

و سورة هود تقابل سورة الفرقان.

و سورة يونس تقابل سورة الشعراء.

و سورة التوبة تقابل سورة النمل.

تتميز سورة التوبة بأنها السورة الوحيدة التي لا بسملة أولها.

بذلك، فإن تقابلها مع سورة النمل و بسملتها الوحيدة الواردة في نص سورة لا أولها، تقابُل عجيب في توازنه و تكامله و ترتيبه، و بالضرورة ذي مدلول عظيم:

إذ إن سورة التوبة، و هي السورة قبل الأخيرة في التنزيل، و ما فيها من أوامر خطيرة، تتطلب، للامتثال لها، هيكلية هرمية محكمة، على رأسها من يتمتع بإمكانياتٍ و مؤهلاتٍ استثنائية.

و قد جعل سبحانه، فضلاً منه، السبيل إلى تلك الإمكانيات و المؤهلات **من خلال** قصة سيدنا سليمان من سورة النمل. و ذلك، حصراً، لمن هو ميسر للارتقاء إلى علومها و فهم رسالتها.

لقد بدأ سبحانه تلك القصة بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ...﴿١٥﴾ ﴾، كي لا يغيب عن المتدبر ما ورد عنهما عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ في سورتي الأنبياء و ص.

و بكلمة «**عِلْمًا**» بيَّن سبحانه الوجهة و المقصد.

و فتح سبحانه، كرماً منه، كل الأبواب لمن هم ميسَّرون للارتقاء إلى ذلك المقام الجليل، ممن تخلصوا من أغلال و حجب الإسقاطات البشرية و المواقف المسبقة و الآراء الجاهزة، و من موانع كل ما لا يليق بذاك المقام. و ممن هم على معرفةٍ عميقة بالواقع العالمي، لما هم مقبلون عليه، مما هو خافٍ عن العامة، ليحسنوا تدبر الآيات التي فيها ما يحتاجونه في مهامهم. إذ إنهم سوف يواجهون بالضرورة أئمةَ مُحترفي التكتُّم والكذب والتضليل ممن قال عنهم سبحانه: ﴿...وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢/ ١٤] و﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ...﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢].

فلا بد لهم من الأخذ بعين الاعتبار فاتحة السورة ﴿طس ...(١)﴾. تلك الأحرف التي لا يمكن أن ينفتح بابها إلا بالنظر إليها مع مثيلاتها من الأحرف المقطَّعة فواتح السور. و التي هي ضماناتٌ إلهية تؤيّد فهْمَ من فَهِموا إشاراتها، ليتابعوا بإذن الله و نوره بفتح مكنون الآيات، و قد ميَّزوا بين ما أودعه سبحانه من أسرارٍ في قراءة ما نزَّل على خاتم النبيين، و من أسرارٍ في كيفية كتابته ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١)﴾.

تستوقفهم ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ ...(٢)﴾ النمل، يتدبرونها بعلم، فيرون بنور الله ما تفتحه من هدايةٍ و ما فيها من بشرى. و يزيد وعيَهم لعلو مقام ما هم مقبلون عليه تذكرةُ ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)﴾ [النمل: ٢٧/ ٦].

و يستوقفهم من شاهد سيدنا موسى أكثرُ ما يميزه عن غيره في القرآن الكريم حيث ذُكِرت نفس الحادثة ﴿...بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)﴾ [النمل: ٢٧/ ٨-٩]. فيتذكرون قوله تعالى من آل عمران: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ...(٣٩)﴾.

ثم، وقد وصلوا إلى سيدينا داوود و سليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فإنهم لا يُسقِطون سذاجة الفهم متسرعين على قول سيدنا سليمان: ﴿...عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ...(١٦)﴾ [النمل: ٢٧/ ١٦]، بل يتريَّثون أدباً و حياداً و افتقاراً.

فلا يجدون أنفسهم إلا و يقرؤون منطق الطير ذلك، بجلاءٍ تام، في إحدى أعظم آيات القرآن الكريم ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٦]. و التي تطابق الخصائصُ التي أودعها سبحانه في كتابتها خصائصَ ﴿...عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ...(١٦)﴾ و خصائصَ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ...(٧)﴾ [غافر: ٤٠/ ٧] و خصائصَ ﴿ ...أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ...(٣٣)﴾ [البقرة: ٢/ ٣٣].

فيفهمون و يستبشرون بقوله تعالى من آخر التوبة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

و قد فُتِحت لهم الأبواب بفضلٍ من الله، فما عليهم، و بنورٍ من الله، إلا تدبُّر آيات القرآن و كتاب مبين، من خلال كل ما عَلِموه من شبكة الكلمات و المواضيع و الأحرف و الأعداد، ليفهموا العلم الذي علمه سبحانه لآدم، و ليفهموا سجود الملائكة لآدم، و ليفهموا الإمكانيات الاستثنائية التي جعلها سبحانه في كتابه لمن يحسن تدبره ليصل إلى بيت قصيده، فيصير ممن عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ و ليشهد: ﴿...هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠].



أسوار القرآن الكريم
أو
قواعد أساسية
في
حسن تدبر القرآن الكريم

﴿... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٢٤/ ٤٠]

لمعاني القرآن الكريم أسوار منيعة، لا يستطيع خرقها من ﴿..جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ....﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٧].

لكل سور باب يدخل منه الداخل إلى رحاب القرآن و آياته، و يتوغل فيجد سوراً آخرَ له باب ينفتح على مقامات أعلى، بعده سور و باب إلى أعلى وأعلى، و سور و باب إلى ما شاء الله.

لا مجال للارتقاء في فهم القرآن من غير فتح هذه الأبواب.

١ – أول تلك الأسوار هو السور الأدنى، مفتاح بابه **مفتاح الأدوات**:

هذه الأدوات هي:

– تدبر اللغة العربية من خلال نحوها و صرفها و معرفة معانيها و مصطلحاتها.

– تدبر التفاسير لِما ورد فيها من أحاديث المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأسباب النزول و اجتهاد المفسرين.

٢ – سور الاكتفاء: مفتاحه **مفتاح الشوق و الافتقار** .

٣ – سور الاعتياد و تلبد الحس: مفتاح بابه **مفتاح النباهة و الدهشة:**

و ذلك بتنمية أحاسيس وردود فعل تناسب الكلمات مثلاً كلمة شاء كلمة قوية جداً يجب أن يكون لها وقع رهبة وإجلال وخوف وخشية هل أشاء؟ لا. المشيئة لله، وأدلة على ذلك كثيرة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣٠]. إذاً هذه الكلمة يجب أن تكون مصحوبة بإحساس يكاد يكون عنيفاً بالقدرة والإرادة الإلهية. وبالتالي يجب أن يتفاعل الوجدان والنفس والعقل مع الكلمة تفاعلاً مناسباً ولائقاً.

٤ – سور وحدة القرآن: مفتاح بابه مفتاح النظرة الشاملة:

و هو الأخذ بكامل النص القرآني الشريف لتناول أية كلمة أو موضوع فيه.

مثال: نهاية هود و بداية يوسف، نهاية الإسراء و بداية الكهف و من ثمّ مريم، ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٩].

٥ – سور المفاهيم: مفتاحه **مفتاح تطوير المفاهيم.**

و هو تطوير مفاهيمنا عن الكلمات الواردة في كتاب الله و ذلك من خلال:

– التخلّص من التأثيرات الثقافية. (مثال: الأرض).

– الانتقال من المفهوم الخام الشخصي أو الشائع إلى دقة و نقاء و رقيّ المفهوم القرآني. (مثال: الإنسان، الروح).

٦ – سور المقصد: مفتاحه **مفتاح معرفة بيت القصيد:**

(مثال : النذر في بداية يس)

٧ ـ سور المستوى: مفتاحه **مفتاح المستوى** الأقصى:

و هو رفع مستوى فهم موضوع مطروح في النص الشريف من مستوى الفهم البسيط الفردي إلى المستوى القيادي أو العالمي أو الكوني.

(مثال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٦/ ١٤]).

٨. سور المسؤولية: مفتاح بابه أن يعتبر القارئ نفسه معنياً بما يقرأ.

٩- سور تمثّل كلام الله: مفتاحه **مفتاح الاعتبار**:

إن لم يلتفت القارئ إلى العبرة مما يقرأ، غاب عنه المعنى و لم يفهم المقصد.

مثال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٦].

لا يحظى بمفتاح الاعتبار إلا من فتح له سور المسؤولية.

ولا يفتح سور المسؤولية أصلاً، إلا لمن تخلى عن آفة الاكتفاء و ذاب قلبه حياءً أمام تواضع سيد المرسلين و صحابته الأبرار.

١٠ – سور الأسرار: مفتاحه **مفتاح الحرف و الرقم**.

١١ – سور عظمة القرآن: مفتاحه **مفتاح الأسماء الحسنى**.

سباق مع الزمن و حالة طوارئ

بعثة محمد ﷺ أمر مرسوم منذ الأزل ليكون خاتم النبيين. فقد قال:

«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى». [صحيح مسلم: ١٤٣٥].

عندما نبأ سبحانه أن محمداً خاتم النبيين، و عندما ذكَّر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من حوله مراراً بذلك، و عندما كان ذلك أمراً مفروغاً منه بالنسبة لهم، لم يكن ثمة ما يشير محلياً أو عالمياً إلى ذلك. بل، كان العالم على حاله من تقلُّبات و إيقاعات منذ قرون.

إن تتبَّع أي باحث متمكن من التاريخ أحوال الأمم قبل بعثة النبي و بعدها، فإنه سوف يصل إلى نتائج يقينية:

ـ فقبل البعثة: لم يطرأ على أحوال البشر و الأمم و الحضارات، طوال ألوف مديدة، تغيير في إيقاعها. و ذلك بين نشأة أمة أو حضارة، و تطورها، و ازدهارها، و اتساعها، ثم انهيارها. أو المنحى نفسه في حضارة واحدة، من خلال السلالات الحاكمة، بين ازدهار و انحدار. و ذلك كله ضمن رقعة تتسع لتضيق ثانية و لتعود منكمشة إلى مركز نشأتها.

ـ أما بعد بعثة خاتم النبيين، فقد بدأ كل شيء يتغيَّر بتسارع شديد.

و ذلك ابتداءً من انتشار عجائبي في سرعته لرقعة النفوذ الإسلامي، في عقود قليلة. نفوذ لم يكن اجتياحاً عابراً، بل حضارة متألقة قائمة على نهضة فكرية و علمية استثنائية. ما يبرز تلك النهضة العلمية خاصةً، هو قرون الجمود العلمي العالمي و الذي سبقها.

بانتشار الإسلام، و بالقفزة العلمية النوعية الشاهقة التي صاحبته، بدأ عصر جديد في تاريخ البشرية لا سابق ولا شبيه له.

فقد كان للعلوم الإسلامية دور أساسي في تطوير الملاحة بحيث ارتبطت القارات ببعضها و انفتح العالم كله على بعضه و بشكل متسارع لا عودة له إلى حال الدنيا قبل البعثة.

ألا يكفي ذلك دليلاً للمتفكر على حقيقة القرآن و الإسلام و خاتم النبيين؟

في رحاب القرآن الكريم



أسماء الله

القرآن الكريم كلام الله بحرفيته و بقدسيته و بكماله، فلا زيادة فيه و لا نقصان. و كل ما ورد فيه من التنزيل بنفس العظمة و القدسية، من أول كلمة منه إلى آخر كلمة.

فما أعجب عدم الاهتمام بأول كلمة من **كلام الله** في كتابه المنزَّل.

بُعْدُ اهتمامات البشر، مهما كانت جدية و مشروعة، عن التجليات العليا للحقيقة، يجعلهم لا يعون مدى أهمية و عظمة **اسم** الله.

فَهُمْ، و نفوسُهم و عقولُهم لا تزال غارقة في خضم اهتماماتهم تلك، إن سمعوا أو قرؤوا القرآن، يكاد لا يتحرك فيهم ساكن أمام عظمة عبارة **اسم** الله.

لو أنهم، و بخطوة منهجية محكمة، تساءلوا: «ماذا لو حُذِفت عبارة **اسم** من قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، أوائل السور؟». لأدركوا، بَعد التجرُّد و التفكير العميق، أهمية و آفاق عبارة **اسم**.

لا بد إذاً، لمنهجية في تناول القرآن الكريم لتكون صحيحة، أن تبتدئ من حيث **ابتدأ** الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، أي الابتداء بمفتاح أول التنزيل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ و بمفتاح أول الترتيب أي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، أي بالاسم، لتنفتح أبواب القرآن!

كيف للمرء أن يدعي الخوض في علوم القرآن، إن لم يتدارك جهله للحد الأدنى الواجب عن أول أسماء الله، اسمه تعالى الرحمن؟ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ .

العلم المُدوَّن و علم الصدور

ما يُوضَعُ باحترام فائق على رفٍّ من رفوف مكتبة هو المصحف الشريف، و ليس القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم، كما سبق و بيَّنّا، لا مادي، و هو مجال روحي. فهو، إذاً، انفتاح على الذي أنزله سبحانه، و الذي هو أصل الروح.

لذا فلا ينبغي التعامل معه، كتعاملنا مع غيره مما هو مُدوَّن.

العلم المُدوَّن هو العلم الشائع في زماننا.

لعل خير ما يبين ذلك، الكتب التي يقتنيها الناس لتَلحق بمثيلاتها على رفوف مكتباتهم الورقية أو الإلكترونية. كتب تنتظر أن تُقْرأ، و كتب لم يُقرأ منها إلا صفحات. كتب لا يبقى منها حاضراً في ذهن و وجدان مالكها إلا عناوينها أو شذرات منها.

العلم المُدوَّن خير ما تمثله هي المكتبات الكبرى برفوفها المكتظة، و الألوف المؤلفة من المنشورات المفصَّلة التي تتناول جميع جوانب المعرفة، و كذلك فيض المنشورات الإلكترونيّة.

إحدى الإشكالات الأساسية للعلم المُدوَّن هي **غياب الرؤية الكلية** فيه، و ذلك لغوصه و تشتُّته في فيض من التفاصيل.

العلم المُدوَّن علم غائب، إذ يحتاج المرء العودة إليه و البحث عنه.

كم منّا حار أين قرأ معلومةً هيهات يذكرها، و أين يجد الكتاب أو المقال الذي يحويها؟

العلم المُدوَّن بحقيقته علم ميت، إذ يبقى جامداً حيث هو.

حقيقة العلم المُدوَّن أظهرها سبحانه بقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٥].

العلم المُدوَّن علم ميت، طالما أنه لم يتحول إلى علم الصدور، و ذلك بأن يتمثَّله المرء، فيصير بينه و بين ذلك العلم تلازم وانسجام.

علم الصدور هو المعوَّل عليه، إذ إنه يعبر عن حقيقة صاحبه.

إن كان علم الصدور صحيحاً و حقيقياً فإنه العلم الحي، لأنه يحيي صاحبه و ينقله من الظلمات إلى النور. تأمل في قوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٩].

* * *

الاختزال المعجز و مفاتيح الذاكرة

السمة الأساسية لعلم الصدور، هي دوام حضوره في عقل و وجدان صاحبه.

لا بد لذاك الحضور من الملازمة، ليكون علم الصدور أساساً في التفكير و منهجاً في العمل.

مفاتيح للذاكرة

ذاك الحضور الدائم لعلم الصدور يستوجب سمة عملية للاستغناء عن المُدوَّنات، ألا و هي الاختزال الشديد: كلمة منه تكفي لاسترجاع مسلكي و منظم و تدريجيّ لبحر من المعلومات.

أليس القرآن الكريم خير مثال على ذلك؟ أليس كلام الذي أوتيَ جوامع الكَلِم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير مثال على ذلك؟ تأمل في تلك القاعدة التشريعية الكلية من كلامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كمثال من بين ما لا يحصى من أمثلة : «لا ضَرَرَ وَ لَا ضِرَارَ» [سنن ابن ماجه: ٢٣٣٢].

خير مثال على علمِ صدورٍ حي و صحيح و حقيقي و شديد الاختزال: أسماؤه الحسنى سبحانه.

فهي تختزل الرسالات الأساسية لمعظم الآيات القرآنية. فما أكثر المقاطع أو المواضيع القرآنية التي تنتهي بما ينقص أو يزيد عن اسمين شريفين، كتلخيص لحقيقةِ ما يسبقها.

أسماؤه تعالى ذروة العلم الحي، الذي يشمل ما يسمّى «العقيدة» بجميع جوانبها، مختزلاً بحورها بكلمات، إذ إن أسماءه جواب على أي سؤال يخطر على بال أيٍّ كان عنه سبحانه.

الأسماء الحسنى بمثابة مفاتيح للذاكرة. بحيث أن مجرد ذكر اسم من تلك الأسماء يفتح الذاكرة، دفعة واحدة، على مسيرة سنين من تدبر الآيات و المواضيع و المفاهيم المرتبطة بذلك الاسم.

و قد ارتبط أي اسم من الأسماء الحسنى بمسيرة السنين تلك و حيث وصلت، فإنه يُحوِّلها إلى مجالٍ شديد التركيز و التألق، يتحرك فيه الفكر بسرعةٍ و وعيٍ استثنائيين، ليتقدم و يسمو أكثر و أكثر ضمن ميِّزة الرؤية الكلية و المتكاملة للموضوع بجوهره و أساسياته، و ضمن ميزة الرؤية المطلقة للموضوع من خلال التقاء المجالات الشديدة التركيز و التألق لباقي الأسماء.

يمكن إدراك ذلك من خلال التعمق في أي اسم من أسمائه سبحانه، مثل اسمه تعالى المصور جَلَّجَلَالُهُ، و الذي لا يلفت نظر معظم قارئي القرآن.

الصورة، بلغة القرآن، تعني الشكل ثلاثي الأبعاد. فالاسم الشريف يخبرنا أنه سبحانه هو الذي يُعْطي أي شيءٍ يخلقه شكله ثلاثي الأبعاد.

الذين قطعوا أشواطاً بعيدة في مجال التصميم، آخذين بعين الاعتبار البحث عن الخيار الأمثل للمواد المستخدمة، و كذلك التأدية المثلى لوظيفة الشكل، إضافةً إلى اعتبارات الجمال في الشكل و اللون، يصلون في سعيهم إلى معادلات هندسية و رقمية غاية في التعقيد.

و مهما بذلوا من جهودٍ فلن يصلوا إلى كمال و جمال معادلة الصورة المثلى، المعادلة المستحيلة، و التي لا يقدر عليها إلا المصور جَلَّجَلَالُهُ.

كلما توغل المرء في اعتبارات الشكل في الخلق، أدرك عظمة اسم المصور جَلَّجَلَالُهُ و أدرك عظمة الله تعالى. و كان هذا الاسم باباً يرى من خلاله أسماءً أخرى، مثل: العليم، الحكيم، القادر، البديع، الواحد، القهار. ليصل به الأمر إلى رؤية سائر الأسماء من خلاله.

كذا الحال، إن تعمق في أي اسم آخر، فيصير يرى كل الأسماء من خلاله.

و تصير كلها أساس تفكيره، فيرى كل شيء من خلالها.

إلى أن تكتمل الرؤية، و تجتمع بنهاية تلك المسيرة تحت مفهوم واحد شامل يعبر عنه لفظ الجلالة.

فأي اختزال يفتح أبواباً من الحقيقة و العظمة!

و أية مسافةٍ شاسعة بين عمق و حقيقة مفاهيم الذي سعى في تلك المسيرة، و بين الذي اكتفى بقناعاته و وقف عندها.

أنا عند ظن عبدي بي

لقد قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:

أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [رواه البخاري: ٦٨٥٦].

«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»، لتناول تلك المقولة الشريفة بشكل منهجي، لا بد من تحديد الكلمة المحورية التي تقوم عليها.

جليٌّ أنها كلمة «ظن».

و بخطوة منهجية ثانية، لحسن فهم المقولة الإلهية، لا بد من تصفية تلك الكلمة من مفاهيمنا و إسقاطاتنا، إذ إن تلك الكلمة من كلام الله في حديثٍ قدسي صحيح رواه الشيخان.

فلا سبيل إلى ذلك إلا بالعودة إلى القرآن الكريم، للنظر إلى كيفية ورودها.

فتطالعنا آياتٌ كثيرة وردت فيها تلك الكلمة، لعل أشهرها التي وردت في سورة ص بمعرض الكلام عن سيدنا داوود: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ

وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ

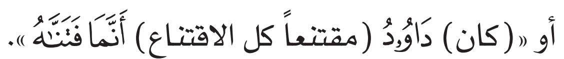
فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) ﴾ .

نستشف من خلال هذه الآية الكريمة بالذات، و من خلال باقي الآيات الكريمة حيث وردت كلمة «ظن»، أن المقصد منها في النص الشريف، مختلف عما هو شائع، حتى بين الفصحاء، أي الرأي الشخصي غير المؤكَّد و الذي فيه أخذٌ و ردّ.

و نستشف أن المقصد منها في النص الشريف، أقرب ما يكون إلى ما يُعَبَّر عنه بكلمة «اعتقاد». اعتقاد: أي ما وصلت إليه و رست عليه قناعات المرء.

بذلك يستوي معنى الآية الكريمة، و يصير إن ترجمناها بما هو شائع و معتمد من الكلام:

«(اعتقد) دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ».



أو «(كان) دَاوُدُ (مقتنعاً كل الاقتناع) أَنَّمَا فَتَنَّهُ».

كذلك الأمر بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٣]. يستوي معنى الآية الكريمة أخذاً بما بيَّناه، و يصير إن ترجمناها بما هو شائع و معتمد من الكلام:

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ فاعتقدوا وكانوا مقتنعين كل الاقتناع) ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾

أو ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٦]، والتي تصير:

«ٱلَّذِينَ (هم مقتنعون كل الاقتناع و يعتقدون) أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ». فيستوي المعنى تماماً.

أكثر ما يستوقف الانتباه في الأمر، من بعد التشرُّف بمراجعة كامل النص القرآني الشريف، هو أن كلمة «اعتقاد» أو «عقيدة»، أو سائر الكلمات بهذا **المعنى**، لم ترد في القرآن قط!

ما ورد فيه، مما هو مبنيٌّ على جذر «عقد»، لا يتجاوز سبعة الشواهد، و بمعنى الموثق كالتزام أو الوثاق كاللجم أو كالربط:

﴿... وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ... ﴿٢٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٥].

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ... ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ... ﴿١﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١].

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٣٣].

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ... ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٩].

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ٢٧].

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفلق: ١١٣/ ٤].

بذلك، فإن كلمات مثل «اعتقاد» أو «عقيدة» أو سائر الكلمات بهذا المعنى، بعيدة كل البعد عن روح لغة القرآن. بل، و الأكثر من ذلك، لا أصل لها فيه، لا من قريب و لا من بعيد، لعدم ورودها فيه!

و لذلك، فإن كتب «العقيدة» ثقيلةٌ على القلوب.

و قد تبين لنا أن المقصد من كلمة «ظن» في النص الشريف، أقرب ما يكون إلى ما يُعَبَّر عنه بكلمة «اعتقاد»: أي ما وصلت إليه و رست عليه قناعات المرء. فإن المقولة الإلهية: «أنا عند ظن عبدي بي» تصير بلغة الناس:

«**أنا عند** (اعتقاد و ما وصلت إليه و رست عليه قناعات) **عبدي بي**».

الكلمة المحورية الثانية في المقولة الإلهية «أنا عند ظن عبدي بي»، هي «عند».

بذلك، تصير المقولة الإلهية بلغة الناس:

«**أنا** (أقف حيث بلغ اعتقاد و ما وصلت إليه و رست عليه قناعات) **عبدي بي**».

أي بقدر صحة أو سوء «اعتقاد» و قناعات العبد بالله، يكون قربه أو بعده عنه سبحانه.

فإن كان ظن العبد بالله بعيداً عن الحقيقة، فما أبعد العبد عنه سبحانه!

فأي ظلمة و وحشة و حرمان !

ليكون ذلك الظن لائقاً و صحيحاً، فلا بد له أن يكون مبنياً على الحقيقة، و التي نجدها في كل ما يخبرنا به سبحانه عن نفسه في آيات كتابه، و خاصةً في أسمائه.

ما إن صار ذلك الظن لائقاً، و قد بُنِيَ على الحقيقة، فإنه لا يعود ظناً!

لأن الظن يبقى شخصياً مهما كان صحيحاً.

أما الحقيقة، فهي مطلقة. و اعتمادها يقتضي التبرُّؤ و التجرد عن كل ما هو شخصي.

ما إن صار ذلك الظن لائقاً و قد بُنِيَ على الحقيقة، فإنه لا يعود ظناً، بل يصير إيماناً، بالمعنى الصحيح و الحقيقي للكلمة.

بذلك، و قد أشارت المقولة الإلهية: «أنا عند ظن عبدي بي» إلى المسافة بين العبد و ربه، و كذلك و قد دعت في طياتها إلى التخلص من تلك المسافة باعتماد الحقيقة للتحول من الظن إلى الإيمان، حيث تزول المسافات، فإنه سبحانه يقول:

«و أنا معه إذا ذكرني».

و قد صار سبحانه **مع** عبده، فلا مسافات.



شرط أن يكون الذكر حقيقياً، أي:

- أن يكون قائماً على تلاشي أنا الذاكر أمام عظمة المذكور سبحانه.
- و يكون قائماً على وعيٍ تام لحقيقة الذكر الذي به يذكره.
- و كذلك، و أن يكون قائماً على انسجامٍ تام بين ذلك الوعي و بين عمل الذاكر و مواقفه من الآخرين و من الأحداث التي تواجهه.

فما أحوج المرء، في وعيه و وجدانه، إلى كل ما ينبغي عليه معرفته عن خالقه، من رحمة الرحمن إلى صبر الصبور جَلَّجَلَالُهُ، مرَكَّزاً متألقاً كاملاً جوهرياً و حاضراً.

ما أحوجه لذلك، ليفهم، و إلى حد بعيد، حكمة فعل خالقه الذي بيده ناصيته و ناصية الخلق كلهم. فيُحْسِنَ الموقف و العمل، قبل فوات الأوان بانتهاء فرصة الحياة الدنيا، التي ما هي إلا دار عبور و امتحان.

فهو بالنهاية، حتماً و يقيناً، مُلاق ربه و واقفٌ بين يديه في حساب دقيق. فيتبين له عندئذٍ أن ما ساء من مواقفه و عمله ما كان، بالنهاية و بالحقيقة، إلا لجهله أو غفلته أو وهن صلته بحقيقة أسماء الله.

فقد كان يخوض، مثلاً، في الأمور السياسية و القوى الداخلة فيها، و على ذلك يبني مواقفه و عمله، و هو ناسٍ و متجاهلٍ لهيمنة المهيمن جَلَّجَلَالُهُ على كل كبيرة و صغيرة. و قد كان يخوض في أمور الاقتصاد فيُخَمِّن و يتوقع و يتشاءم و يتفاءل و يخطط، و هو ناسٍ و متجاهلٍ لهيمنة الرزاق جَلَّجَلَالُهُ.

الأخطر من ذلك، موقفه من ربه و إلهه و خالقه، عندما يتبين له و هو واقفٌ بين يديه يوم القيامة، أنه ما قَدَرَهُ حق قَدْرِهِ.

و تنكشف له، عندئذ، كل نقائص و عيوب إيمانه.

فقد كان في دنياه، في وجدانه و مواقفه و عمله، ناسياً أو متجاهلاً أو مهملاً أو منكراً لاسم من الأسماء الحسنى من حيث يدري و من حيث لا يدري.

يستحيل الإيمان الحق مع تجاهل أو إنكار أي اسم من أسمائه سبحانه.

لذا، لا بد للعبد ليكتمل إيمانه أن يشهد حقاً، في خواطره و وجدانه و يشهد عليه عملُه، بأن الله هو الرحمن، و أنه الرحيم، و أنه الملك، و أنه القدوس، و كما أنه المعز فهو المذل ﴿... **وَتُعِزُّ مَن**

تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ...﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦]، و بقدر ما هو رحيم بقدر ما هو قهار... و إلا يحاسب على أي نقص أو فجوة أو عيب في إيمانه.

ولكن الفرصة لا تزال مفتوحة برحمةٍ تفوق التصور:

«أنا عند ظن عبدي بي،

و أنا معه إذا ذكرني،

فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي،

و إن ذكرني في ملإ ذكرته في ملأ خير منهم،

و إن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً،

و إن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعاً،

و إن أتاني يمشي أتيته هرولة.»!

أسماء الله أجوبة على كل الأسئلة المحتملة عن الذات الإلهية، أي ما هو أساسي في الإيمان.

بذاك الإيمان القائم على وعيٍ عالٍ للحقيقة، فإن أسماء الله هي مفاتيح القرآن.

فهي تجعل سره يسري في العقول و في النفوس، و بالواقع في كل شيء.

فكرة الأسماء الحسنى

إن نظرنا إلى المكلفين من الخلق، البشر مثلاً، من منظار المعتقدات و الأديان فسوف نجد أنهم ينقسمون بالنهاية إلى فئتين:

- فئة تؤمن بوجود عوالم و قوى لا مادية.
- و فئة تنكر ذلك.

هذا من حيث الظاهر و العموم.

أما إن تقصّينا الحد الأقصى في الفكرة السابقة، بحثاً عن الجوهر المطلق، فسوف نجد فئتين:

- فئة تؤمن بوجود إله.
- و فئة تنكر ذلك.

إن توخّينا حقيقة ما سبق فسوف نجد:

- فئة تتجه إلى الله فتؤمن به.
- و فئة مدبرة تتجه إلى غير الله تتجاهله أو تنكره و تكفر به أو تشرك به.

بالنهاية نجد :

- فئة تحسن الإيمان بالله.
- و فئة تسيء الظن به.

فما **أحسن** الأسماء **الحسنى** سبيلاً **لحسن** الإيمان بالله!

حول اختياره تعالى عبارة الحسنى لوصف أسمائه

لا يليق في هذا المقام، إلا القرآن الكريم، للتعرف على العبارة التي وصف بها سبحانه أسماءه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٢٦].

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ... ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١٨].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ... ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٨].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٣١].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٠].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤].

الحَسَن هو الذي لا عيب فيه، وكذلك أسماء الله **الحسنى**.



الحَسَن إضافةً إلى انعدام العيب فيه، يتميز بزيادة جودة الصفات. وكذلك أسماؤه **الحسنى**.

الإحسان و الحسنات عطاء **بأحسن** ما يكون العطاء ومن غير مقابل. لا نعلم أن محسناً حقيقياً ينتظر مقابلاً لإحسانه ممن يحسن إليه.

كذلك جَلَّجَلَالُهُ إذ **أحسن** إلينا ومنّ علينا بمعرفة أسمائه بلا مقابل، **ليَحْسُن** بذلك إيماننا **فيَحْسُن** بذلك ختامنا و مثوانا.

الإحسان من العباد تجاه الغني سبحانه و تعالى لا يمكن أن يكون إلا كما ورد في الحديث الشهير والمتفق عليه على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، عندما سأله سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من بعد الإسلام و الإيمان، عن **الإحسان**. فكان الجواب: «أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» [صحيح البخاري: ٤٤٠٤].

ولا يتمّ ذلك إلا بمعرفة الأسماء **الحسنى**، تكون حاضرة في وجداننا و أعيننا في كل حركاتنا و سكناتنا و كأننا نرى من تشير إليه.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

[يونس: ١٠/٢٦].

في هذه الآية الكريمة و مثيلاتها، المقصود بـ«ٱلْحُسْنَىٰ»: الجنة. كذلك الأمر بالنسبة لأسماء الله الحسنى. إذ وعدنا صادق الوعد «مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنَّةَ»، و ذلك **بحسن** الإيمان بالله تعالى من خلال معرفة أسمائه الحسنى، و **حسن** التخلق بها و السلوك بنورها.

لقد منَّ علينا جَلَّجَلَالُهُ مبشراً متفضلاً إذ قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ...﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/١٨٦]. و زاد من فضله علينا إذ بيّن لنا كيف نستجيب له و ندعوه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾، فاتحاً لنا أبواب سعادة: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾.

الأسماء الحسنى في الحديث الشريف

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

«إِنَّ لِلّٰهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إِلَّا وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» [صحيح البخاري: ٢٥٣١].

خلافاً للرواية الواردة كذلك عن أبي هريرة: «إِنَّ لِلّٰهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، و المتفق عليها، فإن رواية الترمذي، حيث تفصيل الأسماء التسعة والتسعين، موضع أخذ و ردّ و تضعيف.

إن كنا واقعيين، فإن الأخذ و الردّ المبالغ فيهما لتضعيف هذا الحديث القيم، ما هما إلا نتيجة موقف مسبق:

إذ ما أن يضطلع امرؤٌ على تلك الأسماء، خاصةً ممن يَعتدُّون برأيهم، إلا و تُشكِل عليه بعضاً منها، مثل المقدم و المؤخر جَلَّجَلَالُهُ، و حتى النور جَلَّجَلَالُهُ، و خاصةً الضار جَلَّجَلَالُهُ.

و قد أشكلت عليه، فإنه لا يتريث ليحاول بجهودٍ صادقةٍ و منهجية فهم تلك الأسماء. بل يجعل مبلغ علمه معياراً ليحكم عليها، بالتشكيك.

خاصة إن كان ممن يعتبر نفسه عالماً مُعَلِّماً، و يتحسب لوجوب شرح تلك الأسماء، و الجواب على أي سؤال عنها.

فبالتشكيك يتخلص مما يعجز عن فهمه و عن شرحه و الجواب عليه.

فتنصبُّ كل جهوده في ذاك الاتجاه، ابتداءً برجال الحديث لتضعيفه. و الأرضية في هذا الحديث، واسعداه، خصبة، فيصول و يجول، ليضعِّف أيّما تضعيف، فيُشكك أيما تشكيك.

ولكن ضعفاً في الرواة لا يعني بالضرورة مخالفة الحديث لكلام المصطفى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. كما أن الأحاديث التي لا غبار على رواتها، ليست بالضرورة مطابقة من أولها إلى آخرها لحرفية أو حتى فحوى كلام المصطفى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

بذلك، لا ينبغي تهميش و ترك حديث حُكِم عليه بالضعف لرواته، لا مخالفته لصريح الآيات أو ما ثبت من الوقائع. إذ، قد يحوي ذلك الحديث كنوزاً من السنة المشرفة.



لنكن واقعيين مرة ثانية، إن حفظ هذا الحديث بأسمائه التسعة والتسعين، من أول مرة، ليس بالأمر السهل. لذلك، وصلتنا روايته المختصرة عن عدة طرق بلا خلاف، و ذلك لسهولة حفظها: «إنَّ للّٰهِ تِسعة وتسعينَ اسْماً، مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنَّة».

و تستمر عملية التشكيك بهذا الحديث، من بعد تضعيف رواته، باعتراضات منها:

- أن عدداً من الأسماء القرآنية مثل: ﴿...ذِى ٱلطَّوۡلِ ...﴿٣﴾﴾ [غافر: ٤٠/٣]، لم ترد فيه. و كأن نص الحديث: «ليس للّٰه إلا تسعة و تسعين اسماً...»!

الحقيقة هي أن للّٰه أسماء كثيرة، هو أعلم بها، منها «...تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

- من أشد الاعتراضات هي أن اسم «رب» لم يرد في ذاك الحديث.

ولكن عبارة «رب» لا ينبغي أن ترد في هذا الحديث، و لا في أي إحصاء للأسماء الحسنى!

إذ ، إن قلنا: «رب» على الإطلاق، فأي رب؟ رب عمل؟ رب أسرة؟

لذا لم ترد عبارة «رب» في القرآن الكريم مشيرةً إليه سبحانه إلا و كانت مضافةً بضمير مثل: «ربِّ» أو «ربنا»، أو بكلمة مثل «العالمين»، أو محدَّدة بصفة مثل: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٣٦/٥٨].

و لذا، لا ينبغي أبداً الدعاء بصيغة مثل «يا رب». إذ، ثانيةً، أي رب؟ بل، ينبغي الدعاء بصيغة «ربِّ» أو «ربنا»، كدعاء الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ في القرآن الكريم.

- هذا إضافةً إلى اعتراضاتٍ على أسماءٍ وردت في هذا الحديث، أعجبُها الاعتراض على اسمه تعالى النور!

ولكن، و بشيء من الهدوء و التريُّث، نجد أن لا داعي لكل تلك الضوضاء و لكل ذلك الجدل. إذ نجد أن كل الأسماء الكريمة المذكورة في ذاك الحديث واردة في القرآن الكريم بصريح العبارة، أو أن لها أساسٌ جليٌّ لا يُناقش في صريح الآيات، ما عدا ثلاثة أسماء، لا أكثر. و لا غُبار على هذه الأسماء، فإنها لا تخالف ما يجوز في حقه سبحانه، و بناءً على القرآن الكريم، و إنما لم يرد لهم فيه دليل بصريح العبارة.



الرحمن ورد بصريح العبارة.

الرحيم ورد بصريح العبارة .

الملك ورد بصريح العبارة .

القدوس ورد بصريح العبارة .

السلم ورد بصريح العبارة .

المؤمن ورد بصريح العبارة.

المهيمن ورد بصريح العبارة .

العزيز ورد بصريح العبارة .

الجبار ورد بصريح العبارة .

المتكبر ورد بصريح العبارة .

الخلق ورد بصريح العبارة .

البارئ ورد بصريح العبارة .

المصور ورد بصريح العبارة .

الغفار ورد بصريح العبارة .

القهار ورد بصريح العبارة .

الوهاب ورد بصريح العبارة .

الرزاق ورد بصريح العبارة .

الفتاح ورد بصريح العبارة .

العليم ورد بصريح العبارة .

القابض لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الباسط لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الخافض لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الرافع ورد بصريح العبارة.

المعز لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

المذل لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

السميع ورد بصريح العبارة.



البصير ورد بصريح العبارة.

الحكم لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

العدل لم يرد بصريح العبارة ولا توجد آيات تدعم فكرته.

اللطيف ورد بصريح العبارة .

الخبير ورد بصريح العبارة .

الحليم ورد بصريح العبارة .

العظيم ورد بصريح العبارة .

الغفور ورد بصريح العبارة .

الشكور ورد بصريح العبارة .

العلي ورد بصريح العبارة .

الكبير ورد بصريح العبارة .

الحفيظ ورد بصريح العبارة .

المقيت ورد بصريح العبارة .

الحسيب ورد بصريح العبارة .

الجليل لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الكريم ورد بصريح العبارة .

الرقيب ورد بصريح العبارة .

المجيب ورد بصريح العبارة.

الوسع ورد بصريح العبارة.

الحكيم ورد بصريح العبارة.

الودود ورد بصريح العبارة.

المجيد ورد بصريح العبارة.

الباعث لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الشهيد ورد بصريح العبارة .

الحق ورد بصريح العبارة .

الوكيل ورد بصريح العبارة .

القوي ورد بصريح العبارة .

المتين	ورد بصريح العبارة .
الولي	ورد بصريح العبارة .
الحميد	ورد بصريح العبارة .
المحصي	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
المبدئ	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
المعيد	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
المحيي	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
المميت	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
الحي	ورد بصريح العبارة .
القيوم	ورد بصريح العبارة .
الواجد	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
الماجد	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
الوحد	ورد بصريح العبارة .
الأحد	ورد بصريح العبارة .
الصمد	ورد بصريح العبارة .
القادر	ورد بصريح العبارة .
المقتدر	ورد بصريح العبارة .
المقدِّم	لم يرد بصريح العبارة ولا توجد آيات تدعم فكرته.
المؤخِّر	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
الأول	ورد بصريح العبارة .
الآخر	ورد بصريح العبارة .
الظهر	ورد بصريح العبارة .
الباطن	ورد بصريح العبارة .
الوالي	لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.
المتعال	ورد بصريح العبارة .
البر	ورد بصريح العبارة .



التواب ورد بصريح العبارة .

المنتقم ورد بصريح العبارة .

العفو ورد بصريح العبارة .

الرؤوف ورد بصريح العبارة .

ملك الملك ورد بصريح العبارة .

ذو الجلال والإكرام ورد بصريح العبارة .

المقسط لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الجامع ورد بصريح العبارة .

الغني ورد بصريح العبارة .

المغني لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

المانع لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الضار لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

النافع لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

النور ورد بصريح العبارة .

الهادي ورد بصريح العبارة .

البديع ورد بصريح العبارة .

الباقي لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الوارث ورد بصريح العبارة.

الرشيد لم يرد بصريح العبارة و توجد آيات تدعم فكرته.

الصبور لم يرد بصريح العبارة ولا توجد آيات تدعم فكرته.

إذاً، لا وجود لما يقضّ المضاجع في ذلك الحديث. بل، إن ما رأيناه، يُطَمْئن القلوب و يشرح الصدور لتناول تلك الأسماء الكريمة.

ذلك الحديث نعمة، و تركه على أنه ضعيف خطأ و حرمان.

إذ إنه يتَّصف بميزة لا توجد في غيره، ألا و هي جمع تسعة و تسعين اسماً من أسماء الله دفعةً واحدةً. هذا مما يسمح بتناول صحيح لأي اسمٍ، لا يتم إلا ضمن إطار توازن و تكامل الأسماء مع



بعضها. فكما أنه سبحانه هو الوهاب، كذلك هو الرقيب. و كما أنه المنتقم فإنه العفو الغفور، و كما أنه القهار فإنه جَلَّجَلَالُهُ الرحيم.

ولا يقف الأمر عند التناول الصحيح لأي اسم، بل إن ذلك التوازن هو في غاية الأهمية لمن يتعمق روحياً في ذكر لله جَلَّجَلَالُهُ بأي اسم من أسمائه.

إضافةً إلى ذلك، و من بعد التجرد التام من المواقف المسبقة، و بتطبيق منهجية موضوعية و محكمة، يتبين لنا أن في جمع و ترتيب تلك الأسماء نور من نور النبوة.

إذ إن، و علاوة على ابتدائها، كما ينبغي، باسمه تعالى الرحمن، و علاوة على مواكبة تسلسل الأسماء الشريفة لتسلسلها في سورة الحشر و في سورة الحديد، فإن تتابع الأسماء وجيه و في غاية الحسن.

الرحمن	١	٩٩	الصبور
الرحيم	٢	٩٨	الرشيد
الملك	٣	٩٧	الورث
القدوس	٤	٩٦	الباقي
السلم	٥	٩٥	البديع
المؤمن	٦	٩٤	الهادي
المهيمن	٧	٩٣	النور
العزيز	٨	٩٢	النافع
الجبار	٩	٩١	الضار
المتكبر	١٠	٩٠	المانع
الخلق	١١	٨٩	المغني
البارئ	١٢	٨٨	الغني
المصور	١٣	٨٧	الجامع
الغفار	١٤	٨٦	المقسط
القهار	١٥	٨٥	ذو الجلال والإكرام
الوهاب	١٦	٨٤	ملك الملك
الرزاق	١٧	٨٣	الرؤوف
الفتاح	١٨	٨٢	العفو
العليم	١٩	٨١	المنتقم
القابض	٢٠	٨٠	التواب
الباسط	٢١	٧٩	البر
الخافض	٢٢	٧٨	المتعال
الرافع	٢٣	٧٧	الوالي
المعز	٢٤	٧٦	الباطن
المذل	٢٥	٧٥	الظاهر
السميع	٢٦	٧٤	الآخر

البصير	٢٧	٧٣	الأول
الحكم	٢٨	٧٢	المؤخر
العدل	٢٩	٧١	المقدم
اللطيف	٣٠	٧٠	المقتدر
الخبير	٣١	٦٩	القادر
الحليم	٣٢	٦٨	الصمد
العظيم	٣٣	٦٧	الأحد
الغفور	٣٤	٦٦	الوحد
الشكور	٣٥	٦٥	الماجد
العلي	٣٦	٦٤	الوجد
الكبير	٣٧	٦٣	القيوم
الحفيظ	٣٨	٦٢	الحي
المقيت	٣٩	٦١	المميت
الحسيب	٤٠	٦٠	المحيي
الجليل	٤١	٥٩	المعيد
الكريم	٤٢	٥٨	المبدئ
الرقيب	٤٣	٥٧	المحصي
المجيب	٤٤	٥٦	الحميد
الوسع	٤٥	٥٥	الولي
الحكيم	٤٦	٥٤	المتين
الودود	٤٧	٥٣	القوي
المجيد	٤٨	٥٢	الوكيل
الباعث	٤٩	٥١	الحق

٥٠


الشهيد

الخوض في أسماء الله الحسنى أول تدبر القرآن الكريم ضرورة. إذ، لا دخول في المجال الروحي للقرآن الكريم، إلا من حيث ابتدأ سبحانه الوحي و من حيث ابتدأ كتابه، أي باسمه.

بسم الله!

و من الله؟ سبحانه.

هو جَلَّجَلَالُهُ الرحمن، و هو الرحيم، و هو الملك، و هو الذي تُعَرِّف به أسماؤه و آيات كتابه الكريم.

ثالث كلمة من كلمات الله في كتابه المنزل، هي اسمه جَلَّجَلَالُهُ الرحمن.

يتميز هذا الاسم الشريف عن سائر الأسماء الحسنى بوزنه. فهو، وكما بيَّنّاه في النص المخصص له، يستوجب لوَعْيِه وعياً تاماً و استحضاراً لباقي الأسماء الشريفة.

إن سألنا أعلم المسلمين بالقرآن الكريم عن أعظم آية فيه، فهل يستطيع أن يدعي أنه أعلم من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي صرَّح أنها آية الكرسي؟

أعظم آية في القرآن الكريم آيةٌ **تبدأ باسمه** جَلَّجَلَالُهُ، و ما يليه منها تعريفٌ به.

أعظم آية في القرآن الكريم هي كذلك آيةٌ لا تخرج عن فكرة **اسم الله**، إذ فيها **اسم الله** الأعظم كما أخبرنا خاتم النبيين عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

عندما يرد اسم من الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، فإن ذاك الاسم هو الأصل الذي يدور حوله معنى الآيات التي تحويه. و هو كذلك بيت القصيد من الشاهد الذي يرد فيه.

ذاك الاسم تتويج للآيات الكريمة التي تحيط به، و التي ما هي في حقيقتها إلا توضيح له. ما أجهل و أخسر الذي لا يقف عند الاسم في التفسير و يعتبره تذييلاً للآية و ما أشنع قوله.

هل نستطيع إذاً الخوض في القرآن، جاهلين أو متجاهلين أهمية و أولوية فهم **أسمائه** سبحانه لفهم آياته و رسالته؟

القرآن عالم شاسع، أبواب كنوز عظمته مفاتيحها من نور أسماء الله.

من عرف الأخذ بها و سار بنورها دخل. ومن استهان بها بقي على أطراف أسوارها مع الغثاء.



الاسم

يدل الاسم على المسمى.

إن كان الاسم محكماً فهو يَدُل على حقيقة المسمى.

طالما أنه محكم في علاقته بالمسمى، و طالما أنه يُظهِر حقيقة ذاك المسمى، فإنه من حقيقته.

و هكذا من خلال الاسم تسري حقيقة المسمى.

ألم يقل سبحانه: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم: ٥٣/ ٢٣]؟

المقصد من قوله تعالى: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ... ﴿٢٣﴾ ﴾ تبخيس تلك الأسماء، كما هو جليٌّ من قوله: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ ... ﴿٢٣﴾ ﴾.

الحجة الإلهية على ذلك هي قوله تعالى: ﴿ ... مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ... ﴿٢٣﴾ ﴾.

لا قيمة لتلك الأسماء التي سمُّوها هم و آباؤهم لأن ما بها من سلطان.

أي أن ثمة أسماء بها سلطان.

ولا يكون ذلك السلطان إلا بما أنزل أو أراد الله جَلَّجَلَالُهُ.

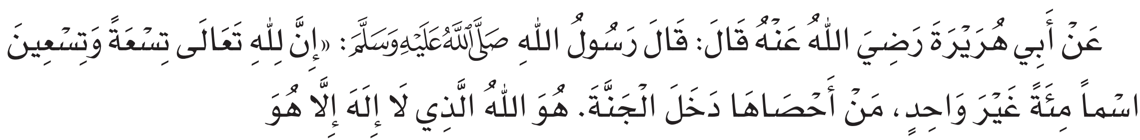
إحكام الاسم يكون في حروفه التي من خلالها يعبر الاسم عن حقيقة المسمى.

أسماء الأحرف أسماء محكمة و حقيقية لمسميات حقيقية أوجدها سبحانه. و شاء أن تسري إرادته بقَوله:

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا
أَن يَقُولَ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢].

القسم الثالث

أسماء الله الحسنى



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً غَيْرَ وَاحِدٍ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ. هُوَ اللّٰهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّؤُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ».

[سنن الترمذي: ٣٤٢٩]



اسمه تعالى الرحمن جَلَّجَلَالُهُ
(٠٠١)

أول ما ينبغي علينا القيام به، هو مراجعة الاسم الشريف في كتاب اللّه، إذ إنه سبحانه أدرى بمعنى كلمات كتابه و استخدامها.

حتى نرى كيف يستخدم سبحانه كلماته، علينا أن نتجاوز أنفسنا و آراءنا، ولا نحدّ الكلمة القرآنية بحدود فهمنا، بل نقوم بمراجعتها في القرآن الكريم بلا أيّة أفكار مسبقة و كأننا لا نعلم معناها البتة.

ستكون النتيجة عندئذ عملاً منهجياً، حيادياً، موضوعياً و رؤية أولية شاملة للموضوع ضمن إطاره.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

نجد أن اسمه الرحمن جَلَّجَلَالُهُ ورد في ٥٦ موضعاً في كتاب اللّه، منها ١٢ نجده متصلاً بحرف الباء أو اللام حصراً، بالإضافة إلى ١١٣ مرةً في بسملة الفاتحة و بسملة باقي السور.

لا بدّ لي من الإشارة إلى أن الصواب يقتضي اعتبار البسملة آية من الفاتحة و من باقي السور.

لعلّ أقوى الأدلّة على ذلك، شهود العيان من الصحابة رضوان اللّه عليهم. إذ كانوا يفهمون أن الوحي ينزل بسورة جديدة، عندما كان يبدأ ببسم اللّه الرحمن الرحيم. و كذلك فإنه لم يرد خبر في السنة المشرفة أن سيدنا جبريل استفتح الوحي بالبسملة لآيات من أواسط السور.

ثاني دليل، لعلّه بنفس القوة، هو **وجود البسملة عند أول جميع السور** في أي مصحف صحيح يستوفي شروط اعتباره قرآناً، **عدا سورة براءة.**

عدم وجود البسملة أول سورة براءة دليل على أن البسملات من أول باقي السور مقصودة في الوحي، لذا لا يمكن تجاهلها، بل يجب اعتبارها أول كل سورة.

والذي يؤكد الدليل السابق، أمر هو بحدّ ذاته من آيات الله و عجائبه في كتابه. إذ إننا إذا استثنينا البسملة، وجدنا أنه لم تبدأ أيّة سورة بحرف الباء، ما عدا السورة الوحيدة التي لم ترد البسملة في أولها: سورة براءة. مما يجعل السور كلها تبتدئ بحرف الباء، كون البسملة من أول كلّ سورة.

الألفة حجاب. ألفة الناس البسملة حجبتهم عن جليل قدر معانيها و علومها و أسرارها، **فالعادة غشاوة تحجب البصيرة.**

لم يرد في الحديث الشريف خبر عن نزول البسملة أول الوحي عندما قال سيدنا جبريل لخاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: [اقرأ...].

نستطيع إذاً أن نقول: إن أول نزول للبسملة كان في الفاتحة، وهي السورة الخامسة من التنزيل.

اللافت للنظر في كلّ ما نزل قبل الفاتحة من سور العلق، نون، المزمل، و المدثر، أنه لم يرد فيها أي اسم من الأسماء الحسنى التسعة و التسعين.

بذلك يكون اسم الرحمن أول الأسماء التسعة و التسعين بالتنزيل، يليه اسم الرحيم جَلَّجَلَالُهُ.

الجدير بالذكر كذلك، هو أن الاسم الشريف الذي استُفتح به التنزيل ﴿رَبُّ﴾ مضافاً أو موصوفاً هو الغالب على الأربع السور الأولى من التنزيل.

تأمَّل كيف أنه بعد أمر الله رسوله بالدعوة ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ المدثر، نزلت الفاتحة بالبسملة و باسمه الرحمن.

اللفتات السابقة أساسية، و من صلب عملنا للتعرّف على اسمه تعالى الرحمن. فهو أحد محاور البسملة، حيث نرى تلازمه مع اسمه تعالى الرحيم جَلَّجَلَالُهُ.

هذا يجعلنا نلاحظ أن اسمه الرحمن جَلَّجَلَالُهُ، لم يرد في القرآن متبوعاً بأيّ اسم من الأسماء الحسنى قط إلا باسمه الرحيم، خمساً عدا البسملة أول السور.

❊ ❊ ❊



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ الفاتحة.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٣].

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٠].

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠].

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: ١٩/ ١٨].،

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: ١٩/ ٢٦].،

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾ [مريم: ١٩/ ٤٤].،

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾ [مريم: ١٩/ ٤٥].،

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ١٩/ ٥٨].

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾ [مريم: ١٩/ ٦١].،

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩﴾ [مريم: ١٩/ ٦٩].،

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ [مريم: ١٩/ ٧٥].،

﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨﴾ [مريم: ١٩/ ٧٨].

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥﴾ [مريم: ١٩/ ٨٥].

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨﴾ [مريم: ١٩/ ٨٧-٨٨].

﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: ١٩/ ٩١-٩٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ١٩/ ٩٦].

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٢٠/ ٥].

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ٩٠].

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٩].

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٦].

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٦].

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٢].

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١١٢].

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٦].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٩-٦٠].

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣].

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٥].

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٠].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ١١].

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ١٥].

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٢٣].

﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٥٢].

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤].

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١٧].

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الزخرف: ٤٣/ ٢٠].

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٣].

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٦].

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٥].

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨١-٨٢].

﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٣].

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٤].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٢].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الملك: ٦٧/ ٣].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٩-٢٠].

﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٩].

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [النبأ: ٧٨/ ٣٧].

نقاطع بين الآيات الكريمة السابقة، فلا نجد ذاك الشيء العاطفي و الرقيق الذي يدور حول معاني الرحمة كما هو متعارف عليها و كما يتبادر إلى الأذهان. فالعباد تجاه الرحمن في خشية و خشوع و رهبة و خوف، و الأولى أن يكون اسمه تعالى الرحمن (و بحسب ما يتوقعه الناس) مرتبطاً بالاطمئنان و الرضا.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم: ١٩/ ٤٥].

﴿ .. إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴾ [مريم: ١٩/ ٥٨].

﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٨].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ٣٦/ ١١].

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٣٦/ ٢٣].

﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٣].

إن المعنى الموجود منذ قرون في أذهان المسلمين عموماً عن اسمه الرحمن جَلَّجَلَالُهُ، معنىً عفوي و سطحي غير دقيق لم يبذلوا أيّ جهدٍ لتدقيقه منذ أن تلقّوه، و كأنه بالنسبة لهم مجرد مرادف للرحيم.

هذا المعنى الشائع في أذهان الناس و الذي هو خلط بين معنى الرحيم و الرحمن، مخالف للمعنى الواضح في الآيات كلها، مثل قوله تعالى: ﴿...عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ.. ﴾، ﴿...إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ ... ﴾.

نلاحظ كذلك من استقراء الآيات السابقة، أن اسمه الرحمن من أكثر الأسماء هيبة و جلالاً و صُنواً للفظ الجلالة، إلى درجة أنه ينوب عنه أحياناً.

ففي سورة مريم حيث لم يرد أيّ اسم آخر من الأسماء الحسنى، استعاذت مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ بالرحمن.

ولا يخفى عليك أنه لم ترد في القرآن برمّته استعاذة باسم آخر من الأسماء الحسنى التسعة والتسعين. فالاستعاذة لا نجدها فيه إلا بالأسماء الثلاثة الأولى من أول التنزيل أي ربّ، اللّه، والرحمن جَلَّجَلَالُهُ.

لفظ الجلالة كان معلوماً عند العرب قبل ولادة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فهو ابن عبد اللّه بن عبد المطلب.

لم يوجِد العرب لفظ الجلالة، بل شاءه سبحانه لنفسه من الأزل، و عرّف به خلقاً من خلقه ليكون معلوماً وقت رسالة خاتم النبيين. فهو سبحانه لا يتفاعل مع الأحداث لأنه هو الذي أوجدها و شاءها في سابق علمه.

الأصل في أسمائه تعالى هو لفظ الجلالة. أما باقي الأسماء، فهي تابعة له و تعرِّف به.

إذاً، من جهة لفظ الجلالة كأصل، و من جهة أخرى بقية الأسماء، و منها التسعة و التسعين.

من خلال المنظار السابق، نجد أن اسم الرحمن يمثل **نَقلة** بين لفظ الجلالة و باقي الأسماء.

تتمثل هذه النقلة بخصائص يتصف بها اسم الرحمن:

- منها ما يتميّز به لفظ الجلالة،.
- و منها ما هو مشترك مع بقية الأسماء.

أولها: أن اسم الرحمن:

- من جهة مثل لفظ الجلالة خاص به سبحانه لا يطلق على سواه.
- و هو من جهة أخرى مثل باقي الأسماء ليس مجرداً كلفظ الجلالة.

لفظ الجلالة مجرد، إذ لا يدلّ جذره على معناه بوضوح، كما هو الحال في باقي الكلمات المشتقّة من جذر ثلاثي أو رباعي و المبنية على الأوزان المعلومة مثل: فاعل، فعول، و التي تكتب بحسب قواعد إملاء لا خلاف عليها.

إذا افترضنا أن لفظ الجلالة مبني على وزن ما، فكيف لنا أن نفسّر انعدام الألف و تكرار اللام في رسمه؟

و كذلك أستبعِدُ بالكلية أن يكون لفظ الجلالة مشتقاً من جذر «أَلَهَ» أو كلمة «إله». إذ لا يعقل أن يكون سبحانه و هو الأول، قد سمى نفسه بناءً على كلمة أوجدها البشر. ولا يعقل أن يسمي سبحانه نفسه باسم ابتدعه البشر الذين أنزل فيهم قوله: ﴿...أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٧١]. الحقيقة أن كلمة «إله» هي كذلك موحاة للبشر، وأصلها من لفظ الجلالة، ﴿... هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ .. ﴿٩﴾﴾ الزمر.

أما اسم الرحمن جَلَّجَلَالُهُ فهو كما ذكرنا ليس مجرداً، بل إنه يشبه الأسماء الباقية في خصائصها من حيث أنه:

مشتقّ من لفظ معلوم و مفهوم، و مبني من جذر على وزن من الأوزان المعلومة. و هو كباقي الأسماء الشريفة وصف و توضيح للفظ الجلالة.

ثانيها: أن لفظ الجلالة يعتبر بمصطلح النحويين اسم علم أي أنه معرفة بالعَلَمية. و كذلك فإن اسمه تعالى الرحمن معرّف على الدوام، فهو لم يرد في القرآن قط إلا معرّفاً بأداة التعريف.

ثالثها: كما أن لفظ الجلالة لا يتبع أو يلحق أي اسم من الأسماء التسعة و التسعين ليوضّحه، فكذلك اسمه الرحمن لا تجده أبداً لاحقاً لأيِّ اسم من الأسماء الحسنى ليوضّحها. يفهم من ذلك أن



الأسماء الحسنى تلحق لفظ الجلالة و اسمَه تعالى الرحمن لتوضح حقيقتهما.

و كذلك يفهم مما سبق أنه لا يمكن أن يكون الذاكر لله أو للرحمن واعياً تمام الوعي في ذكره إلا و هو مستحضر في عقيدته سائر الأسماء الحسنى، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿١١٠﴾﴾ الإسراء. يؤكد الفكرة السابقة تناول الاسم الشريف من خلال وزنه فعلان.

بذلك يكون اسم الرحمن نقلة بين لفظ الجلالة و ما فيه من تفرّد و تجرّد في المعنى، و بين بقية الأسماء.

المقصد من الأسطر السابقة تبيانٌ لما في اسم الرحمن من تميّزٍ يرسّخ ما فيه من معاني الهيبة و الجلال و التعظيم.

لكلٍّ منا أن يتذكر أنه من رحمته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وضعه بينه و بين خلقه حجاب، إذ لا طاقة لمخلوق على جلال الله و هيبته. فسيدنا جبريل عليه السلام، على علو مكانته و قربه، توقف عند حدّ في المعراج. و سيدنا موسى خرّ صعقاً لا من رؤية الله، ولكن من رؤية الجبل الذي تجلى سبحانه عليه. و الأمر كذلك و قد صُعق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من رؤية أثر جلال الله، فكيف لو رآه! هيبته و جلاله و جبروته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا طاقة لأحد عليها ..

ولكنه ﴿.. كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ... ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢] ، فقد شاء أن يكون ذلك الجلال والجبروت **أول** ما يتجلّى منهما اسم الرحمن لما فيه من معانٍ.

لذا فهو **أول** أسمائه الحسنى في تنزيل الوحي،

و هو **أول** اسم من الأسماء الحسنى يظهر في النص القرآني.

علاوة على ذلك، فقد اقترنت **أول** شهادة في القرآن به: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٣].

من يتفكّر بالله يدرك أن من مظاهر عظمته سيطرته على قدرته اللانهائية بالرحمة، شاء أن يكون هذا الجبروت و هذه القوة اللامتناهية تحفّهما الرحمة. و لمن نسي دليل سيطرته على نفسه، أن يتذكر ﴿.. وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨].

* * *

من بعد الخطوات الضرورية التي قمنا بها، فإن الأمر الذي يستدعي نفسه تلقائياً هو تدقيق معنى الرحمة.

معنى الرحمة قريب المنال ولا لَبْسَ فيه بالنسبة للناطقين بالعربية.
ولكن و طالما أن الأمر يتعلق بأحد أهم أسس القرآن و العقيدة، فلا بدّ من بذل جهد لتدقيق المعنى و الارتقاء في فهم المقصد الإلهي.
و بما أن الأمر يتعلق باسم من أسماء الله، فلن نجد مصدراً يليق بهذا المقام خيراً من كلام الله.

إن بحثنا فيه عن شواهد تساعدنا على تدقيق معنى الرحمة، فسوف تطالعنا شواهد كثيرة عن مظاهر الرحمة، لا عن عين المعنى، إلا شاهداً وحيداً يفيد في ذلك إنْ علمنا كيفية استقرائه.

تعريف الأمر بنفسه لا معنى له.
تعريف الأمر بشبيهه يبقى تقريبياً.
خير ما يُعَرَّف به الأمر هو مقابلته بنقيضه.
انظر في كلام الله في كتابه، و انظر كم من مرة و مرة عرَّف الأمر بنقيضه.
طالما أننا بصدد اسم الرحمن جَلَّجَلَالُهُ الذي يمكن اعتباره وصفاً، فإن ما نبحث عنه ينبغي ألا يكون شاهداً يتعلق بالرحمة بحدّ ذاتها، و إنما شاهداً عن الرحمة كوصف.
نجد الرحمة كوصف معرَّفة بأدقّ ما تعرَّف به، أي بمقابلتها بنقيضها، في قوله تعالى من سورة الفتح:
﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ ﴾.

الرحمة إذاً عكس الشدة

و بذلك نقول:
إن الرحمة من الله هي عدم التشديد و التدقيق على العبد بعقاب على ما يستحق بل أقل.
و عدم تحميله أقصى طاقته بل الأقل.
و عدم الحكم على العبد بما يستحق بل بخير مما يستحق.
و عموماً معاملة برقة، حنان، مسامحة و عفو.

***

طالما أننا في مقام التعرّف على الله من خلال اسم الرحمن، فلا بدّ إذاً من مراعاة عدم الوقوع في خطأ تناول مفهومَي الرحمة و الشدة من خلال المنظار البشري.

يكون ذلك بالانصراف بالكلية عن إسقاط تجارب و مكتسبات الناس على العلي الأعلى جَلَّجَلَالُهُ، و برفع المفهومين من محدودية الرؤية البشرية إلى الآفاق الشاسعة للكون و شمولية إرادة العلي العظيم جَلَّجَلَالُهُ.

الرحمة و الشدة منه ليست كرحمةٍ أو شدةٍ من مخلوق يقيناً. و السبب الأساسي في ذلك أنه سبحانه عليم علماً مطلقاً بكلّ شيء كان و يكون.

علمه سبحانه مختلف بالكلّية عن علم خلقه، إذ إن علمَهم ناقص محدود أما علمه سبحانه فكامل شامل.

علم الخلق **تدرج** من الجهل إلى شيء من العلم. أما علمه سبحانه فكامل أصلاً. علمهم **لاحق** للمعلوم أما علمه سبحانه **فسابق** للموجود.

فهو إذاً، عندما يخلق، أعلم **بطاقة و غاية** ما يخلق. فكلّ ما يُوجِدُ مُحْكَم لا نقص ولا إفراط ولا تفريط فيه ﴿... مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ ..﴿٣﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٣].

إن أراد سبحانه لمخلوق أمراً، فهو عليم حكيم قائم بالقسط أعلم بالمخلوق و استطاعته على تحقيق غاياته.

فالحق إذاً أن يطالب مخلوقه بطاقته القصوى ضمن ما هو مرسوم له. و ذلك كله بغض النظر عن رأي المخلوق، و خاصة إن فكرنا بالنسبة و التناسب بين الخالق و المخلوق.

إن شاء سبحانه لكوكب أن يسّبح في فلك بإيقاع محدد، فهل لهذا الكوكب إلا أن يقوم بما هو مرسوم له بلا زيادة ولا نقصان، لا يتأخر لحظة؟ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٖ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٥].

لمن يستغرب المثال أذَكّر إشفاق السموات و الأرض و الجبال من حمل الأمانة. إن شاء سبحانه لمخلوق أن يكون هو و نسله طعاماً لغيره فهل له إلا أن يكون ذلك؟ لمن يتردد أذكر بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ..﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨].

إن شاء أمراً سبحانه و هو أحكم الحاكمين، فهل لمخلوق كلام أو رأي أو عذر كي لا ينفذ المطلوب منه بالكامل؟

لِمَ يبقي أو يمهل الواحد القهار الذي ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ مخلوقاً يخالف إرادته؟ إلا رحمةً.



لقد أنطق سبحانه حملة العرش عليهم السلام، و منَّ على العالمين بمعرفة دعائهم في سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر: ٤٠/ ٧]. إنهم - عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ - بتسبيحهم بحمد ربهم و بإيمانهم به و بقربهم منه، مِن أعرف خلقه به. لذا، فلا تغيب عنهم حقيقة تلازم رحمته و علمه سبحانه.

***

مما سبق نستطيع التدرج بالاستيقاظ من الغفلة، و إدراك مدى رحمته سبحانه، بمسامحته عن تقصيرنا فيما هو بمقدورنا، و بتجاوزه عن أخطائنا، و بإعطائه إيانا الفرصة تلو الأخرى.

انظر في قوله تعالى من ختام سورة البقرة و كأنك تراه لأول مرة:.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ...٢٨٦﴾.

تأمل لِما في هذه المقولة الإلهية من صرامة و جدية في النبرة و المضمون، نبرة قانون إلهي قطعيّ في مواده الثلاث من الأعلى سبحانه إلى المكلفين من خلقه:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ

لَهَا مَا كَسَبَتۡ.

وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ..﴾.

كم هذه النبرة متباينة مع ما يليها من اعتراف بالذنب و التقصير و من توسل و ابتهال، بالاتجاه المعاكس، من العباد إلى العليّ الأعلى سبحانه ﴿...رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ ...﴾!

فهو حكيم و عدل لا يكلف نفساً إلا بما هو جعلها تستطيع القيام به، إذ لا قوة أصلاً إلا بالله.

فلو استطاع أحدنا عقلاً القيام بأمر، فهو إذاً مكلف به بالكامل!

فكّر بما بوسعك أن تفعل مما لا تفعل، فكّر ما بوسع المسلمين أن يفعلوا مما لا يفعلون، تدرك عندئذ عظيم جرمك و جرمهم في تقصيرك و تقصيرهم!

من مهازل زماننا فهم الناس قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ...﴾ عكس المعنى، على أن الآية مجرّد رخصة لبذل الجهد الأدنى. بذلك تحايل الناس على أمر الله فقلبوا التكليف

بالمستطاع إلى إعفاء عن المحال، فتذرعوا بعذر المحال ليسقطوا عن أنفسهم واجب المستطاع.

تجدهم يرفعون راية ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...﴾ ليبرروا بذلهم الجهد الأدنى مخالفين بذلك روح الإسلام الذي يقوم على بذل الجهد الأقصى بحكمة و ذكاء، فالإسلام دين جهاد و اجتهاد.

نتابع المقولة الإلهية حيث نرى العدالة المطلقة، كلّ يؤجَر بقدر ما كسب و كلّ يحاسب و يعاقب بقدر ما اكتسب، و يوضع ذلك في الميزان.

فما أقل ما كسب المرء في الميزان ليُرجِّح كفّة ما اكتسب، و خاصة و كما رأينا لم يكد يعمل شيئاً مما بوسعه القيام به، فما أعسر الحساب!..

إن كان خير الصحابة سيدنا أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، المتمثل لكلام الله لا يأمنُ مكره ولا يضمن الجنة و هو مبشَّرٌ بها حتى يضع لا قدمه بل قدميه فيها، فكيف يقف مؤمن واعٍ أمام قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ...﴾؟ سوف يخرّ باكياً من المسؤولية، مدركاً تقصيره فيما بوسعه، و هزيل كسبه و عظيم ما اكتسب. فلا يسعه إلا أن يبتهل راجياً بالدعاء و يقول: ﴿...رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ ...﴾!

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ ﴾ و هو وجهٌ من تراخي و تقصير المرء بما بوسعه من عمل ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ و هو وجهٌ آخر.

﴿...رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا !..﴾ ولا تكون عدم المؤاخذة و عدم تحميل الإصر و ما لا طاقة للعبد به ولا العفوولا المغفرة إلا بالرحمة. فهو خلقنا، و هو أدرى بما خلق، فلا رجاء لنا إلا بعدم تشدده علينا، أي بالرحمة، لذا ﴿...وَٱرْحَمْنَآ ..﴾. نتوجّه إليه هلعين مستنجدين، عالمين أن رحمته وحدها تنقذنا فنشهد أنه ﴿...أَنتَ مَوْلَىٰنَا ..﴾. ولا يكون ذلك إلا بالامتثال لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ .. ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨]؛ و الامتثال لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٠].

إن ترك المؤمن طاعة الذين كفروا إلى طاعة الله، علم أن الله مولاه و أنه خير الناصرين. عندئذ يستطيع أن يشهد و يسأل: ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦] .

ألم يقل سبحانه: ﴿...أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦]، يستبشر الناس بها و يتناسون شرطها: ﴿...فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى ...﴾. إن سألناه تعالى: ﴿..فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا بدّ أن نستجيب لمن قال: ﴿...فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى ...﴾ و شَرَطَ الأمر بقوله: ﴿... إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ...﴾ [محمد: ٤٧/ ٧].

إن دعا مسلم بخاتمة البقرة و لم ينصر اللّه حقاً فهو منافق مرائي.

***

بعد أن تحصّل لدينا الحدّ الأدنى لفهم الرحمة بمقابلتها بالشدة **ضمن إطار مسألة التكليف**، و ذلك كله على العموم، صار من الضرورة بمكان تمييز معنى اسميه تعالى الرحمن و الرحيم.

إضافة إلى ما رأيناه من اختلاف في معنى الاسمين الشريفين من خلال سياق الآيات، فإننا يمكننا التقدم في معرفة الفارق من خلال تمايزهما بالوزن.

اسمه تعالى الرحمن جَلَّجَلَالُهُ صيغته مبنية على وزن فعلان.

إن تأملنا في الصفات المبنية على وزن فعلان بحثاً عن عاملٍ مشتركٍ فيها، فإننا نجد في غضبان، عطشان، جوعان، نعسان... أن الصفة المذكورة عندما تطلق تكون غالبة على سائر صفات الموصوف. فقد يكون المرء ذكياً أو شجاعاً و ما إلى ذلك ولكنه إن كان غضباناً أو نعساناً فإن هذه الصفة تغلب عندئذ على باقي صفاته.

بذلك نستطيع أن نقول: إنه سبحانه و قد ﴿...كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ..﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢]، تَفضَّل على خلقه و شاء أن تكون **الرحمة غالبة على سائر صفاته**، و جعل اسمه الرحمن ليعرِّف و يذكِّر بهذه الحقيقة. علماً أنه سبحانه منزّه عن التبدّل و التقلّب، و أن صفاته جميعها ثابتة لا تنقص ولا تزيد لشدة كمالها، و هي على الدوام كلها حاضرة بحدّها الأقصى، لا تحجبها الرحمة بل تغلب عليها.

عن أبي هريرة قال: قالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِى كِتَابِهِ، فَهْوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِى غَلَبَتْ غَضَبِي» [صحيح مسلم: ٤٩٣٩]. عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِى كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». [صحيح مسلم: ٤٩٤١].

بذلك فإن الفارق في المعنى بين اسميه تعالى الرحمن و الرحيم جَلَّجَلَالُهُ **فارق جذري**:.

إذ، و كما هو الحال في الأفعال اللازمة و المتعدية، حيث يسري أثر الفعل اللازم في الفاعل و ينحصر فيه (مثل: فرِح الرجل)، بينما يسري أثر الفعل المتعدي في المفعول (مثل: سكب الرجل الماء). كذلك هو الحال بالنسبة لوزني فعلان و فعيل.

فالصفة في فعلان، إن جازت العبارة صفة «لازمة»، فهي تتعلق و تنحصر بالموصوف. أي إن الرحمة التي يشير إليها اسمه تعالى الرحمن، ليس موضوعها من سواه من خلقه ولا تتعلق بهم، بل تتعلق و تنحصر بصفاته سبحانه.

لذا فإننا **لا** نجد في سائر الآيات الكريمة التي ورد فيها اسمه تعالى الرحمن جَلَّجَلَالُهُ تعلُّقاً مباشراً بين صفة الرحمة في الاسم الشريف و ما يليه من أيّة آية، على نسق فرضاً: (الرحمن بخلقه). فالاسم الشريف يرد في جميع الآيات تماماً كما يكون بالنسبة لاسم العلم.

و من ذلك يتبين لنا مدى ركاكة مقولة: (رحمن الدنيا و رحيم الآخرة)، و استحالة نسبها إلى الذي أوتي جوامع الكلم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

في حين أن صفة الرحمة التي يشير إليها اسمه تعالى الرحيم، صفة إن جازت العبارة «متعدية»، و موضوعها مَن سواه مِن خلقه، كما في قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥].

كذلك، و قد علمنا أن وزن فعلان يفيد أن الصفة المذكورة غالبة على سائر الصفات، **نفهم الآن الإحكام في سبب استحالة وجود ذلك الوزن في باقي أسمائه سبحانه.**

من جهة أخرى، و قد علمنا أن وزن فعلان يفيد أن الصفة المذكورة غالبة على سائر الصفات، نفهم الآن **السبب المنطقي و الوجيه لاستحالة إطلاق اسم الرحمن على غير الله:**

إذ يستحيل أن تكون صفة الرحمة غالبة على ما عدا الله. وذلك لأن الصفة الغالبة على سائر صفات ما عدا الله، هي أنه مخلوق!.

هذه الصفة غالبة بالضرورة، لاستحالة إسقاطها هي بالذات من بين سائر الصفات.

بذلك فإن هذه الصفة وحدها تنفي إمكانية غلبة صفة الرحمة. فما بال صفات المخلوق الأخرى مثل أنه فانٍ أو ميت و ما إلى ذلك؟!.

كذلك، و قد علمنا أن وزن فعلان يفيد أن الصفة المذكورة غالبة على سائر الصفات، نفهم الآن **أحد الأسباب المنطقية و الوجيهة لمشيئته سبحانه أن يكون اسمه الرحمن أول الأسماء الحسنى ظهوراً في القرآن الكريم**، أي أول ما يريدنا سبحانه أن نعلمه عنه في كتابه الكريم.

فقد تصدّر اسمه تعالى الرحمن متبوعاً بالرحيم القرآن الكريم في بسملة الفاتحة و في أوائلها، و كذلك أول جميع السور عدا سورة براءة، و ذلك ليكون قارئ القرآن واعياً و مدركاً بشكل متواصل أن رحمته تعالى غالبة على سائر صفاته، فلا يضطرب ولا يسيء الظن عند الوقوف أمام آيات رهيبة مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا
وَلَٰكِنْ
حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة !

***

طالما أن وزن فعلان يفيد أن الصفة المذكورة غالبة على سائر الصفات الدائمة و الحاضرة، فإن فهم اسمه الرحمن لا يكون صحيحاً في وجدان المؤمن إلا بوعي و إدراك حقيقة سائر أسماء الله.

إن غاب عن وعي الذاكر لاسمه الرحمن أي اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، فإن الذكر فيه نقص.

إذاً لا يستطيع العبد ذكر الرحمن حقاً، إلا و هو مدرك أن المذكور سبحانه هو كذلك العزيز الجبار المتكبر المنتقم القهار.

عِلْمُ الذاكر للرحمن بما هو مكلف به، و عِلْمُه أن مصيره لا محال إلى عرض يومَ القيامة أمام الواحد القهار في حساب دقيق دقة مثقال ذرة يحاسب فيه على كلّ أقواله و أفعاله، و خاصة التي لم يرَ في الدنيا أثراً لها من الحَكم سبحانه ليُعْرِضَ عن خطأ أو ليستمرَ في خير... ذلك كله يجعله في خشية من عرضٍ يجد فيه أنه ضل سعيه و هو يظن أنه يحسن صنعاً، و في خشية أن يجد كثيراً من عمله غير متقبل لأنه لم يكن خالصاً لوجهه سبحانه. «تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: نَعَمْ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ

الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) [صحيح مسلم: ٣٥٢٧] ناهيك عن ذنوب مهلكة لم يأبه بها «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ» [مسند أحمد: ٦٩١٧] أو ذنوب نسيها. ما أصعب قانون «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» ! [صحيح مسلم: ١٣٣].

و قد علمت ذلك، **تفهم الآن سبب ارتباط الخشية باسمه تعالى الرحمن** و ما فيه من إمهال يليه حساب ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ١١]، ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٣].

ارتباط اسمه تعالى **الرحمن** بكلمة «**بالغيب**» في الآيتين السابقتين يذكر بالضرورة بآية ثالثة، حيث نجد جزاء من خشي **الرحمن بالغيب**، أي إيماناً و وعياً، من غير أن يرى العذاب في غيره أو نفسه ليخشى ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٦١].

عِلمُ العبد بذلك التأجيل إلى يوم الحساب، يجعله يفهم رحمة الواحد القهار الذي أمهله إذا أخطأ أو قصر: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ٦١]، ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٨].

فالواجب على الذاكر لاسمه تعالى الرحمن إدراك أن الإمهال منه سبحانه **ليس إهمالاً، بل رحمة و فرصة ممنوحة** عسى أن يتوب و يَصلُح و يرجع إلى ربه.

و الحال كذلك، فكيف تكون خشية العبد من الذنوب و المعاصي، و كيف يكون حماسه لإرضاء ربه، و كيف يكون امتنانه لعدم تشدد ربه، خاصة أن ذلك ليس إلا بمحض الفضل منه سبحانه:

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ١٤]،



﴿.. وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٣]،

﴿.. وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ..﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٢١].

و قد علم العبد ذاك الفضل، فما أعظم **امتنانه**! يعبّر عنه كلما قرأ فاتحة الكتاب واعياً لما يذكر: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ الفاتحة!

و ما أعظم خشيته من الذي يمهل ولا يهمل، و ما أسرعه في اغتنام فرصة المهلة القصيرة ﴿... يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٣].

* * *

الآن و قد علمنا سبب خشيةِ المؤمن عند **ذكره الرحمن** جَلَّجَلَالُهُ، لنا أن نتساءل عن سبب اختياره سبحانه لاسمه الرحمن في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٦].

لِمَ لم ترد الآية على صيغة و من يعش عن ذكر اللّه مثلاً؟

الواقع أن الآية لفتة إلهية بليغة **تحذر من مغبة عدم النظر إلى الأمور كلها من خلال منظار ما رأيناه في اسمه الرحمن** جَلَّجَلَالُهُ.

فقد يعترض جاهل ضال على مؤمن مدعياً أن لا شيء يثبت وجود اللّه و نفاذ إرادته بل على العكس. و يقدّم دليله قائلاً : «ها أنا أشتم ربك أمامك، هل حصل شيء؟ هل منعني؟ إذاً لا وجود له! ها أنا أقوم بالموبقات الشنيعة بالنسبة لك، أنجس المصحف و أدوس عليه أمامك، هل منعني ربك؟ انظر إلى الناس من حولك، كم ممن لا يعبد اللّه و يرتكب ما يعتبره دينك من المعاصي و يعيش على هواه و هو في أحسن حال؟ و كم من عابد تقيّ تجده يشقى في حياته. فأين ذاك الإله الذي تزعم؟»

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٦].

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٢].

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ٣٦/ ١٥].

في الواقع، كان الجاهل الضال الذي ذكرناه غافلاً عن حقيقة اسمه تعالى الرحمن بالذات دون باقي الأسماء. ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ الملك، **فقد جعله غروره و قصر نظره يسيء فهم الإمهال الذي هو فيه**، و يظنه غياباً أو انعداماً للإرادة الإلهيّة.

لم يستفد من رحمة المهلة و الفرصة ليتوب، بل تكبّر و تجبّر بمدد الذي يمد من كان في الضلالة مداً، إذ إنه لم يرَ عاجل العذاب في نفسه أو غيره ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٧٥].

إذاً من يغب عن وعيه إدراكٌ تامٌّ لحقيقة اسمه تعالى الرحمن و لو للحظة، يفقد القدرة على رؤية حقيقة الإرادة الإلهية في العالم الذي يحيط به، و يصير ينظر إلى الأمور من منظاره الضيق. فما أشبه منظاره عندئذ بمنظار الذي قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾! و ما أقربه بالحقيقة من الشياطين، أي المتمردين على النظام الإلهي ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤٤]، **لذلك تُلازِمه لتلازم الأشباه.** ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤٥].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٦]، الآية الكريمة قانون إلهي دقيق و صريح. فهمه بدقة و بحياد لا يفيد أن الغفلة الدائمة وحدها تسبب تقييض الغافل بشيطان بلا رجعة. ولكن و كما يُستدلّ عليه من صريح الآية: يكفي أن يعشو المرء عن ذكر الرحمن أي أن يغفل عن حقيقة الاسم الشريف الذي يستدعي بالضرورة باقي الأسماء، يكفي ذلك لأن يقيّضَ سبحانه له شيطاناً لا يتركه حتى يصحو الغافل و يعود إلى ذكر الرحمن.

الذكر الحقيقي وعي و التزام دائم بمعاني الذكر من خلال العقيدة و المواقف و العمل. الذكر باللسان مع الغفلة في القلب و انعدام للموقف و العمل المترتبين ليس ذكراً بل مغالطة.

خير ما يصحو به الغافل و يعود به إلى ذكر الرحمن هو البسملة و الفاتحة. فالبسملة و هي من أعظم الأذكار، حرز و نورٌ. أما الفاتحة و في الصلاة خاصة فهي باب رحمة مفتوح للعباد، مفتاحه بسم الله الرحمن الرحيم، يدخلون منه في رحمة الله و قد ذكروا ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، تاركين وراءهم شياطين و قرناء الإعراض و الغفلة. ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣].

*****

اسمه تعالى الرحمن يضبط علاقة العبد بربه، إذ به يَحسُن الاعتقاد و يرتقي وعي العبد و يسمو. و هو كذلك يفتح باب الأمل و الرجاء من خلال الدعاء ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ..﴿١١٠﴾ ﴾ الإسراء.

إن تفكّر عاقل بالحقيقة، فسوف يجد **أن لا مكان ولا مجال للدعاء إن انعدم افتراضاً اسم الرحمن.**

إن تفكرنا بعلم الله الكامل و الشامل لكلّ موجود، و بحكمته المطلقة سبحانه، نجد الكمال المطلق في خلقه و في مشيئته.

طالما أن مشيئته سابقة، و محكمة إحكاماً تاماً من البداية إلى النهاية. و طالما أن كلّ خلقه منضبط في طاعة تامة لمشيئة محكمة لا نقص فيها ولا زيادة، فما معنى و ما مبرر الدعاء عندئذٍ؟ و خاصة أن الداعي مع قلّة علمه، يطلب تغييراً في نظام مطلق و مشيئة سابقة و قد رفعت الأقلام و جفت الصحف؟...

غلبة صفة الرحمة على باقي صفاته سبحانه هي التي تفتح باب الدعاء و الإجابة. فالعليم الحكيم الذي شاء و قدر، هو نفسه الرحمن الذي يتّصِف علمه و حكمته بالرحمة و كذلك باقي صفاته. تَقَرّبَ من عباده فهو قريب و منّ عليهم فهو مجيب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦]. اسمه تعالى الرحمن يشير لمن عنده شيء من العلم لاسمه تعالى المجيب، يؤكد ذلك، ترتيب سورة الرحمن من بين السور.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شاء فضلاً و رحمة منه أن يفتح لعباده باب الدعاء و الإجابة رَغم إحكام الوجود و سابق المشيئة. فتحُ باب الدعاء و الإجابة تخفيفٌ يكاد يصل إلى حدّ انعدام الشدة، و ذلك لما فيه من أمل الرجاء، فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!.

هب و قد علمت ما علمت من إحكام في الوجود و سابق المشيئة، أن لا دعاء ولا إجابة، بل أن شأن المكلفين يقتصر على العمل امتثالا لأمر الله. أليس سبحانه عظيماً يطاع دون أن يرفع العبد يديه إليه بشكوى أو سؤال؟ بلى! ولكن كم هذا شاق على العباد، و كم في فسحة أملِ رجاءِ الدعاء من رَوح و ريحان و طمأنينة و أمان. و كم في ذلك من تأجج لمشاعر السائل بالحب و الامتنان لربّه القريب؟ تفهم الآن، أنه سبحانه و هو الذي غلبت رحمته على غضبه و هو الذي سبقت رحمته غضبه، سَبَبَ

غضبه على من لا يسأله . قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللّٰهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» [سنن الترمذي: ٣٢٩٥]. لقد مَنّ الرحمن على العالمين بالذي ما أرسله إلا رحمة للعالمين، ألهمه ليقول: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ» [سنن ابن ماجه: ٨٧]. و ليقول: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللّٰهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ» [سنن الترمذي: ٣٢٩٢].

على الذاكر للرحمن إذاً، وعي مدى فضل الله عليه إذ فتح باب الدعاء و الإجابة رحمةً.

إن حافظ الذاكر على هذا الوعي، تأجج قلبه بالامتنان و دعا دعاءً يشهد به على افتقاره لربّه. إذ لا معنى للدعاء في الحقيقة إلا لما فيه من **افتقار لله لا تكون العبودية إلا به.**

الواعي لحقيقة اسمه تعالى الرحمن، يدعو الله و كأن لسان حاله يقول: كيف أدعوك ربي و قد سبقت حكمتك و مشيئتك كلّ شيء؟... إلا برحمة ترحمني بها من عندك ! و لِمَ تستجيب لي ربي و قد أَحكمتَ مشيئتك في كلّ شيء؟... إلا رحمة منك و فضلاً ! سبق علمك سؤالي و حاجتي، ولكنك قيدت قضاء حاجتي بسؤالي إياك، كي لا أنساك و لألتجئ إليك و أتقرب إليك!

ولا يغيب كذلك، عمن يعي حقيقة اسمه تعالى الرحمن و هو يدعو، أنه واقف بين يدي العليّ الأعلى ربّ العرش العظيم الذي بيده ملكوت السموات و الأرض و الذي هو بكلّ شيء عليم !.

و الحال كذلك هل يتعلق قلب السائل بحاجته الصغيرة؟ أم يكفيه نعيم شرف مناجاة ذي الجلال و الإكرام؟.

و الحال كذلك هل يشرح الداعي المسألة، ليُفهِم خالقه عالم الغيب و الشهادة العليم بذات الصدور العالم بالسر و النجوى!؟ هل يقدّم الحجج ليقنعه !؟ هل يتباكى ليثير شفقته و ما إلى ذلك من مهازل !؟ أم يتأدّب مع الذي سبق علمه كلّ شيء، و يخشع و يتنعم بشرف و أنس المناجاة؟.

*****

الأخذ بما رأيناه عن تقابل الشدة و الرحمة في مسألة التكليف، و إمهال الله للمكلفين، و غلبة الرحمة على باقي صفاته، يفيد في فهم الفكرة الأساسية في السورة التي تبدأ باسمه الرحمن عنواناً يتوجها، و يجعلها الوحيدة التي تبدأ باسم من أسمائه تعالى.

كذلك فإن الآية التي تتوج السورة، هي الوحيدة في القرآن التي لا شيء فيها سوى اسم من أسمائه تعالى.

يلي آيات تلك الآية الاستثنائية، تذكرة عظيمة لا يمكن فهمها إلا بربطها باسم الرحمن و فهم ما فيه من إمهال و من غلبة رحمته سبحانه على غضبه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢].

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ **على الإطلاق لكلّ عاقل**، أي الملائكة عليهم السلام أولاً فالإنس و الجن.

أين تعامل الملائكة عليهم السلام ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ..﴿١٩﴾﴾ الزخرف، مع القرآن و تعظيمهم لكلّ حرف منه، من سوء تدبّر او إهمال أو غفلة أو إعراض أو كفر الثقلين به؟! شتّان!

ما أعظم رحمة الرحمن سبحانه المتمثلة بمنحه المكلفين من خلقه رغم تقصيرهم أعظم الفرص و الإمكانيات: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ و هو كذلك الفرقان.

ثم يُذكّر سبحانه الثقلين ببقية خلقه مبيناً لهما طاعة الخلق التامة و دقتهم المطلقة في امتثالهم لأمر خالقهم: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٥]. ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٦]. أي أن كلّ شيء من النجم و هو شمس من الشموس؛ أي طاقة متأججة إلى أحياء تحول الطاقة لبناء نفسها، كلّ شيء يُسبِّح، بما في ذلك اللؤلؤ و المرجان. اللفتة في ذكر اللؤلؤ و المرجان هي: أن الكائنات البحرية التي تصنعهما، تقوم بعملها على أدقّ وجه من الكمال و الإتقان، لدرجة أنها تحول كلساً بخساً إلى جوهر ثمين.

فهمُ اسم الرحمن يلقي أضواءً لا بدّ منها لفهم حقيقة الجنة ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ..﴿٦١﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٦١]، و التي خصّها سبحانه في سورة الرحمن بوصف مطوّل و مفصّل.

فهم حقيقة الجنة لا يكون إلا بتذكّر ما بيّناه من دقة مطلقة في الخلق و طاعتهم التامة لبارئهم. أليس حرياً بالثقلين طاعتهما التامة لبارئهما بلا نقاش؟ هل تثاب السماوات و الأرض على طاعتهما للذي ﴿...ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١١]؟ أم يكفيها شرف الامتثال لأمر ذي الجلال و الإكرام؟ هل نستحق **حقاً** ثواباً على طاعتنا للّه و الخلق كله في طاعة مطلقة؟ هل نستحق الثواب إن تذكرنا ما لا يحصى من نعم اللّه؟ إن وضع الميزان و وضع فيه عطاء اللّه من جهة و عمل العبد من جهة أخرى، فأيّ كفة ترجح؟ هب أنه ثمة ثواب لعمل العبد، فهل هو متناسب مع الثواب المذكور في سورة الرحمن؟ هل هذا العمل القليل متناسب مع العطاء الجزيل؟ أم أن الأمر كله مظهر من مظاهر رحمة لا متناهية؟ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١٣]!

و قد فهمت ذلك، تفهم الآن تواضع عباد الرحمن!.

سورة الرحمن تذكرة و تبيان للإنس و الجان، أن الخلق كله منضبط في إتقان تام و دقيق في طاعته المطلقة لله. في حين أن الثقلين الإنس و الجان، و هما المكلفان، يتفردان بالتقصير و التمرد. فأيّ مفارقة و أيّ تذكرة ! و كذلك أيّ رحمة منه في إمهالهما.

* * *

إمهال الخلق إلى يوم الحساب و إعطاؤهم الفرصة تلو الفرصة بمحض الفضل و الرحمة، يفسر كثرة ورود اسمه تعالى الرحمن في سورة مريم (١٦ من أصل ٥١ مرة يرد فيها الاسم الشريف مفرداً في القرآن). فهولا يُهلِك من يغالي في الكفر في ادعائه ولداً لله ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٨٨-٩٠]، بل يمهلهم، رغم **شنيع كفرهم**، فاسحاً لهم فرصة التوبة و الرجوع إليه مدى الحياة، فما أرحمه ! أذكّر بأنهم ليسوا بقليل لا يؤثّر، بل إنهم يزيدون على ثلث البشرية و أثرهم كبير...

* * *

الأخذ بفكرة الإمهال، و بما رأيناه عن أن الرحمة نقيض الشدة، يجعلنا نفهم استحالة ورود البسملة أول سورة التوبة.

إذ إن فكرة الرحمة بعدم التشدد، و فكرة الإمهال خاصة، على تناقض تام مع الفكرة الأساسية للسورة، و التي تعبّر عنها الكلمة الأولى منها التي هي كذلك اسم لها: براءة. براءة أي إعلان لنهاية المهلة و لبداية حرب شديدة على الكفر و الضلال.

* * *

سورة الفرقان حيث تكرر ورود اسمه تعالى الرحمن، و التي تتميز بذكر و وصف طويل لعباد الرحمن، تبيّن و توضّح و تؤكّد على الأفكار التي رأيناها في الفقرات السابقة؛ مثل شنيع كفر الذين ادّعوا للرحمن ولداً.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١-٢]	تذكر بفاتحة الكهف	﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ ﴾ ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ١-٤].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ..﴾ يذكّر بالضرورة بقوله:

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ
كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ
لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢].

قوله تعالى ﴿ ..وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ تذكرة بالإتقان و الإحكام المطلق للخلق كما يشير إلى ذلك قوله تعالى من سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ ..﴿٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤]، تذكّر بإنكار الذين يحسبون أن الإمهال الذي هم فيه هو غياب أو انعدام للإرادة الإلهية. يلي ذلك ذكر سريع للجنة، يليه وصف للسعير يتكامل مع وصف الجنة و النار في سورة الرحمن. ثم تذكرة بالأمم السابقة و بأن العبرة في عاقبة الأمور أي في الآخرة.

ثم وصف مطوّل و فريد لعباد الرحمن.

كلّ آيةٍ من ذاك الوصف حَرِيَّةٌ بوقفةِ تدبّر و تأمّل عميقين.

مثال ذلك، قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥٦٧٤]. يفهم الناس الآية الكريمة عموماً و ذلك بوضعها ضمن مجال البعد الشخصي أو البشري المحدود، على أنها نوع من الدعوة إلى الورع أو الاعتدال في الإنفاق. لا بأس في هذا الفهم، ولكن ثمة إمكانية لرفعه إلى مستوىً لائق بالفكر الإسلامي.

يتميز الإسلام، دين الله، بدعوة متواصلة من خلال القرآن للتفكّر في الكون و الخليقة. الفكر الإسلامي الرفيع يتطلب النظر إلى الأمور لا من خلال محدودية المنظار الشخصي أو البشري، و إنما من خلال منظار إرادة الله في الكون و الخليقة. وضع الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ ..﴾ ضمن المنظار الكوني يرفع مستوى وعي الذاكر للآية.

لقد تعرضنا للدقة و الإحكام في الخلق كله. لكلّ واحد منا أن يتفكّر كيف أن أيّ مخلوق، مهما كان، يتصف بتوظيفٍ محكم و أمثل للمادة التي هو مسؤول عنها. كم من مهندس إنشائي يتعجب من التوظيف الأمثل و بالحدّ الاقتصادي الأقصى للمادة، في الأحياء من نباتات أو حشرات أو حيوانات. انظر حولك، هل تجد مخلوقاً يقصّر في مهمته في توظيف مادة، أي بعبارة أخرى يُقتر؟ هل تجد مخلوقاً يُسرف؟ هل تجد مخلوقاً يكدّس أكثر من حاجة مهمته؟ هل تجد أصلاً مخلوقاً يؤتى أكثر مما تستدعي مهمته؟ هل يعطينا سبحانه في دنيانا قدر ما يستدعيه تكليفنا بلا زيادة مثل باقي مخلوقاته و يتشدد بالحساب، أم يعطينا أكثر بكثير مما يستدعيه التكليف فضلاً منه و رحمة؟ ألسنا خلقاً من خلقه؟ أما ينبغي علينا، إذاً، أن نتأمّل في أمثالنا من الخلق و نعتبر فنتأدّب و نتواضع و نشعر بمسؤولية ما وضع سبحانه بين يدينا تكليفاً و امتحاناً؟ إدراك و فهم ما سبق يجعل المؤمن واعياً لمسؤولية ما جعله سبحانه مستخلفاً فيه. ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٧]. يعي المؤمن تمام الوعي أنه مؤتمن على ما آتاه الله ولا يملك شيئاً إذ الملك لله.

فهم ما سبق يجعل المؤمن واعياً لما يقول و يفعل عندما يمتثل لأمر الله و رسوله في ذكره البسملة: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَر». [أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة].

ذكر البسملة يستدعي بالضرورة استحضار معاني اسمه تعالى الرحمن، فالاسم الشريف أحد محاورها. فالذاكر للبسملة، يعي أنه يقوم بفعل يندرج في نظام كوني محكم و أن باقي الخليقة في طاعة تامة لله و إتقان لما تفعل. و يعي الذاكر للبسملة كذلك أنه لا يملك شيئاً و أنه يتحرك بمدد الإمهال و ينتظره حسابٌ دقيق.

و الأمر كذلك فكأنّ الذاكر للبسملة يستأذن بها من مالك الملك، و كأنه يسأل و يتوسل أن يكون ما يقوم به، لا بغضب المنتقم القهار، و إنما برحمة الرحمن الرحيم!

... تنتهي سورة الفرقان بتذكرة تتعلق بما رأيناه من أمر الدعاء ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٧].

***



﴿ ..كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ..﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢]، فكرة الإمهال، التي رأيناها متلازمة مع اسمه الرحمن، توضح الارتباط الوثيق بين اسميه تعالى الرحمن و الصبور جَلَّجَلَالُهُ.

أول الأسماء الحسنى و آخرها يلتقيان كما تلتقي نقطة البداية بنقطة النهاية من الدائرة. الاسمان الشريفان يشتركان بخصائص تشير إلى خصائص ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿ .. قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٦٠]. كلمة ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ خصائصها تشير إلى نفس الخصائص في قوله تعالى من نفس الآية : ﴿ ..أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ..﴿٣٠﴾﴾. هذا كله يشير فيما يشير إلى المسيحَيّن: **المسيح** عيسى ابن مريم و **المسيح** الدجال.

المسيح كلمة مألوفة عند أهل الكتاب. المسيح هو الذي يُمسَح بالزيت المقدس لتكريسه ملكاً.

المسيح إذاً تعني ببساطة **الملك**، ليس أي ملك بل الملك الذي يجمع السلطات الدنيوية و الروحية. بعبارة أخرى: الملك المطلق الذي يسيطر على جميع أمور رعاياه من الدنيوية إلى الروحية.

مسألة الملك المذكور أي المسيح، أساسية و مركزية عند أهل الكتاب و اليهود خاصة. يمكن لأيّ شخص أن يرى في صدر أيّ كنيس حيث توضع التوراة، ستاراً معلقاً أزرق مثل السماء قبل العشاء، مطرّزاً بأمور عدة أهمها شكلٌ في أوسطها لا يغيب أبداً هو تاج لا ملكي بل إمبراطوري، أي تاج ملك الملوك. المقصد الأسنى عند اليهود، منذ سبي بابل، هو تكريس ذاك الملك المطلق على اليهود و على العالم. هذا المقصد هو المحرك الأعظم لكلّ نشاطاتهم و فعالياتهم.

النهاية المطلقة لمسيرة أهل الإيمان التي تبدأ بسيدنا آدم مروراً ببعثة خاتم النبيين الذي هو من أشراط الساعة، تنتهي بلقاء المسيحَيّن عيسى ابن مريم و الدجال، حيث يقتل عيسى ابن مريم الدجال.

طلوع الشمس من مغربها شرط من الأشراط الكبرى التي تتلاحق كعقد انفرط، و هو قريب جداً من آية سيدنا عيسى يحدث قبل نزوله. لأن أول أيام الدجال الأربعين يوم كسنة، إذ تتوقف الأرض عن الدوران، و هو ما يفسر زلازل عام الزلازل و تقلبات المناخ السابقة لظهور الدجال. يوم كسنة ثم يوم كشهر ثم يوم كأسبوع ثم أيام عاديّة آخرها يوم تصل فيه الشمس إلى كبد السماء ثم ترجع. باب التوبة يغلق إلى الأبد و تنتهي مسيرة أهل الإيمان.

كلّ قصة البشرية ما هي إلا لهذا الامتحان النهائي

«حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ الْأَعْمَشَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: لَأَنَا لَفِتْنَةُ بَعْضِكُمْ أَخْوَفُ عِنْدِي مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَلَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِمَّا قَبْلَهَا إِلَّا نَجَا مِنْهَا **وَمَا صُنِعَتْ فِتْنَةٌ مُنْذُ كَانَت الدُّنْيَا صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا لِفِتْنَةِ الدَّجَّالِ**» مسند أحمد: ٢٢٢١٥.

حتى أهل القبور منهم من يؤمن بالدجال. المتوفى موصول بذريته أو بالذين أثَّر فيهم، يجد عواقب أعماله و يتلقّى أنفاسها و تبعاتها و هو في قبره. إن ارتكب ذاك الشخص أخطاءً جسيمة ولم يرَ نتائجها في حياته، فسوف تظهر في أولاده و أحفاده أو بالذين أثر فيهم يعانون من أفعاله و يتعذبون في حياتهم، ولكن يوم الحساب لا يحاسبون عليها بل يثابون إن صبروا. المخطئ هو الذي يحاسب و هو الذي يتعذّب في قبره بعذاب الأحياء. لكلٍّ منّا أن يتفكر بالعواقب الوخيمة لأخطاء أو خيانات تعاني من تبعاتها أجيال !

كلّ ما ذكرناه في الأسطر السابقة، يندرجُ تحت حقيقةٍ تُذكِّر بموقفِ مخلوقٍ بالحقيقة ضعيف، أمام حياة تبدأ لحظاتها الأولى بالآلام و البكاء و تستمر بالمشاق و المصاعب و المسؤوليات، ناهيك عن المصائب و الأهوال من أعاصير و زلازل أو أوبئة أو حروب. كلّ ذلك في مسيرة للبشرية أوائلها طرد من الجنة بسبب خطأ واحد و نهايتها الفزع الأكبر يوم القيامة، مروراً بأهوال آخر الزمان و أكبر فتنة فتنة الدجال، و ما يسبقها من زلازل عام الزلازل و قحط و مجاعات، و ظهور الدابة و الدخان و طلوع الشمس من مغربها و ما يصاحب هذه الفتنة من مشاق و ما يليها من أهوال خروج يأجوج و مأجوج ..!.

ما ذكرناه حق، قد ينسيه نعيمٌ هشٌّ مؤقت، لا يلبث أن يتلاشى أمام قسوة الواقع. كلّ ما ذكرناه حقيقة لا يمكن لمؤمن بوجود اللّٰه تجاهلها. هذه الحقيقة و هذا الواقع المرّ لا بدّ أن يؤثر بالنهاية في حسن اعتقاد من يؤمن بوجود اللّٰه.

عندما يتعرّض إنسان لظروف عصيبة متواصلة و متفاقمة، فقد يصمد أمام الصدمات الأولى ثم تخور قواه رغم التزامه و تديّنه، و يتساءل بشكوى أقرب ما تكون إلى الاعتراض: «ماذا فعلت يا ربي؟ كي تبتليني هكذا؟» ولا يجد جواباً...

طبعاً، هذه التساؤلات وليدة منطق محدود و مغلوط تشكَّل في عقول الناس، مفاده أن أيّ أذىً يصيب المرء ما هو إلا عقاب على ذنب اقترفه.

أمام ما يرى المؤمن بوجود اللّٰه من أهوال لا يستطيع إنكار مطابقتها لمشيئة اللّٰه، فإنه سوف يُكَوِّن في قرارة نفسه مفهوماً عن اللّٰه سبحانه، على أنه إله غضب و عنف و غدر و بطش لا يدري متى

و لِمَ يبطش. يؤمن به إذ لا خيار له و يعبده اتقاءً، عسى ألا يكون مشمولاً بالمصائب. إذ إنه لا يجد تفسيراً لمصائب تنهال على مساكين أو لأبرياء يموتون بالآلاف في ظروف فظيعة، و مئات من الألوف ما ذنبهم ليولدوا بعاهات، و ملايين يمضون حياتهم مسحوقين تحت ظلم الطغاة.

تصير هذه الأسئلة خطيرة عندما تعمل في نفس أمير أو إمام أو مرشد، أي من هو من أولي الأمر و على رأسهم الخليفة. عندما يضطرب الربّان فإن السفينة كلها في خطر.

الأئمة و الأمراء و على رأسهم الخليفة تواجههم تساؤلات تتناسب صعوبتها مع موقعهم و وظيفتهم و مسؤولياتهم، ما أبعدها عن هموم و تساؤلات إنسان عادي، إن لم يجدوا جواباً عليها فيما هو معلوم عند الأقل منهم مسؤولية مما هو شائع من علوم شرعية، فسوف يجدون الجواب في طبقات عليا من فهم كلامه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ و سنة رسوله.

الربّان الذي يقود سفينة البشرية ستواجهه أسئلة و إشكالات كبيرة، حلّ الكثير منها لا يكون إلا في فهم معاني اسمه تعالى الرحمن في القرآن الكريم.

ما أحلك مفهوم المشيئة الإلهية إن كان المرء آخذاً بذاك الواقع المرّ الذي أشرنا إليه و جاهلاً بالحقيقة التي يعبّر عنها اسمه تعالى الرحمن.

اسمه تعالى الرحمن و ما فيه من معان و حقائق، أمانٌ للمؤمن بالله. و كأن مكنون الاسم الشريف يقول للمؤمن: لا تجزع مما ترى و اصبر. لا تستعجل بحكمك على الأمور، بل انظر إلى عاقبتها على المدى البعيد في الدنيا و المدى الأقصى في الآخرة، فسوف ترى في كلّ ما هالَكَ أن حقيقته بالنهاية رحمة.

انظر في قصة سيدنا موسى و الخضر: انظر في قسوة فعل سيدنا الخضر في خرقه للسفينة، ظاهره على المدى القصير أذىً بالغ و مُهلِك استنكره سيدنا موسى، و حقيقته على المدى البعيد رحمة. ظاهر الأمر غير حقيقته، و يُفسَّر ذلك بطول مدى عامل الزمن في رؤية سيدنا الخضر و قصره عند سيدنا موسى. انظر في قسوة فعل سيدنا الخضر في قتله الغلام، ظاهره على المدى القصير جريمة استنكرها سيدنا موسى، و حقيقته على المدى البعيد رحمة ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨١].

ألم يصف سبحانه الخضر بقوله : ﴿.. عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٥]. ألم يقل الخضر في نهاية القصة موضحاً حقيقة الحقيقة: ﴿..رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٢].

أحد أكبر الإشكالات في فهم **الإرادة الإلهية يكمن في عامل الزمن**، كلما اتسع عامل الزمن في ذهن المتفكر كلما فهم حكمة الأمور.

حكمة الأمور تكمن في علاقة البدايات بالنهايات. نهايات الأمور هي التي تعطيها معناها.

هل تنتهي الأمور- و خاصة التي نُصدم بها بنهاية الحياة الدنيا؟ أم أن حقيقتها تظهر في الآخرة؟

﴿..كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ..﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢].

إن كثيراً مما كان هنا في الدنيا ظاهره أذىً ينعكس في الآخرة إلى خير. الأمر أشبه ما يكون بما يسمّى بظاهرة الغرفة المظلمة، حيث أن الصورة المتشكلة على جدارها ليست سوى صورةٍ أو خيالٍ معكوسٍ للواقع خارج الغرفة. الحياة الدنيا ما هي إلا مجرد انعكاس عن العالم الآخر الحقيقي: تأمَّل في عبارة حاضراً من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿...وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ ..﴿٤٩﴾﴾ الكهف و تفكَّر في حقيقة الزمن.

ألم يَقسِم سبحانه رحمته جزءاً أرسله بين خلقه، و أمسك عنده تسعاً و تسعين للآخرة؟

للآخرة خاصة، حيث الحاجة إلى الرحمة أقصى ما تكون، و حيث هي في حقيقتها غاية سعي أهل الإيمان، كما سوف نبينه إن شاء الله في تفسير اسمه الرحيم جَلَّجَلَالُهُ.

* * *

اسمه تعالى الرحمن جَلَّجَلَالُهُ، ذكر يجمع حقائق جليلة عن خطورة التكليف و حمل الأمانة في كونٍ جادٍ منضبطٍ تحت الإرادة الإلهية، و ما يصحبُ ذلك كله من خوف لعظيم المسؤولية و خشوع لعظيم هيبة الله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: ٣٦/ ١١]. ولكن من عظيم فضله أن صفاته كلها، حتى القهرية منها غلبت عليها **الرحمة** إمهالاً و تخفيفاً و هدىً و رأفةً و توبة و مغفرة و عفواً ﴿..كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ..﴾.

جزى الله عنا نبي الرحمة كلّ خير إذ اختصر كلّ ما ذكرناه عندما قال:

«إنَّ اللّه خَلَقَ الرَّحمةَ يوم خلقها مئةَ رحمةٍ فأمسكَ عندَهُ تسعاً و تسعينَ رحمةً و أرسلَ في خَلْقِهِ كلِّهم رحمةً واحدةً».

فلَوْ يَعْلَمُ الكافرُ بكلِّ الذي عندَ اللهِ مِنَ الرَّحمةِ لم يَيأس مِنَ الجَنَّةِ

و لوْ يَعْلَمُ المُؤمنُ بكلِّ الذي عندَ اللهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأمن مِنَ النَّار» [صحيح البخاري: ٥٩٨٨].



اسمه تعالى الرحيم جَلَّجَلَالُهُ
(٠٠٢)

لقد أشرنا إلى ضبابية مفهومَي اسميه تعالى الرحمن و الرحيم في أذهان المسلمين عموماً. و أشرنا كذلك إلى الخلط و الالتباس بين مفهومي الاسمين الشريفين، حيث أن المعنى التقريبي لاسمه الرحيم يطغى على فهم المسلمين لكلا الاسمين.

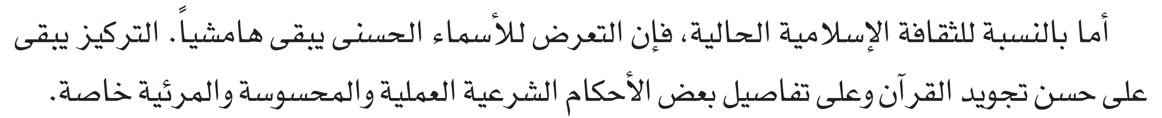
لا يمكن تقبل ذاك التسيب، ولا الاستهانة بالأمر فهو بالغ الأهمية، إذ يتعلق بعقيدة المسلم: إن عدم فهم اسم من أسماء اللّه، هو في الحقيقة فجوة خطيرة في الوعي و العقيدة. فكيف يكون الأمر إذاً، عندما يتعلق بأسماء حسنى قرآنية و خاصة اسميه تعالى الرحمن الرحيم جَلَّجَلَالُهُ، اللذَيْن لا يكون المسلمُ مسلماً إلا إنْ ذكرهما مِراراً كل يوم و ليلة.

لتبيان ما سبق بمثال محسوس و كذلك مؤسف و خطير في عواقبه، أدعو القارئ لمراجعة ترجمة الاسمين الشريفين في مختلف ترجمات القرآن الكريم (علماً أن كثيراً ممن يترجم يقتبس حلول من سبقه).

سوف يجد القارئ هذه الضبابية و هذا الخلط صارخَين. لن يجدَ أثراً لاسمه الرحمن ولا حتى مصطلحاً معتمداً لترجمته، بل سيجد معاني تتراوح بين الرحيم و الكريم و الحليم و اللطيف و النافع و الأكثر رحمة! أذكِّر بأن نسبة المسلمين الناطقين بالعربية إلى باقي الأمة الإسلامية نسبة السُّدُس.

لعل سبب ضبابية مفهوم الاسمين و الخلط بينهما يكمن في فقر المعلومات الصحيحة المتوفرة عنهما في المراجع و الثقافة الإسلامية.

يُفتَرض أن يجد المسلم في التفاسير ما يحتاجه لفهم ما حفظه صغيراً منذ أمد. لن يجدَ في التفاسير أيّة وقفة توضح أهمية وأبعاد الاسمين الشريفين في تفسير الفاتحة، علماً أنهما أساسٌ في العقيدة، لا تكتمل إلا بهما. و لن يجد كذلك أيّة وقفة عند أسماء اللّه التي تختم كثيراً من آيات، **ما هي في حقيقتها إلا لتهديَ لحقيقة الأسماء التي تختمها.**



أما بالنسبة للثقافة الإسلامية الحالية، فإن التعرض للأسماء الحسنى يبقى هامشياً. التركيز يبقى على حسن تجويد القرآن وعلى تفاصيل بعض الأحكام الشرعية العملية والمحسوسة والمرئية خاصة.

قد يتعرض البعض لموضوع الأسماء الحسنى عندما يستنفدون مادتهم، و يبقى الأمر تكميلياً مما يُستأنسُ به في حين أنه بالحقيقة أساسي.

لعل سبب ذاك الخلط و الضبابية يكمن كذلك و خاصة في المنهج المتبع في تناول الاسمين الشريفين.

إن أراد عالم تقليدي شرح اسمه تعالى الرحيم أو أي اسم آخر، فسوف يستجمع في عقله ما يعرفه تلقائياً من معاني الرحمة، ثم يكيِّف ما استجمعه في عقله مع مفهومه عن الألوهية، ثم و في المرحلة الأخيرة يستشهد ببعض الشواهد القرآنية ليدعم التصور الذي يقدِّمه.

النتيجة ستكون في أحسن الأحوال لطيفة، ولكنها لن تتجاوز محدودية و سطحية الرؤية البشرية.

الإشكال في ما سبق يكمن في إهمالٍ و اكتفاءٍ بهزيل يكاد يكون استغناءً أشبه بإعراض. اكتفى المرء بتصوره مُنْطَلَقاً ثم دعمه بشواهد ليؤيده.

أليس الصواب اعتماد كلام الله كنقطة انطلاق و أساس للبحث، خاصة أن الأمر يتعلق به سبحانه!.

الحري بنا إذاً، الابتداء بمراجعة اسمه تعالى الرحيم في كتابه الكريم.

نجد أنه ورد ١١٣ مرة في بسملات أول السور، و كذلك ١١٣ مرة أخرى في نص الآيات. إضافة إلى مرة وحيدة لا تدخل في تعدادنا، إذ إن لفظ «رحيم» فيها لا يُقصَد به اسم من أسماء الله، بل وصف لسيد المرسلين: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ التوبة.

في الـ ١١٣ + ١١٣ موضعاً التي ورد فيها اسمه تعالى الرحيم، نجد أنه و خلافاً لاسمه تعالى الرحمن، لم يرد حصراً معرفاً، بل ورد تارة معرفاً بأداة التعريف و تارة غير معرف.

نجد كذلك أنه يأتي مستقلاً في أربعة مواضع. أما في المواضع الباقية فإنه لم يرد على العموم تالياً لاسم من الأسماء الحسنى، إلا مرتين.

* * *

أول ورود لاسمه تعالى الرحيم في كتاب الله، نجده في بسملة الفاتحة و في أوائلها.

العادة غشاوة تحجب البصيرة.شدة اعتياد المسلمين على البسملة حجبتهم عن المعاني الجليلة التي تشير إليها.

أول مظهر لغشاوة العادة تلك، هو عدم ملاحظة و عدم الوقوف عند الخاصية العجيبة و **الفريدة** لتتابع اسمين من الأسماء الحسنى مشتقين من نفس الجذر.

أضف إلى ذلك ما أشرنا إليه سابقاً بصدد اسمه تعالى الرحمن الذي لم يلِ أي اسم من الأسماء الحسنى، و الذي لم يلِهِ إلا اسمه تعالى الرحيم.

إذاً، و بسبب استثنائية الحالة، فلا بد من معنىً بالغ الأهمية في توالي اسمين مبنيين على جذر واحد، خاصة أن هذه الحالة هي الأولى لورود اسمه تعالى الرحيم في القرآن الكريم.

رأينا من خلال سياق الآيات ما في اسم الرحمن من معانٍ تستوجب الخشية و الخشوع. و رأينا كذلك فكرة الإمهال رحمةً. ولكن ما رأيناه من معاني الرحمة في اسمه الرحمن، لا يدلُّ على خصائص هذه الرحمة ولا على مظاهرها، و إنما على غلبتها على باقي الصفات.

ولكن كيف؟ و بأي قدر؟ و إلى أي حد؟.

إضافة إلى سياق الآيات الذي يميز بوضوح بين اسميه تعالى الرحمن و الرحيم، فإن أكثر ما يميِّزهما هو وزنهما.

اسمه تعالى الرحيم مبنيٌّ على وزن فعيل. هذا الوزن يركز و خاصة في الأسماء الحسنى على أن الصفة المبنية عليه صفة تأخذ حدها الأقصى، أي إنها ليست نسبية بل إنها قصوى. و كذلك فإن تلك الصفة ليست سطحية بل نافذة إلى أعماق الأعماق، و كذلك فإنها ليست صفة عابرة أو مؤقتة ولكن متأصلة و دائمة.

بناءً على ذلك، يفيد اسمه تعالى الرحيم بأن رحمة الله دائمة و متأصلة غير سطحية، و أنها بشكل خاص **رحمة بالحد الأقصى بما يفوق التصور**، كما يشهد على ذلك شهود: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥١]، و ﴿... أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٣]. و كما يشهد على ذلك تحقُّق ﴿...فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: ١٢/ ٦٤]. و﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٢].

الحد الأدنى الذي رأيناه في الأسطر السابقة، يجعلنا نتقدم في فهم ذلك التتالي الفريد لاسمين مبنيين على جذر واحد، ويجعلنا كذلك نرى ضرورته:





- اسمه تعالى الرحمن يشير خاصة إلى غلبة صفة الرحمة على باقي الصفات.

- و اسمه تعالى الرحيم يكمل هذه الفكرة: بأن رحمة الله ليست عابرة أو آنية أو سطحية، بل إنها رحمة متأصلة و دائمة و بحدها الأقصى.

نستطيع إذاً أن نقول أن وظيفة اسمه تعالى الرحيم في القرآن الكريم، هي تبيان خصائص و مظاهر تلك الرحمة الغالبة على باقي صفاته سبحانه.

* * *

يبدأ تبيان خصائص و مظاهر تلك الرحمة، في أول ورود لاسمه تعالى الرحيم في النص القرآني الكريم مستقلّاً عن اسمه الرحمن. حيث نجده مع اسمه التواب في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧].

و في ذلك لفتة ربّانية رقيقة.

فأول ورود لاسمه تعالى الرحيم مستقلّاً عن الرحمن، كان بصدد الكلام عن **أول** البشر سيدنا آدم.

هذه اللفتة الربّانية تعطي معنى لكل ما يرد بعدها عن اسمه تعالى الرحيم في القرآن الكريم.

سبحانه هو الذي علم آدم الكلمات التي بها تاب عليه. فلم يكن الأمر مبادرة استحق عليها سيدنا آدم التوبة، بل رحمة محضة و سابقة منه سبحانه. ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ أي إنه هو وحده الذي يتوب على عباده. لِمَ؟ لأنه الرحيم الذي لا حدود لرحمته.

التوبة إذاً مظهر من مظاهر رحمته تعالى بالمكلفين من خلقه.

بما أن التوبة أُولى مظاهر الرحمة التي تطالعنا في القرآن الكريم، فإن في ذلك إشارة إلى أولوية وأهمية الأمر.

لقد رأينا أن الله إن شاء أمراً سبحانه و هو أحكم الحاكمين، فهل لمخلوق كلام أو رأي أو عذر كي لا ينفذ المطلوب منه بالكامل؟ لِمَ يبقي أو يمهل الذي ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ...﴾ [السجدة: ٣٢/ ٧] العزيزُ ذو انتقام الجبارُ المتكبرُ الواحدُ القهارُ مخلوقاً يخالف إرادته أي يخْطَأ؟ إلا رحمةً.

كيف تتجلى هذه الرحمة على من خطِئ؟ لا بد أن تكون بالتوبة، أي بفتح باب العودة إلى الله لكل من يترك المعصية، أي خطأ مخالفة النظام الإلهي.

إن لم يتب اللّه سبحانه على عبدٍ، فهل يغفر له أو يدخله في رحمته؟ طبعاً لا. لِمَ يبقي أو يمهل ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ... ﴾ المخطئ الذي يأبى التوبة؟ لا يبقيه إلا وبالاً ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٨].

فما أظلم و ما أخسر المدبر عن باب التوبة قبل أن يغلق، و ما أرحم الرحمن الصبور الذي فتح باب التوبة إلى آخر الزمان. ما أرحم الذي ما أرسل خاتم النبيين إلا رحمة للعالمين و ألهمه أن يقول: «للّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللّهُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ» [صحيح البخاري: ٥٨٣٣].

كيف لا يذوب قلب العبد المعترف بالذنب و التقصير و هو يسمع خطاب ربه الجليل العظيم على لسان نبيه الحبيب: «قَالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللهِ للّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» [صحيح مسلم: ٤٩٢٧].

* * *

عندما تعرضنا لتدقيق معنى الرحمة لفهم اسمه تعالى الرحمن، رأينا أن الرحمة من اللّه هي عدم التشديد و التدقيق على العبد بعقاب على ما يستحق، بل أقل. و عدم الحكم على العبد بما يستحق، بل بخير مما يستحق. و عدم تحميله أقصى طاقته، بل الأقل. و عموماً، مسامحة و عفو و معاملة برقة و رأفة و حنان.

يتجلى ذلك في ما يتجلى في ثماني آيات ختمها سبحانه باسميه الرؤوف الرحيم. فالرأفة تخفيفٌ إلى أقصى حد و عناية يحف بها سبحانه خلقه. لِمَ يرأف سبحانه بخلقه؟ لأنه رحيم رحمةً لا يسعها عقل. إذاً رأفته سبحانه بخلقه ليست عابرة، بل دائمة و بالحد الأقصى لارتباطها باسمه الرحيم جَلَّجَلَالُهُ كما يشهد على ذلك دعاء ﴿ ...رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٠].

ما يزيد من عظمة هذا المظهر من مظاهر الرحمة، هو شمولية تلك الرأفة الإلهية. يؤكد ذلك، اختيار كلمة الناس و ما فيها من شمولية في آيتين من ثماني الآيات: ﴿ ...وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣] و ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥].

الآية السابقة تذكر بالضرورة بقوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٧]. تتجلى تلك الرأفة المجبولة بالرحمة فيما تتجلى كذلك في كرم قوله تعالى: ﴿... مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١٧]، و قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٤٧]. و قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿... يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٠].

أهمُّ ما تتجلى به تلك الرأفة المجبولة بالرحمة نجده في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٩].

إخراجه سبحانه إيانا من الظلمات إلى النور أي من الجهل و الضلال و الخسران إلى العلم و الهداية و النعيم، هو بحد ذاته مظهر بالغ من مظاهر الرأفة و الرحمة. فقد ارتبطت الهداية بالرحمة في مواضع كثيرة من كتابه الكريم ﴿... وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٤]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩]، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٦٤].

ولكن يغيب عن أذهان الناس بعدٌ ثانٍ و مظهر فائق من مظاهر الرحمة يشير إليه اسماه تعالى الرؤوف الرحيم في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٩]. هل يرأف أحدنا بضالٍ أو يرحمه؟ أم يقضي عليه أو يطرده، أو... وفي أحسن الأحوال يقسو عليه ليؤدبه و ليعيده إلى جادة الصواب؟ فما أرأفه وما أرحمه سبحانه أنه يخرجنا من الضلال إلى النور لا بالشدة والعنف كما يليق بالضالين وإنما بالرأفة و الرحمة!.

* * *

ثالث مظهر من مظاهر رحمة الرحيم جَلَّجَلَالُهُ يتجلى من خلال المغفرة.

فقد ورد اسمه تعالى الرحيم مرتبطاً باسمه الغفور واحداً وسبعين مرة لاحقاً له، و مرة واحدة سابقاً له في الآية الثانية من سورة سبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ١].

إن من الصعوبة بمكان تفسير سبب ورود اسمه تعالى الرحيم سابقاً لاسمه الغفور بدقة و موضوعية، إلا إن اعتبرت الآية الكريمة ضمن سياق الآيات المحيطة بها، معتبرين القرآن، كما ينبغي اعتباره، وحدة متواصلة.

لعلّ أسهل مثالٍ لتبيان التواصل في الأفكار و المواضيع عبر السور، هو قوله تعالى التالي للآية السابقة: ﴿...يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢-٣].

إذ إن مسألة الساعة المطروحة في الآية الكريمة تذكر بالضرورة بقوله تعالى من أواخر السورة السابقة لسبأ أي الأحزاب: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ...﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٣].

بعد الآية السابقة: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ تطالعنا آية بالغة الأهمية أشرنا إليها في سياق التعرف على اسمه تعالى الرحمن. هذه الآية و ما فيها من عتبٍ و مؤاخذة، تذكر الإنسان بغيره من الخلق، و خاصة بطاعتهم المطلقة لله و بشعورهم العميق بالمسؤولية الذي يتباين تبايناً صارخاً مع استهتار الإنسان: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢].

هل يستطيع الذاكر لكلام الله المتدبر لآية الأمانة و ما فيها من مفارقة بين طرفي نقيض، إلا أن يتذكر السؤال الإلهي الذي يزعزع غرور الإنسان الظلوم الجهول: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ من سورة النازعات حيث نرى نفس المعطيات السابقة: السماء، الأرض، الجبال و خاصة السؤال عن الساعة ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٣-٤٢].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ...﴿٢٧﴾﴾ تذكر بقوله تعالى من غافر: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾، حيث نرى ذكراً للساعة كالذي رأيناه في

سبأ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٩]. كلا الشاهدين الكريمين من غافر و النازعات يليان و بشكل لافت للنظر ذكراً مطولاً عن فرعون الذي يرمز إلى رأس قوةٍ عظمى مستبدة. يلي آية الأمانة مباشرة ختام سورة الأحزاب: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

بذلك تكون الحالة الفريدة لسبق اسمه الرحيم لاسمه الغفور و ما فيها من أهمية لتفردها، محاطة بآيات حاوية على المعطيات اللازمة لفهمها:

- أهمها التذكير بالعلم الإلهي المختلف جذرياً عن علم الخلق و الذي وقفنا عنده في اسم الرحمن لفهم حقيقة الرحمة. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣]، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ...﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٣].

- و تذكرة للإنسان بعظيم مسؤوليته، و كذلك بعظيم جهله و ظلمه عندما تحجبه محدودية نفسه عن رؤية الحقيقة في الخليقة، من خلال أبعادٍ مكانية و زمانية تتجاوز بكثير حدود همومه الصغيرة و اهتماماته الهزيلة.

- و مسألة الساعة التي تنتظر المكلفين أجمعين.

طبعاً، الساعة مرتبطة بالذعر و بأعظم الأهوال على الإطلاق، لا سيما أنها اللحظة الفاصلة التي يليها البعث و النشور و خاصة الحساب.

و قد قامت القيامة، و أمام مسؤولية الأمانة، و بالمقارنة مع خلق شاسع كله منضبط بطاعة تامة، فأيُّ أمل للإنسان و هو الهلوع الجزوع العجول الظلوم الجهول؟ و بمَ يستجير؟

الرحمة!

الذي شاء ذلك كله، ما أرحمه إذ سارع و طمأن الواعي المرتعد لعظيم مسؤولية الأمانة و لأهوال الساعة، أن رحمته تفوق التصور.

لذلك كان التركيز ضمن إطار الساعة على الرحمة الفائقة من خلال اسمه تعالى الرحيم، ﴿...وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢]. رحمة فائقة تتجلى فيما تتجلى من خلال المغفرة.

أما بالنسبة لباقي الآيات، فإن اسمه تعالى الرحيم يلي اسمه تعالى الغفور، لتبيان أنه سبحانه إذا غفر فإن ذلك بمحض الرحمة منه.

***

تتجلى الرحمة، و قد أخطأ الإنسان، بتحريره من تبعات الخطأ و ما ينتج عنه من عوائق.

كيف لامرئ أن ينجح و يتقدم في مشروع يعاني من تبعات أخطاء جسيمة و متفاقمة، لا تتوقف عواقبها بل تساهم في إيجاد أخطاء جديدة بدورها تتفاقم و تولد غيرها؟ لا مجال للاستمرار في ذاك الكابوس من الأخطاء المتفاقمة إلا بإزالتها و فتح صفحة بيضاء جديدة. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

فما أرحمه سبحانه إذ فتح لنا المجال و تكرم علينا بتخليصنا من عوائق أثقال أحمال أوزار ظلمات الخطأ!

لِمَ؟

رحمةً صرفةً!

فهو الغني عن العالمين الذي قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥-١٧].

كلٌّ منا لا محالة ميت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الزمر. و كلنا سنقف بعد البعث أمام الواحد القهار و أمام حسابٍ دقيق في كتاب يقول الذي يقرأه لشدة ما يراه من أهوال الذنوب: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ...﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩]!.

في هذا الموقف، تُرى أي فكرة يستنجد بها المرء غير فكرة الرحمة؟

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٩]. هل ننتظر فوات الأوان؟ و خاصة أنه سبحانه منَّ علينا و ذكرنا ترهيباً و ترغيباً: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٨].

الآية السابقة تؤيد و تؤكد على فكرة التقابل بين الشدة و الرحمة. ما أبدع التقابل بالتناظر في وصفه نفسه سبحانه بالشديد والرحيم، يتوسطه تقابل آخر بالتناظر بين العقاب و الغفور جَلَّجَلَالُهُ.

الآية السابقة تذكر بالضرورة بآيتين:

﴿...لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾[الأنعام: ٦/ ١٦٥]، و﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧].

الآيتان تؤيدان و تؤكدان على ما رأيناه من رحمة في الإمهال، و ذلك من خلال نفس الصيغة الشريفة من المائدة باستبدال شديد بـ سريع سبحانه. ترهيب وترغيب من خلال مقابلة سرعة العقاب برحمة الإمهال و مقابلة العقاب بما فيه من سوء العذاب بالمغفرة.

كل ذلك الترهيب و الترغيب محفوفٌ برحمةِ **من يفرح بتوبة عبده!** و برحمة من يريد له كل خير إلى درجةٍ تفوق كل تصورـ خاصة إن فكرنا بالنسبة و التناسب بين العبد و الرب إلى درجة حبه لعباده! ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٦]. هل يستطيع ذو لبٍّ علم الآية إلا أن يطير لبُّه حباً و إقبالاً و امتناناً؟.

الآية السابقة واحدة من اثنتين وسبعين مرة تطالعنا فيها أكثر صيغ الأسماء الحسنى وروداً في القرآن الكريم: صيغة الاسمين الشريفين الغفور مع الرحيم.

كم في ذلك التأكيد من تذكرةٍ و دعوة مجبولتين بالرأفة و الرحمة و الحب.

ألم تلاحظ أنه لم ترد في القرآن صيغة تجمع بين اسميه الغفار و الرحيم؟

الفارق بين الاسمين الشريفين يفهم من سياق الآيات و يكمن خاصة في الوزن: فعّال فعول. أحدهما بالألف و الآخر بالواو الذي، و كما تلاحظ، ورد في جميع الصيغ الشريفة السابقة: التواب الرحيم، الرؤوف الرحيم و الغفور الرحيم جَلَّجَلَالُهُ.

تستطيع فهم مدلول الواو من خلال الصيغة الرابعة و الفريدة لورود اسمه تعالى الرحيم مع اسم آخر من الأسماء الحسنى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ١١/ ٩٠]. كيف لذي لُبٍّ أن يقاوم تلك الدعوة الربانية؟ ﴿...إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ رحمة فائقة إلى درجة أنها بلغت الود. النسبة و التناسب بين صفاتنا و صفاته كنسبة العدم إلى الكل، إذاً و الحال كذلك فكيف

يكون ودُّ الودود جَلَّجَلَالُهُ؟! و كيف لنا ألا تتلاشى عنا تفاهات الدنيا بالمسارعة إلى طلب التوبة و المغفرة حباً به عسى أن نكون ممن وصفهم ﴿...يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

***

إن كان حب الودود لعباده لا تسعه العقول فكيف يكون حبه لأنبيائه؟ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي.. ﴿٣٩﴾ ... ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤١]. و كيف يكون إذاً حبه لحبيبه المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي قال: «فَواللّٰه إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللّٰه وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً» [صحيح البخاري: ٥٦٣٦]. جزاه اللّٰه الذي ألهمه عنا كل خير، إذ إنه على علو مقامه وشدة قربه، لم يطمع بحب الرحيم الودود ليسرف أو ليذنب، بل على العكس لم ينسَ أنه عبدٌ أمام ربٍّ عزيز.

عزيز أي مهيمن لا يؤثر فيه شيء أو أحد، و غني لا حاجة له بشيء أو أحد. ذكّر الناس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥-١٧].

ولكن رحمته الفائقة غلبت على عزته و سائر صفاته.

عرّفنا سبحانه بتلك الحقيقة من خلال اسمه الرحمن و من خلال كتابه الذي يسره للذكر. فقد منَّ سبحانه علينا ميسراً إذ أورد صيغة اسميه العزيز الرحيم جَلَّجَلَالُهُ لأول مرة في كتابه الكريم في سورة الشعراء، و بشكل يستحيل معه عدم فهم المقصد الإلهي. فقد تكررت صيغة اسميه العزيز الرحيم جَلَّجَلَالُهُ في السورة تسع مرات من أصل ثلاث عشرة مرة وردت في القرآن الكريم، أي ما ينوف على الثلثين. الأربع الباقية وردت كل واحدة منها في أربع سور مختلفة.

تطالعنا في أوائل سورة الشعراء آية كريمة تقدم لفكرتها الأساسية ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٥].

إن كان اسمه تعالى الرحمن يشير إلى غلبة صفة الرحمة على باقي الصفات، فلا يعني ذلك غياب تلك الصفات و القهرية منها خاصة. فقد غاب عن المعرضين أنهم إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة يُرزقون رغم إعراضهم، فإن ذلك ما هو إلا بمدد الإمهال رحمةً عسى أن يتوبوا و يَصلُحوا.

فكرة عدم غياب الصفات القهرية و غلبة الرحمة عليها، يبرزها و **يوضحها** التقابل بين معنى الجلال و الجبروت في اسمه تعالى العزيز و الرحمة الفائقة في اسمه تعالى الرحيم، و ذلك في آيتين بمثابة افتتاحيةٍ سوف تعود صيغتها مراراً كختام على مدى السورة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩].

ثم يبدأ تفصيل ذاك **التوضيح** بالتذكير بأقوام طغت و بغت و كفرت و استكبرت، لم يعجل الله لهم العذاب أو يدمرهم إذ خالفوا إرادته ﴿...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥]، ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٠٨-٢٠٩]، بل بعث إليهم الرسل و الأنبياء و النذر و البشائر.

ألا يعتبر تنبيه و توجيه المخطئ في الامتحان بحد ذاته رحمةً فائقة؟.

أما يحق القول على الظالمين و قد أُنذِروا و جاءتهم الآيات و تبين لهم الحق من الباطل؟.

فما أرحمه إذ أمهلهم أشهراً و سنين و عقوداً إلى أن استنفدوا كل فرصهم بطراً و غروراً و تكبراً. عندئذ، و بعد أن فتح لهم أبواب الرحمة على مصراعيها، أخذهم أخذ عزيز مقتدر ليطهر الأرض منهم و من فسادهم و ليخلّص الأبرياء من شرهم. و هكذا كلما تنتهي قصة قومٍ ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن أنبيائه ورسالته ونذره و رحمته في سورة الشعراء، يختم سبحانه تذكرته بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨-٩].

تفهم الآن سبب مشيئته سبحانه لاسميه العزيز الرحيم في قوله من يس: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥].

يكفي أن تتابع فتقرأ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٦] تذكرك بـ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٠٨-٢٠٩].

هل تستغرب الآن اسم الرحمن جَلَّجَلَالُهُ في يس؟ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: ٣٦/ ١١].

يتأكد لك فهمك لافتتاحية السورة ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ و خاصة بعد فهم المعنى في سورة الشعراء، عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يس: ٣٦/ ١٤]. لم يبادرهم سبحانه بالعذاب إذ خالفوا مشيئته و هو العزيز الغني عن العالمين، بل بادرهم بالرحمة عندما أرسل لهم لا رسولاً بل رسولين جاءا بالحق و البينات. لم يعذبهم إذ كذبوا بالاثنين بل عزز برسولٍ ثالثٍ فضلاً و رحمةً منه و إمهالاً، و زاد على ذلك برجلٍ من أقصى المدينة...

ما أرحمه، و هو الغني الحميد الجبار القهار العزيز ذو انتقام، إذ فتح أبواب رحمته على مصراعيها و أبقاها مفتوحة أمداً لفاسقين متكبرين مفسدين مجرمين!.

ولكنهم أعرضوا عن الرحمة و انصرفوا عنها مبتعدين، مُصرّين على المضيِّ مدبرين. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٧].

تلك كانت رغبتهم، **فليكن**..!

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ... ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

هل جهلوا حتمية الموت؟ طبعاً لا.

هل يستطيع ميتٌ الرجوع عن خياراته و تغيير وجهته؟ و خاصة أنه كُشِفَ عنه غطاؤه و جُعِل بصره حديد إلى يوم القيامة؟.

يومئذٍ يدرك أنه كان متوجهاً متهالكاً إلى وجهةٍ من وجهتين **لا ثالث لهما**. ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٠].

ألم يرحمه ربه عندما أرسل له صفوة خلقه ليهدوه إلى الرحمة ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٠]. ألم يرحمه ربه عندما ذكّره: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٩] تذكر بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧-٩].

أعرضوا عن الرحمة بكفرهم و طغيانهم و انصرفوا عنها مدبرين متكبرين إلى أهوائهم و أوهامهم.

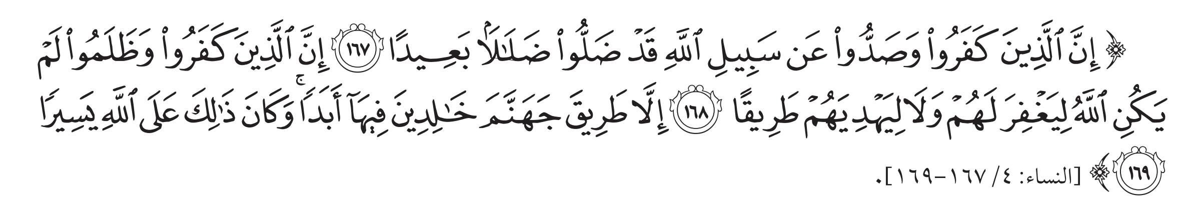
تلك كانت رغبتهم التي أصروا عليها إلى مماتهم، **فليكن**..!.

فوجدوا أنفسهم أمام نهاية رغبتهم:

النار

و وجدوا أن **الرحمة** التي **كفروا** بها غروراً و تكبراً و **يئسوا** منها إنكاراً **هي الجنة**!

هل الجنة أملٌ من آمال الكافر؟ طبعاً لا، إذ لا يؤمن أصلاً بالآخرة ليؤمن بها. طالما أنه لا يأمل بالجنة فهو بعبارة أخرى ييأس منها، كون اليأس عكس الأمل. لذلك: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٣]. يأسهم منها في الدنيا كفراً جعلهم ييأَسون منها في الآخرة و قد تيقنوا منها بعد فوات الأوان و انقضاء الأمر، فأيّ مأساة.


﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٧-١٦٩].

* * *

غايةُ ما تتجلى فيه رحمة الرحمن الرحيم هو نعيم الجنة و زيادة كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٧]. طالما أن الأمر عن الذين ابيضّت وجوههم، فهو في الآخرة. و طالما أن الخلود في رحمة الله، فإن ذلك يعني أن رحمة الله هي حقيقة الجنة و أنها كناية عنها. يؤكد ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٠]، الفوز المبين هو بالطبع الفوز بالدخول في الجنة. يشهد على ذلك دعاء حملة العرش عليهم السلام: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٩].

الوقاية النهائية من السيئات سلام أبديّ منها، فأيّ نعيم و أيّة رحمة! ﴿...فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥٦-٥٨].

ذاك الفوز العظيم هو نهاية مطاف أهل الإيمان في رحلتهم مع رحمة الله الرحمن الرحيم من الدنيا إلى الآخرة، و الذين يشهدون و هم في النعيم المقيم خالدون: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٢٨]. بَرّ بوعده سبحانه إذ أدخلهم الجنة من غير تكافؤ، بالحقيقة، بين عملهم و عظيم عطائه. فعمل العبد قليل محدود، و أما عطاؤه سبحانه فجزيل لا نهاية له. هل يستطيع عبد أن يقول: إنه التزم مع الله و لم يقصر في شيء ولم يذنب أبداً؟ بعبارة أخرى، هل يستطيع عبد أن يقول: إنه برّ بوعده مع الله على التمام والكمال من غير أي ذنبٍ أو تقصير؟ رغم ذلك، تاب سبحانه على عباده و غفر لهم و عفا عنهم و برّ بوعده بالتمام و الكمال ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ لِمَ؟ رحمةً ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

* * *



كلّ ما يراه المؤمن من غلبة الرحمة على سائر الصفات، و من إمهال العزيز الجبار للناس رحمة عسى أن يَصْلُحوا، و كلّ ما يراه من مظاهر الرحمة الإلهية التي تصبُّ بالنهاية في بحر شاسع من النعيم المقيم... كلّ ذلك، و بالمقابلة مع تقصيره و ذنوبه، يجعل نفسه مجبولة بتواضع عباد الرحمن و قلبه رقيقاً ليناً منكسراً يرحم غيره خوفاً من قانون «لَا يَرْحَمُ اللّٰهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ» [صحيح البخاري: ٦٨٢٦]. و طمعاً برحمة الرحمن الرحيم متمثّلاً قول نبيّ الرحمة: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ» [سنن الترمذي: ١٨٤٧]. و ذاكراً قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ
أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٢].

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣١-١٣٣].



اسمه تعالى الملك جَلَّجَلَالُهُ

(٠٠٣)

ورد اسمه تعالى الملك بشكل صريح في خمس مواضع في القرآن الكريم:

*****

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤].

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٦].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ [الناس: ١١٤/ ١-٢].

*****

مرة في الفاتحة:

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ١/ ٤].

مَلِك: بقراءة نافع رواية قالون تقرأ الآية الكريمة مالك، و ملك رسمها بالميم و اللام و الكاف يحتمل القراءتين.

أخذاً بهذا الاعتبار يصبح عدد ورود الاسم الشريف ٦ مرات، و يكون بذلك ثالث اسم من الأسماء الحسنى ظهوراً في القرآن الكريم بعد اسميه الرحمن و الرحيم جَلَّجَلَالُهُ.



اسمه تعالى الملك جَلَّجَلَالُهُ:

المفهوم البشري الشائع للملك لا يطابق المفهوم القرآني لهذه الكلمة. عدم التطابق بين المفهومين ليس ناتجاً عن اختلاف و إنما عن تجاوز المفهوم القرآني للمفهوم الشائع لا بإكماله بل باحتوائه. إذ إن المفهوم القرآني، و الذي ينبغي ألا يغيب عن الأذهان، مفهوم أساسي، لذا فهو يحوي على المفهوم الشائع و يتجاوزه.

بمراجعة الآيات التي تحوي الجذر «مَلَكَ» أول ما يمكن تمييزه هو الآية الكريمة من سورة القمر ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ حيث يدل الجذر عليه سبحانه.

مليك، على وزن فعيل، و هذا الوزن يفيد صفة الملك متأصلة إلى أعماق الأعماق.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٧].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٩].

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١٢٠].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٥].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٥].

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٨].

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٦].

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٥].

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [الملك: ٦٧/ ١].

كلّ هذه الآيات تشير إلى عظمة ملكه سبحانه.

معنى الملكية واضح ولم يتغير عبر الزمان. الوحيد الذي يملك كل شيء هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وطالما من أسمائه فملكيته مطلقة و بالتالي شاملة وبوجه مطلق لا بوجه جزئي إذاً لا أحد يملك شيء سوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٨].

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣].

لا أحد يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، لا إله إلا الله الملك الحق المبين. الملك المطلق هو الله.

ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مطلق و دائم و مستمر. بينما ملك المخلوق محدود و مؤقت.

من الممكن أن يكون لخلق من خلقه حق التصرف بالشيء ولكن ذلك يكون مؤقتاً و في الحقيقة ليس مالكاً له فالملك لله.

لذا عندما يبدأ أي عمل بالبسملة الشريفة، فكأنه يستأذن من صاحب الملك عَزَّوَجَلَّ.

الاعتقاد بملكية أيّ شيء غفلة. يجب التحرر من هذه الغفلة.

من يحسّ في قرارة نفسه بملكية شيء فهو لا يؤمن باسمه تعالى الملك و بأن لا ملك حقاً و مطلقاً إلا لله جَلَّجَلَالُهُ.

الإحساس بالملكية هو شعور عميق عند الإنسان و يخلق إشكالات سببها حب التملك، هناك من يدعي جهاد النفس في عدم التملك و محاربته، ما يحدث عندها أن المرء مثله العليا شيء و نفسه شيء آخر مختلف، ينتج عن ذلك صراع بينهما.

فلماذا يعيش هذا الصراع؟.

إن اعتقد بأن الملكية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فلن تكون عنده عُقَد و تعلّق بأشياء زائلة، و لن تعود هنالك صراعات قد تصل إلى قتال على أمور زائلة.

عندما يحدث لديه تغيير عميق و قناعة أنه يملك ولكن الملك لله، ينعدم ذلك الصراع و يتحول إلى سلام لأن عقيدته أن **الملك لله** و هي عقيدة و ليست مجرد عبارة يرددها.

عقيدة المسلم هي انعدام الإحساس بالملكية و هذا الإحساس متوازن؛ أنا لست مالكاً لأيّ شيء بل مستخلف عليه كما تشير الآية الكريمة من سورة الحديد:

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ...﴿٧﴾ ﴾



و في هذا أيضاً تحرر من عادة مستأصلة في النفس البشرية، هي الخوف من الإنفاق:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ...﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢].

﴿...فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ...﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٨].

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٠].

فأيّ شيء وضع عند إنسان فهو لا يملكه بل مؤتمن عليه. وعليه أن يحسن التصرف به، و هذا توظيف و أمانة،عندئذ، تتلاشى كل شحنات التشنج في الملكية.

هذه العقيدة تحرر ولها أبعاداً كبيرة على مستوى البشرية فمن أكبر مشاكل البشرية التملك، والتي وراءها الخوف من الاحتياج للآخرين.

المفهوم الذي يجب ترسيخه في عقولنا أن ملكه سبحانه لا يستطيع أن ينازعه فيه أحد.

المفهوم القرآني الذي يجب ألا يغيب عن الأذهان أبداً أن التصرف المطلق لله وحده و قدرته سبحانه على هذا التصرف.

و الشاهد: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ..﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٨].

يملك سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يعني عنده القدرة التامة على التصرف، التصرف التام بالشيء و القدرة التامة على الشيء.

و بالمقابلة التامة:

﴿...أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ...﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١٦].

﴿...إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ...﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١٧].

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٢].

بذلك فالمفهوم الأساسي للملك بالنسبة للقرآن الكريم:

هو أن المُلك، خاصة بالنسبة لله تعالى، هو القدرة التامة المطلقة على التصرف.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ١٦].

جزى الله عنا سيدنا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كل خير لما وصلنا من أفضاله في الحديث القدسي:

عن ابنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

«يَقْبِضُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ» [صحيح مسلم: ٤٩٩٤].

«وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن عُمَرَ قالَ: قالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَطْوِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ السَّماوَاتِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» [صحيح مسلم: ٤٩٩٥].

ملاحظات حول اسمه تعالى الملك جَلَّجَلَالُهُ:

من خلال تدبر الآيات الكريمة نجد أن تجليات هذا الاسم المطلقة في الآخرة، كما يشير إليه قوله تعالى في سورة الحج:

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ و من سورة الفرقان: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ومن الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾: عبارة هائلة و شيء عظيم. يتلاشى المرء أمامها.

ذروة الكلام السابق كله هو: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ من سورة المؤمنون.

المؤمن بالاسم الشريف سوف يشهد قائلاً: ﴿... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١١].

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾: حقاً و قناعة و يقيناً، لأنه يستحيل أن يكون له شريك في الملك.

إنه لمن اللافت للنظر ورود اسمه تعالى الملك ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ في فاتحة الكتاب الكريم، و في آخر سورة منه بالترتيب سورة الناس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ ﴾ [الناس: ١١٤/ ١-٢] و التي لم يرد فيها أيّ اسم من الأسماء الحسنى سواه.

حال قارئ القرآن الكريم هو الحال المرتحل، تلتقي سورة الفاتحة مع سورة الناس، مثل أول وآخر نقطة من دائرة.

«عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ. قَالَ: وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ؟ قَالَ: الَّذِي يَضْرِبُ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ، كُلَّمَا حَلَّ ارْتَحَلَ» [سنن الترمذي: ٢٨٧٣]..

اسمه تعالى القدوس جَلَّجَلَالُهُ

(٠٠٤)

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣].

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١].

*****

اسمه تعالى القدوس جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء القرآنية ورد بصريح العبارة في موضعين من القرآن الكريم.

أولاهما في سورة الحشر مع كتلة من الأسماء الشريفة:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣].

و ثانيهما مستفتحاً لسورة الجمعة، كذلك مع كتلة من الأسماء في قوله تعالى:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١].

و في كلتا الحالتين مسبوقاً باسمه تعالى الملك جَلَّجَلَالُهُ. مما يوجه التفكير إلى تجرد مفهوم الملكية الإلهية عن الملكية البشرية، فملكه سبحانه مقدس و مطلق ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١٢٠]، لا حدود لملكه سبحانه ﴿ ... ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦].

صفة الملك عنده صفة مقدّسة، جَلَّجَلَالُهُ الخالق منزّه عن الاحتياج و الارتباط بملكه، مما يستدعي رفع فهمنا لاسمه تعالى الملك.

ما ورد في القرآن الكريم حول الجذر «قَدَسَ» يفيد القدسية و الطهر و التنزيه، لعلّ أبرزها قول الملائكة الكرام في آية مميزة من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ..(٣٠)﴾، ولا يخفى ذكرهم الدائم له جَلَّوَعَلَا: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» [صحيح مسلم: ٧٥٢].

كما ورد في عدة آيات لقباً لسيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «رُوحُ ٱلْقُدُسِ» المكلّف بإنزال الوحي على الرسل و الأنبياء، و خاصةً لأعظم مجال مقدس على الإطلاق، القرآن الكريم. ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ..(١٠٢)﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٢].

و ورد أخيراً وصفاً للوادي المقدس طوى مكان أول لقاء لسيدنا موسى مع ربّه سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾ [طه: ٢٠/ ١٢]،

و للأرض المقدسة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ...(٢١)﴾ [المائدة: ٥/ ٢١].

و قد اختص سبحانه أماكن مقدسة، مكة المكرمة تقدست بوجود الكعبة فيها، الكعبة التي تقابل البيت المعمور في السماء السابعة، وكما جاء في حديث الإسراء:

«.. فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ..» [صحيح البخاري: ٢٩٦٨].

القدس الشريف معراج الملائكة الأطهار النورانيين ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٠].

نفهم إذاً صراع قوى الشر بالسيطرة على القدس لأنها معراج الملائكة.

و كم بالصلاة هناك ترابط وثيق بين القدسية و القدس و الصلاة.

القدسية إذاً قريبة جداً لصفاتهم عليهم السلام. لا نجس لهم، أطهار عليهم السلام ولا يأتون إلا لمكان طاهر يليق بهم، و هناك ملائكة كرام شداد غلاظ لا يهمهم أيّ شيء عليهم السلام أجمعين.

بشكل لافت للنظر، ختم سبحانه الآية الأولى بالتسبيح: ﴿...سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣]، و مستفتحاً به في الآية الثانية: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١)﴾ الجمعة، مستدركاً قارئها أنه جَلَّجَلَالُهُ أعلى من أيّ تصوّر. و أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء، قدوس مقدّس منزّه عن أي شيء.

المسلم مصلي و بهذه الصلاة يكون مقدّساً. لذا يجب أن يكون في طهر.

إذاً المطلوب من المسلم الطهارة مادياً و معنوياً بأن لا يكون فيه خبث مثل: ربا، غش، غيبة، نميمة.

هذا الكلام دعوة إلى النقاء و الطهر و تتويج نقاء المسلم عبر يومه في الصلاة و هي لحظة ذروة النقاء و الطهر:

«عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: أَرَأَيْتُم لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَاب أَحَدِكُم يَغْتَسِلُ فِيه كُلَّ يَوْم خَمسًا مَا تَقُولُ ذَلكَ يُبْقِي مِن دَرَنِه؟ قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِه شَيْئًا. قَالَ: فَذَلِك مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا» [صحيح البخاري: ٧٩٤].

و هذا العمل تخلق بالأسماء «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» أي تَخَلَّقَ بها. النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان خلقه القرآن.

اسمه تعالى القدوس يستدعي من العبد تنزيه الله جَلَّجَلَالُهُ باستمرار عمّا لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تنزيهه عن أيّ عيب أو نقص تنزيه عن أي إسقاط بشري؛ و هو المطلق المجرد جداً جَلَّجَلَالُهُ لا يقبل الخبيث ولا يقبل الخبث، و كلما كان الشيء نقياً طاهراً مقدّساً كلما أمكن لهذا الشيء الاقتراب منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذاً، هذا حث للإنسان إلى النقاء و الطهر و الابتعاد عن الخبث طمعاً بالتقرب من حضرة الملك القدوس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. و عندها يتوخى الإنسان في كلّ لحظات حياته هذا النقاء و هذا الطهر حتى يكون لائقاً بالربّ الذي خلقه و الذي هو قدّوس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بهذا التطبيق للاسم يرفع الذاكر له من حضيض إلى سمو. و عندها يكون مرتبطاً، مطابقاً للكون و الإرادة الإلهية.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينزل إلى السماء الدنيا بالأسحار لذا فهو قدوس. و إن نزل سبحانه فهو قدّوس جَلَّجَلَالُهُ.

النتيجة: تنزيهه جَلَّ وَعَلَا بشكل متواصل مع الهيبة و الجلال و الابتعاد عن النجس و الاقتراب من الطاهر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

اسمه تعالى السلام جَلَّجَلَالُهُ
(٠٠٥)

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣].

*****

﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٥٨].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٧٩].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٩].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٢٠].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٠].

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٨١].

*****

اسمه تعالى السلام جَلَّجَلَالُهُ:

لم يرد الاسم الشريف إلا في آية واحدة من سورة الحشر في القرآن الكريم ضمن كتلة من ثمانية أسماء من الأسماء الحسنى. و هي الآية الوسطى من الآيات الثلاث الشهيرة من آخر سورة الحشر. ليكون بذلك مع ثلاثة عشر اسماً من الأسماء الحسنى الواردة في الحديث.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

لا نجد في الآية الكريمة من سورة الحشر أية معلومة يمكننا اعتمادها للانطلاق لتفسير اسمه تعالى السلام بحد ذاته من دون الأسماء الشريفة المحيطة به.

لا بأس من دراسة الجذر الثلاثي بموضوعية كأول خطوة منهجية لتناول الاسم الشريف، إذ لا يوجد في ذلك مخاطرة بصدد تنزيهه سبحانه والأدب معه، خلافاً للإشكالات التي قد تظهر في حال تناول الاسم مباشرة.

ننطلق من الجذر الثلاثي إذاً، نوضح الأمور ثم ننتقل إلى الاسم الشريف.

دراسة الجذر الثلاثي بموضوعية تساعد في عملية تركيب النتيجة النهائية من دون أن تحدها، إذ **لا حد في السمو في فهم أي اسم من أسمائه.**

في البحث حول المصدر «سَلَمَ» نجد:

سَلَمَ: خلا من النقائص أو العيوب.

سَلَمَ: و منها سَلّمَ، أوصل أو بلّغ ما بلّغ بالكامل بلا نقص أو أعطى ما أعطى بالكامل بلا نقص مؤتمنا عليه.

هذا المعنى يفيد التمام أو الكمال بمعنى عكس النقص. لا يمكنك تسليم ما ائتمن ناقصاً.

مما سبق نقول: سالم من كل عيب.

اسمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ السلام يحوي المعاني المذكورة إضافة إلى المعنى الأساسي الذي يجعله متميزاً عن معاني القدوس الذي يغلب الطهر و النقاء على معانيه.

أما السلام فالمعنى الذي يتبادر إلى الأذهان هو انعدام صراع الأضداد فيه و غلبة بعضها على بعض أبداً.

بالنسبة للعقيدة ما ذكرناه أخيراً أساسي، إذ انه جواب عن تساؤلات و قطع طريق على افتراضات لا أساس لها فيما يتعلق بالألوهية. لا تنسى أن رسالة الإسلام هي الرسالة النهائية كافة للناس، وبالتالي إن لم يطرح مسلم عادي تساؤلات عن الألوهية فهذا لا يعني أنه لا يوجد من تعذبه هذه التساؤلات و تضله، و كانت بعثة سيدنا النبي إجابة عن هذه التساؤلات.

و الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من رحمته و هديه يجيب السائلين.

هناك الملايين الذين يعتقدون أن ثمة قوة عليا تهيمن على الكون و هذه القوة ليست سوى حصيلة



صراع أضداد و تجليات هذه القوة هي تجليات طغيان قوة على قوة أخرى ريثما تطغى الأخرى على الأولى مثل:

العقائد الفارسية.. أهرمان .. نور وظلام... يينغ يانغ... صراع الخير و الشر.... سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عما يصفون.

في اسمه تعالى السلام لا يوجد صراع الأضداد.

بالبحث على مستوى الجذر نجد عبارة «سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ » في الآية الكريمة من سورة المائدة: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ ..﴿١٦﴾ ﴾ و من يتبع «سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ »فإن المأوى بالضرورة هو «دَارِ ٱلسَّلَٰمِ» في إشارة منه سبحانه إلى الجنة في سورة يونس: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ و في سورة الأنعام: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٠-٤١].

الجنة لا أضداد فيها بل انسجام تام. يؤكد هذا قوله تعالى من سورة الحجر:

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٥-٤٧]، و في سورة يونس: ﴿.. وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ ...﴿١٠﴾ ﴾.

من معاني اسمه تعالى السلام انعدام صراع الأضداد. الانسجام المطلق فهو جَلَّجَلَالُهُ القابض و الباسط، الخافض و الرافع، المعز و المذل، المبدئ و المعيد، المقدم و المؤخر، الأول و الآخر، الظاهر و الباطن، العفو و المنتقم، الضار و النافع، تقدست أسماؤه و صفاته، هو كلّ هذه الصفات و الأسماء بآن واحد، لا تغيب صفة من صفاته سبحانه إطلاقاً، جمع بينها كلها لفظ الجلالة «اللّه» بتجرده، ليعبّر عن هذا الانسجام التام و الدائم لانعدام تام لصراع الأضداد ولا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه.

كونه جَلَّوَعَلَا « السلام» فلا صراع للأضداد في نفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

﴿ ...تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ ...﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٦].

و بالتالي فإن تجليات إرادته ليست نتيجة لردود فعل أحوال سلبية و إيجابية كأحوال الإنسان، بل تجليات إرادته في عالم الخليقة ناتجة عن السلام.



﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٩].

عقيدة المسلم تمثل ما ذكرناه و أن يكون حاضراً بقلبه و وجدانه أنه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ سلام لا أضداد فيه. تجليات إرادته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ منبثقة من السلام. كل شيء لديه منسجم بالكلية و كل شيء متجه باتجاه البسط و أن يحسن الظن بالله تعالى.

الاعتقاد يستوجب التخلق فالنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان خلقه القرآن. أي إن نفسه مجبولة بهذه القناعة.

و بالتالي كل ما ذكرناه عن التسليم الكامل للأمانة، و توخي السلامة في كل ما يفعله و أن يكون خالٍ من العيوب و النقائص، و بعلمه بالقدوس كل عمله فيه سمة الطهر. هنا سمة السلامة من النقائص و العيوب، تعامله مع الآخرين بانعدام الأضداد أي الشخص تعامله مع الناس معدوم فيه صراع الأضداد.

أي ألا يتعامل مع الآخرين، كمسلم، بالمجابهة و المعاكسة، مثل جبهة ضد جبهة، و إنما الاثنان بنفس الاتجاه لا صراع أضداد بينهما.

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ... ﴿٥٣﴾ ﴾[الإسراء: ١٧/ ٥٣]، ﴿ ...ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

تحية المسلم لأخيه المسلم «السلام عليكم» لا أضداد فيها، تذكرة منه سبحانه لعباده يوم يلقونه ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٤] و تحيتهم فيما بينهم في جنة النعيم ﴿ ...وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ١٠].

بالنسبة لنفس المسلم أن يتوخى إزالة و إعدام صراع الأضداد في نفسه أولاً. بعبارة أخرى إزالة التناقضات لا يوجد في نفسه صراع داخلي أريد، لا أريد، إلخ.. يعني كلّ ما يلزم للسمو بنفسه و الارتقاء بها.

و قد استنتجنا في مقطع «السمو بالنفس» من الكتاب:

بذلك و قد عمل المرء على التخلّص من عيوب نفسه و على إصلاحها، اضمحلت و تلاشت سلبيتها و ما فيها من تضاد مع النظام الكوني، و تحولت إلى انعدام التضاد، أي السلام، و السعي فيه لتحقيقه، أي الإسلام.

عندئذٍ تأخذ أركان الإسلام كلّ معانيها، فاتحة للذي يزكّي نفسه و يلتزم بها أبواب التواصل و الانسجام مع الحقيقة المطلقة.

و في مقطع «حقيقة أبدية و واحدة» إن وزن «الإِفعال» يفيد المبادرة للقيام بأمر أو تحقيقه على التمام.

بناءً على ذلك يكون تعريف **كلمة** «الإسلام»: **القيام بتحقيق** انعدام صراع الأضداد.

فالأمر إذاً، قائمٌ على المبادرة و الهمّة و العزم، فما أبعده عن سلبية الاستسلام.

كلمة «مسلم» تتماشى تماماً مع ما سبق، فهي مبنية على وزن «مُفْعِل»، مثل مُنْصِف، منجز، منذر، مُكمل. و التي يُفهم منها أن وزن «مُفْعِل» يعبِّر عن الذي يقوم بأمر و خاصة يثابر عليه محقّقاً إياه.

و من أفضال سيدنا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى دعاؤه: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَأَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُلُوبِنَا، وَأَزْوَاجِنَا، وَذَرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ، مُثْنِينَ بِهَا قَابِلِيهَا، وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا» [سنن أبي داود: ٨٢٥].

اسمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ السلام تجاوز لصراع الأضداد في النفس و مع الآخرين.

ملاحظات على اسمه تعالى السلام جَلَّجَلَالُهُ:

كل شيء في الإسلام منسجم بالكلية وكل شيء متجه باتجاه واحد لا شتات فيه و لا تمزق.

الإنسان الذي يقرر على مستوى أمة وعلى مستوى أجيال، يجب أن يكون مجهزاً قبل أن يصل إلى هذه المرحلة باسمه تعالى السلام، وأن يكون متجرد عن نفسه وهو مجرد ممر للإرادة الإلهية ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٢]، إن كان كذلك فهو من يقود العالم.

اسمه تعالى المؤمن جَلَّ جَلَالُهُ
(٠٠٦)

ورد اسمه تعالى المؤمن بشكل صريح مرة واحدة في القرآن الكريم.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣].

*****

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥-١٢٦].

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤].

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٣].

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٨١].

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٧-٩٩].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ١١].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٦].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٩].

﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٧].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٥].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٥-٤٦].

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٢].

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٤٥].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١١٢].

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٨-٦٩].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥].

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٤٥-١٤٦].



﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣١].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٧].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٨].

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٧].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠].

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٥٤-٥٥].

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٧].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٦-١٧].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٢٧-٢٨].

*****

اسمه تعالى المؤمن جَلَّجَلَالُهُ:

معنى المؤمن: الذي يمنح و يعطي الأمان.

الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي يمنح أو يعطي الأمان، يمنح الأمان لمن يشاء و هو الوحيد القادر على منح الأمان الحقيقي.

الاسم بعد اسمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ السلام هو المكان الأمثل له ولا يوجد غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من يعطي الأمان الحقيقي.

اسمه تعالى السلام صفة للذات الإلهية هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ السلام أما اسمه تعالى المؤمن فيه معنى عطاء أو منح إلهي.



مؤمن على وزن مُفعل سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، مثل مقسط، فيها فعل فيها منح فيها عطاء فيها بادرة منه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ تجاه خلقه لمنحهم الأمن أو الأمان.

اسمه تعالى المؤمن تسري فيه تجليات حرف الواو و ما فيها من معاني الودّ و الرأفة و الرقّة، حرف الواو هذا يؤثر في الحرفين الباقين م، ن فيصيران بمعيته بمنتهى الرقّة. لا وجود في هذا الاسم لأحرف قاسية. الميم في هذا الاسم تصبح رقيقة، كميم اسم أم أو كميم ماء. ليست كلّ الميمات مثل بعضها ولكن هنا الميم رقيقة، النون حرف يشير إلى جلال مرتبط بعلم و قدرة و هو كذلك بتأثير الواو و الميم المتأثر بالواو تتوجه قواه توجّهَ نجدة و رأفة.

عقيدة المؤمن أن الذي يمنح الأمان هو الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إذاً، لا يضيع الإنسان جهوده بطلب أمان من غير الله لأنه الوحيد الذي يمنح الأمن ولا أمان حقيقي إلا بطاعة الله و مع الله. وهي من تجليات إرادته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ و الشواهد في هذا الصدد في كتاب الله كثيرة.

منها قوله تعالى لسيدنا موسى:

﴿ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣١].

و كذلك قوله تعالى لسيدينا موسى و هارون:

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦ ﴾ [طه: ٢٠/ ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿... لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ .. ٤٠ ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٠].

و قوله تعالى في سورة الأنفال الآيات ٩، ١٠، ١١:

﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ ﴾.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٩].

﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤ ﴾ [قريش: ١٠٦/ ٣-٤].

ومن باب التخلق باسمه تعالى المؤمن يجب على المسلم بأن يكون مأمناً للآخرين كي يحظى بهذا الأمن.

من واجب المسلم تحقيق الأمن و الأمان للآخرين و احترام ذلك طمعاً بأمن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

اسمه تعالى المهيمن جَلَّجَلَالُهُ
(٠٠٧)

ورد اسمه تعالى المهيمن بشكل صريح مرة واحدة في القرآن الكريم.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحشر.

*****

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨].

*****

اسمه تعالى المهيمن جَلَّجَلَالُهُ:

الهيمنة فيها معنى الارتفاع والعلو، قدرة على ما دونه وسيطرة تامة على كل شيء و قدرة اللّٰه مصحوبة بالعلم و الحكمة.

علو من غير أن يُعلى عليه ومن علوه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إشرافه، و بالتالي سلطته التامة و سيطرته ومعرفته بكلّ ما يجري، وهو على علم بالصغيرة و الكبيرة ولا تخرج صغيرة ولا كبيرة إلا بعلمه و إرادته وسيطرته سبحانه. علمه محيط بكلّ شيء. و هو مشرف على كلّ شيء من علوه و جلاله.

مهيمن: الكلمة معبرة تماماً وأيّ كلمة نشرحها أقل فصاحة و لن يكون هناك أفصح منها و هي أنسب كلمة للمعنى.

اسمه تعالى المهيمن قوي حصرناه بالعلم هذه الخاصة نراها بأسماء مثل القهار و المنتقم و القوي و غيرها، ولا يغيب عن بالنا أن المهيمن هو نفسه العدل و الرؤوف و المقسط ..

اسمه تعالى المهيمن جواب عن سوء اعتقاد في الأديان الأخرى حتى تصبح الفكرة عندهم التفاف على الإرادة الإلهية و فرض إرادة الإنسان عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذاً اسمه المهيمن سبحانه هو جواب عن هذه المسألة و يحلّ كلّ إشكالات خوف الناس من طواغيت أو جبابرة أو قوى خفية. و بالتالي نحن نعطي الأهمية للّٰه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

عدم صحة الاعتقاد بهذا الاسم الشريف توصل الإنسان إلى مواصل بعيدة و تتطور به الأمور إلى حدّ يظن فيه أنه يحتال على القدر و الإرادة الإلهية ويمكن له أن يخرج و يتحرر منها.

كلّ إنسان لا بدّ له من خالق و خالقه أعلم به و طالما حدث هذا الشيء معناه أنه سبحانه لديه حكمة، ما هو مستقبل لنا فهو ماض بالنسبة له لأنه سبحانه خارج الزمان.

الاعتقاد باسمه تعالى المهيمن يتأتى عنه خوف من اللّٰه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في التصرّف، والعمل والتعامل مع الآخرين، و عدم الخوف منهم لأنه لا حول لهم بوجود المهيمن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

و كيف لأحد أن يتطاول و اللّٰه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مهيمن.

و كيف لأحد أن يخاف و اللّٰه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مهيمن.

وصفة المهيمن صفة دائمة أزلية مثل كلّ صفاته سبحانه.

و الحمد للّٰه أنه مهيمن و إلا لحصل **انعدام تام للنظام**.



ملاحظات على اسمه تعالى المهيمن جَلَّجَلَالُهُ:

سؤال: إن كان مكتوب علينا الأمر فكيف نحاسب عليه؟.

هو سبحانه وتعالى خارج الزمان والمكان عندما نقول: كيف هو سبحانه وتعالى كذا... هو خارج قوانيننا وخارج الزمان ما هو مستقبل لنا هو ماضٍ بالنسبة له. وهو سبحانه خارج هذا الزمان.

* نفترض الإنسان حر ١٠٠٪ بأفعاله وسبحانه لا يعلم عنه شيء، سوف تكون أفعال الإنسان حادث وابتكار له سبحانه وتعالى، وهذا تنافي مع هيمنته جَلَّجَلَالُهُ ويولد انعداماً تاماً للنظام، وبالتالي صفة النظام والهيمنة تذهب.

بقي سؤال كيف الحساب ؟. والجواب: إذا أنا لم أعرف و لم أجد لها حلّاً فكيف سبحانه وتعالى سوف يجد لها حلّاً.

عملياً وضعت نفسي مكان الخالق جل وعلا وأريد أن أحاسب العباد ولا أعرف لها حلّاً فكيف سيعرف سبحانه وتعالى لها حلّاً؟

* كل شيء تحت أنظار و إرادة المهيمن سبحانه. مهيمن أي لا يترك شيئاً، و باستمرار بقوته هو مهيمن و هذا المفهوم يحتاج إلى تجرد.



اسمه تعالى العزيز جَلَّجَلَالُهُ
(٠٠٨)

ورد الاسم الشريف في ٨٨ موضعاً من القرآن الكريم. ورد تارة معرفاً بأداة التعريف و تارة غير معرّف.

لم يرد قط مفرداً، بل ورد مقترناً بأسماء شريفة أخرى حصراً.

الاسم الشريف كان دائماً سابقاً لاسم آخر فيما عدا حالة واحدة أتى مسبوقاً باسمه تعالى القوي جَلَّجَلَالُهُ.

عدد الصيغ الواردة ١٢ = ١١ مرة مع اسم آخر + ١ مرة مع كتلة أسماء شريفة مرتّبة أدناه حسب ورودها في القرآن الكريم:

١	ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ	٤٧
٢	عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ	٤
٣	ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ	٦
٤	ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ	٧
٥	ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ	٣
٦	ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ	١٣
٧	عَزِيزٌ غَفُورٌ	١
٨	ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ	١
٩	ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ	٣
١٠	عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ	١
١١	ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ	١
١٢	ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ	١



اسمه تعالى العزيز: اسم فيه معنى الجلال و الهيبة و الجبروت اسم يوجب الخشوع و الرهبة، إذ إنه جَلَّوَعَلَا لا يؤثر فيه شيء ولا يتأثر بشيء مهما فعل المرء حتى يؤثر فيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يتأثر حاشاه جَلَّجَلَالُهُ.

لا يوجد شيء يؤثر فيه سبحانه ولا يتأثر بشيء استقلال تام. حتى لو اجتمعت الإنس و الجن فإنه تعالى عزيز لذا هو مجيب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟.

اسمه تعالى العزيز على وزن «فعيل» هذا الوزن يفيد أن الصفة إن جازت العبارة حميمية؛ أي إن الصفة موجودة في الموصوف إلى أقصى أعماقه. و من جهة أخرى وزن فعيل يفيد عندما يتعلق الأمر به جَلَّجَلَالُهُ خاصةً أن الصفة متمثلة بحدودها القصوى أي إنها تأخذ أقصى بعد ممكن لها.

هذا الكلام ينطبق على جميع الأسماء التي لها وزن «فعيل».

إذاً صفة العزّ بالنسبة إليه جَلَّجَلَالُهُ هي صفة تامة و ليست سطحية بل إلى أعماق الأعماق إن جازت العبارة.

على وزن «فعيل» تأخذ صفة العزّ أقصى حدّ لها و نستطيع أن نقول: أنه لا عزيز بالمعنى المطلق إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

العز: هو ترفع و استغناء و عدم التأثر بأيّ مؤثر خارجي. أي إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عندما يحكم بعزته يحكم حكماً مستقلاً لا يؤثر فيه أيّ مؤثر ولا أي شيء ولا يميل لشيء ولا يطلب شيئاً عنده كلّ شيء ولا ينقصه شيء، و إنما يفعل ذلك بترفع و سمو و استغناء تام عن كل شيء.

عزيز جَلَّجَلَالُهُ: أي إنه سبحانه منيع لا يؤثر فيه أحد، وأعلى من أن يصل إليه أحد، كائناً من كان، مستقل استقلالاً تاماً عن أي مؤثر جَلَّجَلَالُهُ و هذا هو معنى عزيز.

حكيم جَلَّجَلَالُهُ: تفهمنا علاقات البدايات بالنهايات لو لم يكن لأي أمر مكان في النظام الكامل الذي أراده سبحانه لما حصل هذا الأمر.

الاسمين الشريفين: عزيز حكيم:

عزيز عزّ،

حكيم حكمة.

حكمة و عزّ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أي سبحانه مترفع ليس لديه أي نقطة ضعف مستقلّاً استقلالاً تاماً عن أي مؤثر.

الناس ليسوا واعين لهذا التصور والاعتقاد بالتعامل مع اسمه تعالى العزيز.

الأجيال المعاصرة لا تعي تماماً معنى هذا الاسم و تفهم مكنون اسمه العزيز أن فيه معنى القرب، الودّ، الصلة الودية الروحية معه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ و هذا غير صحيح.

هذا المعنى متأثر بالاستخدام المعاصر لكلمة عزيز و هو تأثر غربي واضح جداً خاصة من تعبير فرنسي لكلمة (Cher) وهي ترجمة عزيز.

(cher ami) تعني صديقي العزيز و المعنى ذاته في الإنكليزية أيضاً عندما نقول: (Dear) إلخ...

إن عبارات «عزيز على قلبي»، «معزة»، «أعز فلان كثيراً»، كلها مقتبسة من الفكرة المذكورة.

فالمعنى المعاصر المفهوم لكلمة عزيز لا تمثل معناها في اللغة العربية و ليس هو المعنى المقصود في اسمه تعالى عزيز.

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾.

الآية الكريمة لافتة للنظر لتقدم اسمه تعالى القوي على العزيز ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾، وهي الصيغة الوحيدة التي يتقدم فيها اسم آخر على العزيز جَلَّجَلَالُهُ.

كلمة قوي هنا تنفي المعنى الشائع المعاصر. كما وردت أيضاً بشكل آخر مؤكدة باللام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾، وفي مواضع أخرى وردت كما يلي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

من خلال مراجعة الآيات التي ورد فيها اسمه تعالى القوي مقترناً مع العزيز نلاحظ أن المعنى المرتبط بكلمة cher منفي بشكل مطلق. وكذلك شواهد أخرى اقترن اسمه تعالى عزيز مع أسماء أخرى «عزيز <u>**ذو انتقام**</u>» مثلاً...

إذاً يجب عدم رفع الكلفة في التعامل مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يعني أن رحمته الفائقة غلبت على عزته و سائر صفاته. عرّفنا سبحانه بتلك الحقيقة من خلال اسمه الرحمن و من خلال كتابه الذي يسّره للذكر.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ٥٤/ ١٧].

ورود صيغة العزيز الرحيم لأول مرة كان بشكل مجموعة تسع مرات في سورة واحدة. إذاً فهذا الشيء هو تيسير للذكر.

هذه الفكرة: «فكرة عدم غياب الصفات القهرية و غلبة الرحمة عليها» يبرزها و **يوضحها** التقابل



بين معنى الجلال و الجبروت في اسمه تعالى العزيز و الرحمة الفائقة في اسمه تعالى الرحيم.

إذاً فهذه الفكرة معبّرٌ عنها من خلال اسمين، أي إنّ اسمه تعالى الرحمن جَلَّجَلَالُهُ يترجمه العزيز الرحيم.

اسمه تعالى العزيز يعلّمنا أدب الظن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أي التأدّب في العمل و الطلب منه جَلَّجَلَالُهُ، وفي المناجاة أيضاً و في سائر الأحوال ولأنه عزيز فهو سبحانه مترفع متسامي متعالي و مستغني عن كلّ شيء جَلَّجَلَالُهُ.

هذا الاسم من أسماء الجلال و الهيبة و هو اسم مترفع جداً وبالنسبة له سبحانه التعالي السمو والاستغناء.

لا ننسى بأن الله تعالى هو رؤوف رحيم ودود ولكن بالوقت ذاته عزيز، فإن هيبته و جلاله لا طاقة لأحد بها.

من حيث الاعتقاد الاسم يبعث في النفس التعظيم و الخشية و الشعور بالصغر أمام العزيز، لقد خرّ سيدنا موسى صعقاً من رؤية الجبل، و ليس من رؤيته سبحانه.

﴿... قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا ...﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٣].

أكثر ما يهم في الاسم الشريف هو التأدب مع الله سبحانه و عدم التعامل معه برفع الكلفة.

الآيات الأخيرة من سورة الإسراء تفهمنا هذا المعنى:.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٩-١١١].

(وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ) لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عزيز.

نستشعر إذاً عظمة و جلال و هيبة لا تطاق من اسمه تعالى العزيز.

بالنسبة للمسلم العزيز حقاً هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذاً على المسلم أن يتواضع أمام عظمة العزيز جَلَّجَلَالُهُ ولا يهاب الطغاة لعلمه أنهم ليسوا بعزيزين بل أذلة لكثرة ما يفتقرون إليه. فيكون المسلم عندها كمن وصفه الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

اسمه تعالى الجبار جَلَّجَلَالُهُ

(٠٠٩)

ورد اسمه تعالى الجبار مرة واحدة في القرآن الكريم.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣].

*****

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٢].

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [هود: ١١/ ٥٩].

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٥].

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ١٤].

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٣٢].

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٣٠].

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ١٩].

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٣٥].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٤٥].

*****



اسمه تعالى الجبار جَلَّجَلَالُهُ:

جبار على وزن «فَعّال» و معنى الاسم تجلٍّ منه على خلقه و هي صفة فيه سبحانه تتجلى على خلقه.

الجبار: يفيد الاسم أن قوته وقدرته لا يسيطر عليها شيء إنما هو يسيطر بها على كلّ القوى بعظمة و جلال و لشدة هذه القوة المتسمة بالعظمة و الجلال، كلّ شيء و كلّ القوى تجري بها لا تستطيع مقاومتها و من شدة عظمة و جلال هذه القوة الإلهية لا يمكن لباقي القوى إلا أن تنصاع لقوته سبحانه. ومعنى الجبر الحقيقي أنه جَلَّجَلَالُهُ يجبر كلّ شيء، ولا شيء يخرج عن هيمنته و إرادته بل كلّ شيء خاضع له سبحانه.

نفترض أن الخلق جامد أو متحرك فالله جَلَّجَلَالُهُ يجبر الساكن إما على السكون وإما على التحرك، و يجبر المتحرك على أخذ المنحى الذي يريده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ و هي نظرة كونية.

لنفترض الآن أن الخلق عاقل و غير عاقل، فهو جَلَّجَلَالُهُ يجبر غير العاقل أن يأخذ المجرى الذي يريده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، و يجبر العاقل على ضوابط وضعها له.

نفترض مكلّف و غير مكلّف، ينطبق ما سبق عليه. إذاً، فكلّ شيء يجري بأمره، إن كان ساكناً أو متحركاً جامداً أو حياً عاقلاً أو غير عاقلٍ، مكلفاً أو غير مكلف.

خلق فأوجد قوى، إن تركها فإنها تذهب في كلّ الاتجاهات. فلا بدّ من أن يجبرها أن تذهب أو تجري بالاتجاه السليم و هذا من تجليات قوته سبحانه.

معنى الاسم الشريف هو الجبر بمعنى الإرغام. وهل يكون الإرغام إن لم توجد هناك قوى؟!.

الإرغام يقتضي قوة دنيا تسيطر عليها قوة عليا، بعبارة أخرى قوة عليا تسيطر على قوة أدنى.
القوة الأدنى هل هي فريدة وحيدة... لا... لأنه لا فريد و وحيد إلا إياه. فلا بدّ من قوى مختلفة و كونها مختلفة فهي من درجات مختلفة و تذهب في اتجاهات مختلفة، إن تركت كانت (Chaos) فوضى و خراب. فلا بدّ إذاً من قوة واحدة كي تكون منسجمة و منظمة، ولا بدّ لهذه القوة أن تكون أقوى و مسيطرة ترغم جميع القوى على أخذ مجرىً معيناً. و من أدرى بهذا المجرى سوى الله سبحانه،

هل من قوة تعلم الغايات؟ هو وحده جَلَّجَلَالُهُ يعلم الغايات، فلا بدّ أن يجبر القوى التي لا تعلم غاية الغايات كيف لها أن تجري المجرى الصحيح.

إن عنصر الزمن موجود في حياتنا، أما عند الله سبحانه فهو خارج الزمان لا يتابع الأحداث و إنما الأحداث هي التي تتبع إرادته و سابق علمه، و كلّ شيء في كتاب من قبل أن يبرأ السموات و الأرض.



إذاً، جبره سبحانه هو تجلٍّ لإرادته الأزلية و ليس حادثاً.

أما بالنسبة لمشاهد من على الأرض فالأمر يبدو كحدث ضمن الأحداث.

اسمه تعالى الجبار جَلَّجَلَالُهُ يفيد في حسن الاعتقاد بهيمنة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على القوى وإرغامها بعظمة و ثقة و جلال.

يفيد الاسم أن قوته و قدرته سبحانه لا يسيطر عليهما شيء إنما هو يسيطر بهما على كلّ القوى بعظمة و جلال، و لشدة هذه القوة المتسمة بالعظمة و الجلال كلّ شيء و كلّ القوى تجري بها، ولا تستطيع مقاومتها من شدة عظمة و جلال هذه القوة الإلهية لا يمكن لباقي القوى إلا أن تنصاع لها.

إجباره سبحانه من غير جهدٍ ولا توتر.

إجباره لما أجبر تلقائي بجلال و بعظمة و جمال و تمكّن تام.

ومثاله ملايين المجرات من المادة تسبح بإجبار ولكن بجمال و جلال و بساطة تلقائية.

عقيدة المسلم أنه هو سبحانه يجبر كلّ شيء أن يأخذ المنحى الذي يريده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس هناك من جبار بالمعنى المطلق للكلمة غير الله تعالى.

صفاته سبحانه مطلقة فلا جبار إلا الله لا أحد جباراً و إنما الله هو الجبار حقاً.

النتيجة إذاً تواضع المسلم أمام الخلق و تفكره عند استخدامه القوة.

و نتذكّر دعاء سيدنا يحيى:

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم: ١٩/ ٣٢].

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ [مريم: ١٩/ ١٤].

ملاحظات حول اسمه تعالى الجبار جَلَّجَلَالُهُ:

صفة الجبار في العبد لا تنطبق على صفة الجبار في الله تعالى لأن صفات الله تعالى قبل خلقه، ولا نطبق اللاحق على السابق.

صفاته سبحانه وتعالى أزلية لا صفة قبل الأخرى، فجلّ جلاله بقدر ما هو جبار بقدر ما هو رحيم وبقدر ما هو جبار هو حق وعدل والعبد ليس كذلك.



اسمه تعالى المتكبر جَلَّجَلَالُهُ

(٠١٠)

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٣].

*****

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١١].

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٧].

﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٧].

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣].

*****

اسمه تعالى المتكبر جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف في حقيقته من أسماء الفردانية و الوحدانية، و فيه معنى الزيادة في **الأبعاد** والارتفاع و العلو و الهيمنة و السلطة سواءً بالمعنى الحقيقي أو المجازي.

متكبر على وزن «متفعّل».

«متفعل» الوزن يفيد الفعل، الإرادة و المبادرة. شاء هو سبحانه أن يتفرد بكبريائه لأنه الوحيد الكبير بالمعنى المطلق. لا شيء يجاريه أو حتى يقترب منه في عظمته، و كذلك لم يشأ من عظمته و كبريائه أن يجعل أيّ شيء يجاريه أو حتى يقترب منه.

هو الكبير بكلّ معاني الكلمة و بشكل مطلق هذا الكبرياء صفة فردانية؛ لذا لم يشأ أن يرفع أحداً إلى مستوى كبريائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كبير على وزن فعيل هو بحدّ ذاته كبير أي صفة أصلاً موجودة لذا يستحيل أبداً أن يكون كبير غيره بالمعنى المطلق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

عدم مشيئته برفع أيّ من خلقه إلى مستوى عظمته و كبريائه ليس استئثاراً لنفسه بما يمكن أن يكون لغيره، بل استحالة بسبب الفردانية.

هو سبحانه متكبر متمكن من هذه الصفة و من هذا الكبرياء. و هو الوحيد الذي تليق به هذه الصفة، تكبّره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ معناه تفرّده و تنزيهه، و فروق شاسعة ولا نهائية بينه و بين أيّ شيء.

الفرق بينه وبين ما سواه بكلّ الخصائص و الصفات لا نهائي ولا يمكن تصوره؛ و لذا عند نسب ولد إليه سبحانه أو الشريك أو الصاحبة فهذا من **أكبر** الكبائر.

وجود ولد له سبحانه يعني الاقتراب بكلّ المعاني بالنسبة و التناسب و الخصائص و الصفات بينه و بين غيره، و هذا محال.

يمكن أن تشطح عقول البعض فيذهبون إلى أنه بقدرته إن شاء يجعل نداً له فرضاً. و أيّ شيء في هذا المثال خير من ولد كندّ أو آلهة شركاء أو صاحبة؟.

هنا معنى المتكبر ينفي ذلك. لأنه سبحانه أكبر بكثير من أيّ خلق أو أيّ شيء وهو متفرد بكبريائه لأنه الوحيد الكبير بالمعنى المطلق.

اسمه تعالى المتكبر ينفي نفياً باتاً و قاطعاً الولد أو الشريك أو البنات و الصاحبة، وهو الأهم في العقيدة.

لأنه لا يجوز جعل أيّ شيء أو أيّ مخلوق يقترب بالعظمة و الأهمية أو أيّ صفة جليلة أخرى من الله تعالى.

الكبرياء لله تعالى وحده. إذاً لا كبرياء ولا تكبّر ولا كبر و هذا المعنى واضح. كيف للمخلوق أن يتكبر إن فكر للحظة ما هو بالنسبة لغيره من الخلق كما يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٧].

وما السماء بالنسبة إليه سبحانه؟ أليست السموات السبع بما فيها وسعها كرسيه سبحانه ﴿... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ.. ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

اسم المتكبّر للّه تعالى يفيد الكبرياء و العظمة و الألوهية، و كما أن لفظ الجلالة لا يطلق إلا على اللّه كذلك المتكبر سبحانه شاء أن يضع مسافات بينه و بين خلقه. بوجود الخلق كانت المسافات و هو أوجد خلقه، إن لم يوجد الخلق كيف تكون مسافات.

و العقيدة أن الاسم مثل درء و تعلم أن لا يذهب عقل الإنسان من إمكانية اقتراب أحد من خلقه إليه ولا يدع أحداً يقترب منه سبحانه، و خاصة بوجود أسماء شريفة مثل ودود قريب، قد تسمح للعقل أن يقترب خلقه منه إلى درجة قريبة، و هناك من ذهبت عقائدهم إلى هذا الاتجاه بحجة قدرته على كلّ شيء.

تدبر الآية الكريمة ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١١] تدعوا المرء الذي ولد مسلماً أن يكون الأكثر امتناناً تجاه اللّه تعالى، وأن يحمد اللّه سبحانه لأنه **مَنّ عليه بالحقيقة التامة.**

وجنّبه و وفّر عليه عناء الضياع و البحث عن الإله الحقيقي و عرفه من أسمائه عن نفسه سبحانه، و مَنَّ علينا بالصلاة ليكون التكبير في الصلاة هو تجسيد لمعاني ذلك الشهود وبأنه متكبّر جَلَّجَلَالُهُ.



اسمه تعالى الخالق جَلَّجَلَالُهُ

(٠١١)

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤].

*****

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٢].

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٦].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧١].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٢].

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٢].

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤].

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٤].

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٢٥].

﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: ٥٢/ ٣٤-٣٥].

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٥٨-٥٩].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩].

*****

اسمه تعالى الخالق جَلَّجَلَالُهُ:

اسم هام في كتاب الله تعالى و أكثر ما يعبّر عن الألوهية، خلق أي أوجد من العدم، خلق شيء لم يكن موجوداً، الشيء بحدّ ذاته أوجده الخالق سبحانه.

اسمه تعالى الخالق فيه شيء متكامل و يمكن أن يحمل كلّ المعاني في تدرجات خلقه سبحانه.

الاسم الشريف يعلمنا أن كل شيء عدا الله تعالى فهو مخلوق، **أي شيء قبل خلقه إياه** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **لهذا الشيء معدوم.**

جَلَّجَلَالُهُ خارج الزمان كونه خالق أيّ موجود. فهذه الصفة دائمة به سبحانه و صفاته دائمة أزلية أبدية.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **خالق في كلّ لحظة، إن انقطع مدد خلقه تلاشى المخلوق، فأيّ موجود ما هو موجود إلا بمدد الخالق.**

كلّ مرحلة من مراحل الخلق ما هي إلا إيجاد و خلق و حين نقول خلق على مراحل فهذا من منظار عالمنا، أي مرحلة إن لم تتدخل إرادته سبحانه تعالى بالخلق و الإيجاد تقف.

قوله تعالى: ﴿ .. إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ قد يقول المرء: لم يوجد البشر من العدم بل من طين. الجواب: ليس في الطين بشر إنما الله تعالى خلق البشر من العدم، و استخدم مادة لخلقه طيناً، و قد يغيب عن بال البعض أنه هو سبحانه خلق الطين من العدم.

خلق الله تعالى الإنسان و قبل خلق الإنسان و عند خلقه مادته موجودة. و دليل ذلك أن الإنسان يموت و تبقى مادته و بالحالتين وجد من العدم، و بالنسبة له سبحانه لا حرج أن خلق من ماء أو طين أو أي شيء، و هو الذي خلق الماء و الطين و كلّ شيء.

الاسم الشريف نفي وجود أي شيء قبل خلقه إياه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ **لهذا الشيء، أيّ شيء عدا الله تعالى فهو مخلوق.**

يجب الاعتقاد و الوعي بأن الله تعالى وحده يخلق. وجود أي موجود مرهون باستمرار خلقه له فهو سبحانه يخلق في كلّ لحظة متى توقف خلق أي شيء تلاشى، و كذلك إن تغيير خلق هذا الشيء تغيير، و إن استمر تواجد خلق هذا الشيء في مكان آخر تواجد هذا الشيء في مكان آخر.

الاسم الشريف تصحيح عقيدة و جواب لكل الذين يؤمنون بقضايا مثل الاستنساخ و التعديل الجيني و أمثالها، و ينفي هذا الاعتقاد قوله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٥٨-٥٩].

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق وكل ما سواه مخلوق، وهي عقيدة المسلم.



اسمه تعالى البارئ جَلَّجَلَالُهُ

(٠١٢)

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤].

*****

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٢].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٩].

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٥٣].

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٣].

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٣].

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤١].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٥٤].

*****

اسمه تعالى البارئ جَلَّجَلَالُهُ:

- على وزن فاعل و هذا الوزن بالأسماء الحسنى يفيد الهيمنة و التمكّن التام.

في كتابه الكريم له عدة معاني منها الإيجاد و الشفاء، و بريء من تهمة، و التخلي عن فعل.

كون اسمه تعالى البارئ وارد مع اسمه الخالق و يتبعه المصور هذا يدعونا لترجيح معنى الخلق والإيجاد على معنى الشفاء الذي يتبادر إلى الأذهان. لا ينوب اسمه تعالى البارئ عن اسمه الشافي إذ إن معنى الشفاء لا معنى له ولا مبرر لأنه واقع بين الاسمين الشريفين الخالق و المصور.

و قد عبّر عن ذلك سيدنا النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بدعائه:

«اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا» [صحيح البخاري: ٥٣٠٢] لم يقل النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ـ و هو أعلم بالاسم و أدرى به ـ: أنت البارئ مما يدعونا لتقبل معنى الخلق و الإيجاد على معنى الشفاء.

إن اعتمدنا معنى الخلق و الإيجاد، يُشْكِل علينا أمر هو استحالة التكرار في أسمائه تعالى، طالما الأمر كذلك فلم يتكرر المعنى في لفظين مختلفين يكفي لفظ واحد. إذاً، لا بدّ أن يكون معنى البارئ مختلف عن معنى الخالق.

يمكن أن نفهم هذا الاختلاف بين معنى اسميه تعالى الخالق و البارئ من استقراء معاني الآيات الكريمة، فنجد آيات كريمة بمعنى الشفاء و بمعنى البراءة من تهمة و بمعنى انعدام العلاقة بين فئة و المعنى المشترك هو: تخلٍّ، انفصال، تباعد، انعدام علاقة، و خاصة عدم انتماء.

نسقط هذه المعاني أي «انفصال، تباعد، انعدام علاقة، عدم انتماء» على اسمه تعالى البارئ، نجد أنه سبحانه في خلقه يفصل المخلوقات بمكوناتها بعضها عن بعض و يباعد بين أنماطها وأشكالها.

برء: فصل، أبعد، وهذه المعاني فيها إيجابية و تذهب باتجاه الإصلاح و الكمال و البعد عن العيب، عندها يكون اسمه تعالى البارئ:

الذي يخلق الخلق و يميزه بعضه عن بعض على أكمل وجه و أتم بناء و دون إي تخريب أو عيب بل على التمام و الكمال.

هل ثمة عيب في البرء، هل ثمة شيء أحسن من شخص بريء من مرض، إذاً فالكلمة تحمل معنى الكمال.

البارئ جَلَّجَلَالُهُ هو الذي خلق و أوجد الشيء و أعطاه كيانه المستقل، و قد تمّ هذا الأمر على أحسن وجه و بأحسن ما يمكن أن يكون لأن الشخص البريء براءته كاملة فيها معنى الكمال.

وما يميزه عن اسمه تعالى الخالق هو معنى الانفصال و التباعد و إعطاء كيانٍ مستقلٍّ للشيء الذي أوجده بأحسن ما يمكن، و إن صحت العبارة، أعطاه هويته الخاصة به.

الاسم الشريف أساسي في العقيدة و بتدبر معانيه يوجه عقل المسلم لتفكير كوني و تفكير يذهب بعيداً في المكان و الزمان خاصة.

التعمّق باسمه تعالى البارئ هو تفكر ببداية الخلق وعظمة الخالق سبحانه وتعالى، ومن يفكر بذلك كم عقله عميق متطور.

هذا هو الإسلام الحقيقي، الالتفات إلى الأبعد و الأعظم وترك التفاصيل الصغيرة التي ليست من الإسلام في شيء.

اسمه تعالى المصور جَلَّجَلَالُهُ

(٠١٣)

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤].

*****

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٤].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ٣].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١١].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦-٨].

*****

اسمه تعالى المصور جَلَّجَلَالُهُ:

يحتاج هذا الاسم الشريف إلى نمط معين من التفكير، لذا فإن تناوله سيكون بشكل مختلف عن الشائع، لذا لا بد من القيام ببضعة خطوات تمهيدية لنتمكن من تحديد معنى الاسم الشريف.



الخطوة أولى: يجب تحديد المفهوم الحقيقي لعبارة «صورة» و تجريدها من المفهوم الحديث الشائع في اللغة.

أول ما يخطر على الأذهان هو الصورة الفوتوغرافية و كذلك اللوحات الزيتية و غيرها من مرئيات ثنائية الأبعاد تمثل ما يمكن رؤيته في الواقع.

ينتج عن هذا الفهم غير الدقيق سوءَ فهم للأحاديث المرتبطة بتحريم الصور.

ولكن مجرد تذكّر قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ ...﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦].

يؤكد بوضوح أن معنى الصورة هو تمثيل و تشخيص لشيء بالأبعاد الثلاثة،

كما يؤكد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٨].

و يدعم ذلك الفهم آيات أخرى مثل قوله تعالى:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ...﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٨].

﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ...﴿٨٨﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٨].

﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدًا ...﴿٣٤﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٤].

إذاً، فالمقصود بالصورة هو الشيء المجسد بثلاثة أبعاد.

نتيجة هذه الخطوة الأولى: معنى المصور يأخذ فكرة إعطاء الشكل ثلاثي الأبعاد.

الخطوة الثانية: في اسمه تعالى المصور دعوة للنظر في دقة عبارة ﴿ رَكَّبَكَ ﴾.

اللّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فصّل لنا كيفية التصوير بالتركيب و الأمر يقبل التوضيح والتفصيل:.

لقد من اللّه تعالى علينا بقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾

إن قبلنا بما هو معتمد علمياً نجد أن المورثات تحمل معلومات متعددة لها دور في صورة المخلوق. و من عجائب هذا الأمر أن ثمة مورثة تنظم عمل المورثات الأخرى و تنسق فيما بينها.

إن قبلنا بالأبحاث الأخيرة نجد أن الجسم البشري مقسم إلى شقّين مؤلفين من ثلاث عشرة مجموعة، آخر مجموعة هي المسؤولة عن اليدين.

المورثة المنظمة المسؤولة عن اليد، غير المورثة المسؤولة عن الساعد، و غير المورثة المسؤولة عن العضد و العظم.

عملياً في الرحم ينمو كلّ جزء و كأنه مستقل، يدعم ذلك و يؤيد هذه الفكرة التشويهات الحاصلة أحياناً للجنين أو المولود.

نتيجة هذه الخطوة الثانية في قسمها الأخير دعوة للنظر في دقة عبارة ﴿ رَكَّبَكَ ﴾.






الخطوة الثالثة: في اسمه تعالى المصور دعوة للنظر في أمور تتعلق بالطاقة.

ثمة علاقة وثيقة بين الطاقة و الشكل، و قد ذهبت أبحاث الترموديناميك أشواطاً بعيدة في هذا الاتجاه.

فمثلاً: تتشكل فقاعة الصابون على شكل كروي؛ لأن الكرة هي الشكل الأقل انكماشاً و توفيراً للطاقة لمعادلة قوى التوتر السطحي في المادة مع الوسط الخارجي.

هذه الفكرة للتأمل، إن أمكن، و للمتابعة بالتفصيل و أمثلة أخرى عديدة في هذا المجال.

الخطوة الثالثة عموماً موضوع علاقة الشكل بالطاقة و هو موضوع شاسع.

الخطوة الرابعة: في اسمه تعالى المصور دعوة للنظر في دقة انسجام الصورة مع غيرها.

بأمر من الله تعالى تكون الصورة منسجمة غاية الانسجام في كلّ خصائصها مع غيرها، و هذا بحدّ ذاته إعجاز لا طاقة لمخلوق به، إذ إن هذا الأمر يستوجب إحاطة تامة بكلّ خصائص الموجودات لتحقيق الانسجام المطلق المذكور ومن الأمثلة على ذلك:

البامبو يمكن أن يكون من أقسى المواد النباتية، قصّه بمنشار فولاذي يكون بشق الأنفس. ثمة أنواع من البامبو تتعايش مع أنواع من النمل، ولتسهيل حركة النمل في الجذع و كما هو معلوم فإن جذع البامبو مؤلف مما يشبه فقرات و بين الفقرة و الفقرة حاجز ثم فراغ، في هذا النوع من البامبو الحاجز بين الفراغين قاسٍ للغاية، ولكن يوجد فيه ثقوب لتسهيل حركة النمل.

و هو مثال لانسجام عالمين لا علاقة ببعضهما.

ثمة أنواع من النباتات الاستوائية تعاني أوراقها الجديدة غزواً من نوع من الفراش الذي يضع عليها بيوضه فتنموا اليرقات على الأوراق اليافعة مما قد يهلك النبتة. فنجد أن النبتة لها على أوراقها اليافعة بروزات من الورقة شكلها و لونها تماماً مثل بيوض الفراشة، عندما تراها الفراشة التي تريد أن تضع بيوضها تترك الورقة لأنها استخدمت من فراشة أخرى، فتنجوا الورقة بهذه الحيلة.

ومثال ثالث: ثمة أنواع زهرة أوركيد تنمو في غابات إندونيسيا على الأشجار، هذا النوع من الأوركيد ينمو على أعشاش النمل أعالي الأشجار. و ما يجمعه النمل من مواد عضوية مختلفة. تتميز زهور هذه الأوركيدة بعطر نافذ ينتشر إلى أكثر من ثلاثة كيلومترات يشمه أنواع من النحل البري، ذكور حشرة الزنبور تتعطر بأريج هذه الأوركيدة لتجذب بها الإناث. هذه الأوركيدة لها زهرة معقدة

في شكلها تتمركز الرائحة في مركزها فيدخل ذكر الزنبور في الزهرة ليعطر جسمه بها، فيسقط في مسبح ممتلئ بماء الأمطار فيجن جنونه خوفاً من الغرق وهو يبحث عن مخرج فيجد أمامه ثلاث درجات يصعدها ليجد أمامه نفقاً آخره نور يدخل به و يجد شقاً صغيراً هو مخرج إلى الهواء الطلق، و هو يبذل جهوداً ليخرج و إذ يلتصق بظهره و سادتان مملوءتان بغبار الطلع فيخرج و يطير و هو يحملها. طبعاً ذاكرته ضعيفة و أريج الأوركيد لا يقاوم و رغبته مثل غيره في جذب الإناث، فيذهب إلى زهرة أخرى و يتكرر نفس الفيلم بفارق هو أن آخر النفق يوجد كلابين يلتقطان وسادتي غبار الطلع و يخرج الزنبور بلا و سادتين و تتم عملية تلقيح الزهرة.

و كمثال على علاقة الشكل و خصائص الهواء مثلاً:

الطيور الكبيرة التي تصل فتحة أجنحتها إلى ما يزيد على ثلاثة أمتار اللقلق مثلاً؛ تتميز أجنحتها بأنها تنتهي بانحناءة نحو الأعلى. استوقف ذلك الأمر علماء الأيروديناميك و تبين لهم بعد الدراسة أن هذه الانحناءة نحو الأعلى تشكل زوبعة، و هذه الزوبعة، توفر طاقة و تكون قوة دفع فاعتمدت في جميع الطائرات الحديثة. طبعاً هذا انسجام بين هذا الشكل و خصائص الهواء.

و كمثال على الشكل و خصائص الماء:

فإن سمك التونة سرعته في الماء و قدرته على اجتياز ألوف الكيلومترات و استهلاكه الضئيل للطاقة حيّر العلماء، و تجري حالياً أبحاث لدراسة قوة دفع ليس بالتوربين ولكن بحركة شبيهة بحركة ذنب التونة. لم يحلوا المعضلة لأن ثمة اعتبارات في خصائص الماء تفوتهم وهم ليسوا واعين تماماً أن ثمة تفاصيل في حركة التونة عدا ذنبه منسجمة مع خصائص الماء. علماً أن خصائص الماء مسألة هامة جداً.

إن تابعنا استعراض أمثلة كالتي سبقت و أكثر عمقاً و تخصصاً، حيث تنتهي ضوابط التصوير بمعادلات هندسية و رقمية، نجد أن معادلة الصورة المثلى معادلة شبه مستحيلة لا يقدر عليها إلا الله جَلَّجَلَالُهُ. وكلما توغل المرء في اعتبارات الشكل في الخلق كلما أدرك عظمة اسمه تعالى المصور جَلَّجَلَالُهُ، وكان هذا الاسم باباً يرى من خلاله كلّ أسمائه الحسنى من مثل العزيز الحكيم القادر البديع الواحد القهار.

عندها يرى كلّ الأسماء من خلال هذا الاسم تكتمل الرؤية و تجتمع تحت مفهوم واحد هو لفظ الجلالة.، و كذا الحال إن تعمق في اسم آخر يتحصل له الشيء نفسه.

قضية الصورة شيء مهم في حياتنا و كم يتفكر الإنسان في شكله (وجهه، أنفه، أذنيه ..).

و على مستوى البشرية الصورة و قضية الرغبة بتغيير الصورة و هناك أمثلة كثيرة و ذروتها اللعب بالجينات و الهندسة الجينية و إعطاء خصائص معينة للأولاد. وتأخذ أبعاداً أخطر بوضع مواصفات للأبوين مثلاً... و إن ترك البشر فماذا يفعلون؟ و إلى أين يصلون؟!

خلاصة المسألة أن لا يعبث أحد من الخلق في الصورة و بشكل حاسم هي مشيئة إلهية صرفة.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦].

المعنى الجلي للآية درس في التواضع و تذكير الإنسان من هو، و إعادته لأبعاده كمخلوق.

فتصوير الأرحام بأسرار العزيز الحكيم و الآية الكريمة تأكيد جلي أنه مرتبط بالألوهية وهيمنته سبحانه.

جولة المسلم تأملاً و تفكراً في آثار هذا الاسم في الخلق مصحوباً بمهابة المشيئة الإلهية ترسخ في نفسه تعظيمه للخالق و احترامه للخلق، فالمسلم مدعوٌّ للتأمل و التفكر في الخلق و احترامه، ومحرّم عليه تشويهه.

مدعو، إن كانت هذه مهمته، للإسهام فيما يصنع بالانسجام مع كل ما هو موجود مثل البناء و العمارة وغيرهما.

عدم التدخل في تغيير صور الكائنات أو التفكير بذلك و ادعاء هذه القدرة، ونقول لمن تشطح عقولهم ألا ينسوا أن هناك ثمة شيء يسمى استدراج لإظهار ما بطن ولجعل المكنون موجوداً، و هذا كله ليميز الله الخبيث من الطيب.

أعود مؤكداً على الأهمية القصوى لاسمه تعالى المصور وخاصة أنه من الأسماء القرآنية؛ و ذلك لأننا إن نظرنا إلى واقع المسلمين الحالي نجد أن لا دخل لاسمه تعالى المصور بقضايا العقيدة ولا يمثل طموح أو حاجة و رغبة عندهم.

ولأنه ليس له معنى في حاجاتهم اليومية فلا يهتمون به و دليل ذلك أن لا أحد يسمي عبد المصور.

فأهميته أنه سبحانه قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ..﴾ المهم هو،

و المعنى: هو وحده الذي يصور ولا يمكن لأحدٍ سواه ذلك.

نؤكد الأهمية القصوى لهذا الاسم في عقيدة المسلم و تعرفه على الله سبحانه وتعالى ولا يوجد أكثر من هذا أهمية.



اسمه تعالى الغفار جَلَّجَلَالُهُ

(٠١٤)

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٢].

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٦٥-٦٦].

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤-٥].

اتفقنا على أن ضمير هو أنه هو سبحانه ولا أحد غيره.

﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٢].

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [نوح: ٧١/ ١٠].

*****

اسمه تعالى الغفار جَلَّجَلَالُهُ يحتاج إلى سير منهجي لتوضيحه:

جَلَّجَلَالُهُ، ماذا يغفر؟ الذنوب.

ما الذنب؟ خطأ يتجسد في مخالفة الأوامر الإلهية و يخالف النظام الكوني.

إن حصل الذنب هل يقف الأمر عند ذلك، أم للذنب تبعات؟.

بالطبع، ولا داعي لمناقشة هذا الأمر البين، للذنب تبعات و نتائج تنتج كلّ واحدة منها عن سابقتها كسلسلة يمكن تشبيهها بصف الدومينو المعروف يكفي إسقاط قطعة لتسقط ألوف أخرى تليها.

كمثال آخر كرة ثلج صغيرة على المنحدر و كيف تصبح هائلة أسفله.

فثمة عواقب و نتائج تسري ما دام الزمن.

خير شاهد يثبت ذلك الحديث الشريف بصدد ابني آدم:

«لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» [صحيح البخاري: ٣٠٨٨].

«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» [صحيح البخاري: ٤٨٣٠].

من خلال الشاهدين يمكن فهم عواقب نتائج الخطأ واستمراره على المدى البعيد،

و تبعات نتائج الذنب التي لا تقف عند نقطة محددة.

و السؤال من يستطيع إيقاف هذه السلسلة التصاعدية الرهيبة للخطأ؟

لا أحد يستطيع ذلك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذاً المغفرة إيقاف عواقب انتشار هذه السلسلة و إلغاء عواقبها و نتائجها.

عقيدة المسلم **مهما كانت الذنوب عظيمة فإن مغفرته أعظم** جَلَّجَلَالُهُ.

ولا أدل على ذلك من قوله تعالى في سورة نوح:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ⑩﴾.

وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [سنن أبي داود: ١٢٦٧].



اسمه تعالى القهار جَلَّجَلَالُهُ

(٠١٥)

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٩].

﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٦].

﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٨].

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٦٥].

﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤].

﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٦].

*****

﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٨].

﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦١].

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٧].

﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ ﴾ [الضحى: ٩٣/ ٩].

*****

اسمه تعالى القهار جَلَّجَلَالُهُ:

على وزن فعّال. يفيد هذا الوزن الفعل و القيام به بتمكن تام و بلا حدود.

نلاحظ من خلال استطلاعنا للآيات بحثاً عن المعنى الحقيقي للكلمة، كما اتفقنا على ذلك منهجاً، أن الاسم الشريف متلازم مع اسمه الواحد جَلَّجَلَالُهُ في الآيات الست التي ورد فيها اسمه تعالى القهار، و لم يأتِ إلا مع اسمه الواحد جَلَّجَلَالُهُ.

عدم ورود اسمه القهار إلا مع الواحد يدفعنا إلى النظر إلى الاسم الشريف من خلال علاقته مع اسمه الواحد. أي إن اسمه الواحد يصحح فهمنا لاسمه تعالى القهار. و تجاهل اسمه الواحد في دراستنا لاسم القهار تناول ضعيف و غير دقيق للاسم الشريف.

(هذه الملاحظة نموذجية في تناول الأسماء مثلاً أو أي كلمة أو موضوع أو حتى أي سورة من كتاب الله تعالى. أخذ جزءاً مفصولاً عن الكلّ الذي ينتمي إليه يفقده معناه).

و بالتالي أول معنى يتجلى من الاسمين الشريفين هو حصر القهر لله وحده جَلَّجَلَالُهُ و ما سواه مقهور بقهره. ينبغي على المسلم تجريد معنى القهر في اسمه القهار جَلَّجَلَالُهُ عن معنى القهر الشائع، بعبارة أخرى عدم إسقاط مفهومنا البشري الناتج عن تجاربنا المحدودة على صفاته جَلَّجَلَالُهُ. أول تصحيح هو إلغاء فكرة الظلم فهي منفية عنه سبحانه فهو جَلَّجَلَالُهُ عدل مقسط رحيم رؤوف يقيناً وعلى الدوام، ليس تارة قهاراً و تارة ودوداً.

الله جَلَّجَلَالُهُ و ما نعلم من صفاته و أسمائه مثل اللطيف، و الرؤوف و الرحيم و الودود و العدل و القريب، هو نفسه القهار سبحانه. أسماؤه مثل الكبير العليم الحكيم جَلَّجَلَالُهُ له ولا تقتضي وجود غيره. أما أسماؤه الغفار القهار الوهاب الرزاق و خاصة الخالق تقتضي وجود غيره. فهو جَلَّجَلَالُهُ، ولا يغيب عنا باقي صفاته، قهار بتمكن تام و لأقصى حدّ لكلّ ما يخالف أو يعارض إرادته.

طبعاً علينا أن ننتبه ألا تتحرك في أعماقنا الإسقاطات البشرية عليه سبحانه، فتفكيرنا المعتاد المنبثق من تجارب الحياة الدنيا، أن الذي يقهر من يخالفه طاغية متعسف. بالطبع الأمر ليس كذلك لأنه جَلَّجَلَالُهُ قدوس منزّه عن النقائص و العيوب و هو وصف نفسه بأحكم الحاكمين، و هذا ينفي أن يكون رأي مغاير لرأيه أحكَمَ من رأيه و هذا بالنسبة لنا كمسلمين مفروغ منه.

أما واقع البشرية، فما أسهل أن يقهر إنسان مخلوقاً آخراً بلا معنى بل بدافع من شر نفسه.

الدرس الربّاني الذي لا يغيب عن بال المسلم كلما تحركت في نفسه دوافع الشر و الظلم و القهر، أن القهار واحد لا شريك له، و بالتالي ذاك الإنسان لا يستطيع أن يكون هو نفسه قهاراً، إذ ينفي ذلك

[الواحد القهار] النتيجة المنطقية أن ذاك الإنسان إذاً مقهور. كلما همّ بقهرٍ تذكّر استحالة ذلك و تذكّر أنه هو المقهور بقهر العدل الحكيم اللطيف الرحيم، فيتواضع و يُعرض عن ذلك. كذلك إن تعرّض المسلم لقهر لم تغب عن ذهنه الفكرة السابقة فلا يرى القهر من العبد بل يراه من [الواحد القهار].

نتيجة الموقفين السابقين: في الموقف الأول تواضع تجاه الآخرين و خوف من اللّٰه فيهم فإعراض عما يثير الضغائن و الأحقاد.

بالنسبة للموقف الثاني عدم خوف من الخلق بل من الخالق الذي يسلط الخلق. و بالتالي انعدام الحقد و الضغينة على الظالم.

هذا لا يعني أن يسلم المسلم رقبته لعدوه و إنما يدافع عن نفسه و عن دينه و يواجه الشر بدافع إحقاق الحق لا بدافع الحقد و الضغينة و البغضاء، إذ لا مكان في قلب المسلم للبغضاء و الضغينة وما فائدتها، الأولى للمسلم أن يملأ القلب بالشوق للّٰه تعالى و للحقيقة.



اسمه تعالى الوهاب جَلَّجَلَالُهُ
(٠١٦)

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦].

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٣٥].

*****

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٨].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٤].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٩].

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٥].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٩/ ١٩].

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٥٠].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٥٣].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٢].

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٩-٩٠].



﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٖ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٤].

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢١﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١].

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٣].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٥٠﴾

[الأحزاب: ٣٣/ ٥٠].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٠].

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ٩﴾ [ص: ٣٨/ ٩].

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ [ص: ٣٨/ ٣٠].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٤٣﴾ [ص: ٣٨/ ٤٣].

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٩].

*****

اسمه تعالى الوهاب جَلَّجَلَالُهُ:

من بعد استعراض جميع الشواهد القرآنية التي تدور حول جذر كلمة وهب، نجد أنها تنحصر في دائرة الذرية و الحكم و الملك و الرحمة. و السؤال كيف يكون تمليك الرحمة أو الذرية.

إذاً الوهاب جَلَّجَلَالُهُ على وزن فعّال أي أقصى درجة في التمكن من الأمر و القدرة على القيام به، كذلك يهب أي يعطي بلا مقابل.

عندما يقف العبد سائلاً الله جَلَّجَلَالُهُ و هو مدرك مدى تقصيره و كثرة ذنوبه، و خاصة أنه عبد من بين مليارات من خلق الله تعالى و الله غني عنهم أجمعين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ

ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥-١٧].

فهل يسأل ذاك السائل سؤال مستحق أم سؤال من لو شاء الله أذهبه و أتى بغيره؟.

إذاً يدرك أن ما يسأل الله أن يعطيه سؤله هبة من محض كرمه لا استحقاقه.

عقيدة المسلم أن الوهاب جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يهب أي يعطي وهذا العطاء عطاء بلا مقابل لا استحقاقاً للعبد بل من محض كرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولا يكون لأحد غير الله جَلَّجَلَالُهُ أن يهب الذرية و الحكم و الملك و الرحمة.

المسلم يدرك تماماً أنه عندما يسأل الله أن يعطيه سؤله فهذا العطاء هبة و محض كرم منه سبحانه.



اسمه تعالى الرزاق جَلَّجَلَالُهُ

(٠١٧)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٨].

*****

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٧].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ١١/ ٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ١١/ ٨٨].

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٦].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٠].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٧].

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣١].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٦] هامة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٩] هامة.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤٠-٤١].

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٢].

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٦].

*****

اسمه تعالى الرزاق جَلَّجَلَالُهُ:

بحثاً عن المعنى القرآني الدقيق للكلمات المبنية على جذر رزق، و تجنباً لتسرب المعاني الشائعة و الهامشية، قمنا بجولة في كتاب الله لاستخلاص معنى الرزق، فوجدنا أن المعنى يتدرج من الأمور المادية المعلومة من طعام و شراب أو بعبارة أخرى كلّ ما يحتاجه المخلوق للبقاء على الحياة، يستمر هذا التدرج إلى أمور أكثر معنوية. و ينتهي الأمر إلى رزق من عالم آخر في الآخرة في الجنة. و هنا لا يعود اعتبار سدّ حاجات المخلوق للبقاء على الحياة دقيقاً. إذاً، نستطيع أن نقول: إن الرزق هو ما يحتاج إليه المخلوق عموماً و تطلبه و تصبو إليه نفسه.

الاستقراء السابق ينفي العلاقة بين الكلمات المبنية على جذر رزق و العلم، أي لم يرد شاهد أنه سبحانه يرزق علماً.

كلّ الشواهد تجتمع على دعوة invitation واحدة مفادها أن الله وحده هو الرزاق، لا رزق عند غير الله، و هو و حده سبحانه الذي يقرر كلّ ما يتعلق بالرزق.

طبعاً مسألة الرزق مسألة حساسة بالنسبة للنفس البشرية و هي ترتبط بأكثر الغرائز بدائية مثل غريزة البقاء، و كذلك آليات نفسية مثل الاحتياج أو عدم الاحتياج للآخرين و احتياج الآخرين إليك. أحد أهداف وجود الإنسان في جسد على الأرض هو ارتقاؤه من غرائز بدائية إلى مثل عليا لا مادية.

مثلاً من الحاجات الغريزية البدائية الطعام و الشراب، نجد تحديداً و معاكسة لهذه الحاجات الغريزية و ذلك بضبط الطعام و الشراب إلى درجة المنع في الصيام. و كذلك ضبط الملكية و هو معاكس لما نراه في الكائنات غير البشرية، عندما يأخذ الكائن مأكله أو مشربه حيثما وجده غير مدرك أنه ملكيته و ليس ملكية غيره كذلك ضبط و تحديد الغرائز الجنسية.

و كذلك الانتقال من الأنانية التي أكثر ما نجدها عند الأطفال إلى الغيرية و الأثرة. و كذلك الجهاد و القتال و الاستشهاد في سبيل الله كمخالفة لغريزة حب البقاء. و المسألة للتأمل.

تأملات في مسألة الرزق:

الرزق مقسوم، كلّ إنسان يأخذ قسمته و يتوفى عند انتهاء رزقه. هذه هي الحقيقة و ما يظنه الإنسان ما هو إلا أوهام. لنفترض في مثال للتقريب أن رجلاً عنده مئة مليون و صرف منها ٩٩٩٩٩٩٩. و لنفترض رجلاً آخر عنده عشرين ألف صرف منها عشرة آلاف. في الحقيقة رزق الاثنين متساوٍ و الصرف كان رزقاً للآخرين.

لأوضح أكثر: نفترض أن الأول صرف هذه الملايين بين فنادق و مطاعم و حلي و أثاث و سفر و سيارات. و كلّ ذلك في الواقع رزق الفنادق و المطاعم و وكالات السفر و مصانع السيارات .. هذه هي الحقيقة.

إن كان الرزق مقسوماً فلِمَ الاجتهاد و السعي في طلبه؟! و كيف نفسر أن شخصاً سعى فحصل على رزقه؟.

الجواب: ما أشبه الأمر بشخص يخبر بأن ثمة حوالة باسمه في مكتب كذا عليه الذهاب إلى ذلك المكتب لاستلام حوالته. قيمة الحوالة قررها الذي أرسلها لا الذي يستلمها.

الحوالة مثل الرزق المقسوم و السعي مثل الذهاب إلى المكتب لاستلامها. و هكذا نجد أن اثنين يبذلان الجهد نفسه ولا يحصلان على الرزق نفسه، كاثنين ذهبا إلى ذاك المكتب و كلّ منهما استلم الحوالة المخصصة له.

بقي توضيح الحكمة من السعي للحصول على الرزق. هذا السعي يحقق أمراً يريده سبحانه في خلقه ألا و هو النضج و الارتقاء و التعلّم. لا يخفى الفارق الشاسع بين نضج و علم شخصين أحدهما جالس منذ ولد لا يحتاج لشيء من الرزق و آخر يسعى يبحث يفكر يبتكر يخترع يتعلم يتعرف يحتك مع الآخرين، و يكتشف و يتأمل في حكمة الله في الزرع و البذار و الحصاد و الماشية و التجارة، و الأمانة و التبادلات و التعامل مع الآخرين و النفسيات و الأقوام المختلفة. فسبحانه وتعالى و هو أدرى بخلقه ربط هذه الأهداف المعروضة أعلاه و التي اختصرناها بالنضج و التعلم، ربطها بدافع أساسي و حميمي عند الإنسان و هو حاجته للرزق.

عندما يعي الإنسان حكمة ما ذكر يعلم كيف يتعامل مع وقائع و معطيات الحياة. و يعلم ما ينبغي عليه القيام به ولا تحجبه الوسائل عن الغايات الحقيقية.

فالإنسان و هو مدفوع بهذا الدافع القوي في طلب الرزق، يوظف إمكانيات كبيرة كامنة فيه لم يودعها الله سبحانه فيه عبثاً بل لتوظف في سعيه لتحقيق ذلك.

أما لدى المسلم قناعة و إيمان بأن الرزق كله من عند الله حصراً، و تتكون لديه هذه القناعة في تأمله لكلّ الآيات التي تدور حول الرزق.

أي أن رؤية المسلم في الرزق لا تنحصر و تقف عند مصادر الرزق القريبة أو البعيدة، بل تذهب هذه الرؤية إلى الأصل الواحد لجميع هذه المصادر و هو هو سبحانه الرزاق.

بناءً على هذه القناعة و هذا الإيمان المبني بدوره على الحقيقة، تصفو نفس المسلم المؤمن باسمه الرزاق، تصفو من كلّ العقد الناتجة عن مسائل الرزق مثل الحرمان، الجوع، الحسد، كذلك الرغبة في السلب و النهب و الطمع بما عند الآخرين أو التكبّر عليهم. إذ يعلم المؤمن أن الرزاق رحمن رحيم ملك قدوس عزيز جبار .. الرؤوف و العدل و الجواد... إلى آخر أسمائه سبحانه.

اسمه تعالى الفتاح جَلَّجَلَالُهُ
(٠١٨)

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٦].

*****

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٧٦].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤١].

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٢].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٤].

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٠].



﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٩].

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ١٤].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٦].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧٧].

﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١١٨].

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٨].

﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٩].

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢].

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١].

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٨].

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ [القمر: ٥٤/ ١١].

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصف: ٦١/ ١٣].

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النبأ: ٧٨/ ١٩].

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ [النصر: ١١٠/ ١].

*****

اسمه تعالى الفتاح جَلَّجَلَالُهُ:

بحثاً عن المعنى الحقيقي لاسمه الفتاح تجردنا عن المعنى المتحصل في أذهاننا و المكتسب و تقصّينا المعنى الحقيقي في كتاب اللّه. يمكننا أن نستنبط و خاصة من قوله تعالى:.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ فاطر ،

أن الفتح: إزالة المانع أو الحاجز الذي يمنع و يحجز أمراً عن آخر.

بالنسبة لإزالة المانع أو الحاجز نتناول أولاً كمنهجية تفكير- المانع أو الحاجز إذ الابتداء بهما أولى من الابتداء بطريقة الإزالة.

لا بدّ أن يكون المانع أو الحاجز متماسكاً منكمشاً على نفسه كتيماً لا فجوات فيه و إلا ما استطاع أن يكون مانعاً أو حاجزاً.

طبعاً لا أقصد بكلامي أن يكون ذاك الحاجز مادياً بالضرورة بل الكلام ينطبق تماماً على ما هو غير مادي أو معنوي.

نتناول الآن طريقة إزالة المانع أو الحاجز بالفتح، و الفتح لا يكون بإزالة الشيء دفعة واحدة أو بالإطلاق و إنما بالمباعدة بين مكوناته.

يمكن لذلك أن يبدأ بصغير و بتسارع شديد ينتشر. إذاً الفتح هو رفع الحواجز أو الموانع بين أمر و آخر فينتقل من ما في أحد الطرفين إلى الطرف الآخر. نجد ذلك في فتح أبواب الجنة. نجد ذلك في فتح أبواب السماء.

بعبارة أخرى من ← إلى أو إلى ← من.

يصاحب هذا المفهوم مفهوم الابتداء مفهوم الشروع و هو مفهوم لا يغيب عن من يألف اللغة العربية.

نقول: إنه سبحانه هو الذي بيده الموانع و الحواجز و هو أول من إن شاء يزيل الموانع و الحواجز و ينقل من ← إلى.

قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾.

في هذه الآية الكريمة نفي لقوة غير قوة الله في السيطرة على الفتح بالمعنى المذكور. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقدّم لنا تقابل بالمعاني:

يفتح ↔ ممسك.

كلمة ممسك تفيد كبح أمر أو مادة من الانتشار والآية الكريمة قيّمة جداً لأنها تعطي ذلك التقابل.

اسمه تعالى الفتاح يدور حول عطاء رباني مجمول (عكس مفصل) بالرحمة أو بأحد أشكال خلق الله تعالى.

أي تجليات الفتح تكون على ما سوى الذات الإلهية، و ما سوى الذات الإلهية يخالفها في خصائصها و صفاتها. فالله جَلَّجَلَالُهُ واحد أي لا أجزاء ولا مكونات ولا طبقات ولا عوالم فيه. لا يتألف من ثلاث ولا من شيء بل هو واحد مطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. لا واحد غيره. ما سواه متعدد متباين كي يتم ذلك

أي الاختلاف بين الخلق و الخالق بالتعدد و التباين فلا بدّ من فصل، و إلا وإن كانت كلّ المكونات ممزوجة مع بعضها بلا تباين فكيف يتميز الخلق.

إذاً لا بدّ من فصل، و هو سبحانه القادر على ذلك، و هو ما جرى أول الخلق و ما يجري.

و هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يميّز بين تجليات إرادته يجمعها ضمن مجموعات مفصولة بحواجز.

و كمثال عجيب على ذلك يصعب للعقل العادي و خاصة بالنسبة للإنسان الحديث فهمه: جعل السموات سبعاً طباقاً، كيف يكون ذلك و الإنسان الحديث يتصور السماء فضاءً فكيف نميز و كيف ندرك أننا انتقلنا من السماء الأولى إلى السماء الثانية؟ و هل ثمة حواجز؟.

الجواب: في الحديث الشريف أن سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ استفتح السماء الثانية و كان ثمة باب و سئل من ورائه، ما أعجب هذا الأمر. نتابع المثال فنجد أن أول ذكر للسماء في القرآن يأتي أربع مرات في صيغة المفرد في بداية سورة البقرة، و في المرة الخامسة يقول جَلَّجَلَالُهُ كرماً منه علينا: ﴿... **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩]. ثم شاهد الإمساك بالسموات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤١] ﴿... **وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ** ... ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٠].

هذه المكونات المختلفة هو سبحانه ممسك لها، مسيطر عليها، و هو الذي كذلك فصل بينها بما أسميناه حواجز أو موانع.

استناداً لفهم عميق لشواهد قرآنية أو من السنة فإن الاسم الشريف فيه رؤية واضحة، قدر مستطاع الخلق و بنور من الله و بحدود مشيئته تعالى، لفهم بداية الخليقة، و حسن الاعتقاد بهيمنته سبحانه و أن الأمر، و إن كان موجوداً، فهو الذي حدّه أو حجزه من جهة دون جهة، و هو الذي إن شاء أذن له بالانتقال من جهة إلى جهة. و هذا تصحيح لما قد يتسلل إلى العقل من سوء اعتقاد أنه سبحانه خلق الأمور كلها و أوجد الموجودات فصلها و ميّزها و بقي بها أمر التصرف و الانتقال حراً.

الاسم الشريف يعلمنا أنه دائم الهيمنة جَلَّجَلَالُهُ على كلّ ما خلق إلى أن يزول الخلق بأمره.



اسمه تعالى العليم جَلَّجَلَالُهُ
(٠١٩)

ورد اسمه تعالى العليم ١٥٣ مرة للجلالة و٨ مرات لغير الجلالة في القرآن الكريم، نورد منها:.

*****

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٢].

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٩٥].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١٥].

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٧].

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨١].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٥].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣١].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦١].

﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ **وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ** ٢٨٣﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ **إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ** ٣٥﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٣-٣٥].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢ فَإِن تَوَلَّوۡاْ **فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ** ٦٣﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٢-٦٣].

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ **وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ** ١١٥﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٥].

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ **عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** ١١٩﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٩].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ **عَلِيمًا حَكِيمٗا** ١١﴾ [النساء: ٤/ ١١].

﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ **عَلِيمٌ حَلِيمٞ** ١٢﴾ [النساء: ٤/ ١٢].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ **عَلِيمًا حَكِيمٗا** ١٧﴾ [النساء: ٤/ ١٧].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ **إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا** ٣٢﴾ [النساء: ٤/ ٣٢].

﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٣٥].

﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٣٩].

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٧٠].

﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٧].

﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٧].

﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٣].

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٦].

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١].

﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٩].

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٣٦].

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٤].

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٥٠].

﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٧٦].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٥].



﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٦].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

[الحج: ٢٢/ ٥٨-٥٩].

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ٤١].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٧-٢٢٠].

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٧٨].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٤].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

[لقمان: ٣١/ ٢٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٤].

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٦].

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٨].

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٩].

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٤].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٣٠].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣].

*****

أما على مستوى الجذر الثلاثي علم، فقد ورد هذا الجذر في ٨٥٤ موقعاً.

*****

اسمه تعالى العليم جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف بوزنه فعيل يفيد، و نحن بصدد الأسماء الحسنى، أخذ الصفة حدّها الأقصى و سريان هذه الصفة إلى أعماق الأعماق. (لمن قد يُشكل عليه ذلك أذكره باسمه الباطن جَلَّجَلَالُهُ).

حرف الياء فيه قرب و نفاذ إلى أعماق الأمور و إلى أدقّ تفاصيلها، و هو ما يشير إليه الاسم. وزن فعيل كذلك بهذا الصدد يفيد التمكّن إلى أقصى حدّ.

الاسم الشريف من الأسماء المشتركة ما بين القرآنية و التسعة و التسعين، و هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بباقي الأسماء، ارتباطاً متدرجاً بين المباشر و غير المباشر. مثلاً في أسمائه الخالق البارئ المصور لا يمكن أن يغيب عن أذهاننا و وجداننا اسمه العليم جَلَّجَلَالُهُ.

كذلك الارتباط بين اسمه تعالى العليم و المهيمن ارتباطاً وثيقاً إذ إن انعدام أحدهما ينفي وجود الآخر، و كذلك هذا الاسم الشريف استفتاح لما يليه مثل السميع و البصير و الخبير جَلَّجَلَالُهُ.

أول إخبار منه جَلَّجَلَالُهُ لنا عن علمه في قوله تعالى:

﴿.. وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩].

هذه الصيغة الشريفة نافذة شاملة مطلقة، نافذة بسبب استخدام عبارة **بكل شيء**. وعلمه نافذ و ليس مجمل و دليله كلمة شيء.

اسمه تعالى العليم جَلَّجَلَالُهُ منّ الله سبحانه به علينا كباقي أسمائه و صفاته لصلاح عقيدتنا، وكي لا يتسرب إلى أذهاننا أنه قد يغيب عنه شيء أو أمر أو أنه ترك أموراً لخلق من خلقه كالملائكة

يخبرونه بما يجري، لا علم له إن لم يخبروه سبحانه، أو يتسرب إلى أذهاننا أنه يمكن لبعض خلقه أن يخفي عنه أموراً.

إذاً: من أُسُس العقيدة السليمة الاعتقاد بحقيقة شمولية و نفاذ علم الله تعالى بكلّ أمر أو موجود، إذ إنه لا موجود إلا ما أوجده الله سبحانه، فهو جَلَّجَلَالُهُ أعلم به إذ لا يوجد بلا مبرر.

الاسم الشريف تصحيح للعقيدة من حيث التيقن بشمولية و نفاذ علمه المطلق حيث لا يغيب عنه سبحانه صغيرة ولا كبيرة لا سابقة ولا لاحقة. و هذا الاعتقاد خطوة ممتازة باتجاه تدريب العقل البشري على تنزيهه سبحانه عن الإسقاطات البشرية. و عدم إسقاط خبرتنا الجزئية و المتعثرة المحدودة من فتات العلم على علمه المطلق سبحانه.

أؤكد ثانية أهمية هذه الخطوة في تدريب العقل البشري على عدم إسقاط التصورات أو الخبرات البشرية عليه سبحانه.

الخطوة الثانية و التالية من جليل نعم فضل هذا الاسم الشريف، دعوة جلية منه لعباده للنهل من علم أوجده خالق الوجود و موجد الوجود، والذي إن قورن علم بعلمه انعدم لصغره بالمقارنة مع لا نهاية علمه سبحانه. إذاً هل يتردد العاقل بين الأخذ من العليم أو الالتفات إلى غيره من ناقصي علم بالضرورة؟.

الاسم الشريف بحدّ ذاته كما هو مركّب، إن نظر إليه بنور من الله تعالى و بحدّ أدنى من أدوات علوم الخواص، و إن تم ربط ما استنتج بآيات تفصيلية في كتابه تعالى فسوف **يدرك** الناظر مدى عظمة برهان فيض عطاء هذا العلم الذي يؤتيه سبحانه من يشاء من عباده، والذي يهذل و يحقر أمامه ما سواه من علوم.

اسمه تعالى القابض جَلَّجَلَالُهُ (٢٠)

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥].

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٦٧].

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٩٦].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤٥-٤٦].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٩].

*****

اسمه تعالى القابض جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف يعبر عن الهيمنة الإلهية المطلقة على كل شيء وعلى المادة وتوابعها خاصة. وكأنه تفصيل أو تخصيص لمطلق اسمه المهيمن. ثمة أمور كثيرة تحيط بنا لا نفكر فيها ونعتبرها واقعاً مفروغاً منه (مثلاً أن الموجودات متماسكة تلقائياً)، والواقع بالحقيقة هو وجود قوى هائلة تجعل المادة متماسكة وتمنعها من التلاشي. هذه القوى جميعها بيد الله تعالى يهيمن عليها بعلمه وحكمته.

لنا أن نتصور (إن استطعنا) مدى هذه القوة التي تمسك بكل شيء بالقدر اللازم وتمنعه من التلاشي. وكذلك لنا أن نتصور مدى العلم الذي تتطلبه هذه الهيمنة. الوحيد القادر على ذلك هو الله سبحانه، وهو الوحيد القابض أي الذي يسيطر على الموجودات ويوجهها حيثما شاء وكما ينبغي لها.

فهو جَلَّجَلَالُهُ الذي وضع القوانين التي تضبط كل شيء. أي عالم فيزياء يعلم مدى قوة الحدود التي تقف عندها قوة ما.

هناك رؤية للمادة معبر عنها بهذه القوة العليا إن تركت تفلت بكل الاتجاهات إن رفع هذا الناموس كل شيء يتلاشى.

إذاً هو سبحانه قابض مهيمن عليها كابحها باسط قوتها و قوة انتشارها منه سبحانه ليس مهيمناً على المادة قابض بل هو أيضاً باسط.

والقادر سبحانه أن يضغط ويكثف هذا الشيء ومنها الثقب الأسود.

المهم في هذا الاسم الشريف القابض، الهيمنة على المادة والتحكم والتصرف بها وهذا شيء كوني و دليله قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤١].

(من الأخطاء الشائعة في هذا الاسم معاني قبض أي استوفى وهذا معنى هامشي وفرعي أصبح أساسياً وهذا منفي عن اسمه تعالى القابض.

وقد يستغرب البعض أن اسمه تعالى لطيف وثيق الصلة وتجلٍّ لاسمه تعالى قابض، إن رجل ملطوف به يقبض بعطاء من جهة بلطف ويوجه إلى عطاء من جهة أخرى بالجنة والحياة الأبدية أي أنه رجل ملطوف به).

الاسم الشريف يعبر عن الهيمنة الإلهية المطلقة على المادة و توابعها خاصة و على كلّ شيء، الله سبحانه هو القادر على ذلك، أي الذي يسيطر على الموجودات بعلمه وهيمنته، سبحانه يمسك بها يوجهها كما يشاء و حيث ينبغي لها بالقدر اللازم و يمنعها من التلاشي و كل ذلك بعلمه وقدرته ولطفه سبحانه.

عقيدة المسلم أنه سبحانه الوحيد القادر على ذلك و فهمه لهذا الاسم هو فهم باتجاه اللانهاية لإله جَلَّوَعَلَا مهيمن ومحيط بكون لا يمكن تصور أبعاده.

اسمه تعالى الباسط جَلَّجَلَالُهُ

(٠٢١)

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧].

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧].

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٨].

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٩].

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥].

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٧].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٥-٢٦].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٠].

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٢].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٠-٦٢].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٧].

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٩].

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٩-٥٢].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١١].

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٦].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٠].

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٢].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٧].

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٦].

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٩].

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٢].

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٢].

*****

اسمه تعالى الباسط جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف كما رأينا ليس من الأسماء القرآنية بل مما منّ الله علينا من نعمة الحديث الشريف. ندقق فهمنا للاسم بمراجعة استخدامات الكلمات المبنية على نفس الجذر الثلاثي كما قمنا في الآيات السابقة، الاسم على وزن فاعل و هذا الوزن يفيد الهيمنة و شدّة التمكن.

النتيجة مفهوم دقيق يفيد الاتساع و الانتشار معاكس تماماً للاسم السابق.

ما يلفت النظر حصر معاني البسط في خطوط قليلة:

أولها تلازم كلمات البسط مع اليد، في ثلاث أفكار:

١- يد الله ﴿.. يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٠].

٢- يد سيدنا محمد ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٩].

٣ - يد أو أيدي الخلق ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ١٤].

يمكن جمعها في اثنتان و واحدة أو واحدة و اثنتان.

اثنتان عطاء، و واحدة للإيذاء، واحدة يد الله، و اثنتان أيدي خلق.



ثانيها تلازم كلمات البسط في ثلاث أفكار:

مع الأرض

مع السحاب (و المعنى معنى الانتشار خاصة).

مع الرزق و هو يرتبط بالفكرة الأولى ﴿..يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ..﴿٦٤﴾﴾.

أكثر الآيات التي قد تستوقف قارئ القرآن عموماً بصدد البسط هي التي تدور حول الرزق. حيث أن هذه الشواهد هي الأكثر تكراراً و تماثلاً:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٦].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٠].

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٧].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٦].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٩].

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٢].

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٢].

مما يفهم منه بلاغ متكرر منه سبحانه لخلقه في مسألة تلازم أفكارهم، و الواقع كذلك. إذ نلاحظ أن الإنسان عبر العصور و خاصة في زماننا، حساس للغاية لمسائل الرزق يخلط فيه بين حاجاته الفعلية وبين طلباته النفسية، فيطلب على الدوام أكثر مما يحتاج إذ لم يعد قادراً على التمييز بين حاجاته الفعلية و طلباته النفسية، وهذه المعادلة كافية لإحداث أزمة نفسية خانقة عنده.

عند أيّ إنسان غير مؤمن تكون هذه الأزمة عندما تطغى طلبات النفس على الحاجات الفعلية، فيصير الرزق وسيلة لتأكيد الذات و التعالي على الآخر و التحكّم به بدلاً من أن يكون سدّاً للحاجات

لمتابعة الحياة باتجاه أهداف حقيقية.

تصبح الأزمة النفسية كبيرة عندما لا يستطيع الإنسان تفسير تقتير و اتساع أرزاق الناس بكلّ ما يمكن أن يخطر بباله من تفسيرات، فيخرج بأفكار لا أساس لها مثل الحظ (الحظ في أذهان الناس عشوائي في كتاب الله عطاء محكم و كبير جداً و الناس تسيء استخدامها مثل استعمالهم كلمة روح و المعنى القريب للحظ: حظي بالشيء أي حصل عليه) و النحس و الصدف. النتيجة طبعاً من جهة تفكير مغلوط قوامه العشوائية يوصل إلى سوء الاعتقاد و ذلك بإلغاء الهيمنة الإلهية فالحكمة والعدل، و بضرورة ذلك من جهة أخرى شعور متصاعد بالغبن و الظلم يوصل إلى النقمة و الاعتراض.

منّ الله علينا بالآيات السابقة لنعلم أن تقتير و بسط الأرزاق بيده هو حصراً جَلَّجَلَالُهُ، كما يشير إليه وزن الاسم الذي هو كباقي الأسماء اختزال لكلّ ما يرد في كتاب الله و سنّة رسوله بنفس المعنى فيسهل على المؤمن استحضار كلّ هذه المعاني بلفظة واحدة،و هي فكرة هامة.

عندما يتذكّر العبد أن مسألة اتساع و تقتير الأرزاق بيد الباسط، يطمئن، يثق، و يسلّم لأنه يذكر أن الباسط هو نفسه العليم و هو نفسه العدل و المقسط و هو نفسه الرحيم و الودود... ألم يشهد بذلك.

بعد حسم هذه النقطة الحساسة في النفس البشرية للمؤمن أن يتفكر في قدرة الله، المتمثلة فيما تتمثل في يده و في معاني البسط التي منّ بها علينا بأمثلة الأرض و السحاب تدعو للقياس تفكّراً بقدرته، فهو وحده الذي يجعل مكونات ما خلق تنضغط أو تنتشر، و هنا الاسم يصير دعوة للتفكر في أثر إرادته على الموجودات بالبعد الكوني. والحمد لله رب العلمين.



اسمه تعالى الخافض جَلَّجَلَالُهُ
(٠٢٢)

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٨].

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٤].

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤-٢١٥].

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ الواقعة.

*****

اسمه تعالى الخافض جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف غير وارد في القرآن الكريم. تطبيقاً للمنهجية المتّبعة في عملنا نبحث عن جذر الكلمة و اشتقاقاتها الواردة في كتاب الله تعالى فلا نجد في هذه الحالة سوى أربع آيات، هذه الآيات الأربع تتطلب منا جهداً لاستنباط معنى الخفض المَعنِيّ من خلال اسمه الشريف خافض، إذ إنها لا تدور حول أمر أو فعل يقوم به سبحانه.

في كتاب الله تعالى:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٨].

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٤].

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤-٢١٥].

الآيات الثلاث السابقة أمر إلهي لسيدنا النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو للمسلم عموماً، متقاربة كثيراً في المعنى بوجود كلمة جناحك المشتركة في الآيات الثلاث. التي لسيدنا النبي يُفهم منها أمر له بالتواضع. نلاحظ أنها لا تحمل كلمة الذلّ الواردة في الشاهد الثاني، هذه الإضافة تزيد من شدّة التواضع إلى حدّ الذلّ.

لا بدّ لي أن أجرّد كلمة ذلّ من مفهومها الشائع معيداً إياها لمعناها الأصلي الذي هو انخفاض تحت قدرة آخر، ميسّر للتناول، سهل مطيع.

الشاهد الرابع أقرب لما نحتاجه في عملنا قوله تعالى من سورة الواقعة:

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٣].

و المقصود الواقعة، و هي تجلٍّ لإرادته. المفيد في الشاهد الشريف تلازم الصفتين بنفس الترتيب الوارد في الأسماء الحسنى فلم تكن رافعة خافضة.

بدمج المعنى المشترك للآيات الأربع يصير معنى الخفض يتجه لمعنى التواضع و الذلّ بالمعاني التي رأيناها أي أن يكون أدنى من أعلى.

شاهد سورة الواقعة و توازيها مع اسميه الخافض الرافع يدفعنا إلى عدم البتّ في تحديد معنى الخافض قبل المتابعة بالتعرّف على معنى الرافع.

و هذه الحالة مثال مفيد للتعرّف على معنى بأسلوب مقابلة الضد أو العكس.



اسمه تعالى الرافع جَلَّجَلَالُهُ
(٠٢٣)

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (١٦٥)﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥].

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٠].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾ [الرعد: ١٣/ ٢].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨)﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٧-٢٨].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [البقرة: ٢/ ٦٣].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)﴾ [البقرة: ٢/ ٩٣].

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (١٥٤)﴾ [النساء: ٤/ ١٥٤].

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢].

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح: ٩٤/ ١-٤].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٦].

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٥٦-٥٧].

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٥٧-١٥٨].

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٧].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٢].

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٣].

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٧٦].

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٧].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ (١٨)﴾ [الغاشية ٨٨/ ١٧-١٨].

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ (٣٦) رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ (٣٧)﴾

[النور: ٢٤/ ٣٧].

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ (١) لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ (٣)﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١-٣].

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٥٥)﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٥].

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥)﴾

[غافر: ٤٠/ ١٥].

﴿وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ (٢) فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ (٣) وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ (٤) وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ (٥) وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ (٦)﴾ [الطور: ٥٢/ ١-٦].

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ (٣٢) لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ (٣٣) وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ (٣٤)﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٣٢-٣٤].

﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (١٦)﴾ [عبس: ٨٠/ ١٣-١٦].

﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ (١٣) وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ (١٤)﴾ [الغاشية ٨٨/ ١٣-١٤].

*****

اسمه تعالى الرافع جَلَّجَلَالُهُ:

بمراجعة الكلمات المبنية على جذر رفع نجد شواهد كثيرة منها أفعال تعبّر عن إرادته سبحانه، و أخرى تعبّر عن أفعال الخلق مثل رفع الصوت. كوننا نبحث بناءً على كتاب الله تعالى تدقيقاً في اسم من أسمائه فالأولى النظر أولاً إلى الكلمات أو الأفعال التي تعبّر عن إرادته. مثل شواهد رفع الدرجات و رفع العباد و رفع الأشياء. بالمقابلة السابقة اسمه جَلَّجَلَالُهُ الخافض يصبح أكثر وضوحاً. و نجد أن شاهد سورة الواقعة يختزل المعنى إلى أقصى حدّ، و شواهد الرفع تفصّل. منهج المقابلة مبرر بدليل قوله: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ و تلاحق الاسمين الشريفين الخافض الرافع.

بناءً على ذلك يمكننا بالقياس أن نقول أنه جَلَّجَلَالُهُ كما يرفع درجات من يشاء يخفض كما يشاء.

و هنا يصير اسمه جَلَّجَلَالُهُ الخافض مُكَمَّلاً باسمه تعالى الرافع حساساً و ضرورياً في حسن العقيدة و حسن السلوك.

يُستدل من الاسمين الشريفين أخذاً بباقي أسمائه مثل المهيمن أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو وحده الذي يخفض و يرفع في درجات عباده أو أيّ شيء. إذ إنه العليم الحكيم العدل المقسط جَلَّجَلَالُهُ هو أدرى بتقييم خلقه، و هو كذلك عزيز قيوم حكم أمره سابق و كلّ ما سواه لاحق، فلا يستطيع أحد أن يفرض عليه بعمله مقامه أو درجاته.

فالاسمان الشريفان تصحيح لأهداف و مسار السالكين و حصن لهم من الوقوع في هاوية الطموح بالارتقاء بالنفس تفوّقاً.

المطبّ يكمن في الرغبة في التفوّق قد يكون صريحاً أو ـ والأخطر من ذلك ـ خفياً لا يعيه صاحبه.

هذا السلوك شائع في البعد الدنيوي مندوب ولكن لا يمكن إسقاطه على السلوك الروحي الحقيقي الذي أساسه إنكار الذات و الافتقار إلى الله تعالى.

عملاً بأنوار هذين الاسمين الشريفين يسعى العبد جاهداً في إرضاء ربّه راجياً عطاءه متبرئاً من حوله و قوته، عالماً أن الله هو وحده الذي يقرر الدرجات والمقامات و يفضل من يشاء على من يشاء، و هو عزيز حكيم. فلا يقع في الإشكال الكبير الذي وقع فيه إبليس الذي يتبين لنا من استقراء الآيات أنه كان تواقاً لتحصيل مراتب عليا روحية و الارتقاء إلى مقام الملائكة بجهده و عمله. و نلاحظ تنبيهه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧٥] و جوابه: ﴿.. أَنَا۠ خَيْرٌ.. ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦]، و هل خير من هاتين الكلمتين تعبيراً عن رغبة الأنا في التفوق؟!.

هل هذا سلوك روحي؟ إذاً السلوك الحقيقي تعظيم الله تعالى بالعبودية المطلقة بانعدام الأنا.

فكما أنَّ:

عبد الله = ١٤٢ فكذلك، لا قوة = ١٤٢

بعد تأمل و اعتبار يخرج المرء بقناعة قوامها التواضع و الثقة بالله، تتجلى بالعبودية بدافع الامتثال و الافتقار و الشوق لا بدافع تعظيم الأنا و التفوّق، و كذلك التأمل في الاسمين يكسب تواضعاً في النظر إلى الآخرين، فالله أعلم بدرجاتهم أو مقاماتهم لا يستطيع أحد أن يعلمها أو يقدّرها إن لم يخبر بذلك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصريح كلامه أو على لسان نبيه.

الاسمين الشريفين يقطعان الطريق على ما لا نهاية له من التفاهات و الشطحات في تقييم الناس بعضهم ببعض و كلّ ما يتأتى عن ذلك و يلحق به.



مما سبق نجد أن اسميه تعالى الخافض و الرافع شهود بهيمنته تعالى و تفرّده في خفض و رفع من و ما يشاء، و ثقة بعدله و حكمته، كما يشير إلى ذلك ما يلي من أسمائه، وما في ذلك من ترابط و تسلسل منطقي و ذي مدلول.

اسمه الخافض جَلَّجَلَالُهُ يدعو للتواضع كما رأينا و كذلك يثير ما ينبغي أن يتحصل في قلب المؤمن من خشية و رهبة ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ.. ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٨].

أما اسمه الرافع فهو كما يدعو إلى التسليم و التواضع، كما رأينا، فهو كذلك يدفع المؤمن إلى الافتقار و الرجاء، و السبيل في الترقّي في سرّ هذا الاسم يكمن في الترقّي في سرّ القرآن الكريم. تأمل في ذلك.

اسمه تعالى المُعِزّ جَلَّجَلَالُهُ
(٠٢٤)

بالبحث في المصدر الثلاثي عزز في المعجم المفهرس نجد أن الكلمات المبنية على هذا المصدر وردت في ١٢٠ موقعاً. منها آيات تم عرضها في سياق الكلام عن اسمه تعالى العزيز جَلَّجَلَالُهُ.

*****

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٦].

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦].

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٣٩].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٥].

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٨١].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠].

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ١٤].

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٨٠].

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ [ص: ٣٨/ ٢].

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص: ٣٨/ ٨٢].

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٨].

*****

اسمه تعالى المعز جَلَّجَلَالُهُ:

من مراجعة الآيات الكريمة التي تدور حول اشتقاقات جذر عزز، نجد أن المعنى يجمعه معبراً عنه بخير ما يكون شاهد الآية ٢٦ من سورة آل عمران ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٦﴾ تطابق معاني الآية الكريمة مع الأسماء الحسنى تام. إذ بعد الخافض الرافع، قياساً نقول مذلّ معزّ و الواقع معزّ مذلّ كما في الآية.

تتالي الرافع و المعزّ غاية في الكمال إذ في المعزّ يكمن السر الكامن في اسمه الرافع.

الاسم الشريف متابعة لما سبق و رأيناه في معاني الرافع و من قبله الخافض، و ليس مرادفاً بل مكملاً من حيث أنه بمشيئته يجعل نتيجة الرفع العزّ و يجعل نتيجة الخفض الذلّ.

هذا الاسم الشريف، المعزّ جَلَّجَلَالُهُ، كما يدعو بجلاء إلى الأدب و الثقة و التسليم في مشيئة اللّه. إعزازه من يشاء و ما يتبع ذلك من سلامة نفس، من غيرة و حسد أو اعتراض فإن الاسم الشريف بتتاليه مع اسمه الرافع دعوة للمؤمن بالارتقاء و الارتفاع و خير ما يكون ذلك بطاعة اللّه و رسوله، و تمثّل القرآن الكريم فترفّع عن كلّ خسيس و حقير مما ذمه اللّه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عندها يصير العبد أهلاً لأن يعزّه اللّه. و الأمر في حقيقته يتطلب من العبد عزماً.



اسمه تعالى المُذل جَلَّجَلَالُهُ

(٠٢٥)

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٤].

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٤].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١١].

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٥].

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٢].

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٦].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٧].

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٣].

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٤].

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٧].

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٨].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٠].

*****

اسمه تعالى المذل جَلَّجَلَالُهُ:

من مراجعة الآيات الكريمة التي تدور حول الجذر ذلل نجد معنيين أساسيين:

أحدهما: و هو الأكثر وروداً، و هو المعنى الشائع للذل. و الثاني: بمعنى جعل الشيء قريباً ميسراً سهل البلوغ. يجمع بين المعنيين الآية الكريمة في وصف أولئك القوم الذين يحبهم الله ﴿... أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤] حيث أن ذلهم على المؤمنين ليس الذلّ بالمعنى الشائع حيث النفس مكسورة مقهورة، بل تواضع و انخفاض تحت متناول المؤمنين أي عدم ترفع أو تعالٍ عليهم.

الاسم الشريف كالأسماء السابقة له دعوة للاعتقاد بأن الله تعالى وحده هو الذي يذلّ حقاً.

يتأتى عن ذلك ثقة بحكم الله و عدم الخوف من الطغاة و الجبارين و كذلك عدم العمل في إذلال خلق الله تعالى. و كذلك تواضع و خشية من أن يذلّ الله العبد إن أذلّ نفسه لغيره سبحانه.



اسمه تعالى السميع جَلَّجَلَالُهُ
(٠٢٦)

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨١].

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١].

﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٦].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٦].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٧-١٢٨].

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٧].

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨١].

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٧].

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٤].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٨].

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢١].

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣].

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٨].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٣].

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٣].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٦٥].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٩].

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٩-٥٠].

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١].

*****

اسمه تعالى السميع جَلَّجَلَالُهُ:

لقد قمنا بمراجعة جميع اشتقاقات جذر سمع في القرآن الكريم و يمكننا فرز الشواهد الشريفة إلى قسمين: قسم يتعلق بالخلق، و قسم يتعلق به سبحانه، وهو ما يهمنا في هذا الصدد.

في الشواهد المتعلقة به نجد منها اشتقاقات لجذر سمع و الأخرى تحوي اسمه السميع صراحة.

القسم الأول نجد شواهد واضحة و معبّرة مثل قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ...﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨١] و كذلك قوله:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ... ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١] و كذلك قوله: ﴿... إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٦].

بهذه الشواهد يعلمنا الله تعالى بشكل من أشكال هيمنته و علمه، إذ ميّز الله الثقلين بالقدرة على الكلام و كذلك الملائكة، ذاك الكلام يحمل و يعبّر و ينقل كلّ ما يختلج في النفوس و يعتري العقول.

بالنسبة للثقلين و للإنسان خاصة، يكتشف باكراً أنه يمكنه كتم أفكاره و مشاعره و قول غير الذي في نفسه أو عقله، فيصعب على الآخرين و قد يستحيل إدراكه. فيسترسل في هذه القناعة و يعمّمها حتى على الله، و هنا الدرس الرباني من أنه يسمع و يعلم بأيّ خاطرة و أية شاردة و أيّ شيء ينطق به خلق من خلقه، إذ إنه هو الذي علمه البيان، و الإنسان ينسى ذلك ظاناً أنه تعلم الكلام تلقائياً و تدريجياً.

الأمر شامل في سمعه و علمه فقد قال للملائكة: ﴿..أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٣].

إذاً، الاسم الشريف تصحيح لاعتقاد العباد ليتيقّن من أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسمع و أدرى من يكون بكلّ همسات و خلجات النفس و الوجدان و العقل.

نلاحظ أن الاسم الشريف يأتي في كتاب الله دائماً أولاً ملحوقاً باسم شريف يوضحه مثل العليم خاصة. يؤكد ما سبق و ذكرناه، و البصير كذلك، أما القريب فبشرى لمن يتوجه إليه حتى لو كان الدعاء خفياً، فيستشعر العبد على الدوام أن الله مطلع على سرّه و على علانيته و على كلّ ما يجول في نفسه و عقله. فالاسم الشريف على وزن فعيل، و هذا الوزن، خاصةً عندما نجده في اسم من أسمائه تعالى يفيد نفاذ الصفة إلى أبعد ما يمكن أن يكون و إلى أدقّ ما يمكن أن يكون، وزن فعيل يفيد أن الصفة تكون بحدّها الأقصى و هو ما يناسب الاسم الشريف.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٧٩-٨٠].

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٠-٥٢].



هل يسمع الميت؟ إنما يسمع حي، و بالتالي من أسمع من الحي جَلَّجَلَالُهُ.

و عموماً الشواهد أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء لأنه سميع قريب.

الإنسان و هو يكبر يكتشف أنَّ بإمكانه أن يدور بذهنه شيء ولا يتكلم به، اللّه سبحانه أدرى بكلّ خواطر وخلجات النفس و العقل، لذا يجب على المسلم أن ينتبه و يتأدب،كما في شواهد الطلاق وغيرها، لأن اللّه سميع.

كذلك بشرى أنه سبحانه سميع الدعاء و لو كان هذا الدعاء خفياً كما دعا سيدنا زكريا عليه السلام، دعا دعاءً خفياً واستجيب له.

الأسماء الحسنى تصحيح اعتقاد وهي أجوبة للبشرية كلها و ليس فقط للمسلمين؛ لذا اسمه تعالى السميع يعلمنا قدرة اطلاعه سبحانه على نفوس عباده، حتى الكرام قال لهم: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾و هو أدرى بأي كلام إن كان جهراً أو سراً لأنه هو الذي علمهم إياه.

وفي علمه جَلَّجَلَالُهُ لا يتقدّم السمع على البصر و دليل ذلك قوله تعالى:

[أبصر به و أسمع]. فما أبصره و ما أسمعه سبحانه.

ملاحظات على اسمه تعالى السميع جَلَّجَلَالُهُ:

* السمع من اللّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلاماً إن كان جهراً أو سراً وقدرة اطلاعه سبحانه على نفوس عباده حتى الكرام قال لهم: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٢/٣٣] هذا تصحيح اعتقاد و أجوبة في الأسماء للبشرية كلها و ليس فقط للمسلمين.

* فكرة أنه سبحانه قدّم السمع على البصر في القرآن الكريم فكرة سطحية و ليست عميقة، بل هذا الاسم يحتاج إلى توضيح، لذا فالاسم ملحوق باسم ثانٍ يؤكده و دليل ذلك: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ [الكهف: ١٨/٢٦]، ما أبصره و ما أسمعه سبحانه.



اسمه تعالى **البصير** جَلَّجَلَالُهُ

(٢٧)

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٩٦].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١٠].

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٣] (هامة).

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧].

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٥].

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥].

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ



أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٦].

﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٥٨].

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٣٤].

﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٧١].

﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٩].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٢].

﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود: ١١/ ١١٢].

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١].

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٧].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٠].

﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٦].

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ٢٦-٣٥].



﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦١].

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٥].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٠].

﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨ ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٩].

﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١١].

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣١].

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٠].

﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٦].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠ ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠].

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١].

﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧].



﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٨].

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٤].

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١].

﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ٢].

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٩] هامة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٤].

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١٠-١٥].

*****

ورد الاسم الشريف للجلالة:

٣١ (بصير) + ١١ (بصيراً) = ٤٢ للجلالة.

ورد الاسم الشريف لغير الجلالة:

٥ (بصير) + ٤ (بصيراً) = ٩ لغير الجلالة.

أما باقي الكلمات الواردة تحت الجذر الثلاثي بَصَرَ:

أبصرهم، يبصرون، الأبصر، أبصركم، بصائر، أبصر، مبصرون، مبصراً، بصيرة، أبصرنا، البصر، مبصرة، بصرت، يبصروا، تبصرون، أبصرهن، مستبصرين، بصائر، بصره، تبصرة، بصرك، يبصرونهم، فستبصر ويبصرون.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٣-١٠٤].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٨].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣١].

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٨].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٦].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٣٨].

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٩٦].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٦].

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ١-٥].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٣٨-٣٩].

*****



اسمه تعالى البصير جَلَّجَلَالُهُ:

من خلال مراجعة اشتقاقات كلمة بَصُرَ في كتاب اللّٰه تعالى توخياً لتدقيق المعنى بتجاوز المعنى الشائع و المعلوم، نجد أن المعنى يتجه من الرؤية العادية باتجاه وعي و إدراك ما هو مرئي فيصير بذلك بالحقيقة البصر في العقل الذي يدرك و يعي لا في العين التي ترى. هذا بالنسبة للخلق و كشاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿...رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢/٣٢] و المقصود شدة وعي و إدراك المَعْنِي بالكلام لحقيقة ما يسمع و يرى يوم البعث و قد كُشِفَ عنه غطاؤه، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن الذي ينتقل إلى الآخرة: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٢٢]. (حديد على وزن فعيل من الحدّة، مثل شديد).

إذاً يتجه المعنى بشكل متواصل باتجاه شدّة إدراك الموجود فما بالنا عندما يكون ذلك المعنى عند اللّٰه سبحانه. عندها يصبح البصر، و هو هنا عنه جَلَّجَلَالُهُ، فيكون بحدّه الأقصى وعياً و إدراكاً بحدّه الأقصى هيمنة. فلا عجب من نفاذ بصره و معرفته و إدراكه بالإحاطة و التفصيل لكلّ حادث و موجود فهو الواجد و الخالق.

الاسم الشريف وجه من وجوه هيمنته سبحانه لما رأيناه من نفاذ بصيرته و خبرته و علمه، فالوزن فعيل كما رأيناه مراراً يفيد في الأسماء الحسنى خاصة معنى أن الصفة محققة إلى أقصى حدّ، متأصّلة إلى أقصى حدّ و نافذة إلى دقائق الدقائق مستمرة لا تنقطع. معرفة ذلك تدعو العبد إلى خشية مولاه و الاستحياء منه جَلَّجَلَالُهُ و التأدّب معه في السرّ أكثر من العلانية.

الاسم الشريف كذلك يدعم ثقة العبد بربّه بأنه سبحانه عالم مهيمن على كلّ ما يجري و على أيٍّ من خلقه لا يغيب عنه شيء.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٣٩].

ثمة ما يُسْمَع ولا يُرَى و ثمة ما يُرى ولا يُسْمَع و ثمة ما يُعلَم مما لا يُسْمَع ولا يُرَى.



اسمه تعالى الحَكَم جَلَّجَلَالُهُ
(٠٢٨)

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/٤٨].

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥/٤٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٤/٥٨].

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٥].

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٥] هامة.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٤/٥٨].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤١].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٢].

*****



اسمه تعالى الحكم جَلَّجَلَالُهُ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ...﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧].

قمنا بمراجعة الألفاظ المشتقة من جذر حكم في كتاب اللّٰه تعالى. أكثر ما يطالعنا معنى إصدار الحكم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ...﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٥٨]. و قوله تعالى: ﴿...وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤١].

كما يصدر القاضي حكماً بين خصمين. هذا المعنى جليّ ولكن يحتاج إلى تعمّق فيه باتجاه حقيقة المعنى، و نجد ذلك في قوله تعالى من سورة الحج: ﴿...فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٢]. و قوله تعالى من مطلع سورة آل عمران: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴿٧﴾ ﴾.

نجد أن المعنى في هذين الشاهدين يتجه إلى معنى الإحكام. نتابع فهم معنى الإحكام فنجد معنى المطابقة الدقيقة من أمر لآخر من حيث الإكمال و كمال التناسب.

و كمثال بسيط لتبيان ما سبق قولك عن إناء أو عن باب أو منفذ أنه محكم الإغلاق. ففي المثال تجد الغطاء مناسباً كلّ التناسب للفتحة لا فجوة فيه ولا خلل، و كذلك آياته كلّ منها مطابق لمكانه لا تخلخل بينها ولا خلل فيما بينها، أي أن كلّ آية متناسبة مع ما قبلها و ما بعدها. أعود لمثال الآنية أو الشيء المحكم الإغلاق فنجد ما يغلق لا زيادة فيه ولا نقصان و إنما مطابق مناسب بالقدر اللازم.

كذلك يكون الحكم بين الناس بقدر الاحتياج بما يناسب بلا زيادة ولا نقصان بتطابق تام لا يسمح بأيّ تخلخل ولا خلل فيه. فحكمه سبحانه مطابق دقيق مناسب بلا زيادة ولا نقصان.

يقتضي الحكم معرفة البدايات و الغايات ليكون التطابق محكماً بالحكم على ما يكون بمعرفة البداية و الغاية. نستدل على ما سبق من شواهد حكمه جَلَّجَلَالُهُ على الخلق يوم الحساب، إذ عندئذ تتبدى الغايات و تتوضح البدايات، فالذين يختلفون إنما يختلفون لأمور كثيرة من أهمها جهل البدايات و خاصة الغايات. نستشف ذلك من الشواهد الشريفة الكثيرة التي يُذَكِّر فيها الحكم جَلَّجَلَالُهُ خلقه بالبدايات التي نسوها و يذكرهم كذلك بالغايات التي غابت عنهم.

إذاً تمام الحكم و الحكمة و الإحكام لا يكون إلا بمعرفة البدايات و الغايات فاللّٰه الأول و الآخر هو حقاً أحكم الحكمين.

ملاحظات حول اسمه تعالى الحكم جَلَّجَلَالُهُ:

الحُكم تطبيق للأحكام. الإحكام كمبدأ مجرد أكثر و الحُكم تطبيق لهذا الأصل الذي هو الإحكام و هو الذي دخلنا من بابه.

الذي يحكم هو الذي يضع مواد بتناسب تام و يعرف بداية الأمر و نهايته و أن يكون حكمه مطابقاً تماماً للأمر الذي يحكم به.

محكم مطابق تماماً و إغلاق محكم أي دون أن يتسرب منه شيء و الحكمة تطابق مواد بنسب سليمة.

اسمه تعالى العدل جَلَّجَلَالُهُ

(٢٩)

بالبحث في المعجم المفهرس حول الجذر الثلاثي عَدَلَ نجد المعاني الرئيسية التالية:

الأول هو عَدَلَ عن الشيء أي أعرض عنه و تركه.

و الثاني بمعنى الحكم بالعدل و القسط.

و الثالث هو عَدَلَ الشيء أي سوّاه و أصلحه و قوّمه.

و المعنى الأخير عدلُ الشيء أي يعادله من نفس المقدار والقيمة.

آيات المعنى الأول (عدل = أعرض و ابتعد و ترك):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٠].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣٥].

آيات المعنى الثاني (عدل= الحكم بالعدل و القسط):

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النساء: ٤/ ٥٨].

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء: ٤/ ١٢٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: ٥/ ٨].

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٥].

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٢].

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٩].

﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٨١﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ



وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ [المائدة: ٥/ ٩٥].

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٦].

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ [النحل: ١٦/ ٧٦].

﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾

[الطلاق: ٦٥/ ٢].

المعنى الثالث (عدل الشيء أي أصلحه و قومه و سواه):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦-٨] هامة.

المعنى الرابع (عدل الشيء = يساويه بالمقدار)

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ [البقرة: ٢/ ٤٨].

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: ٥/ ٩٥].

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٠].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: ٦/ ١].

نلاحظ في مطلع سورة آل عمران أن معنى يعدلون تشرحها الآيات التي بعدها بشكل واضح: (و حين نقرأ التفسير، مثلاً روح المعاني، ترى أن كلّ واحد يستعمل قواعد العربية لإثبات المعنى الذي يريده) و معنى عدل حاد و ابتعد عن الطريق و تشرحها الآيات التي بعدها.

أما في سورة الانفطار قراءة عدّلك المعنى أقوى من عدلك.

*****

اسمه تعالى العدل جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف لم يرد في كتاب الله حيث بحثنا عن اشتقاقات جذر عَدَلَ لنرى كيف يستخدم جَلَّجَلَالُهُ هذه الكلمات. لم نجد في هذه الآيات شاهداً عن عدله سبحانه، بل آيات تتعلق بالخلق بعدة معانٍ أولها و هو أقربها و أيسرها فهماً بمعنى العدالة؛ أي المساواة بين الناس في تطبيق الأحكام و كذلك تطبيق الحكم بالقدر المناسب بلا مبالغة أو نقصان.

و المعنى الثاني كالذي في سورة الانفطار يستمر من معنى الإنصاف و الاعتدال و حسن الحكم في الأمور إلى معنى التوازن النفسي و العقلي مروراً بالاعتدال في الخلقة.

و معنى ثالث كالذي في مطلع سورة الأنعام بحق الكافرين بمعنى الانصراف أو الإعراض أو الشرك.

ما يهمنا هو المعنى المتعلق به سبحانه بالالتزام بالمعاني التي رأيناها من كلامه سبحانه. فكيف نختار بموضوعية و بناءً على دليل من بين المعاني الثلاثة؟.

هنا مرة ثانية تظهر قيمة حديث التسعة والتسعين اسماً. إن اتجهنا إلى المعنى الأول فسوف نجد أن الشواهد القرآنية التي تعبر عن هذا المعنى بصدده سبحانه الكلمة المستخدمة فيها هي يحكم سبحانه، فاسمه العدل يلي اسمه الحكم و من هنا نفهم أنه يحكم و يعدل، أي يحكم بالمساواة بين الجميع و يحكم بنفس الطريقة و بنفس القدر بين خلقه.

وزن الاسم يفيد أن الاسم صفة دائمة له متأصلة فيه غير متكلفة أو متقطعة بل دائمة و حاضرة ظاهرة غالبة.

ملاحظات حول اسمه تعالى العدل جَلَّجَلَالُهُ:

* طريقة تناول اسمه تعالى العدل هي طريقة تفكير ومنهجية عمل وبدأت أنه لم يرد في كتاب الله تعالى، و من ثمة بحثنا عن جذر الكلمة في كتاب الله وهكذا ... إلى أن نصل إلى المعنى (وهذا المنهج مطبق من بداية الأسماء والفكرة بناء أساس قوي لفهم أسمائه تعالى).

* لا يعني كون فكرة العدالة بين الخلق معروفة ألا نبحث عنها، بل نبحث و نقول: ما يدرينا أن معنى العدالة هو في أذهاننا صحيح؛ لأن نقطة الصعوبة في فهم اسمه تعالى الحكم أنه حكم عدل و لو رأينا شيء لا نفهمه نحن.

* تكلمنا عن أسمائه تعالى الخافض و عن الرافع، والمعز و المذل ثم السميع و البصير جل جلاله مباشرة بعدها الحكم العدل.

كونه سميع كونه بصير بناء على ذلك جلي أن اسمه تعالى الحكم يأتي بشكل منطقي.

ثم يأتي اللطيف بشكل منطقي يأتي الخبير ليكمل السميع البصير ـ الخبير بعد اللطيف جَلَّجَلَالُهُ أدرى هو بخلقه أدرى بظروف العباد، و هل هم أهل للطف أم لا ؟

ثم بعدها الحليم بمكانه كذلك العظيم ثم الغفور ثم الشكور كيف يكون الغفران؟ بالتحقق من اسمه الشكور و بشكل واضح هناك ترابط قوي بين الأسماء، ومن هذا الترابط يمكن فهم الأسماء الحسنى و ترتيب الأسماء في الحديث منسجماً تماماً مع ترتيب القرآن الكريم، و كلما تقدم في الأسماء كلما احترم حديث الأسماء الحسنى أكثر و قدره أكثر.



اسمه تعالى اللطيف جَلَّجَلَالُهُ
(٠٣٠)

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٣].

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٠].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٣].

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان: ٣١/ ١٦].

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٤].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٩].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك: ٦٧/ ١٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩)﴾ [الكهف: ١٨/ ١٩].

*****

بالبحث حول الجذر الثلاثي لطف نجد أن الاسم الشريف ورد في ٧ مواقع بشكله الصريح، وورد مشتقاً عن الجذر في موقع واحد.

المعنى الشائع في أذهان الناس للاسم الشريف هزيل ويحتاج إلى تصحيح مفاهيم.

*****

اسمه تعالى اللطيف جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء الواردة في كتابه و في الحديث الشريف. في عملنا لتدقيق معنى الاسم من خلال الشواهد القرآنية، و ذلك بمراجعة الاسم بحدّ ذاته و كلّ اشتقاقات الجذر نجد أن الشواهد الواردة في كتابه تعالى لا تلقي أضواءً كثيرة على معنى الاسم. الشاهد الوحيد الذي قد يعطي توضيحاً للاسم لا يكفي بحدّ ذاته، أعني قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، نفهم منه التصرف بالرفق من غير عنف مع الحذر و الانتباه.

هذا المعنى يسير باتجاه المعاني الممكنة للاسم الشريف و هذه المعاني قريبة المنال لمن يفقه اللغة العربية، ولكن طالما أن الأمر يدور حول اسم من أسمائه عليه تقوم العقيدة فلا بدّ من عمل للتحقق من دقة فهمنا للاسم.

في الشواهد الباقية نجد الاسم الشريف مذكوراً صراحة مصحوباً بأسماء أخرى، الخبير خاصة، من سياق هذه الآيات: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان: ٣١/١٦].

و هناك شواهد في اللغة العربية عن استخدام كلمة اللطف و اللطائف (منها كتاب اسمه اللطائف و الظرائف).

يمكننا أن نفهم أن معنى اللطيف يتجه باتجاه المعرفة و العلم بدقائق الأمور، و هذا المعنى لا يمنع المعنى الثاني الممكن و هو المعنى الشائع للطف من حيث الرفق.

الحقيقة أن معنى اسمه اللطيف جَلَّجَلَالُهُ يشمل المعنيين السابقين، و بذلك يتميّز عن اسمه العليم أو الخبير بأمر لا يوجد فيهما، و هو اللطف بالمعنى الشائع.

لو كان اللطيف حصراً بمعنى العالم بدقائق الأمور لكان مطابقاً لاسمه العليم ولا تكرار في أسمائه.

بقي لنا من بعد الأخذ بمعنى العلم في اسمه اللطيف أن ندقق معنى اللطف الذي يميّزه.

اللطف بالمعنى المتعارف عليه رفق و معاملة باليسر و هذا المعنى مقبول في هذا الصدد.



لا بدّ من التعمق بالمعاني، و للقيام بذلك لا بدّ من تجاوز خط الشائع من المعلوم لتجاوز الشائع من المفهوم.

أول حرف من اسمه الشريف (**لام**) و هو ـ إضافة لأسراره ـ حرف قبض يسير أقل منه **الهاء** وأشد منه القاف، يليه مأسوراً معاكساً في طبعه الناري بمائية اللام (**طا**) و هو حرف بسط. و تنتهي الكلمة بـ **الفاء**، معنى الحرف آخر الكلمة غير معناه أولها.

(**الفاء**): حرف يعبر عن تباعد أو انفصال مكونات كانت مجتمعة. و هكذا يصير الاسم يعني قبضاً يسيراً أي أخذاً أو إمساكاً أو إحاطة أو رعاية برفق، و ضبط لنار تنتشر بتعديلها و إطفائها والسيطرة عليها و على مكونات ما هو موجود كي لا تتبعثر و تتلاشى، و ذلك بوجود (**الفاء**) في آخر الكلمة بل توجيهها بالقدر اللازم و بالاتجاه المناسب.

فيكون المعنى إمساك يحوف بالموجود برفق و توجيهه لما ينبغي أن يكون بالقدر اللازم برفق و يسر، و ذلك كله يتطلب علماً نافذاً.

فاللطيف جَلَّجَلَالُهُ هو القادر بالقيام بما ذكرنا على أتم وجه.

إن تابعنا لتعميق المعنى فلا بدّ من أدوات متناسبة مع العمق المطلوب.

في أبسط حساب لاسمه اللطيف نجد ١٢٩، إن أردنا التعرف عليه نعيده إلى مكوناته نجد ٤٣. هذا العدد بالتعرف عليه في كتاب الله تعالى يشير إلى معنى عطاء مع فتنة، فإما يحسن العبد العمل بما آتاه الله أو يسيئ. و هنا إن أضفنا معنى الـ ٤٣ إلى المعنى الذي سبقه بصدد اللام نتقدّم في إدراك سبب اختيار اسمه اللطيف في آياته جَلَّجَلَالُهُ فهو يقبض أو يمسك بلطف عباده بما أعطاهم من أن يفتنوا و يبعثروا هذا العطاء.

ملاحظات حول اسمه تعالى اللطيف جَلَّجَلَالُهُ:

تناول اسمه تعالى اللطيف جَلَّجَلَالُهُ كوني و خروج عن حدود الأرض و حتى المجرة و إلى أبعد إلى الكون إلى مكوناته و القوى الموجودة فيه.

تصور أن هذه القوى لا ضابط لها تصور على الأرض المادة غير مضبوطة فإنها تتلاشى. من الذي يجعل جزيئاً متماسكاً و مترابطاً؟

ولا بد أن نتصور الخليقة برمتها حين ذكر الاسم.

أيّ اسم من أسمائه تعالى إن ذكر بعدد مخصص يحتاج إلى إشراف، و كلما كان العداد كبير كلما احتاج إلى إشراف أكبر لأن معرفة الناس هو الشائع من كل اسم من أسماء الله الحسنى و ليس بالتدقيق فيها لكل اسمٍ من أسمائه سبحانه كرام عليهم السلام موكلين بهذا الاسم . إن ذكر الإنسان الاسم بعدد يكون قد استخدم إشارة أو مصطلحاً وضعه سبحانه بين الكرام و عباده الذاكرين لهذا الاسم.

و حين يكون الإنسان غير مناسب و غير مؤهل يتأذى الكرام من هذا الموقف لأنهم واعين تماماً لأبعاد كل اسم من أسمائه سبحانه، وعندها لا يكون تطابق بينهم وبين الشخص الذاكر لهذا الاسم مما قد يتأتى منه ضرر على الشخص ذاته.

كذلك أخذ آية و تكرارها على عدد مخصص هو أمر أكثر خطورة و لا يمكن فعله كيفما اتفق.

و الأمثل أن تقال الأسماء الحسنى كلها مجتمعة كورد و فيها طمأنينة و أنوار، و لا يمكن لإنسان أوضاعه متردية روحياً أن يقولهم عدة مرات إلا و يرتفع مستواه الروحي.

كذلك الأمثل لا أن يأخذ آية ويكررها بل أن يقرأ السورة كاملة، و هل هناك أعظم من كلامه سبحانه.

اسمه تعالى **الخبير** جَلَّجَلَالُهُ

(٣١)

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ **خَبِيرٌ** ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٤].

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ **خَبِيرٌ** ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧١].

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ **خَبِيرٌۢ** بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٣].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ **خَبِيرٌ** ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ **خَبِيرٌۢ** بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨]. هامة.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ **ٱلْخَبِيرُ** ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٨].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ **ٱلْخَبِيرُ** ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٣].

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ **ٱلْخَبِيرُ** ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٣].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ **خَبِيرٌۢ** بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٦].

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١١/ ١].

﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾ هود.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٣].

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠].

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾ [النور: ٢٤/ ٥٣].

﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ٨٨﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٨].

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: ٣١/ ١٦].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾ [سبأ: ٣٤/ ١].

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٤].

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣١].

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٠].

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١].

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٨].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١١].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ٨].

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ٦٦/ ٣].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٤].

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ [العاديات: ١٠٠/ ١١].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣٥]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ٩٤].

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٨].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣٥].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٠].

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٦].

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٨].

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢].

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

[الأحزاب: ٣٣/ ٣٤].

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴿١١﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ١١].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٩].

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١] هامة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨] هامة.

*****



وردت كلمة **خبير** في ٣٣ موضعاً بالقرآن الكريم،

و كلمة **خبيراً** في ١١ موضعاً للجلالة.

كما وردت في موضع واحد لغير الجلالة.

أما مشتقات للجذر فوردت في ٧ مواضع.

٣٣ + ١١ = ٤٤ مرة للجلالة.

١ مرة لغير الجلالة.

*****

اسمه تعالى الخبير جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية و قد ورد مراراً في كتابه الكريم مصحوباً باسمه البصير أو اللطيف أو العليم، مما يؤكد ثانية بالنسبة للبصير و اللطيف جَلَّجَلَالُهُ قيمة حديث الـ ٩٩ اسم.

بعد مراجعة الألفاظ المشتقة من «خبر» و كذلك اسمه تعالى الخبير في كتاب الله، لا نُحصّل للوهلة الأولى عن معنىً أعمق و أدق من المعنى الشائع الذي يتبادر للأذهان، و هذا المعنى الشائع لا بأس فيه. ولكن طالما أن الأمر يتعلق بحسن الاعتقاد به سبحانه فلا بد من سعيٍ لتحصيل أقرب معنى للمقصد الإلهي:

نلاحظ أن الاسم الشريف يتكرر مراراً بصدد عمل الخلق، مثلاً قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٥٣﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٣]. العمل تجلٍّ في الواقع للفكر أو النوايا. بعبارة أخرى: تجسيد لما هو مكنون و إظهار له في الواقع.

من خلال هذه الشواهد الكثيرة عن عمل خلقه و كيف أنه به خبير نستطيع أن نستنتج الفرق بين اسميه العليم و الخبير جَلَّجَلَالُهُ.

طالما أن العمل حادث فهو يتجلى في الواقع، و منه نفهم أن اسمه العليم علم مطلق شامل للمكنون و للحادث. يؤكد ذلك أول ورود للاسم الشريف في قوله تعالى: ﴿..وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٢٩﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩].

أما اسمه الخبير فهو تخصيص العلم بما يحصل و يقع.

يؤكد ذلك قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ۝٣١﴾ (أي بما يظهر من العباد في الواقع وامتحان الشخص ليظهر المكنون).

هذه النقطة تثير نقطة أخرى ألا و هي رفع الأعمال إليه سبحانه كما ورد في السنة المشرفة يقوم بها الكرام عليهم السلام المتعاقبين في الليل و النهار، يسألهم سبحانه على ما تركتم عبدي .. إلى آخر الحديث و هو أدرى جَلَّجَلَالُهُ، و كذلك رفع الأعمال إليه يوم الاثنين و الخميس و هو أدرى بما كان و ما يكون.

و الأمر في حقيقته من الأسرار الإلهية يدعو التأمل و التفكر و بالتالي اسمه الخبير يكمل اسمه العليم بالتخصيص بما يحصل و يقع، فكمال العلم بالممكن، العلم بكلّ ما يقع و يحصل.

اسمه تعالى الخبير جواب مسبق عن أسئلة ميتافيزيقية يمكن أن تطرح من عقائد أخرى؛ مثل أنه خالق و أنه عليم؛ إلا أنه من عظمته خلق بعلم و وضع القوانين و القوانين تسير وحدها بإرادته و قدرته و أنه سبحانه عمل كلّ شيء و ارتقى و سلّم الأمور إلى قوى ثانية (سبحانه وتعالى عما يصفون).

الاسم الشريف جواب و قطع لهذا التفكير و عقيدة المسلم أنه سبحانه علمه ليس نظرياً بل بالواقع فهو الخبير سبحانه وتعالى.

ملاحظات على اسمه تعالى الخبير جَلَّجَلَالُهُ:

الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٩].

قضية استوائه على العرش سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تتطلب قدراً كبيراً من المعلومات و طلبه سبحانه السؤال خبيراً فيه دليل على علو منزلة المعلومة، و كم هي عالية و تؤخذ على أنه من شهد هذا الأمر الملائكة لأنهم حملة العرش و بالذات سيدنا جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ. و بالتالي مستوى المعلومة عالي جداً و لا يمكن أن تنزل إلى مستوى التفكير الشائع.



اسمه تعالى الحليم جَلَّجَلَالُهُ
(٠٣٢)

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٥].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٥].

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٥].

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٠١].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٩].



﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٧].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤].

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤١].

*****

وردت كلمة حليم في ١٢ موقعاً في القرآن الكريم:

منها ٨ مرات للجلالة و ٤ لغير الجلالة.

كما وردت كلمة حليماً في ٣ مواقع.

و وردت ألفاظ مشتقة من «حلم» في ٥ مواقع و هي الأحلام و الحُلمُ.

٨ مرة حليم + ٣ مرة حليماً (للجلالة).

٤ مرة حليم (لغير الجلالة).

*****

اسمه تعالى الحليم جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ورد في أكثر من موضع كما رأينا في الآيات الكريمة المختارة. نجده في بعض الآيات مقروناً بفعل العفو مثل: ﴿...وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٥].

يمكننا أن نستشف من الآيات الكريمة معنى حلمه سبحانه و ذلك لتدقيق المعنى الشائع و المعلوم للكلمة. حلمه سبحانه عدم تشدد في المؤاخذة و العقوبة على كلّ الذنوب صغيرة أم كبيرة، بل عدم متابعة و عدم تدقيق تسامحاً و كرماً و فضلاً منه. و كذلك عدم تسرّع في المؤاخذة و العقاب بل إمهالاً إفساحاً لمجال التوبة.



فللعبد أن يغنم من هذا المجال المفتوح ويسارع في التوبة قبل فوت الأوان. وكذلك للعبد أن يعلم أنه إن لم يعاقب على خطأ فلا يعني ذلك أنه لن يعاقب عليه فيتمادى فيه. بل عليه أن يعلم أنه في إمهال و الحساب واقع لا محالة، فلا يغرّنه ذاك الإمهال في نفسه أو في غيره، فالإمهال ينتهي بالموت و ينتقل المكلف بلا عودة إلى الآخرة، و قد انتهى عمله و بدأ حسابه إلى أن يأخذ كتابه ويقول: ﴿... يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ... ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩].

الاسم الشريف كذلك أمان لكثير من العباد المتشددين على أنفسهم ممن يبالغ في مؤاخذة نفسه لأيّ ذنب، مع عدم صحة الاعتقاد به جَلَّجَلَالُهُ. و كأنه سبحانه مدّعٍ عام لا يهمه إلا متابعة الخلق على أيّ ذنب ليحكم بالعقاب. و منهم من يسقط ذلك التشدد في التفاصيل على الآخرين فيصير محور اهتمام و وجدان العبد التدقيق على الأخطاء و خاصة الصغيرة بتشنج و محدودية، فيصير الدين عندهم أشبه بمحكمة تشتغل بتطبيق قانون العقوبات.

إن من يبالغون في التشدد على أنفسهم فيصلون إلى حدّ لا يستطيعون فيه التحمل و المتابعة فينقلبون من تشدد إلى تسيّب تام أو يصبحون منفرين أو يشتغلون بتبخيس و تكفير الآخرين، فإعادتهم إلى جادة الصواب تكون بمعرفة و تمثّل حقيقة معنى اسمه الحليم جَلَّجَلَالُهُ.

اسمه تعالى العظيم جَلَّجَلَالُهُ
(٠٣٣)

ورد اسمه تعالى العظيم في ستة مواقع فيما يخص الجلالة في الآيات التالية:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤].

﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٤].

﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٩٦].

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٣٣].

﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٥٢].

*****

اسمه تعالى العظيم جَلَّجَلَالُهُ:

هذا الاسم القرآني من الأسماء الأساسية في الأذكار فكما قال سبحانه: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٤]، تسبيح الركوع. فقد منّ علينا سبحانه بالتعليم و التأديب عندما قرن فعلنا بمقالنا فنتعلّم و نستشعر بذلك عظمته و نحن راكعون مطأطئو الرؤوس.

الاسم الشريف يعبّر عن حقيقته سبحانه و كذلك يذكّر العبد بما ينبغي عليه أن يتذكّر ليحسن الاعتقاد و الأدب مع سيده و ربّه و مولاه جَلَّجَلَالُهُ. فما قد يعتلج قلب و نفس العابد من كثرة ذكره و عبادته و حبه لله أن يختلط عليه الأمر و يتعامل مع الله لكثرة ما يناجيه و يسأله لكلّ صغيرة و كبيرة، و كأنه سبحانه حبيب حميم تُرفع معه الكلفة.

فالاسم الشريف تذكرة بالعودة للأدب معه جَلَّجَلَالُهُ و لحسن الاعتقاد.

الاسم الشريف كذلك تذكير و تأديب لمن يعطي نفسه أو غيره من الأهمية أكثر بكثير مما يستحق، فالاسم الشريف يعيد إلى حسن الاعتقاد و التذكر بأن لا عظيم حقاً إلا الله، و بذلك يتواضع المرء أو لا ينبهر بغيره.

الاسم الشريف كغيره من الأسماء يفسر و يوضّح و يُعين على حسن الاعتقاد كما في باقي الأسماء، أي إنه سبحانه عظيم في سائر صفاته التي نجدها في أسمائه، فهو مثلاً عظيم في حلمه عظيم في كرمه عظيم في انتقامه عظيم في عفوه و هكذا...

الاسم الشريف يحمل في طياته كذلك معاني الهيمنة و الجبروت و القوة، خاصةً بالإضافة إلى ما هو مفروغ منه من معنى أخذ الأمر بعده الأقصى حقيقة و مجازاً.

وزنه فعيل يفيد كما رأينا مراراً أن الصفة تأخذ في الاسم من أسمائه حدّها الأقصى، طبعاً المفهوم أن لا حدّ لما تأخذه، و بذلك، و قد عَلِمْنا أنه كذلك سبحانه، وجب علينا تعظيمه كما علّمنا في ركوعنا له سبحانه و شدّة تعظيمنا له يدفعنا أن نعظّم كلّ ما يتعلّق به مثل كتابه و شعائره ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٢].



اسمه تعالى الغفور جَلَّجَلَالُهُ

(٠٣٤)

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٣].

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٢].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٢].

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٥].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٣٤].

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٠١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥].

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٣].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١٠٧].

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ١١/ ٤١].

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٥٣].

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٨].

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٦].

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٩].

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٨].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٥].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٨].

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٠].

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا

رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠].

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ١١].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ١٦].

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٤].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٨].

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٠].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤١].

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٣].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٤].

*****



اسمه تعالى الغفور جَلَّجَلَالُهُ:

لقد سبق و تكلمنا عن معنى المغفرة بصدد اسمه الغفار جَلَّجَلَالُهُ، و كيف أنها في الحقيقة إيقاف لتبعات الخطأ و أنه سبحانه الوحيد القادر على معرفة كلّ تبعات خطأ إلى اللانهاية و الإحاطة بها و إيقافها

هل يمكن أن نتكلم عن خطأ بالمعنى الحقيقي إلا عن مكلّف؟ هل يمكننا أن نقول: إن طيراً أو حشرة أخطأت أي أذنبت؟ بل يكاد يكون الخطأ أو الذنب من الخصائص المميزة للمكلفين، و هو جَلَّجَلَالُهُ، و قد خلقهم، أدرى بذلك سبحانه فكانت المغفرة منه رحمة كما يشهد على ذلك كثرة اقتران اسمه الغفور بالرحيم، و كأن تفسير الكلام الإلهي في آياته بإلحاقه اسمه الرحيم باسمه الغفور: إنه يغفر رحمة أو إنه غفور لأنه رحيم، و كذلك إنه غفور لأنه حليم و إنه حليم فهو إذاً غفور و هو جَلَّجَلَالُهُ غفور و عفو: يوقف تبعات الخطأ أو الذنب، و لنا أن نتفكّر في ذلك و نحاول أن نختار مثالاً لخطأ و نتابع عواقبه في الزمان، و نتقصّى نتائجه و توابعه لندرك مدى عظيم قيمة و رحمة إيقافه لمسلسل المآسي و الرعب المتصاعد و المتفاقم، فهو إذاً بذلك غفور و عفو أي لا يؤاخذ و يسامح و هو كذلك غفور لأنه ودود، و عندما كان الكلام بصدد الأوابين ورد اسمه الغفور مفرداً و الأوابون بالطبع توابون يسارعون و يهرعون بالعودة إلى اللّه حباً. ألا ترى أن أواب = ١٠ مثل حب و مثل ود فما يدفع الأوابين بالعودة إلى اللّه أكثر من حبهم له وحبهم له ما هو إلا انعكاس لحبه لهم يحب منهم أن يحبوه فمنهم ودّ و منه ودّ فهو ودود كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿... يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ .. ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤] ، سبحانه وذلك بالواو في اسمه الغفور مقروناً بالعفو جَلَّجَلَالُهُ و واوه. و الودود جَلَّجَلَالُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بواويه نفهم الفرق بين الغفار و الغفور، فالغفور جَلَّجَلَالُهُ يغفر وداً و حباً و رحمةً بعباده، أما الغفار جَلَّجَلَالُهُ كالجبار و القهار بتركيب اسمه قوة و جبروت و جلال و عظمة و كبرياء، فمهما عظمت ذنوب العباد فمغفرته أعظم و أقوى بجبروته و قهره لعواقب و تبعات الأخطاء و الذنوب.



اسمه تعالى الشكور جَلَّجَلَالُهُ

(٠٣٥)

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٠].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٤].

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٣].

﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٧-١٨].

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٨].

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٧].

*****

ورد الاسم الشريف ٤ مرات في القرآن الكريم. لم يرد مفرداً بل في ثلاث منها كان لاحقاً لاسمه تعالى الغفور، و مرة واحدة سابقاً لاسمه تعالى الحليم. أول ورود للاسم الشريف كان في سورة فاطر ترتيبها ٣٥ في المصحف.

*****

اسمه تعالى الشكور جَلَّجَلَالُهُ:

من خلال استعراض الآيات التي ورد فيها اسمه الشكور جَلَّجَلَالُهُ نلاحظ وروده مع اسمه الغفور و كذلك مع اسمه الحليم. و هذا، مرة أخرى، يؤكد أهمية حديث ٩٩ اسماً و كيف أن ترتيب و تلاحق الأسماء فيه منسجم مع كتاب اللّٰه.

في تناولنا للأسماء الحسنى ينبغي علينا ألا ننسى أن الهدف الأساسي منها بالنسبة لنا هو تصحيح العقيدة و ضبطها. و على قارئ القرآن، على الدوام، أن يعتبر.

نجد في جميع الشواهد القرآنية المذكورة فكرة جزاء وافي مقابل عمل، فتجلي الشكر منه سبحانه يكون عطاء للعبد مقابل طاعته، و هذا العطاء يزيد بما لا يقبل المقارنة في النسبة و التناسب عما يقوم به العبد، فما نسبة عمل العبد إلى جنة عرضها السموات و الأرض.

أول و أهم شيء في اسمه تعالى الشكور: الاعتقاد أنه مهما فعل العبد شاكر اًللّٰه فهو هزيل لا يذكر بمقابل عطاء اللّٰه، و الحال كذلك يدرك أنه بالشكر لم يبرئ ذمته فيبقى إذاً ممتناً غاية الامتنان للّٰه تعالى. و المهم في اسمه الشكور حسن الاعتقاد و توحيد و تنزيه؛ إذ إنه سبحانه في الحقيقة الوحيد القادر على الجزاء بالعطاء و الإحسان مقابل عمل، و هكذا لا يخلط المؤمن في قلبه و وجدانه و عقله بين جزاء العبد و جزاء الربّ فيضعهما على نفس المستوى و ينسي جزاءُ العبدِ الربَّ.

جزاء العبد ظاهر لا حقيقة له أما جزاء الربّ فهو الوحيد و الحقيقي، و الأمر بالغ الأهمية لمن يراقب قلبه و وجدانه و عقله و عقيدته كي لا ينصرف قلبه و وجدانه و لو لطرفة عين لغير اللّٰه، أو يذهب عقله مرسخاً لقناعة لا أساس لها في الحقيقة.

و هكذا، المعتقد في الاسم الشريف لا يضع أمله في غير اللّٰه تعالى، و يعلم ذلك أن أيّ عمل فيه طاعة لن يضيع بل سيجزى عليه خير جزاء، و كم و كم من الناس يندم على عمل صالح قام به ظاناً و مخطئاً أنه ضاع و ذهب أدراج الرياح.

ما أوردناه بصدد الغفار و الغفور مقبول في هذا الصدد فقد قال جَلَّجَلَالُهُ بصدد السعي: إنه شاكر عليم.

و الفكرة أنه تأكيد منه للعبد أن طاعته أو سعيه لن يضيع و لن يكون بلا مقابل بل سيجزى عليه جزاءً عظيماً.

و الأمر في هذا الشاهد الشريف جليّ بجلال إله شاكر، جلال يصعب على العبد إدراكه، فلسفي؛ أمر منه من أسراره جَلَّجَلَالُهُ و هو بالنسبة للناظر مبهم و بالنسبة للعقل العادي عمل و جهد عبثي لا طائل منه فكيف يكون له نفع أو ثمرة؟

فالله جَلَّجَلَالُهُ يقطع الطريق على هذه التساؤلات و يحث ثقة العبد بأنه سيجزى على عمله.

أما اسمه الشكور جَلَّجَلَالُهُ؛ فقد ورد مع الغفور و الحليم، و قد رأينا معاني الود في واو الغفور و كذلك في واو الشكور جَلَّجَلَالُهُ، الذي يقابل عبده بحسن الجزاء حباً منه و كرماً و تتعلق بزيادة مختصرها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. و الأمر كذلك، مدركين كيف لنا ألا تذوب قلوبنا شكراً و امتناناً له وحده سبحانه.



اسمه تعالى العليّ جَلَّجَلَالُهُ
(٠٣٦)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] هامة جداً.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ (٦٢) ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٢].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ (٣٠) ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٠].

﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ (٢١) قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ (٢٣) ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٣].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ (١٠) قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ (١٢) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (١٤) رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٦].



﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥].

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٥٠ ۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٣].

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: ٤٣٤/ ٣٤].

﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١-٤].

*****

اسمه تعالى العلي جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية أول ورود له في أعظم آية من كتاب الله كما أشار إلى ذلك عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سيدنا محمد رسول الله. الاسم الشريف و كذلك الآية الكريمة كدين الإسلام نور و هداية للناس كافة. الاسم الشريف تصحيح و ضبط للعقيدة، و جواب على كلّ ما قد يخطر ببال مكلف من تساؤلات عن الله جَلَّجَلَالُهُ. أول ورود للاسم الشريف في آية الكرسي التي فيها أجوبة عن أسئلة قد يطرحها المسلم مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ و هو جواب على ما قد يعتري عقول البعض من شطح و سوء اعتقاد مثل زعم أهل الكتاب و اعتقادهم بأنه سبحانه، بعد إذ خلق كلّ شيء في ستة أيام ارتاح سبحانه. و هكذا ينبغي ألا نحدّ آية أو اسم من أسمائه بحدود تفكيرنا

و حاجاتنا، بل يجب أن ندرك أنها أجوبة عن كلّ الأسئلة التي يمكن أن تُطرح مما يخطر ببالنا و مما لا يخطر على البال، و إن اطلع المسلم على ما يجول في قلوب و عقول غيره من البشر من عقائد وتصورات أدرك مدى قيمة أيّ اسم من أسمائه و مدى حاجة الناس إليه، و خاصة أن مردَّهم أجمعين للآخرة لا تنعدم ولا تتلاشى نفس واحدة من تلك الأنفس البشرية.

بعد مطالعة الآيات الحاوية على اسمه العلي جَلَّجَلَالُهُ، نجد أن هذه الآيات الكريمة محاطة بعناصر كثيرة مشتركة أحدها و الأكثر وروداً السموات و الأرض، و ذلك يذكَر بأنها يسعها كرسيه. إذاً هي تحته، و الأمر كذلك. و هو المنزه سبحانه عن المكانية فما أعلاه.

معترضة: لا بدّ أن أذكر أن الكون الذي يحيط بنا و الذي تقدّر الأبعاد فيه بالألوف المؤلفة من السنوات الضوئية، شبهه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحلقة مرمية في فلاة كما جاء في الحديث:

«مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ في الكُرْسِيِّ إلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلَقَةِ» [الراوي: أبو ذر الغفاري ـ المصدر: السلسلة الصحيحة للألباني].

فلا نستطيع تصور ولا إدراك هذه الأبعاد الشاسعة التي وسعها كرسيه، فما أعلاه أو ما أعظمه جَلَّجَلَالُهُ.

هذا المفهوم يقطع الطريق على ما تذهب إليه الأنفس بالألفة من رفع الكلفة فتصير مع العلي العظيم جَلَّجَلَالُهُ و كأنه مع أحد المعارف و الأقارب! فتقع تحت عتب توبيخ ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ...﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٤].

أكثر ما يبيّن هذا المعنى الشاهد الشريف في سورة الشورى حيث نقرأ قوله تعالى:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥١].

كيف للعوام أن يرفعوا الكلفة معه جَلَّجَلَالُهُ و هو سبحانه، إن كلّم خلقاً من خاصة خلقه، لا يكلمهم إلا من وراء حجاب! فما أعلاه سبحانه.

في هذا الشاهد الشريف من سورة الشورى نجد الاسم ثانية محاطاً بذكر السموات و الأرض، و الأمر بصدد الوحي تُبع الاسم الشريف باسمه الحكيم كما ورد في شاهد قبله من نفس السورة حيث الكلام عن الوحي قوله جَلَّجَلَالُهُ:



﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤﴾ [الشورى: ٤٢/ ١-٤]، و هذا يعيدنا إلى آية الكرسي ثانية، و هي بدورها تذكرنا بقوله تعالى من سورة سبأ: ﴿..وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢١]، مثل: ﴿.. وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا ...﴾ و نتابع قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٢] و هو يذكّرنا: ﴿.. لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ..﴾، ما لهم فيهما من شرك و ما له منهم من ظهير، متذكّرين: ﴿.. مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ ...﴾، لا نتعجب من قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ كما أنه العلي العظيم جَلَّجَلَالُهُ.

بتحصيل هذه المعاني و ترسيخها في العقيدة و الوجدان تكتمل العقيدة بكلّ اسم يتدبره المسلم.

رأينا كيف أن الآيات تتكامل و تؤلف وحدة في الفكرة المطروحة. يكتمل فهم القرآن عندما يصير كله مترابطاً في ذهن المؤمن، كلّ كلمة منه تذكر بالأُخرى ألم يسمّه منزّله ذكراً؟

ألم يجعله ﴿.. وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٢]؟.

و غاية الذكر ذكر الله، و ما يكون ذكر الله إلا بالتعظيم، فجلّ العلي العظيم.

اسمه تعالى الكبير جَلَّجَلَالُهُ

(٠٣٧)

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ٩].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٢].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٠].

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٣].

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٢].

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤].

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٢].

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٣].

*****

اسمه تعالى الكبير جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية، معناه جليّ لا لبس فيه ولكنه يتطلب تدقيقاً و تنقية (من الإسقاطات البشرية) و تعميقاً كي نخرج من فهمنا السطحي له إلى فهم صحيح. لذا نراجع لفظ كبير في كتاب الله الكريم فنجده إما عنه جَلَّجَلَالُهُ، ولا يمكن في هذه الشواهد استنباط الكثير، أو كصفة لأمر مثل: [إثم كبير]، [يوم كبير]، [فساد كبير]، [أجر كبير]، [قتال فيه كبير] أي من الكبائر، [شيخ كبير]، [الفضل الكبير]، [ضلال كبير]، [فساد كبير]، [عذاب يوم كبير]، [الفوز الكبير]، [خطئاً كبيراً]، [طغياناً كبيراً]، [حوباً كبيراً]، [علواً كبيراً]، [عتواً كبيراً]، [ملكاً كبيراً]، [جهاداً كبيراً]، [لعناً كبيراً].

نجد في الشواهد السابقة أن مفهوم كبير مفهوم معنوي و ليس مادي أو كمّي. طبعاً مرجعنا في تدقيقنا الكلمة هو محاولة فهم استخدام الله تعالى لهذه الكلمة في كتابه. نجد أن الشواهد السابقة تقودنا إلى فهم كلمة كبير كأمر بالغ الأهمية و بالغ لحدّه الأقصى في الزيادة. بناءً على ذلك يمكننا الانتقال إلى اسمه الكبير جَلَّجَلَالُهُ فنفهم منه أنه يأخذ حدّه الأقصى في كلّ شيء يليق بألوهيته و جلاله و كلّ ما سواه بالمقابلة مهما كبر معدوم بالنسبة و التناسب. و كذلك من حيث مفهوم شدة الأهمية و المكانة هو جَلَّجَلَالُهُ من حيث الأهمية الحدّ الأقصى و ما سواه بالنسبة و التناسب من حيث الأهمية معدوم. جليّ أن هذا الفهم يوجه عقل و عقيدة و قلب و وجدان و عمل المؤمن إلى نظرة صحيحة للأمور كلها، حيث لا كبير حقاً كما ذكرنا بالغ الأهمية و آخذاً حدّه الأقصى في الصفات الكاملة سوى الله و ما يتعلق به و ما سواه صغير.

و هكذا و بهذا المفهوم يستقطب محور اهتمام المؤمن و يتمركز في الله رافعاً المؤمن في اهتمامه من صغائر الأمور لأعظم و أكبر و أجلّ ما يمكن أن يكون، فلا يعظم في قلب و عقل و وجدان المؤمن سوى الله. وعي ذلك محور أساسي في الإسلام مختزل في كلمتين هما الأكثر وروداً و تكراراً في حياة المسلم ألا وهما: **الله أكبر** يسمعهما المسلم طيلة يومه و ليله ثلاثون مرة يومياً في الأذان وعشرون مرة يومياً في الإقامة، و كحدٍّ أدنى أربع و تسعين مرة يومياً في الصلوات المفروضة كلّ مرة تذكر المسلم أن لا كبير حقاً إلا الله، لا ملك ولا قائد ولا زعيم ولا جيش ولا قوة ولا شيء سوى الله، و كذلك لا شيء أكثر و أبلغ أهمية و أكبر في العقل و القلب و الوجدان من الله، لا مال ولا ولد ولا جاه ولا منصب ولا مشاغل ولا حاجات ولا شهوات ولا رغبات..

فما أنبل ذلك المسلم المؤمن باسمه الكبير جَلَّجَلَالُهُ، ما أنبله و ما أرقاه إذ لا يلتفت لصغير ولا يعظم ولا يخضع لشيء إطلاقاً، وإنما يخضع للواحد الكبير حقاً و الذي لا كبير غيره، الله جَلَّجَلَالُهُ.



اسمه تعالى الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ
(٠٣٨)

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ١١/ ٥٧].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢١].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٦].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ١٦-١٨].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفِۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٩-١١].

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظٗا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمْ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوْمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٖ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ



كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ٨٦/ ١-١٧].

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٦٤].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩].

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٩-١١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٠-٦١].

*****

اسمه تعالى الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ:

معنى الحفظ أنه تعلّم الشيء و عدم نسيانه مستبعد و ثانوي للغاية في هذا المجال، و هو في الواقع جانب أو مظهر من المعنى الأصلي الذي هو عدم إضاعة الشيء، فيكون بذلك الحفظ بالمعنى الأول عدم إضاعة المعلوم بالنسيان.

ما يهمنا هو المعنى الأصلي الذي هو منع الأمر أو الشيء من الضياع أو الزوال أو العدم. و هذا المعنى جليّ لا يشكل صعوبة في فهم الاسم و يؤكده ما ورد في القرآن الكريم من آيات، نجد فيها اشتقاقات كثيرة لحفظ تم اختيار البعض منها أول عملنا في اسمه الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ. بقي علينا إجلالاً و تعظيماً و من غير تكلّف ألا نحدّ الاسم الشريف بحدود ما سبق و ذكرناه بل نسعى لمزيد من التفكّر و التعمّق بما يفيد:

أكثر ما يدعونا لهذا التفكر للتعمق بمعاني الاسم الشريف هو قوله تعالى: ﴿...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

الشاهد الشريف دعوة منه سبحانه لتصحيح العقيدة و الارتقاء بتعرفنا عليه جَلَّجَلَالُهُ.

الشاهد الشريف يركّز على قدرة اللّه و عظمته، و مسألة الحفظ فيه ليست مركزية بل لاحقة لسعة الكرسي يطغى عليها كذلك العلو و العظمة.

إدراك معنى الحفظ في الشاهد الشريف يستوجب إدراكاً لمعطيات الفيزياء الذرية و الفيزياء الفلكية، اللتين تبدوان على طرفي النقيض من حيث الصغر و سعة الاتساع ولكن تشتركان في اعتبارات قوى الجذب و التنافر.

تعمق شديد في أسرار المادة من المتناهي في الصغر إلى المتناهي في الكبر يقود إلى طرح تساؤلات كبيرة عن القوى الضابطة للمادة، عن الانتشار إلى اللانهاية أو عدمه، عن التلاشي أو البقاء. هنا يقف ما يسمى بالعلم الحديث أمام حاجز إنكار و معرفة حقيقة الخلق و مسألة العدم و الوجود. إن خرق الباحث ذاك الجدار متفهماً لمسائل الإيجاد من العدم يقف تفكيره عند سؤال ما يبقي ذاك الموجود من العودة إلى العدم. بالطبع لا يطرح الإنسان العادي هذه الأسئلة إذ إنه بسذاجته يظن أن الموجودات تبقى موجودة تلقائياً طالما أنها لم تخضع لقوة تتلفها. أما أيّ عقل متقدّم في معرفة خصائص المادة فإنه يعرف أنه ثمة قوى هائلة تبقي عليها بشكل **متواصل** من التلاشي أو الزوال. و هنا كما لاحظنا، أدخلنا في مقولتنا اعتبار الزمن (لاحظ عبارة متواصل) من حيث استمرارية أثر هذه القوى. لا يدرك عظمة هذه القوى إلا من تعمق في أسرار الذرة و الفيزياء الفلكية. و هكذا يأخذ الاسم الشريف أبعاده الكونية من حيث الإبقاء على الموجود أو أثر الموجود، و في النقطة الأخيرة يندرج عمل العباد و منعه من التلاشي أو الزوال.

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية حيث ورد على الدوام متبوعاً أو مسبوقاً بحرف (على) مثل قوله تعالى: ﴿...إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ [هود: ١١/ ٥٧]، ﴿... وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢١]، ﴿... ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ...۝٦﴾ [الشورى: ٤٢/ ٦]، و هذا يعيدنا إلى إلى آية الكرسي حيث الحفظ متبوعاً مباشرة باسمه العلي فحفظه بسيطرة و هيمنة.

اسمه الحفيظ جَلَّجَلَالُهُ على وزن فعيل و هو كما رأيناه مراراً يفيد أن الصفة محققة و نافذة في أثرها إلى أقصى حدّ و أدقّ ما يمكن أن يكون مكانياً و زمانياً.

أول حرف منه **الحاء**: يفيد جري الإرادة على الشيء أو الأمر و فيه قدر من السيطرة. **الفاء**: وهو حرف تباعد و انتشار أُسر في منتصف الكلمة و منعت قواه كما لو أنها حجزت وراء سد هائل هو وزن **الظاء** و قوته.

اسمه تعالى المُقيت جَلَّجَلَالُهُ
(٠٣٩)

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٥-٨٧].

و على جذر (قوت) نجدها في مواقع عديدة منها:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١٠].

*****

اسمه تعالى المقيت جَلَّجَلَالُهُ:

لم يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في سورة النساء في قوله تعالى:.

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٥].

و بالبحث عن الجذر الثلاثي (قوت) نجدها في الموقع التالي:.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١٠].

الشاهد الشريف لا يساعدنا كثيراً في فهم اسمه تعالى المقيت خاصة و أنه الوحيد في كتابه الكريم.






نجد أن ما ورد في تفسيره لا يبتّ فيه بل يكاد يتهرب منه.

مثال ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه بمعنى المقتدر، و في رواية أخرى عن ابن عباس أنه بمعنى الحفيظ كما قال أبو عبيدة معمر بن المثنى.

أصل الكلمة من القوت فيصير المعنى المقيت أي الذي بيده قوت الخلق و هذا يتماشى مع قوله تعالى: ﴿... وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١٠].

إن كان المعنى كذلك فما سبب ورود الاسم الشريف في سورة النساء ﴿... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ بصدد الشفاعة و في أمور المنافقين و القتال .. إلخ.

هذا طبعاً ما أربك المفسرين إذ إن أول معنى يتبادر للأذهان (أي القوت) لا يتوافق مع سياق الآيات التي ترجح المعنى الثاني (أي المقتدر و الحفيظ) و المعروف عند العرب.

إن رجحنا المعنيين الأخيرين (أي المقتدر أو الحفيظ) فسوف يكون الأمر لا يزيد عن صف للمترادفات، فالاسم السابق للمقيت ليس سوى الحفيظ فيكون المعنى بذلك الحفيظ الحفيظ، كذا الأمر بالنسبة للمقتدر فهو وارد صراحة في أسمائه. لا مكان للمترادفات من غير طائل في كلامه سبحانه؛ إذاً لا بدّ من تعميق المعنى ولا يتم ذلك إلا بتجاوز حاجز، أجد هنا مناسبة إيضاحه.

الحاجز المانع للتعمق بمعاني أسمائه هو حصر مجال تفكيرنا في الاسم ضمن مجال حيثيات حياتنا الدنيا أولاً و ما ينعكس عنها في الآخرة بالدرجة الثانية، و كأنه سبحانه محدود بهذه الحدود. خرق ذاك الحاجز هو خروج من هذه الدائرة باتجاهي الزمان و المكان إلى حدود مشيئته، فيصير النظر إلى الاسم من الأسماء الحسنى من خلال إرادة اللّه في الكون و من الخليقة إلى القيامة خاصة.

أصل الاسم نجده في عبارة « قوت» و ما أشبهها بعبارة قوة و القوت مدد قوة، أعني بقوة المعنى المطلق و الكوني أي بمصطلح أحدث طاقة.

فيصير جَلَّجَلَالُهُ الذي يمدّ كلّ شيء بالطاقة اللازمة له.

و لنا أن نتفكّر بدور القوى و الطاقات في حركة الأكوان و كذلك في الجزيئات الأولية المكونة لمكونات الذرة حيث تتلاشى الحدود ما بين المادة و اللامادة.

هل الطاقة التي تشكل الذرة تلقائية فيها أم أنها تابعة؟ إن سحبت تلك القوة أو الطاقة من الذرة فما يبقى منها؟ كذلك إن سحبت أو توقفت الطاقة في الأفلاك فما يكون مصيرها؟ و هكذا يأخذ الاسم الشريف أبعاده من حيث أن أيّ موجود لا يبقى موجوداً إلا بمدد الطاقة و القوة منه سبحانه؛

لذا فقد قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

مراجعة لما ذكرناه بالبعد الكوني لاسمه الحفيظ يبين لنا التوافق مع اسمه المقيت جَلَّجَلَالُهُ.

هذا المعنى الكوني يتضمن معنى تفصيلياً في قوله تعالى: ﴿...وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ...﴾ أي أنه جَلَّجَلَالُهُ هو بيده ترتيب قوت خلقه مدد منه بالطاقة كما مد بالطاقة كلّ شيء.

و هذا الأمر كغيره مما ورد في كتاب الله مدعاة للتأمل، و الأمر في زماننا قريب المنال لكثرة الأبحاث و المقالات و البرامج العلمية التي تعرف بما يسمى السلسلة الغذائية.

تأمّل في ذاك التكامل بين الأحياء في الأقوات يحير الأفكار، و خاصة في أمثلة تخرج عن المألوف مثل مناطق في الأعماق السحيقة للمحيطات حيث لا ضوء ولا حرارة، و حيث تستحيل الحياة بناءً على المنطق العلمي، نجد ثغرات بركانية يندفع منها ماء تزيد حرارته بحكم الضغط الشديد على ٤٠٠ درجة مئوية تعيش حوله بكتريات و كائنات مجهرية تتغذى عليها كائنات أخرى.. و هكذا و كيف أن ثمة تزامن بين وفرة غذاء في مكان من المحيطات و مجيء أحياء مهاجرة لتلك البقعة المحددة في أيام محددة، و كيف أن بعض أنواع الأوركيدة لا تعيش إلا إذا اجتمع نوع من النمل و بنوا عشاً على أغصان الشجر... إلخ من أمور نجد فيها ترتيباً دقيقاً و عجيباً يدعو الإنسان للتأمل و التفكّر فيه بأن الأمر ذاك بيد الله وحده.

و بذلك يتحرر الإنسان المؤمن لحقيقة الاسم الشريف من ضلالات كثيرة؛ منها التحكم بأرزاق الآخرين للسيطرة عليهم أو من جهة أخرى التبعية للآخرين كمصدر للقوت و ما يتأتى عن ذلك من ذلّ و خوف و خضوع.

فالاسم الشريف عندما يصير من عقيدة المؤمن يجنبه التحكم بالعباد و خاصة إذلالاً لهم بالمنّ عليهم من خلال أقواتهم.

جولة في عالمنا في زمننا و تأمل لما يجري بصدد الغذاء أو التغذية كمصطلح حديث تكفي لإظهار أبعاد الفكرة السابقة، و كيف أنها في تصاعد إلى أن تبلغ ذروتها في فتنة الدجال حيث يتحكم تحكماً تاماً بأقوات العباد.

الاسم الشريف يحرر المؤمن به من الخضوع ذليلاً لأيّ مخلوق حرصاً على ما يأتيه منه من قوت. فالاسم الشريف يقطع على المؤمن به سلسلة التنازلات التي تنتهي بالذلّ و التبعية و العبودية لغير الله، و كذلك يجنب المؤمن به ادِّعاء ما ليس له فيجنبه مهالك الكبر و الظلم.



ملاحظات حول اسمه تعالى المقيت:

اسمه المقيت جل جلاله يتماشى مع اسمه الحفيظ من حيث إبقاء الشيء بإمداده بمدد بحيث لا يتلاشى.

معنى قوت أي طعام، و لكن بتوسيع المفهوم يصبح منح طاقة و هو مدد إيجاد أو بقاء على الوجود، **إبقاء الشيء على الوجود بهذا المدد من الطاقة.**

يمكن تشبيه ذلك في عالمنا بصورة على شاشة، الشاشة تحتاج إلى طاقة هي كهرباء، و تحتاج إلى معلومات منظمة و المعلومات هي الروح الطاقة بلا علم التي توصل إليه لا تكون روحاً.

نفترض رؤية صورة على جهاز ، فيلم مثلاً، فإذا انقطع التيار يتلاشى كل شيء.

الموجودات في العالم مثل الموجودات على الشاشة، إن قُطعت عنها الطاقة تتلاشى مباشرة.

فكرة الاسم الشريف معانيه أوسع بكثير من المستعمل و الدارج لهذا الاسم، و مثالها صاحب الشفاعة يجب أن لا ينسى أن مدد الإيجاد منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.



اسمه تعالى الحسيب جَلَّجَلَالُهُ

(٠٤٠)

المعنى الأول:

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: ٤/ ٦].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء: ٤/ ٨٦].

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٩].

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٢].

*****

المعنى الثاني:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٦].

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٤].

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٣].

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٨].

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٢].

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩].

*****

المعنى الثالث:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٣].

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٤].

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التوبة: ٩/ ٥٩].

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٩].

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٠].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النور: ٢٤/ ٣٩].

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٨].

*****

اسمه تعالى الحسيب جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ورد في مواضع ثلاثة مذكورة أعلاه.

الحسيب بمعنى: الكفاية،

الحسيب بمعنى: الحساب و العدد.

يبقى الترجيح أو التوفيق بين المعنيين. من جهتي أرى التوفيق بين هذين المعنيين و إن كان الأمر ليس قريب المنال بأن أشير إلى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: ٣٨/ ٣٩]، تجد اجتماع المعنيين في شاهد واحد، فالحسيب الذي يكفيك في الدنيا و في الآخرة هو نفسه الذي يحاسبك على دنياك و على ما أعطاك بما كفاك يوم الحساب.

نلاحظ مرة أخرى كما لاحظنا عدة مرات قيمة حديث الـ ٩٩ اسماً من حيث تسلسل الأسماء الشريفة، حيث يلي الاسم الشريف اسمه تعالى المقيت كما هو الحال في سياق الآيات الكريمة قوله جَلَّجَلَالُهُ:

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٨٥-٨٦].

هذا يدعونا إلى تعميق معنى الحسيب من حيث الكفاية من غير تجاهل لمعنى: ﴿ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٢] و ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٢].

شواهد ثلاثة قوية و مؤثرة لا يمكن أن تغيب عن بال الذاكرين، قوله جَلَّجَلَالُهُ:

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٢]، إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٤]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾، آخر التوبة. هذه الآية الشريفة تحوي في الأمر الإلهي الموجه لسيد المرسلين العنصرين الأساسيين للشاهد الثالث، أعني بالعنصر الأول حسبي الله حيث نجد نفس أحرف حسيب. و العنصر الثاني: عليه توكلت، كذا الأمر في قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٣] من قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ...﴿١٧٣﴾ ﴾ الآية، فالعنصر الأول حسبنا الله و العنصر الثاني نعم الوكيل.

هذه الشواهد العظيمة و المؤثرة يمكن اختزالها في اسمه الحسيب جَلَّجَلَالُهُ الذي يذكّر بها.

الاسم الشريف تذكرة للعبد بوجوب الالتجاء إلى الله في كلّ أمر و وضع الثقة التامة في ترتيبه و عدم الاكتفاء بغيره إطلاقاً، بل به حصراً و بالكلية إذ عندما يكون الاكتفاء به وحده حصراً بالكلية لا يكون في وجدان العبد الذاكر سواه الذي يكون قد تلاشى بالبعد ممن اقترب من الله بالتجائه فكيف يخشى ما سواه الذي بقرب الالتجاء ابتعد و تلاشى؟ و كيف لمصرٍّ على المعصية عالم بالحساب أن يلجأ بالقرب؟.

*****

ملاحظات حول اسمه الحسيب جَلَّجَلَالُهُ:

اسمه تعالى الحسيب: لا تنسى أنه يحاسبك.

من يريد أن يلتجئ إلى الحسيب يجب أن لا ينسى يوم الحساب.

من يريد أن يلجأ إلى الحسيب أصبح في الحضرة الربانية فمن يستطيع أن يصل إليه فهو محفوف محاط.

مفهوم الكفاية: هو حسبك، أي إنك تكتفي به عن غيره من غير أن ننسى العدد و الحساب يوم القيامة وألا ننسى أنه بقدر ما تمنح تسأل.

اسمه تعالى الجليل جَلَّجَلَالُهُ
(٠٤١)

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧].
﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٧٨].

*****

اسمه تعالى الجليل جَلَّجَلَالُهُ:

لم يرد الاسم الشريف في القرآن الكريم و هذا لا يؤثر على دقة فهمنا له إذ لا لبس في معناه بل المعنى جليّ واضح لا يشكل على أحد، و يدعم ذاك المعنى الجليّ ما ورد في كتاب الله عنه سبحانه: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الشاهد القرآني يؤكد كما رأينا مراراً قيمة حديث الـ ٩٩ اسماً فكما يتبع الإكرام الجلال نجد أن اسمه الجليل متبوع باسمه الكريم.

وزن فعيل كما رأينا مراراً في أسمائه جَلَّجَلَالُهُ يفيد أن الصفة تأخذ حدّها الأقصى و بالكلّية إلى أعماق الأعماق إن جازت العبارة. فجلاله سبحانه كذلك بحدّه الأقصى و بالكلّية و بذلك كلّ صفاته و أفعاله يغشاها ذاك الجلال و هذا ما قد يغيب عن ذهن المتفكر به.

الاسم الشريف في ترتيب الأسماء في حديث الـ ٩٩ اسماً كغيره تقويم و تصحيح لعقيدة المؤمن بالله. و قد رأينا في الاسم السابق الحسيب جَلَّجَلَالُهُ، الدعوة إلى الالتجاء إلى الله و طلب الكفاية منه وحده، والاسم بحدّ ذاته ورد بعد المقيت و ما رأينا من معاني الاسم الشريف. و هكذا بتسلسل منطقي غاية في الشفافية تتتالى الأسماء مقوّمة و معدّلة عقيدة الذاكر بإرجاعه كلما تقصى مبتعداً بمعاني اسم إلى صراط مستقيم مركز الحقيقة. فقد رأينا كيف أن الكفاية بأسرار الحسيب تكون بالالتجاء و القرب، فالإنسان بالاعتياد و الألفة من طبعه إن لم يكن غاية في الوعي ـ رفع الكلفة.

فالاسم الشريف الجليل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقوّم و يصحح و يؤدّب و يذكّر العبد الأدب مع مولاه كي لا يقع



في عتب طرد ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٤]!

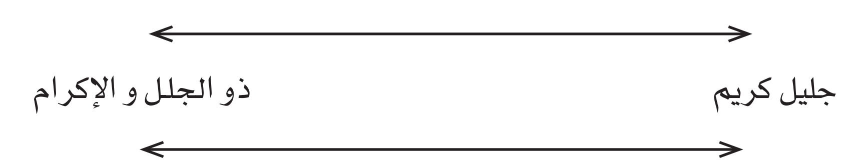
تقدير الله حق قدره لا يكون إلا بالتعظيم و الإجلال، و كذلك هو باسمه الجليل الذي ينبغي ألا يغادر عقل و وجدان المؤمن الذاكر خاصة عند تناول القرآن الكريم، و خاصة عند التحقق بأسمائه حتى تجد نفسك بالخشوع و الوجل و التعظيم تتبع كلّ اسم من أسمائه بقولك جَلَّجَلَالُهُ.

ملاحظات حول اسمه تعالى الجليل سبحانه:

اسمه تعالى الجليل سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من الأسماء التي فيها دعوة لتعظيم الله جَلَّجَلَالُهُ

وزن «فعيل» صفة بأعمق الأعماق بحدها الأقصى. كذلك جليل فعيل، هو سبحانه جليل حقيقة ليس بالظاهر جليل بل إلى أعماق الأعماق و بحدّه الأقصى و يفهم الاسم عندها مباشرة.

نلاحظ كم أن حديث الـ ٩٩ اسماً هام لأنه فيه توازن يظهر من خلال تسلسل الأسماء.



قد يكون الذاكر مستغرقاً باسمه تعالى الرحيم أو الودود مثلاً، و يعيش فيه.. عندها يجب أن لا يغيب عنه اسمه تعالى الجليل أو القهار، و عموماً ينصح أن تذكر الأسماء كلها، و حين تصبح الأسماء حاضرة في ذهن الذاكر بعدها يمكن له ذكر اسم معين.



اسمه تعالى الكريم جَلَّجَلَالُهُ
(٠٤٢)

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦].

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧].

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٨٧].

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ٩٦/ ١-٣].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٦].

﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٦-٤٩].

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٤١-٤٤].

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٣١].

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٥٨].

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٩].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٠].



﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٢٦].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ١١].

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٧-٧٨].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٠].

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣١].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٣].

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣١].

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٤].

*****

اسمه تعالى الكريم جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦].

المفهوم الشائع في أذهان أهل زماننا للاسم الشريف هو الكرم بمعنى كثرة و سخاء العطاء و الجود فيه و من غير مقابل. هذا المفهوم صحيح ولكن لا ينحصر الاسم الشريف به كما هو شائع في زماننا، بل يتجه المفهوم باتجاه الكرم بمعنى الرفعة و علو القدر و كذلك الكرم بمعنى علو القيمة إلى أبعد حدّ. فقد رأينا بتناولنا لاسمه العزيز نفي المعنى الشائع الحديث لهذه الكلمة كما يقال: (عزيزي فلان) فيكون بذلك فهم اسمه العزيز سبحانه الغالي في قلب الذاكر و هو في غير محله في ذلك الاسم بالذات كما رأينا. الأولى أن يكون هذا المعنى في اسمه تعالى الكريم جَلَّجَلَالُهُ فكما يستوجب اسمه العزيز رهبة و خوفاً و تعظيماً، فإن اسم الكريم يستوجب الكثير من التأثر و العواطف.

الاسم الشريف يدعو الذاكر أن يكون الله جَلَّجَلَالُهُ في عقله و قلبه و وجدانه هو الأعلى و الأحبّ، و أن يكون جَلَّجَلَالُهُ هو الأعلى قدراً و رفعة، و بذلك التعظيم المجبول بالحب يكون الامتنان لعطائه، عطاء الأعلى قدراً و منزلة في قلب الذاكر عطاء الأسمى و الأشرف جَلَّجَلَالُهُ.

*****

ملاحظات حول اسمه تعالى الكريم جَلَّجَلَالُهُ:

المعنى الدارج لاسمه تعالى الكريم مقبول ولكنه ليس كلياً. و العطاء الذي يأتي يجب أن ينبه إلى أنه آتٍ من عزيز و عالي القدر و المكان.

قد يعطيك أحد شيئاً و أنت تكرهه ولكن كم هي رائعة أن يعطيك أحدهم شيئاً و هو لك محب، وأن يكون امتنان لأنه عطاء من هذا المستوى الإلهي لأنه عزيز سبحانه.

الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ فيها لفتات عجيبة:

فكرة الصورة، و ركبك، و عبارة شاء كم هي عبارة حاذقة.

الذي خلق جَلَّجَلَالُهُ هو يقول ذلك و عبارة شاء، يشاء عندما تتعلق به سبحانه تحتاج إلى بحث و دراسة كذلك عبارة يريد.

الكرم بالمعنى الشائع وارد باسم الكريم [غَنِيٌّ كَرِيمٌ] [بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ]

الغالب على شرح اسمه تعالى الكريم هو حسن الاعتقاد عند ذكر الاسم لأن المعنى في أذهان الناس أقرب إلى اسمه تعالى الوهاب.

عبارة الكريم مع العرش هي لفتة حاذقة، فلا تقول العرش إلا و تذكر آيات منها و أهمها التي تتكلم عن العرش ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾ [النمل: ٢٧/٢٦] و فيها موضع سجدة وحقاً أهل أن يسجد عندها.

بهذا السياق هناك موضعين ورد فيهما اسمه جَلَّجَلَالُهُ: [الكريم]، [غَنِيٌّ كَرِيمٌ] و بالعمل عليها لا يمكن أن يوضع مع اسمه تعالى الغني إلا الكريم جَلَّجَلَالُهُ.



اسمه تعالى الرقيب جَلَّجَلَالُهُ
(٠٤٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١].

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١٧].

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٢].

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: ١١/ ٩٣].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/ ١٨].

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٨].

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٠].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٩٤].

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ١٨].

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٢١].


﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان: ٤٤/ ١٠].

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٥٩].

﴿ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٧].

*****

اسمه تعالى الرقيب جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف واضح المعنى لا يشكل إشكالاً في فهمه، ولكننا عملاً بالمنطلقات المذكورة أول الكتاب سنحاول التعمق بالمعنى و تدقيقه بما يفيد زيادة حسن الاعتقاد.

الاسم الشريف قرآني توضحه بجلاء شواهد مثل قوله تعالى: ﴿... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١].

أمر الله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ متبوع بقوله: ﴿كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾. حرف الجر (على) قبل اسمه تعالى يزيد من وضوح و جلاء المعنى و خاصة معنى الملاحظة و المتابعة للشيء أو الأمر.

حرف الجر (على) [عليكم] يفيد الإشراف و الهيمنة. ما يهمني من خصائص معنى الاسم إضافة إلى نفاذ المعرفة بالأمر أو بالشيء و الإحاطة به، الدوام و الاتصال بلا أي انقطاع في هذه الملاحظة.

الاسم الشريف يجسد عقيدة أن الله جَلَّجَلَالُهُ لا يغيب عنه أيّ شيء أو أي أمر ولا يخفى عنه سبحانه بل يتابع كلّ كبيرة و صغيرة، و متابعته ليست متابعة شاهد حيادي بل متابعة مهيمن جَلَّجَلَالُهُ.

ورود الاسم الشريف بعد اسمه الكريم بالمعنى الذي رأيناه من علو القدر و القيمة يقطع الطريق على الظنون، التي كثيراً ما جالت في أذهان البشر بأن الإله الخالق من عظمته و كرم مقامه أبعد من أن يهتم بشؤون أهل الأرض.

هنا الاسم الشريف من بعد الكريم في علوه و عزّته يذكر أنه رقيب لا تفوته كبيرة ولا صغيرة.

الاسم الشريف بالنسبة لمن يتحقق بمعانيه من الأسماء المخيفة إذ يجد المتحقق فيه الحيرة، إذ يشير الاسم إلى معرفة و متابعة و ملاحظة ما يجري من غير تدخل آني، يذكر ذلك بقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٧]، ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢].

و هكذا يشير الاسم الشريف إلى أن كلّ شيء تحت هيمنته جَلَّجَلَالُهُ و كذلك المكلفين من الثقلين، و أنهم ليسوا أحراراً يفعلون ما طاب لأنفسهم و أهوائهم بل مكلفين مراقبين محاسبين على كلّ صغيرة و كبيرة.

أرهب ما في الاسم الشريف هو معنى المواصلة و المتابعة بلا انقطاع فيقود بمتابعته بالزمن، لا محال، يوم القيامة و الحساب حيث يحاسب المكلف على كلّ صغيرة و كبيرة و مثقال ذرة من خير أو شر في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، و شهود كالرقيب العتيد الذي أوكله الرقيب جَلَّجَلَالُهُ.

*****

ملاحظات حول اسمه الرقيب جَلَّجَلَالُهُ:

أهمية اسمه تعالى الرقيب أنه مراقبة دائمة مع الزمن بلا انقطاع إلى يوم الحساب، و المُراقَب إذاً مكلف و يحاسب.

إنه سبحانه، يمكن في أيّ لحظة أن يقبض الظالم، و إنه سبحانه يترك الظالمين يفعلون و يفعلون دون محاسبتهم في الدنيا.. ولكنه الرقيب سبحانه عليهم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢].

الاسم الشريف يختلف عن اسمه تعالى الصبور، و معنى الصبور مبدئياً أنه تعالى صبره لا معاناة فيه و ليس صبره كصبرنا سبحانه.

اسمه تعالى **المجيب** جَلَّ جَلَالُهُ

(٠٤٤)

للجلالة:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ١١/ ٦١].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦].

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٥].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٩].

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٨٩].

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٤].

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٦].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٤].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٨].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٠].



﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٢].

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٧٥].

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٦].

*****

اسمه تعالى المجيب جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود: ١١/ ٦١].

الاسم الشريف أساسي في العقيدة و في صلة العبد بربّه.

الاسم الشريف أساسي في العقيدة من حيث أنه يرفع الإنسان من محدودية إدراكه للحقيقة و ضيق أفقه مكاناً و زماناً، رافعاً إياه إلى حقيقة أوسع من الزمان و المكان.

الاسم الشريف أساسي في العقيدة من حيث أنه يرفع الإنسان من إسقاطاته البشرية الهزلية على الله جَلَّجَلَالُهُ إلى حسن الاعتقاد و الأدب و تقدير الله حق قدره. فقد منَّ الله علينا إذ أنطق نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ محدثاً بهذه الدرة: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ» [سنن الترمذي: ٣٢٩٣]. إذاً الدعاء مختبر يختبر فيه العبد نفسه و عقيدته فيرتقي إن فهم و أدرك أمر الله، و يخيب إن بقي محصوراً في أمر نفسه.

الاسم الشريف أساسي في العقيدة من حيث أنه امتحان للعبد فالإنسان من حيث انطلاقه، عجول كنود قنوط، و هي ردود فعل بدائية مستواها طفولي. (للتأمل). فالاسم الشريف كما هو الحال بالنسبة للإسلام عموماً رفع للإنسان من نقاط انطلاقه البدائية و الطفولية في حقيقتها إلى نضج و ارتقاء و تسامٍ و علم. الإنسان عجول لجوج كالطفل، في أول طريق عقيدته يعلم أنه يعبد رباً واحداً بيده كلّ شيء فإن اضطر سأله، و إن لم يحصل ظن أنه لا يجيب. الاسم الشريف تصحيح لهذا الخطأ من محدودية أفق الزمان و المكان إلى الحقيقة المطلقة، حيث أن الإجابة مباشرة أو مؤخرة في الدنيا أو مؤجلة إلى يوم الحساب، حيث يتمنى المرء أنه لم يستجب له في الدنيا و أجّل له كلّ دعائه إلى الآخرة كما ورد في الأثر.

الاسم الشريف يقطع الطريق على سوء الاعتقاد، قطعاً جازماً أن الله يقيناً مجيب و لو لم تُرَ الإجابة حيث تُنتظر.

الاسم الشريف تصحيح للعقيدة فالدعاء مخ العبادة: فقد قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿...فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ...﴾ الآية الكريمة صريحة فثمة شروط و هذه دعوة للعلم و الارتقاء.

يُفهم من ذلك أن للدعاء شروطاً و آداباً منَّ الله علينا بتعليمنا إياها من خلال كتابه و سنّة رسوله، فدعاء الأنبياء مدرسة خزينتها الأسماء الحسنى إذ قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٠].

من جهتي، أفهم الآية السابقة لا على أنها دعوة منه للخيار في قبولها أو رفضها بل أمر منه يشرفني أن أمتثل له، فيقول قلبي: « لبيك». و كذلك تأكيداً على ما سبق: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ .. ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠].

أساتذة هذا العلم هم الأنبياء، فبالرغم من العذاب و الضر و الأذى و قسوة الامتحان، لم يشك سيدنا أيوب برحمة الله بل توجه إليه و قلبه و وجدانه و نفسه و عقله يشهد، و كأنه يناجيه و هو في نعيم الجنة من قلب صافٍ ﴿... وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٣]. و هكذا نجح في امتحانه و لم يعد هناك داعٍ للاستمرار فيه إذ نجح ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ...﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٤].

و كذلك الأنبياء عليهم السلام رغم كلّ الظروف المعاكسة لم يشكوا، بل شهدوا ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ .. ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٥].

يستمر الارتقاء بأسرار هذا الاسم عندما يزيد وعي الداعي أن الله أدرى بحاجته، وأنه بسابق علمه يعلم أن عبده الذي خلقه و علّمه الدعاء، سوف يدعوه باللحظة المقدرة. إذاً الدعاء مخ العبادة، إذ ما أتفهَ حالُ الذي يحاول في دعائه إقناع الله بجدوى طلبه، و ما أهزل ذاك الذي يتباكى مستعطفاً الله جَلَّجَلَالُهُ و هو الرقيب البصير العليم بحال الداعي قبل و بعد دعائه، و هو جَلَّجَلَالُهُ منزّه عن الزمان، ذاك المُعرِض اللاهي الذي بعد حين، يتوجه إلى الله بالدعاء باكياً و كأن اللقاء مع الله لم يتم سوى عندما هو طلب اللقاء، كيف يتباكى و الله جَلَّجَلَالُهُ رقيب على ما كان يفعل قبل سنوات؟ هل طال الأمد عليه فنسي سبحانه و هو منزّه عن الزمان؟ دهر عندنا لا يعدل لحظة عنده.

الاسم الشريف تصحيح للعقيدة و لصلة العبد بربّه كما نرى إذ مَنْ الذي مدَّ و منَّ على العبد بالقدرة على الدعاء غيره سبحانه؟



حاصل الأمر عقيدة راسخة أنه مجيب يقيناً لا محالة لا كما نشاء نحن العباد (وهذا يغيب عن كثير من الحمقى)، بل كما يشاء هو ربّ العالمين و كيف يشاء و متى يشاء.

نهاية المطاف بالارتقاء و حسن الاعتقاد دخول حقيقة قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ملهماً من ربّه جَلَّجَلَالُهُ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ» [سنن الترمذي: ٣٢٩٢] فيصير الداعي في دعائه يتنعم بشرف مناجاة ربّه جَلَّجَلَالُهُ.

أخيراً: فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يستجيب لخلقه من كلّ المِلَل و الأديان. فكم من بوذي أو هندوسي أو يهودي أو مسيحي توجه بدعاء صادق فاستجيب له.

الإجابة: إذاً، ليست متلازمة على الدوام مع صحة العقيدة. فلا يعني سوء العقيدة عدم الإجابة على الإطلاق، و كذلك فلا تعني صحة العقيدة إجابة حتمية و آنية على الدوام.

لقد عرّف سبحانه بهذه الحقيقة في قوله:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٢] وعلى لسان نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث دعوة المظلوم:

روى البخاري أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن:

«اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» [صحيح البخاري: ٢٢٦٨].

روى الشيخان وغيرهما أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لمعاذ:

«اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَاب».

و عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الله تعالى يقول عن دعوة المظلوم: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ» [مسند أحمد: ٨٤٤٠].

وعنه رضي الله عنه أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال:

«ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

و الأحاديث كثيرة عن دعوة المظلوم.

*****

ملاحظات حول اسمه تعالى المجيب جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف المجيب جَلَّوَعَلَا، اللّه مجيب ولا أشك أبداً أنه مجيب، و هذه عقيدة إن حصلت الإجابة أو تأخرت أو لم تحصل فاللّه تعالى مجيب أبداً.

لا تشعر أن عند المسلم وعياً كاملاً أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مهيمن تماماً على كلّ شيء و إنما فقط للأمور الشرعية و الأمور الأخرى متروكة لنفسها.

اللّه جَلَّجَلَالُهُ مهيمن و هو يعرف أنني سأدعو، الذي سيحصل بعد عام أو أكثر مكتوب، و بالتالي دعائي حاصل و هو سبحانه قرر أن أدعوه به و بالتالي:

الطلب إن طلبت ← النتيجة موجودة أصلاً.

و بالتالي إن وافق دعاؤك ما هو موجود تحصل الإجابة لأن القادم و كل شيء موجود أصلاً قبل أن ندعو.

اللّه سبحانه أراد أن يعلمنا لذلك طلب منا أن ندعوه لأن الدعاء مدرسة.

يجب على المسلم أن يدعو لكلّ صغيرة و كبيرة و بصدق وحرارة، ولكنه يعي حين يدعو، وعياً تاماً أن دعاءه صلة باللّه، لأنه أثناء الدعاء يتوجه بالكلية إلى اللّه سبحانه و كل شيء سواه يغيب ولا يبقى غيره سبحانه.

الأنبياء في دعائهم يخاطبونه سبحانه بعبارة «أنت» و بالتالي لم يبقَ إلا اللّه.

و الملاحظ أن الدعاء إن كان من إنسان مقدام و قوي و رجولي يجد أن معه رضا و العكس كذلك.

لنذكر آخر الزمان و حصار سيدنا عيسى و أصحابه و المجاعة التي تحصل، يطلبون من سيدنا عيسى أن يدعو اللّه فتحصل الإجابة و يموت يأجوج و مأجوج ثم تنحل جثثهم بدعاء من سيدنا عيسى و....

و بالتالي فالدعاء و الإجابة جاهزة من الآن.

الإجابة حاصلة من الأزل شاء سبحانه أن يوجد عبد تستجاب دعوته مباشرة.



اسمه تعالى الواسع جَلَّجَلَالُهُ
(٠٤٥)

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١٥].

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٧].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦١].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٨].

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٣].

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢].



(هام جداً)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٠].

﴿ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٩].

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه: ٢٠/ ٩٨].

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٧].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٧].

*****

اسمه تعالى الواسع جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية، رسمه بلا ألف، مرفوع متبوع دائماً باسمه: عليم، منصوب مرة متبوع باسمه: حكيم.

الاسم الشريف تصحيح لعقيدة العبد الذي يتمثل معانيه فيتخلص من الخطأ البشري الشائع المتمثل بإسقاط فهمنا و تجربتنا عليه سبحانه، و كأنه يتعامل مع الأمور كما قد يتعامل أفقهنا أو أعلمنا. فالإنسان بحكم التدرج في تكوين فكره في عالم مادي محدود، كما هو نفسه محدود، يغلب ذلك عليه و يعمّمه على كلّ شيء.

لنأخذ شاهد سيدنا طالوت، نجد فيه اعتراض بني إسرائيل على الخيار الإلهي و يأتي الردّ الإلهي على لسان نبيه: ﴿.. وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٧].

و هنا اسمه الواسع متبوع بالعليم حجة على المعترضين الذين قالوا: ﴿..أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ

عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ..﴾. فقد رأوا المسألة ضمن منظار ليس سوى منظار ضيق، و حاكموا المسألة ضمن احتمالات ليست سوى احتمالات محدودة.

اللّه جَلَّجَلَالُهُ هو الوحيد الذي يستطيع أن يرى مسألة ما ضمن المنظار المطلق، و أن يسع علمُه كلّ الاحتمالات و خاصة كلّ عواقب الأمور إلى حدّها الأقصى، انطلاقاً من مشيئته عند صدورها إلى تجسد الأمر في الواقع و استمرار عواقبه في الزمن إلى ما شاء اللّه.

لا يسع ذلك أيّ عقل. لا يسع ذلك إلا علم اللّه، فهو عندما آتى طالوتَ الملك أدرى بكلّ عواقب هذا الأمر عبر الأزمنة. فعلمه يتسع لكلّ شيء و لكلّ الاحتمالات و لكلّ النتائج، فهو بذلك الوحيد القادر على معرفة علاقة الجزء بالكلّ و علاقة الكلّ بالجزء، ولا يخرج عن علمه أيّ شيء مهما كبر أو صغر.

إذاً هو محيط بكلّ الإمكانيات و الاحتمالات كما ورد شهادة: ﴿...وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، ﴿.. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، ﴿... لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

وكذلك شهادة حملة العرش: ﴿.. رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا..﴾.

فالاسم الشريف حائل بين العبد و إسقاط محدوديته عليه سبحانه.

الاسم الجليل كذلك بشرى و أمان و قرب، فليتذكر!

فليتفكر الواحد منا اللحظات التي يقف فيها وحده داعياً سائلاً و راجياً اللّه، هل و هو متوجه إلى اللّه يخطر بباله أحداً من الإنس يدعو معه أم يرى نفسه وحيداً في فراغ مترامي الأطراف يناجي اللّه و يجد اللّه ملتفتاً إليه وحده لا يلتفت إلى غيره، و يغيب عن ذهنه أنه بنفس اللحظة ربما يكون هناك ألوف مؤلفة يتصورون الأمر مثله، واللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفسح لكلّ واحد منهم مثل صالة الاستقبال يكاد لا يكون لها حدود، يسعنا جَلَّجَلَالُهُ كلنا رحمةً و علماً، و نناجيه و هو أدرى بحالنا.

الاسم الشريف كذلك تصحيح للعقيدة مرة ثانية من الإسقاط البشري عليه، فالإنسان مستعد للتشدد إن التزم بالشرع و التزمّت، و ما أكثر ما نصادف أولئك الذين يسقطون تزمّتهم و تشددهم على اللّه، و كأنه يتابعهم متابعة المتزمتين المتشددين. سبحانه جلّ وعلا فهو كما قال عن نفسه واسع المغفرة، أي إن إحاطته و علمه بملابسات الذنب و عواقبه عبر الأزمنة إحاطة تامة شاملة. يسع الأمر و يعرف و يعلم كيف و لِمَ و لمن يغفر، و هو في ذلك لعلمه و إحاطته، يسع و يغفر ذنوباً لا يستطيع أحد من البشر إحاطة ملابساتها و عواقبها، فالاسم في هذا الصدد إشارة للعباد بالتواضع في حكمهم على الآخرين فلا يحكم أحد على آخر بأنه سيعاقب، فاللّه أوسع منه علماً و مغفرته أوسع من تقييم العبد.

*****



ملاحظات حول اسمه تعالى الواسع جَلَّجَلَالُهُ:

لا يغيب عن بالنا أن كلام الله تعالى ليس فيه شيء عبثي مطلقاً.

هناك أجوبة لكل الناس في القرآن الكريم وليس فقط للمسلمين.

هناك من غير المسلمين من يعتقد مثلاً أن الذي خلق الكون هو أكبر من أن يهتم بالأمور الصغيرة، و دليل ذلك أن هناك أشياء تحدث لا يمكن أن يفعلها الإله سبحانه . بالتالي الأسماء أجوبة عن هذه الأسئلة وتصحيح عقيدة؛ لذا هناك فارق بين قوله تعالى:

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ و ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وبالتالي الفرق:

وسع تعني: الإحاطة التامة.

وهو بكل شيء عليم: إطلاق.

وسع: أي شيء أصغر منه سبحانه بكثير ولا شيء خارج علمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ (هام).

لا شيء إلا و هو محتوى ضمن علمه سبحانه. ولا شيء إلا داخل علمه و هو واسع و كل شيء يداخل في إحاطة علم الله سبحانه.

هناك متاهات و نقاشات للبشر نحن لا نتعرض لها و كلها نجد لها حلّاً ضمن الأسماء الحسنى.

الفكرة الأساسية في اسمه تعالى الواسع: الاستيعاب والإحاطة.

اسمه تعالى الحكيم جَلَّ جَلَالُهُ
(٠٤٦)

وردت كلمة حكيم في ٩٧ موقعاً في القرآن الكريم منها ٩١ للجلالة:

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٢].

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٩].

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٩].

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٠].

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٨].

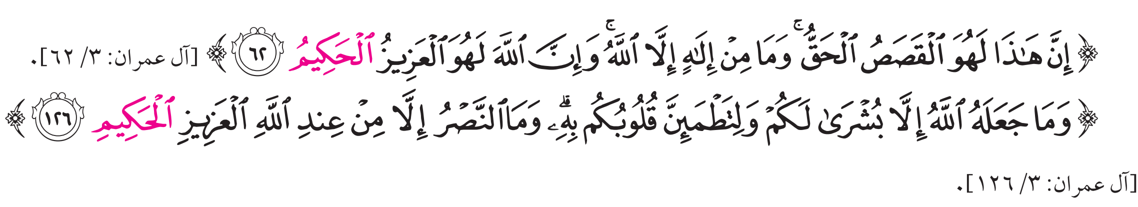
﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٠].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٠].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦].

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨].




﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٢].

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

[آل عمران: ٣/ ١٢٦].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١١].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٧].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢٤].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ٥٦].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٩٢].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٠٤].

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١١١].

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣٠].



﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾ [النساء: ٤/ ١٥٨].

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠﴾ [النساء: ٤/ ١٧٠].

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ [المائدة: ٥/ ٣٨].

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ٥/ ١١٨].

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام: ٦/ ١٨].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٣].

﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٣].

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٨].

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٩].

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: ٨/ ١٠].

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٩].

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٣].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧].

﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧١].

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ١٥].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٨].

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٠].

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٠].

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٧].

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٦].

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٠].

﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود: ١١/ ١].

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٦].

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٣].

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٠].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٥].

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠﴾ [النحل: ١٦/ ٦٠].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٢].

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [النور: ٢٤/ ١٠].

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾ [النور: ٢٤/ ١٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾ [النور: ٢٤/ ٥٨].

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النور: ٢٤/ ٥٩].

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: ٢٧/ ٦].

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل: ٢٧/ ٩].

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [لقمان: ٣١/ ٩].

﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾ [سبأ: ٣٤/ ١].

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٧].

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢].

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ١].

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٨].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٢].

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣].

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٤].

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢].

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٧].

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٤].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٧].

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٩].

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٨].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٣٠].

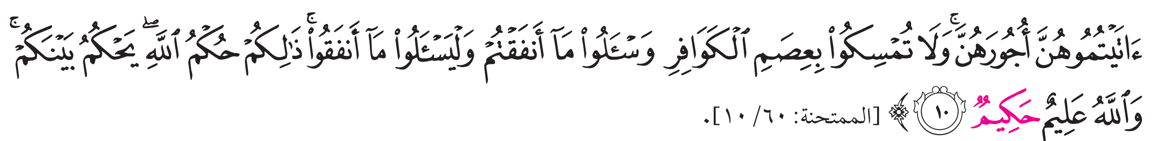
﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ١].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ


ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١٠].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الصف: ٦١/ ١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١].

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٣].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٨].

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [التحريم: ٦٦/ ٢].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣٠].

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٨].

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١].

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢].

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١-٤].

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٢].

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ١-٤].

*****

اسمه تعالى الحكيم جَلَّ جَلَالُهُ:

الاسم الشريف من أكثر الأسماء وروداً في كتاب الله ولا يأتي وحده في آية بل يكون مقروناً باسم آخر: العليم و العزيز خاصة. الاسم الشريف مرتبط عند الخواص بأسرار لفظ الجلالة.

ما يهمنا الآن هو حسن فهم الاسم لتصحيح العقيدة و الصعود بالتحقق من معاني الاسم الشريف.

جذره حَكَمَ كما رأينا في اسمه الحكم، و كتذكرة لما قمنا به من تقصي المعنى الحقيقي لحَكَمَ نجد: معنى الإحكام أي المطابقة الدقيقة من أمر لآخر من حيث الإكمال و كمال التناسب.

و كمثال بسيط لتبيان ما سبق قولك عن إناء أو عن منفذ أنه محكم الإغلاق ففي المثال نجد الغطاء مناسباً كلّ التناسب للفتحة، لا فجوة فيه ولا خلل.

في مثال الآنية أو الشيء المحكم الإغلاق نجد ما يُغْلِقْ لا زيادة فيه ولا نقصان و إنما مطابق مناسب بالقدر اللازم، و كذلك الحكمة إعطاء الشيء أو المسألة أو الأمر القدر اللازم و الكافي الذي لا زيادة فيه ولا نقصان و ذلك من صفات الكمال. يقتضي ذلك معرفة أصل و سبب الشيء أو الأمر ومعرفة نهايته و غايته عندها يكون التطابق محكماً.

و مَنْ غير الله أعلم بأصل الموجودات و الأمور و هو الخالق الواجد الذي هو أوجده، و محال في حقه أن يوجد بلا سبب عبثاً و قد منَّ الله علينا إذ نفى صراحة العبثية عن أفعاله بعبارة اللعب، فعندما يخلق و يوجد فإنما لهدف أو غاية أو بعبارة أدق **لحكمة**! و مَنْ غير الله أدرى و أعلم بالنهايات و الغايات فكما أنه هو الأول، هو الآخر. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧]، فهو أدرى بالنهايات و الغايات إذ إنه هو الذي يضع حدّاً لكلّ شيء، فمَنْ غيره أعلم بعلاقة البداية بالنهاية و الأصل بالغاية و هذا ما يعجز عن إدراكه الإنسان فيثور و يقنط أو يكفر أو يعترض أو ييأس لضيق أفقه في معرفة ما كان و ما يكون، ما سبق و ما لحق.

أما أن نتدبر معاني الاسم الشريف: أطمئن لحكم و حكمة من هو أصلاً منزّه عن القبلية و البعدية، فبذلك لا تُشكلان عليه بل يتحكم فيهما و هو موجِدهما فمن أحكم منه؟ لا بل لا حكيم حقاً إلا الله.

*****

ملاحظات حول اسمه تعالى الحكيم جَلَّجَلَالُهُ:

حكمه على عباده يكون بحكمة و فيه معرفة البدايات و الغايات.

الحكيم هو الذي يطابق المسألة حتى غايتها ولا أحد أدرى بالغايات سواه و يذكرنا ذلك بقصة سيدنا موسى و الخضر؛ سيدنا موسى محصور بالزمان أما سيدنا الخضر دليله أوسع بكثير من الزمن.

الغلام أبعد بالزمن من السفينة.

اليتيمين أبعد بالزمن من الغلام.

و بالتالي من أراد رؤية الحقيقة في القرية التي حصلت فيها قصة بناء الجدار (من قصة سيدنا موسى والخضر) يجب أن يجلس وينتظر في الزمن.

أي مسألة في العقيدة يجب أن تكون صحيحة و دقيقة جداً، و مراجعة الاسم في الآيات و الوصول إلى المعنى المقصود و يجب أن يكون المعنى واضحاً في الأذهان و أن نتخلق و نتحقق من معانيه.

أي خلل في العقيدة يظهر على المدى البعيد مثل مبنى طابق واحد لا يهم أن يكون مائلاً قليلاً أما إن كان مبنى من خمسين طابقاً فمثل هذا الخلل مستحيل و يسبب الانهيار.



اسمه تعالى الودود جَلَّجَلَالُهُ
(٠٤٧)

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ ﴾ [هود: ١١/ ٩٠].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٦].

*****

اسمه تعالى الودود جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ورد في كتاب الله مرتين مرة مع اسمه الرحيم في قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ ﴾ [هود: ١١/ ٩٠]، و مرة ثانية مسبوق باسمه الغفور في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: ٨٥/ ١٣-١٤]، جَلَّجَلَالُهُ.

نجد أن الاسم الشريف ارتبط في الآيتين بالمغفرة، في الأولى حثّ سيدنا شعيب قومه على الاستغفار و في الثانية صراحة مع اسمه الغفور.

في الأولى مسبوق باسمه الرحيم بعد الدعوة و الحثّ على التوبة، ولا عجب في ذلك إذ إن أول ورود لاسمه الرحيم، من بعد صيغة الرحمن الرحيم في الفاتحة، كان في قوله عن سيدنا آدم أول البشر: ﴿... فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧].

في الشاهد الثاني نجد اسمه الودود لاحقاً لاسمه لا الغفار بل الغفور، و قد رأينا بمعرض الكلام عن هذا الاسم الشريف معنى الواو التي فيه و التي تميزه عن الغفار، كلام فصّلناه، مختصره أنه جَلَّجَلَالُهُ يغفر حباً و وداً لعباده.

هنا و قد شرّفنا الله بالمتابعة للوصول إلى اسمه الودود، نجد تأكيداً و تكريساً لهذه الفكرة أنه جَلَّجَلَالُهُ يحبّ خلقه فيغفر لهم وداً.

الاسم الشريف كباقي الأسماء الحسنى مدرسة في حسن الاعتقاد تتميز بالتوازن التام و التكامل المطلق: فالآية من سورة البروج مختصر في العقيدة:.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ و هذه الفكرة تذكرة لمن يحجبه تفكيره الآني عن هذه الحقيقة التي لا تخفى على متأمل لأحوال الدنيا و الأرض، الآية الكريمة تعطي انطباعاً و تصوراً مرعباً عنه سبحانه. إن اعتقد المرء بهذه الآية و حدها دون غيرها ساء اعتقاده. يمنّ الله علينا فنتابع كلامه أنه لا يؤثر فيه شيء إن بطش و أفنى فإنه كما قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ و هذا يذكرنا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥-١٧] كم يشعر المرء بنفسه صغيراً هزيلاً لا قيمة له، من بعد الآيتين يسري الرعب في أوصاله خوفاً من بطش انتقام الربّ.

إن اعتقد المرء بهاتين الآيتين وحدهما دون غيرهما ساء اعتقاده و جنح باتجاه تصور إله عنيف قاسٍ مخربٍ يبطش لا تدري لِمَ و متى، همك الوحيد اتقاء شره.

منّ الله علينا بتصحيح عقيدتنا فمن بعد تذكيره الغافلين ببطشه انتقالاً بأنه يبدئ و يعيد يبشرنا بأنه غفور، و الاسم كأمثاله من الأسماء التي فيها **واو** أسماء كلها رأفة و رحمة و حبّ و ود. يتابع جَلَّجَلَالُهُ مؤكداً لمن لم يدرك لفتة **واو** الغفور بصريح **واو** الودود فالاسم الشريف من شدة الحب و الودّ فيه هو الوحيد الذي احتوى واوين.

جلّ ما نراه في تتابع الأفكار في الآيات من بناء عقيدة متكاملة متوازنة، لا نقص اعتقاد المعتقدين بإله عنيف ولا بنقص اعتقاد المعتقدين بإله حب رقيق يضحي بنفسه ليكفر عن سيئات خلقه بل اعتقاد متكامل متوازن.

الاسم الشريف من بعد قوله: يبدئ و يعيد الذي يذكر باسميه المبدئ و المعيد، كلّ يقابل الآخر مثل الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و القابض و الباسط، ليس له مقابل أو نقيض، فالودّ من صفاته جَلَّجَلَالُهُ، و صفاته ليست نسبية بل تأخذ حدّها الأقصى.

ما نسبة أحدنا إليه، فلنا أن نتفكر بنسبة أقصى ما يكون ودّ أحدنا إلى ما يكون من وده جَلَّجَلَالُهُ، هو أمرٌ إن أدركه العبد ما طاقَهُ لشدته بل قبض في الحال. حبه سبحانه ووده، إن جازت العبارة، مبادرة منه سبحانه، و المعنى موجود في ودَّ مثل همَّ على الأمر أو تمنى، و بذلك ودّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سابق منه لنا، فمن أظلم ممن يُعرِض عنه و قد بادله سبحانه بالودّ و المغفرة و الرحمة.

بقي لي أن أذكر عبارة من وصفه بالأوّاه و كنّاه خليلاً إذ قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٦].



عندما قرأتها مراهقاً في السن الذي تُعبث فيه الأهواء بعواطف الإنسان نطق قلبي بها فقلت كذلك: إني لا أحب الآفلين. إذاً للاستنباط من كلام سيدنا إبراهيم أنه يحب الحي القيوم فهو حقاً خير من هو حريّ بالحب إذ إن ودّه دائم لا آفل، يشير إلى ديمومته **دال** ودّه، يؤكد **دال** الدوام **دال** الثبات و الديمومة، فالاسم الشريف كما هو في معانيه هو في تركيبه آية.

*****

ملاحظات حول اسمه تعالى الودود جَلَّجَلَالُهُ:

- تعليق على قول المؤلف في النص السابق: (فمن أظلم ممن يعرض عنه)

شرحها: من أظلم تذكر بالآية الكريمة :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٨].

الغفور ذو الرحمة مرتبطان باسمه الودود مباشرة في الآيات.

- الود من الصفات الغالبة عليه جَلَّجَلَالُهُ و ليس من صفاته البغض و الكره، و هو عنده سبحانه لحظي لأمور معينة بينما الساري أبداً الود لذا ليس له مقابل و هو وحيد.

اسمه تعالى المجيب أيضاً لا مقابل له.

- «الدال» حرف دوام و ثبات و حسب موقعه ولكن غالباً حرف دوام وثبات.

كلّ الأسماء الحسنى التي فيها «واو» فيها رقة و رحمة، و اسمه تعالى الودود فيه واوين.

- ودّه سبحانه سابق مثل يدين مفتوحتين و صدر مفتوح مع كلّ النسبة بيننا و بينه سبحانه. و مع ذلك هو المبادر و الفاتح و المقبل علينا و من نحن أمامه، و هو سبحانه يقبل علينا بالود فكيف يجب أن تكون أحوالنا معه سبحانه؟!.

- الحب ليس فيه فكرة المبادرة. حب = ود = ١٠. الحب فيه تعبير عن عاطفة فقط و ليس فيه فكرة حركة المبادرة منه سبحانه بالود.

اسمه تعالى المجيد جَلَّجَلَالُهُ

(٠٤٨)

وردت عبارة المجيد في موضعين للجلالة في الآيات التالية:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ١١/ ٧٣].

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٦].

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق: ٥٠/ ١].

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ٢١-٢٢].

*****

اسمه تعالى المجيد جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٥].

ذو العرشِ المجيدُ حركة دال اسمه المجيد جَلَّجَلَالُهُ تقطع بأن الاسم عائد عليه سبحانه.

الآية الكريمة تؤكد ثانية على أهمية حديث الـ ٩٩ اسماً و قيمته. فالاسم الشريف في الآية الكريمة يلي اسمه الودود كما هو الحال في الحديث الشريف مما يؤكد بدوره على أهمية و معنى هذا التسلسل.

خير استخدام لجذر مَجَدَ بما يتعلق بما نحن بصدده عبارة مجَّدَ فهي مركز المعنى في صدد

البحث في الأسماء الحسنى. و المعاني الثانية المستخدمة من قبل العرب ثانوية.

مجَّد أي عظَّم و بجَّل أفضال و مآثر الممجَّد، و هذا المعنى هو الوحيد المناسب للاسم الشريف.

فالاسم الشريف «المجيد» يعني الحريُّ بأن تُعظّم أفعاله و مآثره و تبجّل صفاته، و كذلك المتأصلة فيه عظمة الأفعال و الصفات.

وزن فعيل يشير كما رأينا مراراً إلى أن الصفة تأخذ حدّها الأقصى و المطلق، و تذهب إن جازت العبارة إلى جوهر الجوهر أو أعماق الأعماق. أي إنها كلّية لا سطحية و كذلك مجده سبحانه.

دال آخر اسمه تعالى تشير إلى أن ذلك المجد أبدي. فبذلك، و بالنسبة و التناسب حيث أن سواه بذلك معدوم، يكون الوحيد المجيد حقاً هو اللّه.

فما أمجاد أيٍّ من الخلق مهما عظم بالنسبة لمجد اللّه؟ نسبة العدم للكل!.

الاسم الشريف كباقي الأسماء درس للمؤمن يصحح عقيدته و سلوكه، فلننظر إلى أهل الدنيا نجد أن عامة البسطاء كثرة و عظيمي الشأن قلة. حاجة الضعيف إلى القوي تدفعه لإرضائه و إرضاء من يطمح للقوة يكون بتعظيم أفعاله و صفاته، بعبارة أخرى التأكيد و المبالغة في أمجاده. و كم ذلك شائع و مذري و فيه نفاق و إذلال. كم من ألوف زجت في الشوارع لتهتف معظمة أمجاد فلان من الناس.

الدرس الربّاني هو أن اللّه هو الوحيد الحري بالتمجيد و أن المجد الحق له وحده و بذلك تحسم دوامة نفاق و ذلّ من يمجّد الآخرين، و دوامة غرور و ادعاء و ضلال من يمجّد نفسه من الخلق، و يفرض ذلك على أمثاله من الخلق.

بتمثل الاسم الشريف يتقارب الناس بالتواضع فيما بينهم و بتمجيد من هو حريّ بذلك.

جيم المجيد تشير إلى الجلال و الجبروت كما أن الدال تشير إلى الثبات و الدوام. الاسم الشريف يلي اسم الودود، في هذا التتابع تقويم لما قد يصدر من العباد من شطط أو جنوح، فقد يسترسل العبد في اسمه الودود فيعتبر ربّه ذا الجلال و الإكرام كأنه صاحب أو خليل، يرفع الكلفة معه، يعاتبه و يتدلل عليه على أساس أنه ودود.

الاسم الشريف تذكرة إلى هيبة و عظمة و مجد ذلك الودود و تعلّم العبد أن التودد إليه يكون بتمجيده سبحانه. العمل على فهم و استحضار معاني الاسم الشريف عمل أساسي لا بدّ منه لكلّ مسلم، إذ إنه يذكره مراراً كلّ يوم خمس مرات كحدٍّ أدنى في الصلوات الإبراهيمية.

تُرى من منّا يعني ما يقول و يشهد قلبه عندما يقول: «في العالمين إنك حميد مجيد».



اسمه تعالى الباعث جَلَّجَلَالُهُ

(٠٤٩)

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٥٦].

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٩].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٦].

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٧].

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤].

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٩].

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٦].

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠٣].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧].



﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦].

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ٨٩].

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ الإسراء.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٩].

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٤].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ١٢].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ١٥].

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٣٧].

﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٢].

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤١].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥١].

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٧].

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٤٤].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٧٩].

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾ [الجن: ٧٢/ ٧].

*****

اسمه تعالى الباعث جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف و الذي لم يرد بصريح العبارة في القرآن الكريم يختصر جانباً أساسياً في العقيدة تناولته ثلاث و ستون آية.

عملاً بالقواعد التي اعتمدناها أول عملنا حيث أكدنا على ضرورة تدقيق معنى اسمٍ تُبنى عليه العقيدة، نتجاوز المعنى الشائع للبعث مدققين إياه من خلال لغة القرآن كما سبق و اتفقنا.

المعنى الشائع للبعث سليم عموماً ولكن تنقصه الدقة. أيّ متكلم للعربية يقرأ آية فيها كلمة مبنية على مصدر بعث، يفهم تمام المقصد من غير إشكال ولا إبهام، ولكن من غير تدقيق أو عمق، إذ يصعب عليه إعطاء مرادف دقيق للكلمة أو حتى شرحها بدقة و إيجاز بكلمات أخرى.

أقرب معنى لـ بَعَثَ يمكن أن يكون أرسَلَ. يدعم ذلك كثير من الشواهد القرآنية أمثال قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ...﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٩]، و قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ... ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٣]، و قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ...﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤].

طبعاً، أرسَلَ كمرادف ناقصة.

إن دققنا في الآيات نجد مثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٦] نجد إضافة لمعنى الإرسال معنى الإيجاد. باجتماع هذين المعنيين الأساسيين يتوضح بعمق معنى البعث، و خاصة معنى البعث المرتبط بالآخرة.

البعث في الآخرة إرسالٌ و إيجاد للأنفس في أجساد يحييها اللّه لتحلّ فيها الأنفس لتقف بين يديه و تحاسب.

التدقيق الذي قمنا به على بساطته يشكّل أساساً متيناً للتعمق بمعنى البعث.

جميع أحرف جذر الاسم الشريف أحرف بسط. ما يهمنا في كلّ اسم من أسمائه جَلَّجَلَالُهُ هو بناء عقيدة سليمة.

الاسم الشريف مختصر لآيات كثيرة كما رأينا تفصل حسن الاعتقاد باللّه بأنه هو وحده الذي يرسل الرسل و النبيين. طبعاً الأمر للوهلة الأولى بديهي للمؤمنين ولكن شطحات العقل البشري تذهب به إلى خارج الصواب، فكم من رجل ادَّعى النبوة.

ينتهي الأمر بالدجال الذي يكون كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

«إِنَّهُ يَبْدَأُ فَيَقُولُ: أَنَا نَبِيٌّ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، ثُمَّ يُثَنِّي فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» [سنن ابن ماجه: ٤٠٦٧].

من أقوى حججه إن حاجَّه أحد بأن الله يبعث الموتى فابعث أبي إن كنت الإله، أنه يشير فيصدر من الأرض من هو على هيئة والد المتوفى للسائل بكلمة و يحضه على الإيمان به. يكاد لا ينجو من هذه المحنة و الفتنة، المقبلة قريباً، أحد إلا ثلة أو قليل من المؤمنين، فلنا أن نتصور مدى أهمية ترسيخ معنى أن الله هو وحده الباعث، هو الذي بعث خاتم النبيين الذي لا نبي بعده، فلا يمكن لأحد غير الله من مَلَك أو جان أو شيطان أو إنس أن يبعث نبياً. و أن البعث الحق لا يكون على الأرض و لم تقم بعد القيامة و لم يفنَ بعد كلّ شيء و لم تطوَ السموات و الأرض. إنما يكون البعث الحق حصراً من بعد ما ذكرنا.

الأمر مفروغ منه بديهي في الرخاء، ولكنه يتلاشى في لحظات ظلمات ضياع الفتن. لا يستطيع أحد أن يحاجّ الدجال إلا رجل واحد إلى أن يقتل سيدنا المسيحُ عيسى ابن مريم المسيحَ الدجالَ بدليل الحديث الشريف:

«وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ. وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَيَقْتُلَهَا وَيَنْشُرَهَا بِالْمِنْشَارِ حَتَّى يُلْقَى شِقَّتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولَ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا فَإِنِّي أَبْعَثُهُ الْآنَ، ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا غَيْرِي، فَيَبْعَثُهُ اللهُ وَيَقُولُ لَهُ الْخَبِيثُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ وَأَنْتَ عَدُوُّ اللهِ أَنْتَ الدَّجَّالُ، وَاللهِ مَا كُنْتُ بَعْدُ أَشَدَّ بَصِيرَةً بِكَ مِنِّي الْيَوْمَ» [سنن ابن ماجه: ٤٠٦٧].



اسمه تعالى الشهيد جَلَّجَلَالُهُ
(٠٥٠)

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٨].

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣٠].

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٤/ ٧٩].

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٦].

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١٧].

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٩].

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٢٩].

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤٦].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٣].

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ١٧].

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٢].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٥].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٧].

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٥٣].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٨].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٨].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٦].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ٩].

على مستوى الجذر:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨].

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨١].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٠].

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٦].

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٣].

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٩٤].

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٥].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١١/ ١٠٣].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٩].

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٨].

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥١].

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٩٢].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٢].

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٥].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٦].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١].



﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٠] .

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ [فصلت: ٤١/ ٢١].

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٢].

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٦].

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾ [الفتح: ٤٨/ ٨].

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق: ٥٠/ ٢١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: ٥٠/ ٣٧].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٢].

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٨].

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٨].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾ [المعارج: ٧٠/ ٣٣].

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾ [البروج: ٨٥/ ١-٩].

*****

* نلاحظ عموماً أن الآيات التي فيها اسمه تعالى الشهيد مرتبطة من حيث المعنى بيوم القيامة، و مكانه بعد الباعث ممتاز و كم هو عظيم حديث الـ ٩٩ اسماً.



اسمه تعالى الشهيد جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ورد في أماكن عدة مثل قوله تعالى على لسان سيدنا عيسى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٧] و كذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٦] و قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ١٧].

عموماً تدور الآيات التي ورد فيها الاسم الشريف حول معانٍ مشابهة للمعاني الواردة في الآيات التي اخترناها ههنا أول كلامنا.

فمن مطالعة جميع الآيات التي ورد فيها الاسم الشريف و جميع الآيات التي وردت فيها كلمات مبنية على جذر شهد، و من خلال استقراء معاني تلك الآيات نجد أن المقصد يتجه باتجاه واحد هو: أنه جَلَّجَلَالُهُ عالم كلّ العلم بكلّ شيء بما في ذلك بأعمال و أحوال خلقه.

أول ما يتبادر للأذهان كردّة فعل على ما سبق، أن اسمه العليم يفي بالغرض. و الأصل أن لا داعي للتكرار في معاني الأسماء أو صفّ المترادفات.

كذلك يمكن تقديم أسمائه الخبير و البصير لنفس الغرض كتفصيل لاسمه العليم كما رأينا، فهو عليم و خبير و بصير بكلّ شيء بما في ذلك أمور و أحوال خلقه.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٦] نجد في هذه الآية الكريمة اجتماع المعاني السابقة مع تفصيلة ملفتة للنظر هي وجود قوله: «كَانَ» قبل «خَبِيرًۢا بَصِيرًا».

من هذه الآية و غيرها نستنبط بوضوح معنى شهد أو شهيد أو شهادة مؤكّدين له بآيات أخرى مثل قوله: ﴿... فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]؛ أي من وافق الشهر، أو بعبارة أخرى وجد نفسه في الشهر، أو بعبارة أخرى كان حاضراً للشهر عالماً و متيقنا به.

العلم بالشيء لا يعني بالضرورة رؤيته أو سماعه، فكم من أمر نعلمه لم نره و لم نسمعه، فعالم الذرة عالم بها من غير أن يرى مكونات نواتها أو أن يسمعها. و كذلك يمكن العلم بالشيء من غير أن يخبره فكلنا نعلم بالموت و لم نخبره.



ولكن كمال العلم نفاذ البصيرة في المعلوم و سماعه و كمال العلم الخبرة به و كذلك كمال علمه سبحانه. و من كمال علمه أنه شهيد، فقد يعلم من غير أن يكون حاضراً بالأخبار أو بنقل الصوت و الصورة (وهو مألوف في زماننا). و نحن كمسلمين في عقيدتنا نعلم أن أعمالنا مسجلة من قبل ملائكة كرام كاتبين يتعاقبون في الليل و النهار يكتبون أعمال العباد. كما ورد في الحديث الشريف: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» [صحيح البخاري: ٥٢٢].

هذا المعنى خاطئ إن تسلل إلى الأعماق لما فيه من نقص. يسد هذا النقص في العقيدة المعنى الذي يحمله اسمه جَلَّجَلَالُهُ الشهيد و الذي يرتبط بنهايته بيوم البعث و الحساب خاصة. يومئذ يقف الخلق بين يديه مسؤولين، و أمام ذلك الموقف الرهيب حيث ترى كلّ نفس مصيرها بين جحيم نار جهنم و نعيم سعادة الجنة، فتدافع عن نفسها و تبرر و تجادل مستميتة، و توضع عليها الحجة إن قالت لخالقها: لا أنكر أنك عليم بما يكون ولكنك بعيد في علوك و كبريائك و لن يكون ما كتب في كتابي ولا ما أخبرك به ملائكتك مطابقاً لما جرى بي أو معي...

الحجة أن الله سبحانه لم يكن فقط عليم أو فقط عليم أو سميع أو بصير أو فقط عليم و سميع و بصير، بل كذلك شهيد بأفضل و أتم ما تكون شهادة شاهد لأمر بحضور متوافق مع ألوهيته كما هو الحال باسمه القريب جَلَّجَلَالُهُ، و هكذا و الشاهد على أي عمل أو حدث هو الشهيد جَلَّجَلَالُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فما أحسن قولاً و أصدق من قوله: ﴿..وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٤/ ٧٩]، فما قيمة أيّ شاهد على حدث أمام شهادة الله.

(فما قيمة شهادة أحد أدنى الناس في أمر أمام شهادة سيدنا النبي في نفس الأمر). و هكذا يتوضح و يتجلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٦]، و قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ١٧] و خاصة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٦]، بهذه الآية يتبين لنا مرة أخرى قيمة حديث الـ ٩٩ اسم حيث يلي اسمه الباعث اسمه الشهيد جَلَّجَلَالُهُ.

فلكلّ نفس أن ترسّخ عقيدتها بهذا الاسم و تتذكر أنها في أيّ عمل تعمله وأية شهادة تشهد بها أن عليها شهيد؛ هو الذي خلقها و الذي سوف يبعثها و يحاسبها و يحكم عليها .. فالتقوى.

اسمه تعالى الحق جَلَّجَلَالُهُ
(٠٥١)

للجلالة:

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٢].

﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ [يونس: ١٠/ ٣٠].

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس: ١٠/ ٣٢].

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٤].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ [الحج: ٢٢/ ٦].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٢].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٦].

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور: ٢٤/ ٢٥].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٠].

*****

اسمه تعالى الحق جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية، من أعظمها و أكثرها جلالاً.

نجده في القرآن الكريم وارداً على الدوام ضمن سياق الكلام عن الآخرة و الحساب.

النص الشريف فيه تأكيد، مرة أخرى على عظمة حديث الـ ٩٩ حيث نجد تتابع بين اسميه تعالى الشهيد و الحق جَلَّجَلَالُهُ في قوله: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٩-٣٠].

الواقع أن الاسم الشريف ردٌّ و جوابٌ عن أكبر سؤال ديني يُسأل ألا و هو: هل الله موجود؟ السؤال باللغة العربية بحدّ ذاته يحتوي على مغالطة بينة في عبارة موجود و هي على وزن مفعول؛ أي و كأن السؤال: هل ثمة من أوجد الله إن كان الأمر كذلك و بهذا المنطق فالجواب أن الأولى الاهتمام بالذي أوجد و بعد ذلك نتكلم عن الموجود. أكثر ما يكون السؤال تحت عنوان إثبات وجود الله و عن صحة وجود الله أو عدم صحة هذا الوجود، و كيف السبيل إلى إثبات ذلك؟ و ما نعلمه من أدلة و حجج و نقاشات و مجادلات حول إثبات وجود الله أو إثبات عدم وجوده.

الاسم الشريف ردٌّ و جواب حاسم جازم قاطع مختصر يحسم فيه جدل عقيم تافه تفاهة من يطالب بإثبات وجود الله.

الاسم الشريف حسم لهذه التفاهات و إخبار بأن الله حق و ما سوى حقيقة الله باطل.

فللمرء الأخذ بجلاء بديهة هذه الحقيقة أو إنكارها، فالله ينبئه بأنه لو أنكرها فسوف يأتي اليوم الذي يقف فيه بين يديه و يعلم يقيناً أنه حق.

*****

ملاحظات حول اسمه تعالى الحق جَلَّجَلَالُهُ:

دعاء سيدنا النبي في التهجد:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» [صحيح البخاري: ١٠٥٣].

سبحانه هو أصل الحقيقة و كل الحقائق، و من عنده سبحانه نقطة انطلاق أي فكرة.

إن فكرنا في الاسم نرى أنه مخيف. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨١].

اسمه تعالى الوكيل جَلَّجَلَالُهُ
(٠٥٢)

ورد اسمه تعالى الوكيل في الآيات التالية:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٣].

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨١].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣٢].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٧١].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٢].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ١١/ ١٢].

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٦٦].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢].



﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٥].

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٨].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣].

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٨].

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٢].

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [المزمل: ٧٣/ ٩].

لغير الجلالة:

﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٩].

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٦].

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٧].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ١٠٨].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٤].

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٨].

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٦].

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤٣].

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤١].

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٦].

*****

اسمه تعالى الوكيل جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية و هو أساسي في العقيدة كما هو الحال بالنسبة لبقية الأسماء ولكن العمل فيه، إدراكه و فهمه و التحقق من معانيه من الأولويات.

ما يؤكد ذلك شاهد مثل شاهد سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ و ما تشير إليه هذه الآية الكريمة من معاني الإطلاق و الهيمنة.

هيمنته شاملة مطلقة لا يخرج عنها شيء. قدرته على كلّ شيء مطلقة لا يستطيع أحد أن يتدخل فيما نفذت فيه إرادته ولا يستطيع أحد القيام بأيّ شيء إن لم يسخّره تعالى لهذا الشيء.

إذاً من العبث أن يوكل المرء بأمر أحدٍ من خلقه تعالى إن كان إنساً أو جناً أو فرضاً ملكاً و هو يعتقد كلّ الاعتقاد أن الذي وكّله بأمره قائم عليه، ممسكاً بزمام يده و قادراً على تحصيله، و هذا ما يجري مع أهل الغفلة ممن يضعون آمالهم و ثقتهم بالخلق ناسين القيوم خالق الخلق و مميته. و يحسبون أن الأمر بمقدور من يوكلونه فلا داعي للتوجه به للّه، و هو سوء اعتقاد بهيمنته و غفلة من أساس في العقيدة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾.

يترتب على خطأ وضع الثقة و الآمال في غير اللّه و توكيلهم في الأمور، ذلّ التبعية و الاحتياج و خيبة الفشل و التورط بالتزامات تستجر إلى مهالك التنازلات. (للتأمل).

و للمرء أن يتأمل فيما قيل. إذ لا ضمانة في قدرة الخلق و وعودهم ولا ضمانة في نواياهم و مراميهم. عندما منَّ اللّه على الناس (أي البشرية كلها باللغة المعاصرة) بنعمة تصحيح العقيدة و للمرة الأخيرة مرسلاً نبيه بدين اللّه، و دين كلّ الأنبياء، دين محمد عبده و رسوله دين الإسلام، عندما منَّ اللّه على الناس بالإسلام شاء أن يمنَّ عليهم بالحرية و العزة و الكرامة. فكلّ ما يخالف الحرية و العزة و الكرامة منافٍ لروح الإسلام.

لا يمكن للمسلم الحق إلا يكون حراً بالمعنى الحقيقي، أي ألا تكون له أيّ تبعية إلا للحق و لربٍّ عزيز كريم. فالتبعية للعزيز الحكيم عزّة و رفعة.

العامل المشترك بين كلّ ما يعتبر في الإسلام ذنباً أو ما هو محرّم، هو أنه يؤدي حتماً إلى الذلّ والهوان.

تَبَصَّرْ بالذنوب و المعاصي و المحرمات تجدها كذلك.

فقد منّ علينا سبحانه ـ و لم يشأ إكراماً لنا ـ من كرمه أن نوكّل غيره فنقع في ذلّ هوان التبعية و الامتنان و الانتظار و الفشل. بل أكرمنا بأن نوكّله هو بعظمته و كرمه و هو الذي يعطي من عطائه بغير

حساب و بيده ملكوت السماوات و الأرض قادر و قائم على كلّ شيء، شتان بين توكيل و توكيل، توكيل يغرق المرء في ظلمات هوان التفاهة، و توكيل يكفي القيام به للانفتاح إلى آفاق أنوار السماوات العلى و العرش و الكرسي، فكيف تكون النتيجة بعد هذا الابتداء؟!.

و كيف لا ينطق قلب المعتقد بذلك و القائم به فيقول: «و نعم الوكيل»!.

الاسم الشريف أساس التوكّل. التوكّل الحق الذي علّمه الله جَلَّجَلَالُهُ لحبيبه المصطفى، و الذي يدوره علمنا بدعائه و نصحه. فقد علّمنا جَلَّجَلَالُهُ أن نعزم أولاً ثم إن صح العزم أن نتوكّل.

جليٌّ في كلامه أن شرط التوكل صحة العزم: ﴿...فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ...﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]، و قد علّمنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بإشارة دعائه حسن الاعتقاد بقوله:

«اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الْإِجَابَةُ وَهَذَا الْجُهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ» [سنن الترمذي: ٣٣٤١].

لا بدّ من توضيح حقيقة هذا الأمر بجلاء: التوكّل الحق هو حسن اعتقاد و أدب مع الله تعالى.

كما رأينا في الآية السابقة و الحديث، لا توكّل إلا بالعزم و الجهد، أي بالأخذ بالأسباب بالتمام و الكمال بحيث يستبعد الفشل ولا يمكن عقلاً إلا أن ينجح الأمر، عندها يؤمر المرء بالتوكل.

و الحال كذلك، فهذا الأمر و هذه التذكرة ضروريان؛ إذ إن المرء و الحال كذلك قد أخذ كلّ الأسباب لا يجد داعياً لتوكيل خالق الأسباب و هو العميُ بذاته و الاكتفاء و الغرور بأسوأ صورة و خاصة عندما يكلل الأمر بما يبدو نجاحاً.

التوكّل بالمعنى الحق هو إدراك أن التوفيق بالأخذ بالأسباب و نجاح النتائج بيد الله و منه و ليس بجهد و عمل العبد.

ليس التوكل الحق التملص من مسؤولية العمل و نتائجه؛ بل هو تبرؤ من الادعاء و تبرؤ من الحول و القوة و نسب الجهد و النتائج للمهيمن.

فالتوكل الحق تبرؤ من الحول و القوة و الاعتقاد بأنها كلها من الله و بيد الله فلا عجب تأكيداً على ذلك أن يتبع اسمه القوي اسمه الوكيل.

ملاحظة حول اسمه تعالى الوكيل جَلَّجَلَالُهُ:

التوكل هو أن لا تلقي الأمر عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بل أن تنسب العمل إليه سبحانه، و مثاله الزرع، العمل البسيط الذي تعمله بالزراعة ليس إلا أخذاً بالأسباب.

اسمه تعالى القوي جَلَّجَلَالُهُ
(٠٥٣)

للجلالة:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ١١/ ٦٦].

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠].

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٤].

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٥].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٢].

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٩].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٥].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٨].

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٩].

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود: ١١/ ٥٢].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥].

لغير الجلالة:

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٩].

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٦].

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧١].

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠].

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ١٢].

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٣].

*****

اسمه تعالى القوي جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء القرآنية كاسمه الوكيل و كباقي الأسماء أساسي في العقيدة. كاسمه الوكيل يأتي في الأولويات و مرتبط به كما علَّمنا الحريص علينا الرؤوف الرحيم بالمؤمنين و هم خاصة المسلمين إذ قال: «بِسْمِ اللّٰهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّٰهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ» [سنن الترمذي: ٣٣٤٨]. فارتبط التوكل الحق

بالله بذكره باسمه و ما في ذلك من أسرار و كما رأينا بالتبرؤ من الحول و القوة، و هذا لا يمكنه إلا أن يذكرنا قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ..﴿٣٩﴾﴾.

ما شاء الله أساس في العقيدة فيه كلام، ولا قوة إلا بالله أساس لا يمكن تجاوزه في العقيدة. من لم يتحقق بمعاني لا قوة إلا بالله فتسري في عقله و وجدانه و تظهر في أفعاله ليس مؤمناً.

ما أشبه صيغة «لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ» بشهادة «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ»؛ نفي و إثبات.

كما أنه لا نقاش في أنه «لَآ إِلَٰهَ» بالقياس و التطابق التام يستدل بلا نقاش أنه «لَا قُوَّةَ». فكما توهّم كثيرون و ادّعوا آلهة من دون الله، كذلك يتوهم كثيرون أن ثمة قوة من دون الله و غير الله و مستقلة عنه فاعلة بحدّ ذاتها.

ما للمؤمن من خيار أمام جلاء حقيقة «لَا قُوَّةَ». و قد يثير ذلك، و خاصة عبارة لا خيار، اعتراض الجهلة و أهل الغفلة، فهل من خيار أمام حقيقة أن واحد مرفوع إلى قوة يساوي واحد؟!.

«لَا قُوَّةَ» تبرؤ من الادعاء بالقوة و ادّعاء نسب القوة إلى العبد.

«لَا قُوَّةَ» ليست ضعفاً و تخاذلاً بل تبرؤ من الادعاء و وعي أن «لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ» و من الله القوي، فلا قوي حقاً أو مطلقاً إلا الله.

بهذا الاعتقاد تنجلي الرؤية أمام بصيرة المؤمن فلا ينخدع بحجب المظاهر ظاناً أن فيها القوة؛ بل يعي تماماً أن كلّ ما يبدو قوياً ما هو إلا بدفع و تحريض و هيمنة من الله.

فلِمَ الخوف من المظاهر؟ الأَولى الخوف من القوي جَلَّجَلَالُهُ.

و في ذلك عزّ للمؤمن لا يخدع بأيّ مظهر من مظاهر القوة ولا يهاب، عالماً أن القوة به و منه جَلَّجَلَالُهُ فكما تسري قوته فيما أوجده فهو يعدم الموجود و يسحب منه قوته.

فالاسم في أسراره عزّ للذي يؤمن به لا يأبه بكلّ ما يبدو و يعتبر قوة، عالماً أن الله وحده هو القوي.

هذا العز يسري مسرىً معاكساً للغرور ماراً بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٨]، تذكرة أن العزة لله و رفعاً من مقام المصطفى و بشرى للمؤمنين.

الذين يقودهم إيمانهم بالقوي و العزة التي يتفضل بها سبحانه عليهم، إلى أنه هو وحده العزيز.

فأسرار القوي ١١٦ تشير إلى أسرار العزيز ٩٤، وقد ورد اسمه القوي مرتين متبوعا بشديد العقاب و في الآيات الباقية متبوعاً باسمه العزيز جَلَّجَلَالُهُ.



اسمه تعالى المتين جَلَّجَلَالُهُ
(٠٥٤)

ورد اسمه تعالى مرة واحدة في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٨].

*****

اسمه تعالى المتين جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف يدلّ مرة أخرى على عظمة حديث الـ ٩٩ اسماً عندما يتبع اسمه القوي جَلَّجَلَالُهُ. فذلك التتابع يتوافق مع حقيقة أن الاسم قرآني ورد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٨]، في شاهد واحد لا ثاني له.

اسمه المتين إكمال لحسن الاعتقاد باسمه القوي جَلَّجَلَالُهُ، يمكن توضيح ذلك لغوياً بالرجوع إلى الأصل في معنى «متن»: مَتُن بمعنى ظَهَر أي أعلى الشيء.

إن قلت: ظَهْرُ الشيء فإنك تقصد أعلاه.

من ظهر تقول: ظاهر بمعنى مسيطر مهيمن منتصر، خاصة و كذلك بمعنى بَيِّنْ. فكذلك اسمه المتين إكمال ضروري لاسمه القوي لا غنى عنه في حسن الاعتقاد. إذ بالإمكان أن يكون القوي قوياً بين أقوياء، اسمه المتين يشير إلى أن قوته ظاهرة أي عليا مسيطرة سيطرة مطلقة لا تعلو عليها قوة، و كذلك تشير معاني اسمه المتين جَلَّجَلَالُهُ إلى فكرة الثبات و الاستمرار و عدم التبدل. فقوته ثابتة مستمرة مطلقة غير متبدلة.

*****



ملاحظات حول اسمه تعالى المتين جَلَّجَلَالُهُ:

المهم حسن الاعتقاد لأنه بلا المتين تتمة للقوي لا تفهم أن قوته سبحانه عليا لا يؤثر فيها شيء. قوته سبحانه هي العليا ولا قوة أعلى منها و هي المهيمنة و هو متمم لاسمه تعالى القوي.

هناك ارتباط عالي بين اسميه تعالى القوي و المتين.

و هناك ارتباط بين الوكيل ← القوي ← المتين.

و عموماً كلّ الأسماء تكمل بعضها و توضح بعضها، و كلها شرح و توضيح للفظ الجلالة و كلها لحسن الاعتقاد و حسن الإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

عموماً المتفكر المتعمق بأسمائه تعالى يجد أنها إجابة عن تساؤلات عليا و ليست موجودة عندنا فقط بل عند باقي البشر.

من يستخدم عبارة الطبيعة فعلت هذا الشيء غير مطابق للحقيقة. الحقيقة أن الله تعالى فاعل و من يفترض قوى فاعلة غير قوى الله يكون قد ذهب إلى خارج حدود الحقيقة

قوته سبحانه ثابتة لا تزيد ولا تنقص و يجب أن يكون هناك وضوح رؤية، و عندما يتأمل الإنسان بأمور معينة و عنده هذا الوضوح في الرؤية يصل إلى الحقيقة، أما الذي غابت عنه هذه الأسماء كالأمم الأخرى يصل إلى متاهات و أفكار بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة و الحمد لله ربّ العالمين.



اسمه تعالى الولي جَلَّجَلَالُهُ
(٠٥٥)

المجموعة ١ :

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٧].

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٨].

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٢].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥﴾ [النساء: ٤/ ٤٥].

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النساء: ٤/ ٧٥].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ [المائدة: ٥/ ٥٥].

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤].

﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٧].

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٥].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٦].

﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠١].

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤١].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٨].

﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٩].

المجموعة ٢:

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٧].

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٠].

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٩].

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٧٣].

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٥١].

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ

بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٠].

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٤].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٦].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٧].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١١].

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ١٧].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٦].

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٢].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٤].

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١٧].

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣١].

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٥].

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٤].

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٢].

المجموعة ٣:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢].

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٩].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٣].

المجموعة ٤:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٦٣].

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ٤/ ١١٩].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤٥].

مجموعة ٥:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٧].

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨].

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٥].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: ٤/ ٧٦].

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النساء: ٤/ ٨٩].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء: ٤/ ١٣٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [النساء: ٤/ ١٤٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة: ٥/ ٥١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة: ٥/ ٥٧].

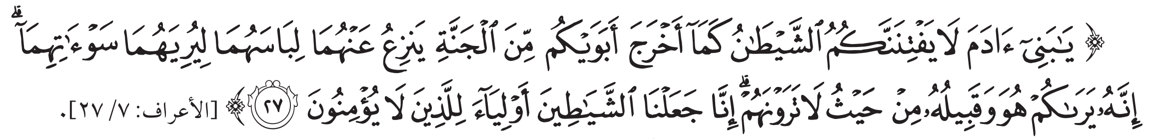
﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾ [المائدة: ٥/ ٨١].

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢١].

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٨].

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٧/ ٣].



﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٧].

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٠].

﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٢-٧٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٣].

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [هود: ١١/ ٢٠].

﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود: ١١/ ١١٣].

﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٦].

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٧].

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ

وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠].

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٢].

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١٨].

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤١].

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦].

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣].

﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣١].

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٦].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٩].

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٦].

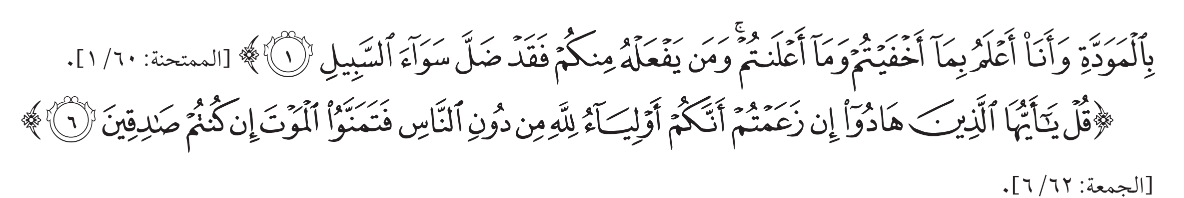
﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٠].

﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٩].

﴿ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم





بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١].

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾

[الجمعة: ٦٢/ ٦].

*****

تم فرز الآيات الكريمة ضمن خمس مجموعات رئيسية للبحث في معاني الاسم الشريف.

*****

اسمه تعالى الولي جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية الجليلة فيه تصحيح للعقيدة و توجيه للنفوس و القلوب.

الاسم الشريف يمسّ نقطة أساسية و حساسة في النفس البشرية. فالإنسان كائن اجتماعي مفطور على الألفة خلافاً لكثير من الكائنات المفطورة على الوحدة، والتي تستطيع أن تجابه صعاب الحياة بمفردها. الإنسان بالرغم مما رزقه اللّه تعالى من قوة كامنة في العقل يبقى ضعيفاً و يدرك ضعفه عندما يواجه صعاب الحياة.

الأقوياء من البشر القادرون على التفرّد نادرون.

الغالب على البشر احتياج بعضهم لبعض، فنجد الإنسان مفطوراً على البحث عمّن يؤنس وحشته أو يعضده أو يمده بما يحتاجه أو يحميه و يحتمي به.

بهذه المعادلة تنشأ علاقة قوية قد تستأثر على القلوب و العقول و يكون سبحانه غائباً عن وجدان و أذهان أصحابها. فكما يبحث الكثيرون عمّن يتقبلهم فيتخذونه ولياً فإن المعادلة تسير بالاتجاه المعاكس؛ حيث نجد من يخفي ضعفه بإحاطة نفسه بمن يتخذه ولياً. فغروره و كبرياؤه يأبى عليه في احتياجه أن يذهب لمثيله ليتخذه ولياً فيقلب الأمر ليجعل مثيله الذي يحتاجه يأتي إليه متخذاً إياه ولياً. بسبب ما أودعه اللّه سبحانه في النفس البشرية من أسرار و تعدد و تنوع فإن مسألة الموالاة و التولي تأخذ أبعاداً كبيرة غاية في التعقيد درسها البشر كعلم أسموه علم الاجتماع.

ترك هذه المعادلة تدور بلا ضابط يجعلها تأخذ أبعاداً كبيرة يؤسَر فيها الإنسان و يرزح تحت وطأة سلطات متعددة و متضاربة كلّ منها يدعو لحزبه.

لأيٍّ منا أن يقف وقفة تأمل متفكراً لما يحدث للبشر تحت وطأة هذه التكتلات، وما فيها من تصادم و تمزق و هلاك و خاصة لما فيها من ضياع و خسران إذ إن همّ من يقودها الدنيا!.

ما كان مصير الألوف المؤلفة التي والت هذا أو ذاك و ما جنت إذ قضت نحبها.

إن تأمّل المرء حقاً في هذا الأمر أدرك قيمة حقيقة أمل الخلاص المتمثل في اسمه الولي فهو السبيل الذي لا تخيب فيه الآمال. فمن أولى باتخاذه ولياً عبد فقير ناقص مفتقر محتاج إلى غيره، عابر زائل، أم ربٌّ غني عمّن سواه كريم قوي متين لا يحتاج إلى مؤازرة؟.

ما خاب من علق أمله و قلبه بالله متخذاً إياه ولياً و خاصة أن كلّ ولي فانٍ و يبقى ذو الجلال و الإكرام.

ما فائدة أولياء الدنيا يوم الحساب؟ ما فائدة أولياء الدنيا في الآخرة؟

إن سئل ذو عقل: إن خُيرت يوم الحساب بين أهل الدنيا و ربّ العالمين فمن تتخذ ولياً؟

نتابع و نقول: طالما أنك ذو عقل فلم تنتظر أن يقضى الأمر و يأتي اليوم الذي لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً. أليس الأولى أن تتخذه سبحانه ولياً في الحال؟.

اسمه تعالى الولي حقيقة معناه هو الأولى و الأجدر و الأحق أن يُتخذ ولياً.

*****

ملاحظات حول اسمه تعالى الولي جَلَّجَلَالُهُ:

نلاحظ في قوله تعالى:

﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

إضافة النصير إلى الولي و الفكرة متى الناس تشد على بعضها و تتجمع؟ عند الأزمات.

إذاً لا تظن أن الناس تنصرك، الله هو الناصر. و هي معبرة و أساسية ولي و نصير.

هذا الاسم مطبق على البشرية كلها و نلاحظ كيف يضع الناس تنازلات من أجل الولاء، و كم يتنازل الناس عن قيم و مبادئ من أجل الولي و الإنسان بحاجة إلى دعم و قد يصل الأمر به أن يستعين بالشيطان و يتخذه ولياً كما في الآيات.

إن ترك الإنسان الله في الدنيا فكيف يتولاه في الآخرة. إن تولى إنساناً و ترك الربّ سبحانه فكيف يتولاه يوم القيامة، و مهما بقي الإنسان لا بد أن يموت. و العبرة في الآخرة.

و السؤال لماذا نتولى أشخاصاً زائلين و نترك الباقي سبحانه و هو سبحانه الباقي عند فناء كل شيء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧].



اسمه تعالى الحميد جَلَّجَلَالُهُ

(٠٥٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٧].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٣١].

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ١١/ ٧٣].

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٨].

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٤].

﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٤].

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٢].

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٦].

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٦].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥].

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٨].

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٤].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٦].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ٦].

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ٨].

على مستوى الجذر:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ الفاتحة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٥].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٣].

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١٠].

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١٣].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٩].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٨].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٧٥].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤].

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٢].

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٩].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١١].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١].

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٠].

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٨].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٨].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ١٥].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٩].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٩٣].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٠].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٣].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ١٨].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥].

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٥].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٤].

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٨٢].

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٩].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٤-٧٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٧].

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٥].

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٥].

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥].

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٦].

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٩].

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور: ٥٢/ ٤٨].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦١/ ٦].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ١].

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١١٠/ ٣].

*****

اسمه تعالى الحميد جَلَّجَلَالُهُ:

الحمد تعبير عن الامتنان واعتراف بالفضل و كذلك ذكر لمحاسن و مآثر و مناقب و أفضال المحمود و تعظيم له.

كنا قد رأينا في اسمه الولي ما فُطر عليه الإنسان من احتياج لغيره و ما يؤدي ذلك إلى موالاة مما فصلّناه. كذلك يترتب على العلاقات بين البشر فيما يتبادلونه من مصالح و منافع يرجونها من خلال تولي بعضهم بعضاً فضلٌ و منٌّ يُرد بالمثل إن أمكن. فتجدهم مقابل المساعدة التي يتلقونها يردون بمساعدة تماثلها يتخلصون بها من فضل و منٍّ من ساعدهم.

كذا الحال في العطايا و الهدايا، ولكن غالباً لا يستطيع البشر ردّ المساعدة أو العطاء أو المنفعة بالمثل فلا يجدون سبيلاً سوى الحمد بالمعنى الذي رأيناه، أي التعبير عن الامتنان و المغالاة في ذكر الأفضال.

لنا أن نتفكر بإسقاطات ما وصفناه على الواقع ابتداءً بمن يزعمون أنهم محسنون، و الواقع أنهم يستخدمون الإحسان مطية مع من لا يستطيع الرد بالمثل فيضطر للحمد، أي التعبير عن الامتنان و الاعتراف بالفضل و هو عين ما يبغونه. يستفحل الأمر و يأخذ أبعاداً كبيرة في الزعماء من كافة الأصناف، لتصير أمة كاملة تعبر عن امتنانها و تعترف بفضل و تشيد بمآثر و مناقب ذاك الزعيم الذي ليس له من الزعامة إلا زعمه لنفسه ما ليس فيه.

كم من دواوين و قصائد و كتب لمدح ستالين أو أتاترك أو ماوتسي تونغ ... إلخ.

ما أتعس حال أولئك البشر الذين يرزحون تحت ذلّ ذاك الاضطرار و النفاق.

و كذلك يستخدم الحمد في الطبقة العليا من أهل الدنيا يدعمون به بعضهم بعضاً و يتوعدون من لا يجاريهم بحرمانه منه.

مرة ثانية ما أتعس هذه المناورات.

فكما كان الناس يركعون لفرعون حامدين إياه فالأمر مستمر بأشكال مختلفة. يستخدم الإنسان العطاء و المنّ و الفضل ليسيطر على الآخر موهماً إياه أنه فقير إليه.

منَّ اللّه على الناس كافة بدين الإسلام محرراً إياهم من ذل هوان التبعية.

فعلم سبحانه البشر، بشرى منه، أن الامتنان و الاعتراف بالفضل بالنهاية و بالحقيقة يعود له.

فمهما حصل لمسلم من امرئ فإنه يحسن الأدب و التصرف معه مدركاً أن ما جاء به ذاك المرء ما هو إلا عطاء اللّه أصلاً، و أنه سبحانه هو الذي ينبغي بالحقيقة حمده. و كذلك يعلم أن الذي ينبغي ذكر فضائله ليس العبد بل الربّ جَلَّجَلَالُهُ.

و كذلك الذي يجعله اللّه في موقع العطاء يصير بالإسلام و باعتقاده بالحميد جَلَّجَلَالُهُ، ينفي عن نفسه الفضل و ينسبه للّه. ولا تكبر نفسه بالمنِّ على غيره ولا يقبل من غيره الامتنان إذ لا ينبغي أن يكون ذلك إلا للّه.

و الحال كذلك، فما أصفى نفوس الذين يأخذون و الذين يعطون و أيّ كرامة هم فيها.

كذلك يصبح الآخذون و المعطون سواسية في فقرهم إلى اللّه، إذ الآخذ لا يأخذ في الحقيقة إلا من اللّه و المعطي في الحقيقة ليس سوى اللّه. و الكلّ مفتقر إليه كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [فاطر: ٣٥/١٦]، فاللّه جَلَّجَلَالُهُ منزّه عما رأيناه من عطاء الخلق للأدنى منه طلباً لامتنانهم و لحمدهم و لذكر مناقبهم.

فاللّه هو الحريّ بالحمد، غني عنه، أفضاله حقيقية إن ذكرها العباد أو لم يذكروها.

إذاً سبحانه حريّ حقاً أن يُحمد و هو كذلك الأولى بالحمد إذ إنه هو صاحب الفضائل كلها، و هو الذي يمنُّ ولا يُمنُّ عليه فهو الحميد حقاً منَّ على البشرية بنبي كريم جعل فيه خير الشمائل فكان محموداً و محمد حقاً.

*****

اسمه تعالى المحصي جَلَّجَلَالُهُ
(٥٧)

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٣-٩٥].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ١٢].

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٦].

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٨].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ٢٧-٣٠].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٤].

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٨].

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٢].

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩].



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢٠].

*****

اسمه تعالى المحصي جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف ليس من الأسماء القرآنية ولكنه يعبّر عن جوهر آيات أساسية في العقيدة و يختزلها بتسلسل بديع مع ما سبق كباقي الأسماء.

فكما رأينا بعد ثبات قوته التي لا يقابلها قوة أنه، و الحال كذلك، هو الأولى أن يتخذ ولياً و هو الأولى بالحمد و الثناء إذ كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل: ١٦/ ١٨].

فنحن حقاً عاجزون عن إحصاء نعمه علينا فكيف نحصي ما لا علم لنا به من خلقه؟.

قوله: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ دليل على هيمنته المطلقة و علمه التام بكلّ ما أوجد. لا يخرج عن هذا العلم شيء، حتى الأعمال و الأفعال و الأقوال أحصاها في كتاب يدرك الإنسان حقيقته عندما يُرفع عنه الحجاب فيحار مما يرى و يقول: ﴿...مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ... ٤٩﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩].

إحصاؤه سبحانه كلّ شيء مؤكد لنا بقوله: ﴿عَدَدَۢا﴾ دليل على مطلق هيمنته و علو شاسع علمه. فعلمه بما أوجد و بما كان و يكون ليس بالإجمال كما يكون الحال عليه بالنسبة للبشر.

انظر إلى البشر كيف يُجملون عندما يكثر المعدود، إذ لا يعود ثمة فارق في عقولهم بالنسبة لتكملة العدد. لك أن تتأمل في ذلك و تبحث بنفسك عن الأمثلة، أقدم لك واحداً منها.

احتجت قبل سنوات لآلة حاسبة تظهر أكثر من الاثنتي عشرة خانة المعتادة، كنت أطمح لآلة تظهر على شاشتها جميع الأعداد التي تحسبها. كلفت بذلك من سعى لي باحثاً عنها في أكثر الدول

تقدماً، و كان السؤال الذي يواجهه هو: و ما حاجتك لذلك و ما الفائدة من رقم من خمسين خانة؟

هو محق بسؤاله بالنسبة لاحتياجات العلماء من أهل زماننا. الواقع أنني كنت محتاجاً لآلة حاسبة تظهر لي ما لا يقل عن خمس مئة خانة. سعيت مع أخ مسلم من بلدي و طوّرنا على الحاسوب هذه الإمكانيات منذ سنوات. والسؤال: وما حاجتك لذلك؟

الجواب: للقيام ببعض العمليات الحسابية لفهم و فكّ بعض أسرار كتاب اللّه تعالى.

انظر كيف يعبّر علماء البشر عن الكميات الكبرى و المسافات الشاسعة، تجدهم عاجزين، يعبّرون بالتقريب و الإجمال. هو وحده القادر على أن يحصي كلّ شيء عدداً.

إن أدرك ذلك عالم بالعدد خرَّ صعقاً من عظمة هيمنته و علمه سبحانه، و امتلأ قلبه خوفاً و خشية بلقائه عندما يرفع الحجاب و يرى الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

هل للغرور و الادّعاء مدخل إلى نفس مؤمن بعد إذ علم و شهد حقيقة هذا الاسم.



اسمه تعالى المبدئ جَلَّجَلَالُهُ

(٠٥٨)

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٩].

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣٤].

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٤].

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٤].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١٩-٢٠].

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ١١].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧].

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ السجدة.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٩].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٦].



اسمه تعالى المبدئ جَلَّجَلَالُهُ:

إن جازت العبارة، مهمة الأسماء الحسنى ضبط العقيدة.

هل الضبط بالإجمال و التقريب أم بالدقة و التحديد؟.

لا مجال لزيادة ولا نقصان في الضبط و الحال كذلك في أسمائه جَلَّجَلَالُهُ، عندما تُضبط عقيدتنا بحيث لا يكون في عقل أو وجدان المسلم مكاناً أو مجالاً أو احتمالاً لتراخٍ أو إهمال أو شطح أو قبول لأيٍّ مفهوم مغلوط أو ناقص.

مثال ذلك اسمه تعالى المبدئ جَلَّجَلَالُهُ، و هو ضروري للمسلم في زماننا. هذا الاسم إن سعى المسلم جاهداً لفهم معانيه يجد نفسه مضطراً لمراجعة كثير من الأفكار و الأوهام و الترّهات التي تسللت إلى عقله. لا يرضى الله جَلَّجَلَالُهُ أن تكون عقول عباده ضبابية، ولا يرضى أن يكون الإيمان و حسن الاعتقاد مشوبٌ بالوهم.

لا يرضى سبحانه لعباده، و هذا دليل على حبّه لهم، الوهن و التراخي بل يحب منهم العزم.

انظر إلى أهل زماننا كيف يعظمون أو يحترمون علماء يخوضون في ما يعتبر في زماننا من أعلى العلوم درجةً ولا يستنكرون عليهم أقوالهم بل يتقبلونها كحقيقة علمية جادة و حَرية بالاحترام. مثلاً الاعتقاد السائد في زماننا حول نشأة الكون و الانفجار الأول و الذي مختصره أن الأمر يبدأ من تلقاء نفسه. هذه ليست سوى نظرية لا تثبتها الوقائع و المشاهدات بل يستخدم أنصارها ما توفر لديهم لإثباتها. الأخطر من ذلك هو الخلط بين الأصل و الظاهرة، تجد هذه المغالطة تنطلي على المسلمين كما تنطلي على غيرهم من أهل زماننا.

و المسلم إن لم يقف أمام هذا الأمر موقف وعي يكون مخلّاً في أحد أسس عقيدته.

انظر كيف تعزى آيات في الخلق إلى الطبيعة و أنها ليست إلا نتيجة للتطور، تنطلق من تلقاء نفسها بدافع قانون البقاء للأصلح.

انظر كيف ينتشر الاعتقاد بين مثقفي زماننا أن بداية الحياة ما هي إلا نتيجة لاجتماع ظروف مناسبة مثل حرارة معتدلة، جزيئات آزوت، أكسجين، كربون، شحنة كهربائية و يتم تركيب جزيء عضوي لا يلبث بحكم الشروط المناسبة أن يصير شكلاً من أشكال الحياة البدائية ككائن وحيد الخلية، ثم يتطور و تتعدد خلاياه بدافع نظرية التطور.

ولكن، وهُم يبيّنون لك نقطة البداية يتجنبون التعرّض أين ابتدأ اجتماع الشروط المناسبة للابتداء، و إن بيّنوا ذلك تحاشوا تبيان أين ابتدأ وجود العناصر المادية المكونة للشروط المناسبة.

إن كنت مصرّاً يرجعونك إلى أن الابتداء كان من الانفجار الأول.

و لِمَ ابتدأ الانفجار الأول و لم يبقَ كامناً؟

قم بجولة في الأوساط العلمية في مجلاتها و مراجعها و جامعاتها و تابع مسألة الابتداء.

افترض أنك تقوم بإعداد أطروحة عن مسألة الابتداء تجمع كلّ المراجع المتوفرة في زماننا. انظر ما يجتمع بين يديك من أفكار هشة طُرحت كيفما اتفق.

انظر مثلاً كيف يبينون لك بداية البشرية، كيف كان أول بشر ذا بشرة لا يغطيها الشعر و الوبر مثل الحيوانات.

انظر كيف يبينون لك كيف ابتدأ الإنسان بالوقوف على قدميه و السير.

إن قمت بجولة واسعة و جديّة أدركت كم قبلتَ، من حيث لا تدري، أو لم تعترض على أفكار و مفاهيم تتعارض بغباء و وقاحة مع الحقيقة الإلهية، أي إنها سوء اعتقاد صريح.

هل يكون إيمان مع سوء اعتقاد؟ ﴿.. فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩].

إن اخترت الإيمان لعلمك بالوعود التي اختص بها الله المؤمنين فلا يمكن لك أن تعتبر نفسك مؤمناً و أنت تسيء الاعتقاد بقبولك لما ينافي الحقيقة.

إن لم تتحقق بأن الله هو وحده المبدئ مطهّراً عقلك و قناعاتك مما تسلل إليها من أوهام فلست مؤمناً.

الله وحده هو المبدئ.

*****

ملاحظات على اسمه تعالى المبدئ جَلَّجَلَالُهُ:

هناك فارق بين نظرية و حقيقة، و كيف الناس تتبنى نظرية و بغسيل دماغ تقدم على أنها حقيقة مثالها نظرية تطور القرود إلى إنسان، و غيرها.

في القرآن الكريم استعماله سبحانه كلمة بشر و أصلها من بشرة، وهناك فارق بين إنسان و بشر.

الإنسان هو مضمون أما البشر فهو شكل، ماهية، قالب. هذا واضح في القرآن الكريم.

إجمال المعنى أن الله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٣] أيّ شيء يحدث و يظهر مبدئه هو الله سبحانه و تعالى عندها الشيء يأخذ معنى له.

الله سبحانه هو الذي بدأ خلق كلّ شيء و بدأ خلق آدم من طين هذا أساسي في الإيمان.

نأخذ عبارة مؤمن و وعود الله للمؤمنين هل يحظى أحد بهذه الوعود إن لم يكن مؤمناً، يكفي سوء اعتقاد واحد ليخرق الإيمان و ليحرم من هذه الوعود.



اسمه تعالى المعيد جَلَّجَلَالُهُ

(٥٩)

الاسم ليس من الأسماء القرآنية و الآيات على مستوى الجذر:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣٤].

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٥٥].

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤].

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٤].

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٤].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١٩-٢٠].

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ١١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧].

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح: ٧١/ ١٨].
﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٦].

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٩].
﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥١].
﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٩].

*****

اسمه تعالى المعيد جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف ضروري لكمال وضوح الرؤية و ضبط الفكر و الوجدان. كما رأينا من اسمه المبدئ ضبط للفكر و سبيل **لحسن** الاعتقاد، كذا الأمر بالنسبة لاسمه المعيد.

و هو من أفضال سيدنا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذي ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين، ذكره لنا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إذ لا يوجد بصريح العبارة في القرآن الكريم و إنما تشير إليه بوضوح آيات مثل: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٤]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٦].

كما أن اسمه المبدئ يضبط مسألة الابتداء فلا يتراخى المؤمن بتقبّل أفكار لا أساس لها أو هشة أو مغلوطة، فكذلك اسمه المعيد دعوة للوعي و ترك التسيب في التفكير.

في ما هو شائع و معتمد من نظريات تعتبر علمية، نجد افتراض ابتداء تلقائي لسلسلة من الظواهر الخاضعة لنظام، و يعتبر أن انتقال المادة من نظام إلى آخر مسألة حتمية مفروغ منها، ولا يوجد مانع من أن يتم انتقال المادة من شكل إلى آخر ومن نظام إلى آخر بخط متسلسل مستقيم، يُسمّونه تطوراً ولا يبيّنون لِمَ تسير التلقائية بخط مستقيم و باتجاه واحد، ولا يبيّنون لِمَ لا تجري هذه التلقائية مجراها المنطقي أي بكلّ الاتجاهات.

علاوة على ذلك، يسير خط انتقال المادة **من** ← **إلى**، ذهاباً إلى اللانهاية حيث توجد في عقولهم ضبابية فكرة التلاشي. أي أنك إن سألتهم عن نهاية المطاف فسوف يقدمون لك أحد حلين: إما السير المتواصل إلى اللانهاية و إما التلاشي.

و إن سألتهم عن سبب التلاشي فإنهم يجيبون باضمحلال الطاقة. و إن سألتهم عن نشأة الطاقة فلن تحصل إلا على أجوبة على منهجهم أي أنها تنتهي بالتلاشي.

كلّ هذه التصورات منفيٌّ عنها العودة إلى نقطة الابتداء بشكل أو بآخر فهي كما رأينا في زعمهم تسير بخط واحد ينتهي بالتلاشي.

يأخذ الخلط أقصى أبعاده عندما يقبل بعضهم بتجمع فتات التلاشي و قد اضمحلت قوته، فتنبعث فيه قوة ما هي إلا مفترضة و تنتظم المادة من جديد تلقائياً و بنفس الاتجاه.

إن كان بنفس الاتجاه فكيف؟ ولماذا؟ جوابهم: لخصائص هذه المادة؟ ولكن من أين أتت خصائص المادة؟ و من أوجدها؟ العلم الحديث في خوضه هذا يصل بالنهاية إلى الحيرة.

كون الخلق يسير **من** ← **إلى** فهو بذلك يختلف اختلافاً مطلقاً عن الخالق لأنه سبحانه ثابت لا يتبدل ولا يتغير، و السبب أنه، أصلاً، كامل و كماله مطلق أي بالحدّ الأقصى أي لا يمكن زيادة كماله، و هذا يمنع تبدّلاً بالاتجاه الأفضل، و محال أن يكون التبدل باتجاه النقص.

اسمه المعيد ضبط للمسألة إذ إن الابتداء كان مطابقاً لإرادته، و إرادته نابعة عن علمه، و حكمته هادفة و مطابقة لألوهيته. بتطابق إرادته مع ألوهيته و انبثاقها منها فهي لا تماثل أية إرادة ولا يمكن مقابلتها ولا تشبيهها بأية إرادة.

لذا نجد قوله تعالى في معرض الآية الكريمة: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٦].

أن فكرة التطور التلقائي إلى اللانهاية أو إلى التلاشي خروج عن النظام الإلهي و خروج عن الهيمنة.

هذا الخطأ يصححه اسمه المعيد الذي فيه دليل إرادته المطلقة سبحانه في الابتداء، فوحده الذي ابتدأ بالهيمنة المطلقة قادرٌ على الإعادة. **وكذلك المعيد تمييز للخالق عن المخلوق، وهو أصل في المعرفة.** و هي نظرة من عالم آخر و هي وحدها تكفي. إذ إن كلّ صفات و خصائص الخلق يجب أن تكون مخالفة لصفات الألوهية. اللّه وحده لا يزول ليعاد! يستحيل أن يشترك الخلق مع الخالق بالصفة السابقة، فبحتمية مخالفة صفات الخلق لصفات الألوهية فالخلق معاد.

لاحظ في اسميه المبدئ و المعيد ابتداء الاسمين بحرف الميم سر الموت الذي لا يكون إلا بالحياة، ولاحظ حرف الباء في المبدئ و أسر الدال في وسطه. ولاحظ انتقال الدال لآخر المعيد.

*****

اسمه تعالى المحيي جَلَّجَلَالُهُ
(٠٦٠)

الاسم ليس من الأسماء القرآنية و الآيات على مستوى الجذر:

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾ الروم.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ فصلت.

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨].

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٣].

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٤].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٣].

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ

يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٨-٢٦٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٦].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٢].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١٦].

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٥٦].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٣].

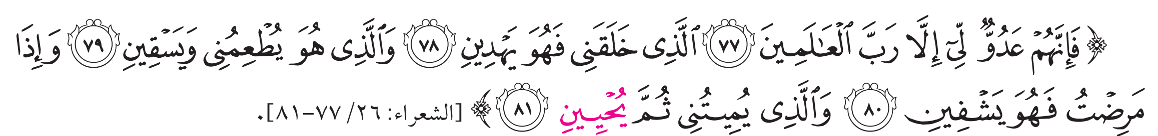
﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٧].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤٩].


﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٧-٨١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٤].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٠].

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٠].

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٩].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ١٢].

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٣٣].

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٨-٧٩].

﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ١١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٨].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٩].

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٨].

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٥].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٦].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣].

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٥٠/ ١١].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٤٣].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٤٢-٤٤].

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢].

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٧].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣٦-٤٠].

*****

اسمه تعالى المحيي جَلَّجَلَالُهُ:

لم يرد في كتاب الله و إنما تشير إليه آيات جليلة مثل قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

نلاحظ في الآيات الكثيرة المشتركة بهذا المعنى تذكرة و عتب إلهي على الناس أن الله هو الذي يحيي أول مرة و كلّ مرة، و هو يميت و هو قادر على أن يعيد الحياة لمن و لما يشاء.

هذه التذكرة، أنه سبحانه وحده هو الذي يحيي، ضرورية على الدوام، يحتاجها الإنسان يومياً، بل في كلّ ساعة يغفل فيها عن حقيقة الاسم، فالعادة غشاوة تحجب البصيرة.

لكثرة ما يرى الإنسان من مظاهر الحياة (ولك أن تتفكر بما يحيطك منها، مما يتطلب منك صفحات لتعداده) يعتاد عليها و يألفها و يعتبرها مسألة معتادة و تلقائية، و هنا يكون أول خطأ. السمة الأساسية لهذا الخطأ أمر لا يريده الله لعباده كرماً منه، ألا و هو الغفلة، يليها التوهم، وصولاً إلى الجهل التام.

لا بدّ لعموم المسلمين من الوعي المستمر في كلّ ما يخطر ببالهم من كيان تدبّ فيه الحياة على أن الله هو الذي أحياه، هذا حسن اعتقاد و يقظة.

كلما ارتقى المسلم في سلّم العلم و مسؤولية العمل و القرار، كلما ازداد احتياجه لحقيقة الاسم الشريف.

لنا أن نجول في أذهاننا على ما يسعه مجال العلوم التي تتناول الحياة، والتي تبدأ أسماؤها في اللغات الغربية بكلمة «بيو» (Bio) أي بصريح العبارة باليونانية: حياة.



كيف لعالم مسلم باحث في مجالات لم يسبقه إليها أحد في البيولوجيا أن يتبنى منطلقات بحثه على فراغ تام أو أوهام؟ كيف له أن يكون له كلام يقال في مجال الإحياء و هو يجهل أصل الحياة؟ كيف له أن يتعامل مع مواد حية و هو يتجاهل الذي أحياها؟ و الأسوأ من ذلك أن يصل به الحدّ أن يدّعي أنه هو نفسه الذي أحياها؟ إن لم يصل لهذا الحدّ فقد يقول: إن الحياة دبّت فيما يعتبر تلقائياً.

مهما ظن ذاك العالم أنه اكتشف، و مهما بُجّل و عُظّم و مهما مُنِحَ من جوائز، فإنه كغيره من المكلفين يموت و يُقبر و يُبعث و يحاسب و يجد نفسه أمام الخالق المحيي. هيهات أن نشبهه، و للّه المثل الأعلى، بمستخدم وظيفته كنس و مسح أرض مختبر أبحاث عليا يرتدي بزة الباحث و يصول و يجول أمام الجُهّل من معارفه مدّعياً أنه هو الباحث الذي ما يلبث و أن يأتي، فما موقفه و ما حجته أمامه؟

للّه المثل الأعلى.

لن يرضى اللّه لعبد من عباده أن يضيع في أخطاء كالادِّعاء أن الحياة نتيجة تلقائية و حتمية لاجتماع مواد و ظروف مناسبة و هو الجهل بعينه، خاصة أن الأمر يأخذ أبعاداً خطيرة في الهندسة الوراثية و ما يترتب عليها من نتائج عشوائية في مداها البعيد، من خلال اختيار احتمالات ما هي إلا من الألوف المؤلفة للاحتمالات الممكنة.

اللّه الذي أوجدها أدرى إلى أين تنتهي، ولكن الذي يتعامل مع هذه الاحتمالات لا يرى تماماً أين هي في سلّم التدرجات بين الصلاح و الفساد.

فتجدهم يختارون احتمالاً و آخر ولا يعون ولا يعرفون إلى أين يقودهم، و ما لا يترتب على ذلك.

السمة الأساسية لهذه الأبحاث إضافة لما ذكرنا، ضياع تام فيما يتعلق بمفهوم القدسية، و مفهوم القدسية مرتبط، إن تأملت، بالبداية و الغاية. فلا يمكن تقديس شيء أو شخص مع جهل بدائيته و غايته فما بالك جهل ماهيته.

النتيجة التي تغيب عن الأذهان و التي أسلفناها هي موقف هذا الباحث يوم الحساب حيث يرى عواقب أفعاله، و يكتشف أول اكتشاف حقيقي له و هو مدى جهله و ادعائه. فكما أن خطورة الجهل في هذه الأبحاث تكون على أرض الواقع فهي كذلك خطورة على المستوى الروحي، إذ لنا أن نتفكر بما يترتب على التلاعب بمظاهر الحياة في الهندسة الوراثية، و ما فيها من تعديلات على الكائنات و استنساخ و توليد، وما إلى ذلك مما يعلم الناس أوله و يجهلون معظمه الذي يبقى مكتوماً في مختبرات لأسباب استراتيجية تصل إلى حدّ الادعاء بالتحكم بالحياة، وأكثر من ذلك إلى حدّ الادعاء بإيجادها.

و هنا يظهر لنا كم تسبق آيات كتابه الزمان كما شاء سبحانه لها، ذلك مثل قوله في سورة الواقعة و الذي يقرأه الناس غير مدركين مرماه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ الجواب نعم رأينا حيوانات منوية فيها نصف الصيغة الوراثية يكمّل بها النصف الثاني من الصيغة في البويضة ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾. يقول الإنسان الحديث: أنا خالقه و دليل ذلك في كلّ مرة أريد أن أقوم بالعملية أقوم بها و تتم طالما حققت شروطها.

فليكن، و نرى كيف يمدهم في طغيانهم يعمهون، و الصبور بالنهاية يلقونه و قد قال لهم رداً على ادعائهم في التحكم بالحياة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ طالما أنكم أسياد الحياة أروني كيف تدفعون عنكم الموت!.

ما ذكرناه نبذة، و لكلّ واحد منا المتابعة في التأمل في المسألة و التفكر في خطورة و عواقب تجاهل اسمه المحيي جَلَّجَلَالُهُ.

و كذلك لنا أن نتفكر بما في الأخذ بالاسم من وضوح رؤية و سلامة من الوهم في البحث العلمي، و كذلك بسلامة العواقب على المستوى المادي و خاصة على المستوى الروحي.

أعود للمرة الثالثة مذكِّراً أن العالم المزعوم مهما اكتشف و مُنح من جوائز فهو أولاً و آخراً عبد من عباده، مكلّف، يموت و يحاسب ولا تغني عنه أمجاده الدنيوية شيء يوم الحساب، خاصة أنه استمات في الدنيا لبلوغ هذه الأمجاد، لا يريد الله لعباده مصيراً كذاك.

الأخذ بالاسم وعيٌ و وضوح رؤية في البحث و حسن تصرف في السلوك و حسن أدب مع الخالق و حسن اعتقاد.

الاسم من الأسماء الحسنى هنا لتصحيح عقيدة المسلم و المهم الطبقة العليا من المسلمين.

نفترض أن أفكاراً أو معلومات تخص أو تفيد طبقة عليا من المسلمين ولا تهم عامة المسلمين. هل نعتبر هذه المعلومات هامشية ثانوية أم أساسية؟.

المسلم العادي يعيش حياته و هيهات أن يؤثر في بضع أناس ممن حوله، أما الخاصة، فالواحد منهم قد يغير وحده مصير أمته و تاريخها، خاصة إن أخطأ بحكمه و تقديره وذلك لنقص في معلوماته أو عدم وضوح الرؤية لديه.

فالأسماء الحسنى، كلّ منها نهج جليّ في العقيدة وفي الحياة لكلّ المسلمين، من أدناهم إلى أعلاهم خاصة إن اعتمدها الباحث العالم أو صاحب القرار أساساً نجح في بحثه أو قراره و خاصة في الحقيقة و على المدى البعيد.



ملاحظات على اسمه تعالى المحيي جَلَّجَلَالُهُ:

إذا كانت المادة مجرد تطور و الإنسان كائن تطور عن فقاريات ثم كذا ثم كذا .. و المادة تطورت إلى ... كل هذه النظريات و أمثالها منفية في أسمائه سبحانه.

لا محيي إلا الله جَلَّجَلَالُهُ، ولا معيد إلا الله جَلَّجَلَالُهُ.

يوم الحساب يبعث الشخص بنفس اللحظة كاملاً دون أن يمر بمراحل الولادة الطفولة الشباب.... و يرى هذا الشيء بعينه ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٣٦/ ٥٢].

و سؤال يطرح على الشخص في العالم الآخر من المحيي..؟

الوعي في العالم الآخر آلاف الأضعاف عن الوعي في هذه الدنيا.

الله وحده محيي و لا محيي سواه.. لا يوجد محيي إلا الله و لا ملك إلا الله و لا رحمن إلا الله و لا ... و لا... إلا الله كذلك الأسماء كلها.

الأسماء الـ ٩٩ كلها تشهد أن لا إله إلا الله و لا إله إلا الرحمن و لا إله إلا الرحيم ...

لا إله إلا .. الرحمن الرحيم الملك... الرشيد الصبور.

٩٩ ٩٩.

حول الروح:

لا يوجد أي شاهد فيه نفخ روح لحيوان أو غير عاقل أو غير مكلف.

لا يوجد أي شاهد في قضية الموت مع عبارة روح.

لا يوجد ذكر لروح عند الموت مع كلّ ما ذكر عن الموت في القرآن الكريم.

لا يوجد أي شاهد في كتاب الله ينسب الروح لبشر أو حيوان مثلاً روح فلان إطلاقاً و إنما دائماً الروح منسوبة إلى الله تعالى.

الروح هي القدرة على المحاكمة، أما النفس فهي الشخصية (identity) و هي المحاسبة

الروح دائماً منسوبة لله تعالى مثل:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٩] و ليس نفخت فيه روحاً.

في القرآن الكريم عند الموت الله يتوفى الأنفس و لا يوجد توفي للروح إطلاقاً.

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٢].

سبحانه وتعالى حي و هو الذي أحيا.

الحياة غير الروح و ليس كلّ شيء فيه حياة فيه روح و ليس كلّ شيء فيه حياة فيه نفس. هل لنا أن نقول عن: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾ [الشمس: ٩١/ ٨] إذاً فيها حياة و ليس فيها نفس.

الله سبحانه يعطي قدر من الروح و هذا القدر يزيد و ينقص بقدر صلته بالله سبحانه، وجود الروح في الإنسان يعطيه قدسية ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

والقدسية هي حرمة للإنسان و لا يمكن استخدامه كيفما اتفق profanation.

الروح ليست مستنبطة لفكرة بل وحي من الله سبحانه.



اسمه تعالى المميت جَلَّجَلَالُهُ

(٠٦١)

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨].

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٧٣].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٣].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٨-٢٦٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٦].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١٦].

﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٥٦].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٠].

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٠].

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ١١].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٨].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٨].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٦].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٤٣].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٤٤].

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢].

*****

اسمه تعالى المميت جَلَّجَلَالُهُ:

و هو من أفضال سيدنا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علينا إذ ذكره لنا كاسمه المحيي. لا يوجد بصريح العبارة في القرآن الكريم و إنما تشير إليه آيات كثيرة، كما رأينا، كما هو الحال بالنسبة لاسمه

المحيي. لا يمكن الفصل بين الاسمين الشريفين، كلّ منهما يكمّل مفهوماً أساسياً في العقيدة والسلوك.

اسمه تعالى المميت يكمّل المعنى الذي يشير إليه اسمه المحيي، و يقدّم و يحضّر لاسمه تعالى الحي جَلَّجَلَالُهُ.

فقد رأينا كيف أن اسمه المحيي ضبط و تصحيح لعقيدة المسلم فيما يتعلق بكلّ ما يمسّ الحياة و خاصة حياته هو نفسه، و كيف أن هذا الاسم يدحض فكرة تلقائية الحياة، و كيف أنه يدحض فكرة التسلسل و التطور في حياة المادة بدافع خصائص المادة و البيئة.

رأينا الحجة البالغة في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

في هذه النقطة يكمّل اسمه المميت اسمه المحيي: فالمكلّف من الخلق، جن أو إنس، هو الوحيد من الخلق الذي قد يشك في أمر الله في الحياة فيعزو الأمر لما يسميه الطبيعة أو التطور و ما إلى ذلك. باقي الخلق لا يثير هذا التساؤل أو هذه الشكوك. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان بمقدوره أن يوجد المكلفين في دار امتحان ينتهي بتقييم شامل لأعمالهم؛ يكون بجعلهم في النار أو الجنة مباشرة دون أن يكون الأمر مرتباً؛ بحيث يلتقي الجميع في يوم واحد تُعرض عليهم أعمالهم أمام الميزان و يحاكمون و يمرون على الصراط. و المسألة مدعاة للتأمل.

كيف يحيي إن لم يُمِت؟ و عندما يحيي بعد الموت يوم يبعث يكون ذلك من بقايا المادة يجمعها سبحانه و يبعث فيها الحياة فيرى الذين يقومون من الموت أن الأمر بيده كما أخبر على لسان أنبيائه.

عندما يحييهم و قد أماتهم، فإنه يُري المدعين باطل دعواهم أن الإحياء ليس سوى نتيجة حتمية لاجتماع شروط مناسبة و لتطور طبيعي من أشكال بسيطة للحياة مثل وحيدات الخلية إلى الكائنات المتطورة. عندما يرون كيف أحياهم سبحانه من غير أن يمروا بكلّ مراحل التطور من وحيد خلية مروراً بكائنات مائية فأرضية فثديية فقرود و ما شابه فإنسان... عندما يرون كيف أحياهم من مادة فانية و جعلهم خلقاً جديداً لم يمرّ حتى بمراحل الجنين و الطفل يدركون الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان.

فاسمه المميت مكمّل للمحيي كحجة منه على خلقه الذي يمنّ على المكلفين من خلقه بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨].

اسمه المميت من الأسماء الضرورية في العقيدة لاكتمال مفهوم الهيمنة الإلهية المطلقة.

من الجدير التنبيه لما قد يعتري النفس البشرية من أحاسيس سلبية، ومن نوازع للتمرد عند ذكر

الهيمنة الإلهية. و السبب لما يجري في نفوس و عقول الذين أهملوا التسبيح من إسقاطات بشرية على الذات الإلهية فتبدو الهيمنة و كأنها جور و تسلط.

الهيمنة سِلمٌ و أمان إذ إنها نابعة عن عليم حكيم رؤوف رحيم لا أعلم ولا أحكم ولا أرأف ولا أرحم منه، فكيف يمكن للأمور أن تسري خيراً من مسراها تحت هيمنته.

اسمه المميت مظهر من مظاهر هيمنته، ذكره ضروري في العقيدة إذ إن الاسم الشريف يتناول أمراً من أكثر الأمور حساسية بالنسبة للمكلفين من خلقه.

لا يخفى على أحد الذعر الذي يستدعيه الموت و كذلك ما يمكن للمرء أن يفكر بالقيام به من أعمال و تنازلات لدفعه عن نفسه.

يرتبط الموت بالأسى و اليأس و الشعور بالعجز و ما إلى ذلك من مشاعر قد تقلب النفس رأساً على عقب بين عشية و ضحاها.

اسمه المميت أمان و سلام للمؤمن الذي يتابع حياته بتوازن أساسه ثقته بالله، ولا يجنح عقله فيقول: «رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته و من تخطئ يعمر فيهرم»، و هو ضلال يولد بأساً ويأساً لا أساس له. فالاسم بذلك ضمانة أن الأمر يتم بمشيئته و بناء على علمه و حكمته سبحانه.

و هو كذلك تذكرة و توعية و تأديب للخلق عندما يظنون أن مسألة الموت بأيديهم. و لك أن تتفكر في كلّ مظاهر القتل، و لك أن تتفكر في مسألة قتل المرضى الميؤوس من شفائهم، و التي تعتبر من المسائل الشائكة في زماننا، و هي في الواقع مطب ألقى الإنسان فيه نفسه إذ تفنّن طبياً فيما يظنه إبقاء على الحياة و هو يحار أمام مسألة إيقاف حياة ذاك المريض الذي عمل جاهداً على إبقائه على الحياة.

هل من مفارقة أكبر من ذلك! الله هو المميت لا يموت شيء أو أحد إلا بأمره.

و هكذا يُحسن المسلم الاعتقاد و يُحسن التصرف و يتابع حياته بتوازن نفسي عالي و بصِلة قوية بخالقه و ربّه و معبوده.

اسمه المميت جَلَّجَلَالُهُ كما أنه يكمل اسمه المحيي يقدم لاسمه الحي جَلَّجَلَالُهُ، فاسمه الحي يشير إلى صفة إلهية مطلقة لا يشاركه في حقيقتها أحد من خلقه فقد منّ سبحانه علينا؛ إذ قال لحبيبه المصطفى ولمن تبعه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٨].

فبصريح كلامه، الحي هو الذي لا يموت. و لذا، و لضرورة مخالفة صفات الألوهية في الخلق، فالخلق كله ميت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧]، ولذا فهو سبحانه مميت.



ملاحظات على اسمه تعالى المميت جَلَّجَلَالُهُ:

سؤال: كيف يمكن أن يعيد من بقايا المادة؟.

المادة لا تفنى بل تتحول، و هناك إلكترونات و بروتونات تحولت ولكن لم تزول. الله سبحانه أحصى كلّ شيء عددا و الذي أبدأ يعيد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

سؤال: كيف في النوم يتوفى الله الأنفس و يبقى الجسد حي لا يموت؟.

الجواب: ومن أصدق من الله حديثاً؟ لا أحد طبعاً، و بالتالي ننظر إلى المسألة من خلال نظرة مادية ولا يعني إن كان القلب يعمل أن الإنسان حي، و إنما الجسد حي و النفس أين هي؟

هناك فعاليات كبيرة في الجسد البشري العقل هو المسيطر عليها. و النفس شيء آخر و المقولة عند المؤلف: أنا لست جسدي.

الرسالة في المنام أن الله سبحانه ينبهنا أننا حين ننام نموت.

كل موت وفاة و ليست كل وفاة موت.

الأحرف التي تبدأ بها سور القرآن الكريم لا يوجد فيها حرف م.

(لم تبدأ سورة بحرف الميم) لأنه حرف موت، فلم تبدأ به أي سورة من سور القرآن.

اسمه تعالى المميت فيه حرف الميم مرتين في بدايته.

حرف الميم هو حرف صعب.

الأجل بيد الله تعالى و ربما شخصان أخذا العلاج نفسه ولكن الله سبحانه هو الذي يكتب لأحدهما عمر و للآخر الموت.

دليل ذلك الدعاء: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِب الْبَاسَ اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَماً» [صحيح البخاري: ٥٣٠٢].

الله سبحانه مهيمن، أحدهم نائم، الله متوفي نفسه هذا واضح جاء أحدهم فأيقظه، عندما جاء الشخص و أيقظ الآخر فهل عندها فقط انتبه أم أنه أمر مقدر مسبقاً في سابق علم الله سبحانه؟ اليقين أنه إن لم يشأ سبحانه أن يستيقظ لما استيقظ.

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٢].

اسمه تعالى الحي جَلَّجَلَالُهُ

(٠٦٢)

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١-٢].

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٨].

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٥].

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨].

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٥].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣١].

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٠].

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ١٩].

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٠].

*****

اسمه تعالى الحي جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء الحسنى الواردة في القرآن الكريم و من أكثرها جلالاً و عظمة.

الاسم الشريف في حقيقته مرتبط ارتباطاً وثيقاً بلفظ الجلالة كما هو الحال بالنسبة لاسمه الحق جَلَّجَلَالُهُ. ارتباط اسمه الحي بلفظ الجلالة بيت القصيد في البحث و التوجه إلى الحقيقة. معرفة ارتباط الاسم بلفظ الجلالة و ما في ذلك من أسرار و علوم و حقائق كما هو الحال بالنسبة لاسمه الحق بيت القصيد في التفكر بالعلوم الإلهية.

قد يبدو ما سبق مغالاة و مبالغة لا تفصح عن شيء، الواقع أن ما سبق إشارة إلى أعلى طبقات العلم.

انظر كيف مَنَّ علينا سبحانه بنبي، ما أرسله إلا رحمة للعالمين، فأذن له فأشار لنا كرماً منه عندما أخبرنا أن لله اسماً أعظماً حين قال: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي سُوَرٍ ثَلَاثٍ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه» [سنن ابن ماجه: ٣٨٤٦].

لم يفصح عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لم يقل: «هو» بل قال: «في».

و ذكر ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ .. ﴾ آية الكرسي. و ذكر أنه في: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ من آل عمران. و ذكر أنه في قوله: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ .. ﴾ [طه: ٢٠/ ١١١] [سنن الترمذي: ٣٤٠٠، سنن النسائي: ١٢٨٣].

من يبحث عن الاسم الأعظم كاسم مكتوم يعرفه الخاصة من عباده يكتمونه عن الناس، و يظن أنه اسم يمكنه سماعه من الذين يعرفونه.

إن ظنوا أن الاسم إن سمع أو قرئ عُرف، و صار إن ذكروه إن دعوا الله به أجيبوا، فلن يبلغوه أبداً. إذ إن بحثهم عن وسيلة تقضى بها حوائجهم. إن ذهبوا بذلك الاتجاه فلن يجدوه حتماً.

الاسم الأعظم ليس وسيلة و إنما هو غاية في العلم و القرب. و لذا قلنا: إن التأمل في ارتباط اسمه الحي بلفظ الجلالة بيت القصيد.

اسمه الحي مرتبط ارتباطاً وثيقاً باسميه المحيي و المميت يوصلان العبد إليه، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موجد كلّ حياة و كل حياة ما هي إلا انعكاس لحياته.

و لله المثل الأعلى، كما يعكس القمر نور الشمس فيبدو منيراً، كذلك حياة الخلق يبدون أحياءً وما هم إلا انعكاس لحياته. لا يخفى عليك ضآلة ما يعكس الجزء العابر من الكلّ الدائم.

إن أدركت ما سبق، فهمت أصحاب القلوب الحية الذين يرون آثار حبيبهم و معبودهم الحي منعكسة في كلّ ما دبّت فيه الحياة. لا يرون حياً إلا أرجعهم النظر فيه إلى الحي. تكاد قلوبهم و نفوسهم تذوب حيرة و رهبة لسماع قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ..﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨].

يعون و يدركون تماماً أن حياتهم منه. يدركون إن سألتهم هل أنتم أموات أم أحياء؟ يقولون لك: أموات أحيانا الله بالصلة به، إذ إنه هو الحي إن انقطعنا عنه كنا أمواتاً لا فضل لنا.

يعون أنهم أموات كما بلغ الحي سبحانه عبده ونبيه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٠]، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أمامنا موت محتم ! فما قيمة أيّ شيء و أيّ أمر و أيّ مطلب و أيّ إحساس و أيّ شعور و أيّ مطلب عندئذٍ؟ و ما أقوى الشعور بحقيقة الحياة عندما يحيينا إذ إن أيٍّ منا لم يكن واعياً لحظة إحيائه في الدنيا عندما كان جنيناً. ولا حتى يعي لحظة ولادته ولا حتى أولى سنواته، و بالواقع ولا حتى باقي عمره. ولكنه عندما يبعث لا يمرّ بهذه المراحل، ولا يعي تماماً كيف أحياه سبحانه ليقف بين يديه في أهم لحظات حياته بين مفترق طرق، اختصره سبحانه بشواهد مدارها الحياة إذ إن حياة العباد من أهل النجاة هي الحيوان (باللفظ القرآني) أي الحياة الحقيقية و الدائمة.

و مصير أهل الشقاء ناراً لا يموت فيها ولا يحيا.

فلك أن تتأمل بما أخبرك به سبحانه عن الحياة الدنيا و عن الحياة في الآخرة التي لا تكون إلا لمن كان قلبه حياً بصلته بالحي. فكر بحياتك و مصيرك و اغنم الصلة به في كلّ صلاة تصليها و خاصة عندما تحييه في قولك: (التحيات لله)، تصور و أنك قد مِتَّ، لبثت في القبر، فنيت، بعثت، أحييت فهل يغيب عنك حينئذ الذي أحياك؟

فما تكون ردّة فعلك و ما تنطق به نفسك إلا و أن تعبّر عن امتنانك للذي أحياك و أن تعظمه و تبجّله و تتوق إلى أن يحييك الحياة الحقيقية. عندئذٍ تدرك جذر حي في التحيات و تدرك معنى أن يُحَيّي الميتُ الحيَّ الذي أحياه.

تهيأ.

اسمه تعالى القيوم جَلَّجَلَالُهُ
(٠٦٣)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ [آل عمران: ٣/ ١-٢].

﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١﴾ [طه: ٢٠/ ١١١].

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨].

*****

اسمه تعالى القيوم جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ارتبط ذكره مع الحي بأمر اسم الله الأعظم.

كخطوة أساسية لفهم معانيه نجد آية من الآيات العظمى في كتاب الله، قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨].

﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي عاملاً به إن جازت العبارة، متابعاً له غير تارك له.

الاسم الشريف يقطع الطريق على عقائد كثيرة تسللت إلى عقول البشر، و فيه تصحيح لعقيدة أولئك الأقوام إذ إنه باب الهداية. و الإسلام مفتوح للناس كافة.

اسمه تعالى القيوم، إن أخذنا معنى قائم، يلغي سوء اعتقاد أمم بثبات أو نوم أو استراحة الإله مما يعتقد به ألوف مؤلفة من البشر، و مما عافى الله المسلمين منه. و سبب هذه المعتقدات ما يراه البشر من أحوال الدنيا مما لا يستطيع فهمه و تفسيره، فيعزو الأمر لغياب الإله المؤقت راحةً أو نوماً.

هذا الاعتقاد يقود إلى أخطر منه، و هو الالتجاء إلى أوهام قوى أخرى تقوم بالأمور بغياب الإله. ألوف مؤلفة اعتقدت بذلك الأمر و ألوف مؤلفة لا تزال.

ردّة فعل المسلم التجاهل أو الاستغراب ثم اللامبالاة، و كأن الأمر هامشي أو لا وجود له.

و كأنه محال عليه أن يعتقد في يوم من الأيام بمثل ذلك.

أليست القلوب بين أصبعي الرحمن يصرفها كيف يشاء؟.

ألم يقل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» (صحيح مسلم: ٤٧٩٨).

ألم يخبرنا الصادق الأمين أن في آخر الزمان، و هو زماننا: «يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا ثُمَّ يُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا ثُمَّ يُصْبِحُ كَافِرًا». [مسند أحمد: ١٧٦٧٨].

كلما تقدّم الزمن، و هو يتقدم بتسارع، كلما ازدادت إمكانية و خطورة تحذيرات الصادق الأمين، إذ تتلاشى إمكانية الحواجز بين الأمم و المجتمعات و الأديان و يكثر المسلمون الذين يعيشون في غير بيئتهم. إن سارت أمورهم على ما يرام فهل يضمنون أبناءهم؟.

و من جهة أخرى، هل يقبل صاحب قلب حي أن يترك خلقاً من خلق الله في ذاك الضلال البعيد؟.

لذا تجد أول ذكر للاسم مرتبط بالفكرة السابقة مما يشير لأهميتها. لو لم ترد في كتاب الله تعالى و ذكرها أحدهم لاستنكرها العلماء.

ولكن من يجرؤ أن يستنكر قول الله (انظر فيه): ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾..؟ يليه مباشرة ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾.

بهذا الكلام بيّن لنا سبحانه المعنى الأساسي في اسمه القيوم قائم غير مستلق ولا نائم.

قائم مهيمن مسيطر آمر فاعل لا يغادر.

الاسم الشريف فيه كلّ معاني الهيمنة و السيطرة، القوة و الفعل.

انظر إلى قولك: (قائم على عمل) أي متابع له شاهد عليه متقن له.



لا يخفى لما في الاسم من علو و رفعة مع هيمنة.

وزنه الذي تفرّد به كالحي، تفرّد به من بين الأسماء إلى أنه يشير عن استغنائه و استقلاله عمّن سواه في قيوميته.

فالصفة لا تركّز خاصة على ما قد يظهر ولكن تركّز خاصة على ما بطن و ما كان مكنوناً. أي إنه قيوم أصلاً قبل خلقه و بغيرهم.

اسمه تعالى القيوم يحوي من معاني الاستقلالية و التفرد و الهيمنة و القوة و الفعل عجائب.

كلما تفكرت بعجائب المعاني المكنونة في اسمه القيوم، كلما تلاشت نفسك و إرادتك أمام عظمة هيمنته التي لا يعبّر عنها غير اسمه القيوم.

كلما تفكرت به و باسمه الحي كلما أدركت حقيقة الإشارة النبوية الشريفة للاسمين الشريفين (أن فيهما اسم الله الأعظم).

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ:

«اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ٢/١٦٣]، وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾» [سنن الترمذي: ٣٤٠٠].



اسمه تعالى الواجد جَلَّ جَلَالُهُ
(٦٤)

الاسم ليس من الأسماء القرآنية.

الجذر: وجد.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١٠].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٥٢].

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠٢].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٥].

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤٤].

*****

اسمه تعالى الواجد جَلَّ جَلَالُهُ:

الاسم الشريف مرة أخرى من أفضال سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذكره لنا و عرّفنا به إذ إنه غير موجود في القرآن الكريم.

الاسم الشريف في محله من بعد الحي القيوم. تفكّر: هل تتوافق الحياة مع السكون و الكمون و الجمود؟ طبعاً لا.

فكيف يكون الحي سبحانه ! يقيناً فعّال، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١١/ ١٠٧].

هل لحاجة أم بحاجة؟ بغياب و حضور أم بحضور دائم و تدبير لكلّ ما يكون لا يعبّر عنه خير من اسمه القيوم.

قائم مدبّر لكلّ شيء، ولا شيء إلا هو الذي أوجده.

الاسم الشريف باب عظيم لأعلى درجات الوعي و البصيرة: يقود الذي تحقق منه إلى اليقين في نظره إلى كلّ موجود على أنه عدم، لم يكن شيئاً فأوجده اللّه سبحانه الذي نفذت إرادته في كلّ معدوم فأوجده و في كلّ موجود فأقهره.

بذلك يتخلص و يتحرر المتحقق للاسم من غفلة و حجاب الموجودات التي تحجب أهل الغفلة عن واجبها. أهل البصيرة لا تحجبهم الموجودات عن واجدها، بل تذكرهم به و يعون أنه كما أوجدها يعدمها، و كما أوجدهم يعدمهم. يرون يقيناً غناه التام عن ما يقدمونه فقد أوجدهم أصلاً و أوجد ما ظنوا أنهم يقدمونه، فما حاجته؟.

الاسم الشريف صعود في معرفة مسألة العدم والإيجاد والتي لا غنى لأهل التصريف أولي الأمر عن معرفتها. وللمتبصر إشارات.

الاسم الشريف صعود في وعي الهيمنة الإلهية متلازم كلّ التلازم مع اسمه القيوم. الاسم الشريف عزّ و عتق للمؤمنين إذ يتحرر به من سلطان وهم قوة الموجودات.

ولا يأبه لموجود ولا يخضع له، إذ يعي أن ذاك الموجود ذليل و معدوم إن لم يوجده الواجد.

فجليّ بالنسبة للمؤمن أن الأولى الخضوع للواجد و من هنا يُعتق المؤمن من وهم هيمنة كلّ موجود.

اسمه تعالى الماجد جَلَّجَلَالُهُ
(٦٥)

الاسم ليس من الأسماء القرآنية. آيات جذر «مَجَدَ» كلها تشير إلى اسمه المجيد جَلَّجَلَالُهُ.

*****

اسمه تعالى الماجد جَلَّجَلَالُهُ:

مرة أخرى الاسم الشريف من أفضال الله تعالى و سيدنا محمد الذي أخبرنا به في الحديث الشريف، إذ إنه لا يوجد بصريح العبارة في القرآن الكريم.

كنا قد رأينا معنى المجد عندما تناولنا اسمه تعالى المجيد حيث قلنا مجَّدَ بمعنى: عظَّم و بجّل أفضال و مآثر الممجد. و رأينا كذلك ما للمجد من أبعاد في النفس البشرية و ما مدى ارتباطه بطموحاتها.

و قد رأينا كذلك الذلّ الذي يكابده الإنسان عندما يضطر بشكل أو بآخر تمجيد أحد من الناس، ذلّ النفاق غالباً، ذلّ الفارق بالمرتبة و المقام دائماً، و كذلك ذلّ تبعية الإنسان للإنسان.

و قد رأينا كذلك إلى أين تؤدي طموحات المجد في انحرافات النفس البشرية. و للقارئ تذكر الكثير من الأمثلة التاريخية لأشخاص كرّسوا حياتهم لتحقيق الأمجاد ثم ماتوا كما يموت أيّ شخص و دفنوا و بقي البشر يمجدونهم أو يعنونهم إن بقي لهم ذكر.

ترى هل تفيد الميت التماثيل المقامة على شرفه و الشوارع التي تحمل اسمه أو أن يكون مدفوناً في مقبرة العظماء؟.

Sac transit Gloria mundi بالموت تزول أمجاد الدنيا.

جاء الإسلام دين الله مخلصاً الناس من العمل بهدف تحصيل الأمجاد التي ليست، في حقيقتها، إلا حاجة لتأييد الآخرين؛ أي إن الذي يبحث عن أمجاد الدنيا في الحقيقة يبحث لأن تكون له مكانة بين الناس. إذاً هو فقير في نفسه محتاج لغيره لتكون له أهمية. ما أتعسهم.



جاء الإسلام مخلصاً للناس من عقدة الأمجاد و العمل على تحصيلها مغيراً وجهة عملهم للمصلحة الجماعية و لحياتهم الأبدية، قاصدين به، بنفس هينة، وجهه الكريم.

حرر الإسلام الناس من ذلّ تمجيد أمثالهم مرشداً إياهم بأن الله المجيد هو وحده الحريّ بالتمجيد.

خلّص الإسلام الناس من تهورات هدفها الأمجاد تأخذ أبعادها القصوى في الحروب الكبرى العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الفكرية و الثقافية. حرّرهم من ذلك بتنشئة نفوسهم و عقولهم أن الله وحده هو الذي يرفع من يشاء من عباده، إذ إنه هو وحده الماجد. فلا يتبع المسلم طرقاً ملتوية ولا يتنازل عن مبادئه و قيمه طلباً لدعم غيره من البشر لتحصيل أمجاده.

فالمسلم يعتقد أن المجد بيد الله الماجد، يفيض به على من يشاء و هو العليم الحكيم. الماجد هو الذي بيده كلّ المجد، يمنحه و يمنعه كيف يشاء، فلا تتحرك نفس المسلم حسداً لرؤية أمجاد الآخرين بل تجد في ذلك تجلياً لإرادة الماجد و تثق به. فكما يشاء لأحد من خلقه مجداً كذلك يجرّده منه.

بذلك لا يعظُم بشر في أعين البشر أكثر مما يستحق ولا يصيب الغرور من كان ينعم بالمجد، بل يتواضع للآخرين عالماً بأن الأمر بيد الماجد، يعطي و يمنع، ولا تتبعثر نفوس المسلمين في سبل شتى حقيتها الغرور باطنها النقص و نهايتها الضياع و الخسران، بل تتوجه نفوسهم إلى إله واحد حق عزيز عليم رؤوف رحيم نور و هادي.

تجتمع نفوسهم غير آبهة بمحدودية طموحات أهل الدنيا و تتجه في عملها و سعيها في سمو إلى وجهة واحدة هي وجهة وجهه الكريم وحده.

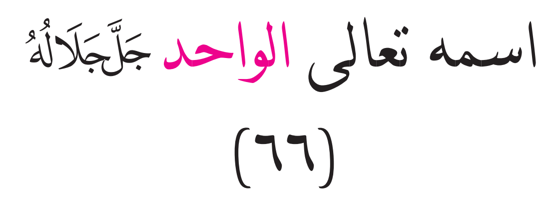
*****

ملاحظات حول اسمه تعالى الماجد جَلَّجَلَالُهُ:

اسمه تعالى المجيد أي أنه سبحانه هو الحري بالتمجيد.

اسمه تعالى الماجد أي أنه سبحانه الذي بيده كل المجد يمنحه و يمنعه كيف يشاء وقد يكون منحه المجد لأحد عباده استدراج أو عطاء أو امتحان ...

قد يكون البحث عن المجد سبب هلاك أمم وشعوب و ليس أفراد فقط، لذا الاعتقاد أنه سبحانه الماجد هو المعطي للمجد إذاً لا داعي لأن يكون نزاع بين إخوة أو بين دول مثلاً من أجل المجد؛ لأن الأمر بيد الماجد سبحانه يعطي المجد أو يمنعه كيف يشاء.



اسمه تعالى الواحد جَلَّجَلَالُهُ

(٦٦)

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٩].

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد: ١٣/ ١٦].

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٨].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥﴾ [ص: ٣٨/ ٦٥].

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾.

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: ٤٠/ ١٦].

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٣].

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٣].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: ٤/ ١٧١].

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [المائدة: ٥/ ٧٣].



﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٩].

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٢].

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٢٢].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٥١].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٨].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٤].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٦].

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤].

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٦].

*****



اسمه تعالى الواحد جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء الحسنى الواردة في نص القرآن الكريم.

ورد مراراً في صيغتين حصراً: صيغة إله واحد، و صيغة تجده بين لفظ الجلالة و اسمه القهار جَلَّجَلَالُهُ.

كيفية وروده في كتاب الله يبرز مكانته الأساسية في العقيدة، و فيما يتعلق بالألوهية: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

اسمه الواحد في هذه الصيغة أساس مطلق في العقيدة و حسم لما قد يجنح به عقل البشر من ضلال في تعدد الآلهة، كما كان الحال في كثير من الأمم الغابرة و إلى الآن في الهند مثلاً و ليس حصراً.

تفكّر بأن عدد الهندوس في الهند و غيرها يقارب المليار. تفكر بأن السواد الأعظم لسكان الأمريكيتين من قطب إلى قطب، و كذلك سكان أوربة و رقعة روسيا الشاسعة و كثير من الأفارقة يؤمنون بالثالوث و بأن الله، سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عما يقولون، ثالث ثلاثة.

الاسم الشريف بلاغ منه و هو أعلم بنفسه بشهادة من يزعمون أنه ابنه، بلاغ منه أنه واحد.

واحد أي غير مركب، و غير مكوّن و غير مؤلف، غير مكوّن من ثلاثة بل واحد مهيمن على وحدانيته، لا يؤثر فيها شيء ولا أحد ولا يتبدل، كما يشير إلى ذلك الوزن، فيقطع ذلك الاسم كل الأوهام الممكنة.

يعلم المؤمن أن إلهه الحق و معبوده واحد، فلا يتوجه في صلاته و توسلاته لا للابن ولا لروح القدس و هما من خلقه.

المؤمن المسلم لا يضيع ولا يحار في التوجه و التوسل و إرضاء آلهة مزعومة متعددة، لكلّ منها اختصاص و لكلّ منها أذواق و ميول و رغبات و طلبات.

المسلم المؤمن لا يضيع في شتات الجهات و التوجهات بل ينشأ على التوجه لإله واحد تجتمع فيه جميع صفات الألوهية و التي يخالفه فيها جميع خلقه. من أهمها وحدانيته، فهو واحد و ما سواه مكوّن، مركّب، متغيّر، متبدّل بضرورة مخالفة صفة الألوهية.

وحدانيته التي يعبّر عنها اسمه الواحد تتجلى في الانسجام المطلق في تجليات إرادته في الخلق و القوانين و النواميس الإلهية كما تشير إلى ذلك الآيات القرآنية. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: ٦٧/ ٣].

بذلك ينجلي للمسلم المؤمن مظهر كلّ ما أوجده اللّه فيجده خاضعاً لقوانين و نواميس منسجمة و مكونة مع بعضها قانوناً واحداً.

بذلك يعي العالم المسلم مكان و معنى كلّ شيء في النظام الإلهي الكلي الواحد، فيكون بذلك لائقاً لمقام الخلافة.

ارتبط اسمه الواحد بمفهوم الألوهية صراحة كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كذلك لم يرتبط الاسم الشريف في كتاب اللّه إلا بلفظ الجلالة و اسمه القهار مثل: ﴿ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٩].

ربط و تلازم اسمه الواحد مع اسمه القهار يلفت النظر، و خاصة أن سياق الآيات التي ورد فيها الاسمان تسوقنا إلى يوم الحساب.

فكما ضبط مفهوم الألوهية بالوحدانية بأن الإله الحق واحد بقوله تعالى: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فالواحد في هذه الصيغة بيان لما ينبغي أن يكون عليه الإله في عقيدة المؤمن. كذلك نجد أن القهار بيان و توضيح و صفة للواحد الذي بدوره كاسم بيان و صفة للفظ الجلالة.

إله، كيف؟ حصراً واحد. واحد؟ وحده قهار.

من هذه الشواهد القرآنية الكريمة يتعلم المؤمن هو وغيره من البشر علم ما علم من مظاهر القهر، يتعلم المؤمن و يعي أن اللّه هو وحده لا يشاركه في ذلك أحد.

هو وحده القهار فلا يخاف المؤمن قهر أحد إذ يعي أن القهار الأوحد هو اللّه الذي هو نفسه الرحمن و الرحيم و الرؤوف و اللطيف و العدل خاصة. تفكر ما للقهر من مظاهر و من سبل في حياة البشر تدرك أهمية التذكرة في الآيات الشريفة و البلاغ للبشر، و خاصة الدعوة إلى التأدب فلا يجرؤ مؤمن على قهر أحد إلا و يتذكر أن القهار هو وحده اللّه، و أنه كعبد موقوف بين يديه وبارز أمامه يوم الحساب للّه الواحد القهار، فمن يجرؤ و هو عالم باللقاء الذي لا فرار منه.

اسمه تعالى الأحد جَلَّجَلَالُهُ

(٠٦٧)

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١-٤].

*****

اسمه تعالى الأحد جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء القرآنية الجليلة. لم يرد في كتاب الله إلا مرة واحدة مما ينسجم مع مدلول الاسم.

في كل المرات التي ورد فيها لفظ أحد في جميع أشكاله لم يكن يشير إلى ذاته سبحانه و لم يكن اسماً من أسمائه. الاسم الشريف لم يرد إلا في سورة الإخلاص،الصمدية الشريفة، مقدماً لاسمه الصمد الذي لم يرد بدوره إلا مرة واحدة.

في التركيب البديع لكلمات الآية الأولى من الصمدية عجائب مما أودعه سبحانه في كتابه. إذ نجد لفظ الجلالة مسبوقاً بضمير «**هو**» لا منافس له في التعريف والتحديد، و يتبع لفظ الجلالة اسمه أحد فيكون بذلك لفظ الجلالة محاطاً بقوة تعريف و تحديد و تخصيص فردانية «**هو**» الذي لا «**هو**» حقاً إلا «**هو**»، يقابله صراحة فردانية أحدية اسمه أحد.

لفظا «هو و أحد» يشيران في أسرارهما إلى من يعرف، إلى أسرار لا إله إلا الله.

كما أن اسمه الواحد خبرٌ لنا بأنه غير مركب ولا مؤلف ولا متبدل و مهيمن على وحدانيته أزلاً و أبداً، فإن اسمه الأحد خبرٌ لنا أنه لا ثاني له ولا ثالث ولا أكثر.

تمعنٌ في الاسم الشريف يوصلنا بجلاء أن لا شيء قبله ولا شيء بعده.

إن كان أي كان قبله فلن يكون سبحانه أحد، و إن كان أي كان بعده فلن يكون سبحانه أحد، و تمعنٌ في الاسم يرينا أن لا مقابل له و إلا ما كان سبحانه أحداً حقاً. و هذه إشارة إلى الجهل الفاحش في مقابلته سبحانه مع الشيطان مقابلة الخير بالشر.

تمعنٌ في الاسم يشير إلى حقيقة أنَّ ليس كمثله شيء ولا شبيه له و إلا ما كان سبحانه أحداً.

المعنى الأخير دليل، إذ لا يشبهه شيء ولا يماثله شيء، على استحالة تصوره و إدراكه سبحانه إذ علام يستند العقل ليبلغه؟

منَّ الله علينا إذ يسر القرآن للذكر و الذكر ليس تحريك اللسان، الذكر عكس الغفلة، الذكر تذكر. من معنى الكلمة هيمنة المذكور على عقل و قلب و وجدان الذاكر لحظة الذكر، منَّ الله علينا إذ يسَّر القرآن للذكر أن جعل آخر أول آية من الإخلاص باسمه الأحد، و يسر لنا الأمر إذ ختم الآية الثانية بدال الصمد، وزاد تيسيراً بختم الثالثة بقوله: يولد، و ختم السورة الشريفة بشكل بديع بدال أحد، لا بمعنى الألوهية بل بمعنى النفي و العدم كما يقال بالفرنسية personne و بالإنكليزي no one أي الصفر أو العدم.

منَّ علينا سبحانه بنبيه الذي أرسله رحمة للعالمين. علّمه فعلّمنا فضل السورة الشريفة قائلاً: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» [صحيح البخاري: ٦١٥٢] ففتح لنا باباً لا يدخله إلا متفكر و بنور من الله.

منَّ الله علينا و يسّر لنا الأمر جاعلاً الدال ختماً لكلّ آيات السورة الشريفة.

ما أجهل الذي لا يرى في ذلك إلا قافية !

انظر كيف أن دال اسمه الأحد ابتدأت إيقاع ختم الآيات.

انظر في اسمه الواحد جَلَّجَلَالُهُ تجده في الرسم على الدوام بلا ألف فيكون ثلاثة أحرف كاسمه الأحد بفارق الواو و الألف. فالواو تشير إلى المكنون و الألف تشير إلى الجلال.

تفكر هل الجلال مخفي؟! يتطابق الاسمان بالحاء و بختم الدال، دال الدوام و الأبدية.

اجتماع الاسمين نفي للشريك و الشبيه و الكفء كمعنى لا إله إلا الله.

بنور الاسمين الشريفين هداية إلى الدين الحق، حيث لا ضياع ولا شتات بل تركيز على وجهة واحدة و على مركزية إله حق واحد وحده معبود وحده يُسأل و يُرجى ولا تضيع عنده الجهود الصادقة سدىً.

*****





ملاحظات على اسميه تعالى الواحد و الأحد جَلَّجَلَالُهُ:

الله سبحانه واحد، والله سبحانه أحد، هل واحد و أحد شيء واحد؟ لا.

اسمه تعالى الأحد أي لا ثاني له ولا ثالث.

اسمه تعالى الواحد أي ليس مكون و لا مركب. الواحد ليس مركباً ولا مكون.

اسمه تعالى الواحد ينفي أن يكون مركباً.

اسمه تعالى الأحد الذي لا ثاني له ينفي أن يكون معه ثاني.

إذاً ما سوى الله سبحانه مركب و مثاله الإنسان مركب ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨٢/٨].

وبالتالي:

الله سبحانه واحد و بمخالفة صفات الألوهية غيره مركب.

الله سبحانه أحد و بمخالفة صفات الألوهية ما سواه متعدد.

وهناك عموماً ترابط بين الاسمين الشريفين الواحد و الأحد و ذلك في سر الواو المكنون في الأعماق. أي دلالة على مقابلة بين الواو و الألف.

اسمه تعالى الصمد جَلَّجَلَالُهُ
(٠٦٨)

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١-٤].

*****

اسمه تعالى الصمد جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء القرآنية، لم يرد في كتاب الله تعالى إلا مرة واحدة في سورة الإخلاص و الرسالة و الإشارة من ذلك جلية.

كما لم يرد اسمه الأحد إلا مرة واحدة في كتابه تعالى في نفس السورة تأكيداً على تفرده، كذلك اسمه الصمد إشارة إلى تفرده في صمدانيته.

المعنى و الإشارة واضحان. لا صمد إلا الله.

ورود الاسم الشريف مرة واحدة في كتابه تعالى، و عدم وجود أي اشتقاق له في القرآن يجعل تحديد معنى الاسم بدقة و بدليل أمراً صعباً خاصة أن استخدام الاسم و اشتقاقاته في اللغة أقل من قليل. لذا نجد في كتب تفسير الأسماء الحسنى شيء من الحيرة و تحميل الاسم معانٍ كثيرة.

لا يمكن تجاوز حدّ ما ورد في تفسير الاسم إلا بالاطلاع على أسرار حروفه.

بالإجمال يمكننا أن نقول: إن الصمد هو الوحيد الذي ينبغي التوجه إليه و على الدوام بالتعظيم و العبادة و السؤال، ولا جدوى من تعظيم و عبادة و سؤال من سواه.

الصمد هو الوحيد بما ذكرناه لما يتصف من صفات يتفرد بها عمّن سواه. فقوته و قدرته لا تنقص، و كذلك لا تزيد لأنها تبلغ الحدّ الأقصى و اللانهائي.

قوته مجبولة بالعلم و الحكمة، كذلك قدرته. قوته و قدرته متصفتان بالدوام و بالجلال، سلطانه على كلّ شيء و هيمنته مطلقة و كلّ من سواه ميت.

من الأولى بأن يُعظّم و يُعبد و يُسأل ميت أم الحي الذي لا يموت؟

حريّ و جدير أن يعظّم و يعبد و يُتوجه إليه بالسؤال لأنه على ما هو عليه من كلّ صفات الألوهية و العظمة و الجلال و العلم و القدرة، ثابت أزلي أبدي لا يتبدل لأن كماله مطلق.

يؤكد ما ذكرناه سياق السورة، و هذا منهج لفهم عميق لكلمة من كتاب الله ابتداءً من التعرف على أول معانيها و انتهاءً بتحقيق المعاني المستنبطة بالدليل. فسياق السورة الشريفة دعوة إلى عبادة و تعظيم و التعلّق بالإله الحق الأحد و التوجه إليه على الدوام بالعبادة و السؤال، لا إلى ولد ولا إلى آلهة أخرى لا وجود لها.

اسمه تعالى الصمد باب للمؤمن به، باب للسمو و الارتقاء بالابتعاد عن الشتات و الضلال بالتوجه إلى الإله الحق الأحد الذي لا إله سواه.

المؤمن بالاسم لا تضيع توجهاته ولا جهوده سدى إذ إنه يتوجه وجهة واحدة إلى الحق مباشرة.

كم في الاسم عتق من التبعية و الذل لمن لا يليق بشيء، و كم فيه عزم و سمو و رفعة.

اسمه تعالى الصمد يجعل المؤمن المشغول قلبه بأسراره مؤمناً ذا عزم و جلدٍ و مثابرة، و هي من الصفات الضرورية لأهل النجاة و الفلاح.

*****

ملاحظة على اسمه تعالى الصمد جَلَّجَلَالُهُ:

الصمد: هو الذي يصمد إليه بالحوائج و هو الوحيد القادر سبحانه أن يعطي عند الحوائج.

الصمد = لا إله إلا الله = (١٦٥)

اسمه تعالى القادر جَلَّجَلَالُهُ

(٠٦٩)

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٧].

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٩].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٨].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٩٥].

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨١-٨٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤٠-٤١].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٤].

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٤٠].

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٣].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق: ٨٦/ ٨].

*****

اسمه تعالى القادر جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء الحسنى القرآنية، ورد في مواضع عدة في كتاب الله مصحوباً على الدوام بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ و هو تأكيد على أن قدرته قدرة هيمنة كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ...﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٥].

ما المانع في: [قل هو القادر أن يبعث ...]

اسمه تعالى القدير ورد مراراً في كتاب الله تعالى ولكنه ليس من الأسماء التسعة و التسعين. معظم الشواهد التي فيها اسمه القدير تجد فيها حرف (عَلَىٰ)، و لعلّ أهم هذه الشواهد صيغة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مثل الآية من البقرة ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. أول ما يخطر بالبال من معاني القادر أو القدير جَلَّجَلَالُهُ معنى القوة، بعبارة أخرى القدرة بمعنى الاستطاعة و خاصةً القوة على القيام بالأمر.

لو كان الأمر كذلك لكان اسمه القدير أو القادر مجرد مرادف لاسمه القوي، و هذا كما رأينا مراراً مرفوض في فهم أسمائه.

خذ جذر قدر، خذ قدّر هل تفهم القوة أم المقدار؟

طبعا المعنى الغالب هو الكمّ المقدار (القدّ) و هو مركز معنى الاسم.

كما أن اسمه القوي يعلمنا أن القوة كلها قوته بالشكل المطلق، فاسمه القادر يعلمنا أنه تسري إرادته في خلقه و قوته بالقدر اللازم و الكافي.

مما يؤكد الفكرة السابقة حول المقدار قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ ..﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٤].

إذاً قدرته هي جعل قوته بالقدر المناسب من غير إفراط ولا تفريط، و هذا الأمر يتطلب معرفة دقيقة لكلّ ما تسري عليه قدرته.

اسأل بطلاً في القفز و قل له: هل أنت قادر على أن تقفز فوق هذا الجدار، ما تجده يفعل؟

أول ما يفعله هو أن يقدّر ارتفاع هذا الجدار، إن وجده في حدود إمكانياته أجاب بالإيجاب، و إن وجده عند الحدّ الأقصى لإمكانياته طلب قياساً دقيقاً لارتفاع الجدار، عندئذ يجيبك بالسلبية أو الإيجاب.

إذاً، القدرة المطلقة تتطلب معرفة تامة و مطلقة بما سوف تجري عليه القوة و بالقدر المناسب.

يتضمن اسمه القدير أو القادر علماً تاماً بالشيء أو بالمخلوق و إدراكاً مطلقاً لكلّ خصائصه، فالاسمان إن جازت العبارة ذكاء و علم في توظيف القوة.

اسمه القادر على وزن فاعل غير القدير على وزن فعيل، و قد رأينا أن وزن فعيل يفيد أن الصفة بحدها الأقصى ظاهراً أو باطناً، أما وزن فاعل فيفيد المبادرة، و هو عكس السكون و الكمون.

وزن فاعل يفيد المبادرة و الانطلاق و التحكّم التام بالأمر. و بذلك اسمه القادر يعلمنا أنه هو الذي يبادر و يفعل من غير أن يدفعه إلى ذلك شيء بالاستقلال التام.

يدرك كلّ شيء تمام الإدراك ولا عجب إذ إنه هو الخالق و قد أوجد من العدم.

اسأل عالم فيزياء ذرية هل تتخيل شيئاً لا تحكمه طاقة ما؟ جوابه: لا أجد.

فالموجودات هو سبحانه الذي أوجدها من العدم بقوة منه و هو الذي أبقى عليها و هو أدرى بها، إذ لا عبثية في خلقه بل غاية محكمة هو أدرى بها.

فلا عجب بعلمه بالقدر المناسب للقوة لكلّ شيء، لإزالة أو إيجاد كلّ شيء.

عندما يسوح العبد متأملاً في آلاء اسمه القادر متأملاً في قدرته سبحانه في الأكوان و في الموجودات، ثم خروجاً من هذا التأمل يعود العبد لنفسه و لمجتمعه فهل يجد قادراً حقاً غير اللّه، أي عالماً علماً مطلقاً بالأمر و جاعلاً فيه قوة بالقدر المناسب، أم يجد أن القدرة للّه وحده فيتواضع و يتأجج قلبه تعظيماً لمظهر من مظاهر الألوهية فيجد نفسه و عقله منطلقين في آفاق لا نهاية عظمته.

هل تستوقف صغائر أمور البشر و تفاهاتهم عقل مؤمن ينطلق في هذه الآفاق؟!



اسمه تعالى المقتدر جَلَّجَلَالُهُ

(٠٧٠)

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٥].

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤١-٤٢].

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٢].

﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٥٤/ ٥٥].

*****

اسمه تعالى المقتدر جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ورد في كتاب الله في أربعة مواضع هي الآيات السابقة.

و يعتبر الاسم الشريف، خطأً، مرادفاً لاسميه القدير و القادر و كأن تغيير الصيغة تنويع لصياغة الأفكار تجنباً للتكرار كما يكون كلام أديب ينمق عباراته.

ما أبعد ذلك عن فهم صحيح لكتاب الله الذي كلماته كلمات من يقول: كن فيكون.

أكثر ما قيل في محاولة تفسير اسمه المقتدر أن وزنه مفتعل في زيادة بنائه دلالة على زيادة كماله.

في الكلام مغالطتان **أولاهما**: فكرة زيادة البناء دلالة على زيادة الكمال. هل المتحد أكمل من الواحد؟

ثانيهما: ادعاء زيادة الكمال في حق الله سبحانه جهل تام إذ إن كماله مطلق غير ناقص حتى يزيد.

سياق الآيات الأربعة التي تشرفنا بذكرها لا يساعد على تمييز معنى المقتدر عن معنى القادر أو القدير. فالسبيل إذاً يمرّ ولكن لا ينتهي بدراسة الوزن.

اسمه تعالى المقتدر على وزن مفتعل، يمكننا دراسة الوزن من خلال دراسة أمثلة:

خذ سمع، قل: سميع، و سامع و مستمع.

خذ نصر، قل: نصير، وناصر، و منتصر.

انظر في منتشر، و هكذا... تجد أن وزن فعيل في الأسماء الحسنى خاصة يفيد أن الصفة تجدها بحدّها الأقصى، ليست سطحية أو تقف عند الظاهر بل صميمية إلى أعماق الأعماق إن جازت العبارة.

أما وزن فاعل، و خاصة في الأسماء الحسنى، فهو يفيد التمكّن و القدرة التامة و المبادرة المستقلة التي لا يقف في وجهها شيء.

انظر في كلمة سميع تجد الصفة في حدّها الأقصى، قدرة تامة لم تظهر أو تخرج أو تتحرك بحدّها الأقصى.

انظر إلى كلمة سامع قدرة على المبادرة التامة.

انظر إلى كلمة مستمع تجد قياماً بالفعل و استمرار به.

بذا، يتجلى كمال حسن الاعتقاد و جلاء العقيدة للقدرة الإلهية من خلال الأسماء الثلاثة؛ فالقدير يشير إلى أن قدرته بحدّها الأقصى ظاهراً و باطناً بلا اختلاف. و القادر يشير إلى أن قدرته مطابقة لإرادته و لعلمه و حكمته يوجهها كيف و متى شاء بمبادرة مستقلة منه لا يؤثر فيها شيء.

أما اسمه المقتدر فإنه يشير إلى سريان هذه القدرة و استمرارها بلا انقطاع.

اسماء تعالى المقدم و المؤخر جَلَّجَلَالُهُ
(٠٧١) - (٠٧٢)

الاسمان ليسا من الأسماء القرآنية، الآيات الواردة على مستوى الجذر:

﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥﴾ [البقرة: ٢/ ٩٥].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ [البقرة: ٢/ ١١٠].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٢].

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢﴾ [النساء: ٤/ ٦٢].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٤].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾ [الأنفال: ٨/ ٥١].

﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨﴾ [هود: ١١/ ٨].

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾ [هود: ١١/ ١٠٤].

﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٠].

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢].

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٤].

﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ٦١].

﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٢].

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٧].

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ١٠].

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٦].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٠].

﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٦٠].

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥].

﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٨].

﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ق: ٥٠/ ٢٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٨].

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١١].

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٧].

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٢-١٣].

﴿ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ [النبأ: ٧٨/ ٤٠].



﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٥].

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٤].

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [نوح: ٧١/ ٤].

*****

اسماء تعالى المقدم و المؤخر جَلَّجَلَالُهُ:

لم يردا في القرآن الكريم إنما هما من أفضال سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أهل الإيمان.

الاسمان متلازمان متكاملان لذا نتعرف عليهما معاً.

تفسير الاسمين أشكل إلى حدٍّ ما على من قام بتفسير الأسماء الحسنى بسبب عدم وجود آيات توضح معناهما، و كذلك لعدم الخوض بموضوع التقديم و التأخير و مدلولاته، أعني أن مسألة التقديم و التأخير ليست من المسائل التي يخوض فيها المفكرون أو علماء الدين عندما يتناولون مواضيع العقيدة أو الشريعة.

لقد رأينا مراراً أن لترتيب الأسماء الحسنى في حديث التسعة والتسعين اسماً مدلولاً يساعد كثيراً في توضيح معاني كلّ اسم من الأسماء.

الاسمان الشريفان يأتيان بعد اسميه القادر و المقتدر، و اللذين بدورهما يأتيان بعد اسمه القيوم و هكذا...

يستدل من ذلك أن اسميه المقدم و المؤخر يوضحان جانباً هاماً من قدرته و هيمنته.

الاسمان الشريفان لا يشيران إلى ذاته بغض النظر عن خلقه مثل أسمائه العظيم أو الكبير أو القدوس سبحانه و غيرهم من الأسماء.

الاسمان يشيران إلى آثار قدرته على خلقه مثل الخالق المحي المميت التواب المنتقم الضار سبحانه، فكلّ هذه الأسماء الشريفة الواردة في المثال السابق تشير إلى أفعال لا تنطبق عليه سبحانه بل منه على خلقه. فالاسمان الشريفان المقدم و المؤخر يشيران إلى جانب من قدرته على ما أوجد و ما خلق.

فَهمُ الاسمين ضروري لاكتمال فهم هيمنته و قدرته.

لقد رأينا في ترتيب الأسماء المحي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر، قرب الاسمين من الواحد الأحد.

فالقاعدة: **ضرورة اختلاف خلقه عنه بصفات الألوهية فهو واحد و كلّ من سواه مركب، وهو أحد و كلّ من سواه متعدد، و هكذا لا بدّ من تقديم و تأخير في المتعدد من خلقه و ما أوجد.**

الاسمان الشريفان يشيران إلى أن ترتيب الخلق ليس تلقائياً و إنما مطابقاً لإرادته.

تكمن أهم معاني الاسمين في عامل الزمن الذي هو وحده الذي يسيطر عليه إذ إنه سبحانه منزّه عنه.

مرة ثانية الاسمان الشريفان يقطعان السبيل على العقل البشري الذي يخوض في مسائل الوجود و الإرادة الإلهية و يظن أن الأمور بعد إذ أوجدها سبحانه و جعل لها قوانينها صارت تسير من تلقاء نفسها إلى أن يوقفها سبحانه.

الاسمان الشريفان يشيران إلى أن كلّ ما يحدث، لا يحدث حتماً و إنما يحدث كما شاء سبحانه له يقدمه و يؤخره كيف يشاء، لا يعلم أحد من خلقه متى يكون.

انظر في موت الخلق، من يعلمه غيره بالدقة و الكمال؟ لا أحد سواه.

انظر في حديث المصطفى عندما قال:

«لا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ» [سنن الترمذي: ٢٠٦٥].

انظر إلى العزير عندما كان فتىً من كان يستطيع أن يحدد لحظة وفاته الأخيرة.

انظر إلى الفتية في الكهف عندما كانوا صبياناً من كان يستطيع أن يقول: إنهم سيموتون بعد أكثر من ثلاث مئة عام؟

انظر إلى ولادة سيدنا إسحاق و سيدنا يحيى، انظر في التقديم و التأخير في سيدنا عيسى، من كان يستطيع أن يتنبأ بكلامه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المهد.

انظر كيف رفع و أخر أمره إلى آخر الزمان.

انظر إلى الساعة لا يعلمها أحد من خلقه ولا حتى أنبياؤه و هم أهل النبوة أي الإخبار بماذا سيكون، لا يعلمونها ولا حتى الملائكة ولا حتى سيدنا جبريل عليه السلام، يقدمها سبحانه و يؤخرها كيفما شاء.

و هكذا يكمل الاسمان تكملة ضرورية لا غنى عنها حسن عقيدتنا في قدرته المطلقة و هيمنته الكاملة، لا يحكمها شيء ولا أمر ولا قانون هو أوجده، و إنما تتجاوز قدرته و هيمنته كلّ ما أوجد و يشمل ذلك حياة الإنسان، فكما يقدم و يؤخر سبحانه في كلّ ما أوجد كذلك يقدم و يؤخر في حياة كلّ عبد من عباده.

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٠].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

[إبراهيم: ١٤/ ٤٢].

اسماء تعالى الأول و الآخر جَلَّجَلَالُهُ

(٠٧٣ — ٠٧٤)

ورد الاسمان الشريفان في موقع واحد في القرآن الكريم:

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣].

﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤].

﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥١].

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٨].

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٤].

﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٣٦/ ٧٩].

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ [فصلت: ٤١/ ٢١].

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾ [ق: ٥٠/ ١٥].

*****

اسماء تعالى الأول و الآخر جَلَّجَلَالُهُ:

اسمه تعالى الأول من الأسماء القرآنية ورد في سورة الحديد.

الاسم الشريف كنز أساسي في العقيدة يقطع الطريق على أكبر المغالطات حول الألوهية و بنفس الوقت يفتح آفاق فكر ماورائي حقيقي.

اسمه تعالى الأول بكلّ بساطة يقطع الطريق على أسئلة مثل: «من خلق اللّه؟». و مثل: «كيف نشأ اللّه؟»، و مثل: «ماذا كان قبل اللّه؟»، و إلى آخر ما ذلك من أسئلة حيرت عقول البشر إلى حدّ أنه نُهي عن طرحها كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللّهِ وَلْيَنْتَهِ» [صحيح البخاري: ٣٠٣٤].

فالسؤال: «من خلق اللّه؟»، يتلاشى أمام اسمه الأول، فالخالق و الواجد سابق للمخلوقات والموجود. هو أول، أي لم يسبقه أحد بخلقه أو إيجاده. و هو أول، أي لم يسبقه شيء انطلق منه أو تكوّن منه.

بهذا يكون الاسم تنزيهاً له عن التبعية، و كذلك يكون الاسم دالّاً على الهيمنة إذ إن كلّ ما هو موجود لاحقٌ له و موجود بإرادته.

من جهة أخرى يفتح الاسم آفاقاً في الفكر الماورائي إذ يدعو العقل البشري إلى التجرد عن إسقاط نتائج تجاربه المحدودة من واقعه المحدود على كلّ شيء و يعممها.

فقد ألِفَ العقل البشري من واقعه أن لكلّ شيء مُسبباً و أن كلّ موجود مسبوق بآخر.

الاسم الشريف كما هو الحال بالنسبة لبقية الأسماء يُخرج العقل البشري من محدودية هذه الإسقاطات و يوجهه إلى آفاق أوسع عن الذات الإلهية، لن نثقل بتفصيلها ولكن نشير إلى وجودها بالنظر إلى ترتيب الاسم من بين الأسماء و علاقة هذا الترتيب بعدده و علاقة هذا العدد باسمه تعالى أحد و علاقة ذلك بشهادة لا إله إلا اللّه.

انظر كيف أن عدده: ٣٧ جوهره ١ أول الأرقام.

انظر كيف أن اسمه الآخر عدده ٨٠١ جوهره ٩ آخر الأرقام.

اجتماع الاثنان عشرة، الكمال.

كما أن اسمه الأول يقطع الطريق على مغالطات العقل البشري و يفتح آفاق فكر حقيقي، كذلك اسمه الآخر يقطع السؤال عن إمكانية وجود شيء بعده أو إمكانية أن يستبدل بنفسه غيره خَلفاً له و ما إلى ذلك من شطحات أهل الضلال.

اسمه الآخر جَلَّجَلَالُهُ يكمّل معاني التنزيه و الهيمنة التي رأيناها في اسمه الأول. إليك مثال للتقريب إلى الأذهان و للّه المثل الأعلى:

انظر إلى دائرة، انظر إلى أولها و اذهب به إلى آخرها هل من عجب أن يكون الأول و الآخر واحد؟

اسماء تعالى الظاهر و الباطن جَلَّجَلَالُهُ
(٠٧٥ - ٠٧٦)

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣].

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥﴾ [البقرة: ٢/ ٨٥].

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٠].

﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١].

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٣].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾ [التوبة: ٩/ ٤].

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾ [التوبة: ٩/ ٨].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٩/ ٣٣].

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٤٨].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٣].

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٨].

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٠].

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٢].

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٩٧].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٥].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ١٧].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٤٨].

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٦].

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٧].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٤١].

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٠].

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤].

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٦].

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٨].

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٢].

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٦].

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٩].

﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٨].

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٣].

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢-٣].

﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٩].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصف: ٦١/ ٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: ٦١/ ١٤].

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا

عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ [التحريم: ٦٦/ ٣-٤].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٦].

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٠].

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٣].

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٣].

*****

اسماء تعالى الظاهر و الباطن جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء القرآنية ورد مرة واحدة أول سورة الحديد.

أول ما يخطر بالبال من معان لتفسير الاسم هو معنى الظهور عكس الاختفاء، و هذا المعنى بحقّه تعالى محيّر، إذ إنه لا تدركه الأبصار، و قد جعل بينه و بين خلقه حجاب من نور كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [صحيح مسلم: ٢٦٣].

لذا لا بدّ من مراجعة الكلمات المبنية على مصدر ظهر في كتاب الله فنجد معنى الظهور عكس الاختفاء، و نجد معنى الظهر و البطن بمعنى الأمام و الخلف أو الأعلى من جهة و الجهة المعاكسة.

و نجد كذلك معنىً ثالثاً هو الغلبة و النصر و الهيمنة و هو معنى قد يغيب عن أذهان المعاصرين من المتكلمين بالعربية.

بناءً على ما سبق نجد أكثر المعاني توافقاً مع صفاته المعنى الثالث بمعنى الغلبة و الهيمنة و السيطرة التامة.

إن كان الأمر كذلك فما أشبه الاسم باسمه المهيمن، و قد سبق مراراً أن رأينا استبعاد تكرار المعنى في الأسماء الحسنى.



إن كان معنى اسمه الظاهر محصوراً بمعنى الغلبة و النصر و الهيمنة فإن ذلك يشكل بمقابلته ـ كما هو الأمر في الآية الكريمة ـ باسمه الباطن.

لا يمكن التملص من هذه المقابلة فهي جلية و واقعة بعد مقابلة أخرى رأيناها في اسميه الأول والآخر.

أخذاً بالمعنى الثاني كما رأينا في الظهر و البطن و بحثاً عن حقيقة المعنى، نجد معنى الخلف و الأمام أو بمعنى أقصى جهة من جهة إلى أخرى.

هذه المعاني هي الأكثر انسجاماً مع اسميه الأول و الآخر، فقد رأينا أن الأول جَلَّجَلَالُهُ لم يسبقه شيء أو أحد و لن يأتي بعده شيء أو أحد.

نجد في هذه الحقيقة عامل الزمن و هو سبحانه منزّه عنه فلا يمكن للزمن أن يكون قبله إذ إنه الأول جَلَّجَلَالُهُ لا شيء قبله، ولا يمكن أن يكون الزمن بعده لأنه الآخر جَلَّجَلَالُهُ لا شيء بعده.

و هكذا نجد أن اسميه الظاهر و الباطن منسجمان، مكمّلان للأول و الآخر: إذ لا شيء أبعد أو أعلى أو خلف الله ولا شيء ولا أحد أبعد في الاتجاه المعاكس.

و هكذا يكون معنى الاسمين إحاطة بالجهات و هو منزّه عنها كما كان الأول و الآخر إحاطة بالزمن و هو منزّه عنه.

هذا المعنى الأساسي من حيث الإحاطة التامة و القصوى بالجهات لا ينفي بل يشير إلى معنى الهيمنة و الغلبة و كونه مهيمن مسيطر على كلّ أحد و كلّ شيء؛ فهو عليم به كلّ العلم لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن. يؤكد ذلك تتمة الآية الكريمة ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣].

ألا يذكرك ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩]، و هذا الشاهد من البقرة منسجم أيما انسجام مع تتمة الآيات من سورة الحديد ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

للتحقق بالأسماء السابقة استشعار لعظمة الله اللامتناهية، التي تتلاشى أمامها نفوس العباد و كلّ شيء.

بهذه العبودية يصير الواعي للأسماء السابقة و المتحقق بمعانيها يراقب الله في أموره كلها و يعمل أولاً على اجتناب المعاصي و الآثام ما ظهر منها و ما بطن، و من ثم يعمل على صلاح أمره و دينه ظاهراً و باطناً. فما أبعد المؤمن بالأسماء من السطحية و كم هو مدعو للصدق و لتفكر.



﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦].

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٠].

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٢].

﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣٣].

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٠].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٥١].

﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣٠].

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٤].

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ١٣].

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ



إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨].

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١١].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٥].

﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [التحريم: ٦٦/ ٢].

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٦٦/ ٤].

*****

اسمه تعالى الوالي جَلَّجَلَالُهُ:

لم يرد الاسم صراحة في كتاب الله و إنما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

عبارة «وَالٍ » من الآية السابقة في سورة الرعد على نسق قوله تعالى: ﴿...مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٧]، و قوله من سورة غافر: ﴿...فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾﴾. هل نعتبر عبارة واق اسماً من أسمائه في الآيتين السابقتين؟

اسمه تعالى الوالي ضروري للمسلم المعاصر الذي تتمركز نظرته للإسلام و للإرادة الإلهية حول جهوده الشخصية و في دائرة محدودة و فردية من عبادات و معاملات و حدٍّ أدنى من أخلاقيات.

ذاك المسلم المعاصر يصير مفهومه عن دور الإسلام في المجتمع ضبابياً أو غير موضوعي، ذاك المسلم إن وجدته يحمل مفهوماً عن عالمية الإسلام و دوره في القضايا الكبرى فسوف تجد ذاك المفهوم أكثر من ضبابي، يتخبط بالحيرة و الإبهام و سطحية المعلومات المتداولة و المطروحة للعوام في كافة أجهزة الإعلام.

أكثر ما يعاني منه المسلم حالياً أنه محكوم من قبل أناس لا يعلم تماماً كيف نُصِّبوا، لا يعلم حقيقة حكمهم، و غالباً ما يرى أن من يحكمونه محكومون من قبل من نصَّبهم و ولاهم.

يغرق المسلم المعاصر إن نظر إلى ما ذكرناه في الحيرة و الإحباط و اليأس، و هذا شأن المسلمين من أبسطهم إلى علمائهم و مشايخهم المعاصرين.

و الواقع أن هذا الإحباط و اليأس ليس سوى جزاء تجاهل حقيقة الهيمنة الإلهية المتجلية في اسم من أسمائه. ذاك المسلم المعاصر يحسّ بالإرادة الإلهية في عباداته و دعواته و همومه و حاجاته، و كذلك في المحرمات المنصوص عنها في الشرع. إحساسه بالله يضمحل عندما ينتقل إلى دائرة المجتمع و كل ما يحدث فيه، ذاك الإحساس يتلاشى عندما ينتقل إلى دائرة العالم، إذ تجد في قرارة نفسه و قناعاته أن كلّ ما يحدث على الصعيد العالمي نتيجة قوى و تحالفات و مصالح تأخذ مجراها بغياب الإرادة الإلهية.

ما أندر المسلم الذي يرى الإرادة الإلهية في استلام فلان من الناس الحكم في بلد من البلاد.

السبب في ذلك فجوات كبيرة في التربية الإسلامية و في العقيدة، ينتج عنها مفهوم سطحي و ساذج، و لنقل طفولي، عن الإرادة الإلهية.

الواقع أن سواد المسلمين في علاقاتهم الشخصية مع الله يتعاملون معه كما يكون الابن المدلل مع والده أو جده.

و هكذا، يعتبر ذاك السواد الأعظم من المسلمين أن الله يجب أن يكون منحازاً للمسلمين مهما فعلوا. و أنه يستحيل أن تجري الإرادة الإلهية فيما لا يتوافق مع ظاهر مصالح المسلمين الآنية، بذلك يستحيل في عقولهم تدخل إرادته فيما يرون مما يحدث في العالم.

انظر إلى اللفتة الكريمة منه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو الصادق في قوله: «كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُم» [رواه الديلمي في مسند الفردوس، ورواه البيهقي].

فقد ذكر لي: أن أحد الصالحين المجاورين لقبر الرسول الأعظم ساءه ما يكابده المسلمون في إحدى الدول الإسلامية، فعزم على السفر إلى تلك الدولة لنصح القائمين عليها بالكفّ عن أذاهم و طغيانهم و تنكيلهم بالعباد. فرأى في الرؤيا أنه يقبل على المسؤول الذي همّ بمقابلته و يقف ما بينهما حاجز، تكررت الرؤيا ثلاثاً، و في الثالثة سمع صوتاً يقول: ولّيناه عليهم بما ظلموا.

لقد أشار عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إشارة أخرى كريمة في دعائه: «وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا» [سنن الترمذي: ٣٤٢٤].

كان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خُلقه القرآن، أي إنه متمثل له لا يغيب عن باله، انظر الآن إلى قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١ ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

هل يستطيع المؤمن تجاهل اسمه تعالى المهيمن؟

هل يستطيع المؤمن تجاهل قوله تعالى و كلّ ما فيه من جلاء و بتّ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؟ قطعاً لا قوة إطلاقاً كما لا إله إطلاقاً إلا اللّه. أليست الجملتان متطابقتين؟

عملاً بذلك وعياً بهيمنته سبحانه و بانعدام أيّ قوة غير قوته يستحيل أن يجري أمر من تلقاء نفسه أو خارج إرادته هو الوالي سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، هو الذي يولّي من يشاء و الأمر كله بيده.

حقيقة بسيطة ولكن أساسية، إن عمل بها المسلم لا يهيم فكره في الحيرة مما يرى ولا يضيع عزمه في اليأس و الإحباط، لأنه إن رأى ثمة من أخذ منصباً ممن لا يستحسن فإنه يرى في ذلك تنبيهاً من اللّه لذنوبه و تقصيره، فيعمل على إصلاح أمره عالماً بأن من ولّى الظالم قادر على عزله.

في الأخذ بالاسم كما رأينا وعيٌ و إحساسٌ بالمسؤولية و حثٌّ على الصلاح و الإصلاح و ما أبعد ذلك عما يجري من تارك الاسم من ذل المتفرج المهزوم المحكوم.

اليقين بالاسم أساس في عقيدة المسلم، إذ إنه لن ينحني لغير اللّه طلباً لمنصب، و ما أذلّ صاحب المنصب أمام من ولاه.

كيف لمسلم أن يكون عزيزاً و حاكمه محكوم ذليل أمام من ولاه؟

انظر في ذاك القانون الذهبي: [طالب الولاية لا يولى] وهو من قوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ» و قوله: «إِنَّا لَا نُوَلِّي هَذَا مَنْ سَأَلَهُ وَلَا مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ» [صحيح البخاري: ٦٦١٦ – ٦١٣٢].

شرط التحقق باسمه الوالي التحقق أولاً باسمه الولي كما رأينا و باسمه المولى.

انظر ترابط الاسمين الشريفين في كتابه الكريم باسمه النصير.

تأمل في ذلك وتفكر.



اسمه تعالى المُتَعال جَلَّجَلَالُهُ

(٠٧٨)

من الأسماء القرآنية ورد الاسم مرة واحدة في الآية الكريمة:

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ ﴾ [الرعد: ١٣/ ٩].

على مستوى الجذر:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٠].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٠].

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ ﴾ [يونس: ١٠/ ١٨].

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ ﴾ [النحل: ١٦/ ١].

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ ﴾ [النحل: ١٦/ ٣].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤ ﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤].

﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٩٢].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٦].

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٣].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٨].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٠].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٧].

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٣].

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١].

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٩٢/ ٢٠].

*****

اسمه تعالى المتعال جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ من سورة الرعد.

أول ما يلفت النظر في الآية الكريمة اقتران الاسم الشريف باسمه الكبير جَلَّجَلَالُهُ.

و قد ورد اسمه العليّ مراراً مقروناً باسمه الكبير. و في ذلك تحقيق للمعنى و المقصد في النص القرآني الشريف، و كذلك من جهة أخرى تيسير للذكر و للتدبر.

انظر إلى اسمه الكبير و ما ذكرناه بصدده من معنى لا يتعرض للحجم ولا للكمّ، و إنما للحدّ الأقصى للصفة و للأهمية كما رأينا.

و انظر إلى اسمه المتكبر و ما ذكرناه بصدده من مشيئته في الترفّع و جعل حجباً و حواجز بينه و بين خلقه. هكذا ترى المعنى في اسمه المتعال مع العلي كما نظرت إلى الكبير و المتكبر. فقد رأينا المقصد من اسمه العلي و من اسمه الكبير و رأينا المتكبر، و الآن نقبل على اسمه جَلَّجَلَالُهُ المتعال.

جليٌّ أن المقصد الأول من الاسم تبيان مشيئته بالترفع و التعالي، فهو العليّ، إن آمن العبد بذاك الاسم فقد يشطح عقله و يجنح إلى إمكانية تنازله سبحانه و تواضعه إلى حدّ، كما ذهب بعضهم، أنه سبحانه أرسل ابنه و هو على زعمهم إله مثله ليتمثل لها بشراً و يعيش بين البشر و يأكل مثلهم و يحسّ ما يحسون به و يُصلب رحمة بهم.

انظر إلى ما يمكن للعقل البشري أن يذهب به من شطح في فكرة هبوطه و تنازله و تواضعه.

الاسم الشريف يقطع الطريق على هذه الأوهام قطعاً تاماً و صريحاً. قد يتبادر إلى أذهان البعض شيء من الاعتراض على فكرة التعالي السابقة من خلال ما ورد في الحديث الشريف عن نزوله إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل.

نزوله أو دنوه ليس تواضعاً أو تذللاً و إنما قرب من القريب، و هو المنزه عن المكان، فنزوله بذلك مجازي. و هو كذلك منزه عن الزمان.

انظر كيف يغيب عن أذهان معظم من سمع بالحديث أن نزوله إلى السماء الدنيا في السَّحَر متواصل في دوران الكرة الأرضية.

توضح معنى اسمه المتعال بقوة و جلاء الآيات الكريمة التي ورد فيها فعل تعالى و من تعالى إلا المتعال.

فالآيات الكريمة هي مرجع فهم و شرح اسمه المتعال.

﴿... سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٠]، ﴿... فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٠]، ﴿... سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: ١٠/ ١٨]، ﴿...تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾ [النحل: ١٦/ ٣]، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ ...﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤]، وخاصةً قوله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾ من سورة الإسراء.

مرة ثانية نجد اقتران العلو و الكبر كما في العلي و الكبير و المتكبر و المتعال.

هذه الآيات السابقة توضح جانباً هاماً للغاية و مهملاً من معاني اسمه المتعال، إذ ترى في الآيات السابقة تنزيهه سبحانه عما يصف المغرضون، و أهم ما نرى هو تعاليه في الردّ عليهم.

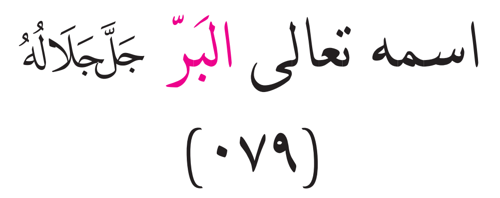
سُبۡحَانَهُ‌وَتَعَالَىٰ هادي يمنح البشر فرصة التوبة و الرجوع إلى الصراط المستقيم، ولكنه لا ينزل سبحانه في مجابهة مع من يتعرض لذاته سبحانه و إنما يتعالى عن ذلك. تجد السموات و الأرض تكاد تتفطر مما يقولون ولكنه يتعالى عن التنكيل فيهم.

انظر لم يرد عقاب إلهي دنيوي للشرك أو للتعرض لذاته هو سبحانه، و إنما حيثما نظرت في القرآن تجد العقاب يحلّ في الظالمين عقاباً لما يقومون به في العالم المادي.

أوضح مثال على ذلك قوم لوط و قوم فرعون، انظر إلى قوم صالح ما حلّ بهم العذاب إلا بعد أن عقروا الناقة. انظر إلى بني إسرائيل ما حلّ عليهم الغضب في سيناء إلا بعد استبدالهم بالأعلى الأدنى في طعامهم. و هكذا، و لك أن تتابع الأمثلة في القرآن الكريم.

لا تجد عقاباً دنيوياً لقوم أشركوا أي إن ظنهم بالله و عقيدتهم و مفهومهم عن الألوهية كان خاطئاً. فسبحانه يتعالى عندما يكون الأمر متعلقاً بذاته أن يردّ أو يجابه الذي يتعرض له تاركاً الأمر إلى يوم القيامة، كما روي عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: (النَّاسُ نِيَامٌ إذا مَاتُوا انْتَبَهُوا) وهو على نسق قوله تعالى: ﴿...فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٢٢]، عندئذ يقول: ﴿...نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ...﴿٥٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٢] يومئذ و قد رأى المشرك الحقيقة فنفسه تكفيه حسيباً ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٤]. كم هذه الحقيقة مرعبة و ما أرفعه و أعلاه جَلَّجَلَالُهُ في كبريائه أن يتنازل و يردّ على خلق وصفهم بقوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ...﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٧].

الاسم الشريف بذلك يكون جواباً على ما يراود عقول المسلمين من تركه لكثير من خلقه المشركين لا يعاقبهم على شركهم ولا تظهر آثار غضبه عليهم في الدنيا و إنما يترك أمرهم إلى الآخرة. و في ذلك تصحيح جذري لنظرة المؤمن و ما يعتريها من سذاجة عندما يقول له أحدهم: «ها أنا أشتم الله أمامك ولا يحدث شيء. أين هو؟». و هذا الموقف قد يزعزع ضعاف النفوس كما تزعزع رؤية المشركين و هم في الظاهر و في الدنيا، و ما أقصرها، يوماً أو بعض يوم في أحسن حال.



الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ورد في موقع واحد في القرآن الكريم:

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٢٧-٢٨].

على مستوى الجذر:

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٤].

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢].

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٣].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٢].

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٩/ ١٤].

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٣٢].



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٩].

﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٨].

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٥].

﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس: ٨٠/ ١٣-١٦].

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٣].

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٨].

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المطففين: ٨٣/ ٢٢].

*****

اسمه تعالى البرّ جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء القرآنية ورد مرة واحدة في قوله تعالى من سورة الطور: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور: ٥٢/ ٢٨]. الآية الشريفة تساعد كثيراً في توضيح معنى الاسم الشريف و تدقيقه. فالشائع بتفسير البرّ هو الإحسان و هو صواب، ولكن لا يقف الأمر عند هذا الحدّ فيكون اسمه تعالى البرّ كالمحسن.

لعلّ ما ورد عن سيدنا يحيى و عيسى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ في برهما لوالديهما دوام الإحسان و الإخلاص فيه و الوفاء خاصة و هو عين المعنى. فيصير بذلك اللّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وفياً بوعوده بالإحسان لعباده، و كذلك الدوام في ذلك الإحسان. فكما رأينا الآية الكريمة ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ كلام أهل الجنة شهود منهم كانوا يدعونه فما خاب أملهم و وجدوه براً بالإحسان صادق الوعد مخلصاً مستمراً في العطاء و الجود و الإحسان بلا انقطاع.

هذا الوفاء و الإخلاص و الاستمرار في العطاء يميّز البرّ عن المحسن.

أضف إلى ذلك وزن الاسم (فعْلّ) يفيد الحزم في الفعل و كمال الصفات، و هو أقوى بكثير من مُفْعِلْ.

باء البرّ حرف بسط أي اتساع و انتشار، و الراء منه حرف حركة و سرعة و مبادرة. لاحظ أنه مشدّد، أي بالحقيقة مكرر. مفاد ذلك أن إحسانه لا حدود له و هو متصف بالمبادرة أي بالابتداء و

السبق و بالسرعة، أي إنه السابق بالإحسان المتواصل لعباده و السريع في الثواب على ذلك الإحسان و ردّه على إحسان عباده إحسانٌ يليق بعظمته و يتصف بصدق وعده و بدوام فضله.

فما ينتظر العبد و قد علم ذلك أن يبادر للإحسان و يكون فعّالاً فيه و يكون خاصة وفياً ملتزماً به و مخلصاً فيرى من عطاء البرّ الرحيم ما بشرنا به في سورة الطور.

الاسم الشريف كبقية الأسماء الحسنى في حديث التسعة والتسعين يساهم في عملية التوازن في مفهوم العبد عن اللّه و حسن ظنه به، فقد ورد تالياً لاسمه المتعال و كلّ ما في هذا الاسم من جلال و كبرياء و ترفّع قد يقطع أمل العبد بربٍّ متعال.

الحق أنه يتعالى عمّن أشركوا و كفروا به، ولكنه برّ بالأبرار، فماذا ننتظر للحاق بهم؟

الأمر طبعاً ليس بالتمني بل بالرجاء و المبادرة بحسن العمل و الإحسان و خاصة المثابرة و الوفاء بذلك.

اسمه تعالى التواب جَلَّجَلَالُهُ

(٠٨٠)

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧].

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٨].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٠].

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ٦٤].

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٤].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١٨].

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ١٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٢].

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١١٠/ ٣].

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٢].

*****

اسمه تعالى التواب جَلَّجَلَالُهُ:

تناول الاسم الشريف مناسبة لتوضيح و تدقيق معانٍ قد لا تكون واضحة و دقيقة في أذهان معظم المسلمين: العفو، التوبة و المغفرة.

المغفرة كما سبق و رأينا في اسميه الغفور و الغفار تتلخص بإيقاف و إزالة و إفناء الآثار السلبية و المتفاقمة و المتضاعفة للذنب، أو بعبارة أقرب لأذهان المعاصرين الخطأ.

فكلّ خطأ يترتب عليه سلسلة متفاقمة من النتائج و الآثار السلبية، لا يستطيع أحد إيقافها، أو إزالتها، و إفنائها غير الله.

لاحظ في كتاب الله مفهوم المغفرة مرتبط مباشرة لا بالعبد بل بالذنب مثل: ﴿... **وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**... ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٥]، ﴿**غَافِرِ ٱلذَّنبِ**... ﴿٣﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٣].

فحيث نظرت في القرآن تجد أن المغفرة متعلقة بالذنب و لو كان ذلك ضمناً، ﴿... **وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ**... ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١٨] ضمناً ذنوبهم.

أما العفو فهو قرار بعدم المحاسبة ولا المعاقبة من غير مبادرة من المذنب أو الظالم و إنما بمحض الكرم و الرحمة من العفوّ.

أما التوب و التوبة فهي مشروطة، ولا بدّ من مبادرة من المذنب أو الظالم و تعهد و التزام من جهته عدم المعاودة إلى الذنب أو الخطأ فيكون مقابل ذلك تعهد من التواب بعدم المحاسبة و العقاب. و بذلك يكون التواب جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يتعهد بعدم محاسبة أو معاقبة عبده إن العبد تعهد بعدم الرجوع إلى الذنب أو الخطأ.

أول ذكر للاسم الشريف كان في بدايات سورة البقرة عن سيدنا آدم عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ**أول** البشر، قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧].

أول ورود للكلمة في كتاب الله هام و ذو مدلول. نرى أن أول ورود لاسمه التواب في كتاب الله مقرون باسمه الرحيم. مستفتحاً آيات كثيرة نجد فيها اسمه التواب متبوعاً بالرحيم إلا مرة واحدة نجد التواب متبوعاً باسمه الحكيم، و مرة واحدة نجد الاسم مفرداً. لا نجد اسمه التواب لاحقاً لاسم آخر فرضاً (الرحيم التواب)، و هذا الترتيب في الأسماء في الآيات فيه دقة في المعنى. بالعودة إلى شاهد سيدنا آدم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ما المانع أن تكون الجملة بصيغة إنه التواب الرحيم؟ إنه هو، أي أنه وحده، التواب الرحيم أي التواب رحمة منه. و كذلك التواب لأنه رحيم. لو كانت الآية الرحيم التواب لكان المعنى أنه رحيم لأنه تواب، لأول وهلة قد يقال: و ما المانع؟

ولكن بشيء من التفكير نجد أن الرحمة ليست جانباً من التوبة بل التوبة جانب من الرحمة ولذلك قال سبحانه: ﴿..ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

هذا ما قصدت به الدقّة بالمعنى.

اسمه التواب يحوي على واو الود كما هو الحال في اسمه الغفور. انظر إلى الآيات حيث ورد اسمه الغفور تجده متبوعاً بالرحيم أو الودود أو الحليم، و ما أرق هذه الآيات.

كذا الأمر لواو اسمه العفوّ جَلَّجَلَالُهُ.

اسمه التواب، إضافة إلى ذلك، على وزن فعّال مثل اسمه تعالى الغفار الذي يشترك معه بالألف، بالإضافة إلى واو الود في التواب نجد الألف بما في ذلك الحرف من هيبة و جلال و عظمة كما في اسمه الغفار.

هل تجد اسمه الغفار مع اسمه الرحيم أو الودود؟ لا تجد، بل تجده مع العزيز.

انظر الى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ [ص: ٣٨/ ٦٦]﴾، انظر إلى الفارق الشاسع بين الرقّة و الرأفة و الود في الآيات التي ورد فيها اسمه الغفور، و الهيبة و الخشية و الجلال في الآيات التي ورد فيها اسمه الغفار.

بذلك يكون اسمه التواب قد حوى على ما يشير إلى سرّ في الأسماء الثلاثة: العفو و الغفور من جهة و الغفار من جهة أخرى.

شاهد سيدنا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أساسي في مسألة مفهوم التوبة، فثمة قَدَرٌ يتمثل بمجموعة من الظروف منها عدم وعي العبد لخطورة ما يقوم به فيخطئ. ﴿ .كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٤].

رحمة من الله الذي قدّر ما قدّر، يجعل للعبد مخرجاً إذا أدرك و فهم و وعى للخطأ فيتركه عائداً إلى الله الذي رحمة منه لا يحاسبه ولا يعاقبه إن لم يعد.

إن تأمل المرء في المسألة فقد تصيبه الحيرة فيقول: لِمَ قُدِّر عليه أن يحاط بظروف تدفعه إلى الخطأ و يخطئ و يفتح له باب التوبة؟ لِمَ لم يجنب بقدر آخر هذه الجولة؟

الجواب: أن الإنسان الذي يمرّ بهذا القدر و تنفتح له أبواب الرحمة و التوبة يتعرف على الكثير و يتعلم الكثير و يفهم الكثير، و خاصة أنه يلين قلبه و يتواضع و يتأجج حباً و امتناناً للذي تاب عليه فيصير مميّزاً للخطأ و الصواب مدركاً لما في الذنوب من وحشة ظلام البعد عن أنس أنوار رضا الله، فيزداد تعلقاً بالله بعد إذ أدرك تلك الوحشة، و يصير واعياً لما في الذنوب من أهوال و يصير صادقاً متأججاً في دعوته غيره من العباد لترك الذنوب و المعاصي.

عندما ادعى بنو إسرائيل أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات فإن الله أقام حجته عليهم أن طلب منهم مجرّد تمني الموت لا أن يقتلوا أنفسهم، و ما فعلوه، هل يستطيع أحد أن يدّعي أنه لن تمسه النار؟ ألم يقل سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٧١].

انظر كيف أنه سبحانه وصفها بقوله: ﴿حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨]، أي إنها حصار من كلّ الجهات.

إن أدرك المرء ذلك و كان على نهج سيدنا أبي بكر رضي الله عنه والذي روي عنه أنه قال: (والله لو أن إحدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله؛ لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرون) و هو على رأس المبشرين بالجنة. إن أدرك العبد ذلك و رأى نفسه صائراً بذنوبه إلى الجحيم، محاصراً بها من كلّ الجهات، لا يرى مخرجاً إلا باباً هو باب التوبة فما يفعل؟

انظر كيف أن باب التوبة يُغلق في الدنيا بطلوع الشمس من مغربها، إذاً لا توبة في الآخرة. فمن يترك التوبة إلا ضالٌّ هالك؟

هل يعود عاقل إلى حصار الجحيم بعد إذ خرج بالتوبة؟

اسمه التواب في باطن معانيه يشير بجلاء إلى الآخرة و يوم الحساب، و يقدّم بذلك كنذر لتاركه إلى الاسم الذي يليه: المنتقم جَلَّجَلَالُهُ.

*****

ملاحظة على اسمه تعالى التواب جَلَّجَلَالُهُ:

موضوع يدرس: الفرق بين العفو والمغفرة و التوبة وعلاقتها باسمه التواب سبحانه.

اسمه تعالى المنتقم جَلَّجَلَالُهُ

(٠٨١)

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٥].

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٦].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٧].

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٩].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٢].

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٧].

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٤-٢٥].

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤١].

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٥].

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ١٦].

اسمه تعالى المنتقم جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء الحسنى القرآنية، فقد ورد ثلاث مرات بصيغة الجمع، مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ١٦].

قبل تناول معنى الاسم الشريف لا بدّ من لفت النظر إلى بعض النقاط و التدقيق فيها:

أولها، أن الاسم الشريف قد أنكره البعض مقترحاً أن يستبدل به «ذو انتقام» معتبرين الصيغة اسماً. و ذلك لسببين أولهما أن الاسم الشريف لم يرد صراحة في القرآن الكريم، ثانيهما أنهم اعتبروا أن صيغة «منتقم» لا تليق به و رجّحوا عليها صيغة «ذو انتقام» على أنها لائقة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الواقع أن فكرة الانتقام بحدّ ذاتها أشكلت عليهم، إذ أسقطوا التصور و المفهوم البشري للكلمة على الذات الإلهية. فأشكل عليهم الأمر و اضطروا لترجيح «ذو انتقام» لعدم قدرتهم إنكار هذه الصيغة لوجودها صراحة في كتاب الله.

لا يمكن اعتبار «ذو انتقام» اسماً بالقياس مع «ذو الجلال و الإكرام» أو مع «ذو القوة» أو «ذي الطول» جَلَّجَلَالُهُ. السبب و الدليل أن صيغة «ذو انتقام» وردت على الدوام و عبارة «انتقام» نكرة، خلافاً لما يرد في ما رأينا من أسماءٍ.

و كذلك لا نجد صيغة «ذو الانتقام» أو «ذي انتقام» **إلا** لاحقة لاسمه العزيز جَلَّجَلَالُهُ. فيكون بذلك الاسم لا «ذو انتقام» بل «عزيز ذو انتقام».

إذاً اسمه تعالى المنتقم حقاً من أسمائه تدعمه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٢].

هذا الشاهد الكريم كغيره من الآيات حيث نجد فكرة الانتقام بصريح العبارة إما اسماً مثل: «منتقمون»، أو فعلاً مثل: «فانتقمنا». المعنيّ يثير **النقطة الثانية** التي نريد لفت النظر إليها من غير الخوض فيها كونها من المسائل الدقيقة في القرآن الكريم:

هذه النقطة هي كون جميع الشواهد المماثلة حيث نجد فكرة الانتقام صراحة اسماً كلها بصيغة الجمع.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٢].

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤١].

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ١٦].

كذا الأمر بالنسبة لجميع الشواهد حيث نجد فكرة الانتقام صراحة كفعل، كلها بصيغة الجمع، عدا شاهد إثم الصيد للمسلم الحاج المحرم.



﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٦].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٩].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٧].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٥].

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: ٥/ ٩٥].

معنى المنتقم لغة: قريب المنال لا لبس فيه واضح لكلّ من يتكلم العربية. يبقى أن ندقق المعنى لأن الأمر كما رأينا مراراً يتعلق بحسن الاعتقاد.

الفارق الأساسي بين انتقام المخلوق و انتقام الخالق، أن الخالق هو الذي أوجد الظالم و هو الذي سبق في علمه ما يكون و هو خاصة عزيز؛ أي كما فصّلنا لا يؤثر فيه شيء و هو كذلك حكم و عدل و لطيف و رؤوف و ما إلى ذلك من صفاته جَلَّوَعَلَا.

انتقامه لا يكون إلا لانتهاك حرماته. فقد رأينا عندما تناولنا اسمه المتعال أنه لا ينتقم ولا يثأر لنفسه.

أهم فكرة في اسمه المنتقم الفارق بين العقاب و الانتقام الإلهي في الدنيا.

العقاب في الدنيا قد يكون كفارة للذنب، انظر فيما يحلّ من بلاء في العباد، قد يكون إما تكفيراً لذنوبهم أو رفعاً لدرجاتهم، انظر في حدّ الزنى أو السرقة أو القتل كعقاب يكفر عن الذنب.

الفارق الأساسي بين العقاب و الانتقام، أن الانتقام لا يكفّر الذنب و دليل ذلك الشواهد القرآنية.

بذلك يكون اسمه المنتقم جَلَّجَلَالُهُ نذر و وعيد من الذي يمهل ولا يهمل لكلّ من ينتهك حرماته، و كذلك تخيير و هداية منه سبحانه الذي قال: ﴿... فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ... ٢٩﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩]. وضعنا أمام بابين أحدهما يقود إلى التواب و الثاني يقود إلى المنتقم. هل يحتاج الأمر إلى تردد و تفكير، أم أنه جليّ؟

ملاحظة على اسمه تعالى المنتقم جَلَّجَلَالُهُ:

المنتقم الحق هو الله وحده ولا أحد غيره لأن كل الأسماء توحيد ولا أحد غيره ينتقم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

اسمه تعالى العَفُوّ جَلَّجَلَالُهُ

(٨٢)

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٤٣].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٩٩].

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٩].

﴿ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٠].

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢].

على مستوى الجذر:

﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٢].

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا

تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦].

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤].

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٢].

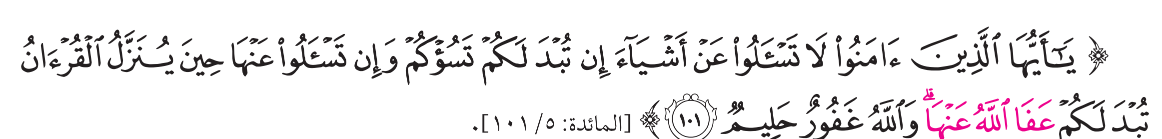
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٥].

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩].

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٥٣].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٥].


﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠١].

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩].

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

[التوبة: ٩/ ٤٣].

﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ التوبة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٥].

*****

اسمه تعالى العفو جَلَّجَلَالُهُ:

سبق و رأينا عندما تناولنا اسمه التواب جَلَّجَلَالُهُ المفهوم الأساسي لاسمه العفوِّ و الفارق بين المغفرة و التوبة و العفو. فقد رأينا أن العفو هو عدم محاسبة على الخطأ من غير موقف أو مبادرة من المذنب أو الظالم.

في حال العفو يكون المذنب أو الظالم، نفسه أو غيره منتظراً، متربصاً، متوقعاً محاكمة من بعدها عقاب، فيجيء العفو لا كأمر حتمي أو متوقع، بل كأمر يكاد يكون مستبعداً.

إذ لا علاقة بين الخطأ أو الذنب و ما يترتب عليه من عقاب أو قصاص، و بين العفو الذي هو قرار حرّ من جهة صاحب الحق. عندما يكون من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فهو بمحض الكرم و الرحمة. و هو أدرى بسرائر خلقه. و العفو عندما يكون من العبد و عندما يكون في محله فهو في ظاهره من كرم خُلقه وفي باطنه و حقيقته رجاء و افتقار للعفو جَلَّجَلَالُهُ.

عفو العفوِّ جَلَّجَلَالُهُ في محله إذ إنه العليم الحكيم جَلَّجَلَالُهُ و هو محض كرم و فضل، أي عطاء بلا استحقاق و بلا مقابل. و هو محض رحمة، أي عدم محاسبة على قدر الطاقة و الاستطاعة بل أقل من ذلك بكثير، و عدم تحميل على قدر الطاقة و الاستطاعة، و رأفة و تسامحاً.

انظر إلى اسمه العفو كيف ورد في الأسماء من بعد المنتقم، كما ورد من قبله البرّ من بعد المتعال. ورود اسمه العفو بعد اسمه المنتقم يتماشى و يؤكد ما ذكرناه من انتظار و تربّص و توقع المخطئ للقصاص و العقاب، و كيف يأتي العفو كإمكانية مستبعدة، نجد ذلك في تتالي اسميه

المنتقم و العفو. انظر إلى اقتران الانتقام و العفو في شاهد واحد من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٥].

انظر إلى ورود اسمه تعالى العفو في كتابه الكريم في مواضع خمسة، واحد منها متبوع باسمه القدير، و في الأربعة الباقية متبوعاً باسمه غفور. و قد رأينا الفارق الكبير بين اسميه الغفور و الغفار، فكما يرد الغفار مع العزيز من بعد الواحد القهار، فإن الغفور يرد مع الودود و الحليم، فما أنسب اسمه الغفور باسمه العفو.

ورود اسمه الغفور بعد العفو يوجب تذكّر الشواهد الكريمة حيث ورد اسمه الغفور. تذكّرُ اسمه الغفور يوجب تذكّر اسمه الغفار. لذلك تحصل المقابلة و يتميز المعنى و يتوضح الفارق بين الغفور و الغفار. انظر كيف ورد اسمه الغفور مع اسمه الودود.

ما يميّز اسمه الغفور عن اسمه الغفار حرف الواو الذي تجده صريحاً و بشكل استثنائي مكرراً في اسمه الودود جَلَّجَلَالُهُ.

ما أخشن ذهن الذي لا يرى معنى ذلك بجلاء، و يفهم أن الواو في هذا الموضع رمز للحب و الود، فهو يغفر لأنه ودود، و هو رحيم لأنه ودود. هذا ما ينبغي أن يحضر في ذهن القارئ الذاكر في كتاب الله تعالى عندما يقف عند اسمه العفو و يرى فيه واو الود و الحب، فيفهم قدر فهم العبد ما يكون من عفو الربّ، فهل من بعد ذلك قسوة في القلب أم رجاء و توقٌّ للتنعم بذاك الفضل يسعى إليه العبد بالعمل به، فيعفو عن مثله رجاءً بعفو ربّه كمن يتصدق راجياً جزاء الحسنى من الغني جَلَّجَلَالُهُ. يسعى إلى ذاك الفضل بالعفو عن مثله و بسؤال الربِّ على نهج رسوله وخير سؤال يسأل في خير ليلة هو العفو و العافية. فإنه عفو كريم يحب العفو.

اسمه تعالى الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ
(٠٨٣)

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٧].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٠].

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٧].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٨].

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ٧].

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٧].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٠].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٠].

على مستوى الجذر

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ٢].

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٧].

*****

اسمه تعالى الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء القرآنية، ورد مراراً متبوعاً باسمه الرحيم جَلَّجَلَالُهُ.

معنى الرأفة واضح لا لبس فيه بالنسبة لأيّ ناطق باللغة العربية، الكلمة و جميع اشتقاقاتها شائعة في العصر الحديث. معنى الرأفة واضح و أيّ تعريف له بالعربية لن يكون إلا مرادفات أقلّ دقة. بيت القصيد ليس تعريف الرأفة و توضحيها، و إنما تصحيح العقيدة.

اسمه الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ كباقي الأسماء الشريفة، يكمّل المفهوم الضروري عن الله جَلَّجَلَالُهُ في عقيدة و عقل و وجدان المؤمن.

الاسم الشريف يدخل في عملية توازن المفاهيم في العقيدة حيث لا إفراط ولا تفريط بل توازن تام يسير بالمؤمن بخط مستقيم إلى المقصد الأسنى، في حين أن أيّ إفراط أو تفريط يجنح به بعيداً عن ذلك المقصد.

الاسم الشريف تصحيح للاعتقاد لما قد يخطر ببال العباد و هم يمرّون بامتحان و فتن الحياة الدنيا. فعندما يرى العبد من المصائب و الأهوال ما يرى، و عندما يعلم ما يعلم من نذر و وعيد و حساب دقيق في كتاب لا ينسى كبيرة ولا صغيرة، و عقاب يليه في جحيم و نار ما أكثر الآيات التي تصفه، فهل يخطر بباله أن ربّه رؤوف؟

الأرجح، أنه يرى الشدة و القسوة و إن لم يعترف بها صراحة، و هذا سوء اعتقاد. الله جَلَّجَلَالُهُ أعلم بنفوس و عقول و خواطر من خلق، و أعلم بشكوكها و تساؤلاتها، فأنبأهم تصحيحاً لعقيدتهم أنه رؤوف. أليس ذلك الإخبار بحدّ ذاته رأفة ؟.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٠]، الآية الكريمة مثال على فكرة التوازن التي نحن بصددها.

افترض أن الآية الكريمة توقفت من بعد قوله: ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ... ﴿٣٠﴾﴾،

افترض أن القارئ صادق، حساس، نبيه، واعٍ لا غفلة في قلبه ولا عقله، مثل سيدنا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ و صحابته الكرام ألم يقل عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «شَيَّبَتۡنِي هُودٌ» [سنن الترمذي: ٣٢١٩] لقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ... ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١/ ١١٢]. إن قرأها واحد من أهل زماننا يعتبر نفسه صالحاً لأنه لا يرتكب الكبائر، فهل تهتز نفسه و تختلج لقراءتها؟ إطلاقاً ! و يعتبر نفسه مستقيماً كما أُمر بلا إشكال.

عودة إلى الشاهد الشريف مع قارئ يتسامى حسه بالقرآن الكريم إلى حسّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصحابته و يقرأ: ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ...﴾ فإنه تضيق به الأرض بما رحبت، و ينقطع رجاؤه

من ربّه و يقنط ولا يتأجج قلبه بالصلة بربّه، فكيف يتأجج قلبه بالحب و الصلة و هو في رعب قوله تعالى: ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ...﴾.

لنفترض أن الشاهد الشريف جاء من غير شقِّه الأول، أن الله رؤف بالعباد، فإن ذلك يشجع حتماً لما في النفس البشرية من استعداد للتراخي و التمادي لأن يطمع العباد برأفة مطلقة من الله مهما فعلوا. إذاً، اسمه الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ عنصر هام في توازن العقيدة و هو على شاكلة اسمه تعالى العفو، باب مفتوح باتجاه الرضا الإلهي.

كما رأينا في اسميه المنتقم و العفوّ بابان أمام العباد، كذلك الرؤوف باب رقيق منه سبحانه يدعو منه العباد للتوجه إليه و التقرب منه.

الاسم الشريف كما رأينا، تصحيح للاعتقاد عندما يجنح العقل مستثقلاً ما يعتبره قسوة من الله. الاسم يبين أن الذي قد يظن أن الأمر فيه قسوة فإنه لا يعلم من حقيقة الأمور شيء، و لو اطلع على الحقيقة و ما فيها أدرك تمام الإدراك كم هو محفوف بالرأفة الإلهية من حيث لا يدري.

رؤوف لأنه رحيم. لم يقترن الاسم الشريف إلا باسمه الرحيم تالياً له. لم يرد تالياً للرحيم فهو سبحانه ليس رحيماً لأنه رؤوف، بل رؤوف لأنه رحيم. بعبارة أخرى الرأفة من تجليات الرحمة الإلهية أو شكل من أشكالها تتجلى بتجنيب الخلق الكثير من العذاب و الوبال. و الحقيقة في ذلك حب الغني عن العالمين لعباده ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٩-٣١].

أكثر ما يميّز اسمه الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ في أحرفه، الواو منها. و هو الذي يشير و يرمز إلى الود و الحب. حرف الراء حرف سرعة و فعل و مبادرة، يفهم منه أن رأفته سبحانه سابقة لعباده أي أنه رؤوف بهم أصلاً من قبل أن يكونوا في الموقف الذي يحتاجون به للرأفة، أؤكد: ليست الرأفة لاحقة كإسعاف منه بل سابقة رحمة منه وحباً. فكيف يكون قلب من علم ذلك؟ و كيف تكون مشاعره تجاه الله جَلَّجَلَالُهُ؟ كيف تكون إلا حباً و امتناناً و شوقاً إليه جَلَّجَلَالُهُ. ما أرأفه إذ منَّ علينا فكشف لنا عن هذا الاسم من أسمائه سبحانه.

*****

ملاحظة على اسمه تعالى الرؤوف جَلَّجَلَالُهُ:

أكثر ما تتجلى فيه الرأفة فكثير من الآيات المحيطة باسمه الرؤوف تجدها بصدد الهداية.

اسمه تعالى مالك المُلك جَلَّجَلَالُهُ

(٠٨٤)

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦].

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢].

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٧-٢٤٨].

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [المائدة: ٥/ ١٧].



﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢-٣].

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٣].

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١١].

*****

اسمه تعالى مالك الملك جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء الحسنى القرآنية، ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ الآية من آل عمران .

الاسم الشريف كغيره من الأسماء الحسنى ضروري لكمال العقيدة. إذ إن كلّ اسم بمثابة باب يفتح الطريق لحسن السلوك و الاعتقاد، و يقطع المجال لسوء الاعتقاد و ما يترتب على ذلك من شقاء و ضلال.

اسمه تعالى مالك الملك ضروري لاكتمال حسن الاعتقاد و السلوك في الموضوع الذي فتحه اسمه تعالى الملك. حسن الاعتقاد باسمه الملك جَلَّجَلَالُهُ، لا يكتمل إلا بحسن الاعتقاد باسمه مالك الملك كما هو الحال بالنسبة للواحد و الأحد، و بالنسبة للعلي و المتعال، و بالنسبة للكبير و المتكبر سبحانه.

اسمه تعالى مالك الملك يعيدنا إلى مسألة الملْكية و هي من المسائل الحساسة بالنسبة للنفس البشرية.

تجد الإحساس بالملكية متأصّل في النفس البشرية منذ الأشهر الأولى للرضيع. ينمو هذا الإحساس بالملكية على مدى الحياة، و يتأصّل و يأخذ غالباً أبعاداً مأساوية إذ أنه إن تُرِك بلا توجيه روحي متسام فإنه يندمج مع تقييم المرء لنفسه و لغيره، و يصير عنصراً أساسياً في المعايير

الاجتماعية حيث نرى بلا دهشة أن المرء يقيَّم بناءً على ما يملك، و الأخطر، أن يقيّم المرء نفسه بهذا المعيار.

هذا الإحساس المتأصّل بالملكية لا يمكن تجاهله، و إن تُرِك فإنه في أحسن الأحوال و في ظروف الرخاء و السلم و الأمان و ضمان الحقوق، فإنه يؤدي إلى عقلية و نفسية مادية صرفة بكلّ ما في ذلك من قسوة و وحشة و يأس تعرفه المجتمعات الرأسمالية.

هذا ما يوصل إليه الإحساس بالملكية في أحسن الظروف و الأحوال، فكيف إن تُرِك و أخذ أشكاله المعروفة من حروب و صراعات على ثروات طبيعية أو مواقع جغرافية استراتيجية أو مصادر طاقة أو مياه أو ثروات اقتصادية؟

شريعة الإسلام تتعرض لهذه المسألة من جذورها لتقدّم نهجاً سليماً للنفس البشرية في لحظات عبورها على الأرض.

في الإسلام، الملك الحق الأوحد هو الله. و هو جَلَّجَلَالُهُ الذي يملك ولا أحد غيره يملك، ومن يملك في الحياة الدنيا إنما يكون عابراً مستخلفاً على أمور جعلها الله له عطاءً وفتنة. و دليل ذلك أن المرء لو كان يملك حقاً، إذا لوجب أن يدفن مع ما ملك و يبعث مع ما ملك. و الواقع البدهي أنه لا يأخذ شيئاً، إذ إنه لا يملك شيئاً، و إنما هو **مستخلف** عليه أي أن ثمة من يأتي من **خلفه** ليأخذ ما ترك.

هذا المفهوم في الملكية الإلهية المطلقة التي لا يشارك فيها الله أحداً من خلقه، هذا المفهوم معراج تسمو به نفس المسلم، فلا يتعلق بأثقال المادة ولا يؤسَر تفكيره في الطموح بها ولا تسود نفسه بالحسد لما افتقد بما هو عند الآخرين، ولا يستميت في انتزاع ما عند الآخرين، ولا يستميت لتحصيل مادة يعطي نفسه بها أهمية أو قيمة، ولا يستخدم هذه المادة ليتسلط على غيره.

تجد نفس المعتقد باسمه الملك طليقة صافية جاهزة للسمو الروحي.

عند هذا الحدّ يأتي دور اسمه تعالى مالك الملك مكمّلاً للمفهوم الأساسي الذي يفتحه اسمه الملك جَلَّجَلَالُهُ.

فقد يؤمن المرء أن الملك هو الله، ولكنه ترك حق التصرّف بجانب من ملكه لخلقه. كما يكون الأمر في مملكة تجد فيها كلّ أنماط الملكية الفردية، لا تجد في عصرنا ملك يقول لأحد رعاياه يملك بيتاً: إن البيت ملكه. هذا تبسيط لمعنى اللقب أو المنصب في عبارة مَلِك. إن ترك اسمه تعالى الملك وحده فإنه يترك مجالاً للخوض في الفكرة السابقة، أي إنه في علوّه و عظمته هو الملك و نحن في مملكته لنا حق الملكية. و هو في علوه و كبريائه مترفع عن أمور الملكية الفردية لخلقة.

اسمه تعالى مالك الملك يقطع الطريق على ما يوصل إليه الاعتقاد السابق و يصححه.

انظر إلى وزنه فاعل، أي قائم بالأمر بنفسه، متمكن منه لأقصى ما يكون.

ملك كما رأينا، يمكن أن يكون لقب أو مقام، مالك يدل أنه قائم بأمر الملك وحده لا يتركه لغيره.

مالك الملك، كمال في دقة التعبير و قطع طريق لكلّ الاحتمالات، أي لا مُلْك إلا ملكه يتصرف به كله كيف يشاء.

الآية الكريمة الفريدة التي حوت الاسم الشريف توضّح بجلاء ما ذكرناه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦].

الآية الكريمة دستور في حياة المسلم يجنب نفسه من التهالك في طلب المُلك، فلا ينشغل به عن ربّه، و كذلك إن استخلفه مالك الملك على شيء فإنه لا يتكبّر ولا يتجبّر، و يتواضع لأنه يؤمن بأن لا فضل له فيما حصل، فيتكبّر به على غيره، و كذلك يؤمن بأن الذي أعطاه ينزع منه العطاء في أية لحظة فيكون مذموماً مخذولاً يشمت به من كان يتكبّر به عليه.

هذا الدستور في الحياة يخلّص نفس المؤمن من ربط العزّ و الذل بالمادة و الملك، و أن العزّ الحقيقي بيد الله، و كذلك الذل فلا ذل إلا لله ولا عزّ حقيقي إلا من الله و بالله.

*****

ملاحظات على اسمه تعالى مَالك المُلك جَلَّجَلَالُهُ:

اسمه تعالى مالك الملك يبت بالأمر نهائياً في مواضيع الملكية لذا ذكر في القرآن مرة واحدة ولا حاجة لتكراره.

التعمق في فهم أسمائه سبحانه كما في اسمه تعالى مالك الملك هو الفقه الحقيقي و كم نحن بحاجة إليه.



اسمه تعالى ذو الجلال والإكرام جَلَّجَلَالُهُ
(٠٨٥)

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧].

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٧٨].

******

اسمه تعالى ذو الجلال و الإكرام جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية، ورد مرتين في سورة الرحمن.

الاسم الشريف كغيره من الأسماء الحسنى له دور هام في حسن الاعتقاد باللّه و ذلك عن طريق تنزيهه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن الإسقاطات البشرية. فالإنسان إن لم يقم بتدقيق تفكيره فإنه يسقط واقعه أو تجاربه أو رؤياه على كلّ ما يحاكم من أمور. تأمل في الناس تجد كلّ واحد منهم يحكم على أمر واحد من منظار تجربته و واقعه و أفق تفكيره. الأمر واحد و الآراء و التصورات و الرؤى مختلفة. الإسقاطات البشرية في الحالة السابقة لا تظهر عيوبها بوضوح و تبدو مقبولة لأن الأمر المتناول ينتمي إلى نفس عالم الذي يحاكمه. الإسقاطات البشرية تصير خطأً مهلكاً عندما تتعرض للذات الإلهية.

ورود اسمه ذو الجلال و الإكرام من بعد اسمه مالك الملك نموذجاً لهذا التنزيه له سبحانه و لضبط العقيدة.

في اسمه جَلَّجَلَالُهُ مالك الملك خلاصة تصحيح العقيدة بالنسبة للملك والملكية. التأمّل في الاسم الشريف و في مجال الملكية الذي يتناوله قد يفتح الباب لإسقاطات بشرية على الذات الإلهية

من حيث لا يدري المرء، فثمة قناعات خفية مبطنة عند كلّ إنسان هيهات أن يعيها ليفصح عنها، ولكنها و إن كانت خفية مبطنة فإنها تترك آثاراً بالغة في القناعات و تؤثر تأثيراً كبيراً في مواقف الإنسان و قناعاته.

مهمة الكثير من الآيات القرآنية و جميع الأسماء الحسنى قطع الطريق على هذه الإسقاطات.

مسألة الملكية تحرك في نفس المتأمل فيها تداعيات و تصورات من خلال ما يعلمه من ملك و ملوك و ملاكين. يسعى المرء إلى رفع هذه التصورات إلى حدّ يظنه لائقاً بالذات الإلهية ولكنه في الواقع لا يكفي. قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ ...﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦]، هذه الآيات يؤمن بها المسلم و يتقبلها و يستسلم للإرادة الإلهية. هذه خطوة جيدة ولكنها غير كافية فقد يكبت الإنسان في أعماقه إسقاطاً بشرياً على الذات الإلهية، إما لا يعترف به و إما لا يعيه و يكون حصيلة تصوره عنه سبحانه كما يكون عن مخلوق عنده إمكانيات و صلاحيات لا محدودة لا تعلم لِمَ يعطي أو يمنع أو يعز أو يذل، و في قرارة نفسه يعتبر الإنسان و إن لم يعترف بذلك أو لم يعِ ذلك أن الأمر غير منطقي و فيه شيء من الغبن و التسلط.

انظر كيف ورد في ترتيب الأسماء التسعة والتسعين الملك متبوعاً بالقدوس كي يقدس المتفكر باسمه الملك الذات الإلهية عن أيّ إسقاط بشري، كذلك نجد اسمه ذو الجلال والإكرام تالياً لاسمه مالك الملك فإنه سبحانه يتصرف بملكه لا كما يتصرف المخلوق و إن كان ملكاً في ملكه و الفارق ليس شاسعاً بل مطلقٌ. فالمَلك المخلوق يكون قد أوتي الملك و لفترة و جيزة لا تتجاوز الحياة الدنيا في حين أنه سبحانه غني عن ذلك الملك، لم يؤته أحد بل هو الخالق الذي أوجده فكم المخلوق فقير إلى ما ملك و كم الخالق غني عما ملك.

فكما يصحح اسمه ذو الجلال والإكرام ما قد يذهب إليه عقل البشر بصدد الملك، و هو كذلك يصحح الاعتقاد في كلّ ما يخطر على البال و يذكر العباد أنه سبحانه إن كان مالك الملك أو رؤوف أو عفو أو منتقم أو تواب و ما إلى ذلك من أسماء ترتبط بالخلق و الخليقة، فإنه سبحانه أعلى و أجلّ من أن يكون شغله الشاغل الخلق و الخليقة. انظر إلى قوله: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧]. تأكيد للفكرة السابقة و تذكير بعظمة الألوهية و التي لا تشكل فيها الخليقة إلا جانباً من جوانب تجليات إرادته.

نحن خلقه و نذر هزيل من خليقته. تعودنا أن نعطي أنفسنا أهمية أكثر مما نستحق. يرسخ هذا الإحساس بالأهمية الذي نعطيه بسخاء لأنفسنا علاقة بدائية مع الله في السؤال و الدعاء و الشكوى و الإنابة يحس عندها المرء نفسه متوهماً أنه محط الأنظار الإلهية. تأمل في ذلك و تفكر كيف يكون

التوجه إليه و قد عدم الخلق كله لا يلتفت سبحانه إلى ما أعدم من بعد ما أوجد، انظر إلى ذلك هو وحده و الكلّ من دونه قد عدم و تفكر تكون قد خطوت خطوة في فهم جلال اسمه ذو الجلال و الإكرام.

تفكر: الخلق معدوم و هو وحده حي قيوم فما أجلَّه.

انظر في ترتيب الأسماء تجد اسمه الجليل متبوعاً باسمه الكريم و هكذا يكون اسمه ذو الجلال والإكرام تأكيد لصحة الترتيب البديع في الأسماء.

سبق أن تكلمنا بمعنى الجلال في اسمه الجليل و المعنى لا لبس فيه، كلّ ما يلزمه هو قلب حي و ذوق. و رأينا كذلك معنى الكرم في اسمه الكريم. أذكر أن المعنى الشائع و الذي يتبادر للأذهان عن الكرم كسخاء في العطاء من معاني اسمه الكريم. المعنى الأساسي في اسمه الكريم يشير إلى السمو و الرفعة و عدم التنازل أو النزول إلى الخسيس أو المحتقر أو الصغير من الأمور.

و بذلك يصير من واجب العبد أن يعلم ما لله من جلال و إكرام أي رفعة و سمو و علو و قدسية. لا بدّ لي من التنويه إلى نقطة لفتاً للنظر، فالمكان لا يتسع إلى التفصيل في مسألة تخصصية دقيقة. انظر كيف كان ورود اسمه ذو الجلال و الإكرام من بعد لفظ «ربك» حصراً و ليس من بعد ضمير الذات «هو» ولا لفظ الجلالة. ألا يذكرك ذلك بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦]. انظر كذلك في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ٩٦/ ٣].

اسمه ذو الجلال والإكرام من الأسماء التي ينبغي أن تكون حاضرة في الأذهان كلما ذكر الله أو اسم من أسمائه، فيستحضر الذاكر كلّ معاني الجلال و الرفعة و السمو اللازمة بحق. ألم يقل سبحانه: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٧٨].



اسمه تعالى المُقسط جَلَّجَلَالُهُ

(٠٨٦)

اسمه تعالى المقسط ليس من الأسماء القرآنية.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨].

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٩].

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعٗاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٞ مِّنْ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤٧].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٖ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٥٤].

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ١١/ ٨٥].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٞ شَيْـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٧].

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٩].



*****

اسمه تعالى المقسط جَلَّجَلَالُهُ:

لم يرد الاسم الشريف في القرآن الكريم و إنما تدلّ عليه و تشير إلى أهميته آيات عظيمة، لعلّ أهمها قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾. (و هي من الآيات العظيمة في كتاب الله). و كذلك قوله من سورة يونس: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾. و كذلك، و بشكل خاص الآية الكريمة من سورة الأنبياء: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

تفيد كلمة قسط فيما تفيد: خاصة الدقة الشديدة في المقدار الممنوح، و كذلك الدقة في وجهة العطاء و كذلك الدقة في نوع العطاء أو الحكم. و كذلك تفيد الكلمة العدالة و الحياد في ذلك العطاء أو الحكم.

أمر إعطاء كلّ شخص ما يستحق أمر يدرك صعوبته من يجد نفسه في ذاك الموقف. عموم البشر موقفهم عادة موقف الذي يُحَكمُ لَه بحكم. القليل من البشر يوضع في موقف تحديد استحقاق الآخرين. الذين جربوا هذا الموقف يدركون صعوبته و يدركون صعوبة الأمر باتجاه الدقة، فهم كخلق مهما فعلوا لا تكون نتيجة حكمهم إلا تقريبية و إن سألتهم عن إمكانية حكم بالدقة المطلقة فإنهم يقولون لك: إن الأمر معجز. ليبلغ القسط تمامه و كماله فلا بدّ للذي يقوم به من علم تام بما يقسط و لمن يقسط، و هذا الأمر يستحيل على الخلق ولا يدرك ذلك تمام الإدراك إلا أولو العلم كما في الآية الشريفة. فلك أن تتفكر لما في أمر إعطاء كلّ شخص ما يستحق بالدقة التامة من إعجاز لا يقدر عليه إلا خالق الخلق الذي أحاط علمه كلّ شيء. لك أن تنظر ثانية في الآية الكريمة من سورة الأنبياء ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٧].

حبة الخردل تشير إلى الدقة التي ذكرناها و كذلك إلى الإحصاء التام يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾.

الاسم الشريف إذاً من الأسماء التي تذكر العبد بالآخرة و بيوم الحساب خاصة من خلال فكرة دقة الحساب و العدل و الإنصاف فيه، و كم من آيات في القرآن الكريم تذكر بهذه الحقيقة الكبرى.

الاسم الشريف بتذكيره بيوم الحساب يدفع المرء إلى الإحساس بالمسؤولية تجاه جميع أفعاله، هذا الإحساس بالمسؤولية يدفع إلى حسن الاختيار عند القيام بالعمل تحسباً لما في ذلك من تبعات. المؤمن بالاسم المتخلق به بالنتيجة إنسان مسؤول ملتزم بمبادئ صحيحة ما أبعده عن المستهتر الذي لا يأبه بتبعات أعماله.

المؤمن بالاسم كذلك صابر مطمئن إذ يعلم أنه إن لم يوفى حقه في الدنيا فإنه سوف يوفاه في الآخرة بالتمام و الكمال، و لم يبخس منه شيئاً لا أمام ضمير مخلوق ولا أمام قاض قد يخطئ أو يظلمه و إنما أمام العزيز الحكيم. فتجد المؤمن بالاسم مطمئناً مهما كابد من ظلم في الدنيا.

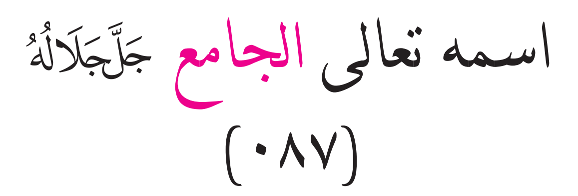
الاسم الشريف وعيد للظالمين لأنهم ملاقو ظلمهم لا يضيع منه شيء، و هو كذلك رأفة و كرم و قرب من الكبير جَلَّجَلَالُهُ في الدقة اللامتناهية في عطائه و حكمه للصغير بالنسبة و التناسب من خلقه، فما أكرمه و ما أرأفه و هو الكبير الذي لا تستطيع العقول إدراك عظمته عندما يلتفت إلى خلقه و ما أصغرهم.

الاسم الشريف من الأسماء التي تذكر بالآخرة و يوم الحساب خاصة لذا نجده يقدم اسمه الجامع جَلَّجَلَالُهُ.

هل تفكرت أن يوم الحساب يوم واحد؟ لم لا يكون حساب كلّ نفس لاحقاً لموتها مباشرة؟ خاصة أن الجنة و النار موجودتان.

لِمَ يؤخر حساب الأنفس لتجتمع و تحاسب في يوم واحد؟ سبحان الجامع.





اسمه تعالى الجامع جَلَّ جَلَالُهُ (٠٨٧)

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران: ٣/ ٩].

﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٤/ ١٤٠].

الجذر:

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٥].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء: ٤/ ٨٧].

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٥].

﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾ [الكهف: ١٨/ ٩٩].

﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٦].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٥].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٦].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ [التغابن: ٦٤/ ٩].

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣)﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢-٣].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٦-١٧].

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨)﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٣٨].

*****

اسمه تعالى الجامع جَلَّجَلَالُهُ:

يمكننا أن نعتبر الاسم الشريف من الأسماء القرآنية بدليل آيتين ورد فيهما:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾ [آل عمران: ٣/ ٩].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء: ٤/ ١٤٠].

تفسير الاسم الشريف لغوياً يذهب باتجاهات شتى يصعب الترجيح بينها كونها بالظاهر معقولة. الصواب هو تفسير الاسم بناءً على ما ورد بصدده في القرآن الكريم.

نجد في الآيتين السابقتين حيث ورد الاسم صراحة أن موضوع الآيتين ينحصر بالنسبة للاسم في يوم القيامة. إن تابعنا البحث في القرآن الكريم على مستوى الجذر فإننا نجد الجذر متعلقاً إما بالخلق أي بفعلهم، و إما بالله و ما يقوم به سبحانه. بالطبع ما يهمنا الكلمات التي تتعلق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نجدها جميعها في حقيقة يوم القيامة مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾ من سورة آل عمران، وما إلى ذلك من آيات كريمة مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ من سورة التغابن.

قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿...وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)﴾، إن الآية الشريفة لا تشير إلى الفعل منه سبحانه و إنما هي شرط، الجمع ليس واقعاً بل في الآية منفي. إذاً الآية السابقة لا تتدخل في الخط الأساسي لمعنى الكلمات المبنية على الجذر جمع و التي تتجه جميعها باتجاه حقيقة يوم القيامة.

إذاً، و بناءً على ما ورد في كتاب الله، ينبغي علينا تناول الاسم الشريف من خلال منظار يوم الجمع خاصة.

يبقى شاهد أوحد يتعلق بفعل جمع منه سبحانه لغير يوم القيامة و هو بصدد جمع القرآن، الشاهد الشريف هو قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٦-١٧]، انظر كيف أن هذا الشاهد ورد في سورة القيامة!

مما سبق نجد أن معنى اسمه الجامع يتجه خاصة باتجاه جمع الناس ليوم القيامة و من ثم وفي شاهد وحيد نحو جمع القرآن. الاتجاهان السابقان لا يمنعان الاتجاهات الأخرى في فهم الاسم شرط أن تندرج في حقيقتها ضمن الأصل كما ورد في القرآن الكريم.

نبدأُ بحقيقة جمع القرآن الكريم. نستطيع أن نقول: إن الله سبحانه هو الذي عليه جمع القرآن الكريم أو بعبارة أخرى هو وحده جامع القرآن الكريم.

ألِفنا القرآن مصحفاً مجموعاً في ترتيبه النهائي، و هو في ذلك الجمع و الترتيب وحي لا يشك فيه إلا المغرضون. يغيب عن مألوف إدراكنا كيف نزلَ آياتٍ وسوراً أخذت كلٌّ منها مكانها بترتيب لا يستطيع إنس ولا جان عليه. يطول تبيان ذلك لكثرة الأمثلة التي توضح الآيات الباهرة في الترتيب و التنزيل و الجمع. مختصر ذلك رأس هذه الأمثلة هو عدد سور القرآن مئة و أربع عشرة سورة لا يشير اسم إلى حقيقتها كاسمه الجامع جَلَّجَلَالُهُ. جمعت هذه السور المئة والأربع عشرة آية على مدى ثلاث و عشرين سنة من الوحي على خاتم النبيين. معرفة ذلك و معرفة ما سبق يحوي على ضبط عدد آيات القرآن الكريم.

معرفة حقيقة ما سبق و ذكرنا عن المئة والأربع عشرة سورة و علاقة ذلك باسمه الجامع مما لا غنى عنه لأهل الاختصاص من المسلمين و خاصة رأسهم. و الحال كذلك بالنسبة لجميع الأسماء لما فيها من علوم لا غنى لأهل الاختصاص عنها.

أهم ما يشير إليه اسمه تعالى الجامع هو جمع الناس يوم القيامة، يوم التلاق، يوم التناد، يوم الجمع يجمعهم جَلَّجَلَالُهُ و قد كانوا متفريقين في الزمان و المكان في زمان و مكان واحد، يجمعهم بعد إذ كانوا متفرقين في عقائدهم أمام حقيقة واحدة لا يمكن لأحد إنكارها سعادة للمؤمن و ندامة و ذعر للكافر.

رأينا آخر اسمه المقسط السؤال حول فكرة الجمع في يوم واحد. الجمع يومئذ جزء من الترتيب الإلهي في الخليقة، فهو حكم عدل، خلق الكتاب و خلق اللوح و خلق الملائكة الكتبة و خلق الميزان ليوم واحد، و شاء أن يبعث الناس ثم يتنادوا ثم يجتمعوا وفوداً كلّ مع إمامه يفدون إلى الله جَلَّجَلَالُهُ و يُجعلون صفوفاً متتالية ميمنة و ميسرة، و في ذلك أسرار لا تكاد تسعها و تطيقها العقول. ثم يكون الميزان و الحساب و تكون من الله على خلقه الحجة البالغة.



لا يمر مكلف في الحياة الدنيا إلا و يجتمع بغيره من خلقه سبحانه و تكون لذلك المكلف مواقف تجاه من التقى و اجتمع به. يجتمع به ثانية يوم الجمع و الحساب و يُحاسب كلّ واحد على أفعاله و مواقفه تجاه الآخرين، و كذلك التابع و المتبوع، المعلم و المتعلم، الإمام و المأموم، السائل و المسؤول، المدعي و المدعى عليه، حتى الخفي بالمرئي أعني الإنس و الجن و الشيطان منهم خاصة. فما أبلغ الحجة و الجميع مجموعون فلا يستطيع أحد ادعاء أمر بغياب المدعى عليه، كما تجمع الأنفس تجمع الملل و الأمم و تكون كلّ واحدة حجة بالغة لمن يحتج.

قد يقول قائل: يا رب لم...؟ فيكون الجواب منه انظر إلى...

قد يقول العبد: لو أني ... فتكون الحجة الإلهية سبق و أن...

كلّ هذه الحقائق العظيمة لا يمكن أن تكون إلا بالجمع. نستطيع أن نقول: إن ذلك اليوم يوم الجمع هو اليوم الحاسم و الأهم في مصير أيّ مكلف. مهما بذل المرء و هو لا يزال في الحياة الدنيا من جهود لوعي أهمية ذلك اليوم و للتحسب لأهواله فإنه هيهات إن تفكر أن تتحصل عنده صورة واهية.

مَنّ اللّه على المسلمين بتذكيرهم بشكل متواصل بذاك اليوم: أول شكل لذلك التذكير هو اجتماع الحجيج أجمعين في يوم واحد لا ثاني له في عرفة، تأمل.

انظر إلى الحجيج سواسية لا فرق بينهم الرجال منهم ما أشبههم بالناس يوم البعث، لباس الحجيج الأبيض يذكر بالكفن يحرم أن يكون مخيطاً. يوم الوقوف بعرفة تذكرة دراماتيكية بيوم الجمع. كذلك الصلاة. صلاة الجماعة تذكرة بأسرار اسمه الجامع. انظر إلى الصفوف في الصلاة يتقدمها الإمام ما أشبه ذلك بما يكون يوم القيامة.

ما الفرق بين المصلي و الآخر الذي بجانبه إلا العمل و التقوى. هل يتقدم مصلّ على آخر في الصف ؟ هل يتقابل مصلّ مع آخر في الصلاة أم أنهم متجهون وجهة واحدة إلى اللّه ينظرون إلى موقع رأسهم من السجود. ألا يكفي في ذلك تذكرة؟

رأس صلاة الجماعة صلاة الجمعة، و الأصل أن تكون في المسجد الجامع. أليس في ذلك تذكرة وتحضير؟ رأس صلاة الجماعة صلاة الجمعة. متى يكون يوم القيامة و الجمع من أيام الأسبوع ؟

هل يستطيع المسلم بعد هذه التذكرة المتواصلة أن يتجاهل أو يتناسى؟ هل يستطيع أن يستهتر في عمله و هو يعلم أنه ملاق الجامع الحكم المقسط يوم القيامة.

المسلم بهذه التذكرة يتقي الشر و الظلم و يحضّر لذلك اليوم بالصالحات متوسلاً على مدى يومه في صلاته بالفاتحة ربّ العالمين مالك يوم الدين أن يرحمه و يهديه الصراط المستقيم.

اسمه تعالى الغني جَلَّجَلَالُهُ
(٠٨٨)

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٧].

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣١].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٣].

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٦٨].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٨].

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٤].

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٠].

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٢].



﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥].

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧].

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

[محمد: ٤٧/ ٣٨].

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٤].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾

[الممتحنة: ٦٠/ ٦].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن: ٦٤/ ٦].

*****

اسمه تعالى الغني جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء القرآنية ورد مراراً في القرآن الكريم. ورد مرة واحدة متبوعاً باسمه الحليم، ومرة متبوعاً باسمه الكريم، و بضع مرات مفرداً، ومراراً متبوعاً باسمه الحميد، و قد سبق و عرّفنا عنه.

اسمه تعالى الغني اسم لا غنى عنه البتةَ في علاقة العبد بربّه. إن غاب الاسم الشريف لحظة عن وعي المكلف فإن إيمانه يختل في الحال إذ يستحيل الإيمان بتجاهل هذا الاسم و لو للحظة. فالاسم إذاً أساسي قبل كلّ شيء في صلة المكلف بربّه و ذلك بحسن الاعتقاد، ولا يكون حسن الاعتقاد باللّه إلا بتنزيهه عما لا يليق به و خاصة عن الإسقاطات البشرية.

يولد الإنسان محتاجاً لغيره كرضيع ثم كطفل إلى أن يستغني عن الحدّ الأدنى من الرعاية، و قد ابتدأت تترسخ في عقله معادلة العطاء بجزاء أو مقابل و الأخذ و الردّ. كلما تقدم الإنسان في حياته كلما ترسخت مفاهيم الأجر أو الجزاء مقابل المجهود.

عندما يصير المجهود موجهاً للخالق فإن ما سبق و ذكرناه من مفاهيم رسخت في النفوس يصبح خطراً على حسن الصلة و العقيدة بين المكلف والله جَلَّجَلَالُهُ.

يصير المكلف يشعر بأهمية و قيمة الجهد الذي يبذله (وهو في حقيقته هزيل)، فينتظر الأجر على المجهود متمثلاً بمدد إلهي يتمثل بقضاء حوائج المكلف و حمايته و الدفاع عنه دون تأخير. إن لم يحظ ذاك المكلف بما كان يأمل فإنه يتصرف مع ربّه بردّة فعل كما تكون من خلق تجاه خلق، فإن خاب أمله إذ لم يرَ ما كان يأمله من أجر على مجهوده فإنه يهدد بقطع المجهود. و كذلك و بنفس الآلية النفسية فإنه يتوهم أنه يقدم خيراً لله و كأنه يقدم مساهمة لسلطان أو حاكم.

كم من مُصلٍّ يقوم الليل و يكثر من العبادات لا يدرك أنه في قرارة نفسه يقع في صلته مع الله في الخطأ الذي ذكرناه، كم من محسن و متصدق و مجاهد يقع في نفس الخطأ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦]، كم ممن يدّعي الإيمان يقع في ذاك الخطأ، ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٧].

تفكر في صيغة الدعاء: «اللَّهُمَّ يَا ذَا الْمَنِّ ، وَلا يُمَنُّ عَلَيْكَ» كما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

إن تفكّر المكلف في نفسه فإنه يجدها فقيرة دائماً لا محالة لشيء أو آخر، أو لشخص أو آخر ولله خاصة. إن قلت: «غني»، فأول ما يخطر ببالك بالمقابلة: «فقير» الناس هم الفقراء والله هو الغني حتماً إذ لم يكن محتاجاً لهم ليخلقهم و إنما خلقهم لأنه إله حق و الإله الحق خالق بلا حاجة. انعدام الحاجة لا يعني انعدام الهدف أو المقصد. ما أفصح قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥-١٧].

*****



ملاحظات على اسمه تعالى الغني جَلَّجَلَالُهُ:

فهم مفهوم الغنى عندما يتعلق به سبحانه يستوجب الصعود بالمعنى و تجريده عن المفهوم البشري الشائع، حيث نجد أن مفهوم الغنى يكاد يكون مطابقاً لمفهوم الثروة. حقيقة معنى الغنى عندما يتعلق به سبحانه تكمن في عدم الاحتياج مطلقاً لا لشيء و لا لأحد.

يولد الواحد منا و يموت محتاجاً لأمر أو آخر فتصير نفسه مجبولةً بالحاجة، و تصير الحاجة هي الدافع و المحرك الأساسي لكلّ فعل أو مبادرة، فالواحد منّا لا يقوم بما يقوم به إلا لحاجة، و بذلك تختلط في نفوس و عقول المكلفين فكرة الحاجة مع فكرة الغاية و لا تعود الفوارق بينهما واضحة. إن لم ينتبه المكلف لهذا الخلط فإنه قد يسقطه على الله سبحانه و يظن مخطئًا أن الإرادة الإلهية تحركها حاجة لتحقيق أمر. إن قلنا لذلك المخطئ في ظنه: إن الإرادة الإلهية مجردة عن الحاجة فإنه يصعب عليه قبول فعل بلا حاجة. الحقيقة أن الإرادة الإلهية مجردة عن الحاجة منوطة ومرتبطة بالغاية و الغاية ليست بالضرورة حاجة. هذه الفكرة ضرورية لفهم اسمه تعالى الرشيد جَلَّجَلَالُهُ حيث أنه أعلم بالغايات عندما تسري إرادته.

اسمه تعالى المُغني جَلَّجَلَالُهُ
(٨٩)

الاسم الشريف ليس من الأسماء القرآنية.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٢٨].

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٢-٣٣].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٤٨].

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٩٣/ ٨].

*****



اسمه تعالى المغني جَلَّجَلَالُهُ:

لم يرد الاسم الشريف في القرآن الكريم.

كما أن اسمه تعالى الغني جَلَّجَلَالُهُ أساسي في حسن الاعتقاد و حسن السلوك فكذلك اسمه المغني، لا غنى عنه البتة في العقيدة و السلوك.

خير شرح للاسم الشريف هو الذي تقدّمه و بجلاء الآيات الكريمة.

السؤال: كيف نوضح معنى الاسم بالآيات الكريمة و لم يرد صراحة؟

يكمن الجواب في جواب عن سؤال بسيط: ماذا يفعل المغني؟ الجواب: يغني.

نتابع: هل من أحد أو أمر أو شيء غير الله بقادر أن يغني ؟

بعد هذه الأسئلة البسيطة نجد الجواب صريحاً و جلياً في القرآن الكريم، انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠]، و قوله: ﴿...قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٨]، ﴿...وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ١٩]، ﴿...فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١١/ ١٠١]، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٤]، ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٧]، ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٩]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٢٦].

الآيات السابقة تبيّن بأنّ لا مال ولا عزّ ولا جاه ولا ولد ولا أنصار ولا شيء يغني عن الله و عن نفاذ حكمه و إرادته.

إذاً لا مغني يقيناً إلا الله إذ إن العبرة في عاقبة الأمور، هل نعتبر أن ما يغني مؤقتاً ولا يغني عند أمَسّ الحاجة إليه مغنياً حقاً؟

عندما يعلم المرء بالاسم الشريف و ذلك عن طريق الآيات الكريمة و التي هي خير ما يوضحه، فإنه يقطع الأمل الزائف و الرجاء الخائب بأن يستغني بأيّ شيء عن أمر الله أو مشيئته أو فضله. العالم بالاسم يعي تماماً أن لا مغني إلا الله، فلا يخشى نقصاً أو فقراً أو فاقة لأن الأمر أولاً و أخيراً ظاهراً و باطناً بيده سبحانه، فلا ينكسر لغيره في الطلب و إنما يتوجه إليه وحده موقناً أنه سبحانه هو وحده الذي يمنّ بالفضل: ﴿... وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ التوبة، ﴿... وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ... ﴿٧٤﴾﴾ التوبة، ﴿... إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ... ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٢-٣٣].

نلاحظ في الشواهد الكريمة السابقة ارتباط فعل الإغناء عندما يتعلق به سبحانه بعبارة الفضل حصراً و دائماً. فالله هو وحده المغني عن كلّ شيء و هو أغنى سبحانه، يغني من فضله، و الفضل هو الزيادة التي لا حاجة لها، أي أنه عندما يغني من فضله فلا ينقص مما عنده شيء. فالتوجه بالطلب للاستغناء لا يكون إلا إليه و برضاه .ألم تر أن الكرام عليهم السلام لا يستطيعون شفاعة إلا بإذنه، ولا يكفي إذنه لهم بل لا بدّ من رضاه ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٩]. يُستدل من ذلك أن الرضا هو سبيل الحصول على فضل الله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٤]، فما أغناه سبحانه إذ إن فضله عظيم و ما أسعد الذي يحظى بذاك الفضل.

*****

ملاحظات حول اسمه تعالى المغني جَلَّجَلَالُهُ:

لا بدّ من اقتلاع مفهوم شائع و تافه عن اسمه المغني و ذلك من جذوره. مختصر المفهوم التافه عن الاسم يكمن في أمرين:

أولهما ربط الغنى بالثراء المادّي، فيصير المغني هو الثري الذي عنده الكثير الذي يفوق حاجته و الذي يستطيع بلا حرج سد حاجتي.

ثانيهما تشير إليه الكلمة السابقة «حاجتي» فيكون المغني مرتبطاً بدوافع الطمع الشخصية حيث يطمع الواقف أمام الاسم أن يغنم ماديّاً ما يستطيع أن يغنم و بالحدّ الأقصى.

هذا التناول تكريس للنوازع البشرية و هبوط بالمفهوم إلى المستوى البشري العادي. هذا التناول لا يفيد شيئاً في ارتقاء و سمو العبد في تقرّبه من ربّه.

الفهم السليم للاسم يكمن في تطوير قناعة، مفادها أن لا شيء ولا مال ولا ولد ولا جمع من أنصار أو مؤونة أو سلاح أو عتاد ولا شفاعة ولا معونة ولا مدد من أيّ كان و من أيّ شيء يكون يغني عن وقوع أمر اللّه و نفاذ إرادته.

بعبارة أخرى جلية صريحة اسمه تعالى المغني دعوة لعدم وضع أيّ ثقة أو أيّ أمل في أيّ شيء أو أيّ أحد، إذ لا فائدة في ذلك إن لم يكن ثمة رضا من اللّه.



اسمه تعالى المانع جَلَّجَلَالُهُ
(٠٩٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢].

*****

اسمه تعالى المانع جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف ليس من الأسماء الواردة في القرآن الكريم ولا تشير إليه بصراحة الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمات مبنية على جذر منع. لعلّ آية وحيدة تشير إلى معنى من معاني الاسم سوف نراها، قوله: ﴿... وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ ... ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢].

الاسم الشريف توضيح و تفصيل لأسماء أساسية و شاملة سبق و رأيناها، مثل اسمه تعالى المهيمن. هذا التوضيح و هذا التفصيل لا غنى عنه لحسن عقيدة المسلم و كمال إيمانه و صحة مواقفه.

الاسم الشريف متابعة لهذا التوضيح الذي ابتدأ باسمه المغني، حيث رأينا أن لا شيء ولا أحد يغني عن الله و أمره، أيّ أنه لا شيء ولا أحد يستطيع أن يمنع نفاذ الإرادة الإلهية.

يتعرض اسمه تعالى المانع لمسألة واقعية و حياتية أساسية و مؤثرة، ألا و هي مسألة الموانع.

لن أفصّل بل أترك المجال للتفكّر فيما يعترض الإنسان من أنواع و مظاهر الموانع، و كم تؤثر هذه الموانع في نفسه و كم تأخذ أبعاداً و أهمية، فتصير عظيمة في نفس الذي يتعرض لها. تفكر في الموانع التي تتجلى في الظروف القاهرة، تفكر في الموانع المنسوبة لما يسمى الطبيعة، تفكر



في الموانع المتمثلة في نقص الإمكانيات أو العتاد، تفكر في الموانع التي من ورائها القوى البشرية، تفكر في حالك و أنت تواجه الموانع كيف تعظم في قلبك و نفسك إلى حدّ تكاد تنسيك و تُغيِّب عن وعيك الإرادة الإلهية. الاسم الشريف تذكرة و توعية أن الموانع ليست قوى مستقلة أو تتمتع بقدر ما من الاستقلالية يجب التحسب لها بعينها، و إنما هي تجلٍّ من تجليات الإرادة الإلهية.

المؤمن بالاسم الشريف لا ينهار ولا يغرق ولا يرزخ للموانع ولا تعظم في نفسه حتى تكاد تصير شركاً خفياً. المؤمن بالاسم الشريف لا ييأس ولا يتراجع ولا يخضع للموانع إذ إنه مدرك تمام الإدراك أن وراءها المهيمن جَلَّجَلَالُهُ. هو وحده الذي يهيمن و يسيطر عليها، و هو وحده الذي يوجدها و يرفعها.

الإيمان بالاسم جلاء بالرؤية و توازن في النفس، صحة في الموقف و حسن اعتقاد و التجاء إلى الله وحده عندما يتعرض المؤمن لأمر يتعلق بإيجاد أو رفع مانع، إذ إنه هو وحده المانع حقاً لا أحد غيره، فالحمد لله أن المانع الحق رحمن رحيم عدل عليم حكيم.



اسمه تعالى الضَّار جَلَّجَلَالُهُ

(٠٩١)

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام: ٦/ ١٧].

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٨].

﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: ١٠/ ١٠٦-١٠٧].

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: ١٦/ ٥٣-٥٤].

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٣-٨٤].

﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧٥].

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ [يس: ٣٦/ ٢٣].

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٨].

*****

اسمه تعالى الضار جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من أفضال سيدنا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علينا، إذ لم يرد في القرآن الكريم، كذا الأمر بالنسبة للاسمين اللذين يحيطان به: المانع و النافع جَلَّجَلَالُهُ.

الاسم الشريف كما رأينا سابقاً في اسمه المانع، توضيح و بيان و تفصيل لأسماء شاملة مثل اسمه تعالى المهيمن جَلَّجَلَالُهُ.

كما أن مسألة المنع مسألة حساسة بالنسبة للنفس البشرية و لك أن تنظر في أحوال من يمنع عنه أمر يطلبه كذلك مسألة الضر فهي أكثر حساسية بالنسبة لها.

عين الفكرة في ذكر اسمه تعالى الضار تكمن في الوعي، فالله يريد لعباده النور و البصيرة أي الوعي ولا يرضى لهم الغفلة، فأيّ شيء يطغى على وعي المكلف لحدّ أن ينسيه الله هو غفلة. إذاً بيت القصيد ألا يغيب وعي المؤمن عن الله معظماً سواه و لو لحظة، إذ إن هذا الانقطاع عن الله هو انقطاع مدد الروح أشبه ما يكون بانقطاع الطاقة عن جهاز. بانقطاع مدد الروح و في لحظات الغفلة هذه، يصير المكلف هشاً ضعيفاً محفوفاً بمخاطر المهالك.

النفس البشرية ضعيفة أمام مظاهر و أسباب الضر، إن لم تكن مؤمنة حقاً، ذاكرة لله و متحققة من أسمائه فإنها تعظم الضر و تركع أمامه و كأنه قوة مستقلة عن الإرادة الإلهية.

لا بدّ لي من تفصيل في أمثلة شائعة. كم ممن يعتبر نفسه مؤمناً تجده يعظم الحسد، يخشاه و يخشى الحاسد إلى أن يصير الأمر أكثر من تطيّر بل شكل من أشكال العصاب. في لحظات الخوف هذه من الحسد و الحاسد، يغيب الوعي عن الله جَلَّجَلَالُهُ و هيمنته و كأن قوة الحاسد مستقلة عن الإرادة الإلهية.

كذلك الخوف من الضرر المترتب عن السحر ﴿... وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ...﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢]، كذلك الخوف من الأضرار الجسمية أو المادية. انظر إلى التنازلات التي قد يقدمها الأفراد أو الحكومات خوفاً من أضرار جسمية أو مادية. انظر إلى الانهزامية التي تهيمن على نفس الذي يتراجع أمام من يهدده بالضرر الجسمي أو المادي فرداً أو حكومة، انظر كيف تضيق ساحة وعي ذاك المنهزم الخائف من الضر و تنحصر رؤياه بما يضره أو بمن يريد إيذاءه، و كيف يغيب عنه أن الله جَلَّجَلَالُهُ هو المهيمن و أن الضر كله لا يقع يقيناً إلا بمشيئته.

تفكر في حال ذاك الخائف من ضر ما، تفكر كيف يتنازل عن معطيات المنطق و العقل الواحدة تلو الأخرى، و كيف يبحث عن وسائل من عجيب إلى أعجب لدفع الضر عن نفسه، كيف يبدأ الأمر



بالوسائل المألوفة و المنطقية و كيف ينتهي إلى الالتجاء إلى أمور تخرج عن العقل و المنطق بالالتجاء إلى التعويذة أو القديس أو الولي أو القبر أو المشعوذ الفلاني ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ١٨]، كم هو هزيل حال ذلك الشخص!

كان يكفيه الإيمان المطلق بهيمنة الله جَلَّجَلَالُهُ و أن الضر وقوعه و رفعه بيده سبحانه ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ...﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٧]، قصة سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي المثل الأعلى في هذه الحالة، إذ اجتمع عليه قومه بكلّ ما أوتوا من قوة ليعاقبوه حرقاً فلم يتنازل عن مبادئه و لم يخفها عنهم و لم يصرح بما يوافقهم خوفاً على نفسه من أذاهم. لم يتزعزع إيمانه بهيمنة الله خالق النار الذي قال لها: ﴿... يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٩]. طبعاً، لم يتدخل الله سبحانه عندما ـ حسب ظن السذج ـ علم بنوايا أعداء سيدنا إبراهيم فحماه من أذى النار، ولكن الأمر كله كان مرتباً في سابق علمه سبحانه ليكون عبرة للمؤمنين. كذلك قذف سيدنا موسى في اليم و أمثلة كثيرة لا تنحصر في معجزات الأنبياء بل تتجاوزها إلى عجائب الألطاف الإلهية في خلقه في كلّ حين.

أول ذكر للضر في القرآن الكريم ورد في شاهد في غاية الأهمية و مهمل مع الأسف إذ إن إهماله مهلك للأمة الإسلامية. الشاهد من سورة البقرة قوله تعالى:

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢].

القرآن الكريم كتاب شاءه الله سبحانه في سابق علمه من قبل أن يوجد السموات و الأرض، فكلامه ليس كلام أديب بارع أو مفكر حاذق و إنما كلام الحكيم العليم الذي يقول: كن فيكون. كلّ كلمة في كتابه و كذلك كلّ حرف في محله و ذي مدلول. ألم يقل عنه منزله: ﴿...أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ...﴾ [هود: ١١/ ١]؟.

أول ورود لأيّة كلمة في القرآن باب لعلم كبير.

الآية الكريمة من سورة البقرة ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ ...﴾ من الآيات بالغة الأهمية و التي تجتمع فيها كلمات كثيرة ترد في القرآن لأول مرة.

الآية الكريمة حوت أول ذكر لاسم سيدنا سليمان و الثاني منه من سبع عشرة مرة ذكر فيها في القرآن الكريم. و كذلك كلمة «الشياطين» بألف لام التعريف المرة الأولى و الثانية من سبع عشرة

مرة. أول ذكر لكلمة «شياطين» أتت ـ مضافاً إليها ضمير «هم» ـ في قوله تعالى: ﴿... وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ...(١٤)﴾ [البقرة: ٢/ ١٤].

ربط الآية السابقة بآية هاروت و ماروت أساسي لفهم ما يريد الله أن يفهم المسلمون. الآية ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ...﴾ فيها ذكر فريد لبابل و لهاروت و ماروت، الأهم من ذلك أن فيها أول ذكر لعبارة «سحر» و لعبارة «فتنة» خاصة. و كذلك أول ذكر للنفع أو للضر في أيّ اشتقاق من اشتقاقات الكلمة، قوله تعالى:

﴿...وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ...﴾ الآية الكريمة بما فيها من أسرار يطول تفصيلها، تشير إلى الحجب و الضلالات التي يتعرض لها البشر طلباً لدفع ضر أو لإحداث ضر أو نفع، و هم غائبون في وعيهم عن الهيمنة الإلهية.

اسمه الضار جَلَّجَلَالُهُ يشير في أسراره إلى الأرض و ما وضع فيها سبحانه من أسرار إرادته. إذ إن أحرف أرض هي عينها أحرف ضار، بغض النظر عن جذر ضرر.

فهْمُ ذلك ضروري، إذ بدأ المفهوم الغربي للأرض يتسلل إلى أذهان المسلمين الذين صاروا يرون الأرض بمادتها لا بماهيتها الحقيقية و رمزيتها. الرؤية الغربية تجعل الأرض مجرد كوكب صغير اجتمعت فيه بالصدفة الشروط المناسبة للحياة. و هو بالنسبة و التناسب ذرة متناهية في الصغر تسبح في فلك كون مترامي الأطراف. هذه الرؤية تمنع فهم المعلومات الاستثنائية الموجودة في القرآن الكريم، حيث نجد رؤية تحوي السابقة و تتجاوزها إلى الماهية و الرمزية. اقترن أول ذكر للأرض في القرآن الكريم بفكرة الفساد. ثاني ذكر للأرض عن جعلها فراشاً، ثالث ذكر اقترن بفكرة الفساد، رابع ذكر لها اقترن بتوضيح عن الخلق على الأرض. خامس ذكر للأرض اقترن بفكرة الخلافة و الفساد و أسرار الإرادة الإلهية. في نفس كتلة الآيات من بداية القرآن التي ذكرت فيها الأرض خمس مرات، ذكرت السماء خمساً. في سادس ذكر للأرض نجدها مقرونة لأول مرة بالسموات، أي إن عبارة «السموات و الأرض»، التي نجدها مكررة مراراً في القرآن الكريم، لم ترد إلا بعد اكتمال ذكر الأرض أو السماء خمس مرات كلّاً على حدة. هذا كله يشير إلى أن الموضوع الوارد في الآيات الكريمة لا يقف عند حدود الأبعاد المادية بل يتجاوزها بكثير إلى الأبعاد الحقيقية و الرمزية.

أحرف أرض نفس أحرف ضار، كأحرفٍ لا كاشتقاق. سبق و أن نبّهنا أن الأمر ليس أخذاً بالكلمة في ظاهرها المعتاد بل لما فيها من حقيقة مكنونة. كلٌّ منا ولد على هذه الأرض وألِف خصائصها ولكن، كيف كانت نظرة سيدنا آدم الذي اكتشفها فجأة؟

لنا أن نتفكر فيما على الأرض من أسباب الضر، يكفي أن نرمي شخصاً عارياً في العراء لأشهر طويلة و نسأله عما واجهه من أنواع الآفات و الجراثيم و الحشرات و الحيوانات المفترسة أو ذات السموم، و ما لا يحصى من أذيات فيزيائية و كيميائية و بشرية.

هكذا جبلت النفس البشرية بالتعامل مع الضر ليصير أحد محاور اهتمامها، لدرجة حجبها عن الحقيقة. و ذلك إما في الغوص في ضيق الرؤية المادية، و إما في الضياع في وسائل وهمية. الانقطاع عن الحقيقة في الغوص في الرؤية المادية، يكمن في اعتبار أسباب الضر مستقلة و فعالة بحدّ ذاتها، و ذلك من خلال قوانين مادية صرفة أساسها الصدفة و الاحتمال.

الانقطاع عن الحقيقة في اتخاذ الوسائل الوهمية، يكمن في كلّ أشكال الممارسات و العقائد التي لا أساس لها و التي تنتهي بأشكال من التطير أو السحر أو الشعوذة أو العقائد الزائفة و الكفر.

اسمه تعالى الضار جَلَّجَلَالُهُ يضع حداً لكلّ هذه الضلالات و المتاهات و كذلك لعُمي الرؤية المادية و ما فيها من تناقضات.

اسمه تعالى الضار يفتح للمؤمن الباب إلى أفق واسع حيث أن كلّ ما يجري إنما هو مطابق لإرادة خالق حكيم عليم رحيم لطيف. المؤمن بالاسم و المتفكر بما يجري، يعي الإرادة و الحكمة الإلهية ولا يقف نظره عند ظاهر الأمور، بل يرى على الدوام من ورائها المهيمن جَلَّجَلَالُهُ فلا يخاف من غيره ولا يضع أمله في غيره، فما أسعدهُ إذ جعل رجاءه في الواحد حصراً النافع.

اسمه تعالى النافع جَلَّجَلَالُهُ
(٠٩٢)

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

[المائدة: ٥/ ٧٦].

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧١].

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٨].

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٤٩].

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٥].

*****



اسمه تعالى النافع جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من أفضال سيدنا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علينا، إذ لم يرد في القرآن الكريم.

اسمه تعالى النافع توضيح ضروري يتابع الأسماء السابقة في تفصيل و بيان المعاني الكامنة في أسماء كاسمه المهيمن جَلَّجَلَالُهُ.

كما أن مسألة الضر مسألة حساسة بالنسبة لردود فعل الإنسان و دوافعه، فإن مسألة النفع تكاد تكون أكثر حساسية و أهمية بالنسبة للدوافع و ردود الفعل البشرية.

تبصُّرٌ في جوهر القيم و التعاليم العملية في البشرية جمعاء يقودنا إلى رؤية النفع كدافع و محرك أساسي يتربى الإنسان على طلبه إلى أن يصير هدفاً بحدّ ذاته. لا إشكال في ذلك شرط ألا يعمي ذلك السعي وراء النفع صاحبه عن أمرين: أولهما الصفة المؤقتة و المحدودة للحياة الدنيا، فالجري وراء النفع يصير خطأً عندما ينحصر في إطار الحياة الدنيا لأن حياة المكلف إنس أو جن قصيرة على الأرض. بذلك نستطيع أن نقول: إن الجري وراء نفع دنيوي يمنع نفعاً أخروياً هو بالنتيجة و بالحقيقة ضار.

السعي طلباً للنفع يصير ضراً شاملاً إن أعمى صاحبه عن الأمر الثاني و الأهم، و هو أن أيّ نفع لا وجود له بحدّ ذاته مستقلّاً و إنما هو مظهر من مظاهر الإرادة الإلهية. أيّ نفع يُنسي الله ضر، كما هو الحال بالنسبة لكلّ ما ينسي الله.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٨].

الاسم الشريف بما فيه من تذكرة و حقيقة يجنب المكلّف ضيق الرؤية في طلب النفع ضمن حدود الحياة الدنيا، و كذلك يجنبه ضلالَ وهمِ حجاب مظاهر النفع فيعلم أن لا نفع إلا بنافع و النافع الأوحد حقاً هو الله.

اسمه النافع أول اسم من الأسماء التسعة و التسعين الذي يبتدئ بحرف النون، و في ذلك إشارة للعارفين إذ إنه بذلك يشير إلى حقيقة المقصد الأسنى في النفع، يؤكد ذلك الاسم الذي يليه. ألم تر أن أول حرف في التنزيل من الحروف المقطعة من أوائل السور هو حرف نون، و هو الآخر منها في الترتيب. ورد مفرداً مرة واحدة مستفتحاً بالتنزيل خاتماً بالترتيب لما هو حقاً نافع. ولا يتحصل فهم ذلك إلا بنور من الله.



ألم تلاحظ أن الآيات المستشهد بها لفهم اسمه النافع تقدم ذلك؟ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١٦].

الآيات المستشهد بها تقدم كذلك للاسم المرتبط بالضرورة باسمه النور ولذلك فهو يليه ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧١].

الآية السابقة تثير مسائل كثيرة، أولها طريقة تعامل المسلمين المعاصرين عموماً مع القرآن الكريم، حيث يمرّون على آيات كثيرة ببرود طالما أن الأمر لا يتعلق بهم. فإن كان حدثاً في الأمم السابقة أُخِذَ كحدث مضى و انتهى لا كعبرة دائمة. و إن كان أمراً لا يقومون به في ظاهره فإنهم لا يهتمون به و كأنه محال عليهم، و كأن المرء يضمن إيمانه إلى مماته، و كيف و نحن في آخر الزمان حيث يصبح المرء مؤمناً و يمسي كافراً و الألوف المؤلفة من المسلمين يرتدون عن دين الله إلى عبادة من لا ينفعهم ولا يستطيع لهم ضراً.

انظر إلى شاهد: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٦-٩١].

الآية السابقة مثال على ما ذكرنا من عدم اهتمام عموم المسلمين المعاصرين بآيات كثيرة من هذا النمط، فهم لا ينكرونها فهي من كلام الله، ولكنهم لا يهتمّون بها على أنها بنظرهم حدث مضى و انتهى و على أن الأمر لا يتعلق بهم. لذا فهم لا يحاولون تجاوز الظاهر السطحي للآية ليصلوا إلى العبرة الجلية. تجاهلهم للعبرة يجعلهم خارج دائرة أولي الألباب الذين يمتثلون لأمر الله عندما يأمرهم بالاعتبار.

قصة عجل بني إسرائيل من أماكن العِبَر الكبرى في القرآن الكريم. أولها تشير إليها كلمة العجل نفسها، و خاصة أنه جَلَّجَلَالُهُ يَسَّر لنا الالتفات إلى الإشارة فيها. انظر إلى سؤال الله لسيدنا موسى:

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ ...﴿٨٣﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٣]، و جواب سيدنا موسى: ﴿...وَعَجِلۡتُ ...﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٤]، جواباً عن سؤال من قال عن الإنسان: ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ...﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٧] و الذي يعاتب الناس على حبهم العاجلة. فلا عجب أن يكون اسم معبود بني إسرائيل في فتنة السامري يشير إلى العَجَلَة في طلب النفع، يؤكد ذلك عتب و تأنيب سيدنا موسى لقومه: ﴿...أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ ...﴿٨٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٦].

العبرة تكمن في أن المعجزات لا تنفع للهداية، فالآيات الساطعة التي شهدها بنو إسرائيل في قوم فرعون و حتى شقّ البحر لم يؤثر فيهم طويلاً. و بغياب المرشد، أي بابتعاد سيدنا موسى و بتعرّضهم لأول تأثير، حاول بنو إسرائيل التشبّه بأعدائهم الفراعنة الذين كانوا يعبدون الأوثان، و منها خاصة هاثور و آبيس التي تظهر في المنحوتات الفرعونية ثوراً أو بقرة و الشمس بين قرنيها.

هل ثمة ما هو أفصح من ذلك لمن يعلم دليل حرمة الصلاة عند الشروق. أولى العبر تكمن في تشبه الضعفاء بالأقوياء في الدنيا بالرغم من ضلالهم، أليس ذلك من صميم الواقع؟

العبرة الثانية تكمن في أن العجل المعبود صُنع من زينة القوم أي من الذهب. الرمز في ذلك جلي عندما يصير الذهب و المال في الحقيقة معبوداً. انظر كيف أن رمز الانتعاش الاقتصادي في زماننا هو ثور يستعد للنطح، فعندما تنتعش البورصة يقال: «ذلك الثور»، و عندما تتراجع يقال: «إنه الدب».

قد يقول قائل: محال علي أن أعبد صنماً من ذهب، ولكن ليس ذلك المقصود. فالعبادة ليست طقوساً و تراتيل و عقائد حصراً، بل العبادة تشمل إضافة لذلك موقف المرء و أحوال قلبه. انظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤٣]. الآية تشير بجلاء إلى رمزية و حقيقة كلمة إله، ففي الآية الهوى هو إله ذاك الضال.

إذاً يفهم من ذلك أن الإله هو الذي ينصاع إليه المرء بالكلية و لو للحظة، يشغله عن كلّ شيء، و يسعى لإرضائه. فكم من إله تعبده الناس و هم لا يعون ذلك!

فمن يستطيع أن يقول: إنه لا يعبد صنماً من ذهب، أي إنه ينصاع بالكلية للمصالح و المنافع المالية، يفرح برضاها و يقنت لسخطها، يعتقد أنها تنفعه عند الشدائد و تصير بيت قلبه و محطّ رجائه فتنسيه حتى ربّه؟ من؟ إلا في الحقيقة القليل.

اسمه النافع نور و تذكرة لا غنى عنها تعيد الناس إلى جادة الهدى فلا يمنعها نفع الدنيا، و هي العاجلة، عن النفع الحقيقي في الآجلة. اسمه الشريف يقطع الأوهام و الآمال الزائفة في نفع أيّ شيء أو أيّ شخص، و يحرر العباد من ذل الاحتياج للشيء أو للشخص إلى شرف الالتجاء إلى الواحد النافع الذي لا نافع إلا هو.



اسمه تعالى النُّور جَلَّجَلَالُهُ
(٠٩٣)

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥].

*****

اسمه تعالى النور جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الشريف من الأسماء الحسنى الأساسية و العظمى كما يدلّ على ذلك وروده مرة واحدة في آية استثنائية في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾.

النور من أسماء الله التسعة و التسعين يقيناً، و بالإضافة إلى ذلك من الأسماء الحسنى القرآنية علاوة على جليل قدر و عظمة هذا الاسم الشريف.

لا بدّ لي أن أحذّر من الخلط بين الضوء و النور كخلط الجُهّل بين النفس و الروح. يكفي متابعة اللفظين في القرآن الكريم لإدراك الفرق الجلي و الشاسع بينهما و عدم الخلط في استخدامهما.

لفظ ضوء يعبر عن مفهوم ينتمي لعالم المادة، في حين أن لفظ نور يعبر عن مفهوم لا ينتمي إلى عالم المادة في حدودها بل يعبر عن مفهوم في عالم الحقيقة الذي يحوي عالم المادة.

النور كمفهوم، هو الذي يظهر حقيقة الأمور و يعطيها معنى، أي حكمة وجودها و غايتها. كون النور مرتبطاً بالحق النقي من كلّ شائبة، فهو أساس العلم الحق الذي لا تغيب فيه معرفة حقيقة الأسباب



و الغايات ضمن وضوح رؤية الإطار الكلّي للمقاصد في البدايات و النهايات. انظر كيف أن الهدف الأساسي للقرآن الكريم هو كما قال منزله مستفتحاً السورة بأحرف مقطّعة: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١].

كما أن النور أساس للعلم الحق فهو بذلك أساس للهداية، فلا هداية بلا نور. و كذلك فالنور إضافة لأنه أساس الهداية فإنه المقصد الأسنى للهداية و غايتها النهائية بدليل قوله سبحانه: ﴿... يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ ...﴾.

رأينا كيف أن اسمه النافع بنونه و ما فيها من إشارات قدّم لاسمه النور، فالنفع بشكله الأقصى و الأمثل لا يكون إلا بنور من الله.

لاحظ كيف اقترن ذكر النور في القرآن الكريم بالظلمات. لاحظ ورود عبارة نور بالمفرد، فالحقيقة و الهداية واحدة، ولاحظ ورود عبارة ظلمات بالجمع فالضلالات كثيرة. لذا، و لقطع الطريق أمام أوهام و ضلالات كثيرة في طلب النور من غير الله، فقد مَن الله على العالمين بإخبارهم أنه هو النور ولا نور بالمطلق إلا هو و أيّ نور فمنه حصراً. فليتفكر الذين يعلمون ضلال أولئك الذين يطلبون النور ممن سموه معطي النور، و كم فعلوا في عصر سموه عصر الأنوار مستمرين في طلبهم ما يزعمون أنه نور من غير الله، و كذلك الحال لمن سبقهم ممن سمّوا الخمر نوراً و عبدوه في طقوس تتصف بالفحش. ما سبق يؤكد ما ذكرناه مراراً من أن الإسلام لا ينحصر في طقوس و شعائر تخصّ المسلمين بل هو نور و هداية للعالمين، و أن الأجوبة الموجودة في الإسلام الحقيقي و القرآن خاصة هي أجوبة عن تساؤلات كبرى يتعرض لها البشر و خاصة أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة.

اسمه تعالى النور هو الباب و السبيل إلى العلم الحق و الهداية. لا علم ولا هداية إلا بالنور جَلَّجَلَالُهُ. من ينكر ذلك لا ينكره إلا لأنه مقطوع عن النور جاهل به فكيف يؤخذ رأي الجاهل بالأمر...

تأكيداً لما سبق يكفي متابعة الآيات من بعد آية النور لنجد المقولة الإلهية الحازمة: ﴿...وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النور: ٢٤/ ٤٠]، أقول موضحاً و مقرباً للأذهان: «ما فائدة مكتبة عامرة في ظلام دامس؟!». لن أقول ما فائدة علم بلا نور إذ إن هذه المقولة مغالطة إذ لا علم أصلاً بلا نور وإنما جهل و ادعاء.

﴿...وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ الآية تشير بجلاء أن النور منه حصراً يمنحه هو وحده كما يؤكد على ذلك قوله من آية النور: ﴿...يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ لا يتم بلوغ النور أو الاقتراب منه إلا بالمشيئة الإلهية. الذي يرى في ذلك طغياناً هو الذي يسقط محدودية بشريته أو محدودية المخلوق على الخالق الذي هو كما أنه خالق فهو رحيم و ودود بما يفوق أيّ إدراك أو تصور.

الآية الكريمة: ﴿...وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فيها آيات من الكرم الإلهي في بحور من العلم اللدني إشاراتها كلمات مثل بحر و مثل يد.

من عجائب القرآن الكريم أن سورة النور التي حوت آية النور العظيمة تبتدئ بمسائل قاتمة وتعيسة عن الزنا. اذهب إلى مرشد أو معلم أو مدرب كفء و فعال و اطلب منه أن يعلمك علماً أو فناً فسوف تجده يبدأ معك مبيناً الأخطاء المانعة لتحصيلك ذاك العلم أو الفن. بيّن لنا سبحانه أن لا نور بأخطاء مهلكة أولها الزنا و ما شاكله من فحش، أليس ذلك قطعاً لطريق طقوس الذين يطلبون النور ممن سموه معطي النور. بعد تجنب الموانع المهلكة يكون طلب النور الحق بعدم الالتفات إلى منافع الدنيا عن ذكر الله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٢٤/٣٧]. الطريق إلى النور يكون بعدم الانشغال عن الله و من ثم بذكر الله و خاصة بإقام الصلاة، أليس الوضوء نوراً فكيف الصلاة ؟ فكيف الصلاة وما فيها من عجائب آيات الأسرار الإلهية التي لا يعلم منها إلا جانب قليل.

اسمه تعالى النور يصعب إيفاؤه حقه كذا الأمر لباقي الأسماء الحسنى فهو السبيل الذي لا بدّ منه للسمو و للعلم الحقيقي و للهداية، فلا
المؤقتة عندما تزول ولا يبقى محلها إلا الندامة و التعاسة الأبدية.

ملاحظات على اسمه تعالى النور جَلَّجَلَالُهُ:

كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول في دعائه:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا» [صحيح البخاري: ٥٨٤١].

اسمه تعالى الهادي جَلَّجَلَالُهُ
(٠٩٤)

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٦].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٧].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣١].

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ الفاتحة.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١-٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٥].

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٣].

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٦].

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ



نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥].

﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٦٢].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦٠/ ٧٨].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٦].

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: ٩٠/ ٨-١٠].

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: ٩٣/ ٦-٧].

*****

اسمه تعالى الهادي جَلَّجَلَالُهُ:

اسمه تعالى الهادي من الأسماء الحسنى القرآنية، ورد في موضعين:

قوله تعالى: ﴿... وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٤]،

و قوله تعالى: ﴿... وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣١].

اسمه تعالى الهادي تذكرة للذاكرين، يختصر أحد أهم مواضيع القرآن على الإطلاق: موضوع الهداية.

موضوع الهداية ينحصر في أذهان المسلمين المعاصرين عموماً بما يتعلق بالإسلام و الإيمان، بالمفهوم الضيق و السطحي للكلمتين. الواقع أن الموضوع أوسع و أشمل بكثير من هذه الرؤية التي تقارب في بساطتها السذاجة.

إن قلت: «هداية»، أقول لك إلامَ في الحقيقة ؟

في الحقيقة، إلى عقيدة أو منهج أي طريق يوصل إلى معرفة أو هدف أو مثل أعلى.

و هكذا تجد أن الأمر يمسّ البشر أجمعين شاؤوا أم أبوا، أدركوا ذلك أم لم ينتبهوا إليه...

نستطيع أن نقول: إن القناعات الكبرى نوع من عقائد، و العقائد لا تنحصر بالغيبيات بل تشمل العلم و الفكر و القيم و المثل.

طبعاً، هذه العقائد ليست وليدة قناعات فردية، بل هي بالنسبة للسواد الأعظم من البشر نتيجة تأثير فكري من قبل أشخاص على المجتمعات. في الحقيقة، غالباً ما تُستَخدَم قوى أولئك الأشخاص لترويج بعض الأفكار، أو أن أشخاصاً يستخدمون تلك القوى لترويج أفكارهم و فرضها.

المهم في الأمر، هو أن الذين يطرحون و يفرضون هذه الأفكار أو النُّهُج أو عملياً هذه العقائد يعتبرون أنفسهم هادين إلى الصواب، و يقدّمون أنفسهم و عقائدهم نهجاً فيه الصواب و السعادة.

انظر إلى البشر عبر الأزمنة و خاصة في عصرنا، تجد كلّ واحد منهم مقتنعاً بطريق أو آخر: كم من شيوعي في الثلاثينات من القرن الماضي كان مستعداً للتضحية بنفسه و بذل دمه من أجل مثل أعلى طرحه ماركس. كذا الأمر بالنسبة للعقائد القومية، كيف صارت مثلاً أعلى و كيف مزقت هذه العقائد صف المسلمين. انظر إلى الكتاب الأحمر في صين ماو، كيف كان نهجاً و عقيدة. انظر إلى القناعات العنصرية أيام هتلر، انظر إلى قناعات الكثير من العامة أيام ستالين، انظر إلى العقائد و القناعات المناقضة أيام ماكارثي. انظر كيف تصير الحرية و الديمقراطية مبادئ و عقيدة، و كيف يتم شنّ الحروب و قتل الألوف من أجل فرض «الحرية».

بالنتيجة تجد أن أيّ إنسان مضطر للاعتقاد بشيء أو آخر، حتى الإلحاد صار عقيدة ! حتى العلم الحديث و ما فيه من حقائق مزعومة، و حتى الرأي العام ليس سوى جملة عقائد تناسب أولئك الذين يصنعونه و يطرحونه عبر وسائل الإعلام... بالنهاية، تجد الإنسان بالضرورة إما مغرّراً به كما كان في الأقوام السابقة، ضالّاً يتبع الضالين لأنهم أقوياء، و إما شخصاً يبحث عن مخرج إلى الصواب و الحقيقة.

إذاً مسألة الهداية مسألة تتعلق بقيم و قناعات تهمّ أيّ إنسان أو تفرض عليه، ولا يستطيع أحد تجاهلها ولا التهرّب منها. إذ يجد نفسه أمام سيل من الأفكار و القناعات و القيم و المثل المتنوعة و المتعارضة، يحار فيما يأخذ أو من يصدق أو من يتبع ﴿...**كَالَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ** ... ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧١]. إذ إن كلّ فريق يدعو إلى حزبه.

والحل؟

الحل يكمن في معادلة بسيطة مفادها: لا بدّ أنه جَلَّجَلَالُهُ الذي أوجد كلّ موجود أدرى بحقيقة و غاية ما أبدع و أوجد.

هل يصدر عنه الباطل؟ هل يخطئ ؟ حاشاه سبحانه!

أليس أولى أن يُتَّبَع هُداه و هو الحق جَلَّجَلَالُهُ؟ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣٥].

الله الذي خلق المكلفين من خلقه، جعلهم في الحياة الدنيا لفترة و هداهم النجدين.

فقد مَنّ الله على المكلفين من خلقه أنه أرسل المرسلين و النبيين للهداية. و قد كان بالإمكان أن ينحصر أمر النبوة و الهداية بسيدنا آدم. فقد علمه الله، و سجد الملائكة له، و تلقّى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ربّه كلمات. أي لا شك بكمال دين سيدنا آدم بلَّغَه ذريته على الأرض. و قد كان بالإمكان أن يحمّل الله كلّ جيل مسؤولية تبليغ الرسالة للجيل الذي بعده إلى يوم القيامة. ولكن تدخلت النفس بأهوائها فنسيت و ضلت و بدأ البعض يدعي الهداية فيضُل و يضِل.

ما أكرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ و ما أرحمه و ما أرأفه و ما أصبره، إذ منَّ على الناس بمئات من الأنبياء و الرسل ليرشدهم إلى الهداية الحق.

ما أتعس ذلك الذي يتّبع نهجاً يحسبه يوصله إلى الحقيقة و السعادة، و يجده بعد سنوات طويلة من الجهود سراباً، فيبحث عن نهج آخر و يجده ثانية ضلالاً. و ذلك إن كان محظوظاً بعدم فوات الأوان! وما أسعده إن بلغ بالنهاية الهداية الحق.

*****

آخر رسالة من الله إلى الناس في الهداية، هي رسالة خاتم النبيين محمد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الذي فتحت بعثته العدّ التنازلي لآخر الزمان.

انظر في التوراة كما هي عليه منذ زمن، تجدها تبدأ بنوع من تاريخ أسطوري طويل على مدى عشرات الصفحات إلى موت سيدنا موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

انظر في الأناجيل الأربعة التي اعتمدتها الكنيسة، تجد كلّاً منها يبدأ بطريقة أو أخرى و غالباً على شكل قصة سيرة نبوية.

انظر في باقي الكتب المقدّسة، ثم انظر إلى القرآن الكريم، تجد أول سورة منه محور موضوعها طلب الهداية، بل إن فاتحته دعاءٌ متسامٍ ذروة تأججه نداء إلى الرحمن الرحيم ربّ العالمين طلباً برجاء: ﴿... ٱهْدِنَا ...﴾ الفاتحة. انظر بعد فاتحة القرآن الكريم، تجد أن السورة التالية تستفتح بالهداية و يبقى الموضوع فيها مفتوحاً عبر عشرات و عشرات الآيات و يستمر في القرآن الكريم كما بيّنا بالآيات الكريمة الكثيرة التي سبقت تعليقنا.

الدلالات في أن الهداية المعروضة في القرآن الكريم، هداية الله الذي لا إله إلا هو الخالق الواحد الأحد، دلالات تكاد لا تحصى.

أبسطها أن موضوع الهداية يبدأ طرحه في أول سورة من الترتيب: فاتحة الكتاب ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ الفاتحة، و ينتهي في أول سورة من التنزيل: سورة العلق ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ العلق، وهي آخر آية من القرآن الكريم نجد فيها كلمة مشتقة من جذر «هدي». لو أن ذلك صنع بشر لافتخر صانعه به. اللفتة السابقة لفتة لطيفة من أبسط الأدلة على أن الهداية في القرآن هداية الحق الواحد الأحد.

أعظم الأدلة على تساؤل من قد يقول: و ما يثبت لي أن ذلك الكتاب لا ريب فيه و أن الهداية فيه هي الهداية الحق؟ تجده في أبحر علوم الأحرف المقطّعة، أولها أول أحرف سورة البقرة التي تبتدئ بموضوع الهداية و تتناوله مطولاً ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١-٢].

*****

اسمه تعالى الهادي اختصار و تذكرة للكمِّ الكبير من المعلومات الأساسية حول الهداية في القرآن الكريم. لذا لا يكون فهم الاسم الشريف إلا بمطالعة و دراسة و فهم جميع الآيات التي تتناول مسألة الهداية.

ملخص ما ورد في الآيات، أن اسمه تعالى الهادي يقطع الطريق على من يدّعي الهداية إلى غير الله ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٠].

إذ، و ذلك بعد مطالعة الآيات، لا هادي يهدي هداية كاملة إلى الحقيقة إلا الله. ولا هدى حقيقياً و كاملاً إلا هدى الذي قال: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٠]، ﴿...قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ...﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٣]، ﴿...قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ...﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧١]، ﴿...قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣٥].

إذاً الآيات تبتُّ في الأمر و تقطع فيه. فلا يضيّع المرء جهوده و نفسه في طلب هداية من غير الله، في زمن متسارع لا وقت فيه لبحث طويل عن الحقيقة، أو لتجارب مع من يدّعون أن كلّ الطرق توصل بالنهاية إلى نفس الحقيقة.

*****

من بعد علمنا أن الهدى الكامل و الحقيقي حصراً هدى الله، و أن لا هادي إلا الله، نعلم من الآيات الكريمة أن الهداية لا تحصل إلا لمن شاء الله له ذلك. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣].

إن رأى الإنسان في ذلك طغياناً أو غبناً، فإنه مخطئ بإسقاطه حدود عقله و فكره و هو المخلوق الصغير المحدود في الزمان و المكان و العلم، على الخالق العظيم الذي يتجاوز الزمان و المكان كله إذ إنه منزّه عنهما سبحانه. محال عليه الظلم و هو النور و هو الحق، و خاصة أن هدايته تجلٍّ من تجليات اسمه الودود كما يعلم بذلك العارفون.

مختصر الآيات أن الله يهدي من يشاء و يضلّ من يشاء. مشيئته مطلقة لا تستطيع أية مشيئة معارضتها كما يشطح إلى ذلك البعض.

بذلك يذكّر اسمه تعالى الهادي بآيات توجب إعادة النظر في المفهوم الشائع عن الهداية و آليتها. فالشائع بين الناس، من أبسطهم إلى أعلمهم، أن الهداية تتوجه إلى الكفار أو الظالمين أو الفاسقين، تنحصر بهم و تهدف إلى إصلاحهم، و أما المسلمون فقد تجاوزوا مرحلة الهداية و شأنهم الامتثال لأوامر و نواهي الشرع.

مطالعة القرآن الكريم تقودنا إلى حقيقة مخالفة، مختصرها أن الله لا يهدي الظالمين ولا الكافرين ولا الفاسقين... إذاً ما الفائدة من الهداية كما قد يخطر ببال ساذج متسرع؟ و لمن تكون؟

شواهد القرآن الكريم صريحة عندما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٨]، ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥١]، ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧]، ﴿... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٨]، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٩]، ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤]، ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٣٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ



أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٤]، ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣]، ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٨]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٣].

الشواهد القرآنية السابقة دعوة للتفكير في حقيقة مفهوم الهداية. فهي تدحض سذاجة الذي لم يبذل جهداً لدراسة القرآن الكريم فيظن، أن الهداية تتوجه إلى الضالين أو الكافرين فيسلموا و يؤمنوا.

الشواهد القرآنية السابقة ظاهرها طرد و حقيقتها هداية. إذ إنها تقطع الطريق على أحلام وردية، و تهدي إلى حقيقة مفادها: أن الهداية ليست عصاً سحرية تحول الأبالسة إلى ملائكة، و إنما طريق طويل إلى الله.

الآيات الكريمة تضع المكلّفين من الخلق أمام مسؤولياتهم، فلا هداية مع تسيّب أو استهتار، ولا هداية لمن هو في الحقيقة كالولد المدلل لا يُحاسَبُ مهما فعل و يحظى من أهله على كلّ ما يريد.

الآيات الكريمة تضع المكلّفين من الخلق أمام مسؤولياتهم. إذ لا يستطيع أحدٌ منهم أن يدَّعي أنه مضطر أن يكون ظالماً، فالذي يقدر على الظلم لا تنقصه القدرة على العدل. ولا أنه مضطر للكفر، إذ الإيمان في القلب، فلم يمنع طغيان فرعون إيمان امرأته. ولا أنه مضطر للفسق أو الكذب أو الإسراف.

الأمر إذاً خروج من أوهام الآمال الزائفة إلى الحقيقة و ما فيها من مسؤولية و عدالة. إذ ليس من العدالة معاملة المجرمين أو المستهترين، كمعاملة الذين يتوقون إلى الصلاح و الحقيقة ساعين جاهدين إلى ذلك.

أقول مؤكّداً على ماسبق: إنه لا أحد يستطيع أن يدّعي أنه وجد نفسه مضطراً أن يكفر أو يظلم أو يفسق أو يكذب. انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٥]، هذه المقولة الإلهية تذكرنا بالضرورة قوله سبحانه لإبليس مبيناً للعالمين أصل البلاء، بقوله: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦].

سؤاله سبحانه لم يكن استفهاماً أو استفساراً، و هو سبحانه عالم الغيب، بل كان استنطاقاً و إظهاراً للحقيقة. هكذا بيَّن لنا سبحانه أن سبب المنع هو الكِبر و التعالي، و أن أصلهما يكمن في طغيان الأنا. كذا الحالُ بالنسبة للظالمين و الكافرين و الفاسقين و المسرفين و الكاذبين، ما منعهم عن الحق إلا طغيان الأنا.

*****

بعد إذ بيّن سبحانه الموانع التي تحرم العباد من الهداية، فإنه يؤكد لنا ما رأيناه سابقاً من ضرورة التدقيق في مفهوم الهداية في آيات أولها قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ** ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١-٢]. ليس هدى للظالمين أو الفاسقين و إنما للمتقين و المؤمنين، كما فصَّل سبحانه فيما تلى من كلامه سبحانه. و كذلك قوله تعالى من سورة العنكبوت: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٩]. الذين جاهدوا في الله ليسوا كفاراً بل مسلمين مؤمنين وعد الله هدايتهم. و كذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٦]. يؤكد ذلك شاهد آخر، قوله تعالى من سورة النساء: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾. انظر كيف أن الكلام عن الذين آمنوا، فالفعل في الآية فعل ماض، و قوله: ﴿...وَيَهۡدِيهِمۡ ...﴾ مضارع معطوف على قوله: ﴿...فَسَيُدۡخِلُهُمۡ ...﴾. أي إن التتابع الزمني في الآية جليٌّ لا لبس فيه: أولاً آمنوا، ثم فسيدخلهم ثم يهديهم، تأمل! ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩]، ﴿...قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٧].

يُفهم مما سبق خلافاً لما هو شائع أن غاية الهداية و حقيقتها لا تنحصر في الإسلام و الإيمان ولا تقف عندهما أبداً، **بل تتعداهما بكثير**.

*****



أول طريق الهداية يبدأ بالإسلام ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٥]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٢].

ثم يستمر الأمر بالإيمان ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ٦٤/ ١١]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٧٦].

إذاً ثمة طريقٌ طويل و زاد كبير من بعد الإسلام و الإيمان، فعجباً للمسلم يحسب نفسه مؤمناً ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١-٢]، و يظن أن هدايته كاملة، ولا يشعر أنه واقف في أول الطريق!

هل يصل من يقف؟

على المسلم إذاً إتمام الطريق بتحصيله سائر جوانب الهداية التي منّ اللّٰه عليه بها في قرآنه و سنّة رسوله. أذكّر بأن نسبة ما يعلم المسلمون من القرآن إلى نسبة ما يجهلونه، كنسبة القطرة إلى البحر.

إذاً ثمة طريق طويل و زاد كبير من بعد الإسلام و الإيمان، يقود إلى الصراط المستقيم الذي ارتبط ذكره على الدوام بالهداية ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٢٥]. فالصراط إن كان نهجاً في الحياة الدنيا أو الذي هو يوم القيامة، فكلاهما وسيلة و مرحلة إلى غاية.

الذين كتب اللّٰه لهم السعادة بالنجاة، هل مستقرّهم على الصراط، أم أنهم عابروه بسلام؟ فالصراط المستقيم ليس غاية الهداية النهائية. غاية الهداية الحقيقية هي اللّٰه، غاية الهداية الحقيقية هي الحق ﴿...قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ...﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣٥]، و كذلك النور ﴿... يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ...﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٥].

بقي أن يبحث الإنسان من بعد إسلامه و إيمانه، في الهداية التي مَنَّ اللّٰه عليه بها ليأخذ بها، ولا متّسع في هذا المكان لتفصيل ذلك. ولكن نحاول أن نجمل فنقول: إن اللّٰه جعل للناس في كتابه و سنّة رسوله هدايةً لكلّ من ضل ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: ٩٣/ ٧]، أو لكلّ من احتار أو بحث عن حقيقة أية مسألة في خضم بحر الآراء المتعارضة. فاللّٰه يهدي إلى الجواب أو الحلّ الحق و الأمثل

في أية مسألة دنيوية كانت أو معاشية، من علاقات أسَرِية أو شخصية أو اجتماعية أو معاملات أو أصول قانونية، و مبادئ اجتماعية و نفسية و مبادئ و أسس في السياسة و العلاقات الدولية أو حقائق و مبادئ و أسس في التاريخ أو شتى العلوم.

النص القرآني معجِز فيما فيه من رحمة في عرض الأمور بطريقة لا تربك البسطاء، ولكنها تفسح المجال للعلماء في الخوض فيها من بعد تدبرها و فكِّ رموزها. نسبة المعلوم من القرآن إلى المجهول منه نسبة القطرة إلى البحر، يقيناً حقاً بلا مغالاة.

نختصر الفكرة السابقة و نقول: إن الهداية لا تنحصر بنعمة الإسلام و الإيمان، بل تتعداهما صعوداً إلى الحق و النور. ذاك الحق و ذاك النور يمنُّ الله بهما على الذي يتقي و يجاهد فيه متمثّلاً لنواهيه و أوامره متدبّراً لكتابه الذي يُخْرجُ من الظلمات إلى النور ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١].

لا هداية حقاً إلا بالنور الأعظم الذي في القرآن، و هو قول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. ورد حصراً مرتين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٣٥] و قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴿١٩﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١٩]. ورود لا إله إلا الله مرتين يشير بالنسبة للعارفين إلى الصراط. الصراط فصل: إما هلاك و إما نجاة، لا ثالث لهما كما في الشاهدين السابقين.

قد يظن الجاهل أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مجرد عبارة تنحصر بمسألة الشهادة أي التصريح عن العقيدة. الواقع أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بحر من العلم الدقيق يشمل العلوم الأخرى، لا يدركه إلا من بلغ شاطئه بعد إذ انتبه أنه سبحانه لم يقل: (فاشهد أنه لا إله إلا ...)، بل قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴿١٩﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١٩]، و **الفعل ههنا فعل أمر، فهل للعبد إلا أن يمتثل؟...**

إذاً لا هداية حقاً إلا بنور من الله، نورٌ يتجلّى خاصةً كعلم حقيقي كما رأينا، ابتداءً من فهم حقيقة القوانين التي تحكم المادة، و انتهاءً بالعلم اللدني المكنون في كلمات و أحرف ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

بذلك يصير اسمه الهادي يحمل معنى المعلِّم، و هو أولى بحمله من اسمه تعالى العليم. انظر في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٠]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢].

*****

في الجولة السابقة قمنا بالحدّ الأدنى مما ينبغي في التحقّق من معنى الهداية، و ذلك بنور الآيات الكريمة التي استشهدنا بها، و التي لا تقف عند ما أشرنا إليه، ولكن تشمل أموراً أخرى حساسة وأساسية.

من بعد علم المكلّف بمسؤوليته، يجد نفسه مُلزماً بالامتثال. فقد منَّ الله عليه بالهداية ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٩٣/ ٧]، لأنه تجاوز الظلم و الكفر و الفسق و ما ذكرناه.

الملاحظ أن الله يمنُّ بالدخول في الإسلام لمن يتصف بخصال حميدة، على رأسها الغيرية و الإيثار و المروءة و النخوة و النجدة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٦٨/ ٤].

هذه الخصال عنها يصدر برّ الوالدين و الكرم و الأمانة و الصدق و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

هكذا يجد الذي منَّ الله عليه بالهداية نفسه مُلزماً بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. أي بعبارة أخرى: أن يكون فعّالاً في الهداية يسعى في هداية الناس و تعريفهم بحقيقة الإسلام، فيجد نفسه أمام تحدي هداية الآخرين.

لم يتركه الله، بل هداه إلى حقيقة أولها رأيناها أن الهداية لا تكون إلا بمشيئة الله. ثانيها توضيحاً يحمي المسلم من الغرور بهداية الآخرين، وكذلك يحميه من الإحباط أو الثورة أمام إصرار الكافرين.

انظر في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ .. ۝٢٧٢﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢]، ﴿... أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝٨٨﴾ [النساء: ٤/ ٨٨]، ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ۝١٩٣﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٣]، ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٨]، ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٧﴾ [النحل: ١٦/ ٣٧]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٦].

من بعد العلم بالآيات السابقة التي هي دعوة للتواضع و للتبرّؤ من الحول و القوة، انظر إلى الحجة البالغة في هدايته سبحانه لمن يحار من عباده أمام أحوال الناس من إيمان و كفر: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٩].

ما من شخص تعرّض للمسائل الدينية أو الإيمانية إلا و تساءل: «لم لا يهدي الله الناس أجمعين؟».

الآية الكريمة السابقة في الجزء الثامن:

- تثير المسألة،

- تحصرها بالمشيئة الإلهية

- و تحضّر قارئ القرآن للجواب، و ذلك بدفعه أمام شرط «لَو» [...فَلَوْ شَآءَ لَـ ...] أن يقول: **ولكن** لِمَ لم يفعل؟

إن تابع السائل تدبّر القرآن الكريم، فسوف يجد تأكيداً بعد مطالعة طويلة، و ذلك في آية من الجزء الثالث عشر ﴿...أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ...﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٣١].

﴿...لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ لَـ...، **ولكن** لِمَ لم يفعل؟

نتابع، فنجد آيتين في الجزء الرابع عشر تؤكدان الفكرة: ﴿... وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٣].

الآية الأخيرة تتميّز عن الثلاث التي سبقتها بعبارة [... وَلَٰكِن ...].

هذه الآية بوضعها المكلفين أمام مسؤولية أعمالهم ﴿... وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٣]، تحضّر للتوضيح النهائي و الرهيب الذي نجده في الجزء الحادي و العشرين، و الذي يتميز بعبارة [... وَلَٰكِن ...]:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا

وَلَٰكِنْ

حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٣].

لِمَ؟

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٧]، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٣٤]، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٩٠]، ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٥]، ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٤]، ﴿...وَأَسَرُّواْ



ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٣]، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٧]، ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [التحريم: ٦٦/ ٧].

فالعبرة إذاً بالعمل.

لا يستطيع أحد طلب الهداية و هو يسيء العمل. فالذي عنده من العزم و القوة على السيئات، عنده ما يكفيه من العزم و القوة على الصالحات.

و كذلك لا يستطيع أحد طلب الهداية بلا عمل صالح و هو قادر عليه.

الإسلام ليس أوهاماً و أحلاماً خلبية و صِبيانية، بل نهجٌ يسير بالإنسان إلى النضج و الواقعية وتحمّل مسؤولية أعماله.



انظر في عبارة سيد المرسلين صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندما قال: «وَاللّٰهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللّٰهُ بِهُدَاكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» [سنن أبي داود: ٣١٧٦]. وقوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ مخاطباً معاذ بن جبل: «أَنْ يَهْدِيَ اللّٰهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» [مسند أحمد: ٢١٠٥٩] لم يقل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «لأن تهدي رجلاً...». صياغته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ليست مجرد أدب منه مع ربّه، بل علاوة على ذلك دقة في التعبير و علم بأن لا هادي إلا اللّٰه. فالعبد مشرفٌ بكونه وسيلة أو أداة يهدي اللّٰه به من شاء.

هكذا لا يدّعي المسلم هداية أحدٍ، ولا يمنُّ على أحد بذلك. بل يسعى جاهداً ليكون أهلاً لشرف و سعادة الهداية وذلك:

أولاً: بتمثل هداية اللّٰه في كتابه و سنّة نبيه، فيصير المسلم المؤمن قدوة و مثلاً يُحتذى به. و إلا، فكيف له أن يُعَرِّف بالإسلام؟

كم ممن دخلوا الإسلام، دخلوه بمجرد تعاملهم و احتكاكهم مع مسلمين لائقين بلقب الإسلام. وكم ممن كانوا مقبلين على الإسلام أدبروا، وكم ممن نفروا منه، كانوا ضحية من يسمّى مسلماً وهو يسيء إلى الإسلام بكذبه و نفاقه و عدم وفائه بعهوده، و خاصة بضعفه و جهله و تخلّفه.

مسؤولية ذلك المسيء للإسلام كبيرة، و حسابه يوم القيامة عسير. إذ إن فعله في حقيقته تماماً كفعل المضلين، يُحشَرُ معهم و يُعاقَبُ مثلهم على من يحتج عليه ممن أضل.

ثاني خطوة يستطيع المسلم القيام بها للهداية، تتمثل بإزالة موانع الهداية من ظلم و فسق و كذب و إسراف و كفر.

عندما يقوم المسلم بإزالة موانع الهداية، يكون قد يسّر الأمر كثيراً على الناس. و إن لم يبذل المسلم جهوداً لإزالة موانع الهداية، فإنه كالذي ترك ناراً تمتدُّ فتصير حريقاً و تنتشر فتلتهمه هو و من معه. طبعاً عندما أقول: «المسلم» أقصد الكلمة على العموم، لا أقصد الفرد بغض النظر عن الجماعة، بل الفرد في الجماعة. فمسؤولية الهداية في الإسلام، مسؤولية كلّ فرد انسجاماً مع الجماعة. أي بالنهاية عمل جماعي، يتحمل كل فرد فيه مسؤوليته ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ... ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١١]، ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٤].

ثالثاً: و ربما آخر ما يستطيع المسلم القيام به حباً للهداية، هو أمر غاية في الأهمية و السمو، و هو كذلك غاية في الوعي.

طالما أن الهداية لا تكون إلا بمشيئة الله، و طالما أن باب السؤال و الدعاء مفتوح، فمن المنطقي أن يدعو المسلم لغيره بالهداية.

و هكذا يكون الدعاء تتويجاً للخطوتين السابقتين. كم من الناس أسلم بدعوة صالحة، أولها دعاء سيدنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله لغيره كدعائه لسيدنا عمر مثلاً.

فالمسلم المؤمن يدرك أن الهداية هي النعمة الحق، فلا تغيب عن وعيه، بل يسألها في كلّ صلواته له و لغيره، راجياً الله الرحمن الرحيم بعد إذ صرّح بعبوديته و سأل العون: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...﴿٧﴾ ﴾ الفاتحة.

هذا هو النعيم حقاً، نرجوه لنا و لغيرنا و نسعى إليه.

﴿... وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٣].

اسمه تعالى البديع جَلَّ جَلَالُهُ
(٠٩٥)

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ

قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٠-١٢٥].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١٧].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١].

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٩].

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٧].

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٨-٧٠].

*****

اسمه تعالى البديع جَلَّجَلَالُهُ:

من الأسماء القرآنية، حيث ورد مرتين:

قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٧]، وقوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١].

الرجوع إلى النص القرآني الشريف لمراجعة كيفية استخدامه تعالى لكلمة ما، عملية ضرورية للتحقق من صحة فهمنا للمقصد الإلهي من تلك الكلمة، قبل شروعنا في تفسيرها.

الكلمات المبنية على جذر بَدَعَ قليلة في القرآن الكريم. نجدها في موضعين اثنين: ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٩]. و﴿ ...وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا ... ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٧].

نجد في الشاهدين السابقين معنى مطابقاً للمعنى الشائع في أذهاننا لاشتقاقات بَدَعَ. المعنى واضح في قوله تعالى: ﴿... وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا ...﴾ أي ابتكروها و استحدثوا فكرتها و لم تكن موجودة بعينها.

قوله تعالى: ﴿...مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ...﴾ يتطلب جهداً بسيطاً لنفهم منه أنه طُلب من سيدنا محمد أن يبيّن للناس أنه ليس رسولاً يتميز بخصائص جديدة تجعله مختلفاً عن سائر الرسل و مخالفاً لهم في رسالته، و إنما رسولاً قد خلت من قبله الرسل. تتمة الآية تؤكد على هذا المفهوم.

﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ
وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ
إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ

وَمَآ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٩].

بهذه الجولة نكون قد تأكدنا أن أيّ كلمة مبنية على جذر بَدَعَ يقصد منها في القرآن الكريم إيجاد شيء أو أمر لا سبق له. لا بدّ من التأكيد أن المقصد ههنا من الإيجاد ليس إيجاد عين الشيء أو الأمر أو مادته، و إنما فكرة هذا الشيء أو هذا الأمر. فالإبداع يكمن في السبق و الابتكار في الفكرة و المفهوم. و بذلك يتميز مفهوم «أبدع» عن مفهوم «أوجد». هكذا يتميز مفهوم اسمه «البديع» عن مفهوم اسمه «الواجد» يُذَكِّر به و يكمله، إذ بالإمكان الإيجاد من غير إبداع. لمن قد يتردد عند الفكرة السابقة، أوضّح و أقول: إنه يمكن أن يزعم البعض أن ثمة وجوداً أو خلقاً فَنِيَ و عدمَ لسبب ما، ثم جاء إله فأوجد كلّ موجود، فلا يكون قد أبدعه إذ سبق و كان موجوداً. كما أن اسمه البديع يذكّر باسمه الواجد، فإن الأخير يذكِّر بأسمائه تعالى الخالق و البارئ و المصور، و قد تشرفنا بالوقوف عندها.

مما سبق تبين لنا أن اسمه البديع من الأسماء الضرورية لحسن الاعتقاد بالله بتكميله اسمه الواجد، و كذلك الخالق و البارئ و المصور.

من المعاني السليمة و الشائعة لكلمة بديع أو أبدع معنى التميّز، تؤكده الآيتان ﴿...مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ...﴾ و ﴿... وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا ...﴾.

ثمة معنى آخر بنفس الاتجاه هو التميّز بالإتقان و الجودة إلى حدّ يصل بالإعجاب إلى الحَيرة. المعنى الأخير يتماشى لأول وهلة مع الآيتين التي ورد فيهما اسمه تعالى البديع. في كلتا الآيتين نجد العبارة نفسها ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...﴿١١٧﴾ ﴾.

ولكن، لم يرد الاسم الشريف في صيغة أخرى في القرآن الكريم مثل البديع، معرفاً أو غير معرفٍ بلا إضافة مسبوقاً أو ملحقاً باسم آخر كما ألِفنا في صيغ مثل: التواب الرحيم أو: واسع عليم. عدم ورود اسمه تعالى البديع بهذه الصيغ أو الكيفية في القرآن الكريم يقطع الطريق على التفكير بأنّ فكرة الإبداع تقع عليه سبحانه وصفاً له، فيكون سبحانه و بعبارة فَجَّة: «مُبتَكَراً». فكرة الإبداع إذاً لا تقع عليه سبحانه وصفاً له و إنما تقع على فعله في خلقه.

طالما أن الصفة واقعة على فعله في خلقه، فلمَ لم يرد الاسم الشريف بصيغة «مبدع» درءاً لأيّ التباس ؟ صيغة فعيل أبلغ من مفعِل، و خاصة أنها كما رأينا في الأسماء الحسنى السابقة تشير إلى نفاذ الصفة و أخذها بُعدها و حَدَّها الأقصى.

في الأسطر السابقة قمنا بالحدّ الأدنى اللازم للتحضير لفهم حقيقة الاسم الشريف، ولا يكون ذلك إلا بالوقوف أمام كلامه سبحانه و تدبره. إذ لا تكون معرفة حقيقة المقصد الإلهي إلا لاحقة لتدبر كلامه.

بالنظر إلى الآيتين الوحيدتين اللتين ورد فيهما اسمه بديع جَلَّجَلَالُهُ نجد أن موضوعهما في كلتا السورتين واحد و محدد ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ و﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١]. كلتا الآيتين حجة إلهية تدحض ضلال من يعتقد أنه سبحانه اتخذ ولداً. نلاحظ بالرغم من شناعة ذاك الكفر أن المقولة الإلهية ليست تهجماً أو عنفاً و تقريعاً، و إنما حجة عقلية مُبَصِّرَة جُعلت لتَهزّ أيّ ذي عقل من الأعماق فيفيق من ضلاله.

اسمه تعالى بديع السموات و الأرض إذاً بالغ في الأهمية، إذ إنه يتوجه إلى ما يربو حالياً عن ثلث البشرية ممن يؤمنون بأن عيسى ابن الله. ثلث البشرية على رقعة تشمل الأرض كلها، نفوذهم كبير، نشيطون في دعوتهم و أساس عقيدتهم ذلك الضلال البعيد، ما أحوجهم إلى فهم اسمه تعالى البديع! و كم واجب المسلمين بالتعريف بالحقيقة المكنونة في اسمه بديع السموات و الأرض كبير!

إنك تفهم الآن لمَ ورد اسمه بديع السموات و الأرض بعد الهادي و ما رأينا فيه من تعاليم.

ثلث البشرية تذهب بعقيدتها إلى الهاوية، لم يتركها الله بلا نذير، بل شملها برحمته المتمثلة بخاتم النبيّين المرسل رحمة للعالمين و المبعوث للناس كافة. كيف يكون عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مبعوثاً للناس كافة، أي في كلّ مكان و لكلّ زمان و قد توفاه الله منذ أربعة عشر قرناً؟ بعثته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للناس كافة حق، و هي مسؤولية من سار على نهجه من المسلمين، و هم الذين يتحمّلون مسؤولية الدعوة إلى الحق و نشر و تبليغ رسالة الله. فإن لم يفعلوا فقد خانوا العهد مع الله و رسوله و لم يؤدوا الأمانة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ... ٦٧﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧]، أمر إلهيّ صارم شقّ كثيراً على الرسول خوفاً من التقصير في تبليغ رسالة الله، كما نلاحظ ذلك في تكراره بتوهج و حرقة طيلة خطبة حجة الوداع: «ألَا هَلْ بَلّغت» قالوا: نعم. قال: «اللّهُمَّ اشْهَدْ» ثلاثاً! [صحيح البخاري: ٤٠٥١] شعوره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بخطورة مسؤولية التبليغ ينبغي أن يكون شعور كلّ مسلم صادق.

الشعور بخطورة المسؤولية يصحبه بالضرورة وعي بأن تبليغ رسالة الله مَهَمَّة تتطلب علماً و قدرة على إظهار الحق و ذكاءً في تقديم الحجة و البيّنة في المسائل الكبرى و الأساسية.

لديّ قناعة بأن المسلم الذي يعجز عن تقديم البيّنة في حوار مع كتابيّ، يحاسب حساباً عسيراً يوم القيامة على جهله و تقصيره و يُحمَّل إثم ذاك الكتابيّ. فالجهل و الغباء يتنافيان مع الإسلام، إن وُجدا في امرئ فهما دليل قطعيّ على أنَّه ليس مسلماً.

انظر كيف أن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ...﴾ ورد ضمن سياق الآيات الكثيرة قبله و بعده و التي تدور حصراً عن أهل الكتاب.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤-٦٩]

المسلمون إذاً لا يمكنهم تجاهل ثلث البشرية من غير منحهم و لو فرصة، و ذلك بهزّ عقولهم و وجدانهم لإنقاذهم من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

العهد القديم أي التوراة بأسفارها الخمسة و ما يليها من أسفار، منطلقٌ و أساسٌ للعقيدة المسيحية بدليل أن المسيح في الأناجيل يستشهد و يعتمد مقاطع من التوراة. إضافة إلى ذلك فإن قراءة مختارات من العهد القديم يكاد يكون من مستلزمات طقوس القداس. الملفت للنظر أن فكرة اتخاذ الله لابن وحيد لم ترد في العهد القديم لا صراحة ولا بالتلميح، ولا يوجد فيه ثمة ما يشجع أو يدعو لتقبل هذه الفكرة. إذاً لا يستطيع الذين يعتنقون عقيدة ابن الله ادعاء أن فكرة اتخاذ الابن موجودة من الأزل في سابق علمه و تقديم دليل على ذلك من العهد القديم.

المعتمد عند أتباع هذه العقيدة أن اتخاذه ابناً سبحانه كان أمراً لاحقاً لمجريات الأحداث و

مبادرة منه رأفة بخلقه، و ذلك لتخليصهم من وزر الخطيئة الأولى أي خطيئة آدم، فافتدى الربّ البشر بأعز ما يكون للمرء و هو الابن.

العجيب في الأمر هو أن الكنعانيين أو الفينيقيين عبدة بعل، و هم أبغض الأمم إلى اليهود، كان أسيادهم في الأمور الجليلة و في الأزمات العصيبة يفتدون أنفسهم و أموالهم و مدينتهم بتقديمهم أعزّ أبنائهم قرباناً للآلهة. فالفكرة إذاً ليست مبتكرة. الأغرب من ذلك هو أن كلّ الأديان الوثنية تشترك بفكرة آلهة أو إله أعظم له ابن وحيد و خليلة أو زوج، مثال ذلك ثالوث أوزيريس إيزيس و حورس. عند الإغريق كان زيوس ابن خرونوس و عند الرومان كان جوبيتير ابن ساترن. فما أعجب العودة إلى أساسٍ في العقائد الوثنية! هذه الملاحظات لا تكاد تكون شيئاً يذكر أمام المفارقة الصارخة في فكرة اتخاذه سبحانه ولداً.

أول وجه من ذاك الضلال يكمن في أن فكرة الولد متلازمة مع فكرة النسل، و أقل ما يقال في ذلك هو تلازم الموت مع النسل؛ **إذ لا معنى ولا مبرر للنسل إلا لبقاء و استمرار النوع في الزمن**، فكلّ من يولد أو يلد يموت. الأخطر من ذلك هو أن فكرة الولد لا تنحصر في أنبل الخلق البشر، بل هي مشتركة في عالم الحيوان. فالفكرة أبعد ما تكون عن الابتكار و التميز و التجرد بالمفاهيم وأقرب ما تكون إلى مألوف الواقع عند عامة العامة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾. أيتخذ ولداً سبحانه كما هو حال خلقه من البشر إلى أبسط الحيوانات و له ما في السموات و الأرض! أيّ مفارقة هذه و أيّ ضلال!

نجدته سبحانه لخلقه ليست على طريقة أمراء الفينيقيين بل بدعوة إلى الوعي و عودة إلى العقل، فعل ذلك بقوله متابعاً للآية السابقة ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فالذي تتجلى عظمته فيما تتجلى في إبداع السموات و الأرض فهل يلجأ إلى حلّ غير مبتكر كحلّ الوثنيين من أمراء الكنعانيين؟

فكرة الافتداء فكرة بشرية محضة لها جذورها منذ القدم و في المجتمعات البدائية. لنفترض أن قبيلة أساءت إلى قبيلة كبيرة و مسيطرة بالتعدي على أرضها أو قتل أحد أفرادها، فإن القبيلة المتعدية تتربص انتقاماً عنيفاً يتمثل بأذىً يتراوح بين الردع و إضعاف أو كسر المعتدي وقد يصل إلى حدّ إفنائه. أمام استحالة مواجهة انتقام الأقوى يكون الحلّ بتفادي الضرر الأكبر بضرر أصغر، أي تفادي فناء القبيلة الصغيرة المعتدية بتقديم أفراد منها تكفي لشفاء صدور زعماء القبيلة الكبرى مما فيها من غلّ. الافتداء في هذه الحالة يكون لا بالكم ولكن بالنوع؛ فيتمثل بأعزّ و أغلى أفراد القبيلة و على رأسهم ابن رئيس القبيلة. استمر هذا المفهوم بإسقاطه على الآلهة التي حلت محل القبيلة المهيمنة



التي يراد اتقاء انتقامها. فصار البشر يقدمون لآلهتهم المزعومة أضاحي بشرية، كما كان الحال في شعوب كثيرة من الشرق الأقصى إلى جنوب أمريكا قبل كولومبس مروراً بالكنعانيين.

أُخِذَت الفكرة نفسها، و قُلِبت رأساً على عقب و أُسقِطت على الله، سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عما يصفون.

آليَّتها أن السبيل للتخلص من مصيبة أو وبال أو لعنة يكون بتقديم قربان، فكلما كان القربان عزيزاً كلما كان فعالاً في إسكات الغضب و دفع الوبال. الوبال في ما نحن بصدده يتمثل بتبعات «الخطيئة الأولى» و ما ترتب عليها من طرد من الجنة و مشقة و عذاب في الأرض. فتبرع الإله نفسه مقدماً ابنه، أي أعزّ و أغلى ما عنده لافتداء البشر أجمعين، بالمنطق الذي بيّناه سابقاً، و تخليصهم من وزر و لعنة الخطيئة الأولى. **وكأن المتبرعَ بالفداء غيرُ المؤاخِذِ على الخطيئة!**

قد يسأل سائل: إذاً، و الحال ما ذكرناه، فما معنى افتداء سيدنا إسماعيل بذبح عظيم؟

الجواب يكمن في وضع الحدث ضمن إطاره الزماني.

خلاصة الحدث امتثال سيدنا إبراهيم للأمر الإلهي في تقديم ابنه قرباناً على نسق ما بيّناه في الأمم في ذاك الزمن.

ولكن لم يؤمر سيدنا إبراهيم بذبح ابنه لذنب اقترفه أو لافتداء قومه أو البشرية. الأكثر من ذلك أنه لم يكن يعلم لِمَ أُمِر بالذبح. و كذلك لم تتغير إرادته سبحانه في آخر لحظة فيغير قراره بفداء سيدنا إسماعيل بالذبح و إنما الأمر مرتب سابقاً. فالمقصد منه جلي: ألا و هو إلغاء خطأ البشر في تقديم القربان البشري و استبدال أضحية به يستفيد منها القوم و الفقراء منهم خاصة.

سر سريان سمّ فكرة الافتداء بالابن في النفوس، يكمن فيما فيها من بعد مؤثر و عاطفي.

ما من إنسان إلا و يتمنى و يحلم أن يكون له صديق وفيّ يستعين به عند المحن و المصائب. و كم يتأثر المرء أمام تضحيات صديق الأحلام ذاك لنجدته، فكيف يكون الأمر إن كان ثمن نجدة صديق الأحلام تضحيته بأعزّ ما يكون أي الابن؟

و كيف يكون الأمر إن كان الفداء هو ابن الإله! الفكرة بما فيها من شطح في الخيال، تروق للنفوس الحالمة و تخدّر عقولهم فتستطيع تحت غطاء المغالاة تمرير و ترسيخ أسوأ عقيدة.

مرة ثانية، الفكرة إسقاط بشري صرف إذ إن مَعَزَّة الابن لا معنى لها إلا بالنسبة للبشر. فالابن يمثل استمرار الشخص في مورثاته و تراثه و اسمه. و هو كذلك الأمل و العضد عند الكبر و الضعف، فمن يحمي الأم والأب،عند كبرهما، خيراً من الابن؟ يشقى المرء ليجمع ما يجمع في دنياه فيصعب

عليه أن يضِيعَ و يتبعثر ما جمع بعد مماته، لذا فهو متعلق بالابن إضافة إلى ما ذكرناه لكونه الوريث الحبيب الذي يحافظ على الإرث. كلّ ما رأيناه مما يؤدي إلى تعلق الوالد بالابن لا معنى له بالنسبة للّه فهو الباقي و هو الوارث. فلو افترضنا أنه أراد افتداء البشر بشيء، فالخلق كلهم خلقه و إن أحب أحدهم فلا مبرر كما رأينا أن يجعله ابناً له.

بعض المؤمنين بفكرة الابن يحاجّون المسلمين في سيدنا عيسى قائلين لهم: حتى أنتم تعترفون أنه استثنائي، و أنه ولد بشكل عجائبي بلا أب، فمن أبوه إذاً؟ سبحانه أدرى بخلقه و بسرائرهم و بما يكون منهم من شطح، فتجلت رحمته بهداياتهم من هذا الضلال عندما قال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٩] ، تفهم بانتباهك للكلمتين الأخيرتين سبب ورودهما في قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ إذ يريدنا سبحانه بقوله: ﴿ ...كُن فَيَكُونُ ﴾ أن نتذكر شاهد ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ...﴾.

الحجة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ...﴾ حجة مُفحِمة على من رأينا ممن يحتج على المسلمين قائلاً: إن كان ولد بلا أب فيكون ابن الإله. فالأولى بآدم بناءً على هذا المنطق و هو لم يولد لا من أب ولا من أم، أن يكون أعلى مقاماً و أشرف مرتبة بل، و بنفس المنطق الأخرق، أن يكون بالقياس الإله نفسه إذ لا أب ولا أم له و خاصة أنه الأب الأكبر لأم الابن!

إضافة إلى الحجة المفحمة السابقة نجد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ...﴾ آيات من الهداية.

فالمقابلة بين سيدنا آدم و سيدنا عيسى مقابلة حاذقة لمَنْ يتدبر القرآن الكريم:

- كما أن سيدنا عيسى ولد بلا أب من امرأة، فبالمقابلة و بالمعاكسة التامة فإن حواء خلقت بلا أم من رجل.

- و كما أن سيدنا آدم أول نبي يكون على الأرض، فإن سيدنا عيسى بالمقابلة آخر نبي يكون على الأرض، في آخر الزمان عندما ينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق.

- و كما أن سيدنا آدم أول نبي على الأرض ذكر في القرآن خمساً و عشرين مرة، كذلك عدد ما ذكر سيدنا عيسى آخر نبي على الأرض. كذلك فإن الرسل المذكورين في القرآن بما فيهم أولهم و آخرهم خمسة وعشرون رسولاً أي مربع الخمسة، خمسة منهم هم أولي العزم. خاتمهم من أولي العزم الخمسة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ سيد المرسلين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ذكر اسمه في القرآن خمس مرات بلا زيادة.

خمس و عشرون أي مربع الخمسة، و هو مجموع مربع الأربع و مربع الثلاث. و قد ذكر سيدنا آدم ست عشرة مرة بشخصه و تسعاً بمعرض الكلام عن ذريته أو بنيه. بالمقابلة التامة ذكر اسم سيدنا عيسى ست عشرة مرة كابن مريم و تسعاً من غير ذكر والدته ...

اللفتات السابقة ليست مجرّد عجائب، و إنما آيات باهرة و علوم لدنّية عليا تسمو بالعقل البشري إلى أبعد ما يكون عن إسقاطات بشرية غبية و بدائية على الذات الإلهية.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١٦-١١٧]، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ هدايةٌ تُنقذ البشرية من ضلال بعيد سببه غباء إسقاط حيثيّات واقع الخلق بما فيها من محدودية مادية، على الخالق الذي يختلف بالكلية عن خلقه بصفاته الأساسية.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ سمو بالعقل البشري إلى مفهوم مجرد و كونيّ عنه سبحانه.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١-٣].

اسمه تعالى الباقي جَلَّجَلَالُهُ
(٠٩٦)

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٧٦].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٣].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣١].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٠].

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٨].

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧].

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٧].

*****

اسمه تعالى الباقي جَلَّجَلَالُهُ:

من أفضال سيدنا النبي علينا إذ لم يرد صراحة في القرآن الكريم.

الاسم الشريف دعوة ضرورية للتفكر في مسألة حساسة و عميقة للغاية لا يستطيع عاقل تجاهلها و هي مسألة البقاء و الفناء. مسألة البقاء و الفناء هذه تتحدى الإنسان في كيانه و في كلّ شيء يحيط به، تتحداه في أعزّ ما بين يديه و أحب ما إلى قلبه.

ما أعظم الألم و ما أكبرَ الخيبة عندما يزول ما تعلّق الإنسان به. فالاسم الشريف إذاً دعوة

للوقوف أمام المسألة و التفكّر فيها لمعرفة أين يضع المرء آماله و أين يوجّه جهوده.

منَّ اللّه على الناس إذ تعرَّض لمسألة البقاء و الفناء في كتابه الكريم، و قدّم لهم أسساً يبنون عليها سعيهم و عملهم و يعلمون بنورها حسن الطلب و الاختيار و إلى أين يوجهون جهودهم و قلوبهم.

ينشأ المرء فيجد نفسه أمام حاجات و متطلبات الحياة و ما يصحبها من فرح بالنجاح بتحصيلها و تعاسة بحرمانها أو فقدانها. ظروف النشأة هذه تملي على الإنسان مسيرته في الحياة فتصير سعياً وراء هذه الحاجات، فتجد المرء يُمضي العقد تلو الآخر و يغوص في هذا الطلب و كأنه سعي وراء مَثلٍ أعلى، في حين أنه مجرد سعي وراء حاجات عابرة عظمت في عين طالبها و صارت بحدّ ذاتها مَقصداً أسنى. فما أكرمه سبحانه إذ يذكر الناس بقوله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦].

الآية الكريمة تذكّر الناس بأن المال و البنين ليسا أساساً بل إضافة، أي زينة كما تكون الزينة في بناء. نقرب اللفظ بلغة معاصرة و نقول: «ديكور». كم مفهوم الديكور سطحي بالنسبة للبناء بأسسه و حسن إنشائه. فالمال و البنون مسألة سطحيةٌ كسطحية الديكور، فما بالك أن هذه الزينة للحياة الدنيا التي تبدو عقودُها الطويلة في الآخرة يوماً أو بعض يوم! يموت المرء و يوارى الثرى وحيداً لا يصاحبه بَنوه بل يبكون عليه قليلاً ثم يتشاجرون على ماله. عندئذ يتساءل المرء عن فائدة ما جمع؟ و عن فائدة ما أفنى عمره فيه؟ و يتساءل عما أبقى لنفسه للدهر الذي ينتظره و هو عائدٌ عند ربه. قال رسول اللّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» [صحيح مسلم: ٣٠٨٤].

انظر إلى الكرم الإلهي و الرأفة و المحبة منه سبحانه في **تجنيبه عباده آلام خيبات الأمل**. انظر إلى نصيحته و دعوته الكريمة عندما يقول: ﴿... خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾.

الآية السابقة وردت كتعليق على قصة صاحب الجنتين؛ في سورة الكهف، سورة الكهف التي تبين أن سبب خطأ المحاكمة البشرية يكمن في ضيق عامل الزمن المعتبر. فالعقل البشري يخطئ عندما يحاكم الأمور ضمن مجال زماني ضيق.

سورة الكهف تتميز بكثرة الأمثلة التي تدعو الإنسان لمحاكمة الأمور ضمن النطاق الزمني الكلي. قصة الفتية تندرج ضمن ذلك و قصة صاحب الجنتين، كذلك يرى الأمور ضمن نطاق محدود محدودية مدى نظره. كذا الأمر بالنسبة لدرس قصة سيدنا موسى و الخضر فهي مقابلة بين نظرتين، أولى مخطئة في نطاق زمني ضيّق، و ثانية صائبة ضمن نطاق زمني واسع. تتميز السورة بنقلات شاهقة في الزمن كما هو الحال في قصة ذي القرنين، و التي تنتقل مباشرة بانتهائها من زمن غابر و خبر عن

يأجوج و مأجوج إلى الموضوع نفسه ولكن في آخر الزمان. كذلك الآية التي نحن بصددها، فهي كما رأينا تعليق على نموذج غالب من البشر تتمركز حياته على التفاخر بنجاحاته المادية و الدنيوية. يبدأ التعليق الإلهي بمثال يذكرنا سبحانه به قيمة الدنيا: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٥-٤٦].

انظر إلى النقلة الزمانية الهائلة إلى يوم القيامة و العرض أمام الله، فعودة زمانية هائلة ثانية إلى يوم الخلق، فعودة إلى الحساب، فعودة إلى لحظة البداية عند سجود الملائكة لسيدنا آدم. ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦-٥٠].

لمن يتدبر ذلك و يتابع في السورة التالية تأكيد في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٧٦].

لم يفُتكَ التشابه بين الآيتين من الكهف و مريم: ﴿... وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ و ﴿... وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

الآية في الكهف وقاية من **الآمال** الزائفة يتبعها تبيان للعاقبة عندما **يُردّ** كلّ شيء إلى الله يوم البعث و العرض و الحساب، و قد علمت ذلك فإنك تفهم الفارق في آية مريم في قوله: ﴿مَّرَدًّا﴾.

يمنّ علينا سبحانه في كتابه الكريم بالتذكرة بعد التذكرة كي لا نتعلق بمؤقت ثانوي يمنعنا عن أساسي أبدي و ذلك في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٠]، ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٦]، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٧].

تتواصل الهداية الإلهية في آية دقيقة و حساسة لما تتناوله من خفايا و أعماق النفس البشرية، فالعمل أصعب ما يكون على النفس في خفايا أعماقها. تأمل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣١]. الخطاب موجّه في الآية الكريمة إلى سيدنا النبي المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، تحميله عبء الخطاب دليل على



دقة المسألة. فكِّر، ما دور الزهرة في النبات؟ تفهم شفافية اللفتة. بفهمك شفافية اللفتة تُذعَرُ من الفتنة المتربصة. قوة ذعرك من الفتنة ضرورية لك لتتملص من الفتنة التي تدبق بك فتفرّ منها إلى خير و أبقى.

معرفة ما سبق يدعو للتأمل فيما يتعلق به القلب مما يصبو إليه و يعشق. كم من عاشق قتل نفسه و قتل أمله في الآخرة لخيبة أمله في معشوقه. إن لم يقتل نفسه، فإنه يمضي حياته كالقتيل و ما أكثرهم. هل يتركهم سبحانه بلا نصح؟ هل يترك عباده يعلقون قلوبهم بزائل فانٍ:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

الآيات السابقة من الأنعام تدور حول الأسماء السابقة الضار و النافع و الهادي. انظر إلى صرخة الوعي و الوجدان من قلب سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما قال: ﴿...لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ...﴾. هذه الصرخة الوجدانية ينبغي أن تكون محفورة في قلب كلّ مؤمن فلا يضيع قلبه حسرات على آفل فانٍ، بل يعلّق قلبه بخير من يعلّق به قلبه و هو الباقي الذي قال عن نفسه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧].

تعلّق المؤمن بالباقي جَلَّجَلَالُهُ، وعيٌ و قوةٌ و نضجٌ و تماسكٌ في النفس و نجاحٌ باهر في الدنيا و الآخرة، و قوةٌ لا يستطيع شيء ولا مخلوق التغلب عليها إذ يكون المؤمن متجهاً بالكلية بقلبه و عمله سائراً تحت شعار: ﴿...وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

اسمه تعالى الوارث جَلَّ جَلَالُهُ

(٠٩٧)

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠]

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٣].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٤٠].

﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٨٠].

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٩].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٨].

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٠].

*****

اسمه تعالى الوارث جَلَّجَلَالُهُ:

يمكننا أن نعتبر اسمه تعالى الوارث من الأسماء الحسنى القرآنية بدليل الآيتين الكريمتين ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٣] ، وكذلك ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٩].

الاسم الشريف تكميل للمفاهيم الإيمانية الضرورية التي رأيناها في اسمه الباقي. فكما رأينا في كرمه سبحانه في نصحه عباده عدم التعلق بفانٍ و بالمقابل دعوته إياهم لتحصيل ما هو حقيقة باقٍ، فإن اسمه الوارث يتابع المسألة في أمر يمسّ البشر أجمعين و خاصة أولئك الذين يفكرون بمصير ما جمعوا في دنياهم.

رسالة الله لخلقه عبر رسله و قرآنه خاصة دعوة إلى وعي حقيقة و حكمة كلّ شيء. تحصيل ذاك الوعي يجنّب الخلق الجهود العبثية و الخسران و يقودهم إلى سعادة حقيقية. تتمثل الأفكار السابقة في اسمه تعالى الوارث الذي يذكرنا سبحانه من خلاله عدم التعلق بكلّ ما هو في الدنيا و عدم الغوص بالاهتمام بما يؤول إليه أيِّ شيء بعد موت العبد أو بنهاية الأمر، إذ إن الله الذي أعطى هو جَلَّجَلَالُهُ بعد موت العبد هو الوارث.

و إن كان ثمة من يرث بالظاهر من الذرية فبالنهاية مآلهم الموت و يبقى سبحانه وارثاً بالنهاية. كما قال: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٣]. الآية السابقة بما فيها من فكرة الحياة و الموت تطابق ما ذكرناه.

شاهد سيدنا زكريا بديع فيما فيه من درس إيماني رفيع، فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبي مُلهَم، دعاؤه مطابق لسابق علم الله و ترتيبه الذي قرر من الأزل أن يكون دعاء عبده زكريا درساً و عبرةً في كتابه إلى آخر الزمان.

من عِبَر ذلك الدعاء درس في الصبر و المثابرة و عدم اليأس في حين أن كلّ شيء في الواقع يدعو لقطع الأمل. إن اجتمع امرؤ بسيدنا زكريا فقد يقول له: «يا رجل، اتق الله ولا تعترض على حكمه و استسلم لإرادته، كيف تطلب الذرية و قد اشتعل رأسك شيباً و خاصة أن امرأتك عاقرٌ! طلبك محال».

الدرس في دعاء سيدنا زكريا واضح، فالذي أوجد الواقع نفسه جَلَّجَلَالُهُ يغيره و قد بين من فضله على المسلمين بعبارة من كلامه فيها آفاق لا نهائية من العلم اللدني: ﴿...هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ... ﴿٩﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٩]. ما يهمنا فيما نحن بصدده من درس إيماني في دعاء سيدنا زكريا هو أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبالرغم

من حرقته على من يرثه و يرث آل يعقوب، و حرقته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و مطلبه ليس كحرقة رجل عادي بل حرقة رجل كرّس نفسه بالكلّية للّه. بالرغم من حرقته في سؤاله فإنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يغب عن وعيه بل شهد أن بالنهاية اللّه هو الوارث. و كأنه يدعو اللّه قائلاً: «أدعوك و أسألك من يرثني و يرث آل يعقوب و أنا مدرك أن ذلك الأمر أمر مؤقت يبقى ما يبقى ثم يزول و تكون أنت بالنهاية الوارث، و أشهد إضافة إلى ذلك أنك بالنهاية الوارث و بالحقيقة خير الوارثين، لا يغيبني أمر عنك ولا ينسيني إياك و إليك مرجعي و مرجع ذريتي».

ما أبدع الوعي الإيماني في دعاء سيدنا زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

التلازم بين اسميه تعالى الوارث جَلَّجَلَالُهُ و الملك لم يَفُتْ أيّ ذي عقل.

اسمه تعالى الملك ثالث الأسماء الحسنى بالترتيب من بداية التسعة والتسعين اسماً، كذلك اسمه تعالى الوارث و المقابل الثالث بالترتيب من نهاية التسعة والتسعين اسماً. هذه اللفتة إضافة إلى ما فيها من معنى إيماني رأيناه تأكيداً على عظمة حديث التسعة والتسعين اسماً و عظمة ترتيب الأسماء فيه. فقد رأينا عندما تعمقنا في توضيح الحجة الإلهية في اسمه البديع رداً على ادِّعاء من يدَّعون له ولداً كيف أن فكرة الولد إضافة إلى ما فيها من ضلال أو جهل عندما تنسب إليه فإنها لا معنى لها إذ أنه الباقي هو الوارث.

اسمه تعالى الوارث بعد في النظر و عمق في الوعي الإيماني و حكمة متأصلة و نضج كامل، يتصف بهذه الصفات المؤمن بالاسم و يرى بثقة إيمانية عالية مآل كلّ شيء إلى اللّه، و يرى في كلّ لحظة ما سوف يراه عياناً يوم البعث و النشور عندما يقول سبحانه: ﴿...لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ...﴿١٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ١٦]، فالمَلِكُ المالك الحق لكلّ شيء هو نفسه بالضرورة الوارث لكلّ شيء.

اسمه تعالى الرشيد جَلَّجَلَالُهُ
(٠٩٨)

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: ١٨/ ١٧].

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٤].

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجن: ٧٢/ ٢].

*****

اسمه تعالى الرشيد جَلَّجَلَالُهُ:

اسمه تعالى الرشيد من أفضال سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ علينا، إذ لم يرد في القرآن الكريم.

جذر رشد ورد في آيات كريمة كثيرة تساعدنا في تدقيق معنى الكلمة و التعمق فيها، هذا التدقيق و التعمق في معنى الكلمة ضروري لبناء فهم سليم لأي اسم من الأسماء الحسنى كما رأينا أول عملنا.

قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦]، وقوله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ... ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦]، يوضحان معنى الرشد بمقابلته بالغي.

فالغي هو أبعد ما يكون عليه الضلال. مثال ذلك قسم إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ٨٢].

و بالمقابلة مع الغي يكون الرشد غاية الصواب و الهداية، و نهاية المطاف في الحقيقة. يدعم ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ١٧]، و كذلك من نفس السورة الطلب المُلهَم الذي ساقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لسان سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حواره مع الخضر: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٦].

ارتباط الرشد بالهداية في الآيتين السابقتين و في غيرهما جلي، و كلا الرشد و الهداية لا معنى لهما إلا بمعرفة الغايات و النهايات. فهل ثمة هداية أو رشد إلا إلى هدف نهائيّ ؟

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢-٥٣].

فالرشيد هو العالم بعين الصواب و حقيقة نهاية المطاف، أي العالم بحقيقة المصير النهائي.

فكرة معرفة حقيقة المصير النهائي متماشية و مكملة بالضرورة للاسمين السابقين الباقي و الوارث، فهو الباقي بعد انتهاء كل شيء و هو الوارث بالنهاية. انظر كيف أخذت أسماؤه جَلَّجَلَالُهُ الباقي و الوارث و الرشيد مكانها في آخر الأسماء الحسنى.

اسمه تعالى الرشيد بما فيه من معنى معرفة حقيقة و حكمة النهايات و الغايات، جواب قاطع و شافٍ لتساؤل يكاد يراود كل البشر عندما يحارون و يعجزون عن فهم ما يرون من نفاذ الإرادة الإلهية، فتجدهم يعربون عن رأيهم بعبارات مثل: «سخرية الأقدار» و «نزوة القدر» و«مهزلة الدهر» و ما إلى ذلك من عبارات يطلقها الإنسان برعونة على ما يعجز عن فهمه؛ لشدة جهله مما يصل به إلى اتهام الله باللعب. فالإنسان طالما أنه في راحة و لم يفتن فهو لا يطلق تهمة اللعب على الذات الإلهية. ولكنه عندما يفتن و يرى في غيره أو يمتحن و يرى في نفسه و في أعز من يكون إليه مصيبة

مريعة غير متوقعة، أو ما يسميه حظاً هائلاً، و في كلتي الحالتين بلا سبب أو ذنب أو استحقاق يراه، فإنه أقل ما يقول إن لم يرحمه ربه: «حظ!» و كأن القدر تحكمه رمية النرد. ما وصفناه شائع خاصة في حال الحيرة في المصاب و الحيرة حسداً من المغنم شأنهم أقرب ما يكون لأتباع عقائد وثنية كالهندوسية، و هم مئات من الملايين يعتقدون بنزوات و لعب الآلهة. انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٦-١٨]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٣٩-٤٢].

انظر في قوله تعالى:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٢].

بيت القصيد في الشاهد السابق قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ و هو نهر لمن يشطح جهله به فيظن العبثية في أمر اللّه و في خلقه.

كما رأيت في الشواهد الثلاثة السابقة رداً على سوء الظن و الاعتقاد في اللعب و العبث، تجد أن الموضوع ربطٌ بين الخلق أو البدايات مع النهايات و الغايات و ما يؤول إليه الخلق.

فما أحوج العباد إذاً إلى من يصرفهم عن الباطل و الغي فيه و يرشدهم سبيل الرشد و يوصلهم إلى الحق. ما أرحمه إذ مَنَّ على خلقه بالهداية تلو الهداية إلى الرحمة و الهداية الأخيرة التي شهد فيها من سمعها:

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ الجن.

فسبحان الرشيد و حاشاه أن يوصف باللعب و العبث. هو الرشيد أعلم بما خلق ولمَ خلق و إلى ما يكون مصير ما خلق، و هو كذلك فهو أولى أن يتبع و يعبد و هو أولى أن يسلم العبد وجهه إليه و يتوكل عليه.



اسمه تعالى الصبور جَلَّجَلَالُهُ
(٠٩٩)

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٣].

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧].

*****

اسمه تعالى الصبور جَلَّجَلَالُهُ:

الاسم الأخير من الأسماء التسعة و التسعين من أفضال خاتم النبيين علينا، إذ لم يرد اسمه تعالى الصبور في القرآن الكريم.

معنى الصبر واضح لا لبس فيه، خاصة أنه من المعاني الشائعة و المتداولة و التي لم تتغير تغيراً ملموساً في أفهام الناس، كما هو الحال بالنسبة لكلمات من القرآن الكريم يفهمها الناس بحسب مفهوم عصرهم، لا على حقيقتها في التنزيل. مثال ذلك كلمة "إنسان".

موضوع الصبر معروض بكثرة على مدى القرآن الكريم. ولكنه يتعلق في جميع الآيات بالخلق لا بالخالق، مما يجعل فهم اسمه تعالى الصبور استناداً للقرآن الكريم أمراً يتطلب تدبراً و دراية، إذ إن صبره سبحانه ليس كصبر خلقه يقيناً. فصبر الخلق يتصف بالمعاناة و هذا محال عليه سبحانه.

إذاً و بناءً على ما سبق، أول خطوة منهجية نستطيع القيام بها لفهم اسمه الصبور هي: فصل مفهوم الصبر عموماً و على الإطلاق عن مفهوم صبر الخلق تحديداً. المفهوم الأخير هو الذي تذهب إليه العقول، إن لم تنتبه أنه لا يفيد في هذا الصدد.

المنهج، إذاً، يقتضي تحديد مفهوم و خصائص الصبر بالبعد المطلق و المجرد، و ابتداءً بالأهم الذي إن انعدم، انعدم الصبر معه.

بحثاً عن الأهم الذي إن انعدم انعدم الصبر معه نجد عامل الزمن. هل للصبر وجود إن انعدم الزمن؟ هل ثمة صبر في أمر لم يدم ولا حتى لحظة.

نتقدم في البحث عن خصائص مفهوم الصبر آخذين بعامل الزمن فنجد:

- أن الصبر مرتبط دائماً بنتيجة.
- و في مجال البعد الزمني نجده دائماً مرتبطاً بأجل.

فلا معنى للصبر إن لم يكن ثمة أجل من جهة، و من جهة أخرى نتيجة أو غاية أو نهاية.

*****

بالنقاط الثلاث السابقة نكون قد هيأنا للحدّ الأدنى و الأساسي لفهم اسمه الصبور جَلَّجَلَالُهُ و هي:

تجريد صبره سبحانه عن المعاناة

و التركيز على عامل الزمن

و على مسألة الأجل و الغاية.

عندئذ يصير اسمه تعالى الصبور أساساً في العقيدة، و جواباً شافياً يُخرج المؤمنَ به، من الحَيرة التي قد تقود إلى سوء الظن فالضلال في الفكر و العمل.

اسمه تعالى الصبور جواب على حَيرة الإنسان فيما يراه من أحوال العباد. فكم من طاغية يصول و يجول، و يحار المؤمنون كيف يُترَك ولا ينزل فيه بطش الله. و كم من صالح أو بريء يظلم و يتعذب، ولا يأتيه المدد. و كم من حرمات تنتهك، ولا يرى الناسُ رداً من الله.

تأمل في خطاب الله لحبيبه المصطفى خطاباً له و لأمته إن اعترتهم حيرة فيما يرونه من ظالم:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٧]، كم هذا الشاهد يتماشى مع ما يراه المسلمون مما يحيرهم من الأحداث المعاصرة! وكذلك قوله تعالى من سورة غافر: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾ [غافر: ٤٠/ ٣-٥]، ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢]، فسبحانه تركهم و أمهلهم إلى أجل مسمى، فحق عليهم القول، و لم تعد لهم حجة.

صبره سبحانه، إذاً، عدم استعجال.

لن تجد في القرآن شاهداً واحداً يتكلم عن استعجاله سبحانه. بل إن العجلة كلها مذمومة في القرآن من أوله إلى آخره.

العجلة و الاستعجال استباق للنهاية أو النتيجة من غير الأخذ بالأسباب الكاملة للأمر. فالاستعجال منافاة للعزم و للواقعية و جهل محض، كجهل الذي يريد إنجاز السقف من المبنى قبل إنجاز طوابقه.

بالمقابلة مع الاستعجال الذي لم يرد في القرآن إلا في موضع الذم، فإن السرعة و المسارعة محمودتان فيه. فالسرعة مبادرة و عدم تراخ و عزم و تركيز في القيام بالأمر.

صبره سبحانه عدم استعجال و إمهال إلى أجل هو واضعه و هو الرشيد.

تأمل في قوله تعالى و خاصة في الكلمات «يعجل»، «استعجالهم»، «أجلهم»، «ذر»: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ١١]، و كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النحل: ١٦/ ٦١]، تأمل في المقابلة بين استعجال الجُهَّلُ، و بين حكمة وصبر الله في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٣]. تجد ثانية فكرة المقابلة بين التعجيل و التأخير إلى أجل في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ

لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٨-٥٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥].

الصبور سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يقود الخلق و الأحداث بعظمة و جلال و حكمة بلا استعجال إلى أجل هو واضعه. ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٠].

لِمَ يستعجل سبحانه، و هو ليس محكوماً بالزمن فيضيق عليه؟ فهو سبحانه منزّه عن الزمن و موجد له.

*****

إن تابعنا سعينا طلباً للمزيد من العلم و للتعمق في مفهوم الصبر في القرآن الكريم، فسوف نجد أنفسنا أمام أحد أكبر مصادر العلم المفصل فيه، و هو شاهد قصة سيدينا موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و الخضر.

فقد كان سعي سيدنا موسى **طلباً لمزيد من العلم**. و ذلك امتثالاً لأمر الله أولاً، و كذلك رغبة منه.

من بعد عجائب و آيات شروط لقاء سيدنا موسى بسيدنا الخضر، كان طلب سيدنا موسى: ﴿...هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾﴾ الكهف. آخر كلمة من سؤال سيدنا موسى كانت: ﴿...رُشۡدٗا﴾، محور جواب سيدنا الخضر كان الصبر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾﴾ الكهف. تعاقب الرشد و الصبر في الآيتين، يذكر بتعاقب اسميه تعالى الرشيد و الصبور جَلَّجَلَالُهُ.

الجملة الثانية من كلام الله الذي ساقه على لسان الخضر: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾﴾ الكهف. بحر من العلم. أول قطرات منه تفيدنا في التعمق في مفهوم الصبر.

نستطيع أن نستنبط من الآية الكريمة ببساطة و بجلاء: أن الصبر بقدر الإحاطة بالعلم أو بالخبر أو يزيد. فلا صبر على أمر من غير إحاطة به.

نرى في الآية الكريمة الارتباط الجلي بين الصبر و العلم. ليس العلم بالمواجهة أو بالمقابلة، بل بالإحاطة. و ليس العلم النظري، بل العلم بكلّ أبعاده و تطبيقاته. لم يقل: «ما لم تحط به علماً»، بل قال: ﴿...مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾.

مما سبق نستطيع أن نتابع استنباطنا و نقول: كلما ازدادت الإحاطة بالعلم بأمر كلما اكتمل و صح الصبر. كلام سيدنا الخضر متعلق بـ «مَا»: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ و كأنه يقول: و كيف تصبر على مسألة محددة أو أمر معيّن لم تحط به خبراً؟.

إن كان الصبر على أمر محدد يستلزم إحاطة كبيرة، فكيف يكون الصبر على كلّ شيء وعلى كلّ أمر؟

جملة سيدنا الخضر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ بما فيها من تلازم بين العلم و الصبر، و بما فيها من تناسب بينهما، تساعد على فهم الصبر الإلهي على أنه صبر مطلق متناسب مع الإحاطة بكلّ شيء، إحاطة من وسع كلّ شيء علماً و من أحاط بكلّ شيء علماً.

*****

ما رأيناه في الأسطر السابقة، مفهوم مجرد، مَنّ الله على الناس بتقريبه إلى الأذهان عن طريق تسلسل أحداث قصة سيدينا موسى و الخضر.

الفارق بين الرجلين في كلّ مرحلة من المراحل الثلاث للقصة، يكمن في ضيق عامل الزمن المعتبر لدى سيدنا موسى، و اتساعه عند سيدنا الخضر.

هذا من جهة. و من جهة أخرى، يكمن الفارق بين الرجلين في جهل أو معرفة الغاية أو الأجل.

و هذا يؤكد لنا ما رأيناه من تلازم الصبر مع اتساع عامل الزمن، و كذلك مع النهاية أو الغاية أو الأجل.

فكيف صبره تعالى و هو يشمل الزمن كلّه!

و كيف صبره سبحانه و هو العالم بالغايات و النهايات و هو صاحب القرار في جميع الآجال!

فهو الذي شاء و رتّب أن يكون خلقه على ستة أيام، ليقوده بالنهاية إلى يوم واحد هو يوم القيامة.

التفكر في الأمد الشاسع بين الخلق و البعث، و عدم استعجاله سبحانه في شيء، خطوة باتجاه فهم اسمه تعالى الصبور.

فهم السير بالخليقة إلى الأجل الأخير أي يوم القيامة، خطوة أخرى لفهم اسمه تعالى الصبور.

عندئذ و يومئذ، يوم القيامة، يوم البعث و النشور يأخذ كلّ شيء معناه. إذ تظهر عندئذ حقيقة الغايات، و يقف المكلفون من الخلق أمام الواحد القهار. ما أحوجهم يومئذ إلى الرحمة. قسمها سبحانه جزءاً للدنيا و تسعة و تسعين للآخرة.

بذلك يعيدنا آخر الأسماء إلى أولها. فكما استنكر سيدنا موسى خرْقَ السفينةِ و قتلَ الغلامِ، كذلك يستنكر المرء ما يرى مما لا يفهم من أمر الله في خلقه.

لو لم يستعجل و صبر و انتظر إلى نهاية الأمر، لرأى أن حقيقة الأمر ﴿...رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ... ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٢]، كما في أحداث قصة الخضر.

كذلك يحار المرء في ما يرى في الدنيا، ولكنه إن صبر ـ ولا صبر حقيقياً إلا بعلم ـ فسوف يدرك تمام الإدراك برؤية الواقع: أن الرحمة هي الصفة الغالبة على صفاته سبحانه.

عندما قال سبحانه لملائكته: إنه جاعل في الأرض خليفة، فإنه أجرى على لسانهم سؤالاً: ﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ... ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]. و أجاب بقوله : ﴿... قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠] سؤالهم آفاق منها ١١٩٢.

قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ آفاق منها نصف ١١٩٢ أي ٥٩٦. اسماه تعالى الرحمن و الصبور علوم، شيء منها ٢٩٨ لكلّ واحد منهما، فالاثنان ٥٩٦.



الاسمان الشريفان نظرة شاملة لما كان و ما سيكون، و خاصة من خلق آدم إلى فتنة الدجال، وما إلى ذلك من أحداث نهائية ترتبط بنزول سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

المسلم المؤمن حقاً لا يغيب عن وعيه اسمه الرحمن ولا الصبور ولا باقي الأسماء. ولا يغيب عن ذهنه النظر إلى كلّ ما يجري من خلال منظار ما سيؤول إليه كلّ شيء يوم القيامة. بذلك ينضم إلى صف الحبيب المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال له سبحانه: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ١٠٩]، و الذي قال لنبيه ولأمته: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٥].

منَّ علينا سبحانه فوضح لنا الصبر الجميل في سورة يوسف.

فقد قال سيدنا يعقوب في موضعين: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٣]. فهم ذلك يقتضي الانتباه إلى أن جواب سيدنا يعقوب لسيدنا يوسف عندما روى له رؤياه، كان إخباراً له بما سوف يكون.

فعندما بدأت الإرادة الإلهية تسري في الأحداث على ما أخبر به سيدنا يعقوب سيدنا يوسف، فإنه انتظر أي صبر و هو عالم بالنهاية السعيدة.

لذا فقد وُصِفَ صبرُه بالجمال، لما فيه من حسن في العاقبة.

نسير على خطا سيدنا محمد و نصبر صبراً جميلاً و نقول: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٨].

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ... ﴿٨٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٤]، نعمل على سنّة رسول الله و شاكلته طلباً لرضا الله و وجهه الكريم و نقول: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [هود: ١١/ ١٢١-١٢٢]...

الاستغراق باسمه تعالى الصبور يُكسب المؤمنَ به بُعداً في النظر و رؤية جلية للغايات و النهايات يوم القيامة.

الإيمان بالاسم يُكسِب نضجاً و ثباتاً و تواصلاً بامتنان مع الذي عرّف الحقيقة للمؤمن و أعطاه المهلة ليفهم و ليحسن العمل و ليغنم، فالصبور كذلك هو نفسه الغفور و هو نفسه الرؤوف و الودود.

الحمد لله

الحمد لله و سبحانه و تعالى الذي من علينا بهذا الفضل.

محتوى الكتاب

القسم الثاني
في رحاب القرآن الكريم

القسم الثالث
أسماء اللّٰه الحسنى

كلمة الناشر

إنه من اللافت للنظر هذا الأسلوب الحاذق و المرهف الذي بدأ فيه المؤلف بطرح الموضوع في هذا الكتاب.

و لعل سمة الاختزال الأنيق و المعبّر المستخدمة في الكتاب، تطبع نصه بطابع خاص، فبقدر ما هو مختزل و مركّز، بقدر ما يحتوي على معلومات كثيفة غاية في الأهمية و لا بدّ منها لتحصيل فهم دقيق و صحيح للأفكار القرآنية المعروضة.

الكتاب فيه أفكار غير معبّر عنها صراحةً لكنها تحلق فوق النص بشكل يغري قارئاً ذكياً للتفاعل معها، و لتحريرها و تحويلها من الكمون إلى الفعالية.

وذلك يتطلب من القارئ حسّاً مرهفاً تجاه الكلمات القرآنية و تفاعلاً ديناميكياً معها، بحيث يحسن توظيفها في مكانها المناسب بما يخدم تكوين صورة متكاملة الجوانب للمواضيع المطروحة عن القرآن الكريم.

لقد مهد المؤلف لهذا التفاعل من خلال الطريقة المبتكرة و البديعة التي أدخل بها القارئ صلب الموضوع، جاعلاً إياه ضمن مجال إيقاع مناسب ليتلقى عقله النبضات التي ستفتح له بنور من اللّه تعالى الأبواب المناسبة للاستفادة من تلك الدرر النفيسة التي تحلق فوق النص.

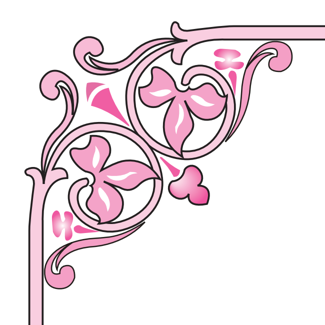
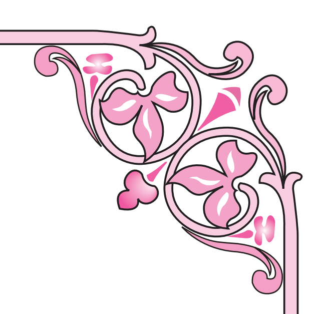
إن في الاختزال الأنيق لبعض جمل الكتاب التي تعرض جوانب الموضوع، دعوة رفيعة المستوى لقارئ ديناميكي لاستكمال و استنباط ما لم يُذكر فيها، و ذلك ترفعاً و احتراماً لعقل القارئ، الذي سيصبح في حالة تجاوب و تناغم مع الموضوع عندما يلمس بيده ذاك التكامل و المقابلة نتيجة لمشاركته في استنباطها.

من ناحية أخرى فإنه من خلال تلك المشاركة الفعالة، و إنْ استأنس بالنور و الهداية التي منّ اللّٰه تعالى بها عليه فإنه خلال جولته الأولى، سوف تلفت انتباهه إشارات و كلمات قرآنية أخرى ما هي إلا أبواب للدخول في رحاب القرآن الكريم، ليستزيد نوراً و هداية وليكون ممن قال عنهم سبحانه:

﴿... نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

[[النور: ٢٤/ ٣٥]].



المؤلف سليمان سامي الجوخدار

من مواليد دمشق ١٩٥٦ سليل عائلة عريقة بالعلم و المعرفة، كان منها:

والد جده الشيخ محمد الجوخدار من أواخر مُحدثي بلاد الشام، روى عن البخاري بالسند وكان قاضي بلاد الشام.

جده الشيخ سليمان الجوخدار كان نابغة زمانه، عُين قاضياً على الحرمين الشريفين و بلاد الشام، كما أسس معهد الحقوق في جامعة دمشق و كان وزيراً للعدل.

والده الدكتور إحسان الله الجوخدار نال مرتبة الدكتوراه الدولية في القانون من جامعة السوربون في فرنسا.

من خلال أسرته كان متمكناً من علوم إسلامية عليا مثل علم الحرف و علم الرقم، له أبحاث في مجال الدراسات الإسلامية وعلومها، قدم فيها نظرة مستقبلية و للمدى البعيد للإسلام و القرآن.

المؤلف باحث في مجال العمارة التاريخية و التي درسها في جامعة السوربون إضافة إلى دراسته الفنون التشكيلية في الجامعة نفسها.

أقام عدة معارض لأعماله الفنية عرض فيها لوحاته الهادفة والتي حمَّلها فكره الهادف وبُعد نظره المستقبلي.

له أبحاث مطورة في مجال التصميم و الابتكار في الفن و العمارة المقدسة.

كتب باللغة الفرنسية و الإنكليزية و له مؤلفات باللغة العربية.

